الأدب العربي الحديث

في معركة المقاومة والحرية والتجمع

١٨٣٠ - ١٩٥٩

غاية القول في هذا الكتاب : أنه كشف عن خطط الاستعمار الفكرية في التغريب والتجزئة وقد هزمت .

وخطط الأمة العربية في المقاومة والتجمع وتقوم على أساسه اليوم عوامل البناء للوحدة العربية الكبرى » .

أنور الجندي

مطبعة الرسالة
٢ شارع حمودة المقاول - عابدين

الفهرس المفصل

مراجع ص ٦٠١ و ٦٠٢ و ٦١٣ و ٦٢٦

مؤلفات أنور الجندى

عرائس البكارى ١٩٣٩
الانسانية فى الميزان ١٩٤٤
اخرجوا من بلادنا ١٩٤٧
أضواء على حياة الأدباء المعاصرين ١٩٥٥
الكتاب المعاصرون : اضواء على حياتهم ١٩٥٧
● تراجم المعاصرين ... ... (تحت الطبع)
رواد القومية العربية (مطبعة التحرير) ١٩٥٨
من رواد القومية العربية ... ... (ج٢) ... ... (تحت الطبع)
● رائد العرب (مطبعة المعارف بيروت) ... ... (تحت الطبع)
« جمال عبد الناصر » ٢ جزآن ... ... ١٩٥٥ — ١٩٥٦
قصة محمود تيمور (عيسى الحلبي) ١٩٥١
الامام المراغى (سلسله إقرأ) ١٩٥٢
جرجى زيدان ١٩٥٨
الاعلام الالف (ج ١) و ٢ ... ... ١٩٥٧ — ١٩٥٩
● امجادنا العربية ... ... (تحت الطبع)
العالم الاسلامى والاستعمار ١٩٥٨
الانتفاضه العربية (مطبعة المعارف بيروت) ٠٠٠٠
الادب العربى الحديث من المحيط إلى الخليج فى معركة المقاومة والتجمع ١٩٦٠
● معالم الادب العربى المعاصر ... ... (تحت الطبع)
فضائح الإحزاب السياسية (دار الجيب) ١٩٥٣
جولات فى الادب والفن والحياه ١٩٥٦
وراء كل فنان امراه (دار النشر الحديثة) ١٩٥٨
بلا أمل (قصة) ١٩٥٧
نقط فوق الحروف ... ... تحت الطبع
عظمة الإسلام ... ... تحت الإعداد
ذخائر القرآن ... ... « « »
أضواء على تاريخ الإسلام ١٩٥٧

إلى رائد العرب وقائد معركة القومية العربية
إلى الرئيس جمال عبد الناصر

« باسم الله » اقدم إليكم هذه الرسالة عن معركة المقاومه والتجمع فى الأدب العربى المعاصر من المحيط إلى الخليج ، هذه المعركة التى اضطرمت فى جوانب الأمة العربية قرنا وثلث قرن من الزمان منذ وضع الاستعمار يده على الجزائر عام ١٨٣٠ ومضت قوية ممتده لم تتوقف ولم تهن . وكانت ارهاصا ومقدمة واعداداً للانتفاضة العربية الكبرى التى حملتم لواءها بعد عامين من النصف الثانى للقرن العشرين ؛ اردت على ضوءها أن اكتب تاريخ الأدب العربى واليقظة الوطنية التى قاومت استبداد عبد الحميد وظلم الاتحاديين واستعمار بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وطغيان الملوك والحكام العملاء الذين كانوا اداة فى يد الغاصب ، اليوم لأول مرة يكتب تاريخ الأدب العربى موحدا ممتزجا من المحيط إلى الخليج على ضوء ما وصل إلى يدى من مراجع . وإنى حين أتشرف بأن أقدمها إلى سيادتكم إنما اعبر بها عن مدى أثر توجيه سيادتكم للفكر العربى المعاصر ، واتطلع أن تكون مقدمة لعمل اكبر عميق الأثر فى محيط ثقافتنا العربية . ذلك إنى ياسيدى قد كتبت هذه الصفحات من القاهرة كمقدمة لبحث ضخم ، ولكى تكمل هذه الصورة وتصل إلى مداها من العمق والاصالة بحيث تكون عملا نافعا لشباب الأمة العربية فإن الأمر الذى يتطلب جولة فى العالم العربى من المحيط إلى الخليج يرى فيها الكاتب المؤرخ ويسمع ويجمع مراجعه ومصادره . وهى أمنية تملأ نفسى وتشغل خاطرى ويقصر عنها جهدى ، فأنا اليوم إذ ارفعها إلى سيادتكم أكون قد وضعت الأمل فى أول طريق التحقيق والله جل علاه حقيق بأن يكتب التوفيق للعاملين ؟

أنور الجندى

بسم الله الرحمن الرحيم

تكاد معالم تاريخ الفكر العربى المعاصر تنحصر فى عملين كبيرين : هما « المقاومة » « والتجمع » وما سوى ذلك فهى مظاهر عامة أقل فى الدرجة من هذين العاملين الكبيرين ؛ بدات المقاومة مبكرة منذ اوائل القرن التاسع عشر ومضت تشق طريقها فى قوة ، تزداد مع الزمن عمقا وأتساعا وبراعة فى الأسلوب وقوة فى تسديد الضربات . وقد واجهت لونين من الوان العدوان : الاستبداد العثمانى الذى كان مخيما على الوطن العربى كله والاحتلال الفرنسى فى حملته بقيادة نابليون التى قدمت شواطى مصر عام ١٧٩٨ .

ومنذ ذلك الحين وإلى اليوم ماتزال المقاومه مستمره ، فقد امتدت من مقاومة العثمانيين الذين كانوا يحتلون العالم العربى كله منذ ثلاثه قرون إلى مقاومه الاستعمار الغربى فى مختلف صوره والوانه واشكاله : الفرنسى والبريطانى والايطالى ثم مقاومه عملاء الاستعمار الذين كانوا فى اغلب الاقطار هم حكام الوطن وزعمائه .

وفى نفس الوقت الذى كانت المقاومة مندفعه فى طريقها قويه ، كانت تزاوجها وتجاورها وتعمل معها حركه اخرى هى حركة « التجمع » تحمل الدعوة إلى الوحده والترابط .

وفى خلال هذه الفتره الطويلة الممتدة التى تبلغ قرنا ونصف قرن ، كان الاستبداد العثمانى يقاوم اليقظة ويعلق ابطالنا على المشانق « ارجوحة الابطال » وكان الاحتلال البريطانى والفرنسى من بعده يحصد رجالنا فى الميادين العامة

ويحرق القرى ويسفك الدماء بالجمله . ومع ذلك ظللنا نقاوم ، لم نستسلم ابدا ، كان الصف ينهار فيتقدم صف أخر ليحل محله ويواجه الرصاص بصدره العارى مؤمنا بحقه فى الحريه ، وما زلنا إلى اليوم فى خط النار نحمل السلاح .

ولذلك فان من يستعرض تاريخ الفكر العربى المعاصر يجده مصبوغا بلون الدم الأحمر القانى ، ويشم منه رائحه الثأر تملأ الصدور نحو اجزاء من الوطن العربى الكبير التى انتزعت انتزاعا ولم تعد بعد ، ولا بد أن تعود : هناك الاندلس وصقلية وفلسطين والاسكندرونه والجزائر .

ولعل الجزائر وحدها تعطى مثلا لصلابة المقاومة وعظمه الاصرار فهى أول قطر عربى وقع فى اسر الاحتلال الفرنسى ، وهو مايزال يجاهد حتى اليوم دون توقف أو فتور عن الحرب فى مدى قرن وثلث قرن

وقد كشف هذا الصراع الطويل المدى عن جوهر الأمة العربيه وأبرز معالم قوتها وبطولتها وقدم فى خلال هذا الزمن نماذج من المحاربين والمفكرين والكتاب والاحرار الدعاه ترسم صورة صادقة للفكر العربى فى مرحله هامة من تاريخه ، يجب أن نعرض عرضا شاملا اليوم ، وهو على أبواب مرحلة جديدة هى مرحلة التئام الصدع وتجمع الاجزاء وترابط الجوانب بعد أن طال بها التمزق والفرقه والصراع الخارجى مع الاعداء ، والصراع الداخلى مع العملاء ، ولقد كان من الطبيعى لمن يرسم صورة الحياة الفكرية لهذه الفترة أن يبدأ من أوائل القرن التاسع عشر الذى يعد فى نظرى علامة البدء الحقيقى للصراع ، لانستثنى من ذلك إلا « الحركة الوهابية » التى بدأت فى نهاية القرن الثامن عشر والتى تمثل فى الواقع أول علامة من علامات اليقظه فى العالم العربى بعد هذه المرحلة الطويلة من الاستغراق فى الغفلة والضعف فى ظل حكم الدولة العثمانية . فلما جاء نابليون إلى شاطىء الاسكندريه عام ١٧٨٩ كان هذا «هو الضوء» الاحمر على نيات الغرب

تجاه العالم العربى وكان مجىء اسطول نلسون البريطانى قبل وصول نابليون انذاراً بهذا الصراع الطويل الذى قام بين بريطانيا وفرنسا على المنطقة العربية خلال هذا المدى الطويل وحتى حرب السويس التى اشتركا فيها معاً عام ١٩٥٦ .

وقد كانت الخطه الاوربية هى سحق تركيا العثمانية وتمزيق امبراطوريتها الضخمة وتوزيعها فيا بينها ، ولذلك فقد عمدت إلى تحطيم قوة مصر واسطولها فى «نفارين» إبقاءاً على تركيا فى حاله الموت ليمكن تمزيقها من بعد .

وفى خلال القرن التاسع عشر بدأت أوربا تنفذ خطتها فاحتلت الجزائر ومصر ، وحفرت فتاة السويس ، وسحقت محمد على وثوره المهدى فى السودان .

وبدأت «المقاومه» باكره فى أول القرن التاسع عشر فسحقت مصر الحمله الفرنسيه ، ووقفت الجزائر فى وجه فرنسا . وقاومت السودان الاستبداد العثمانى ، ثم كانت الثورة العربية والسودانية وظهرت يقظه مصر التى ردت حمله فريزر البريطانية.

وظهر فى القرن التاسع جمال الدين الافغانى الذى اجج الثورة على الاستعمار البريطانى والاستبداد العثمانى معاولم يلبث السلطان العثمانى أن اعلن الدستور مضطرا فى أوائل القرن العشرين ١٩٠٨ ثم سقط فى العام التالى واعلنت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ حيث سقط الوطن العربى الذى تحرر من الاستعمار التركى، فى يد الاستعمار الفرنسى والبريطانى .

عندئذ قامت الثورات واندلعت حركات المقاومة فى كل جزاء الوطن العربى تواجه الاستعمار فى قوة ، وتقدم شهدائها وضحاياها فداءاً للحريه .

وفى ظل الاستعمار الغربى بدأت حركات «التمزيق» للوطن العربى ، وسحق مقاومته عن طريق الفكر ، ومحاربة اللغة والدين ودعوات التغريب .

قاومت الأمة العربية ذلك كله واستطاعت بعد أعوام من الضعف أن تتغلب على هذه الدسائس والسموم فقد كانت الاقلام تقوم بدور الدفاع عن مقومات الشخصية العربية ، حين عزت الاسنه . وكان عملها خطيرا وبالغ الأهمية فقد رد

الضالين واكد ثقة المؤمنين ، وصاول أصحاب افكار دعاة التغريب وسحق دعواهم ، واضطرهم اخيرا أن يرجعوا عما كانوا قد آمنوا به وعملوا له سنوات طوالا مخدوعين بالافكار الغربية .

وفي خلال القرن التاسع عشر كانت هناك دعوات اصلاحية ضخمة : الدعوة الوهابية في الحجاز تقاوم العثمانية ، والدعوة المهدية في السودان ومقاومة عبدالقادر الجزائري في المغرب والدعوة السنوسية في ليبيا وجمال الدين الافغاني في مصر والالوسي في العرق ومحمد عبده في سوريا ومحمد بيرم في تونس .

وفي ميدان الفكر كان هناك رفاعه الطهطاوي في القاهرة ، واحمد فارس الشدياق وناصيف اليازجي وبطرس البستاني في بيروت ، وطاهر الجزائري في دمشق .

وما كاد القرن التاسع عشر أن ينتهي حتى كانت هناك اصوات قوية مدوية : صوت عبدالله نديم وعبد الرحمن الكواكبي والزهاوي والرصافي ورشيد رضا وعبد القادر المغربي وشكيب ارسلان وعبد المحسن الكاظمي وعمر المختار وعبد الحميد بن باديس .

ولكن القرن العشرين الذي لم تكد تنقضي أعوام ثمانية منه حتى انهزمت الدكتاتورية الاستبدادية العثمانية ممثلة في عبد الحميد ، كان يحمل أضخم مؤامرة على الأمة العربية ، تلك هي تجمع الاستعمار البريطاني الفرنسي الإيطالي الصهيوني ليمزق هذه الرقعة تمزيقا ويتحكم فيها تحكما ويتسلط عليها تسلطا يستهدف سيطرته الكاملة الدائمة فيحطم اللغة العربية ويمزق أواصر الروابط السياسية والاجتماعية ويثير بينها الخصومات ويوقظ بها النعرات المذهبية وينبش الماضي القديم قبل الاسلام ليحاول أن يعيد إليه الحياة . ولكن المعركة كانت قد بدأت منذ أول يوم ، بدأت مع العثمانية الطورانية التي أرادت أن تدمج العرب في الإمبراطورية وتقضي على اللغة العربية والكيان العربي ، فلما انهزمت تركيا استمرت المعركة

نفسها مع العدو الجديد الذى سيطر على المنطقة وبدأ يحارب القومية العربية بأساليب العلم والمال والغدر والقتل وافتعال المعارك وتعليق المشانق والقضاء على كل من يحاول أن يرفع رأسه أو يحمل علم المقاومة . ومضت الصفوف تتقدم للاستشهاد وتتقبل فى صدورها رصاص المستعمرين ، ثم تتقدم صفوف أخرى ، والعلم مرفوع ، ونداء « الكلمة » قوى يهز المشاعر ويملأ الصدور بالإيمان ويزيدها قوة على مواجهة الموت فى سبيل الحرية والتجمع والمقاومة . وعاش الفكر العربى أدق مرحلة فى حياته ، عاش فى خضم المعركة يقود المعركة ويدفعها إلى الأمام ، ويجعل من دماء الشهداء ناراً تغلى فى الصدور ومن أقاصى أطراف الأمة العربية قوى تتجمع وتتنادى وتتلاقى على الآمال والآلام ، ومن ثم نجحت معركة « المقاومة » وحققت أهدافها . ومضت معركة « التجمع » فى طريقها حتى بلغت أقوى مراحل قوتها وكينونتها ذات الفاعلية الواضحة مع الثورة المصرية العربية بعد النصف الثانى من القرن العشرين بعامين بقيادة جمال عبد الناصر .

ولقد كان من الضرورى أن يظهر هذا البحث بهذه الصورة اليوم ، ونحن فى أعماق معركة القومية العربية . فان الأدب العربى المعاصر منذ بدأ الاستعمار يسيطر على بلادنا قد اتجه إلى العمل فى معركتين متجاورتين هما « المقاومة » و « التجمع » وقد استعرضت الأدبى العرب المعاصر فى العالم العربى كله على قدر ما وصلتنى المراجع فوجدت أن نسبة كبرى تبلغ على الأقل ثلاثة أرباع هذا الأدب — شعراً ونثراً — كانت وطنية تهدف إلى مقاومة الاستعمار والدعوة إلى التجمع الداخلى فى الوطن الواحد ، والتجمع فى المنطقة ثم التجمع فى الوحدة العربية الكبرى . أما الربع الباقى من الانتاج العربى فقد كان شاملا لألوان الأدب العربى المختلفة من غزل ورثاء وهجاء ووجدانيات وموضوعات عامة ولذلك فقد كان من الضرورى أن ندرس هذا الجانب الضخم من الأدب

العربى دراسة واسعة شاملة موحدة ، فلا يقف كل قطر على حده ، وإنما يتداخل فى «كل» مشترك شامل . ولقد حاولت هذه المحاولة ، وأشهد أنها عمل ضخم خطير. يحتاج إلى جهود كبيرة ولكنى أردت أن أكون «رائداً» فى هذا المجال ، ولذلك آثرت أن أقدم نماذج كثيرة متعددة فى كل مناسبة، وإن لم أحط هذا العمل بالشمول الذى أرجوه والذى يستحقه فانى آمل أن يكون هذا العمل « مقدمة » لعمل أكبر يتحقق لى ابداعه بعد القيام بجولة فى العالم العربى اتصل فيها اتصالا فعليا بالمصادر والأدباء والمفكرين وأعيش معهم المعركة .

وقد قسمت الموضوع إلى أربعة عناصر كبرى :

١ — « الاستبداد والمقاومة » عن الفترة من ١٨٥٠ — ١٩١٥ .

٢ — « التجزئة والتجمع » عن الفترة من ١٩١٦ — ١٩٥٢ .

٣ — استعراض شامل لمعركة المقاومة والتجمع فى كل قطر من الأقطار العربية على حده .

٤ — (المعارك) : معركة المقاومة والتجمع ، معركة التجزئة والتغريب ، معركة اللغة العربية ، دور الصحافة ، أدب المرأة ، دور المسيحيين ، أثر الاستشراق والترجمة .

٥ — معركة الوحدة الكبرى .

وفى الفصل الأخير « ملامح الأدب العربى الحديث » تجد عصاره البحث كله وإنى أرجو أن أكون قد وفقت إلى تقديم أول عمل جماعى شامل فى دراسة الأدب العربى المعاصر .

« ا٠ج »

- ١ -

مقدمات البحث

١ ـ الاستبداد والمقاومة

دراسه للفترة من ١٨٥٠ إلى ١٩١٥

٢ ـ التجزئة والتجمع

دراسة للفترة من ١٩١٦ إلى ١٩٥٢

الاستبداد والمقاومة

١٨٣٠ — ١٩١٥

— ١ —

أبرز الأحداث من فجر اليقظة الفكرية العربية : مقاومة العرب لاستبداد عبد الحميد ويمثل عبدالحميد طغيان العثمانيين الذين يحكمون العالم العربي ويقف على رأس المقاومة جمال الدين الأفغاني . وطغيان عبد الحميد عنوان على استبداد ضخم ، يتمثل فى حكم أسرة محمد على وإسماعيل وتوفيق وعباس ويتمثل فى تسلط الولاة الترك فى السودان وليبيا وتونس والجزائر ومراكش والشام ولا يقف جمال الدين الأفغانى وحده وإنما يقف معه كثيرون من القادة : محمد عبده والمهدى والسنوسى والألوسى وطاهر الجزائرى وخير الدين التونسى والثعالبى وعبد الحميد ابن باديس وعبد الله نديم والكواكبى والرصافى وأديب اسحق . كان السلطان عبد الحميد هو أبرز شخصيات منتصف القرن التاسع عشر :تولى الحكم ١٨٧٦ وعزل عام ١٩٠٩ وكان قد أخرّ إصدار الدستور أربعين عاما واضطر تحت ضغط جمعية الاتحاد والترقى إلى إعلان الدستور فى ٢٤ يوليه ١٩٠٨ . وفى ١٧ ديسمبر ١٩٠٨ افتتح البرلمان . ولأول مرة فى حياته حضر هذا الاجتماع الخطير وعاد المنفيون وخرج المسجونون وتحررت البلاد ودوت فى مختلف العالم العربى رنه فرح لم تلبث أن ماتت(١) . وقد صور سليمان البستانى الموقف فى العالم العربى أبان حكم

---

(١) من كتاب ذكرى وعبره : الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده (١٩٠٨) طبع فى مصر .

عبد الحميد فقال : « فى عصر ليس للعصور السالفة يساق الناس فيه سوقا ويتخذ فيه من دون الله أربابا ظالمون ، فالحكومات الدستورية قد انتشرت من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق وكواكب الحرية قد سطعت من حولنا . هذا وأرباب الأمر فينا يودون بقاءنا فى ظلمة مدلهمة ، فمعظم الشكوى إذاً ليس من الاستبداد بمعنى الحكم المطلق . وإن كانت دولة هذا الحكم قد دالت وإنما هو من الاستبداد بمعنى الحكم الجائر الذى أباح الموبقات واستباح المحرمات . استبد حكم الانزال برقاب الرجال فنكس الرءوس وأذل النفوس . استبداد لا مرشد له إلا التعنت عن هوى تميل به النفس إلى حيث لا تدرى . . . » . « . . هذه القيود والأغلال فى أعماق السجون تكاد تشتبك غيظاً لكثرة ما أثقلتها المعاصم والأقدام . وهذه بنغازى وبعض المدن النائية من أطراف السلطنة تضج منتخبه لما ترى من شقاء المبعدين . بل هذا البسفور يوشك أن يفور تلهفاً على تلك الجثث فيقذف بها إلى ثغريه خشية أن تبيت دفينة فى بطون الحيتان . كم من جريدة الغيت . أو أوقفت لزمن محدد لخبر روته عن جرائد أوربا ينبىء بمقتل وزير فى الصين ، أو أمير فى أفريقيا . . أو اختراع ذكرته لآله تطير فى الهواء . أو غواصة تسير تحت الماء . بل كم من مرة فاجأ الجريدة أمر بتعطيلها . وظل صاحبها يبحث أشهراً فلا يعلم لذلك سببا غير (الايجاب) . بل كم من مرة انقضت الصواعق على رأس الصحاف لجهله إن هذه الكلمة أو تلك قد انتزعت بحكم الاستبداد من معجم الألفاظ الكتابية كالقاموس الأساسى والخلع وما اشتق منه ، والجمهورية والديناميت والثورة والانصاف والحرية ، أو أن عبارة أو جملة وجب حذفها من أبواب الانشاء كقولك : العدل أساس الملك والظلم مرتعه وخيم والحرية منتهى غايات الأمم . بل الويل كل الويل لمن ذكر حرفا عرف به علم مشهور كعبد العزيز ومراد ورشاد . . » . تولى عبد الحميد الحكم

والعالم العربى يكاد يكون كله فى ظل سلطانه . ولم يلبث أن ثارت الأقطار كلها على الظلم العثمانى . ثار السودان على الظلم التركى وقام المهدى بثورته ، وسوريا ثارت على الظلم التركى أيضا ، وثارت العراق ، وقاومت ليبيا وتونس والجزائر ومراكش . كانت الإدارة فى الدولة تبدأ بالولاية ويديرها وال يرتبط مباشرة بمركز الخلافة يقيم سلطانه فى القطر الذى يحكمه على العسف والاستبداد . قسمت سوريا إلى ثلاث ولايات : حلب ودمشق وبيروت وسنجقين هما القدس وجبل لبنان . وقسم العراق إلى ثلاث ولايات : بغداد والموصل والبصرة وسنجق واحد هو سنجق دير الزور . كان مدحت أول وال طبق نظام الولاية فى العـــراق . ولم يتمكن الأتراك من بسط سلطانهم على اليمن . وظل اليمانيون يثورون على ولاة الأتراك . وفى الحجاز عين لأول مرة وال عام ١٨٤١ وكان السلطان يستمد نفوذه مزدوجا من هذا الوالى ومن أسرة الأشراف . وكان عبد الحميد يسيطر على تونس وطرابلس الغرب ومصر والسودان والجزائر . وبدأ الانجليز والفرنسيون يتدخلون فى العالم العربى ويحطمون سلطان العثمانيين فاستولوا على جزر الخليج وشواطىء البحر الأحمر حيث عقدوا اتفاقا مع إمارة مسقط الواقعة فى مدخل الخليج واحتلوا عدن وحضرموت عام ١٨٣٩ . وبدأت فرنسا بالاستيلاء على الجزائر عام ١٨٣٠ بعد قتال دام خمسة عشر عاما بقيادة عبد القادر الجزائرى واستولت عليها فرنسا ١٨٨١ واحتلت بريطانيا مصر والسودان عام ١٨٨٢ وبذلك خرج ساحل افريقيا الشمالية بأجمعه من سلطان الخلافة ما عدا طرابلس الغرب التى قاومت الايطاليين عام ١٩١٢ ثم وقعت فى أسر الاحتلال . وكان عبد الحميد فى طغيانه يلقب « بالخاقان الأكبر حامى الحرمين ؛ سلطان البرين والبحرين . ظل الله فى أرضه » . وقد ألغى الدستور الأول بعد إعلانه بقليل فى ١٣ شباط

فبراير ١٧٨٨ ثم أرغم على إعادته عام ١٩٠٨ وفى فترة الثلاثين عاما بين الإلغاء والإعادة كان عبد الحميد يعيش فى قة الاستبداد ؛ ينفى ويقتل ويشرد دون حساب . وفى خلال هذه الفترة كان هناك جمال الدين الأفغانى أول مقاوم للاستبداد العثمانى والاحتلال البريطانى فمنذ بداية القرن التاسع عشر غزت فرنسا الأرض العربية فى مصر ثم قامت مصر لتقود حركة عربية ضخمة أثارت عليها الدول الغربية وتم سحق قوتها فى نفارين . وعمدت تركيا إلى الحركة الوهابية الشابة فسلطت عليها محمد على الذى حاربها . ولم تلبث فرنسا أن حاربت الجزائر وقاومت الجزائر عام ١٨٣٠ مدى خمسة عشر سنة بقيادة الأمير عبد القادر الجزائرى ثم انهزمت فرنسا فى مصر عام ١٨٠٠ وبريطانيا عام ١٨٠٧ ولكن لم تمض ثمانين عاما حتى عادت بريطانيا إلى غزو مصر واحتلالها . وكان الموقف بعد منتصف القرن التاسع عشر على الوضع الآتى : السودان بها ثورة المهدى . الحجاز بها ثورة الوهابيين . ليبيا بها ثورة السنوسى . الجزائر بها ثورة عبد القادر الجزائرى . مصر بها الثورة العرابية . والألوسى فى العراق . وكانت كل هذه الثورات الفكرية التى تحمل طابع الدعوات الفكرية الدينية إنما تستهدف التحرر من الاستبداد العثمانى فهى فى واقع أمرها حركات تحررية تقدمية . كانت دعوة جمال الدين الأفغانى تمثل روح المقاومة والتجمع معاً . وتراوح بين مقاومة الاستبداد العثمانى والملكى المثل فى السلطان والخديوى والشاه والاستعمار الغربى ممثلا فى الاحتلال البريطانى الذى كان قد بدا يزحف على العالم العربى ويحاصره فقد بدا جمال الدين الأفغانى حركة مقاومته منذ عام ١٨٥٦ وكان له أثره الضخم فى ثورات مصر والسودان . كما كانت الحركة الوهابية التى بدأت فى الحجاز فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر (١٧٩٨) لها أثرها فى كفاح عبد القادر الجزائرى الذى ظل يقاوم فرنسا من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٧ (سبعة عشر عاما) ولم

تكن هزيمته إلا بدأ مقاومة جديدة في المنطقة وقد عاش جمال الدين الأفغاني حتى عام ١٨٩٦ ففي خلال هذه الأربعين عاما ، كانت ثورته الفكرية قد أثرت أبعد الأثر في الخطوات التي تمت فيما بعد . أثرت في الكتاب والمفكرين من أمثال أديب إسحق والكواكبي ورشيد رضا وشكيب أرسلان وناصيف اليازجي وبدأت تتبلور أوائل هذا القرن في صوره القومية العربية الواضحة المعالم . دعوات المهدي في السودان ، والسنوسي في لبيا امتداد للدعوة الوهابية في الحجاز ، وفي الجزائر ومراكش وتونس كانت هناك آثار قوية لهذه الدعوة فقد زار محمد عبده تونس ، وترك فيها تلاميذ ، وكانت جامعتي القرويين والزيتونه فيها رمز على حركة المقاومة والتحرر بالإضافه إلى أعمال خير الدين التونسي ومحمد السنوسي .

وقد كان جمال الدين الأفغاني مثلا عاليا ورمزاً قويا على حركة المقاومة .

قال للخديو توفيق : ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص أن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى وافراده ينظرون إلى سموكم وأن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم في أشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى يكون ذلك اثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم وكان توفيق قد قال له : مع الاسف أن اكثر الشعب جاهل خامل لايصلح لما يلقى علية من الدروس. وقال جمال لقيصر روسيا : أن عرش الملك — إذا كان الملايين من الرعية أصدقاء له خير من أن يكونوا اعداء يترقبون الفرصه ويكنون في الصدور سموم الحقد ونيران الإنتقام .

وقال لشاه فارس : أعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوري أعظم وانفذ واثبت مماهم الآن والفلاح العامل والصانع ياحضرة الشاه انفع من عظمتك واسمح لاخلاصى

أن أؤديه صريحا قبل فوات وقته . ولا شك ياعظمه الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك . ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية . ولما سئل لماذا يلعب بحبات مسبحته فى حضرة السلطان عبد الحميد قال : سبحان الله أن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمه على هواه . وليس من يعترضه منهم ، افلا يكون لجمال الدين حق أن يلعب بمسبحته كيف يشاء » وهكذا اشعل جمال الدين الأفغانى نار الحرب على الاستبداد العثمانى والاستعمار البريطانى معا، فقامت الثورة العرابية وقاوم عرابى الانجليز وقاومت السنوسية إيطاليا فى طرابلس . وانتهت الحركة الفكرية التى كانت تحمل الطابع الدينى وبدأت دعوات المقاومة تسفر على وجهها العربى الواضح على نطاق واسع .

— ٢ —

مقاومة الاستبداد

أشتعلت نار المقاومة الفكرية ضد عبد الحميد والسلطنة العثمانية وأنطلقت الألسنة والأقلام فى كل مكان . الصحافة والشعر والنثر . وتكونت الجمعيات السرية وبدأت حرب المنشورات . كانت الأقلام تهاجم فى عنف . الزهاوى والرصافى والكاظمى والشبيبى فى العراق . والبارودى وحافظ وشوقى ومحرم ونسيم وأديب إسحق فى مصر والكواكبى فى حلب والثعالبى ومحمد بيرم الخامس فى تونس وعبد الحميد بن باديس فى الجزائر والبستانى فى لبنان وشهاب الدين الألوسى فى بغداد وعبد القادر المغربى وإبراهيم اليازجى ومحمد كامل القصاب ومحب الدين الخطيب وطاهر الجزائرى فى سورية ورشيد رضا ونوفل نوفل فى طرابلس والسلاوى فى مراكش . وبدأت هذه الثورة الفكرية الضخمة تأخذ صوراً مختلفة ولكنها كانت كلها تنصب على هدف واحد هو التخلص من عبد الحميد ومن الاستبداد العثمانى

يقول اديب إسحق (١٨٨٠) : « لقد عرف الناس شرور الاستبداد ، وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضا به وصار الأمر شورى عند جميع الأمم المتمدنه إلا الروسيا ، وذلك أن صحت تسميته الدوله المستبدة مطلقا بدولة متمدنة وأن ثورة فرنسا برزت إلى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ورفعت سطوة التقاليد فضعضعتها ورفعت عن العيون نقابها وعن النفوس حجابها فأنست من جانبها نور الحرية ، وخلعت جلابيب الرق والعبودية فتصدى لها أعوان الرق وأنصار العبودية وما آلوا فى قتالها جهدا فلقيتهم وهى ترى الموت فى الحرية حياة . والحياة فى الرق موتا : فلم يبلغوا منها قصداً ورسخت فى عالم الوجود

قدمها وأدهشت الدنيا بشدة حولها» . وتحدث ابراهيم اليازجي فى البائية المشهوره التى نظمها عام ١٨٩٦ لأول مره عن القومية العربية :

تنبهوا وأستفيقوا ايها العرب ... فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعنا ... وانتم بين راحات القنا سلب
كم تظلمون ولم تشكون وكم ... تستغضبون ولا يبدو لكم غضب
السم من سطوا فى الأرض واقتحموا ... شرقا وغربا وعزوا اينما ذهبوا
فما لكم ويحكم اصبحتم هملا ... ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكم يشتد أزركم ... بها ولا ناصر للخطب ينتدب
اقداركم فى عيون الترك نازلة ... وحقكم فى إيدى الترك مغتصب
فشمروا وانهضوا للامر وابتدروا ... من وهركم فرصة ضنت بها الحقب

وقد كانت هذه هى الصحيه الأولى تلتها صيحات من بينها قول جميل صدق الزهاوى ، عن ظلم الاتراك واستبداد العثمانيين[1] والهجوم على السلطان عبد الحميد .

أيأمر ظل الله فى أرضه بما ... ينهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مال وينفى مبرأ ... ويسجن مظلوما ويسبى ويقتل
تمهل قليلا لا تغظ أمة إذا ... تحرك فيها الغيظ لاتتمهل
وأيديك أن طالت فلا تغترر بها ... فإن يد الأيام منهن أطول
وما هى إلا دولة مستبدة ... تسوس بما تقضى هواها وتعمل
فترفع بالاغراز من كان جاهلا ... وتخفض بالازلال من كان يعقل
فمن كان فيها أولا فهو آخر ... ومن كان فيها آخر فهو أول
ألا إنما بغداد قد أصبحت بهم ... يهددها داء من الجهل معضل

(١) ديوان اللباب . مطبوع فى نوفبر ١٩٢٨ — القاهرة .

وقد عبثت بالشعب اطماع ظالم يحمله من جوره ما لا يحمل

وبلغ قمة المقاومة للاستبداد العثمانى « عبد الرحمن الكواكبي[1] » الذى جاهر بمقاومة عبد الحميد فى حلب واستطاع أن يفلت من قيود العهد الحميدى الثقيلة فهاجر إلى مصر بعد أن قاسى صلف الحكام وعنت المستبدين .

وقد وصف مقالاته التى نشرها فى المؤيد وهاجم بها الاستبداد وجمعها فى كتابه «طبائع الاستبدادومصارع الاستعباد بقوله : كلمات حق وصيحة فى واد : أن ذهبت اليوم مع الريح فقد تذهب غداً بالاوتاد » .

ومن كلماته قوله : الحريه ؛ هى شجرة الخلد وسقياها قطرات من الدم المسفوح والإساره هى شجرة الزقوم وسقياها أنهر من دم المخاليق المخانيق

وقد صور الاستبداد بقوله:

« الاستبداد » داء أشد وطأة من الوباء ..أكثر هولا من الحريق . وأعظم تخريبا من السيل أذل للنفوس من السؤال . داء إذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادى : القضاء القضاء . والأرض تناجى ربها بكشف البلاء . كيف لا تقشعر الجلود من الاستبدادوعهده عهد أشقى الناس فيه العقلاءوالأغنياء وأسعدهم الجهلاء والفقراء بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الاحياء

«ولو كان الاستبداد رجلا أو أراد له أن ينتسب لقال : أنا الشر وأبى الأساءه وامى الغدر . وأختى المسكنه وعمى الضر وخالى الذل وابنى الفقر وبنتى البطالة ووطنى الخراب وعشيرتى الجهاله .

« ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء اعداؤه فكراً وأوتاده عملا . فهم ربائط المستبد . يذلهم فيئنون ويستدرجهم فيحنون . ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغبياؤها أماالفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجه من الذئاب ويتحبب

---

(١) توفى فى ٢ يونيه سنة ١٩٠٢ .

إليهم ببعض الأعمال التى ظاهرها الرأفه . والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءه ونذاله.خوف البغاث من العقاب فهم لا يجسرون على الافتكار فضلا عن الأفكار فكأنهم يتوهمون أن داخل رؤوسهم جواسيس عليهم. وقد يبلغ فساد الأخلاق من الفقراء أن يسرهم فضلا عن رضاء المستبد عنهم بأى وجه كان رضاءه .

«والاستبداد بقلب الحقائق فى الأذهان : حتى أنه قد يكن بعض القياصره والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييدا لاستبدادهم .

« وقد جعل الاستبداد الرعيه خادمة للرعاه . وقد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أن طالب الحق فاجر . وتارك حق مطيع ، والمستشكى المتظلم مفسد . والنبية المدقق ملحد . والخامل المسكين هو الصالح الأمين . وقد اتبع الاستبداد فى تسمية النصح فضولا والغيرة عداوه . والشهامة عتوا . والحمية جنونا والإنسانية حماقة ، والرحمة مرضا . كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة ، والتحيل كياسه والدناءه لطفا والنذالة دماثة . وقد يبلغ فعل الاستبداد بالامه أن يحول ميلها الطبيعى من طلب الترقى إلى طلب التسفل . بحيث لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الاجهر من النور : وإذا الزمت بالحرية تشقى . وربما تضنى . يطيب لها المقام على أمتصاص دم الامة فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها .»١٠ ه

— ٣ —

الحياة الفكرية فى أوائل القرن العشرين

أهل عام ١٩٠٠ بداية قرن ونهاية قرن والعالم العربى كله يغلى . لم يكن الدستور العثمانى قد صدر بعد . كانت القاهرة موئل الأحرار الذين هربوا من عسف عبد الحميد ، كان الشمال الأفريقى قد أوشك أن يسقط كله فى قبضة الاستعمار الغربى بعد أن سقطت مصر والجزائر وتونس والسودان .

ولكن اليقظة كانت قد شملت كل مكان . كانت معركة الصراع قد بدأت فعلا . اصداء الدعوة الوهابية تتبلور فى محاولة محمد عبده لاخراج الدين من الجمود ، وإصداء دعوة جمال الدين تتطور إلى رسالة الكواكبى فى انشاء وطن عربى حر يحطم الاستبداد.ورسالة الريحانى فى بذر بذور الحرية والقصاء على الطائفية ورسالة الزهاوى فى الدفاع عن حرية الفكر ورسالة الشميل فى إشاعة روح العلم والقضاء على المشعوذين.ورسالة قاسم أمين فى سبيل تعليم المرأة والنهوض بها .

وكان هناك فى نفس الوقت جماعات قد هاجرت إلى أمريكا وجماعات أخرى فى طريقها إلى المهجر من مختلف أنحاء الشام . .

كان الأدب يمثل ألوانا أربعة[1] أدب الولاء للجامعة العثمانية ممثلا فى أحمد شوقى وخليل الخورى وناصيف اليازجى وأحمد فارس الشدياق ومصطفى كامل (٢) أدب إثارة الصبية العربية ممثلا ابراهيم اليازجى ورزق الله حسون وسليم سركيس وعبد الرحمن الكواكبى (٣) أدب الانتقاد للإدارة الحميدية مع المحافظة الولاء للعثمانية ممثلا من الزهاوى والرصافى وولى الدين يكن وأديب اسحق (٤) أدب الدعوة للغة العربية ممثلا فى حافظ ابراهيم والرافعى والرصافى ومحمد

(١) هذا التقسيم للاستاذ انيس المقدسى من كتاب « العواطف القومية فى الأدب العربى الحديث » .

الهاشمى. وكان العالم العربى يعيش فى حركتين معا: حركة فكرية تمهد للثورة والتحرر من الغرب وحركة مقاومة مسلحة تتأهب للعمل . تنتظمها جماعات سرية فى كل مكان فى العالم العربى . وما أن يمضى القرن الجديد فى أعوامه الأولى حتى تبرز الحركة الفكرية فى صورة قويه باهرة عنوانها المقاومة : جمال الدين الأفغانى رد على ارنست رينان ومحمد عبده رد على هانا تو وقاسم أمين رد على الدوق دار كوا . هؤلاء الكتاب الفرنسيين هاجموا مصر العربية وتصدى لهم هؤلاء الأعلام . وكان أبرز أصوات القرن الجديد الدعوة إلى مقاومة العثمانية وقد وصف أديب اسحق هذه الدعوة بأنها «شعلة سرت من الحجاز فأنارت الشام والعراقيون ومصر والمغرب : أتحسبون ذلك الصوت لا يكون له صدى » . وكان الكواكبى قد قدم القاهرة عام ١٩٠٠ بعد أن ضاق ذرعا بوطنه ورحب به على يوسف ورشيد رضا وكرد على ورفيق العظم والنجار . وكانت كلمات جمال الدين لا تزال ترن فى الأذان « هبوا من غفلتكم . وأصحوا من سكرتهم وعيشوا أحرار سعداء » . وكانت الثورة العرابية قد غدر بها وكذلك الثورة المهدية فى السودان ومضى الكواكبى يكمل رسالة جمال الدين من ناحية ويكملها محمد عبده من ناحية أخرى وانفسحت صدور الصحف لحملات على الخلافة العثمانية . وكان الكواكبى يوقع مقالاته فى المؤيد بأمضاء الرحالة (ك) . وقد أتصل عدد كبير من مفكرى تلك الفترة بجمال الدين الأفغانى . عرفه بعضهم فى مصر وعرفه البعض الآخر فى الاستانه ، عرفه عبد الله نديم وشكيب أرسلان وعبد القادر المغربى والكواكبى فكان فى الحقيقة هو رابطة العقد فى النهضه التى حملها رجال تلك الفترة . وكان لهب الحرب التى شنها على الاستبداد والمستبدين ما يزال قوى الأوار فقد دعا إلى الخطابه والكتابه وطالب بالحكم

النيابى والاصلاح الدينى واثارة الجماهير . وكانت مقالاته فى جريدة مصر التى كان يصدرها « اديب إسحق » أحد تلاميذه بامضاء « مظهرين وضاح » وفى جريدة التجارة وفى « ضياء الخافقين » بامضاء السيد الحسينى ،ما تزال قريبة إلى الأذهان

وكانت مجموعة العروه الوثقى التى أصدرها جمال الدين ومحمد عبده فى باريس تحمل خميرة الثوره على الاستبداد والاستعمار معا . وكان النديم الذى اختفى بعد الثورة العرابية قد ظهر فى أواخر الثوره وأصدر جريدة «الأستاذ» يناهض بها الاحتلال الانجليزى ويكتب فى جريدتى مصر لأديب إسحق والتجارة لسليم نقاش

ولعل أبرز صورة فكرية فى هذه الفترة هى صورة « الاستبداد »

صورها الافغانى فى قوله « أن الغرب مناهض للشرق والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى الصدور كما كانت فى قلب بطرس الناسك وأنها تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للاصلاح والنهضه . »

« لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولمت شعث التصور ونظرت إلى الشرق واهله واستوقفنى الافغان وهى أول أرض من جسمى ترابها ثم الهند وفيها تثقف عقلى فأيران بحكم الجوار والروابط . فجزيرة العرب من حجاز هو مهبط الوحى ومن يمن وتبابعتها ونجد والعراق وبغداد وهارونها ومأمونها والشام ودهاة الأمويين فيها والاندلس وحمرائها . وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام وما آل إليه أمرهم فخصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه فوجدت أمثل أدوائه داء أنقسام أهلة وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم إلى الخطر الغربى المحدق بهم والدعوة إلى مكافحة الاستبداد وطلبت حكم الشورى وتحرير الدين مما أدخل عليه من فساد فى عقيدة الجبر والخطأ فى فهم القضاء والقدر . »

وصورها الكواكبى فى قولة : أن داءنا الدفين دخول ديننا تحت ولاية الجهال

المتعممين ثم يجرى على لسان أحد شخصياته . أن المتعممين فى البلاد العثمانية كانوا قد أتخذوا لانفسهم قانونا سموه طريق العلماء من شأنه أن يصبح العلم منحة رسمية وأن الرجل يرقى مراتب العلم بمجرد تقادم السنين . أن الألقاب التى يضفيها السلطان على هؤلاء لها مقابل هو أن يضفى هؤلاء بدورهم على السلطان القابا كصاحب العظمة والجلالة . وظل الله وخليفة رسول الله وسلطان السلاطين ومالك رقاب العالمين وملجأ أهل الخافقين وبانى الدنيا والذات الأقدس إلى غير ذلك من صور الشرك » .

٢ — القاهرة

وقد صور محمد كرد على الكاتب الدمشقى الحياة الفكرية فى القاهرة عام ١٩٠١ فقال[1] : دخلت مصر لأول مره عام ١٩٠١ وحضرت دروس الشيخ محمد عبده فى الرواق العباسى من الأزهر وكنت أغشى مجلسه الخاص فى داره بعين شمس مرة فى الأسبوع ، وكان يوم الاستقبال فى داره بعين شمس أعظم واسطة لمعرفة طبقات مختلفة من أعيان الأمة وعلمائها وقضاتها ورجال سياستها وغيرهم . رأيت الشيخ محمد شاكر وكان من أذكى الأزهريين فى عصره يحمل فى بعض الصحف على الشيخ بامضاء مستعار . وكنت أعلم أن الخديو عباس كان يعجب بالشيخ محمد عبده ويعتمد على رأيه ويستشيره فى الأزمات ثم غضب عليه فتقدمت بعض الصحف تنادى باسقاطه . وكان الفضل فى تقديمى إلى فضلاء المصريين فى رحلتى الأولى إلى مصر لصديقى رفيق العظم والسيد محمد رشيد رضا وكان من أعظم أمانى النفس أن أتعرف إلى علماء القطر وادبائه . وكان جماعة الشيخ المفتى بحكم منصبه اخلاطا وجماعة دار العلوم نمطا واحداً ، وفى كل ليله تعقد الاجتماعات فى قهوة متاتيا أمام حديقة الأزبكية وإليها يختلف : محمد المهدى ،

---

(١) كتبها فى الرسالة عام ١٩٤٣ .

أحمد الاسكندرى ، محمد الخضرى ، عبد العزيز شاويش ، حفنى ناصف ، أحمد ابراهيم، محمد عبدالمطلب وكان يرأسنا الدكتور عثمان باشا غالب مدير القصرالعينى.

هذا عدا من كان يختلف إلى هذا المقهى من رجال العلم والأدب أمثال على بهجت ، إسماعيل رأفت ، مصطفى لطفى المنفلوطى ، محمد لطفى جمعه ، أحمد مفتاح ، وبصورة مستديمة أمام العبد الشاعر . ودعى إلى هذا المجلس بعض الصحافيين وإن كان عشهم فى قهوة اسبلنديد بار فى شارع إبراهيم باشا ،وهناك نلقى محمد مسعود ، حافظ عوض ، داود بركات ، يوسف الخازن ، أحمد الألفى ، صادق عنبر ، نجيب شاهين ، اسكندر شاهين ، ولى الدين يكن ، ابراهيم سليم النجار ، خليل زينية ، سلم سركيس ، على يوسف الكريدلى ، الياس فياض ، طانيوس عبده ، سامى قصيرى ، توفيق حبيب ، يوسف يكن ، يوسف البستانى ، أحمد حلمى ومن علماء السوريين وأدبائهم سليمان البستانى ، رفيق العظم ، شبلى شميل ، عبد الرحمن الكواكبى ، خليل سعادة ، رشيد رضا ، خليل مطران ، داود عمون وبعد حين انضم إليهم الشيخ طاهر الجزائرى وكان لأجله يحضر أحيانا أحمد بك تيمور ، أحمد زكى بك العالمان المشهوران وهناك عدد كثير من الأدباء والعلماء لا يختلفون إلى المقاهى كثيرا ويقصدهم من يريدهم فى بيوتهم ومكاتبهم أمثال قاسم أمين ، فتحى زغلول ، أحمد عاصم ؛ ابراهيم اليازجى ، يعقوب صروف ، فارس نمر ، محمود سامى البارودى ، أسماعيل صبرى ، أحمد شوقى ، أحمد لطفى السيد ، جورجى زيدان ، على يوسف ، مصطفى كامل ، أحمد كمال ، عبد الحميد البكرى ، عبد المحسن الكاظمى . وقال محمد كرد على أن أرقى جريدة أسبوعية فى ذلك الوقت فى مصر هى «مصباح الشرق» التى كان يحررها محمد بك المويلحى ويعاونه فيها أبوه ابراهيم بك المويلحى .

كما صور « محمد كرد على » أيضا المجتمع السورى فى هذه الفترة[١] فقال :

« كانت سياسة الولاة العثمانيين فى السبعينات والثمانيات من القرن التاسع عشر تقوم على النهب والسلب . كانت الدولة تمهد بولاية البلاد إلى ولاة يدفعون إليها الخراج المقرر ويجبون لأنفسهم أضعافه فكانوا يسفكون الدماء ويسلبون الأموال . وكانت سياسة الترك مع العرب فى معظم أدوار التاريخ نمط واحد وهى ألا يعترفوا للعرب بشىء من الحقوق لئلا يرفعوا رءوسهم أمام غالبيهم وسادتهم . وكانت المركزية هى أشد ماعهد من نوعها وكان كل إنسان يطلب إصلاحا فى أرجاء هذا الملك الواسع سواء أكان تركيا أم من عنصر آخر من عناصر الدولة يعامل أسوأ معاملة فينفى ويسجن ويصادر ويقتل هو ومن يقول بقوله . وأقل مايتهمونه به هو أنه مارق فى الدين يدعى النبوة» . وقال كرد على :

« إننى منذ أنشأت جريدة المقتبس اليومى فى دمشق وأنا أنبه الحكومة لتنقذ الأهلين من تسلط أعيانها وأن تقصيهم عنها لئلا تزيد فى سيطرتهم فيقوون على العبث بحقوق الشعب وحقوق الدولة . ولو بحثت عن معظم ثروة تلك الطبقة ما رأيناها تعدو مصدرين اثنين : « سرقة الدولة وسرقة الأهالى » وقال كرد على فى موضع آخر « ظللنا فى أيام الترك العثمانيين وفى عهد الانتداب الفرنسى أمة محكومة يتولى أمرنا ولاة من غير جنسنا . وأحيانا من غير أهل نحلتنا ونسن قوانين غيرنا وقد يسنون لنا ما لا يلائمنا . وضعفت فينا خلال هذه القرون ملكة الحكم وملكة العلم . وانحطنا فى أخلاقنا وبياننا وتفكيرنا وصناعاتنا وانفرجت مسافة الخلف بين الطبقات وابتعدت كل طبقة عن أختها لا تشاركها فى غير الهواء والماء وكان من الطبيعى فى هذا المجتمع المنحط أن يأ كل القوى

---

(١) مذكرات محمد كرد على .

الضعيف ويغدو رجال الدين أشبه بالعامة فى أفكاوهم وأن تغرق البلدان فى الجهل المركب[١] » . ووصف أحمد فارس الشدياق العلاقة بين العرب والترك فقال :

« وإذا اتفق فى نوادر الدهر أن تركيا وعربيا تماشيا . أخذ العربى بالسنة المفروضة وهى أن يمشى عن يسار التركى متحشما خاشما . فإذا عطس التركى قال له العربى : رحمك الله . وإذا تنحنح قال : حرسك الله . وإذا مخط قال : وقاك الله . وإذا عثر عثر الآخر معه إجلالا له وقال : نعشك الله .

٣ — الشام

وفى الشام كانت هناك مدرسة حسين الجسر وطاهر الجزائرى[٢] وقد صور عبد القادر المغربى أثر أستاذه حسين الجسر فقال : كان شيخى حسين الجسر مصلحا دينيا دقيق النظر ولكنه مع هذا بقى طول حياته محافظا متحفظا شديد

---

(١) محمد كرد على الكاتب الدمشقى الذى مارس الصحافة فى أوخر القرن التاسع عشر واصدر أول جريدة فى الشام قبل إعلان الدستور اسمها « الشام » وقد اصدر فى مصر بعد هجرته إليها جريده المقتبس . وعاد الى دمشق بعد الدستور العثمانى .

(٢) الشيخ طاهر الجزائرى من تلاميذ جمال الدين الأفغانى ومن أبرز العلماء اثرا فى الشام قال عنه السيد محب الدين الخطيب (١٣٦٦ هـ) : لا اعرف مؤلفا ولاعاملا قلم نشأ فى ديار الشام الا وكانت له صله بهذا المربى العظيم واستفادة من عقله وسعة فضله اما مباشرة أو بواسطه من استفادوا منه ولاعادة مجد العروبه الأسلام وانما كانوا من اخوانه وهو واسطه عقدهم ورأس مجالسهم أو من طبقة تلاميذه وقدوتهم ومطمح أنظارهم أو من الذين اخذوا عن تلاميذه وهو مضرب المثل عندهم فى كمال العقل وسعة الأطلاع التى لاحد لها . وبالاجمال هو جرثومة الخير الأولى من أيام ولاية مدحت باشا على سوريا الى إن هاجر هذا الرجل العظيم إلى مصر حوالى عام ١٣٢٥ فكان موضع حرمة كل من يعرف الفضل فى أهلها كتيمور باشا واحمد بك الحسينى واحمد زكى باشا والشيخ على يوسف وامثالهم وقال : إن محمد كامل القصاب هو رفيق الجهاد ، جمعتنا حلقه الشيخ طاهر الجزائرى على حب السلف ، ثم جمعتنا رابطة العربية الفتاة والاستقلال العربى ثم كنا معا فى الحقبه التى كنا نأمل فيها توحيد قوة القوميه العربية لخير الأسلام » .

الحذر . وأهم ما استفدناه منه من طريقة فى الإصلاح يمكن تلخيصه مما وقع لى فى زمن الحداثة وطلب العلم وقد اقتبست من شيخنا الجسر تعاليم فيها شيء من حرية النقد وانطلاق الفكر فعلمنا أن النصوص الدينية فيها الغث وفيها السمين . وأن بينهما ما هو غير صحيح ولا معقول ولا منطبق على القرآن ولا السنةالنبوية .

وعلمنا بأن ندقق الخبر ونعمق النظر فليس كل نص يقبل سواء عقل أم لم يعقل .. وقال عبد القادر المغربى : لما اتصلت بالسيد الأفغانى وأنعمت فى دراسة تعاليمه انتقلت فى حياتى الفكرية إلى الدور الثالث . وهو أن نفهم النص الدينى فهما صحيحا مراعى فيه قوانين اللغة وقواعد بلاغتهما ونستوثق من مطابقة النص للكتاب والسنة اقتبسنا هذه الطريقة من الفهم من أقوال السيد الأفغانى وتعاليمه المروية المبثوثة فى العروة الوثق .

وقد كان الشيخ حسين الجسر (١٨٤٥ — ١٩٠٩) عالما فاضلا واسع الاطلاع على الثقافة الإسلامية تلقى علومه فى الأزهر على كبار شيوخه ثم رجع إلى بلده طرابلس . وكان ذا نزعة إصلاحية وألف الرسائل ونشر المقالات المفيدة وله كتابان هامان هما : الحصون الحميدية والرسالة الحميدية . وكان واسع الاطلاع على العلوم الطبيعية والفلسفية وقد زاده ذلك رسوخا فى فهم الدين . وقد اتخذ الشيخ الجسر وتلاميذه من جريدة طرابلس الشام واسطة لنشر دعوته الاصلاحية وكان ألمع تلاميذه رشيد رضا وعبد القادر المغربى .

٤ — العراق

وفى العراق يظهر جزء آخر من الصورة العربية فى أوائل القرن التاسع عشر . كانت البيئة العربية هناك متصلة بالترك والعثمانية والاستانة كالبيئة الشامية تماما يختلف شباب العرب إلى هناك لتلقى العلم فى المعاهد العليا فى استامبول وفى هذه البيئة كانت مدرسة محمود شكرى الألوسى مسيطرة ذات أثر بعيد تلقى فيها

الرصافى والزهاوى والكاظمى . المدارس تدرس باللغة التركية . الولاة الترك فى تسلطهم وتعسفهم فى جباية الأموال مضاعفة . وقد صور الرصافى العراق فى هذه الفترة فقال : « إن العراق اليوم يمثل العصور الاقطاعية بأشوه وجوهها وأقبح صورها المنكرة حيث نرى فيه من يملك ألوف الفدادين من الأراضى التى تسقى سيحا أو بواسطة المضخات وترى فى ملكه الواسع العظيم الوفا من الناس يكدون له ويكدحون ويحرثون ويزرعون وليس لأحدهم من مرافق الحياة سوى أسمال ورغيف خشكار وترى صاحبهم فى نعيم سابغ وعز باذخ وشرف شامخ يقضى أوقاته فى عيش رغيد وفى قصف ولهو من كد هؤلاء المدقعين الذين يتجرعون كؤوس البؤس والشقاء » . وكانت أبرز مظاهر الأدب العراقى فى أوائل القرن العشرين: الثورة والتطلع إلى الكمال ومواجهة الاستبداد العثمانى . وكان طالع التشاؤم واضحا فى أدب العراق والشام جميعا . كانت هناك الشكوى والدموع والبكاء على الأمجاد تسير جنبا إلى جنب مع الظلم والطغيان والاستبداد . ولكن أدب العراق كان واضح الثورة والتمرد . وكان الجهر بالرأى فى جرأة علامة واضحة من علاماته .

فقد كان العسف الحميدى واضحاً ولكن العراق كان يقاوم وكان الزهاوى والرصافى يسبقان الزمن ويطالبان بالسفور والإصلاح الإجتماعى ومجاراه الحضارة العربية وطلب الدستور . وكان الوطن العربى كله مسرح كل كاتب وشاعر ، حتى فى مصر كان شوقى وحافظ يكتبان عن دمشق وبغداد وبيروت ومكة ، وكان أدباء العراق يذكرون تونس وكانت تونس تحب الرصافى . وكان المغرب كله والحجاز وليبيا والعراق والشام تمثل وحدة متماسكة متكاملة . وقد قام الأدب العربى العراقى الحديث فى هذه الفترة على القاضى عبد الباقى العمرى والأخرس وقد أعجب الرصافى بشاعر الأتراك نامق كمال ومضى الزهاوى والرصافى يصارعان

ظلم عبد الحميد ويدافعان عن المرأة ويتحذان سبيل التجديد مما دعا إلى رميهما من معسكرات المحافظين بالالحاد والاباحة فنرى الرصافي يقول :

نحن خواضوا غمار الموت كشافوا المحن ... مالنا غير اكتساء العز أو لبس الكفن
نبذل الأرواح نفديها لأحياء الوطن ... هل سوى الأرواح للأوطان في الدنيا ثمن
نحن لم نخلق لحمل الجور أو لبس الهوان ... بل خلقنا للعلا والسبق في يوم الرهان
هذه أوطاننا فاقت فراديس الجنان ... كيف لا نفدي لها الأرواح في الحرب العوان

وقال الرصافي أن مشاهد البؤس والشقاء كانت تهيج عاطفته وتستثير شاعريته وهى من أشد الدواعى عنده لنظم الشعر ، وكان الشاعران يقفان لسياسة عبد الحميد بالمرصاد وقد حارباه حرباً لا هوادة فيها وكانت قصائدهما تنشر في مصر في المؤيد أو المقتبس ومن شعرهما في هذه الفترة :

عجبت لقوم يخضعون لدولة ... يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها ... وأموالها منهم ومنهم جنودها

وقوله :

كيف القرار على أمور حكومة ... خصت برأى مقدس لم يسأل
ايكون ظل الله تارك حكمه ... المنصوص آى الكتاب المنزل
أم هل يكون خليفة لرسوله ... من حاد عن هدى النبى المرسل

وقوله :

خضعنا لحكام تجور وقد حلا ... بأفواهها من مالنا مأكل سحت
وكم قامرتنا ساسة الأمر خدعة ... فتم علينا بالخداع لها الدست
لماذا نخاف الموت جبنا فلم نقم ... إلى الذب عنا من أمور هى الموت
سكتنا من جهالتنا بقاعا ... يجور بها المؤمر ما استطاعا

فكدنا أن نموت بها ارتياعا وهبنا أمة هلكت ضياعا
تولى أمرها عبد الحميد

تنعم فى قصورك غير دار أعاش الناس أم أهم فى بوار
فانك لن تطالب باعتذار وهب أن الممالك فى دمار
أليس بناء يلدز بالمشيد

٥ — اسلوب الكتابة

وكان أسلوب الكتابة فى أوائل القرن سجعا وازدواجا فى الجمل وهذه نماذج منه .

● محمود سامى البارودى : لولا حنين النفس وهو علاقة الحب لصبرت على المكاتبة هنيهة مخافة الأملال ، ولكن راجعت النفس فأبت على زاعمة أن الاعتاب يكون فى الزيارة لا فى الكتابة . ما عساى أن أقول فى نظم لو وصفته لقلت سحراً . ونثر لو وردت شرعته لكان بحراً .

● احمد فارس الشدياق : أما بعد ، فإن الأسفار طالما ذكرها الذاكرون وبالغ فى وصفها الواصفون ، فمدحها من علت مروءته وسمت همته . وذمها من قصر عنها ولم يجن منها ، فنهم من شبه صاحبها ببدر أن لم ينقل لم يكن فى التيجان منضوداً وبهلال أن لم يسر لم يصر بدراً مشهوراً .

● محمد عبده : أوفى لى حكم القدر بالاطلاع على كتاب نهج البلاغة صدفة بلا تعمل • أصبته على تغير حال وتبلبل بال . وتزاحم أشغال . وعطلة من أعمال فحسبته تسلية وحيلة للتخلية . فتصفحت بعض صفحاته وتأملت جملا من عبارته من مواضع مختلفات ومواضيع متفرقات .

شكيب ارسلان . فان الأفكار من جملة حظوظ الدنيا تهب أحياناً ، فإن هبت مرة وجب اغتنامها ولم يجر اهمالها على نية أن يعاد إليها مرة أخرى •

وأن الأفكار نظير الأقدار ليس فى مقدور الكاتب أو الشاعر أن يجيدها فى كل حين . وتفيض على الرءوس أشعة إذا ولت تعذر استردادها فاللبيب هو الذى يقبض الشاردة لأول سنوحها ولا يدعها تذهب على أمل أن يصطادها فيما بعد . فانها أن شردت فقد تفوت والفلاة طويلة عريضة فلا يحيط بها الصائد ولا تطوى له كيف شاء . . »

وقد صور الدكتور سامى الدهان أسلوب أول القرن فقال أنه « رَجْعٌ إلى الأساليب المتأخرة على أيدى كثير من أرباب المدرسة التقليدية . نظروا فيه نظرتهم إلى الحفاظ على النثر القديم كأنه يوشك أن يزول لهجوم المثقفين على اللغات الغربية . فمنوا أحياناً بصور القدماء ومعانيهم وتراكيبهم وعباراتهم وكتبوا أحياناً أخرى فى معان مستحدثة وأغراض جديدة بعبارات الأقدمين وألفاظهم . ووقف لهم أرباب المدرسة الجديدة يريدون أن يجاروا روح العصر فى الكتابة العربية بأساليب بعيدة عن التكلف والسجع .

أن أمة امتاز سلفها بمدنية لم يعرف إلى الآن سر عظمتها ، كما شهد ويشهد بذلك عظماء فلاسفة أوربا وأكابر علمائها — والفضل ما شهدت به الأعداء — ووصلت إلى درجة من العلم الرقى والتقدم حيرت عقول الباحثين فى تواريخ الأمم ؛ وحاشاها أن تستكن أو ترضى بالاستبعاد ما دامت السماء سماء والأرض أرضاً ، وأريد أن يعلم الغربيون أنه لا يوجد إنسان مهما بلغ من القوة والسيطرة ، يستطيع أن يملك زمام الحوادث أبد الدهر . وأنه لم توجد ولن توجد دولة أو دول مهما بلغت من القوة والعظمة يمكنها أن تسيِّر مجرى الأحوال فى العالم كما تريد .

٥ — الرواد الأول

كان الألوسيون فى العراق يمثلون نفس الدور الذى يمثله محمد عبده

فى مصر والشيخ الجسر فى الشام والكواكبى خلائف جمال الدين الأفغانى فى أنحاء العالم العربى وكان انستاس الكرملى فى العراق يقف فى صف محمد كرد على بالشام واحمد زكى شيخ العروبة واحمد تيمور باشا فى مصر فى العناية باللغة العربية. ويقول الأب لويس شيخـــو اليسوعى «أن أدباء مصر من المسلمين لم يبلغوا فى ختام القرن التاسع عشر ما بلغه ذوو دينهم فى الشام، على أن مدرسة الأزهريين كانت ما تزال ضابطه لرئاسة تعلم اللغة العربية نائلة لقصبات السبق فى القطر المصرى رغماً عما أصابها من التأخر فى ذلك الزمن وقد صنف الأب لويس شيخو قائمة مستقلة فى كتابه «الآداب العربية فى القرن التاسع عشر »[1] بأسماء شعراء الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ ومن أبرزهم : شكيب ارسلان، عبد الله البستانى، حافظ ابراهيم، بشاره الخورى، معروف الرصافى، نعوم شقير، مصطفى الغلايينى، نعوم مكرزل، شبلى ملاط . وفى أفريقيا الشمالية أشار إلى محمد بيرم التونسى (١٨٤٠ — ١٨٨٩) من شعراء تونس وقد وصفه بأنه لعب دوراً مهماً فى مناهضة الحكم الاستبدادى فى وطنه وعضد الشورى إلا أن آماله خابت عند فرنسة بسيطرتها على بلاد تونس فانتقل إلى مصر وله آثار أدبية منها «صفوة الأخبار بمستودع الأمصار» ضمنه تاريخ تونس وأخبار سياحاته فى أنحاء أوربا ورد على ما كتبه رينان عن الإسلام وله مقالات فى اصلاح الإسلام ويرى الأب لويس شيخو أن عام ١٨٧٠ هى مفتتح طور جديد فى نهضة الآداب العربية فان فى تلك السنة جرت أمور خطيرة قلبت بطنا لظهر أحوال البلاد الأوربية فكان لها فضل انعكاس فى أنحاء الشرق فقامت العقول من رقدتها واستيقظت الأفكار بعد سنتها فإن دوى الحرب السبعينية طرق أذان الشرقيين فأسمعهم أصواتا ما اعتادت عليها مسامعهم فرأوا فى طلب الآداب ودروس العلوم

(١) طبع بيروت ١٩٠٨ — ٣ أجزاء .

سداً لخللهم . وكان السلام والأمن متوطداً فى الممالك المحروسة ولا سيما سوريا ولبنان فان الدعة والسكينة كانت قد مدت عليها رواقها بعد نكبة ١٨٦٠ »
أما فى تونس فكان الشيخ محمد عبده قد زارها مرتين عام ١٨٨٤ و ١٩٠٣ وقد تأثرت من قبل بالعروة الوثقى وقد حضر الدورس بالجامعة الزيتونية وكان من أثر الدعوة الفكرية إلى الحرية والمقاومة إن قامت مظاهرات هاتفة ضد الإستعمار الفرنسى فقبضت الإدارة الفرنسية على رءوس الحركة وفى مقدمتهم الشيخ محمد السنوسى . وكان الاتصال وثيقاً بين عقد العروة الوثقى بتونس وبين الشيخ محمد عبده بعد انحلال الجمعية واتجاه الأستاذ إلى سياسة الإصلاح الدينى والاجتماعى اعتقاداً بأن ذلك يحقق ما كان أخفق فيه جمال الدين الأفغانى من الاصلاح السياسى العاجل وقد سافر عدد من شباب تونس إلى مصر والاستانة عام ١٩٠١ وعاد يتكلم بكلام جمال الدين ومحمد عبده ويعجب بالكواكبى . وكان أكثر من تخرجوا فى الزيتونة يسافرون إلى فرنسا لاتمام الدراسة فتكونت فى فرنسا بعثة من الشبان التونسيين الذين تأثروا بالأفكار الحديثة . ولا ينسى فى هذا المقام ذكر خير الدين التونسى الوزير المصلح المتوفى عام ١٨٧٩ والذى ما زال معدوداً فى مقدمة المصلحين وقد كان اتجاهه يهدف إلى نقل الحضارة مع الاحتفاظ بمقومات الروابط العربية مع الدول العثمانية ومناهضة فرنسا وايطاليا وكان الباى فى تونس شبيهاً بالخديو فى مصر يتبع الدول العثمانية ويحمل مقدراتها من المال والهدايا وكانت تبعيته للدولة العثمانية ضعيفة وذلك قبل احتلال فرنسا للجزائر وتونس ومراكش .

أما بالنسبة للشمال الأفريقى فإن الإستعمار الفرنسى فى تونس والجزائر ومراكش حاول سحق اللغة العربية وقتلها واحيـــاء اللغة الفرنسية وبلغ فى اتجاهه هذا أبعد مدى ولكن قادة الفكر العربى فى المغرب أمثال عبد الحميد بن باديس

وزملائه البشر الإبراهيمى استطاعوا أن يحفظوا للغة العربية مكانها بفتح المدارس . وكان جامع القرويين فى مراكش والزيتونة فى تونس وجمعية العلماء فى الجزائر علامات ضخمة على حركة المقاومة وبعد أن قاوم المغرب بالحرب بقيادة الأمير عبد القادر الجزائرى خمسة عشر عاما حتى عام ١٩٤٦ وبقيادة الأمير محمد عبد الكريم فى الريف سبع سنوات حتى عام ١٩٢٦ بالاضافة إلى ثورة تونس العارمة ، كان ميدان المقاومة الفكرية أبعد مدى ، ولما كان الشعر هو لسان العرب ، وهو فى كل هذه الفترة المتقدمة أقوى وأشد سلطاناً من النثر فقد ظهر عدد كبير من الشعراء الذين يدعون إلى المقاومة ويواجهون الاستعمار الفرنسى بقوة . من هؤلاء فى الجزائر عاشور الحنفى وعبد الرحمن الريس وأبو الفيطان والطيب العقبى ، ولقد كان من حظ المغرب الذى سبق إليه الاستعمار بعد منتصف القرن التاسع عشر باحتلال الجزائر ١٨٣٠ و تونس ١٨٨١ أن انفصل عن الدولة العثمانية ولم يشارك فى معركة مقاومة الاستبداد التركى وإنما واجه مقاومة الاستعمار مرة واحدة ولما كان الاستعمار الفرنسى أشد عسفاً من الاستعمار البريطانى فقد كان دور المقاومة فى المغرب بالغ الأهمية والخطورة . وقد زاد من صمود المغرب فى أقطاره الثلاثة ما عرف عن المغاربة من عنف فى المقاومة وقدرة على البذل واستمرار فى محاربة الغاصب مهما كلفهم ذلك من شهداء وتضحيات . وقد امتدت هذه المقاومة سنوات طويلة زادت عن قرن وربع قرن فى الجزائر وما يقارب ذلك فى تونس ومراكش قدّم فيها المغرب بأقطاره الثلاثة عدداً ضخماً من الضحايا يكاد يكون مذهلا ، كما ضحى بأقواته وأرضه وثرواته وعاش فقيراً مجرداً مما يملك ولكنه لم يعش ذليلا قط ولم يتوقف عن المقاومة والتضحية بأغلى ما يملك الإنسان ، بالروح والدم وقد سلط الإستعمار الفرنسى على المغرب ألواناً من العسف والصراع الفكرى فأوجد الانقسام بين العرب والبربر وحاول أحياء ماض من عوامل

الجنس ليتمكن من التسلط وتفرقة الصف . وقد فشلت هذه الفتنة . كما حاول أن يمزق الوحدة بين الأقطار الثلاثة التى تكون أرومة عربية واحدة تظلها جبال الأطلس ولكن الرابطة الضخمة القوية بين مراكش وتونس والجزائر ظلت قائمة ولم يستطع الاستعمار الفرنسى بعد محاولاته العديدة المتكررة أن يمزق وحدة المغرب وظل أدب المغرب العربى قوامه الإسلام والوطن والعربية . كما ظل المغرب ولا يزال يرى فى الأندلس قطعة من الأرض العربية يجب استعادتها ويتحدث عن أمجادها. وقد فشل الإستعمار الفرنسى أيضاً فى تعميم العامية للقضاء على العربية، أو تعميم الفرنسية لنفس الغرض وظهر من اعلام المغرب من قاوم هذه النزعة علمياً أمثال العلامة محمد العبدى الكانونى الذى بحث مسألة النسب البربرى ورد على ابن حزم وابن خلدون وياقوت ورماهم بالتجنى على البربر : وفى خلال هذه الفترة ١٨٦٠ — ١٩١٦ كانت القومية العربية[1] فى الشمال الأفريقى كله تقف سداً منيعاً فى وجه المستعمر حفظ لها شخصيتها وأذكى حيويتها من أن تتحلل وتذوب تحت مطارق الإستعمار . وكان للعروة الوثقى ولمجلة المنار وللشيخ محمد عبده ودعوته أنصار فى المغرب كله ، وكان جامع الزيتونة أسبق معاهد العالم العربى مولداً — فهو أقدم من الأزهر — وقد حمل مشاعل الثقافة العربية منذ اثنى عشر قرناً وتجرد لدراسة العلوم العربية منذ عام ١١٦ هـ ومن خريجيه عبد الرحمن بن خلدون فخر العقلية العربية ولقد كان المدرسة السنوسية المجاورة فى ليبيا ، والدعوة المهدوية فى السودان ، بل والدعوة الوهابية أثرها البعيد المدى فى تونس والجزائر ومراكش فقد كانت رحلة الحج كل عام رابطة ضخمة بعيدة المدى فى هذا التطور الفكرى وفى اليقظة الأدبيه العلمية بوجه عام . وكانت حروب عبد القادر الجزائرى ما تزال تثير فى النفس العربية فى المغرب كله أثراً

(١) حسن حسنى عبد الوهاب — تونس .

بعيد المدى هو المرارة والرغبة فى الثأر والاستمرار على المقاومة . وكان لخير الدين التونسى الذى وصف بأنه المصلح الكبير والمدرسة الصادقية فى تونس والجمعية الخلدونية أثر بعيد فى عوامل اليقظة فى هذا الجزء من العالم العربى و قد كان خير الدين التونسى — الذى بدأ حركته ١٨٧٨ وتوفى ١٨٨٩ عن سبعين عاما كان مصلحاً اجتماعياً له شخصيته الجريئة فى قول الحق وصلابته وحرية تفكيره وقد تألب عليه رجال الدين وكرهوا حرية فكره ولقى مثل ما لقى جمال الدين ومحمد عبده فى مصر والألوسى فى العراق ورشيد رضا وعبد القادر المغربى فى الشام . وقد أنشأ مدرسة عصرية ومطبعة وأصدر صحيفة وألف كتباً كان أهمها كتابة « أقدم المسالك فى معرفة أحوال المالك » ودفع البلاد إلى الإمام بأقصى قوة وكان الحكم العثمانى قبل الاحتلال الفرنسى قد عمد إلى ابعاد أهل البلاد الأصليين عن نواحى الحكم والإدارة والدفاع وجعل ذلك قاصراً على طوائف الانكشارية ووجاقاتهم فانصرف أهل البلاد عن الدولة . ونابذوها وانحطت البلاد وضعف شأنها تبعاً لذلك[1] . فلما قام خير الدين التونسى بدعوته كان يهدف إلى تحرير الشمال الأفريقى من هذا الاستبداد . وقد وصف خير الدين بأنه من نوع مدحت باشا وفى مجال الاصلاح يذكر الشيخ قبادو (الذى سبق خير الدين ١٨٦١) والذى كان عاملا ضخما فى قيام الثورة الكبرى فى تونس عام ١٨٦٤ . وفى ليبيا كانت السنوسية هى دعوة اليقظة الواضحة الأثر التى كانت فى حقيقة أمرها دعوة تحرير ومقاومة للاستبداد العثمانى ، فلما هاجمت ايطاليا عام ١٩١١ طرابلس كان أثرها العميق فى نفوس أتباعها عاملا ضخما من عوامل المقاومة . وقد ارتبطت اليقظة الفكرية فى ليبيا بالسنوسية وانشاء الزوايا ومن ثم تدفقت الكتب على البلاد وأنشأت أول مطبعة فى ليبيا عام ١٨٦٦ وصدرت أول جريدة « طرابلس الغرب »[2]

(١) احمد امين — زعماء الأصلاح الحديث .

(٢) مفتاح الشريف — القومية العربية فى الشعر الليبى .

ويقول « مفتاح الشريف » مؤرخ هذه الفترة « وكان يمكن للحركة الفكرية فى ليبيا أن تنتعش وتزدهر كغيرها من البلاد العربية لولا أن فجع الشعب باستعمار بشع جديد حين بدأت ايطاليا تنزل جحافلها على الشواطىء الليبية فى ٣ سبتمبر ١٩١١ وكان هذا الاستعمار الجديد يستمد مقوماته من الفلسفة الفاشية وقد بدأ بمحاربة اللغة ومنع انتشارها ودحر ثقافتها وسجن أشخاص عدة شهور بتهمة العثور معهم على كتاب العبرات للمنفلوطى مجتمعين لقراءته . وجرى تعميم اللغة الايطالية فى المناهج وفرض تعليمها واستيعاب ثقافتها وبدأ جهاز رهيب يقوم بذلك . حيث أخذ يبث سمومه فى الصحف التى ينشرها ويذيع فى ظلالها الأفكار التى تدمر العقل العربى وتجعله قطيعاً مسلوب الإرادة فاقداً لملكة الخلق » . وهكذا نرى أن محاولات لتمزيق اللغة العربية كانت تجرى فى كل مكان ، الإنجليز يمزقونها فى مصر وفلسطين والعراق . والفرنسيين يمزقونها فى تونس والجزائر ومراكش وسوريا ولبنان . والإيطاليون يمزقونها فى ليبيا وطرابلس . وكانت عمليات التمزيق تجرى وفق أسلوب علمى منظم قائم على دراسة عميقة ، ولكن الإستعمار لم يلبث أن اعتورته الدهشة والعجب عندما رأى أنه إنما يحارب معركة فاشلة وأن اللغة العربية من العمق وأن القومية العربية من القوة بحيث خابت كل الجهود التى أعدت لتمزيق الأولى أو تحطيم الثانية[1]

نهاية الإستبداد العثمانى

تولى عبد الحميد عام ١٨٧٦ عرش الخلافة العثمانية بعد مقتل عمه السلطان عبد العزيز وبضغط من نفر من الأحرار دستوره الأول وعهد إلى زعيم الأحرار مدحت باشا بنصيب الصدارة العظمى ولكنه لم يلبث بعد سنتين أن اعتمد على الأحزاب الرجعية وساندها حتى تمكن من وقف العمل بالدستور إلى أجل

(١) إقرأ فصل « معركة اللغة العربية » فى نهاية هذا الكتاب .

غير مسمى ، وفض البرلمان واقصى مدحت بأن ولاه حكم سوريه . ولم يلبث عبد الحميد قليلا حتى أقصى مدحت عن سورية واستدعاه إلى أزمير متهما أياه باشتراكه فى قتل السلطان السابق عبد العزيز ثم أرسله سجينا إلى الطائف حيث وكل به من يقضى عليه وانفرد منذ ذلك الحين بسلطانه الاستبدادى سنين طويله ولما أعيد الدستور بعد ذلك بثلاثين عاما (٢٤ يولية ١٩٠٨) ، لم تلبث أن وقعت الرده مرة أخرى فى(١٣ ابريل ١٩٠٩) حيث أنقلب عبد الحميد على الدستور والحياة النيابية عندما هتف المتظاهرون ضد أعضاء تركيا الفتاه مهاجمة الاتجاه الجديد وكان هتافها « الموت لتركيا القناة » هنالك تجمع فى(سلانيك) جيش بقيادة الكولونيل شوكت قائد حاميه «مقدونيا» الذى اندفع إلى القسطنطينية يوم ١٦ ابريل لاقرار النظام فى العاصمة .

ووصل إلى أسوار القسطنطية بعد ثلاثة أيام وهو يهتف بحياة السلطان وفى ٢٣ أبريل أمر شوكت بدعوة المجلس الوطنى فى سان ستفانو حيث عسكر جيشه لتقرير مصير السلطان : خلعه عن العرش أو أعدامه بعد أن ثبت أن عبد الحميد كان مشتركا فى أنقلاب أبريل . وفى يوم ٢٧ إبريل قطع التيار الكهربائى عن قصر عبد الحميد كما قطعت المياه وتقدم أربعة من مندوبية للتحدث مع السلطان حيث أعلنوه بقولهم «جئنا لنبلغكم أن الأمة قد عزلتكم عن العرش والنفى إلى سالونيك»

وبذلك أنتهى عهد عبد الحيد بعد أربعين عاما من الاستبداد(١٨٧٦ — ١٩٠٩) ولا ينسى فى هذا الصدد أن نذكر أن (٢٤ يوليه ١٩٠٨) كان بداية عهد جديد فى الفكر العربى المعاصر فقد أعلن الدستور العثمانى واعتبر بدء الحياة الدستورية أو كما أطلق عليه « أنقلاب المشروطية » فقد اعتبر نهاية الاستبداد وقيام المشروطية فى السلطة العثمانية وقد ولد « سروراً عاما وابتهاجا شاملا . صار الناس يرددون آيات الحرية والمساواة فى كل الجهات . وفى شتى المناسبات .

صار رجال الدين يتعانقون على أختلاف نحلهم ومللهم وابتهاجاً بزاول الاستبداد وبدء عهد الحرية والمساواة . صارت العمائم والقلانس والجبب والطلانس تتصاحب وتتخالط بين هتاف الجماهير » وأعلنت حرية الصحافه التى أسمح بها بغته بعد اعلان الدستور وانطوت عهود المراقبة الصارمة التى كانت قائمة فى عهد الاستبداد، وفتحت أبواب الجرائد لجميع الأقلام وأصبح من حق كل من يملك قلما أن يكتب وينشر كل ما يريد دون أن يقيد نفسه بأى قيد كان . وبدأ العرب يتحدثون عن « اللامركزية» وهو قول كان يغضب السلطان وللسلطان جواسيس منتشرون فى كل مكان يحصون الانفاس ويحاسبون الناس على هواجس الأنفاس ومن اغضب السلطان فجزاؤه معروف. وهو اما الغرق فى البسفور أو السم المدسوس فى الطعام أو الصلب أو السجن فى احسن الأحوال . أما بعد صدور الدستور العثمانى فقد أحس العرب أن الوقت قد جاء للتحرر من عنف عبد الحميد وبدأ تقارن الهلال والصليب ، وتدفق الناس فى فرحة النصر ، ولكن المتفائلين كانوا مخدوعين بالدستور فلما سقط عبد الحميد عمت الفرحه بصوره أشد مما عرفت لاعلان الدستور ولكنهم كانوا أشد انخداعا هذه المره كأن الذين اسقطوا عبد الحميد كانوا يعدون العدة لسحق معنوية العرب . كانوا يحملون فكرة الجامعه الطورانية وتتريك الأجناس الداخله فى الامبراطورية العثمانيه وصهرها ، ومن هذه الاجناس العرب . وقام جماعة تركيا الفتاة يضطهدون القوميات التى تألفت منها الامبراطوريه المترامية . فلم يلبثوا أن حلوا جمعية الاخاء العربى ، وطاردوا الضباط العرب ومنعوهم من الالتحاق بالبعثة إلى المانيا وحاصروهم فى الاستانة ، واقصوا العرب كلية عن الوظائف الكبيرة فى الدولة . واهملوهم مع الدعوة إلى حضور الاجتماعات السياسيه ، واستبدلوا الولاه والمتصرفين والقضاه من العرب بغيرهم من الترك وعارضوا كل مشروع علمى فى البلاد العربية وقاوموا اللغة العربية مقاومة قاسية

وكان هذا ندرا للعرب للدفاع عن كيانهم دفاعا حراً كريما .

وكانت أول جمعية انشئت لذلك فى مارس ١٩٠٥ ، ثم انشأ عزيز المصرى الجمعية القطحانية فى الاستانه وهى جمعية سرية ترمى إلى الأعتراف بالكينونة العربية المكونة من جميع المقاطعات العربية يكون لها مجلس نيابى خاص . وجرى ضم الضباط العرب فى الجيش التركى لهذه الجمعية وكانت جمعية العربية القناة قد اسست فى باريس من فريق من الطلاب العرب ثم انتقلت إلى بيروت ، ثم كون عزيز المصرى عام ١٩١٣ جمعية العهد وقصر أعضائها على الضباط العرب وكان عدد العراقيين فى الجيش التركى كبيراً . ولذلك كان لها فرعان فى الموصل وبغداد وتلاقت الفروع كلها فى دمشق عام ١٩١٥ حيث وحدت جهودها للاعداد للثوره وقد بدأ تنفيذ سياسة التتريك بابعاد الضباط العرب من الاستانه وارسالهم إلى المناطق التركية « وتولية القياده للترك فى بلاد العرب وكان تولى أحمد جمال باشا قيادة الجيش فى دمشق اعلانا بالاسراع فى تنفيذ سياسة التتريك .

وفى ٩ فبراير ١٩١٣ ألقى القبض على « عزيز على المصرى[1] » حيث قدم بتهمة الخيانة « لمناقضة أفكاره وآرائه لمصلحة الاتحاديين . وعلى أساس أنه سعى لإنشاء دولة عربية مستقلة عن الدولة فى ليبيا » . وقد حكم عليه بالإعدام ثم خفف إلى الحبس الشديد لمدة ١٥ سنة وقد تمكن عزيز المصرى من الهرب .

---

(١) تخرج عزيز المصرى من مدرسة الأركان وعين فى هيئة أركان حرب الجيش الثالث فى مقدونيا ، وانتسب إلى جمعية الاتحاد والترقى . واشترك فى الزحف على العاصمة فى ثورة ١٩١٩ وعند ما أدرك إن سياسة الاتحاديين ترمى إلى مقاومة الحركة الحربية نفض يده منها واسس مع زميله الجزائرى الجمعية القحطانيه . وسافر الى اليمن قبل الدعوة حيث نجح فى تسوية الخلاف بين الإمام يحى وبين الباب العالى واحرز انتصار باهراً فى حرب طرابلس على الطليان . وكانت معركة تموز التى انتصر فيها على الطليان وهى من أكبر المعارك من الوجهة الحربيه وقد وصفتها الصحف بانها تشبه معركة « كان » التى انتصر فيها هانيبال على الرومان « اقرا مزيدا من التفاصيل عن عزيز المصرى فى كتابنا » من رواد القومية العربية .

وقد تأسست فى القاهرة جمعيات سرية وأحزاب عربية لمقاومة الاتجاه العثمانى . وهنا بدأت القاهرة تساهم فى الحركة العربية مســاهمة فعالة . وفى سنة ١٩١٣ تأسست جمعية الاصلاح فى بيروت . وكان أهم أهدافها المحافظة على اللغة العربية .

— ٢ —

ولعل أبرز أحداث ١٩١٣ التى تجعل من هذا العام نقطة هامة فى تاريخ تطور الفــكر العربى المعاصر هو عقد المؤتمر العربى الأول فى باريس بتوجيه جمعية الفتاة العربية . وقد اشترك فيه المسلمون والمسيحيون العرب لأول مرة وقام على أساس الدعوة إلى « اللامركزية » وقد أفزع المؤتمر جماعة الاتحاديين ورأوا فيه جرأة كبرى من العرب فحاولوا احباطه واعتبر المشتركون فيه خارجون على الخلافة والسلطان . وكان أبرز أهدافه :

- إن يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا فى الإدارة المركزية للمملكة اشتراكا فعلياً .
- اعتبار اللغة العربية فى مجلس النواب والأعيان .
- تـكون اللغة العربية لغة رسمية فى البلاد العربية .

ولعلنا حين نورد هنا بعض ماتردد فى المؤتمر نرسم للفــكر العربى تطوراته فى هذه الفترة بالذات عندما انتقلت الفــكرة العربية من صورتها الاسلامية الشاملة التى كانت ترسمها كلمات جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الـكواكبى وغيرهم إلى الصورة العربية الخالصة .

- قال عبد الحميد الزهراوى : إن المؤتمر ليست له صفة دينية . وكل أعماله تنحصر فى الدائرة المحدودة له من البحث فى شئوننا الاجتماعية والسياسية ولذلك نرى عدد أعضائه المسلمين والمسيحيين متساويا . وعلى كل حال فأن فـكرة الاتحاد بين المسلمين والمسيحيين قد ولدت وأيدتها حوادث بيروت الأخيرة . إن الرابطة

الدينية عجزت دائما عن إيجاد الوحدة السياسية وأنا لا أرجع إلى التاريخ لأبرهن على هذا بل حسبي ما لدينا الآن من الشواهد الحاضرة .

● قال أحمد طباره : نحن نعني بالعرب كل ناطق بالضاد . لا فرق فى ذلك بين المسلم وغير المسلم .

● قال ندرة مطران : إذا كانت النعرة الجنسية فضيلة فى النفس . فلست أدرى أمة أشد تأثرا بعواملها من الأمة العربية . لما قدم أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى الشام ، وجدوا حارساً على أبوابها من الغسانين وهم عرب نصارى ، يتقدمهم ملكهم المسيحى جبلة بن الأيهم ، إلا أن هؤلاء بدلاً من قتال المسلمين والوقوف فى وجوههم عطفوا عليهم عطفة الأخ ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السياسية اللتين كانتا تقضيان عليهم بموالاة الروم ، وخطبوا ود وولاء الناطقين بلسانهم من بنى أمتهم العرب . فمهدوا لهم السبل وفتحوا الطرق ومكنوهم كل التمكين من فتح البلاد . إن لعمرى فيما أبداه نصارى غسان من العصبية العربية فى هذا الشأن الخطير لأعظم شاهد على أن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين . وهى فضيلة الشعوب الحية؛ فضيلة الشعوب التى لا تريد أن تموت .

● إن الأمة العربية الممثلة هنا بكم مسلم وغير مسلم متضامنة ومترابطة فى مصالحها . وتنبذ بكل قوتها كل حركة من شأنها تدخل الغريب فى أحكامها .

● قال عبد الغنى العريسى : هل للعرب حق جماعة ؟ إن الجماعات فى نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق إلا إذا أجمعت على رأى علماء الألمان وحدة اللغة ووحدة العنصر وعلى رأى علماء الطليان : وحدة التاريخ ووحدة العادات . وعلى مذهب ساسة الفرنسيين : وحدة المطمح السياسى . فإذا نظرنا إلى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا أن العرب تجمعهم وحدة لغة . ووحدة تاريخ ،

ووحدة عادات . ووحدة مطمح سياسى لحق العرب بين هذا البيان أن يكون لهم رأى كل علماء السياسة دون استثناء : حق جماعة وحق شعب وحق أمة نحن عرب قبل كل صبغة سياسية ، حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ عدة قرون عديدة . رغما مما كان ينتابنا من حكومة الآستانة من أنواع الإدارات ، كالامتصاص السياسى أو التسخير الاستعمارى أو الذوبان المنصرى فكل ما تذرعت به الآستانة من الوسائل لم يؤد إلى غير نتيجة واحدة وهو الحرص على مكانة حق الجماعة وإحياء هذا الحس الشريف النبيل : حس الجنسية فاقتفاء للماضى تقرر مناهضة كل مايؤول إلى إضعاف هذه القومية والتذرع بكل ما فيه حياة كخصائص العرب وميراث العرب فنحن كتلة حية قائمة بذاتها وخاصتها اه .

كان هذا الاتجاه جديداً فى مجال الفكر العربى المعاصر : الإيمان بالقومية العربية فى تجمع كامل ، لا فرق فيه بين مسلم ومسيحى باعتبار أن مجد العرب القديم هو مجد مشترك . وكانت الدعوة لا تحمل الانفصال عن الدولة العثمانية —إذ ذاك — ولكن ترمى إلى إقامة نظام اللامركزية مع بقاء الوطن العربى جزءاً من الامبراطورية . وكان هذا الاتجاه يحمل معنى معاونة الاتحادين فى سبيل انقاذ الدولة العثمانية من عواقب الصراع الأوربى . ولكن الأمور التى كانت تحمل فى نظر العرب روح الاخلاص والصدق والتعاون وحسن الظن بالترك العثمانيين، كانت لا تزال تحمل فى نظر الأتراك روح الغدر والحقد والخيانة فإن الأتراك كانوا يضمرون الشر عند ما أظهروا الخداع وأضمروا المضى فى اتجاهم لتتريك العناصر غير العثمانية وسحق كل محاولة لقيام الدولة العربية . وكان فهم الأتراك لموقف العرب غبيا ولئيما فقد كانوا يعتقدون أن السلطة سلطتهم وإن للعرب فى مشاركتهم منحة منهم ، بينما كان العرب ينظرون إلى الأمر نظرة أكثر كرامة واعتزازا بالصلة الإسلامية مع المحافظة على كرامتهم دون أن تنتهك . ولكن الاستعمار

عمد إلى تمزيق الصلة بين العثمانيين والعرب فجرى العثمانيون على أسلوب غير كريم مما حمل العرب إزائه على بدء المقاومة . وفى طريق تركيا واتجاهها الطورانى عملت على التخلص من الألفاظ العربية الداخلة على اللغة التركية . ووضع تاريخ يجعل الشعب التركى أعظم شعوب العالم ، ويجعل هولاكو وجنيكيزخان هم قادة العالم .

وكان أبرز مواقف العثمانيين فى مقاومة العرب مشانق أحمد جمال الدين السفاح الذى دخل دمشق فى ٥ ديسمبر ١٩١٤ والذى شرع يتقرب إلى العرب محاولا خداعهم، وقال فى هذا إن الأمانى العربية والتركية لا تتعارضان وكان ذلك غاية التآمر. وجاء إلى دمشق بخدعة كبيرة . وأدنى عبد الكريم الجليل أحد زعماء العرب وقرب إليه زعمائهم ثم لم يلبث أن انقض عليهم وأصدر أمراً عسكريا بتفريق كتيبة ضباط العرب . وقد رأى جمال الدين فى دمشق قوة عربية ضخمة فحاول تحطيمها . وأخذ يرسل الوحدات العربية الواحدة تلو الأخرى من سوريا إلى الأناضول ليجعلها تحت الرقابة هناك ويحل محلها كتائب تركية . وهنا بدأ فى القضاء على الروح المعنوية بقتل أحرار العرب . وفى أواخر يونيو ١٩١٥ فوجىء الناس بالقبض على «عبد الكريم الخليل» وغيره من أحرار العرب تقديمهم للمحاكمة والحكم عليهم بالإعدام . وارسلوا إلى المشانق فى ٢١ أغسطس سنة ١٩١٥ . وكان هذا أقسى المواقف التى لقيها العرب فى علاقتهم مع الأتراك والتى أججت فى الفكر العربى ناراً جديدة قوامها الدم المسفوح . وقد شرد جمال الدين بين السجن والنفى والاعتقال مايزيد على ٣٠٠ أسرة عربية من مدن سوريا ، وزعها على مدن الاناضول . وشرع الجلادون من أعوانه فى مصادرة اقوات الناس ومواشيهم وأموالهم فانتشر الجوع والغلاء وعم الفقر .

وفى يوم ٦ مارس ١٩١٦ فى ساحة دمشق بعث إلى المشانق رعيلا آخر من الأحرار ومن هؤلاء وهؤلاء الشهداء: محمد محمود الحمصانى ، عبدالوهاب الإنجليزى ، عارف الشهابى ، جلال النجارى ، سليم الجزائرى ، سيف الدين الخطيب ،

أمين لطفى ، جرجى الحداد ، عبدالقادر الخرسا ، عبدالكريم الجليل ، نايف تللو ،
احمد طباره ، شكرى العسلى ، عبد الحميد الزهراوى ، توفيق البساط ، عبد الغنى
العريسى وغيرهم وقد استقبل هؤلاء الشهداء الموت بإيمان عجيب ورباطة جأش
وتحدثوا طويلا عن ثقتهم وإيمانهم بما ذهبوا ضحية له ومن ذلك قول أحدهم
« مرحباً يا أرجوحة الأبطال . مرحباً بالموت فى سبيل الوطن الحر . إن أبناء الرجال
الذين يقتلون اليوم سيقطعون فى المستقبل أعناق ابنائك الاتراك . أن الدول
لا تبنى على غير الجماجم . أن جماجمنا ستكون اساساً لاستقلال بلادنا . لابد
من ضحايا ولنكن أول الضحايا » . وقال غيرهم : « نحن أبناء الآلى شادوا مجدا
وعلا . نسل قحطان الأبى سيد كل العرب . وفى نفس الوقت — عام ١٩١٣ —
الذى كان عمر أحمد وعبد الغنى العريسى ومحمد وحمود المحمصانى . . ينظمون
قصائدهم الوطنية الحاره كان زميلهم عمر فاخورى يعكف على وضع الخطوط الاساسية
التى تأخذ بأيدى العرب إلى الحرية فى كتاب سماه « كيف ينهض العرب » .
فلما استشهد عمر أحمد وعشرة من زملائه قال عمر فاجورى . أن موت عمر أحمد فى
سبيل الحريه هو أعظم قصيده نظمها : واهتز قلب الفكر العربى لهذا الحادث الضخم
فقال الشاعر العربى الزهاوى فى قصيدته « معلقة الشهداء » .

على كل عود صاحب وخليل ... وفى كل بيت رنة وعويل
وفى كل عين عبرة مهراقة ... وفى كل قلب حسرة وغليل
علاها وما غير القوة سلم ... شباب تسامى للعلى وكهول
كأن وجوه القوم فوق جذوعهم ... نجوم سماء فى الصباح افول
كأن الجذوع القائمات منابر ... علت خطباء عودهن تقول
لقد ركبوا كور المطايا يحثهم ... إلى الموت من وادى الحياه رحيل
اجالوا بهاتيك المشانق نظرة ... يلوح عليها اليأس حين تجول
رجال عليهم من سنا الفضل رونق ... وللمجد فيهم غرة وحجول
مشوا فى سبيل المجد يحدوهم الردى ... وللحق بين الصالحين سبيل

التجزئة والتجمع

١٩١٦ — ١٩٥٢

كانت المرحلة الأولى ١٨٥٠ — ١٩١٦ هى مرحلة الاستبداد والمقاومة . أما هذه المرحلة (١٩١٦ — ١٩٥٢) فهى مرحلة التجزئة والتجمع . فنحن الآن على أبواب الحرب العالمية الأولى وقد علق احمد جمال السفاح أبطال العرب على أعواد المشانق وهزت الدنيا هذه الأحداث وعجلت بالثورة العربية الأولى التى جاءت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى التى انضمت فيها تركيا العثمانية إلى ألمانيا وانضم العرب إلى الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) ولأول مرة انفصل العرب عن العثمانيين وإذا كانت المرحلة الأولى قد حفلت بثورات عرابى والمهدى واحتلال مصر وتونس والجزائر وإعلان الدستور العثمانى فأن هذه المرحلة كانت أعمق وأبعد أثراً فى كيان الأمة العربية فان الإنجليز الذين تفاهموا مع العرب على قيام الدولة العربية قد خدعوهم أكبر خدعة وما لبث العرب أن حاربوا العثمانين وأجلوهم عن بلادهم حتى كان ذلك تمهيداً لاحتلال القوات البريطانية والفرنسية له وتمزيق وحدته وتوزيعه اسلابا عليهم واعطاء فلسطين لليهود. هنالك انفجر العالم العربى كله فى ثورات متلاحقة واجهها الاستعمار بقوة وعنف ، ولكن هل خمدت روح العرب أو توقفت عن الصراع والمقاومة . كلا . لم تتوقف . كان العرب وقد واجهوا بعد الحرب العالمية الأولى الاستعمار الغربى مواجهة صريحة بعد أن كان يختفى فى الفترة الأولى وراء الدولة العلية . لقد بدأوا يقاومون عمليتين خطيرتين هما الاستعباد والاستبداد والتسلط والاقطاع وفى نفس الوقت يقاومون التمزيق والتجزئة للوطن

العربى . وكانت المقاومة خطيرة وبالغة الخطورة فلم يكن فى يد العرب سلاح يمكنهم من المواجهة الصريحة ولكنهم قاوموا طويلا . قاوموا بأجسادهم وتلقوا الرصاص بصدورهم . وسقطت صفوف وقامت صفوف أخرى لتحتل مكانها وتعرض صدرها للرصاص وتستشهد . وكان من يموت يسلم الأمانة لمن بعده . قاوموا بعنف فى كل من الوطن العربى . من الخليج إلى المحيط . وإذا خمدت المعارك الحربية حينا ، فقد قامت حروب فكرية ضخمة بعيدة المدى ، كان الاستعمار يدس سمومه فى اللغة العربية والدين والأدب وفى كل مجال من مجالات العقل والعاطفة ليحاول تحطيم هذه القوة الضخمة العارمة ، ويسحقها سحقا ليمكن لنفسه البقاء . ودارت معارك فكرية أبعد أثراً وأعمق مدى من حروب القنا . ونجحت المغالطات حينا وفتنت دعوى التغريب بعض الناس ولكنها عادت مرة أخرى هذه العقول إلى رشدها وآمنت بأنها خدعت . وفى الفترة من عام ١٩١٩ إلى ١٩٣٩ كانت المقاومة الفكرية قد بلغت مداها بين الحربين ثم كانت الحرب العالمية الثانية وما تلاها من وقوع أخطر عمل عدوانى فى الأرض العربية وهو اقتطاع فلسطين من قلب الوطن العربى وتسليمها إلى الصهيونية . وإذا كان « الاستبداد العثمانى » فى المرحلة الماضية سببا فى البعث واليقظة والمقاومة فان « الاستعمار الغربى » كان عاملا من عوامل المقاومة والتجمع وإذا كان قد بدأ بثورات متوالية متصلة فى العراق والشام ومصر وليبيا والساحل الأفريقى فانه قد انتهى بثورة عربية ضخمة شاملة كان قوامها تحرير الوطن العربى كله من الاستعمار بكافة صوره ، والتجمع تحت لواء القومية العربية . ولقد واجه العرب الاستعمار الغربى مواجهة مفاجئة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى حيث انقسمت الرقعة إلى دول ودويلات وفى كل قطر منها إستعمار واستبداد وعملاء وقصر وأحزاب وصراع وتيارات فكرية يؤيدها الاستعمار ويصطنع لها الأقلام والأعوان وعندما أحس الاستعمار الغربى بأنه لا يستطيع أن يمحو اللغة العربيـــة ويحطم

الشخصية العربية التى قوامها الاسلام واللغة وأمجاد التاريخ الحافل بالبطولات والتراث العربى العريض لجأ إلى عمليات الأبادة والقتل والتعذيب فطرد ٨٠ ألف عربى من الجبل الأخضر إلى الفلاة الموحشة فى ليبيا ، وجرد سكان جبال الأطلس فى تونس والجزائر ومراكش من أرضهم وحاربهم حرب أبادة وضرب دمشق وأقام مشانق دنشواى وفى كل أرض تجد قصة بطولة ومقاومة ، قوامها جيش إستعمارى غادر وعرب مؤمنون بحريتهم ووطنهم . وكما حاول تاليب الطوائف فأثار الخلاف بين المسيحيين والمسلمين فى مصر وبين البربر والعرب فى الساحل الأفريقى وبين السنة والشيعة فى الشام والعراق وألب طوائف الأكراد والأرمن والأشوريين والموازنة فى كل قطر وأرض . وبدأت حملة عاصفة يقوم بها كتاب وعلماء ومستشرقين ومبشرين يحملون على الفكر العربى ويتهمونه ويحرفونه طمعا فى أن ننصرف عنه ونستهين به . وعمل الاستعمار فى مصر والعراق وفلسطين على أن يجعل التعليم خاضعا لبريطانيا مسيطرة عليه اللغة الانجليزية هادفا إلى أهدار الثقافة القومية والتراث الوطنى ، وعمل الاستعمار الفرنسى أسوأ من ذلك عندما حاول سحق اللغة العربية نهائيا حتى أن جيلا نشأ وهو لا يعرف العربية . لقد حاول العثمانيون من قبل اللغة العربية وتتريك الفكر العربى ولكنهم فشلوا وكذلك فشل الاستعمار الغربى بقوتيه البريطانية والفرنسية . وقام العرب فى هذه الفترة بعبء المقاومة وكان للشام وهو قلب العروبة دور ضخم فى مقاومة الخلافة العثمانية من قبل بالرغم من أن الثورة العربية أعلنت فى الحجاز وكان فى مقاومة الاستعمار الفرنسى أشد عنفا . لقد خدع الاستعمار العرب كما خدعهم العثمانيون . خدعهم العثمانيون بالدستور حين أعلنوه ثم كان من نتيجته قيام عملية التتريك الضخمة ، وخدعهم البريطانيون بمفاوضات (مكماهون — الشريف حسين) التى انتهت بتمزيق الأمة العربية . وبعد أن قسم الاستعمار الوطن العربى ومزقه وأقام بينه الحدود ، استمرت

الخدعة فترة من الزمن حينما ظن بعض الكتاب أن أوربا هى قبله الفكر الحر فجروا فى تيارها فلما سقطت أوربا وسقطت فرنسا بالذات حطمت أحلام المؤمنين بها فاضطروا إلى أن يعلنوا أنهم خدعوا وعادوا تتجهون نحو العالم العربية . ولعل من أهم الحقائق فى هذا الصدد أن الشام كان قطراً واحداً تجمعه وحدة طبيعية كاملة [من لبنان إلى سوريا إلى الأردن إلى فلسطين] فما لبث الاستعمار أن قسمها ووضع بينها الحدود ولم يعد المواطن العربى يستطيع الانتقال من جزء إلى آخر إلا بوثائق خاصة وإذن خاص . ووضع المستعمر فى كل قسم منها نظما مختلفة للحياة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية والادارية واصطنع فى كل جزء طبقات خاصة من الحكام والسياسيين . قسمت بريطانيا الجزء الجنوبى من سوريا قسمين أيضا أحدهما يقع إلى الشرق من نهر الأردن وباسم شرق الأردن والثانى غرب الأردن وباسم فلسطين كما قسمت فرنسا الجزء الشمالى من سورية قسمين : جمهورية سوريا فى الداخل وجمهورية لبنان على الساحل .

● وأمتدت المقاومة من العثمانيين إلى الغربيين ، فالرصافى الذى كان يحارب الاستبداد العثمانى بدأ يحارب الاستعمار البريطانى .

عجيب لقوم يخضعون لدولة	يسومهم فى الموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهنونها	وأموالها منهم ومنهم جنودها

وقوله :

من أين يرجى للعراق تقدم	وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لاخير فى وطن يكون السـ	ـيف عند جبانه والمال عند بخيله
والرأى عند طريده والعلم عند	غريبه والحكم عند دخيله

وقول باقر الشبيبى :

بنى يعرب لا تأمنوا للمدى مكرا	خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحذرا

يريدون فيكم بالوعود مكيــدة ويبنون أن حانت بكم فرصة غدراً
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا أضاليلهم في الهند والكذب في مصرا
ومن مات دون الحق والحق واضح إذا لم ينل فخرا فقد ربح الغدرا

وقول فؤاد الخطيب :

لبيك يا أرض العروبة وأوسعي ماشئت من شدوى ومن انشادى
أنا لا أفرق بين أهلك أنهم أهلي وأنت بلادهم وبلادى
فلكل ربع من ربوع حزبة وهوى تغلغل في ضمير فؤادى

● ولكن الروابط العربية كانت قوية ووثيقة . كان الشعراء والأدباء يتنادون من أقصى المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي . شوقى وحافظ يناجيان سوريا ولبنان ومعروف الرصافي محبوب في تونس مذكور دائما وشعراء المهجر يذكرون بلادهم ويخفق قلبهم لها وأدباء السودان يناجون مصر، وهذاهو أبرز معالم « التجمع » لقد كان الفكر العربي هو حلقة الترابط بين جوانب الأمة العربية على الرغم من صراع الاستعمار ومؤامراته ، يقول شوقى :

وطن واحد على الشمس والضحى وفي الدمع والجراح إجتماع

ويقول « شفيق جبرى » أن شوقى حين جاء دمشق عام ١٩٢٥ والتى بها قصيدته الكبرى « قم ناج جلق وأنشد رسم من بانو » لم تمدح دمشق باعظم من ذلك . وقد وصف شوقى جنات دمشق ومفاتنها بما لم توصف به وستظل قصيدته غرة على جبين الدهر . وقد سمعت ممن عاصروا الثورة السورية أن قصيدة شوقى بها كانت وقوداً جديداً للفداء والاستشهاد .

وهذا عبد الله يوركى في حلب يؤمن بالوطن العربي الكبير ولواء العروبة عنده هو اللواء الذى يجب أن يسير نحو ظله مغنيا بأناشيده :

هـذا لوائنا امتد من أقصى العراق إلى اليمين

فانظره يخفـــق فى السماء كالقلب يخفق فى البـــدن
وأسمه يدعو العرب للمجد الرفيع أو الكفن

وهذه كتب العلماء المغاربة تدرس فى مساجد السودان ، وهذا الأدب المهجرى يؤثر فى أدب الحجاز ومصر وسوريا . وهذا هو الشعر العربى السياسى فى السنتين التاليتين للحرب ١٩ — ١٩٢٠ تجده واحداً فى جميع الأوساط السورية والعراقية نقمة على سياسة أوربا فى الشرق ودعوة إلى الجهاد فى سبيل الاستقلال والمحافظة على كرامة « العَلَمْ » العربى[1]. وقد كانت أصوات نجيب الحداد وعبد الحميد الرافعى وحافظ ابراهيم تستحث العرب على استرداد حقوقهم المهضومة فى قصائد نارية .

وهذا الزركلى يذكر « ميسلون » هذه الموقعة التى انهزم فيها السوريون ودخل الجيش الفرنسى « دمشق ».

الله للحدثان كيف يكيد بردى يفيض وقاسيون يميد
ما فى دمشق لناهض من عزة وبها سرادق غاصب محدود
بلد تبوأه الشقاء فكلما قدم استقام له به تجديد
خدعوك يام الحضارة فارتمت تجنى عليك فيالق وجنود
من ذا يكفكف ادمعا مهراقة كالغيث تهطل حسرة وتجود
تسمى بها فى النوطتين مباسم ذهب النواح بمائها وحدود

● وقد حاول الاستعمار أن يدأن « التجزئة » هى الطبيعة وأن بين الاقطار العربية فوارق طبيعية فقال فى ادعاءاته :

● أن سبب قيام هذه الدول العربية هو الاختلاف الموجود بين طبائع اهلها
● انها ليست الا امتداداً لكيانات قائمة منذ قديم الزمن .
● أن التجزئه تفيد البلاد العربية فوائد كبرى اما الوحدة والاتحاد فانها تضر العرب ابلغ الضرر .

(١) العوامل الفعاله فى الأدب الحديث: انيس المقدسى ١٩٢٩ نشر « المقتطف »

وقد كذبت الحقائق هذه الادعاءات وسجل الذين تصدوا للرد عليها بأن ماذكر من فروق بين العراق وسوريا — مثلا — ليست من الفروق الجوهرية وانها لاتفوق كثيرا الفروق التى تشاهد بين مختلف الايالات الفرنسيه. وهى فروق سطحية وعرضيه تتضاءل وتتلاشى بسرعه أمام التماثل الاسامى الذى لايزال قائما بينهما . وفى خلال هذه المرحله انتقلت الوطنية من اللون الدينى إلى اللون السيامى وبدأت الترجمة على أوسع نطاق وانشئت الجامعة المصرية التى فتحت ابوابها عام ١٩٠٨ واشترك فى تأسيسها مصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم امين وبدأت فى إرسال مبعوثيها إلى أوربا — ثم وضعت الجامعة تحت اشراف الحكومة عام ١٩٢٤ وقد تفاعل على الأدب العربى فى شتى اقطار العروبه فكان رداً قويا على محاوله الاستعمار فى تمزيق الوحده بين اهل القطر الواحد بعد أن مزق الوحده بين الوطن العربى كلة .

وكانت دعوة قاسم امين إلى تحرير المرأة التى ظهرت فى أوائل هذا القرن ، والتى سبقها ولحقها تجاوب من أمثال جميل صدقى الزهاوى من العراق وكثير من كتاب سوريا ولبنان — قد خطت خطواتها الواسعه وكما اشار محمد كرد على إلى مفاسد رجال الدين فى عصره اشار احمد فارس الشدياق من قبل إلى مفاسد الرهبان . وكانت جريده المنار والمؤيد واللواء والهلال والمقتطف والاهرام تحمل هذه التيارات المختلفه التى كانت تتصارع فى قوة وحاول البعض أن يربط بين نهضتنا وبين الثورة الفرنسية ، أو يربط عقلنا العربى بالتراث اليونانى أو يحول وجهنا نحو الغرب توجيها كليا وكانت زعامه الفكر العربى فى أوائل القرن مركزة فى لبنان . فقد كان من جراء الروابط التى تشات بين الاقليات المسيحية فى سوريا ودولتى روما واستابنول أن بزغت مدرسه أدبيه خاصة تصدرها مطران حلب (جرمانوس فرحات) عام ١٧٣٢ الا أن العرب لم يتأثروا بالتيارات الفكريه فى أوربا الا بعد الحملة الفرنسيه (١٧٩٨ — ١٨٠١) ثم مدرسة بطرس البستانى (١٨١٩

— ١٨٨٣) أولى المدارس الفكرية غير أن هذه الزعامة عادت إلى مصر وتركزت في مدرسة « الجريدة » التى كان يصدرها حزب الأمه ويرأس تحريرها احمد لطفى السيد (١٩٠٧) . وفى عام ١٩٢٢ التف الكتاب المجددون حول السياسة (هيكل) ١٨٨٨ - ١٩٥٤ وأهم ما تمتاز بهذه المدرسة التعمق فى فكرة الأدب . وقد وجهت جل جهودها إلى الأدب العربى القديم والشغف بالنقد وتاريخ الأدب[1] . ويجب أن يذكر إلى جوار هذا أن صحيفة اللواء التى كانت تحمل وقدة الوطنية ويحمل على الانجليز صدرت فى يناير ١٩٠١ ويرى أنيس المقدسى أن مابين عام ١٩٠٨ — ١٩١٠ كان دور اليقظة والرجاء والقضاء على الحكم الاستبدادى والتخلص من ربقة الجاسوسيه والرقابه ونبذ التعصب الطائفى واطلاق حرية الاقلام وانتعاش الروح الوطنية . ثم حل دور خيبة الامال وينتهى بدخول تركيا الحرب ١٩١٤ وهو مايسمى حركة رد الفعل وفى هذا يقول :

« بعد سنتين من اعلان الدستور أخذت النشوة العاطفيه التى اعقبت اعلان الدستور تخف . وبدا العرب يشعرون إن خطأ وإن صوابا من امالهم بالدستور لم يكن غير احلام بعيده التحقيق فكان لهذا الشعور رد فعل فى نفوسهم» .

● وبدأ فى العالم العربى صراع بين الثقافتين الانجليزية والفرنسية ففى مصر كان النفوذ الفرنسى فى مصر أيام الحملة الفرنسية وأيام محمدعلى ثم بدأ صراع الثقافة الانجليزية فى أوائل أيام الاحتلال . وكان هذا الصراع بين الفرنسية والانجليزية على حساب اللغة العربية . وفى الشام كان الانتداب الفرنسى قويا وكان عاملا من عوامل نشر الثقافة الفرنسية ولا سيما فى لبنان . وفرض الاستعمار الفرنسى فى لبنان اللغة الفرنسية على جميع المعاهد وكانت الارساليات الفرنسية قد بدأت

(١) « فى الأدب العربى الحديث — اغنا طيوس كراتسفوفيسكى الأستاذ بجامعة لينجراد » ١٩٣٦ — الرساله .

فى لبنان فى أواخر القرن التاسع عشر وكذلك الجامعة الأمريكية فى بيروت والقاهرة ...

● وفى خلال هذه الفترة وقعت معارك مقاومة ضخمة هزت الشعراء . ثورة ١٩١٩ فى مصر والثورة السورية فى دمشق والجبل والغوطه ١٩٢٥ و ١٩٤٥ . وثورة العراق ١٩٢٠ وثورة رشيد الكيلانى ١٩٤١ . وفى معارك عبد الكريم فى مراكش ١٩٢٦ ومقاومة عمر المختار فى طرابلس للاستعمار الايطالى سنة ١٩٣٠ لقد هزت هذه المعارك الفكر العربى وأثارته من الاعماق .

يقول الزيات[1] كان الزهاوى يهزج باغاريد الفجر على ضفاف دجله فتردد اصداؤها الموقظة على ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب وأن أدب الزهاوى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط آلهية غير منظورة حتى أستطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتحالف ثم يسمى ليقود أمة كما كانت و يقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون» . وكان «الأزهر» فى هذه الفترة عملاقاً يحمل أمانتين : أمانه الحفاظ على اللغة العربية وامانة المقاومة فقد شارك فى معارك المقاومة منذ أوائل القرن ، كانت معقلا للثورة الوطنية أيام الحملة الفرنسية وفى أيام الثورة العربية وثورة ١٩١٩ و كذلك كان النجف فى العراق معقلا للغة العربية والمقاومة ، وكانت الزيتونة فى تونس والجامع القروى فى مراكش وزوايا السنوسية فى ليبيا وجمعية العلماء فى الجزائر بقيادة عبد الحميد بن باديس والظاهرية فى حلب والأموى فى دمشق معاقل للغة العربية ومراكز مقاومة للاستعمار البريطانى والفرنسى .

وحملت مدارس دار العلوم والقضاء الشرعى فى مصر والجمعية الخلدونية فى تونس والأموى فى دمشق لواء المحافظة على اللغة العربية :

ومضى الكتاب فى تونس والعراق وسوريا يقبلون الآثار الأدبية مقلدين الغالب ومعجبين به ومستشهدين بآثاره وحكمه وآراءه .

---

(١) الرساله فى ٢٧ مارس ١٩٣٧ .

وفى خلال هذه الفترة الغيت الخلافة الاسلامية وقامت الدعوات لخلافة عربية وقامت الجامعة العربية بعد الحرب الثانية كمحاولة لكسب ود العرب بعد التآمر على ثورة رشيد الكيلانى .

وفى المغرب : هذا الشمال الافريقى كله من ليبيا إلى مراكش كانت الثورة الفكرية بعنصريها « المقاومة والتجمع » تضطرم وتشتعل كنواة لتجنيد الصفوف وتعبئة القوى التى قاتلت الاستعمار بعد ذلك فى معارك دامية استشهد فيها الالوف ولكنها كانت علامة حقه على الطريق الطويل : طريق الحرية وكانت نتيجة طبيعية لأثر اليقظة الفكرية التى أثارها القلم وحولها إلى لون الدم القانى ايمانا بالحرية فى النفوس ثم استشهاداً فى سبيل هذه الحرية ولكى نرسم صورة واضحة لمعركة المقاومة والتجمع علينا أن نستعرض الحركة الفكرية فى كل قطر من أقطار الأمة العربيـة على حده دارسين ظروفة وأحداثة ومظاهر التطور الثقافى فيه حتى نستطيع أن نلخص أبرز معالم اليقظة الأدبية والفكرية والاجتماعية فيه على ضوء ماتسفر عنه . وهذه الدراسات ولنبدأ بالجناح الايسر للامة العربية فى إفريقيا : من مراكش متجهين شرقا مارين بالجزائر وتونس وليبيا والسودان ثم الجناح الأيمن فى آسيا من الحجاز وفلسطين والشام والعراق حتى نصل إلى مصر قلب الأمة العربية .

- ٢ -

معركة المقاومة والتجمع

١ – استعراض تفصيلى شامل لجناحى الأمة العربية

١٨٣٠ — ١٩٥٣

١ – الجناح الأيسر (شمال أفريقا)

مراكش ، الجزائر ، تونس ، ليبيا ، السودان ، الجزيرة العربية

٢ –الجناح الأيمن (شرق آسيا)

العراق ، (سورية — لبنان) ، فلسطين ، المهجر الأمريكى

٣ – قلب الأمة العربية : مصر

شمال أفريقيا

الجناح الأيسر من الأمة العربية

هذا الشمال الافريقى كله من حدود مصر إلى الدار البيضاء ؛ أتمثله جناحاً للأمة العربية لا انفصال بين أقطاره ولا سدود بين دوله . فقد كان كذلك قبل الاحتلال الفرنسى ، إذ هاجمه الاستعمار مبكراً قبل أن يهاجم المشرق بنصف قرن (احتلت فرنسا الجزائر ١٨٣٠ — احتلت انجلترا مصر ١٨٨٢) ولقد كان هذا ضمن سياسة استعمارية مرسومة بين الدولتين الغربيتين : انجلترا وفرنسا اللتين ظلتا تسيطران على الأرض العربية منذ ذلك التاريخ وتتوسعان فى هذا الاستيلاء حتى الحرب العالمية الأولى ثم بدأ ينحسر سلطانهما حثيثاً .

ولعل قرب الشمال الافريقى من أوربا ، ومن فرنسا بالذات هو الذى شجع على احتلال هذه المناطق وربما كان ذلك فى نظر الغرب انتقاماً من العرب الذين هاجموا حدود فرنسا وتوغلوا فيها وقتلوا لويس التاسع وثأروا من اسبانيا بعد إخراج العرب عنها وسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ .

وإذا كان أهل المغرب يمثلون جانباً كبيراً من عرب الأندلس الذى عبروا إلى الشاطىء الافريقى بعد مأساة اسبانيا العربية — فأنهم بالاضافة إلى أهل المغرب نفسه الذين كانوا قوة ضخمة فى الكيـان العربى فهم الذين عبروا إلى اسبانيا واستولوا عليها ووصلوا فى زحفهم داخل فرنسا إلى نهر اللوار ، كما وصلوا من ناحية إيطاليا إلى قرب مدينـة روما فضلا عن استيلائهم على جزر البليار وغيرها من جزر البحر الأبيض .

ولعله — أى الاستعمار — كان انتقاما من ماضى المغرب فى حركة الاغارات

الضخمة التى قام بها المغاربة على سواحل اسبانيا وفرنسا ثأراً من خصومهم الاسبان بقيادة « بربروسا » حيث دالوا كثيراً من تجارتهم ومراكبهم وثروتهم وقتلوا عدداً كبيراً من رجالهم .

وللمغرب من قبل ذلك أثر فى المشرق فقد اتجه جوهر الصقلى إلى القاهرة فانضمت منطقة الساحل الافريقى والشام فى مملكة كبرى وصلت إلى جبال طوروس .

كل هذا الماضى المغربى العربى الماجد ما يزال حيا فى نفوس العرب قوة مقاومة وصلابة فى النضال ويكمن فى صدور أوربا ثأراً يدفعها إلى الإنتقام .

ولذلك فإنه سرعان ما تكاتفت الدول الثلاث إيطاليا وفرنسا واسبانيا على مهاجمة الساحل الافريقى والاستيلاء عليه : استولت إيطاليا على ليبيا . واستولت فرنسا على الجزائر واستولت اسبانيا على مراكش وبدأ عهد جديد من المقاومة المتصلة .

ولقد كان من أهم ما يهدف إليه الاستعمار هو فصل القوة العربية فى الشرق والغرب أو فى افريقيا وآسيا فأقام عزلة موهومة بين هذا الجناح الغربى القائم على ساحل شمال افريقيا وبين الجناح الشرقى القائم على ساحل آسيا : الشام بأجزائه الأربعة ، والعراق والحجاز . وكانت نقطة التركيز فى إقامة هذا الحاجز هى « مصر » .

ومع ذلك فإن مصر ظلت قلب العالم العربى كله والتقت فيها قوافل المهاجرين من الشرق ومن الغرب على السواء نتيجة لظلم العثمانيين أو من عسف الفرنسيين والإيطاليين .

وهاجر إلى مصر كثيرون منهم محمد الخضر حسين وعبد القادر الثعالبى وعلال الفاسى كما هاجر إلى دمشق من قبل عبد القادر الجزائرى ، ولكن الفكر العربى

ظل مقصراً تقصيراً شديداً بالنسبة للشمال الافريقي كله فإن أغلب الأبحاث التى كتبت والدراسات كانت لاتشير إلى المغرب إلا فى القليل . ولعل مرجع هذا أن فرنسا حرّمت على العرب دخول المغرب وعزلته عن المشرق ، وحالت دون وصول الصحف والكتب اليه إلا ما كان منها بعيداً عن الاشارة للقومية العربية ودعوة التجمع والمقاومة .

ومن المقطوع به أن المغرب العربى كله : ليبيا وتونس والجزائر ومراكش قد قامت بأعمال ضخمة فى مجال المقاومة والتجمع لا تقل إن لم تزد عما وقع فى الشرق .

فنى حربين عالميتين وقف عبد القادر فى الجزائر (١٨٤٧) ومحمد عبد الكريم فى الريف (١٩٢٧) سنوات طويلة فى مقاومة جبارة ولما انتهت كلتا المعركتين واصل المغرب المقاومة وفى ليبيا : قاومت السنوسية وهى صفوة الشعب كله (١٩١١) فى حرب طرابلس واشترك معها العرب جميعاً . ثم قاومت ليبيا مرة أخرى بقيادة عمر المختار (١٩٣١) سنوات طويلة

وفيما بين هذه المواقع الحربية كانت المقاومة شديدة الوطأة على المحتل الذى حاول أن يقسم ليبيا إلى ثلاث أقطار ولكنه عجز .

ولقد ظل المغرب العربى مهوى أفئدة أهل المشرق ، كما ظل المشرق مهوى أفئدة أهل المغرب وكان الفكر العربى فى لقائه بين المغرب العربى والمشرق العربى عاملا ضخماً فى تحطيم هذه الفواصل الاستعمارية مما دعا إلى كثير من التساؤل :

لماذا نكتب تاريخ الفكر العربى فى آسيا دون تاريخ الفكر العربى فى افريقيا ؟ لقد جرت محاولة لهذا العمل عندما صدرت مجلة الرسالة فى القاهرة وحاولت أن تربط الفكر العربى فى الشرق والغرب ولكنها لم تصل إلى الغاية المرجوة فقد كان محظوراً إلى عهد قريب الاتصال الفكرى مع تونس والجزائر ومراكش .

وإذا كان بضعة من مفكرى الشرق قد استطاعوا الوصول إلى المغرب، فإن قليلامنهم من استطاع أن يرسم هذه الصورة التى رسمها ساطع الحصرى حين قال:

« إن مراكش أجمل البلاد العربية على الإطلاق . إنها تجمع بين جبل لبنان -- وغوطة دمشق، ونخيل بغداد وتخلط الأرزوالنحل والزيتون بأجمل الصور وأبدع الأساليب .. » .

وإذا كانت «العثمانية» قد حاولت أن تحطم اللغة العربية لتحل محلها اللغة التركية، فودعت العربية ما بقى من جمالها وجزالتها وسادتها الركاكة وامتزجت الفصحى بالعامية فى مختلف أنحاء العالم العربى ، فإن الفرنسيين أجروا محاولة ضخمة لسحق اللغة العربية ولكنها لم تنجح بالصورة التى كانوا يطمعون فى الوصول إليها فقد واجهتها مقاومة ضخمة قام بها عبد الحميد ابن باديس والبشير الابراهيمى بإنشاء المعاهد العربية .

ويرسم الشمال الافريقى صورة مقاومه مستمرة ما زالت قائمة منذ قرن ونصف قرن لم تتوقف . ومع ذلك فهى لم تقتصر على العمل الداخلى بل شاركت وتجاوبت مع ما أصاب المشرق من مآس مختلفة وما قام به من ثورات .

وكان للزيتونة والزوايا السنوسية والقروى والخلدونيـة وغيرها من مراكز الثقافة العربية أثرها البعيد فى حماية اللغة العربية والفكر العربى .

ولقد تأثر الشمال الافريقى بالدعوة الوهابية وتفاعلت فيـه الدعوة السنوسية كما تأثر بالعروة الوثقى وزيارات محمد عبده وهجرة عدد كبير من الشباب المغربى إلى الأزهر فى القاهرة ، وهجرة عدد ضخم من الجزائريين مع الأمير عبد القادر إلى دمشق ؛ كل هذا كان له أثره القوى فى التفاعل العربى الواسع النطاق

والواقع انه لا سبيل إلى الفصل بين القضايا الفكرية فى الشمال الافريقى كله فهى فى مجموعها قضية واحدة ، فحملات التجنيس والتغريب والفصل بين البربر والعرب والادماج كانت تجرى كلها فى وقت واحد فى الأقطار الأربعة وان كانت تجرى وفق أساليب مختلفة .

١ - فى مراكش

يمثل المغرب (مراكش) القسم العربى من الشمال الافريقى وهوالذى يجمع فى استراتيجيته بين ساحل البحر الأبيض وساحل المحيط الأطلسى . وقد وقع تحت الاحتلال قبيل الحرب العالميـة الأولى . وفى نفس الوقت الذى احتلت فيه ليبيا .

لقد ظل المغرب (مراكش) طوال العهد العثمانى محتفظاً باستقلاله فلم يكن يوماً جزءاً من الدولة العثمانية وكانت علاقاته بدول أوربا قائمة على قدم المساواة وكانت له معاملات تجارتهمع الولايات المتحدةوإنجلترا .وقد ظلتمراكش طوال القرن التاسع عشروخاصة بعداحتلالالجزائر ١٨٣٠ — وبعدها بخمسين سنة احتلت تونس — موضع الأطماع المختلفة : الألمانية والاسبانية والفرنسيةو ظلت كذلك حتى هزمتالحملةالعسكريةالاسبانيةعام ١٨٦٠التى هاجمت ميناء سوته . وكانت محاولة تلتها محاولات أخرى للتدخل باسم مصالح الأجانب فى مراكش التىلم تكن ملتزمة لنظام الامتيازات العثمانية فى مختلف بلاد العالم العربى .

ولكن ماكاد القرن العشرين يبدأ ، حتى كان الاستعمار قدأخذ يقسم الحصص فيما بينه ويعقد الاتفاقات لتقسيم المنطقة والتعاقد على عدم اعتداء محتل منهم على الآخر ، ففى عام ١٩٠٢ عقدت فرنسا اتفاقا مع إيطاليا تركت لها اليد المطلقة فى ليبيا نظير تركها لفرنسا اليد المطلقة فى مراكش . وفى عام ١٩٠٤وقع الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا الذى اتفقتافيه على أن تبسط بريطانيايدها فى مصرمقابل أن تبسط فرنسا يدها فى مراكش .

وفى عام ١٩٠٦ عقدت الدول المتآمرة مؤتمراً فى الجزيرة الخضراء جرى

فيه تقسيم مناطق النفوذ فى مراكش بين فرنسا واسبانيا وكان ذلك تمهيداً لما وقع فى نوفمبر ١٩١١ حين هاجم الفرنسيون والاسبان مراكز هامة من البــلاد المراكشية وفرض الفرنسيون معاهدة الحماية بالقوة ووقعها السلطان تحت الاكراه والتهديد . وكان ذلك فى ١٣ مارس ١٩١٢ وتم تمزيق هذا القطر إلى ثلاث منــاطق : فرنسية واسبانية ودولية فى طنجة وأرسلت فرنســا إلى المغرب الجنرال ليوتى .

وقد واجه المراكشيون الاحتلال الفرنسى بمقاومة عنيفة ظلت مستمرة حتى عام ١٩٣٤ . ولم يكن من الطبيعى أن تخضع مراكش بسهولة للغزو الأجنبى وقد ساعدتها طبيعتها ذات التضاريس الحادة على الاستعمار فى المقاومة هذا الوقت الطويل .

وفى الوقت الذى أخذت اسبانيا تحتل المراكز الحربية على شواطىء مراكش قامت ثورة العصابات المراكشية المعروفة بالثورة الجبلية وأخذت فى منــاوأة الاسبان وأعلنت عليهم حرباً كلفتهم خسائر جسيمة وحالت بينهم وبين التوغل فى البلاد وقد اشترك فى هذه الثورة ثلاثون ألفاً من المراكشيين ضد مائة ألف جندى اسبانى مجهز بأحدث الأسلحة وبالرغم من تفوق الاسبان على المراكشيين فى العدد والعدة فقد أحرز الوطنيون كثيراً من الانتصارات .

وفى عام ١٩٢٠ ظهرت شخصية كانت بعيدة المدى فى أعمال المقاومة هى شخصية الأمير عبد الكريم الخطابى (١) الذى عرف ببسالته والذى سلمت إليه القيادة جميع جبهات المقاومة .

ومنذ ذلك الوقت تحولت الثورة إلى حرب وانتقلت من دفاع إلى هجوم . وأخذ الجيش الريفى الباسل يتقدم فى جميع الميادين وانهارت قوة الجيش الاسبــانى أمامه

---

(١) أقرأ قصة المقاومة بالتفصيل فى كتابنا « العالم الإسلامى والاستعمار »

ولم ينته عام ١٩٢٤ حتى أصبح شمال افريقيا تحت سيطرة الأمير و لم يبق فى يد الاسبان إلا بعض المدن الساحلية . واضطرت اسبانيا أن تفاوض مراكش فى الصلح وقد اشترط عبد الكريم جلاء جميع القوات الاسبانية عن مراكش بما فى ذلك مدينه ميليا وسبتة . وأزعج هذا الاتجاه فرنسا التى أحست بأن عبد الكريم سيستطيع بعد هذا النصر أن يقاوم فرنسا فى الجزء الآخر من مراكش وان تمتد ثورته إلى مناطق نفوذها فى المغرب العربى . ولذلك سرعان ما نزلت إلى الميـــدان بجيوشهـا . وأساطيلها من غير سابق انذار وضغطت على اسبانيا وأرغمتها على مواصلة الحرب وبذلك أصبحت القوات الريفية تواجه جيوش دولتين وبالرغم من ذلك فقد استمرت المقاومة عامين آخرين .

وفى مايو ١٩٢٦ نفذ ما كان بيد المجاهدين من معدات وذخيرة ، وقد ظل عبد الكريم ورجاله يحاربون حتى آخر رصاصة . واشترك معه مائة ألف مجاهد مراكشى فى مقاومة ثلاثمائة الف جندى اسبانى وبذلك كانت مقاومة عبد الكريم أعظم ثورة حربية ضد الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث امتدت ست سنوات كانت البلاد خلالها مجندة فى ميدان الحرب وكان أدبها هو أناشيد الحرب والنصر والجهاد .

٢ — محاولات الإدماج

بعد إرغام مراكش على الحماية (٣٠ مارس ١٩١٢) عين الجنرال ليوتى مقيما عاما فى مراكش وقد وصف بأنه شبيه اللورد كرومر فى مصر ، وقد حاول أن يسيطر على مراكش بأسلوب ماكر يعطى فرنسا السلطة الكاملة بطريقة غير مباشرة وبنفس الأساليب التى اتبعت فى تونس والجزائر ولم يلبث ليوتى أن بدأ حملة انتقامية على الذين ساهموا فى الثورة فصودرت أملاكهم وأعدم الكثير منهم وسجن الآخرون وشردوا وفى نفس الوقت كانت قوانين الامتيـازات العنصرية التى

سنت منذ أول الاحتلال تنفــذ فى عنف وكان نزع ملــكية الأراضى قائما .
وقد تم فتح أبواب الهجرة السياسية ومحاربة المعاهد العربية واحتــكار منابع الثورة .

ولــكن ما كاد « محمد الخامس » يتولى سلطته الشرعية (١٩٢٧) حتى بدأت حركة سياسية وأخرى ثقافية لاستنهاض الهمم والحض على عدم الاستسلام وبث روح التذمر من طغيان الإدارة الفرنسية وظهر « عبد السلام بنونه » الذى طورد وسجن وهو الذى أنشأ نواة الحركة الوطنية و « محمد[1] داود » الذى تزعم الحركة الثقافية . وعبد الخالق الطريس[2] الذى قاد الحركة الوطنية فى المنطقة الخليفية .

يقول عبد الوهاب بن منصور :

« كانت ولاية محمد الخامس سنة ١٩٢٧ نقطة الانطلاق نحو مصير جديد : لقد كانت البلاد عند ما ولى الملك فى حيرة وذهول من أثر الصدمة التى أصابتها بالحماية واخفاق ثورة الريف ، تلك الثورة التى كان باخفاقها ضعف الأمل فى نجاح المقاومة التى استمرت تقوم بها بعض القبائل بالأطلس والصحراء . لأن الحماية عمدت إلى أساليب مادية وأخرى نفسانية تجعل نجاحها أمراً بعيداً : حراســة صارمة على شواطىء المغرب البرية والبحرية . وتقسيم إدارى يجعل التنقل من نواحيه أشد وطأة من التنقل بين دولة ودولة . وشيوخ الطرق والعلماء الانتهازيون يدعون إلى الخضوع والاستسلام وسياسة التفقير والتجهيل تسير بخطى ثابتة فى الطريق التى خطها دهاقنة الاستعمار وحتى الصيحات التى كانت تتعالى من أفواه الأحرار فى الشرق والعرب لم يكن يسمع صداها فى المغرب لأن الدولتين الحاميتين آلتا على نفسيهما أن تحولا بين الــكتب والجرائد الاصلاحيــة والتقدمية وبين الوصول إلى منطقتى الحماية فــكانت العقول فى حيرة والنفوس فى يأس أو ما يشبه اليأس » .

---

(١) أصدر مجلة السلام .
(٢) أصدر جريدة الحياة — ١٩٣١ .

وهكذا تحولت المقاومة فى مراكش من مقاومة حربية عسكرية إلى مقاومة فكرية عميقة المدى ومضت فرنسا فى نفس الخطط : محاولات مع البربر أحد عنصرى الشعب المراكشى لفصلهم عن العرب إذ عمدت إلى استصدار (١٩١٤) مرسوما يقضى بجعل المحاكم المدنية والتجارية فى المناطق البربرية مستقلة تماماً عن السلطان .

وفى عام (١٩٢٠) جعلت لهذه القبائل حق الفصل فى الجرائم وإنشاء محاكم استئناف وقد رفض البربر هذا الاتجاه وقاوموه وتمسكوا بوحدتهم مع العرب . وتنكروا لهذه التفرقة العنصرية واشتركوا فى أعمال المقاومة الفكرية والسياسية باسم الدفاع عن العروبة وكان آخر هذه المحاولات (١٩٣٠) عند ما أصدرت فرنسا الظهير البربرى وقالت انها إنما تستمد روحه من بقايا التقاليد البدوية المتوارثة بين بعض قبائل البربر فى البادية المراكشية .

وفى نفس الوقت كانت فرنسا تبحث عن عملاء تستطيع الاعتماد عليهم لتربط بينهم وبين الفرنسين الذين نقلوا إلى مراكش ، ولما لم تستطع فرنسا استغلال جميع الأراضى الشاسعة التى اغتصبتها من القبائل الثائرة فى الأطلس الوسيط عمدت إلى منحها اصنائعها وعملائها من الباشوات أمثال الجلاوى وكبار « العمدالقواد » كما يسمونهم فى مراكش فقد تركوا لهؤلاء الاقطاعيين حق ممارسة السلطة القضائية فى اقطاعياتهم مما يناقض دعاوى الاصلاح التى يتستر بها الاستعمار الأوربى :

وقد قابلت فرنسا حركات التحرر الفكرى فى مراكش بأعنف وسائل القمع وعمدت إلى سياسة الفرنسة ثم سياسة الادماج (**assimilation**) فلما عجزت عنها حاولت أن تستعين ببعض المثقفين الذين تعلموا فى فرنسا لتحقيق هذا الهدف مع فرض اللغة الفرنسية ولكن الشعب قاوم بعنف فإن فرنسا لم تكد تتخذ قرارها بمنع القبائل البربرية من التحاكم بالشرع الإسلامى حتى تصدى لها

الرعيل الأول من أبناء جامعة القرويين فنظموا الاجتماعات وقادوا المظاهرات وطرحوا أرضاً أمام الفرنسيين يجلدون بالسياط وهال الفرنسيين موقف الشباب الذى حاولوا استمالته إلى جانبهم مرة بالترغيب ومرة بالترهيب . وظهرت فى البلاد حركة فكرية تميل إلى الإصلاح وهكذا ما كادت فرنسا أن تقف أمام المقاومة المسلحة ١٩٣٤ حتى كان « جنين المقاومة الوطنية يعلن عن وجوده فى استهلال بديع » .

وقد خاضت فرنسا غمار حربين عالميتين ، منذ أن أنزلت قواتها إلى المغرب ومع ذلك فإن المغاربة لم يغتنموا الفرصة لطعن فرنسا من الخلف والتخلص من حكمها بالرغم من هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية .

وفى ١١ يناير ١٩٤٤ أعلنت مراكش وعلى رأسها ملكها محمد الخامس ميثاق الاستقلال فعمدت فرنسا إلى التنكيل بالوطنيين والقبض عليهم وتشريدهم فهاجروا إلى مصر حيث تجمعت القوى العربية فى القاهرة تكافح فى سبيل الاستقلال وفى ٨ ابريل ١٩٤٧ أعلن محمد الخامس استقلال مراكش وحاول الفرنسيون كل محاولة معه دون جدوى ومضى يدفع مراكش بيديه القويتين إلى الأمام حتى انتهز الفرنسيون فرصة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ عند ما ذهب الجنرال جوان إلى قصر الملك وقدم له انذاراً بوجوب التبرؤ من الحركة الوطنية الاستقلالية التى يقودها علال الفاسى ولفيف من زملائه ورفض الملك . عندئذ زحفت على العاصمة جماعات من أنصار الجلاوى عميل الفرنسيين مهددة الحركة الوطنية ، فأضطرمت حركة المقاومة وكان السلطان محمد الخامس على رأس الكفاح فرأى الفرنسيون القضاء على الحركة بعزل سلطان مراكش ونفيه وفى مايو ١٩٥٣ عاود الفرنسيون تحريض صنائعهم بقيادة الجلاوى ضد السلطان وزحف الجلاوى على العاصمة وتوجه يوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٣ المقيم الفرنسى الجنرال جيوم إلى قصر السلطان حيث

عرض على جلالته وثيقة التنازل عن العرش فمزق السلطان الوثيقة وفضل النفى وقد تم نقله فوراً بالطائرة إلى كورسيكا وأقامت فرنسا سلطانا مزيفاً هو محمد ابن عرفه فى ٢٦ أغسطس ١٩٥٣ وهنا اندلعت نار الثورة المراكشية بصورة جبارة عجزت فرنسا عن مقاومتها واضطرت بعد عام واحـــد إلى إعادة السلطان واعلان استقلال مراكش فى فبراير ١٩٥٦ ومن ثم بدأ عهد جديد ..

٣ — المقاومة الفكرية

ماذا كانت معالم الحركة الفكرية فى خلال فترة المقاومة ؟ منذ عام ١٩١٢ إلى ١٩٥٤ .

يقول علال الفاسى[١]. « منذ انهزم الصليبيون فى الشرق وانتصروا فى الأندلس وهم يعملون على تحقيق أهدافهم فى المغرب العربى وقد نظم سان لويس ملك فرنسا حملة على تونس (١٢٧٠) حين لقى حتفه فيها بين قرطاجنة وتونس فى نفس العام وفى ١٤١٥ استولى البرتغال على سبته .

ويقول[٢] : إن الحركة الوطنية فى (مراكش) قد قطعت أشواطاً بعيدة بما غرسته من فلسفة دينية وما بثته من تفكير ديمقراطى لا يعترف بالفوارق المبنية على الدم أو على الفضيلة ولـكن ناحية واحدة ستصلح هذه الآثار إصلاحاً عميقا هما إحلال الحزب والنقابة الجمعية والمسجد محل المنظمات العرفية والعائلية وتـكوين الطاقات المغربية الجديدة التى لا تتصرف إلا لخدمة الشعب وتحقيق سعادته وأمنه » .

وقد ردد كثير من المؤرخين هذا المعنى الذى أشار اليه المفكر علال الفاسى بأن حملات فرنسا واسبانيا على مراكش إنما كانت محاولة للثأر من : الماضى

(١) كتاب المغرب العربى ١٩٥٥ .
(٢) كتاب النقد الذاتى لعلال الفاسى الذى وصفه بأنه صرخة عربيه فى سبيل التحرير .

فقد هاجت الحملات العربية سواحل فرنسا وتوغلت فيها حتى نهر اللوار كما كان لإسبانيا إتجاه عكسى بالرغبة فى احتلال أرض العرب بعد أن طردتهم من الأندلس فقاوموها وأغاروا على سواحلها غارات عنيفة جبارة .

وقد حاولت فرنسا طوال مدة حكمها للمغرب أن تفصل بين المغرب كله وبين سائر أقطار العرب وأن تحجز بين كل جزء من أجزائه مع توهين الصلات الثقافية والروابط السياسية والاجتماعية كما حاولت التقليل من قيمة مقومات الإسلام والعربية وكان هذا برنامجا استعماريا شاملا فى العالم العربى كله ولكن المغرب — باعتباره القاعدة الأمامية للاسلام الذى اندفعت منه القوات الزاحفة إلى جزيرة « أيبريا » وعبرت البرانس وانساحت فى جنوبى فرنسا وسويسرا وايطاليا وصقليه ومالطة — فقد لقى جزاءاً مضاعفاً على ذلك بالتسلط الفرنسى العنيف.

وقد بقى المغرب الأقصى متصلا أقوى اتصال بالأندلس وتاريخه وأمجاده وكان للمقاومة الفكرية الضخمة فى مراكش أثرها فى أنه ظل أقل أقطار شمال أفريقيا من حيث تغلغل النفوذ الفرنسى اقتصاديا وثقافياً .

وما برحت مراكش أكثر الأقطار الأفريقية وحدة والتفافا وثباتا فى مجموعها السياسى وفى خلال فترة المقاومة الفكرية — بعد المقاومة الحربية — عملت مراكش على محاربة الطرقيين والتصوف الكاذب وذلك بعد أن تبنى الاستعمار — كما هى عادته فى مختلف أقطار العالم العربى - جماعة من الشيوخ الأدعياء وأغدق عليهم ليستعين بهم فى القضاء على روح المقاومة ومعانى التجمع ممثلة فى العربية وروح الاسلام . وقد روى « أنه كان الواحد منهم يذهب إلى القبيلة المجاهدة فلا يزال يفتل لها فى الحبل والغارب حتى تقبل الرضوخ للحكم الأجنبى » وقد شنت القوى اليقظة فى مراكش حملة عنيفة على « هذه الطرقية العفنة والدجل باسم الدين[1] » .

---

(١) عبد الوهاب منصور — مجلة صوت الحق : الرباط ١٩٥٧

ولما كانت الحركة السلفية النقية فى مراكش هى التى تحمل لواء الحركة الفكرية فقد صور الأستاذ الحسن السايح[1] عملها فى هذه الفترة وأثرها فى توجيه الشباب الذى يتقن ثقافة فرنسية قال :

لقد كانت مهمة الحركة السلفية قبل الاستقلال مقاومة المستعمرين وتطهير الفكر والرجوع بالإسلام إلى عذوبة ينابيعه الأولى . وقد أصبحت الحركة السلفية تواجه مشاكل أخرى منها توجيه الشباب المغربى الذى قرأ كثيراً عن فلاسفة الغرب وفلسفتهم المادية وتعرف إلى الحضارة الفكرية بطريقة منظمة . ولاشك أن هؤلاء لا يعرفون الا نزراً عن حضارة الشرق الروحية ، وهذا النزر الذى يعرفونه مشوه مبتور » .

وقال الحسن السايح أن مثل هؤلاء يكونون خطراً على نهضتنا الجديدة لأنهم غرباء عن الفكر المغربى » وإن كان يرى أنهم « يجارون التيار الفرنسى تزلفا وربما جاروه مجاراة لا تخلو من استسلام وعدم اكتراث » :

وفى خلال فترة الاحتلال عمدت المقاومة الفكرية إلى دعم اللغة العربية وتثبيتها أمام التيار الفرنسى الذى كان يعمل بكل مافى وسعه للقضاء عليها وقد كافحت المدارس العربية فى مراكش فى هذا الصدد . ونهضت اللغة العربية لذلك ولا سيما بين البربر واستطاعت أن تقاوم .

وقد صور « علال الفاسى » مابذله المستعمر فى سبيل محاربة اللغة العربية واحلال لغته محلها :

« بذل المستعمر كل مافى مستطاعه لإحلال لغته الخاصة محل اللغة القومية ولم تمض مدة قليلة حتى أصبح الشباب فى المستعمرات لا يتكلم فى المسائل ذات الأهمية ولا يكتب حولها إلا بلغة المستعمرين .

---

(١) مجلة دعوة الحق المغربية . أغسطس ١٩٥٧

ومن المعلوم أن الغاية ليست هي إحلال كلمات أخرى ، ولـكن إحلال فـكرة محل أخرى .

وقد نجح المستعمرون فى هذا نجاحا كبيراً حتى أنهم استطاعوا أن يجعلوا فى الشباب من يقدر على التفـكير بلغتهم ولو تـكلم أو كتب بلغته هو . فاللغة الأجنبية مهدت للمستعمر سبيل السيطرة على فـكرنا وتوجيهه الوجهة التى يريدها .

فأصبحت الـكلمات العربية فارغة من معانيها الأصلية فى نظر العرب أنفسهم ولـكنها عامرة بالمعانى التى تشتمل عليها الـكلمات الأجنبية التى تقابلها عادة فى الاستعمال ونشأ عن ذلك تحول فى مدلولات القيم وفى مفهومات العقائد والديانات . وهكذا تغلغل الاستعمار فى صميم حياتنا فى أفـكارنا ودياناتنا ومبادئنا فنزع عنها ماهى قائمة به فى أعماقنا واذا بنا نجدها خارجة عن وجودنا وغريبة عنا فنحكم عليها بما يحكم به الأجنبى ونبنى عليها ما يبنيه الأجنبى من أحكام ونظريات» .

وقد صورت مجلة الأنيس التى تصدر فى تطوان الموقف الفكرى فى عام ١٩٤٧[1] فقالت :

« نحن فى عصر اندثر فيه الأدب المغربى ولعبت الأيدى بالفنون والصنائع المغربية وأصبح المغرب فى طور تلقيح جديد يحتاج إلى تدعيم سريع .

إن الأدب المغربى الذى أصبح فى طور تـكوينه لا يمكن أن تنجح فيه عملية ما مادام لم يسلك مسلـكا أدبياً محضا ، خاضعاً لقوانين الثقافة العالمية .

هذه فترة من الركود التى تقدر بقرن تقريباً • على الأدب المغربى دون أن ينتج شيئاً يذكر . وهذه الحروب العالمية الأولى والثانية لم تجد من يكسو معركة

(١) نقلها روفائيل بطى : الثقافة المصرية ١٥ ابريل ١٩٤٧ .

منهاحلة أدبية مغربية . وهذه النهضة المغربية الحديثة أيضا والحوادث التى تتكرر يوما بعد يوم كل ذلك لم يجعل قلوب الأدباء تفيض وتعبر عنها بما يخالج شعورهم الحى فيصورون لأبناء جنسهم ما وصلت إليه قريحتهم ليحذوا حذوهم ؟ ويتبعوا منهاجهم فى إحياء مجد المغرب .

٤ — الدعوة البربرية

بلغت دعوة فرنسا إلى عزل العرب عن البربر فى مراكش أوجها وإن كانت قد شملت جميع أقطار المغرب .

وقد كشف لويس ماسينيون[1] عن المؤامرة الفرنسية ، فقال إن هدف فرنسا عن المؤامرة فى مراكش والمغرب كله هو محاولة بعث أمة مغربية تقوم على فكرة الجنس البربرى وقال « لقد حاولت الادارة الفرنسية أن تشد من أزر الروح الجنسية بين بربر مراكش باستصدار الظهير السلطانى (١٦ مايو ١٩٣٠) الذى قضى بتنفيذ القانون العرفى البربرى وقانون الأحوال الشخصية فى تلك الناحية بدل الشريعة الاسلامية » .

وقد لقى هذا الهدف الفشل المحقق . وسجل لويس ماسنيون أيضاً (فى هذه الفترة ١٩٣٠) أن أبرز معالم الحركة الفكرية فى المغرب « فكرة الجامعة العربية التى ترمى إلى تقريب الأواصر بين الأقلية العربية فى مدن المغرب وبين الشرق العربى الذى اتى منه معظم تلك الأقلية منذ ٩٠٠ عام وترتكز دعاية الجامعة العربية على إصلاح التعليم وهى تحرص على إعادة تعلم اللغة العربية الفصحى . وطبيعى أن تكون على عداء لدراسة واستعمال اللهجات العامية كما يدعو إلى ذلك طائفة من مستشرقى أوربا . ولا يزال المشرق يؤثر فى مسلمى المغرب تأثيراً لا ينكر

---

(١) كتاب وجهة الاسلام — ١٩٣٢ .

ولا سيما من ناحية الجامعة العربية كما روج لها السوريون أمثال الأمير شكيب أرسلان أو المصريون كفريد وجدى » .

أما مايدعو إليه طائفة من مستشرقى اوربا فى المغرب فهو كما نقله المؤرخ العربى القاضى عبدالله جنون عن إحدى الصحف المراكشية تحت عنوان « أزمة الفصحى فى شمال أفريقية » وهو تعليق على آراء المستشرق كولان .

أزمة الفصحى فى شمال أفريقية

« إن الأمم[1] الناطقة بالضاد شرقا ومغربا تعانى اليوم كفاحا بين العربيتين الفصحى والدارجة وتؤثر هذه المعاناة فى الحياة والأدب أيما تأثير .

إن الشطر الأكبر فى أزمة اللغة العربية فى المغرب إنما يرجع إلى قوة سلطة الاستعمار هناك ولو أن هذا الاستعمار قد اتخذ طريقاً دستوريا مبسطا أو خفف من وطأة سيطرته قليلا لما كانت هناك أزمة لغوية قاسية . ونمثل لذلك بمصر فلا يستطيع أحد أن يقول عن أدبها الحديث أنه أدب (متفيقهين) كما يقال عن أدب المغرب ذلك لأنها بدأت كفاحها الوطنى منذ بعيد وكانت الروح الاستعمارية فيها أخف وطأة بكثير منها فى المغرب . لهذا وجد التعليم والثقافةواللغة الفصحى متسعا عندها ولم يحاول الاستعمار فى مصر أن يحارب اللغة كثيراً فبقيت اللغة العامية مقصورة على الفصحى المحرفة .

أما فى المغرب فقد أدخلت كلمات كثيرة من الاسبانية والفرنسية والايطالية على العربية فمسختها ولوثتها . وكم نخشى أن تثبت هذه الكلمات إلى النهاية فى المغرب ثبوت الكلمات الفارسية فى لغة العرب منذ الفتح العربى فى فارس .

إن لغة المغرب حتى الفصحى تبتعـد عنا حتى فى الكتابة وفى طريقة

---

(١) النصوص عن جريدة الصباح التونسية .

الخط ورسم الحروف ونراهم يرسمون نقطة الفاء من أسفل ونراهم يضعون للقاف نقطة واحدة » .

وقد رد عليه عبد الله جنون بقوله :

• الأزمة التي يتحدث عنها لا وجود لها إلا في مخيلته وفرنسا وإن نصت على فرنسه التعليم منذ نزلت هذه البلاد ولم تقدر أن تخلق هذه الأزمة لأن الشعب المغربي جد متشبث بعربيته ويقدمها في الطلب على كل لغة أخرى يساعده على ذلك أساتذة المعاهد الدينية وعلى رأسها القرويين .

أما أن عامية المغرب هي أبعد عن الفصحى من عامية مصر والشام والعراق فهذا لا يمكن أن يقول به إلا جاهل أو مضلل يريد أن يصل إلى غايته من طمس الحقيقة وتزويرها .

• ويلزمنا أن نصرح بأن عامية المغرب هي من أقرب اللهجات إلى الفصحى لكثرة ما تشتمل عليه من التراكيب الصحيحة والكلمات الفصيحة

اما كثرة المفردات اللغوية التي تشتمل عليها فحدث ولا حرج حتى أن منها ماقد يعد اليوم عند بعضهم من قبيل الغريب .

• ولسائل يسأل ماهو السبب الذي بقيت به عامية المغرب قريبة من الفصحى في حين ابتعدت عنها عامية الأقطار العربية الأخرى على قربها من موطن العروبة الأصلي وبعد المغرب عنه .

والجواب سهل وهو أن سبب ذلك : استقلال المغرب الذي لم يتطاول إليه الحكم التركي في حين أن هذا الحكم قد شمل سائر البلاد العربية وعمر فيها قرابة ستة قرون . فقضى به على جميع ما كان فيها للعربية من مجد وسمو وبقيت لاترفع رأساً .

• إن المغرب قد سلم من ذلك التسلط الأعجمى وبقى محتفظا بصيغته العربية وزاده قربه من الأندلس وحلول مهاجرة « الفردوس المفقود » به استعرابا وشدة تمكنه من العربية حتى لقد غبر عليه عهد كان وحده حامل راية العروبة لا ينازعه فيها منازع .

وقد عبر عن ذلك العلامة محمد بيرم الخامس صاحب كتاب صفوة الاعتبار بهذه العبارة البليغة التى هى دليل قاطع على هذا الوضع (لعمرى أن صناعة الإنشاء فى الدول باللغة العربية كادت تكون الآن مقصورة على دولة مراكش) .

• بان بهذا أنه ليس فى المغرب أزمة لغة وأن كثيراً من البلاد العربية يتكلم العامية الفصحى . وليست عامية المغرب أبعد عن الفصحى من العاميات العربية الأخرى بل هى أقربها أو من أقربها إليها .

وإن كانت هناك أزمة فإنها أزمة التعليم فإن المغرب على عظمته ليس فيه إلى الآن غير ثلاث مدارس ثانوية . وليس بالمغرب تعليم عال ولا جامعى أصلا لا بالفرنسية ولا بالعربية ماعدا التعليم الدينى بالقرويين .

• أما القول بأن كلمات كثيرة من الإسبانية والفرنسية والايطالية قد أدخل على العربية فى المغرب فإنه بعيد جداً عن الصواب والعامية فى المغرب – ونعنى به المغرب الأقصى – لم تتأثر بلغة المستعمر أصلا وفى بقية الأقطار المغربية إن كان وقع شىء من ذلك فهو دون ما وقع للعامية فى مصر والعراق والشام وغيرها من التأثر المظيم بالتركية .

ويختم عبدالله جنون هذا العرض الشامل بقوله :

لا أدل على سوء نية الاستعمار فى المغرب من أن المستعمرين أرادوا فى عام ١٩٣١ أن يتبعوا مذهب (فرق تسد) وراحوا يدخلون فى روع أهل المغرب أنهم

نشأوا من أصلين عربى وبربرى وأرادوا أن يضعوا نظاما قضائياً خاصاً للبربر وآخر للعرب ليثيروا الحفائظ والسخائم بين أولئك وهؤلاء وبهذا يسود الاستعمار .

ولكن أهل المغرب تنبهوا آنذاك إلى الدسيسة وثاروا عليها فأسرع إليهم المسيو (دوميرج) واستطاع أن يخمد النار بالملاطفة واظهار الود إلى حد العناق .

ليست هناك أزمة لغة ولكن هناك أزمة الاستعمار تقتل اللغة وتبعد الشقة بين الدارجة والفصحى وتدخل الغريب على اللغة ويشهد فى هذا القول الدكتور زكى مبارك الذى يقول :

« الدارجة فى تونس غير بعيدة من الفصحى . بل هى قريبة من دارجتنا فى مصر ، على غير الحال فى الجزائر إذ يتعذر علينا فهم دارجتهم وذلك لشدة وطأة الاستعمار فى الجزائر وخنقها فى تونس ولا سبيل لانتصار الفصحى هناك إلا باضمحلال نفوذ الاستعمار » .

٥ — بعد الاستقلال

يعد يوم ٢ مارس ١٩٥٦ يوما خالداً فى تاريخ المغرب : أو هو اليوم الذى أعلنت فيه وثيقة استقلال المغرب وهو حد فاصل بين الماضى والحاضر تظهر إثارة واضحة فى معالم الفكر العربى فى مراكش فقد بدأت الحركة الفكرية فى ظل الاستقلال تستكشف المستقبل وتحاول أن تعالج آثار الماضى وقد ظهر عدد من الكتاب يحاولون أن يغطوا الثغرات التى خلفها الاحتلال الطويل .

يقول محمد المختار بن أباه : إن الاستعمار وإن كان قد ارتفعت رسمياً سيطرته السياسية من المغرب فإنه قد تمكن فى ظرف خمسين سنة من وضع سيطرة فكرية روحية ليست أقل خطراً من سيطرته السياسية . إن مخلفاته — أى

الاستعمار — وإن كان يصعب إحصاؤها بالضبط فأنه يمكن أن نلخصها فى هاتين النقطتين :

(١) محو اللغة العربية واحلال اللغة الفرنسية محلها (٢) تشويه الإسـلام وإيهام ضعاف العقول أن مبادىء هذا الدين تتنافى مع العلم والترقى .

« إن اللغة الأفرنجية قد فرضت على الأجيال الناشئة فى المغرب مع ما يتبعها من تفكير وقيم ومعايير حتى إن أكثر المتـكلمين بالعربية إنما يترجمون تفـكيرهم الأفرنجى ويزنون بالموازين التى استمدوها من هذا التفـكير .

ويقول محمد على الـكتانى[1] « يحق لنا أن نتساءل أين هو تاريخنا هذا الذى يكتسى هذه الأهمية ويطوى بين ضلوعه هذه الدفعات من الحيوية والنشاط ويخفى بين سطوره هذه الرموز من الإبداع والتفوق . هل آن الأوان لأن نعلن أن تاريخنا يكاد يكون مجهولا وإن كتابته على النهج العصرى حلم لم يتحقق حتى الآن .

لقد كان الـكتاب يتخلصون قديماً بحجة الاستعمار الذى كان يكبل العقول ويلجم الأفـكار ويحجز الـكلام ويضع على الأيدى والألسنة قيوداً ثم زالت الأستار وتحطم السد فانفتحت كل الأبواب ولم يعد هناك عذر مقبول » .

ويقول علال الفاسى : لا يمكن أن نعتبر أنفسنا أحراراً بمعنى الـكلمة إلا إذا حررنا فـكرنا من اللغة الأجنبية وحررنا كلماتنا من المدلولات الأجنبية عنها .

نحن فى حاجة إلى مدرسة جديدة تعلمنا إلى جانب العلوم التى لا تختلف باختلاف الشعوب وجودنا كما هو ومن أين يبتدىء وإلى أين ينتهى . تعلمنا جغرافية أرضنا والأرض التى تمتد إليها . وطبيعة هذه الأرض والتفاعلات الإنسانية التى كونت تاريخها والحضارة التى اهتدت بها وكيف كانت صلتها بالغير والعواطف الإنسانية التى تبلورت فى الدين فى الخلق .

---

(١) مجلة دعوة الحق المغربية — يناير ١٩٥٨

إننا نريد من المدرسة المغربية أن تعلمنا انسانيتنا لا انسانية الآخرين ونحن ندرك أننا لا نستطيع تكوين فكر إجتماعى منفرد حول مشكلة ما ، ألا إذا وضعناها فى اطار فكرنا الاجتماعى العام الذى يقوم على عقيدة وعلى خلق .

ويقول محمد بن العربى بنونه :

« المغرب اليوم فى مفتتح حياة جديدة يجب أن يتغير فيها كل ما يمت بصلة إلى عهد الاستبداد والاستعباد وأن لا يفضل المصلحون أى شىء من هذه الصلة مهما تفه قدره وحقر مقداره ، فان المرض العضال ينشأ من جرثومة لا ترى وقد تكون انتكاسة أخطر من الاصابة الأولى .

وأن أهم مايجب تغييره ما تركه الاستعمار فى العقول من إلحاد ومادية .

وفى القلوب من قسوة وميل ومن الجوارح من جموح وحرون : وفى النفوس من ضعف سوء وما تركه فى المدرسة من تضليل وتجهيل .

فلقد كانت أيدى الاستعمار تبسط نفوذها فى كل ميدان للقضاء على كل المقومات التى تنهض بالأمة والتى تخرجها من الظلمات إلى النور .

إن الحياة الجديدة للمغاربة يجب أن تتغير وأن تقلب رأساً على عقب ويجب أن يكون هذا التغيير مبنياً من أول يوم على أسس متينة من أخلاق الاسلام وتربيته وشريعته وآدابه :

ويصور « عبد القادر الصحراوى » رئيس تحرير مجلة صوت الحق المغربية معالم الفكر المغربى العربى المعاصر بعد الاستقلال[1] :

إن بلادنا تتوفر على طاقات فكرية هائلة ولكنها لم تبرز بعد بكل قوانا الفكرية إلى ميدان الكتابة والتحرير والتأليف . ولذلك أسباب كان على رأسها

(١) مجله صوت الحق يونيه ١٩٥٨

من قبل الاستعمار ولا تزال على رأسها حتى الآن مخلفات الاستعمار وتركته الثقيلة المعفنة التي تشغل الفكر وتخلق المشاكل وتشعب السبل وتعقد الأشياء ،

إن في بلادنا جيلا كاملا من المثقفين كان لأفراده بيننا فضل دق ناقوس الخطر وفضل الاثارة والتوجيه والتعلم والكفاح في جميع الميادين وفضل التبشير بمستقبل حر . لكننا مع ذلك نكاد نخسر هذا الجيل في ميدان الكتابة والتحرير والتأليف . لماذا ؟ لأن أفراد هذا الجيل لم يتعودوا أن يكتبوا . وأن المسؤول عن ذلك هو الاستعمار . الاستعمار الذي يخاف الكلمة المكتوبة لأنه يعرف معناها وعملها وتأثيرها ويستطيع في نفس الوقت أن يقف في وجهها وهكذا تعود أفراد هذا الجيل أن يتكلموا ويقنعوا أو أن يحلوا في الكلام وأن ينفقوا منه عن سعة وعلم وإدراك وخبرة وفلسفة وثقافة ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يستطيعون أن يكتبوا ، فإذا حاولوا الكتابة فان عليهم أن يضعوا نصب أعينهم مقدما قلم الرقابة وقاضي التحقيق والمحاكمات الشكلية وتهم المس بالدولة الحامية ثم ما يتبع كل ذلك من السجن والنفي والعذاب والتشريد :

أما الجيش الناشيء من المثقفين : فالخسارة في هؤلاء أنهم تلقوا تعليمهم كله بلغة أجنبية ولم تتح لهم الفرصة ليتعلموا لغتهم فيستطيعون أن يكتبوا بها » وفي ظل هـذه الصور بدأت حركة ضخمة ستؤدى حتما إلى نتائج بالغة الأهمية في سبيل البعث والأحياء وإبراز أمجاد الأمة المغربية العربيه على أساس علمي حديث .

٦ — كتاب المغرب

وفي مقدمة من يحملون هذا اللواء القاضي الوزير « عبد الله جنون » الذي يقف على رأس مدرسة من مدارس الفكر المغربي العربي تجمع بين القديم والحديث في قوة وعمق ، وكتاباه « ذكريات مشاهير المغرب » في أجزاءه التي بلغت الثلاثين وزيادة تمثيل هذا اللون من أحياء تاريخ أعلام المغرب ودراستها من جديد .

وفي مقدمة أسماء الأعلام أصحاب هذه الدراسات :

أبو بكر بن شيرين وابن عبد ربه المكناسي واحمد بن شعيب الجزنائي وابن الونان وابن غازى وعثمان السلالجي والأمير سليمان الموحد وعبد العزيز الملزوزى ومالك بن المرحل وميمون الخطابي وأبو العباس الجراوي وأكنسوس وأبي جعفر ابن عطيه والوزير بن ادريس وأبو القاسم الزياني وعبد العزيز القشتالي :

أما بحثه الثاني فهو كتابه الضخم في مجلدين كبيرين « النبوغ المغربي في الأدب العربي »(١) ويعد من أعظم أعماله وهو تصوير للحياة الفكرية للمغرب وتطورها في العصور المختلفة يقول « كثر عتب الأدباء في المغرب على اخوانهم في المشرق لتجاهلهم إياهم وانكار كثير من مزاياهم ولكن أغلب اللوم في هذا مردود على أولئك الذين ضيعوا أنفسهم وأهملوا ماضيهم وحاضرهم حتى أوقعوا الغير في الجهل بهم والتقول عليهم وبتقديم هذا الأثر الضئيل إلى الدوائر العلمية سنزيل كثيراً من التوهم والتظنن في تاريخ المغرب الأدبي وسنرفع حجاب الخفاء عن جانب مهم من الحياة الفكرية لأهل هذا القطر .

« وفضيلة هذا الكتاب في أنه ليس لقطر من أقطار العروبة اليوم نظيره إذ أن جميع كتب الأدب وتاريخه عامة تنظم البلاد العربية جميعاً ما عدا المغرب بالطبع وعمل مثل هذا لا يخفى على العارف ما يقتضيه من جهود جبارة ومشاق عظمى وإذا تذكر مع ذلك أن مصادر هذا البحث الجليل هي أقل من القليل » .

وإذا كان الكاتب يتحدث في هذا التواضع عن مؤلفه فإن الأدباء يشيدون بعظمة هذا الأثر فيكتب الأمير شكيب أرسلان إلى المؤلف يقول : « كنت أعهد نفسي من بين المشارقة الرجل الذى اطلع أكثر من غيره على تاريخ المغرب وأهله وأنعم النظر فيما يتعلق بثقافته وسياسته وسائر شئونه ولكن رأيت نفسي بعد أن طالعت هذا الكتاب الصغير حجمه الكبير قدره كأني لم أعلم عن المغرب

---

(١) صدر عام ١٩٣٨ م ١٣٥٧ هـ .

قليلا ولا كثيرا . وكدت أقول ان من لم يطلع على هذا الكتاب لا يحق له أن يدعى فى تاريخ المغرب علما ولا أن يصدر على حركاته الفكرية حكما ، وكما قيل فى كتاب نفح الطيب للعلامة المقرى من لم يقرأه فليس بأديب يمكن أن يقال ان من لم يقرأ كتاب النبوغ المغربى فى الأدب العربى فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمى والأدبى والسياسى . بل هذا الكتاب فى موضوعه أجدر بالاطلاق الشامل من نفح الطيب فى موضوعه » .

وفى مقدمة كتاب ذكريات مشاهير رجال المغرب يرسم المؤلف صورة واضحة للحركة الفكرية فيقول « المغرب هو أحد الشعوب العربية الإسلامية التى أثلث مجدا وحضارة وضربت بسهم وافر فائز فى ميدان العلم والسياسة ثم تعدت به الجدود العواثر فى مجاراة الأحياء وسنن الكون فوجب تنبيهه إلى ما كان له من عز وكمال ونفخ روح الحفاظ والحمية فيه . وقال ان هذا الكتاب يعطى الصورة الحقيقية « للمجهود الكبير الذى بذله المغرب فى سبيل اثبات شخصيته والمحافظة على كيانه أمام المؤثرات القوية التى حاولت مرارا أن تمحوه من صحيفة الوجود » وقال انه لذلك أراد أن يتوسع فى عرض الشخصيات التى كان لها أثر محسوس فى هذا الاتجاه ثم يقول انه أطلق عليه كلمة ذكريات ولم يسمه « تراجم » أو كتابه حياة **Biografia** لأنه لم يكن ترجمه بالمعنى الكامل .

وقال « حرصنا على سلاسة العبـــارة وطلاوة الأسلوب وإبراز حرارة النكتة واستثارة روح الإعجاب مع الأمانة والصدق وعدم الغلو فى مدح أو تقدير شىء من الأشياء » وقد قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام : أهل الادب وأهل العلم وأهل السياسة .

ويقول الكاتب المراكشى : إنه لايستنكف أن يصرح بأنه (أى نفسه) أعد اعداداً ليكون من هؤلاء الفقهاء الذين يحكمون ويفتون . ولذلك فهو قد جمل

من قول شعبه نبراساً له « كل علم ليس فيه حدثنا وأخبرنا فهو خل وبقل » وقد أطلق على أحد مؤلفاته المتعددة اسم « خل وبقل » وقال ان هذا الاقتباس ينم على اتجاه الكاتب وتأثره باصطلاح أهل الحديث .

ويقول فى تصوير آثاره الأدبية (١)

• ما عالجناه منذ فجر النهضة التعليمية بهذا الوطن العزيز من « التمهيد » والتمكين للغة الضاد وآدابها خشية أن تجرفها الرطانات الأجنبية المختلفة . هذا الباحث الذى جعل هذا الفقيه المحدث ينصرف عن اختصاصه ويتجه هذا الاتجاه .

• لا أرى بين الفقه والحديث تناقض : ألم يكن ابن قتيبة وابن حزم وابن رشد والمقرى وغيرهم من الأعلام المحدثين والنقاد من مؤلفى الأدب ومصنفى الأخبار .

• أسجل أن دراساتى الفقهية والحديثية قدأفادتنى كثيرا فى الناحية الأدبية. وانى لاحظت مآخذ كثيرة على آثار بعض الأدباء إنما جاءتهم من عدم إلمامهم بشىء من تلك الدراسات .

ويصور رأيه فى اللغة العامية والأعجمية :

منذ بارح الشعب العربى وطنه الأصلى مضطراً إلىالاختلاط بالشعوب العجمية الكثيرة التى اعتنقت الاسلام واللغة العربية وهوفى تصادم كبيرمع اللغات واللهجات العديدةالتى لاقتها فىمختلف المواطن الإسلامية الجديدة وهى وإن لم تنهزم قط فى هذا الصراع الطويل فقدخلف بها ندوباً اتسعت كثيرا فى لغة التخاطب حتى نشأت عنها هذه اللغات واللهجات العامية على الصحيح المستعملة فى كل قطرمن الأقطار العربية بما بينها من تقارب أو تباعد .

---

(١) يعطينا الوزير المراكشى عبد الله كنون بمؤلفاته نافذة على الحركة الادبية بالمغرب أمثال (التعاشيب . خل وبقل ١٩٥٨. واحة الفكر) ١٩٥٨ .

علينا تسجيل ما فى اللغة العامية المغربية من كلمات صحيحة الاستعمال وبعضها مما لا نشك فى فصاحته لأنه ثابت فى كتب اللغة ، إلا أنه من الغريب الذى لم يعد مستعملا فى لغة الكتابة والبعض الآخر مما تميزت به العامية المغربية .

ولا نبعد إذا قلنا انها وضعته مطابقا لقواعد الفصحى من الاشتقاق والنحت وغير ذلك .

أما رأيه فى أدب القومية العربية فهو يراها نفى جميع الفوارق الاصطناعية بين أبناء العروبة على اختلاف بلدانهم وتباعد أنحائهم . كما ينبغى أن ننفى نحن جميع الفوارق الاعتبارية بين آداب أقطارهم العديدة . وذلك لأن الأدب العربى وحده لا يتجزأ فى جميع بلاده بالمغرب والمشرق وفى الأندلس وصقلية المفقودين . فلا نعود نذكر الأدب الأندلسى ولا الأدب العراقى ولا أدب غيرهما من الأقطار العربية .

- سجل عبد الله جنون نضج الفكر المغربى فى الماضى وانتشار القراءة وبالتالى العلم والمعرفة فى البوادىء والحواضر وشدة الإقبال على الطلب والتحصيل .

وقال إن معالم الأدب العربى المغربى المعاصر يتمثل فى :

- الرابطة الضخمة القوية بين مراكش وتونس والجزائر .
- لبلاد التى حاول الاستعمار الفرنسى تمزيق وحدتها وهدم كيانها فلم يستطع .
- اأدب قوامه الإسلام والوطن والعربية .
- الأمجاد العربية القديمه المتصلة بالأندلس .
- تفويت غرض الاستعمار فى التمزيق باسم العرب والبربر .
- مقاومة اتجاه الاستعمار فى تعميم العامية للقضاء على العربية ومحاولة تعميم اللغة الفرنسية .

ويرى عبد الله جنون أن من قضايا التاريخ المسلم بها أن الوثبات الشعبية الكبرى

تسبقها حركات أدبية تمهد لها السبيل وتحدد الأهداف . وان مستقبل البلاد العربية رهن بيد أدبائها الذين هم طلائع الثورة المترنمون بنشيد الحرية .

٧ - علامات النهضة الفكرية

تتمثل النهضة الفكرية في مراكش (المغرب) فى مظهرين واضحين(١) البعث للآثار الفكرية القديمة وتجديد عرضها وبحثها وربط المغرب بالمشرق فى مجال الأمجاد العربية والإسلامية ويقول أن جامعة القرويين هى المعهد الأكبر الذى خرج أغلب المفكرين والكتاب وهو أقدم من الأزهر وأقدم مدرسة فى العالم بعد مدرسة بولونيا بإيطاليا ،(٢) ومتابعة الانتاج الفكرى فى مصر والعالم العربى كله والتأثر بالأحداث السياسية العربية والإسلامية . ويرى أن العلامة عبد الحميد بن باديس[1] له أثر كبير فى مراكش وكذلك أفكار جمال الأفغانى ومحمد عبده وفريد وجدى ورشيد رضا والعروة الوثقى والمنار والهلال والسياسة الأسبوعية والرساله والثقافة .

وللأندلس فى الفكر المغربى العربى أهمية فلسطين والاسكندرونه فى المشرق فهو جزء من الأرض العربية اقتطع ولا يزال الأمل فى إعادته .

ويشيد كتاب المغرب بأمجاد العرب فى الشمال الأفريقى . يقول عبد الله كنون عن طنجه أنها جوهرة المحيط . ويقول « فلله در المغرب . هذه الأرض المنجاب الخصاب . ما أغناه بالبطولة وأثراه بالرجولة » .

ويحرص كتاب المغرب المعاصرون على إعادة عرض الوقائع الهامة الضخمة بأسلوب أدبى جديد .

---

(١) يقول عبد الله جنون : إن كتابات العلامه عبد الحميد بن باديس كان لها كبير من الاثر فى توجيهى وإنارة الطريق امامى الى كثير من الخير . وقال ان مؤلفات محمد عبده وفريد وجدى ومحمد رشيد رضا ومصطفى الغلاييني ورفيق العظم ومحمد كرد على كان لها نفس الأثر .

« ... هذه واقعة وادى المخازن الشهيره التى كانت من الوقائع الفاصلة فى تاريخنا القومى والتى قضت على سياسة التدخل الأجنبى قضاءاً مبرما فلم ترفع رأسا بعدها مدى قرون . هذه الوقعة لا نرى اهتماما بها فى حياتنا الاجتماعية ولا نسمع لهـا صدى فى انتاجنا الأدبى كأنها حادث مادى يتـكرر وقوعه كل يوم ولا يلفت نظر أحد من الناس . وبينما نحن إزاءها على هذه الحال نرى وفود البرتغاليين كل عام تحج إلى موقعها بالعشرات بل المئات[1] » .

وقد سجل المغرب العربى سبقه إلى السعى لتوحيد الثقافة العربية . فقد اتجه عدد كبير من أبنائه إلى الأزهر وإلى مصر والشرق العربى فى نفس الوقت الذى قصر فيه المشرق فى الالتقاء بالمغرب وعجز عن أن يتحدث عنه فى دراسات الفـكر العربى الحديث ناسيا أثره العميق فى تطور الفـكر وحركة المقاومة ودعوات التجمع وما احتمله من تضحيات فى سبيل الدفاع عن اللغة العربيـة والأمجاد العربية الإسلامية . ولعل مرجع هذا إلى ان الاستعمار قد حال دائما دون التقاء هذه الأجزاء .

ولعل المستشرق (ج كامنفاير[2]) يصور هذا بصدق حين يقول : « تسود السياسة الفرنسية نزعة ترمى إلى أن تفصل أهل مراكش عن العالم الإسلامى ويقال أن الصحف العربية لا يسمح لها بدخول مراكش ماعدا صحيفة من صحف القاهرة معروفة بعلاقتها بالمصالح الفرنسية » .

وقد صور العقاد تطور الأدب فى مراكش[3] فقال :

- إن الأدب فى مراكش هو الأدب فى المغرب من افريقية الشمالية إلى أوربا الجنوبية .

---

(١) عبد الله كنون.
(٢) كتاب وجهة الاسلام — ١٩٣٢ .
(٣) مجلة الـكتاب — ابريل ١٩٥١ .

إن أدباء المغرب سلالة تنتمى إلى قبائل العرب التى انتقلت من المشرق إلى المغرب وإلى أبناء الأدباء فى الديار المراكشية . امتزج هؤلاء وهؤلاء بسلالة الأسبان أو السودان عن طريق التسرى أو الزواج .

• كثير من الأندلسين ينتمون إلى مراكش . وكثير من الأندلسين والمراكشين معا ولدوا بالمشرق ونظموا الشعر وألفوا الكتب قبل رحيلهم إلى المغرب .

• كانت الدولة المراكشية حافلة بأدبائها وشعرائها غنية بعلمائها وفقهائها ومن أبرز كتابها شهاب الدين أحمد التلمسانى صاحب (نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب) .

• دب الركود والجمود على الأدب فى مراكش ثم راحت تنفض آثار الجمود عند أواخر القرن الثامن عشر كما فعلت مصر وسورية والعراق وجزيرة العرب .

كانت علوم التقدم محرمة كما كانت حرمه البحث محجوزاً عليها فى العالم العربى كله ولكن صدمة الإستعمار نبهت العالم العربى كله .

• فى عام ١٨٨٤ أبطل السلطان العلوى محمد بن عبد الله بن اسماعيل كتب الخرافات والخلافات وبدا السماح بالاطلاع على كتب الفلسفة والمنطق والعلوم العقلية وهى أول خطة للتجديد .

أوفد السلطان محمد بن عبد الرحمن بعثة إلى مصر للتوفر على دراسة العلوم العصرية كالجغرافية والفلك والطبيعة وطبع السلطان عبد الحفيظ كتب أبى حيان وابن عربى وابن مالك والسهلى وغيرها فى مصر .

• كان انقسام الحياة القومية بين الحاضرة والبادية بعيد الأثر فى التفكير فى مراكش .

غلب الجمود على الأدب فى مراكش كما غلب عليه فى سائر الأقطار العربية ، وتشابه مغربها ومشرقها فى دور البعث كما تشابه فى دور السبات والركود : فتنبهت

مراكش يوم تنبهت أخواتها فى افريقيا وآسيا وراحت تنفض عنها غبار الجمود عند أواخر القرن الثامن عشر كما فعلت مصر وسورية والعراق وجزيرة العرب مع اختلاف الفرصة والاستطاعة وتفاوت الأحوال الداخلية والخارجية بين هذه البلاد :

• كانت علوم التقدم محرمة وحرية البحث محجوزاً عليها فى العالم العربى كله فما هو إلا أن أحس هذا العالم العربى بصدمة الاستعمار الأوربى حتى تنبه فى كل مكان ، وأصبح الاستعمار كالسوط الذى يوقظه ويعـــذبه فى وقت واحد ، فعرف داءه واضطرب زمنا فى معرفة دوائه . إلا أنه لم يخطىء الوجهة وإن ضل الطريق إليها فترة من الزمن تتفاوت بتفاوت الشعوب والأقاليم ، فقد فهموه يومئذ وأدركوه. ولم يزالوا يفهمونه على خطأ تارة وعلى صواب تارة أخرى حتى انتهوا إلى نهج الطريق فى القرن العشرين ا • ه .

٨ — تطور النثر العربى

تطور النثر العربى فى المغرب وقد انتهت فترة الركود التى قدرت بقرن تقريبا . ودخل المغرب فى « طور تلقيح جديد يحتاج إلى تقدم سريع » وقد مضى شوطا فى إحياء الأدب المغربى وصقله فى قالب عصرى جيد .

وهناك مجلة الأنيس فى (تطوان) ودعوة الحق فى (الرباط) .

وهناك أبحاث ضخمة رائعة تدل على عمق ونضوج بالغ الأثر ، وهى فى مجموعها لا تقل عما يكتب فى المشرق ومن هذه الأبحاث [1] : مراجعات لعلال الفاسى عن الشيخ محمد عبده . دراسة عن صلاح الدين ويعقوب المنصور لعبد القادر الصحراوى. وصراع فى ظلال الأطلس لعبد المجيد بن جلون . أحد عشر قرنا فى القرويين لعبد

(١) قرأت هذه الأبحاث فى مجلة « دعوة الحق » التى كانت مرجعا رئيسيا فى إعداد هذا البحث.

الهادى التازى . عبره السوبس للمهدى البرجالى . الرحالة المغاربة وآثارهم لمحمد الفاسى عميد الجامعة المغربية . مشاهدات فى الحجاز لعبد الله جنون .

وفى بحث « احد عشر قرنا فى القرويين يقول التازى : هـذا البيت الذى فرض وجوده طيلة هذه القرون . هذا البيت الذى يدين له بالفضل كل من اختار العربية كلسان واستنام إلى الإسلام كدين لهذه البلاد » . وقال الـكاتب أنه استشار فى تأليفه أكثر من مائة كتاب بالعربية والفرنسية فضلا من وثائق أخرى لم تنشر بعد ومما يذكر أنه أنشأ فى عام ٢٤٥ هـ ٨٦٠ ميلادية .

ويجمع كتاب المغرب أن أبرز أربعة عبقريات مغربية تحرز السبق فى الدراسات والأبحاث هى :

ادريس الـكبير فى القيادة السياسية · ابن العربى فى التصوف
ابن خلدون فى التاريخ ابن رشد فى الفلسفة

ولا يكاد يوجد كاتب مغربى عربى لم يتناول هؤلاء الأربعة بالدراسة . ويعطينا الأدب المغربى فى هذه الفترة صورة فيها العمق واليقظة والمقاومة والتجمع تتمثل فى نماذج للشاعر المغربى محمد الصباغ .

« المغرب لنا — لا لغيرنا »

« بهذا النشيد الحلو ينطلق فتيات المغرب وفتيانه منشدين فيحسون بكل ما فى وطنهـم يبتسم لهم ويغنى معهم حتى آخر ذرة من ذرات بلادهم تهتف معهم فرحة جذله :

أنا لبلادى نسيم إذا مسه الشوك ولى رعداً وبرقا .

أنا لبلادى غصن رطيب إذا أحمرت أوراقه ازهر جمرا واشتعل دوحه ناراً .

أنا لبلادى عريش نجم وعطر وشدو، إذا لفخه الهجير سال حديدا ورصاصا سموما.

هل فى الدنيا مثل بلادى .

بلادى خيمة من زجاج فى بطاح القمر ، عانقها المنجل ليلة ، فتشتتت فى العالم جياداً من بلور وليوثا من فضه .

بلادى وقد خبرنى أجدادى فى جميع البلدان والأجناس عند ما كنت زمنا لصيقا فى جذور شجرة الحياة فاخترتك أنت .

وأنت وحـــدك بلادى رافضا فى صــــلابة وعناد

جميع الأجناس والأمم حتى الجنس البنفسجى الذى سيلونه القمر فيما بعد .

هاهى سهول حطين تتطلع إليك من بعيد وتلوح فتهز قبور شهدائها ، ويصرخ دمها ، وتسمع سنابك خيلها وجيادها وفرقعة حديدها .

وتلك أرض المعجزات برمالها ونخيلها تصفق إليك وعلى تصفيقاتها المجلجلة تستيقظ الأندلس وفى رأس جبل طارق حلم دام ثمانية قرون .

« معركة الجزائر »

هذه الجماهير المتلوعة التى حجت إليك تمضغ قلوبها جوعاً . ومن بينها عشرات وعشرات من صبايا الجزائر وشبابها الذين أخرجوا من ديارهم تائهين فى مناكب الأرض لابسين الأكفان ، منتعلين بالموت ، معممين بالدمار تاركين أطفالهم فى حبال المشانق . وبناتهم يشهقن على شرفهن المسلوب فوق أطلال المساجد والمعابد ، معتصمات بأعواد المنابر ، وأقواس المحاريب .

والفرنسيون الجلادون فى بطشهم يترنمون ويمزحون وعلى ذبح المقعدين وتشويه العجائز وتعذيب العميان يشربون ويرقصون .

شباب الجزائر وحماتها ماضون فى سبيلهم يلهبون الثلج ناراً . والأودية جمراً . والنسيم عواصف غير مبالين بما يعترض طرقهم . فقد أشرفوا على النصر ولم يبق لهم إلا قفزة واحدة بعدها سيرفرف علم الأخضر الأبيض فوق جبال

« الأوراس » الشامخة جنب العلمين التونسي والمغربي في صف واحد ، ونجوم السماء تبارك مبتسمة فتتدلى هذه الابتسامة كحبال من نور » ! . ه .

وقد صور ميخائيل نعيمة أدب محمد الصباغ في كتابه شلال[1] الأسود بقوله.

هذه العاطفة تبدو في كتابك ناراً مشبوبة يلتهم بعضها بعضاً فلا تشبع ولا ترتوي ولا تهدأ . بمثل هذه العاطفة تقوم الثورات وبمثل هذه النار تلتهب صدور المظلومين والمحرومين متى بلغ الظلم والحرمان درجة لا تطاق . وعمل الشاعر إذ ذاك هو أن يذكر النار وأن يكون ترجمان القلوب المستعرة بها إلى القلوب التي حرارتها في درجة الصفر . وذلك ما يفعله قلمك حيث يقول «طوبى بك لي يا بلادي هذا عمري إن لم أخدمك به فليس بعمري وهذا شبابي إن لم اعتصر دماءه في راحتيك سحقاً له من شباب . وهذا قلبي إن لم أقفه عليك فسأخرقه في قلبي وهذا لساني إن لم يكن حرباً على عداك فسأقلعه بعروقه من أعماق رجلي . اسمك على لساني صلاة ليل كامل ، ولقمتك في فمي غذاء لعام بأجمه وضوؤك في عيني رؤية الله في جلال نوره وغصنك المثقل بندى رضاك «رحمة على قبري » .

وقد أخذ الأدباء المغربيون على الدكتور طه حسين أنه عند ما زار بلادهم لم يتحدث عن الجزائر وأنه على حد تعبيرهم « لم يتعرض لهذه النكبة التي تشغل العالم العربي مما جعلهم يستنكرون سكوته ويرمونه بالجبن والخوف حتى ضجت الصحف بالنقد الجريح والتنديد المر ضد تصرف طه حسين » .

٩ — الشعر المغربي

أما الشعر المغربي فقد سبق النثر على كل حال وعاش معركة للمقاومة والتجمع بعمق وقد كتب محمد عبد المجيد بن جلون من أدباء (فاس) بحثاً عن الحياة الأدبية

(١) صدر في نوفبر ١٩٥٧ .

فى المغرب[1] قال فيه أن الشعر المعاصر فيه محاكاة وتقليد للشعر القديم وان الشعراء ينقلون مما كان شائعاً فى العصور الغابرة أيام الناقة والجمل ولحالة المغرب الاجتماعية الأثر الفعال فى هاته الناحية .

وقال إن العقلية المغربية أقرب إلى العلم منها إلى أى شىء آخر . وقد نقل نموذجاً من شعر علال الفاسى فى تصوير وطنه وهو منفى عنه منذ عهد صباه :

إذا مت عليه فأنا مطمئن لرضـــاه الثمن
فاغسلوا بالماء منه بدنى واجعلوا نسج بنيه كفنى
وادفنوه فى ثراه وضعوا فوق قبرى منه زهر السوسن
واكتبوا فوق ضريحى بدمى ها هنا قبر شهيد الوطن

وقد صور عبد الله كنون نهضة الشعر بالمغرب فى كتابه واحة الفكر فقال :
كان المغرب أحد الأقطار العربية التى قام للشعر والشعراء فيها سوق رائجة أما ارتباط حديث الشعر فى المغرب بالنهضة العربية الحديثة فذلك لأن هذه الموجة التجديدية التى غمرت العالم العربى فى أوائل هذا القرن قد نبهت شعوره ونمت احساسه وجعلته يغير نظرته إلى فهم كثير من اشياء قد شملت المغرب أيضاً وبعثت منه شعور الاعتداد بالنفس والإيمان بالذات فقام ينشد حياة العزة والعظمة ويتغنى بأمجاده الطائلة التى ما فتئت جبال الأطلس تشمخ تسامياً بها وأمواج بحر الزقاق تتراجع هيبة لها .

« الشعر المغربى له اتجاه واحد معين هو حفز الهمم واذكاء المشاعر وتربية الإرادة والحث على التضحية من أجل حياة الخلود فالشعراء يعتبرون كقواد مظفرين يقودون جيوشهم من معركة إلى معركة حتى يربحوا معركة النصر الأخيرة .

(١) مجلة الرسالة مايو ١٩٣٦ .

وقال أنني اعتبر الظاهرة التي تسيطر على الشعر المغربي اليوم مؤقتة ، لابد أن تزول أو تضعف أمام النبع الفياض الذي يتفجر من قلوب الشعراء المغاربة الوجدانيين يوم يدرك الشعب بغيته ويحقق أمنيته من نهضته السياسية والاجتماعية الراهنة .

على أن هذا لا يعني ان خواطر الشعراء كلها وقف على الشعر السياسي فإن ثمة نفحة عطرية يعبق بها جو بعض الشعراء هنا وهناك .

هذا بالنسبة إلى شعراء المنطقة الخليفية فإذا ولينا وجهنا إلى المنطقة السلطانية نجد امكانيات أكثر واستعدادات أكبر مما عندنا . فإذا توسعنا ونظرنا في أطراف هذا المغرب العربي كله نجد أن هناك شاعراً موهوباً حقا سبق زمنه بكثير لا بالنسبة إلى المغرب فقط بل بالنسبة إلى العالم العربي أجمع وهذا هو أبو القاسم الشابي الشاعر التونسي الذي توفي في عنفوان الشباب ومع ذلك فقد جاء منه شاعر عاطفي ممتاز ، راد أودية الخيال ، وأسمع الأرواح الهامدة أنشودة البعث والنشور »

ويقول كنون : للشعر في بلاد المغرب عيبان : عيب في المعنى وعيب في اللفظ .

أما عيبه المعنوي فهو ما قصر على الشعراء الشيوخ أنفسهم عليه من مواضع مستكرهة لم يبق لها مساغ في أذواق الناس اليوم كالمدح والرثاء وما إلى ذلك وخاصة إذا كان فيمن لا يستحق مدحا ولا رثاء وهو الغالب .

أما عيبه اللفظي فهو ما يحاول الشعراء الشبان اقتحامه من مواضيع الشعر الخفيفة ولكن لفظهم يقصر عن بلوغ ما يريدون وكثير منهم يقصر لفظه ومعناه عند ذلك .

أما أن الأدب المغربي بعيد عن الحياة الصادقة بسبب بعد المرأة عن المجتمع فهي ليست خصوصية للمغرب بل هي عامة في سائر البلاد الاسلامية .

هذا ويرى كنون أن النهضة المغربية قد اتصلت بالماضي والحاضر وفيها عناية بإحياء الذكريات الماضية والأعلام ومتابعة النهضات العربية الحاضرة » ا . هـ .

وهذه نماذج من شعر المغرب الحديث

● عبد القادر المقدم :

يا ابن المغاربة الاشاوس إننا ... فى ميعة التكوين والأحياء
فتصفح الماضى فكل صحيفة ... لك سلم لتسنم العلياء

● أبو بكر اللمتونى فى قصيدته « أمنا الصحراء » :

يا أرض أجدادى نمت ثراء ... ينمى الكماة ويحضن الشهداء
لازلت حصنا للحنيفة يمتلى ... بلوائه الصفراء والخضراء
يتباعد القطان فيك منازلا ... ويوحدونك فدية وولاء
لما دهى الصحراء داء آنست ... أمواه بحرك والضفاف الداء
يا أمنا الصحراء قرى أعينا ... فلسوف يمهرك البنون دماء
نفدى بلاقعك الرحاب بروحنا ... ونذود عنها جائمين ظماء
وطنى تقاسمه اللصوص وصيروا ... من حسنه وجماله أشلاء
فليرجعوا عما أتوه ويعلموا ... أنا نهضنا نجمع الأجزاء
ولتخف أطياف الرقاد عيونهم ... أن آثروا غير السلام لقاء
لايطمع الأعداء فيك تريث ... أنا سنفنى دونك الأعداء
الهاربين إذا رأوا أكفاءهم ... الهاجمين إذا لقوا الضعفاء
غالوا بأسباب الهلاك وشعبهم ... يلقى الهلاك مجاعة وعراء
سدناهم دهراً فكنا نعمة ... فيهم وكنا سادة كرماء
وتقلدوا كعب السيادة خلسة ... منا فكانوا سوقه سفهاء
أن اعوزت قيم السياسة ساسة ... فليسألوا أيامنا البيضاء
صحراؤنا أمجادنا وذمامنا ... منها انطلقنا نحمل الأضواء
الراية الحمراء إن لم نعلها ... فلسوف نصبغ أرضها حمراء

٢ — فى الجزائر

من المقطوع به أن الجزائر هو القطر الأكبر فى الساحل الأفريقى كله . وأنه هو الجزء الذى وقع عليه الاحتلال باكراً (١٨٣٠) بعد الحملة الفرنسية على مصر بثلاثين عاما ، وبه قامت أول مقاومة ضخمة للإستعمار فى العالم العربى كله حينما اندلعت الثورة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر واستمرت سبعة عشر عاما .

ولقد ظلت الجزائر تقاوم الاحتلال منذ وقت باكر جداً فى القرن السادس عشر عند ما هاجمت اسبانيا مدينة وهران عام ١٧٠٦ . ووقع الساحل كله كهدف للاحتلال الغربى قبل ذلك بأكثر من خمسين عاما حينما استولى البرتغاليون على طنجه ١٦٥٦ وعند ما ضرب الفرنسيون ميناء بنزرت بالقنابل عام ١٦٨١ وعند ما غزا الفرنسيون مصر بقيادة نابليون عام ١٧٩٨ ، وقامت الولايات المتحدة بمهاجمة الشاطىء الطرابلسى عام ١٨٠٢ واستمر العدوان على الساحل الأفريقى لم يتوقف فهاجمت فرنسا مراكش عام ١٨٤٤ واعتدت اسبانيا على مراكش ١٨٥٠ .

وقد ظلت الجزائر محتفظة باستقلالها فى ظل النظام العثمانى مدافعة عن شخصيتها العربية وكان لها موقعها الممتاز على ساحل البحر المتوسط وقد كانت من القوة والمنعة بحيث عملت على حماية طريق النقل البحرية التابعة لفرنسا وهولندا وبريطانيا والولايات المتحدة وكانت تحصل على جزية سنوية تدفعها لها هذه الدول .

وكانت الجزائر فى القرن الثامن عشر ثانى دولة أعترفت باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية وتبادلت معها العلاقات الدبلوماسية سنة ١٧٩٥ .

وفى عام ١٨٣٠ عند ما وقع عليها العدوان الفرنسى كانت متقدمة فى نظمها وحضارتها وكان عدد جيشها ١٥ ألفاً وأسطولها مكونا من ٦٦ سفينة بكل سفينة

من ٢٥ إلى ٨٠ مدفعاً وبهذا كانت الجزائر سيدة البحر المتوسط فى القرون الثلاثة السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر .

وقد اشتركت مع الأسطول المصرى فى صد العدوان الروسى البريطانى الفرنسى عام ١٨٢٧ فى موقعة « نڤارين » وكانت حالتها الإقتصادية منتعشة حتى أن فرنسا طلبت منها أن تنقذها من الجوع والفاقة فيسرت الجزائر لفرنسا (١٧٩٤) الحصول على كميات كبيرة من القمح فضلا عن القروض المالية التى بلغت عام (١٨١٩) ١٨ مليونا من الفرنكات الفرنسية .

وقد سرق الفرنسيون بعد الاحتلال مباشرة خزانة الدولة الجزائرية وكانت تحوى على ٤٠ مليون من الفرنكات الذهبية .

وكان فى الجزائر عام ١٨٣٠ (وهو عام الاحتلال) ألفى مدرسة وأربعة جامعات كبيرة هى جامعة الجزائر وقسنطينة وتلمسان وفيرونا .

وقد احتل الفرنسيون الجزائر بعد أن افتعلوا حادثا زعموا به أن إهانة لحقت قنصلهم وسجل المؤرخون الفرنسيون « أن غزو الجزائر قد تم بالنار وبالدماء : وأن مقاومة الشعب الجزائرى الباسل لقوات الإحتلال استمرت سنوات طويلة . وأن حكومة باريس قد وطدت العزم على وضع حد لتسلط الأسطول الجزائرى على غربى البحر المتوسط فانتهزت فرصة غياب أكبر السفن الحربية الجزائرية فى المياه اليونانية لتجد دعوى تبرر بها إعلان الحرب على الجزائر فأرسلت تعليمات إلى قنصلها ليغتنم الفرصة ويثير أسباب النزاع . وأن دون ده كاير مون تونير وزير حربية فرنسا رفع تقريراً إلى شارل العاشر قرر فيه أن احتلال الجزائر تم إرضاءاً للمسيحيين وذلك بإبادة المسلمين أشد أعدائهم طغيانا [1] » .

وقد فوجىء الفرنسيون بمقاومة عنيفة من الشعب الجزائرى استمرت مدى

(١) عن المؤرخين الفرنسيين دوريان وم وهنرى جاروفى كتابهما عن الجزائر

١٢٦ عاما وتطورت فى عام ١٩٥٤ إلى حرب تحريرية قومية وثورة ضخمة منظمة .

ويدل أستهلال المقاومة على قوة العارضة الجزائرية فى الايمان بالمقاومة فقد تجمعت الجزائر تحت قيادة عمر عبد القادر[1] عام ١٨٣٢ الذى أعلن الحرب على الاستعمار ومضى يقاوم فى عنف وصرامة حتى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٤٧ وقد وصفه المؤرخون الفرنسيون بأنه أذكى خصم صادفته فرنسا فى الجزائر .

وقال عنه جبريل اسكوير « هذا الشاب الذى قاد الثورة فى الرابعة والعشرين من عمره وعرف بالشهامة وقوة الشكيمة يمثل كرامة الجزائر وغيرتها . أن قوته الحقيقية تكمن فى سرعة حركاته التى كان لها الفضل الأكبر فى تفادى هجمات الأعداء . وكذا قوة شخصيته التى رفعت من روحه المعنوية حتى استطاع أن يوالى هجماته رغم أن العدو قد الحق خسائر فادحة بقواته وكان حقاً يتمتع بقوة خارقة . وعلى الرغم من كثرة عدد القوات المحاربة التى فقدناها فقد استطاع عبد القادر أن يتفادى كثيراً من هجماتنا رغم قلة عدد قواته ويرجع ذلك إلى معرفته التامة بطبيعة البلاد ولمكانته العظيمة بين العرب : واستطاع أن يحبط بقواته الضئيلة هجمات جيش قوى فى ذلك الوقت وأن ينزل بها خسائر فادحة بقوات يقودها أكبر القواد العسكريين . وقد استسلم عبد القادر بعد أن نفذت ذخيرته وقتل معظم رجاله وبعد أن أحرقت القرى والمدن وأراد بالاستسلام أن يضع حداً لهذا المذابح الوحشية وانقاذ ما يمكن إنقاذه من رجاله .

وكتب جندى فرنسى إلى أسرته يقول :

« أى قلم يستطيع أن يصف هذه الصورة البشعة على ضوء ألسنة النيران الجهنمية فى منتصف الليل نرى قصائل من الجنود الفرنسيين ونسمع قصف المدافع المتوالى . فى تلك الليلة نشبت حرب بين رجال وآخرين من المتوحشين فلما جاء الصباح وبدأنا فى إزالة حطام الكهوف سمعنا أصواتاً بشعة . لقد دخلت

(١) اقرأ دراسة كاملة عنه فى كتابنا « رواد القومية العربية » .

ثلاث كهوف ورأيت جثث الضحايا البريئة بين رجال ونساء وأطفال تحت أقدام الحيوانات » .

ولم يتوقف جهاد الجزائر بعد عبد القادر ، بل تولاه « محمد المقرانى » الذى استشهد فى ٥ مايو ١٨٧١ وقامت عدة ثورات فى هذه الفترة .

فى القابيل ١٨٥٧ — فى سناسين ١٨٥٩ — فى بنى يوسف ١٨٦٤ وفى الموكزانى ١٨٧١ .

ودخل البطل « أبو مفرى » مراكش فقاد المقاومة الجزائرية ١٨٣٥ وقام بنشر دعاية ضد الفرنسيين فى مناطق وهران وحث الأهالى على الجهاد .

وقد قسمت فرنسا الجزائر (١٨٤٥) إلى ثلاث مقاطعات : الجزائر ، ووهران ، وقسطينه وفرضت التجنيد الاجبارى الذى نفذ فى الجزائر عام ١٩١١ فأدى إلى هجرة عظيمة لا سيما من نواحى تلمسان إذ هاجرت ثمانمائة عائلة إلى سوريا مصرحين بأنهم لن يدخلوا الحرب تحت علم فرنسا . وفى ١٩١٢ توالى فرار الجزائرين حتى بلغ عدد المهاجرين ١٢٠ ألفاً .

واندلعت الثورة فى الصحراء الغربية كلها من أعالى النيـل إلى إدرار فى الساحل الأطلسى وأعلنت قبائل بنى زيد المشهورة بالبطولة والنجدة العربية ثورتها على فرنسا ١٩١٥ تحت قيادة سعد عبد اللطيف دامت ست سنوات (١٩٢١) .

وهكذا أمضى الجزائريون واحداً وأربعون عاماً فى مقاومة مستمرة .

ولما كانت الجزائر هى القاعدة التى انقض منها الفرنسيون على تونس ومراكش . فقد عمدت فرنسا إلى عملية إبادة مزدوجة . وواصلت حروب الابادة والقتل ومحو القرى وحرقها بأهلها وفى الوقت نفسه عمدت إلى نقل مجموعات ضخمة من الفرنسيين والمستوطنين للاستيلاء على الأراضى وذلك كخطة طويلة المدى فى تحويل الجزائر إلى جزء من فرنسا وكوسيلة للأدماج النهائى والقضاء على الجنسية العربية وقد رافق هذا تنظيم

كامل لمحو اللغة العربية والتفريق بين البربر والعرب وقد نص دستور فرنسا (١٨٤٨) على أن الجزائر جزء لايتجزأ من فرنسا وكانت فرنسا فى اتجاهها إلى إحلال الشعب الفرنسى محل الشعب العربى للقضاء على الجنسية العربية انما ترسل إلى الجزائر العناصر الشريرة والغير مرغوب فى اقامتها فى فرنسا واعتبرت هؤلاء الشردين والمنبوذين رسل الحضارة التى جاءوا لتمدين شعب كان أول من نشر أصول الحضارة فى العالمين .

ولقد كانت فرنسا تضغط على الجزائر بعنف وتستعمل وسائل غاية فى العنف لم يحدث مثلها فى أى جزء من أجزاء المغرب كله .

واستولت فرنسا على المساجد والأوقاف والمدارس وتولت تعيين الأئمة وأرباب الفتوى والمدرسين على مدى طاعتهم للادارة الفرنسية .

وبعد أن فعلت فرنسا هذا كله ماذا كانت النتيجة ؟

٢ — المقاومة الفكرية

كانت المقاومة بالحرب قد توقفت بعد أربعين عاما ولكن مقاومة أخرى كانت قد اندلعت بصورة مستمرة وعلى نطاق واسع وبصبر طويل يهدف إلى تعميق أساساتها وقواعدها . وقد تبلورت هذه المقاومة عام ١٩٣٠ فى ظهور جمعية العلماء بقيادة « عبدالحميد بن باديس » وزملائه بشيرالابراهيمى والشيخ العقبى فى قسنطينه ووهران وقد اعتمدت هذه القاومة على الإيمان بالشخصية الجزائرية كجزء من الشخصية العربية وعلى مقاومة الخطة الفرنسية مقاومة كاملة . وكانت مجلة « الشهاب » هى لسانها الناطق وقد ارتبطت هذه الحركة إلى حدما بالمنار والعروة الوثق ومحمد عبده وبصورة أبعد بالحركة الوهابية كعامل من عوامل اليقظة للعالم العربى كله والمقاومة للاستعمار .

(١) اقرأ ترجمة لحياته فى كتابى « من رواد القومية العربية » .

ويقدر ما كان الاستعمار عنيفا فى الجزائر كانت المقاومة أشد صلابه وأصراراً.
ولم تستسلم الجزائر يوما أو تخدع بأساليب فرنسا الثقافية فى التغريب والعزل
أو التجنيس والادماج . وفشلت كل المحاولات .

وقاومت فرنسا تعليم اللغة العربية فى الجزائر ١٢٦ عاما مقاومة عنيفة ومع
ذلك فانه لا يوجد فى الجزائر من يتكلم غير العربية اليوم أكثر من ١٠ فى المائة
من السكان العرب بينما يتحدث ١٠ مليون جزائرى دون استثناء لغتهم الأصلية .

وجرت محاولات لعزل العرب عن البربر وهى نفس الخطة التى أتبعت فى تونس
ومراكش وفشلت هذه المحاولات أيضا فقد امتزج العرب والبربر منذ أمد طويل
واعتنقوا الاسلام وتبنوا لغة العرب واختلطوا إختلاطا وثيقا ذابت معه جميع الفروق .
وأعلن المنصفون من المؤرخين والكتاب الفرنسيين بأن هناك وحده متكاملة
فى الجنس واللغة والحدود تجمع هذا الجزء من العالم الشمال الأفريقى منذ أقدم العصور .
وقال شارل اندريه جولين أن سلسلة جبال الأطلس وهى حافة شمال أفريقيا
الجبلية تبدأ من المحيط الأطلسى فى مراكش وتخترق الجزائر وتنتهى فى تونس
على البحر المتوسط وهى تكون العامل القوى الذى يربط دول شمال أفريقيا الثلاث
بوحدة الجنس واللغة والحدود الجغرافية .

وقال « محمد السيد الزهرواى »[1] حدثنى فنان فرنسى قال : كنت اعتقد
أن لابد أن يأتى يوم على المغاربة يصيرون فيه فرنسيسا خلصاً من حيث تذوق الفن
والشعور بالجمال غير أنى رجعت عن اعتقادى هذا فقد مضى على فرنسا فى الجزائر

---

(١) من مقال فى مجلة الرسالة ١٩٣٦ — والكاتب من وهران بالجزائر .

مائة وبضع سنين لم تستطع أثنائها أن تجعل العرب الجزائرين يقبلون على الأفلام الفرنسية أو يطربون لسماع عازف فرنسى مهما كان بارعا . على حين يقبل المغاربة الاقبال كله على الأفلام المصرية وتستهويهم مصر بأغانيها ... »

٣ — الحركة الباديسية

قام « عبد الحميد بن باديس » بالعمل عام ١٩٣١ على رأس القرن لاحتلال فرنسا للجزائر فانشأ صحيفة الشهاب وجمية العلماء ويعد فى نظر المؤرخين جميعا صاحب الفضل الأول فى نشر الوعى العربى والمقاومة الفكرية عن طريق ايجابى

وقد استمرت الحركة فى نشاط تصاعدى حتى بعد قيام الثورة الحالية . وبواسطتها انتشرت عشرات المدارس العربية ومئات المدرسين والوعاظ والمرشدين الثقافيين والدينيين كما انشئت المدارس الحرة ، إلى جانب ذلك تأسست أول مدرسة ثانوية عربية لا تدرس غير اللغة العربية وظهرت الصحافة العربية التى أذكر منها :

الشهاب ، المنتقد ، الاصلاح ، البصائر ، الشعلة .

كما يعود إلى هذه الحركة الفضل فى المحافظة على اللهجة العربية المحلية إلى مايعرف فى الجزائر بالزوايا أو الكتاتيب التى كانت منتشرة فى كل قرية ومدينة تحفظ القرآن والشعر وقواعد اللغة ، ومن هذه الكتاتيب أخذ الجزائريون ثقافتهم العربية الأولى ثم التحقوا بعد بمعاهد المعرفة فى تونس ومراكش ومصر .

وقد قاومت هذه الحركة ماصمم الاستعمار الفرنسى على محوه من اللغة والاسلام وقد اشتد الاستعمار فى مقاومة هذه الحركة لأنه رأى « فى مبدئها الذى أعلنته خطراً كل الخطر على سلطانه لأنه مايثبت أقدامه فى الجزائر إلا بتخدير العقول » .

وقد وصفت بأنها بؤرة الكفاح الذى يشن على فرنسا وفى خلال سبع سنوات تعمقت الصلة بين الحركة والأمة الجزائرية وتغلغل الاصلاح وتفتح المشاعر »

وكانت الحركة تدعو إلى حماية العربية والتاريخ والأمجاد مما دعا إلى اعتقال عدد كبير من دعاتها ونفى قادتها إلى الصحراء ومن هؤلاء محمد البشير الابراهيمى الذى ظل منفيا ثلاث سنوات .

وفى حديث للامام الابراهيمى[1] قائد هذه الحركة بعد وفاة الامام ابن باديس ١٩٤٠ معى (نشر فى مجلة الرسالة) قال : أن هناك ٤٠٠ مدرس مجندون لتثقيف الشعب وأنهم أشبه بالعباد المتجردين فى سبيل أداء هذا الواجب المقدس . وأن حركة جمعية العلماء إحدى الدعامات الضخمة القوية التى أفزعت الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقيا وأقضت مضجعه .

فقدعملت هذه الحركة منذ فجر نشأتها على مقاومة البدع التى انتشرت فى المغرب وأعان عليها الاستعمار ودعت إلى العودة إلى الإسلام فى منابعه الأولى . ووقفت للطرق الصوفية بالمرصاد على أساس أنها مصدر الشر والستار الذى يختفى خلفه الاستعمار ويتخذ منه سبيله إلى تفسير بعض الآيات القرآنية التى تدعو إلى طاعة الله وتفسيرها تفسيرا خاطئا .

ومن الوسائل التى اتخذتها الحركة لخداع الاستعمار « الأدب الرمزى » فقد اصطنعت الحركة لونا من فنون الأدب كان معروفا فى الماضى هو «سجع الكهان» وقد استطاعت عن طريقه أن تفصح عن كثير من الآراء الجريئة الحره فى الكثير

---

(١) اشترك الإمام البشير الإبراهيمى مع ابن باديس فى إعلان الحركة عام ١٩٣١ وخلفه بعد وفاته فى مارس عام ١٩٤٠ وأنشأ ٧٠ مدرسة عربية فى أنحاء الجزائر ، واعتقل عددا من المرات ، وقد بدأت حياته بالرحلة إلى الحجاز ١٩١١ ليلحق بوالده المقيم فى المدينة وعكف هناك على دراسة المخطوطات النادرة وفى ١٩١٦ انتقل إلى دمشق واشتغل أستاذا للآداب فى المدرسة السلطانية وفى سنة ١٩٢٠ عاد إلى الحجاز وتأثر بكتاب نفح الطيب وكتاب البيان والتحصيل وتأثر بابن زيدون وابن عمار وابن شهيد ولسان الدين الخطيب وقال الشعر وله ملحمة تبلغ عشرات الألوف وهى لم تطبع وكان ينظم أحيانا ثلاثمائة بيت فى الرجز فى يوم واحد وقد أصدر جريدة البصائر فى الجزائر وظل يحررها ثلاث سنوات .

من المسائل والأشخاص وكانت جريدة « البصائر » ميدانا لهذا اللون من الأسلوب وقد روى لنا أكثر من أرجوزه من هذا السجع صور فيها رأيه فى كثير من القضايا العربية والاسلامية » ا . هـ .

وهناك اجماع على أن عبدالحميد بن باديس هو الذى أحيا اللغة العربية وحفظها من الاستعمار وله فضله فى بناء العقول والمدارس ومحاربة الأساليب التى استعان بها الاستعمار ودعا إلى القومية العربية وأحياها بعد أن صمم الاستعمار على محوها .

ويقول الكاتب الفرنسى : فرانسيس جانسون « أن الحركة الباديسية أحدثت إصلاحا شاملا مما وصل إلى الإسلام بعد تخلفه من التحريف والشوائب التى علقت به نتيجة للتفسيرات المشكوك فى صحتها التى تراكمت خلال قرون عديدة . كما عملت على تعميم الثقافة العربية بانشاء مدارس تتولى تعليم اللغة العربية ونشرها فى الجزائر ، كما نشر الوعى القومى فى الجزائر مما وقف عقبه فى وجه السيطرة الاستعمارية ومما أقلق السلطات الاستعمارية التى كانت تستخدم فئة من رجال الدين المأجورين قاصدة أن تجعل الإسلام وسيلة لتخدير الشعب وكذلك قاوم خطة القضاء على اللغة العربية واستخدام كل سلاح لمحاربة تعليمها ودثر ثقافيها فيصبح بذلك نوعا من التراث القومى الذى لا يجد مجالا للبقاء إلا فى بضع عشرة من المدارس القرآنية العتيقة ... » ا . هـ

وقد قاومت فرنسا الحركة الباديسية وحاربتها أعنف الحرب فأصدرت فى ٨ مارس ١٩٣٨ قراراً فرنسيا أصدره الوزير شوتان ينص على أن « العربية » لغة أجنبية بالنسبة لجميع سكان الجزائر · ويعتبر تعلمها محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبغة العربية » .

كما منعت السلطات الفرنسية بقرار صدر عام ١٩٤٨ كل من لا يحرز شهادة

علمية فرنسية القيام بتدريس اللغة الفرنسية واعتبار اللغة العربية العامية لهجة محلية واللغة العربية الفصحى لغة ميتة .

وقد تعرضت مدارس جمعية العلماء لحملات البوليس التفتيشية والأعمال التعسفية .

وهكذا لم تكن الحركة الباديسية إلا دعوة حرية ومقاومة وتجمع فهى التى قاومت حرب اللغة وحرب التجنيس والإدماج وربطت الجزائر بالعالم العربى .

٤ — ازدواج المقاومات

لم تفلح سياسة الادماج . ولم تفلح سياسة التمزيق أو التجنيس وكان لإعلان فرنسا (١٩٤٤) عن منح ٥٠ ألف جزائرى حق المواطن الفرنسى ودون أن تلزمهم التخلى عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامى ، كان لهذا له رد فعل عكسى فقد عارض الشباب الجزائرى المثقف المثقف المتعلم فى فرنسا هذه السياسة . وخرج عن الولاء لفرنسا أولئك الذين حملوا لواء الدعوة إليها وعاد إلى الحق المثقفون الذين قالوا من قبل أن الجزائر ليست لها شخصية واضحة وأنهم بحثوا عنها فى التاريخ وفى الحاضر فلم يجدوها ، وكان ابن باديس قد رد عليهم قائلا أن الشخصية الجزائرية موجودة وواضحة .

كما ردت الباديسية إلى شباب الجزائر إيمانهم بمبادىء القومية الجزائرية القائمة على العروبة كعنصر ثقافى والإسلام كعنصر تاريخى فانعقد الاجماع على معارضه سياسة الإدماج على أساس أنها تخرج المتجنس بالجنسية الفرنسية من عقيدته .

واعترف الفرنسيون بفشل دعوى الإدماج والتجنيس والتغريب . ووقفت القومية العربية أمامهم كقوة جبارة تسخر من كل سلطانهم القائم على المدافع التى لا يملكها الجزائريون وعلى الأكاذيب الفكرية التى لايصدقونها .

واستمرت المقاومة وكان ثمنها مزيداً من الشهداء والتضحيات وعندما أرادت فرنسا أن تفرض عليهم الاحتفال بالنصر بعد الحرب العالمية الثانية قاوموا ورفضوا

فقتلت منهم ٥٠ ألفا عام ١٩٤٥[1] وقدم الجزائريون شهداءهم طيبة نفوسهم بها في سبيل الإيمان بالفكرة . وقاوم الجزائريون وقع القمع في كل مكان . في هوسو نفيل يوليو ١٩٤٨ ودوار سيدى على فى أكتوبر ١٩٤٩ حيث أمضى الفرنسيون خمسة عشر يوما من الإرهاب والهدم والسلب والإبادة .

واضطر ميتيران وزير داخلية فرنسا أن يعلن مرغما « أن فى الجزائر حركة وطنية قوية لم تفلح كل المحاولات التى بذلت لقمعها والقضاء عليها بل على العكس دعمت عزيمة أنصارها وزادت فى قوة أحرار قادتها . لقد توجهت جميع القوى الشعبية نحو ميدان الكفاح والمطالبة بالحقوق السياسية » .

وأنشأ الفرنسيون فى الجزائر الحزب الشيوعى ولكنهم عجبوا بعد قليل لفشله فى بلد يسوده الفقر والبؤس . لقد تعلم الفرنسيون من ذلك مدى إصالة الروح العربية القائمة على كفاح كل ما هو مستورد .

وقد أرغم الجزائريون على الاشتراك فى حربين عالميين وضد الألمان المتدين فى الموقعة الحاسمة فى مارس ١٩١٤ وكان لاشتراكهم فى الحرب الثانية أثره العظيم فقد عرفوا مداخل الجيش الفرنسى ومخارجه وكان من هؤلاء الأبطال قادة ثورة التحرير الجزائرية وتأكد الفرنسيون أن الاتحاد الفيدرالى بين الجزائر وفرنسا لا وجود له .

وفى ١٩٤٣ أعلنت وثيقة مطالب الشعب الجزائرى ووضحت شخصية الأمة الجزائرية وصدرت صحف كثيرة (سرية وعلنية) تحمل الدعوة المقاومة الايجابية السلبية وكانت أبرز الصحف السرية نجم شمال أفريقيا . وكان أول من نادى بالأمة

---

(١) مجزرة سطيف فى ٨ مايو ١٩٤٥ التى تعد من أبرز المواقع فى تاريخ الثورة الجزائرية والحركة الفكرية بصفة عامة وهى علامة بارزة من علامات التطور الثورى عندما تحول الشعب إلى التفكير فى العمل الايجابى الحاسم .

الجزائرية هو « عبدالحميد بن باديس » الذي قال أنها ستظل حية مابقيت على دنها ولغتها ومعرفة ماضيها وهو الذي حرض الجزائرين بمختلف تشكيلاتهم على رفض كل حل وسط : وعمل معهم على الكفاح ضد التفرقة العنصرية وسيطرة جنس على آخر واستعاده القومية الكاملة للجزائر .

ونمت حركة المقاومة نموا كبيرا مصطرداً . كانت كل يوم تتقدم عن اليوم السابق ، وكان كيانها يندعم ، ويصلب عوده باستمرار ، وكانت الأذهان تتفتح والوعى القومى يستيقظ وينمو بسرعة وكان هناك « ايجابية » واضحة وكان هذا معناه قيام الثورة الجزائرية فان ٩ مليون رجل وامرأة كانت تغلى نفوسهم بالثأر ومن بين الوثائق الفكرية التى تصور مدى عمق حركة المقاومة والتجمع ما أعلنه بعض السياسيين :

١ — يصر الاستعمار على الخلط بين الوطنية الجزائرية والاسلام ويقرر بعناد أن الصراع انما هو قائم بين الأوربى والفرنسى من ناحية والمسلم من ناحية أخرى أى أن الصراع قائم بين جنس ودين وهذه طريقة شاذة لتشويه الحقيقة ، فان الجزائرى يفرق بين الإيمان بالوطن والإيمان بالدين ويعلم مهما كانت عقيدته أنه « جزائرى » قبل أن يكون شخصا آخر .

٢ — يرى الجزائريون أن الإسلام يدعو إلى مبدأ تحررى هو العامل المحرك للثورة وهو العقيدة التى حفظت « الشخصية الجزائرية » من الإندثار وأبقت روح المقاومة حية مشتعلة تكافح الفاتح الغاشم الذى اغتصب حقوقها وأهدر كرامتها .

ومعنى هذا أن الثورة الجزائرية كانت رد فعل أمة مظلومة ، قد عزمت على أن تحطم السيطرة الاستعمارية وتحرر الشعب الجزائرى سياسيا وثقافيا واجتماعيا واقتصاديا .

٥ — الأدب الجزائري : الشعر

وكذلك أفلتت الشخصية الجزائرية من محاولة القضاء عليها بالرغم من أبشع وسائل العسف والقمع وكذلك أفلتت اللغة العربية بالرغم من تحويل فرنسا لغة المكاتبات الرسمية والمعاملات والتدريس والصحافة إلى اللغة الفرنسية وكانت هذه المعركة فى صميمها « معركة فكرية » .

أما الأدب الجزائرى فقد كان فى هذه الفترة كما يصوره « أبو القاسم سعدالله » لا يعدو أن يكون تعبيراً عن الحياة التى عاشتها الجزائر وراء القضبان عشرات السنين كما لا يعدو أن يكون صورة حية للصراع من أجل البقاء : بقاء العروبة فى الجزء الأوسط من الأطلس الجبار .

وقال الإمام البشير الابراهيمى إن « الأدب العربى » هو الرباط الذى لم تفلح السياسات الأقليمية المفرقة فى حل عروته . والذى يبقى على الدهر يجمع العروبة ويوحد آلامها وآمالها ، فإذا أفلح المستعمرون أو أذنابهم فى تشكيكنا فى أصالته وتحطيم خصائصه لم يعد لأدبنا هذه الذاتية القوية العارمة ، من أجل هذه الخاصية الجامعة التى يرهبها أعداؤنا ويعملوا على سحقها ، يجب أن يظل أدبنا عربياً يستمد شخصيته وأهدافه من حاجاتنا الواقعية لا المفتعلة ولا المزيفة » .

وقد سبق الشعر النثر فى الظهور فى الجزائر وكان ذلك من الطبيعى فى كل أقاليم الأمة العربية ، وتدل موضوعاته فى القرن التاسع عشر على أنه كان لا يتجاوز الحماس والفخر والرثاء والوصف أحياناً كما كان شائعاً فيه المدح والغناء « ويحمل إلينا شيوخ الشعر الجزائرى فى أوائل القرن الحالى بقايا البضاعة التى كانت سائدة عندهم والتى كاد الكساد يأتى عليها لولا الامتداد الطبيعى والعاطفة الأصيلة نحو العروبة . ومن هنا وجدنا فى هذه الأشعار مدائح نبوية على نسق البردة والهمزية

ووجدنا روحاً متدينة غير طموح إلى حياة أفضل . والسر فى هذه الروح اليائسة أو فى هذه الروح المزوف ، هو ما وصلت إليه الجزائر آنذاك من التجريد الذاتى ، ومحو الخصائص القومية على يد الغزاة الفرنسيين ، وعند ما دخل القرن العشرون كانت هذه الروح اليائسة قد بلغت درجة خطيرة نتيجة للصدمات أو الهزائم التى منيت بها الجزائر كلما حاولت الافلات من قبضة آسريها .

« وقد اشتركت الجزائر فى الحرب العالمية الأولى وقدمت زهرة شبابها وأسفرت الحرب عن أول حركة قومية بقيادة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر وقد مر الصراع السياسى بتجربة فيها أخذ ورد حتى عام ١٩١٥ .

« والشعر الجزائرى لم تنزه السياسة فارتفع عنها ولم يشارك فيها واندفع إلى العمل الوطنى الخالص ولم يعش على الهامش . واختار الانضمام إلى حركة الإصلاح التى أسسها الإمام عبد الحميد بن باديس فى العقد الثانى من هذا القرن وبذلك ارتفع فوق الصراع الحزبى واندفع إلى العمل الإصلاحى فى ميادينه الاجتماعية والثقافية الوطنية [١] » .

وقد قسم [٢] الشعر الجزائرى المحصول الشعرى إلى شعر المنابر (١٩٠٠ — ١٩٢٥) وشعر الأجراس (١٩٢٥ - ١٩٣٦) وشعر البناء (١٩٣٦ — ١٩٤٥) وشعر الهدف (١٩٤٥ — ١٩٥٤) وشعر الثورة من ١٩٥٤ إلى اليوم .

• وقد كان الشعر فى المرحلة الأولى قائماً على بث الوعى الشعبى عن طريق المبادىء الخلقية المستمدة من الدين ومن شعراء هذه الفترة : عاشور الحنفى وعبد الرحمن العريس وأبو اليقظان والطيب العقبى ، ومحمد اللقانى ، والسعيد

---

(١) أبو القاسم سعد الله : الشعر الجزائرى .

(٢) هذا التقسيم للمؤرخ الأدبى أبو القاسم سعد الله .

الزهراوى والهادى السنوسى وأحمد الغزالى والجنيد احمد مكى وسعيد صالحى ومحمد العابد .

● وفى المرحلة التالية « شعر الأجراس » يمثل الفزع والاهتزازات المباشرة حيث شهدت الجزائر ميلاد حزب البعث وجمعية العلماء وظهرت وسائل التعبير بالعربية فى مجلة الشهاب وجريدة البصائر ،

« وراح الشعر يدق الأجراس ويطلق الصفارات متمشياً مع التيار الوطنى وهوإذ يفعل ذلك لايزج بنفسه فى مفهوم لا يهضمه ولا يتناول قضية ما بالتجزئة بل يظل صورة للقلق والغيوم التى تتراكم فى سماء الجزائر [١] » .

ومن شعراء هذه الفترة محمد العيد والأمين العمودى واحمد سحنون ومفدى زكريا والطاهر البوشوشى وجلول البدوى .

● وفى المرحلة الثالثة — شعر البناء — « عرفت الجزائر أكبر الهزات الوطنية والعالمية فقد انعقد المؤتمر الإسلامى الذى كان حجر الزاوية فى التكتل الشعبى وبداية عهد لتقابل الأفكار الحزبية وانهزام الخونة والرجعيين » وفيه آلت أمارة الشعر إلى محمد العيد ، « وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ الشعر يبنى حيـاة الجزائر ، وأخذ يدعو إلى الوحدة وإلى الوطنية النقية . وإلى التحرر من الأفكار الماضية وإلى مسايرة الركب الحضارى الصاعد نحو الأفضل والأرقى والأجمل . كما أخذ يواجه العدو بشىء من الصراحة والتهديد . ويكتشف ما فى الجزائر من طاقات مذخورة وخصائص تميزها وتجعل منها شخصية نموذجية مستقلة [٢]. »

وأبرز شعراء هذه المرحلة سحنون وزكريا .

---

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر .

• وفى المرحلة الرابعة ظهر شعر الهدف بعد مجزرة ٨ مايو ١٩٤٥ (معركة سطيف) « اكتشف الشعب الجزائرى تجربة جديدة فى الكفاح الوطنى . فهذه التجربة وإن خلقت جراحا عميقة ، ومرارة بالغة فإنها أيأست الشعب من المحاولة السلبية وجعلته يكتشف نفسه التى كانت تائهة فى ضباب الماضى الكثيف . ونتيجة لهذه المأساة ظهرت فى أفق الجزائر هـذه المرة ألحان الحرية والضحايا والاستقلال والعلم الرفراف إلى آخر هذه الأمور المقدسة فى ذهن الشعب[1] ، كما شارك الشعر الجزائرى فى معارك فلسطين والأحداث العالمية العربية وأبرز شعراء هذه المرحلة الربيع أبو شاقة وعبد الكريم العقون وأحمد العوالى والأخضر السائحى وموسى الأحمدى وحسن حموتن وإن ظلت قيادة الشعر فى يد محمد العيد مع سحنون وزكريا . »

• ومنذ بدأت الثورة الجزائرية (١٩٤٥) أخذ الشعر صورة جديدة أشد عمقاً وقوة فقد أذكت الثورة المشاعر فتفجرت فى شعور ثورى عام . وقد وصف (أبو القاسم سعد الله) شعر هذه المرحلة بأنه شعر غير مركز يؤديه الحماس وتتحكم فيه العاطفة المجنحة بدل أن يؤديه الخيال المنتج وتصبغه التأملات البارعة : كما يلاحظ أن معظم أصحابه تنقصهم التجارب التى تجعله حياً لذيذاً يتجاوب مع أكبر عدد ممكن من القراء . »

ومن شعراء هذه الفترة أحمد الباتنى ، وصالح الخرفى ، وأحمد أبو القاسم خمار وعبد السلام حبيب (أكثر الشعراء إنتاجا) ومحمد صالح باديه . وأبو القاسم سعد الله .

وإذا كان الشعر الجزائرى قد تناول كل موضوعات الشعر كالرثاء والوصف والتهانى والعتاب والحكم فإنه خلا من الغزل وبعد عن الذات ووحيها . وقد بدأ يتحرر من القافية الواحدة والتفاعيل .

(١) أبو القاسم سعد الله .

ويعد أبو القاسم سعد الله أول من قال شعراً غزلا عاطفياً بعد تجربة قلبية ١٩٥٣ ومن الطبيعى أن يقصر شعـــر الجزائر عن الغزل فإن ما مرت به البلاد من محن ومعارك كانت ولا شك تشغل الأذهان وتقصرها على الكفاح وفى هذا يقول الشاعر اللقانى .

ألا فدع التغزل فى غوان فتلك طريقة المستهترينا
فمن صوت البلاد لنا نداء يكاد المرء يسمعه أنينا

ويقول الإمام البشير الابراهيمى (١٩٥٧[1]) إن هناك أدبا نشأمع الثورة منذ ثلاث سنوات ، هذا الأدب ترده الألسنة وتتناقله الشفاه . وهو يصور المجاهدين الذين يقاتلون فى الميدان والشعب الجزائرى من وراء المجاهدين يقف موقف المرابط الذى يعاون الثورة بكل ما يملك .

وقد أشار الابراهيمى إلى شاعر الجزائر : (محمد العيد آل خليفة) وقال إنه شاعر الثورة الجزائرية لأنه بشر بها وقال فيها الكثير من شعره . وقد وصفه شكيب أرسلان فقال :

«قصائد محمد العيد ؟ إنى أقرأها المرات العديدة ولا أملها وكلما ذكرتها أجد دائما عذوبتها فى فمى فهو يمثل لنا زهيراً فى القرن العشرين» ومن يعرف محمد العيد فى تدينه وتقواه يعرف أن روح الصدق المتفشية فى شعره إنما هى من آثار صدق الايمان وصحة الخلق . وقد رافق شعره النهضة الجزائرية فى جميع مراحلها : وهذه نماذج من شعر الجزائر الحديث

١ – (على الرقيعى)

يافتيتى من فوق أوراس المكابر كالآله
شب احتدام الغاره الشعواء واضطرم اللهيب
لا بد يا أوراس من عرس الجلاء

[1] فى حديث له مع الأستاذ العمرباصى لمجلة صوت الشرق

فلقد عرفنا كيف نفــترس الظباء
إنا خبرنا حــــرب أشباه الرجال
التـــافهين : . . رعاع باريس البغى
من نمقوا فى مسمعى عـذب الـكلام
هيهات لن أصغى لأخدع من جـديد
بفصاحة اللفظ المزوق بالعهـود

٢ — جرح ملوزه

يا أرضى المنــطلقة
نسراً يحضن حــرية
شــــعلة نور منبثقة
مازالت فى الـكأس بقية
شربوها سماً أو خـيبة
وسـنملأها حـــرية
يا أرضى المنــطلقة
لا ألمــاً لا شـكوى
أمضى فى الأفق الأرحب
أفـــق الثــــورة
آسى الجرحــــه بالجرحه
وأطيرى الموكب بالفرحة
لا ألمــاً لا شـكوى
يا أرضى المنطلقـــة

٣ — (أبو القاسم سعد الله)

سوف تدرى راهبات واد عبقر
كيف عانقت شعاع المجد أحمر
وسكبت الخمر بين العالمين
خمر حب وانطلاق ويقين
ومسحت أعين الفجر الوضيئة
وشدوت لنسور الوطنية

إن هذا هو دينى · فاتبعونى أو دعونى ، فى مروق ، فقد اخترت طريق يارفيق

٤ — (محمد جعفر)

أكتب للانسان . وكائنا من كان
عن قصة الظلم عن الطغيان
والغدر عما يفعل القرصان
عن السجون المظلمة عن القبور الحاطمة
عن الدم المراق فى الجزائر
عن الذئاب الكاسرة تسطو على الحظائر
وتنهب الغلال .وأنها ذئاب تشابه الانسان
وتدعى أن لها حضارة
أتظلم الحضارة الإنسان
أتبقر البطون بالحراب . وتقتل الأطفال
كأنها ذئاب
وتنشر الأهوال ياشرعة الأدغال

وقصتى الأليمة المعذبة . فتى من الجزائر
تلك البلاد المرعبة ، أكتبها بالدم أسقى قلمى
ومن فـــؤادى المؤلم .
قد شنقوا حريتى . وحطموا شهامتى
إذ داهم الذئاب حيناً ، بيتنا
وضربوا والدتى وجرها ذئب من الضفائر
لم ؟ لـكى تنبئهم عن ثائر . ثار على الطغيان
وحطموا أثاثنا . واتلفوا تراثنا وذبحوا نعجتنا الحلوب
وحرقوا حظـــيرة الدجاج
الويل للطغاة . وبعد أن لفنا الخراب . تفرق الذئاب

٥ — صرخة الجزائر (محمد الحلوى)

أطلق النـار أو فسل الحساما هم أرادوا أن يقروا السلاما
وامتط الأدهم المطهم أو فاسر بليل وعانق الآكاما
رخص المـــوت ثائراً عربياً ابن أسد ماتوا أباه كراما
زعمـــوا أرضك الجزائر ملكا لفرنسا تســـلمته إغتناما
وتناسوا حضارة العرب الأمجاد فيها والضـــاد والاسلاما
زعموا أهلهـــا رعايا وشاءوا أن يسوقوا أبناءها أغناما
فاذا بالأحرار يمتشقون السيف ناراً ويكشفون اللثـــاما
ويشبونها جحيما على الراعى ليلاقى من قبضـــتيه الزماما
أنزل الويل بالقرى وهى عزل وغزاها ليظهر الاقـــداما
وانتصار الضـلال والباطل الزاهق شىء يقارب الأحـــلاما
إن للحق جولة تصرع البغى فتمسى أعمـــاره أياما

٦ — النثر والقصة

ومن أعماق معركة المقاومة الجزائرية الممتدة ظهرت أقلام تكتب بالعربية والفرنسية وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية . وقد اضطر عدد من هؤلاء الكتاب إلى اصطناع اللغة الفرنسية نظراً للمرحلة القاتمة التى مروا بها فى أول شبابهم عند ما كانت اللغة العربية محرمة ، وجاء وقت كان الحديث بالعربية جريمة تستحق العقاب كما كانت فرنسا تحارب نشر الإنتاج العربى وأذاعته وتمنع الأدباء من التجمع والسفر والتلاقى لا فى الخارج بل فى الجزائر نفسها وقد لجأ الكتاب إلى الفرنسية حتى يتمكنوا من الوصول إلى الدرجة المناسبة للتعبير الذى لا يتوفر لهم فى اللغة العربية .

وقد كانت فرنسا فى الوقت الذى تشجع فيه الأدب الجزائرى بلغة الاحتلال تقدمه لقرائها على أنه هو إنتاج الجزائر الحقيقى . وعلى أنه لم يعد لها صلة بهؤلاء الذين يتحدثون العربية أو يكتبون بها .

ومن أبرز الأدباء الذين ظهروا بعد الحرب العالمية الثانية : محمد ديب ومولود معمرى ومولود فرعون ومرسيل بوسلى وادريس شرايبى وكاتب يس وعمووش وهم أدباء مارسوا مشكلة« إزدواج الحضارة »التى هى مشكلة عدد كبير من مثقفى الجزائر الذين تعلموا فى فرنسا وتزوج بعضهم فرنسيات . وهم وإن كانوا قد تعلموا فى باريس وأحيطوا بعديد من النظريات الخداعة بالنسبة للاسلام واللغة العربية والأمجاد والتراث العربى الخالد وابراز معانى سياسة الإدماج « assinilation » وغيرها من دعوات المشاركة والتغريب فانهم عادوا فتمسكوا بالحضارة العربية والشخصية الجزائرية ورأو فى ذلك تأكيداً لشخصيتهم القومية وتراثهم الوطنى .

وقد كان لتأثرهم بالمذهب الواقعى فى الأدب أن جعلوا من الشعب مادة لرواياتهم وقصصهم وداووينهم .

محمد ديب

كتب « محمد ديب » الذى يعد اليوم أبرز كتاب الأدب الجزائرى يصف « الدوافع للكتابة » عنده فقال :

لقد بدأت أكتب فى سن الرابعة عشرة النثر والشعر معاً ، إنها الرغبة فى تفهم العالم والسيطرة عليه بشكل أحسن . كنت أظن بشكل غامض أن الكتابة سوف تتيح لى أن أفهم الأشياء أحسن مما سبق وأن أستولى عليها وأؤثر فيها . كنت أظن أن الكتابة سوف تتيح لى أن أفك خيوط العنكبوت » .

وقد ولد محمد ديب فى ٢١ يوليه ١٩٢٠ فى تلمسان عاصمة مقاطعة وهران وهى اليوم أهم مناطق الثورة على الفرنسيين . كان رسام سجاد فحاسبا ، فصحفياً حيث قضى سنى مابعد الحرب محرراً بجريدة الجزائر الجمهورية ولكنه هجرها وقال « إن الصحافة تمتص كل طاقة الإنسان فتمنعه من التأليف » كما عمل مدرساً بقرية على الحدود بين الجزائر ومراكش وفى عام ١٩٤٨ اشترك فى حركات الشباب والتربية الشعبية فى سيدى مدنى . وهو كاتب وجدانى واقعى ، كتب القصة القصيرة ونظم الشعر . وأدبه لا يعرف الاستكانه ولا الاستسلام بل يقتحم الأمل كل زواياه . ويقول نقاده أنه يقف بين الفلاحين أهله وعشيرته فى الجزائر ويتحدث عنهم ويستنشق هواءهم . وهو يحرك الشاعر بأبسط الوسائل تلك التى تكمن فى قول الحقيقة العارية دون صراخ ولا دموع . ويصور وثبة الكرامة فى الجزائر حين يقول :

« اليوم أنظر كيف تعلم أن يحترم نفسه . وأن يرفض الإذلال . لقد رفعنا وشاح الحزن الذى أتشحت به قلوبنا ، أننا أقوياء ، إن شعبنا شعب طيب . هل ظنوا أن أرضنا طيبة ، هل سلبونا إياها ولكن الجنس البشرى يصحو .

أنه يفتح عينيه . أنهم يظنون أنهم أمهر وأذكى . ولكنهم سوف ينالون سواد القبور » .

وله رواية « البيت الكبير » — ١٩٥٣ — كجزء من ملحمة كبرى عن الجزائر التى صدر منها الجزء الثانى عام ١٩٥٤ باسم « الحريق » وهو يكتب الجزء الثالث من قصة الجزائر بعنوان « أخوة من البشر » وقد أحرز جائزة الفنون

وله مجموعة قصص « على المقهى » ١٩٥٦ . ، ويعد رواية تدور حول أسرة من كبار الإقطاعيين المحافظين « رجال بلا هدف » تلعب دوراً فعالا فى جبهة التحرر الوطنى الجزائرى .

وفى رواية « الحريق » يصور « محمد ديب » حياة الفلاحين فى قرية بنى أبو بلال بالقرب من تلمسان . وهذا نموذج من صورة المجتمع الجزائرى فى إبان معركته الضخمة .

« إذا اشترينا خبزاً لما استطعنا أن نشترى زيتا . وإذا اشترينا زيتا لما استطعنا أن نشترى خضروات : وإذا اشترينا خضروات لم نستطع أن نشترى بنـا . هكذا نعيش . لم يعد لدينا قطرة واحدة من الزيت فى المنزل منذ خمسة عشر يوما . وأنا مدين للبقال ولا أستطيع سداد الدين . إننا نموت تدريجياً . إننا نطالب بحقنا فى الحياة . نحن وأولادنا . فى هذه الأثناء كان سكان بنى بلال يضحون بالدم والعرق ليفلحوا قطعة من الأرض لا تكاد تذكر . كانوا يملكون حماراً أو حمارين . وربما بغلا . وأحيانا جاموسة أو جاموستين .

« أما اليوم فهذه بلادنا وقد أخذت تتقدم فى طريق الحياة بعد أن انتزعتها الأحداث من ركودها وانطوائها وسباتها الطويل الثقيل .

« هناك نفر من الفلاحين يقسمون أن السجن خير من هذه الحياة التى نحياها ولـكن من أين هذه العزة الشامخة التى تتسرب من حقول العنب والمراعى الخصراء إن مجرد وجودهم يخلق الجنة فى الأرض وإن كانوا منبوذين من الجنة .

« لابد من التحالف مع جميع الذين يعملون ويتألمون ويناضلون . نحن شهداء عصر جديد لا شك أن روح بلادنا الواسعة قد اهتزت .

« إن هذا الذى يحدث لصادق سوف يحدث لذوينا . فهل نحنى قامتنا . هل نقبل مشيئة الحاكم . إن انحناء القامة سهل ميسور . ولـكنه العار ، كيف نواجه العار . إذن لابد للانسان أن يظل واقفاً وثابتاً فوق قدميه . إنها الضرورة المطلقة .

« نحن معشر الرجال ، فى جبالنا هذه ، يجب أن تقف البلاد بأسرها وتبصق احتقارها فى وجه الطغاة .

« إنهم يستخدمون القوة دون جدوى . إن هذا الشر سوف يغتالهم ونحن سوف ندفنهم .

وقد تحدث « محمد ديب » عن الأدب الجزائرى وتفاعله مع الثورة الجزائرية وحركة المقاومة فقال « إن الجزائر مستعمرة فرنسية منذ ١٢٥ عاما وهى منذ عشرة سنوات ميدان للمعركة بين قوتى التحرر الصاعدة والاستعمار القديم : والحق أن هذه المعركة لم تتوقف منذ وقعت الجزائر فى قبضة الاستعماريين الفرنسيين . وها هى قد تحولت إلى ثورة عامة اتخذت شكل الحرب الوطنية . وترتب على ذلك أن حدث عندنا إزدهار ملحوظ للمواهب الجديدة فى علاقة وثيقة بهذا الـكفاح التحررى ، وعلى أساس حركة وعى متزايدة يوما بعد يوم . ومما يلفت النظر أن الـكتاب والفنانين عدلوا عن تحديد موقفهم بالنسبة للحركة الوطنية فلم يقفوا فوقها أو دونها . بل راحوا يقفون فى قلبها بصفتهم وطنيين وخالقين . إن الجيل الجديد

فى الأدب والفن الجزائرى قد نبذ إلى غير رجعة قوالب الأدب الاستعمارى الوضيع الكاذب الذى لا ينظر إلى مواطن البلاد المتأخرة إلا نظرته إلى انسان مريض أو بدائى طيب القلب »

« .. فى قلب كل كاتب حقيق ، وكل فنان حقيق ؛ مكمن رسالة وطنية ، لا تقوم له قائمة بدونها ، إن كتابنا الجدد توصلوا إلى حقيقة أكبر وعمق أكبر وفن أكبر عند ماجعلوا من المسألة الوطنية المضمون الإنسانى والإجتماعى لأعمالهم ومن أجل التقدم بأدبنا إلى الأمام ورفع مستواه ، يجب أن نندمج فى المعركة بشكل كلى وبحماس . وهكذا فقط سوف تنكشف أمامنا أثمن الصفات الانسانية . إن العمل على الظفر بمستقبل بلادنا لواجب وطنى مقدس بالنسبة للكاتب . كما أنه ضمان أكيد لجودة إنتاجه .

« والواقع أن موقف الكاتب من المسألة الوطنية يقوم على أساس موقفه من شعبه ومن الكادحين من أبناء شعبه . فهم الذين يكونون أكثر الفئات نشاطا فى البلاد . وهم خلاق ثرواتها وعلى أكتافهم تقوم الأمة فى نهاية الأمر . إنهم يتحملون أعباء الدفاع عنها فى ساعة الخطر . وبديهى أن الكاتب الذى يتجاوب قلبياً وبلاده لا يستطيع أن يقف على هامش أحسن أبناء هذه البلاد — جيش الكادحين الكبير — بل أنه يخوض المعركة إلى جانبهم ، دون مهادنة بقوة وعزم الجندى الذى يدافع عن وطنه على خط النار . »

ومما يقوله محمد ديب فى بعض قصصه :

« لم يعد العالم كما كان فى عهدك ياسيدى . إن الجيل محل اعتداء من كل ناحية ، إن أبناء أولئك الذين كانوا ينصتون إليك وكأنك من الأنبياء : نقلوا إلينا التقاليد

الدخيلة : إنهم لا يسيرون على هدى القوانين . وسوف يأتى اليوم الذى لايتحدثون فيه بلغة آبائهم : هذا الجيل ملعون . . »

٢ ـ مولود معمرى

بدأ [(١)] حياته فى دوامة الحضارة الفرنسية . خدعته أول الأمر ادعاءات فرنسا عن أهداف المقاومة الجزائرية . أنه من أسرة ثرية ، وقد سافر إلى فرنسا . درس الآداب فى الجامعات الفرنسية بها وعاد يعمل مدرساً وكاتباً اشترك فى الحرب العالمية الثانية ٣٩ — ٤٠ أثناء الغزو الهتلرى لفرنسا . شارك بعد عام ١٩٤٣ فى معارك تحرير ايطاليا وفرنسا والمانيا . عين بعد الحرب أستاذاً للآداب فى ليسيه « ابن عكنون » بمدينة الجزائر . وكان إلى أن صدرت قصته الثانية « نوم الرجل العادل » يتفاعل فى نفسه صراع الثقافة الفرنسية والعربية .

ومن روايته الأولى « التل المنسى » ١٩٥٣ لا يبرز أثر الاستعمار فى تفكيره إلا بطريقة غير مباشرة . وتدور الرواية حول الصراع بين الجيل الماضى والجيل الحاضر . وبين القديم والحديث . . وصور السخط على التقاليد البالية وأعلان السخط على الفقر والتأخر وجمود الحياة الاجتماعية فى ريف الجزائر . والتنديد بالحرب من الناحية الإنسانية .

ولكنه فى ١٩٥٦ عند ما أصدر روايته الثانية « نوم الرجل العادل » ظهر فيها أثر حرب التحرير فى عبارات واضحة وذلك بعد أن أدرك أن الاستعمار هو المسئول الأول عن الخراب الواقع فى الجزائر .

وكأنه قد فهم أن الاستعمار الثقافى يبعد مثقفى الجزائر عن شعبهم وقد كان من نتيجة ذلك أن البوليس الفرنسى ألقى القبض عليه وزج به فى السجن ثم نفى إلى الرباط .

وما إن أدرك « مولود » أن هناك قومية جزائرية متميزة عن القومية الفرنسية حتى صاح

---

(١) ولد فى ٢٨ ديسمبر ١٩١٧ فى بلدة طوريرت ميمون بالمناطق الجبلية وتعلم فى الرباط .

صيحته الكبرى : إن الشعب وحده هو الذى يخلق القيم ويصنع التاريخ وإن الحرية لا تتجزأ وإن المفكر لا يستطيع أن يتمتع بالحرية مادام شعبه سجيناً .

والمعروف أن مولود كتب هذه القصص باللغة الفرنسية .

وقد صور مولود الأدب الجزائرى فى رسالة وجهها إلى صديقه « جيروم » ونشرت فى مجلة الآداب الفرنسية فى صورة خطاب مفتوح إلى صديق فرنسى وهى أروع تصوير لتفاعل الأدب الجزائرى مع حركة المقاومة الضخمة التى عاشتها الجزائر :

« .. أما هنا فالرجال يموتون ، والروائح النتنة تموت ، والمفونات تموت أيضاً ولكن آمالا تولد كل يوم . آمالا شديدة عنيدة صامتة . آمالا راسخة حقيقية . حتى أننا نرضى بالموت فى سبيلها لتصبح آمال موتى اليوم هى واقع أحياء الغد .

ويطلع كل نهار على نصيبه من الجثث وعلى نصيبه من الدفاع الحماسى كذلك .

« عام مضى وأنا لا أكتب شيئاً لأننى لا أجد شيئاً يستحق الكتابة .

لا شىء سوى المأساة الكبرى والدموع . ودماء الأبرياء . جميع الأبرياء الذين يدفعون ثمن جريمة المجرم الأكبر . ألا وهو الاستعمار ثانى خطايا كم بعد الخطيئة الأولى فى الجنة .

إن مشكلات تسعة ملايين جزائرى مشكلات بسيطة بساطة سوف تدهشك أنهم من أية جهة كانوا يحصون أمواتهم . وليس هذا بالعمل الهين . ولو كان الميت مجرد جثة لهان الأمر فالميت يمكن أن يعرف لأول نظرة . له شكل وأسم وأقارب يبكونه وأصدقاء يريدون الثأر له . وهناك قوم شرفاء يرون أنه مات ظلماً وهناك أيضا من هم مثله عند ما كان حياً ، يكوى الخوف أحشاءهم لأنهم يتساءلون « لم مات هو بالذات » وإن كان دورهم سيأتى فى الغد . وهؤلاء هم أشد الناس

خطراً . فهم ، لخوفهم من الموت . يزرعونه بإرادة أقوى . وأعنى بذلك هؤلاء المنتقمين الدمويين دون غيرهم . فهم يظنون أن اطلاق رصاص بنادقهم سينقذهم من كل من هم ضدهم .

« فهل يمكن أن تحل المسألة الجزائرية بقولك : اقتلوهم كلهم .

« هذه عبارة نسمعها هنا من الكثير من الأحيان . وكأننا نعلم — أنت وأنا ياجيروم — أنه بعد قتلهم جميعاً سوف يبقى الآخرون . هناك دائما آخرون فى مثل هذه الحالات . ولكن عند مانحصى آمالنا الميتة تصبح المسألة أكثر صعوبة : فهؤلاء أموات لا يمكن السكوت على موتهم ولا على الموتى الآخرين ولا شك • ولكننا نعلم جيداً أن هؤلاء الآخرين لن يموتوا . ولا مجال للشك فى عودتهم بعد دفنهم فنحن على يقين من أن الأرواح لا تعود . أنهم أموات بمعنى الكلمة أى أنهم محدودون فى أنحاء معينة . ولكن الأموات غير المحددين . مثلهم مثل الاشياء التى تحسب أن موتها لا ينتهى . تقتل من حولنا فتعود بعناد إلى الحياة فى زوايا قلوبنا . من ينقذنا من هذه الأموات .

كانت عند الكثيرين منا نقطة ضعف ألا وهى حب العديد من الأشياء الفرنسية ولكن منذ أكثر من عام والأيام تقتلها قتلا أشد وأعمق المرة تلو الأخرى . أن جميع الكلمات التى سلمتم بطريقة مهائبة بأن السذج وحدهم هم الذين لا يزالون يؤمنون بها ، هذه الكلمات ما زلنا نحن نؤمن بها فى سذاجة أنها الاخوة والانسانية والتحرر . أنها كلمات لا أجرؤ على ذكرها بدون أن استحى ولكن ماالعمل؟ وقد تكلم عنها كتابكم وشعراؤكم وفلاسفتكم بأسلوب خلاب بليغ ونبرات خلبت لبى .

ولكن ها هو ذا الشر قد وقع وما من قوة يمكنها أن تعيرنى أخا أنسانياً ورجلا محرراً .

هذه الأموات . إننا جمع من الناس ومثلنا عدد كبير ومعنا الشعب الجزائرى بأسره وبالتأكيد قسم كبير من الشعب الفرنسى لا يريدون الاستسلام للموت .

إن تعاليم المسيح الذى أتى لإنقاذ البشر — جميع البشر — وبخاصة صغارهم تصل الافريقيين هى والخمر فى مركب واحد مع المستعمرين والموظفين الإداريين ويشعر الافريقيون ولو بشكل غير واضح إن جميع هذه العناصر متضامنة متكاتفة ولها وجوه مختلفة للقطع الرئيسية فى الة واحدة .

لا أخفى إننى أرسم هـــذه اللوحة بخطوطها الـكبيرة . إننى أعلم حق العلم أن العرب ليسوا جميعاً خرافا تذبح . وأعلم أن الـكنيسة قد عادت من جـديد إلى طريق المسيح وتعاليمه . وأن الـكثيرين قد أتوا إلى هذا البلد ينتوون نشر المبادىء الفرنسية الحقة . ولـكننى أظن أنك فهمت تمام الفهم أننى لا أتعرض للأشخاص . بل للنظام وحده .

وإنما أتعرض للنظام لأنه يعتبر تراجعاً بالإنسانية والمدنية إلى الوراء . فإن شواطىء البحر الأبيض قد تعودت نغمات الفـكر الرفيع . وازدهرت فيهـا « أنانية » تيرانس : وعمق « غسطنيوس » وعبقرية « هانيبال » وسلام عبد المؤمن وأنوار ابن خلدون : إن هذه الشواطىء قد حل فيها الجدب وليس فى الأمكان إحياؤها .

ومن البين أن عبادة « الـكرمة » لا تسمح بأيه عبادة أخرى . لقد عفت الـكرمة على كل شىء . الأرض أولا . ثم الرجال . وماذا تنفع الأرقام لإظهار تزايد الأفراد فى هذا البلد عاما بعد عام . إن الرجال لا يعدون كما تعد رءوس الغنم فالرجل يوزن بقدر مافيه من انسانية . وما فائدة كثرة من يولدون إن هم ولدوا أمواتا .

لقد أتت (الـكرمة) على كل شىء ، الهواء كله . والفضاء كله . وتعب الأيدى كله . وألم الرجال كله . والحب كله كذلك . فحيث تنبت الـكرمة يذوى الرجال ، لأنه ليس بين العواطف التى ترافق الاستعمار عاطفة تدعو إلى التفاؤل والاندفاع نحو الأمل .

ولا يمكن أن يظهر فى ظل النظام الاستعمارى أى قديس أو بطل بل لا يمكن أن تظهر أى موهبة ولو بسيطة دون أن يخنقها الاستعمار . إن الإنسان لا يرفع الانسان بل يظلمه ولا يثير فيه الحماسة بل يدفعه إلى اليأس والعقم . إنه لا يؤلف بل يفرق ويعزل ويحجز كل رجل فى إطار وحدة بائسة .

لقد أنتج الاستعمار شكلا جديداً من العلاقات بين البشر : ألا وهو الاحتقار ؛ الاحتقار الأحمق لجنس بأكمله . لشعب بأكمله . احتقاراً أعمى أرعن . وماذا إن اجتمعت القوة مع الاحتقار . لعمرى أن ذلك لملاط سريع التفتت لا يصلح أساساً لمن يريد تأسيس حضارة . » اهـ .

٣ — ومن كتاب الجزائر « كاتب ياسين » الذى يصور فى قصة « نجمة » التى كتبها بالفرنسية حياة الجزائريين المهاجرين فى فرنسا والذين فارقوا وطنهم . وعليهم أن يكسبوا القوت اليومى ، والطلبة الجزائريين فى باريس وتأثير فرنسا فى تكوينهم العقلى كما يحدثنا عن أمنياتهم الوطنية وعن رغباتهم التحررية . ثم يصور القتل الجماعى الذى قامت به فرنسا فى قبالة وسطيف فى الثامن من مايو ١٩٤٥ والذى ذهب ضحيته خمسة وأربعين ألف شاب .

٤ — والكاتب « عمروش » الذى قال فى مقال له فى نوفمبر ١٩٥٧ عنوانه « لا بد من الاعتراف بوطن للجزائرين : من كان يدرى أن فلاحى أوراس وعماله وهران ونواحى الصمام والعاملين فى الظلام فى المدن أنهم سيكشفون فى جوهر مأساتهم وجو بأسهم الطريق الوحيد المؤدى إلى النور : الطريق الذى أداهم من أول نوفمبر ١٩٥٤ إلى أن يعلنوا أنفسهم أمام العالم أنهم أحرار وأنهم سادة فوق ثرى الأجداد

٥ — ولعل « مولود معمرى » يصور نفسه عند ما يقول فى قصته « النابع » عن معارك ١٩٥٦ .

« أزرمى الذى تعلم فى معاهد فرنسا ثم اكتشف الظلم والاضطهاد شعبه ورأى

أن إيمانه بالمدنية وبالحق وبالحرية والمساواة لابد أن يترجم إلى كفاح من أجل تحقيق هذه المعانى كلها لشعبه . ؛ سألنى عنك وهل أنت فى السجن أم لا . قلت أنك فى الجزائر : قال أنه شىء واحد » .

٦ — أما ادريس شرايبى فقد صور فى روايته « الجديان » حاله ٣٠٠ ألف جزائرى من المستوطنين فى باريس ومعظمهم من العمال ، يعيشون فى الأكواخ .

٧ — الثقافة والاضطهاد

جاء فى تقرير عن « الوضعية الثقافية » فى الجزائر الذى قدمه الشعب الجزائرى إلى مؤتمر اللجان الوطنية التابعة لليونسكو (يناير ١٩٥٨) ما يلى :

● إن الثقافة العربية الجزائرية قد بلغت دركة من الانحاط والمسخ ، عديمة النظير فى تاريخ الجزائر العربية وفى سائر البلاد العربية . هذا الدرك المفزع الذى تردت فيه الثقافة القومية الجزائرية وهو نتيجة لخطة مدبرة محكمة كانت لا تزال تستهدف باعتراف واضعيها أنفسهم — محو الثقافة القومية فى الجزائر فى شتى مظاهرها اللغوى والأدبى والفكرى والدينى .

وقد فرضت هذه الخطة اللاثقافية على الجزائر منذ الاحتلال عام ١٨٣٠ .

● أخذت سائر المظاهر الثقافية تذوى ، الواحدة تلو الأخرى ، فالدراسات العربية منعت وأصبحت لغة الضاد غريبة عن وطنها ضائعة بين أبنائها .

والبحوث الإسلامية حرّمت واضطهد من يجرؤ على العناية بها ، وقلبت القيم الخلقية والفلسفية والاجتماعية الإسلامية ، فأصبح الخضوع للسلطة الأجنبية والصبر على البؤس والشقاء توكلا على الله . وانحطت القيم الدينية وانحصرت فى حركات تعبدية شكلية وصوفية مظهرية سخيفة هى أقرب إلى الوثنية البدائية منها إلى روح الأديان السماوية وظهرت طبقة من الكهنوت الانتهازى الجشع

المتزلف . وهكذا سجنت العقلية الجزائرية فى سجن مظلم محكم من الجهل والبؤس واللاثقافية . إن الظلم الفكرى وإن كان مدبراً لا يدوم طويلا خاصة عند شعب له ماض مشرف فى ميدان الثقافة مثل الشعب الجزائرى فبالرغم من الستار الحديدى المضروب حول الجزائر لعزلها عن شقيقاتها الناهضة وعن العالم المتمدن . ظهرت حركة هجرة واسعة النطـــاق نحو مختلف البلاد العربية خاصة مصر وتونس والمغرب وكانت نتيجة هذه الهجرة ظهور نهضة ثقافية قومية منذ بعيد الحرب العالمية الأولى : اهتمت بإنشاء مدارس حرة من أموال المتبرعين من الأمة ، مدارس كانت كثيراً ما تعمدفرنسا إلى اغلاقها وقد بلغت هذه المدارس الحرة ١٥٠ مدرسة يدرس فيها لأكثر من ٥٠ ألف تلميذ إلا أن جل هذه المدارس قد أغلق اليوم واضطهد مدرسوها وطلبتها واغتيل الكثير منهم

ومن هذا يتضح أن النظام الاستعمارى العالمى فى الجزائر هو أكبر عامل فى تدهور الثقافة العربية وعجز الشعب الجزائرى عن المساهمة فى تحقيق التقريب الفكرى بين الشرق والغرب وفى تقدير القيم الثقافية .

٣ – فى تونس

تمثل تونس قاعدة من قواعد الفكر العربى على ساحل البحر الأبيض وفى الشمال الأفريقى وهى فى الجملة من أعظم مراكز الفكر والأدب والثقافة .وقدكانت عنصراً هاماً من عناصر المقاومة للاستعمار الفرنسى بعد الاستبداد العثمانى . وقد ظلت وثيقة الصلة بالأجزاء الأخرى من الساحل الأفريقى : ليبيا ومراكش والجزائر كما ظلت متصلة بالقاهرة والشرق العربى كله . وفى حياتها الفكرية بطلان كانا بعيدى الأثر هما خير الدين التونسى المتوفى ١٨٩٨ وعبد القادر الثعالبى الذى قاد الحركة الفكرية والوطنية إلى ما بعد الثلاثينيات من هذا القرن .

وقد قاومت تونس مؤامرات العزل والانفصالية والتجزئة بينها وبين الجزائر من ناحية وبينها وبين لبيا من الناحية الأخرى كما قاومت مؤامرات الاستعمار الفرنسى ومن أبرزها مؤامرة التجنيس التى قامت بها فرنسا ١٩٢٤ .

(على باش حامبه)

وكان للصحافة التونسية دور ضخم فى الحركة الوطنية والمقاومة فقد كان كتابها فى حقيقة الأمر أبطال كفاح وقلم معاً . ولا ينسى فى هـذا المجال قيادة « على باش حامبة » للشـباب التونسى ابان الحرب العالمية الأولى الذى كان يرى فى مصطفى كامل (المصرى) المثل الحى الذى يجب أن يقتدى به الشباب وقد ارتبطت تونس من ناحية بالحركة السنوسية فى لبيا وبالحركات الوطنية التى قامت فى الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر فى القرن الماضى ومعارك عبد الكريم فى الريف « ١٩٢٢ — ١٩٢٦ » وكانت أهم ضروب المقاومة فى تونس هى حرب زايان العظمة بقيادة محمد رحموا الزايانى ومقاومة على باش حمبـــة والثعالبى والبشير صفر ١٩١١ ويعد الشيخ السنوسى فى نظر التونسيين هو زعيم أول حركة وطنية

بعد الحماية وهو من علماء الزيتونة المتنورين . كما ثار « التوارجه » عام ١٩١٧ بقيادة زعيمهم « موسى وعق المصطانى » ثورة عمت الصحراء كلها من أعالى النيل إلى أدارار على الساحل الأطلسى .

وقد استمرت المقاومة الوطنية للاستعمار الفرنسى منذ بدأ الاحتلال فى مايو ١٨٨١ حتى قامت الثورة الوطنية الكبرى ١٩٥٤ والتى حققت الاستقلال الذاتى ولعله مما يذكر فى هذا أن الحركة الفكرية فى العالم العربى كله قد ارتبطت بقضية التحرير والمقاومة والتجمع . وكانت فى تونس أبرز مثل لهذا الاتجاه .

ولم تكن هذه الحركات الفكرية التى قامت فى الزيتونة والصادقية والمكتبة العبدلية إلا حركات مقاومة للاستبداد العثمانى ثم الاستعمار الفرنسى .

٢ — العروة الوثقى

وقد ارتبطت تونس بدعوة جمال الدين الأفغانى التى أذاعتها جريدة العروة الوثقى وكان الأفغانى قد كون خلال إقامته بالهند فى مدينة كلكتا ١٨٨٢ منظمة سرية عالمية تدعى جمعية العروة الوثقى غايتها العمل لتوحيد الممالك الإسلامية وتحريرها . وكان من أعضاء هذه المنظمة فى تونس : محمد بيرم وعبد القادر الجزايرى ومحمد السنوسى الذى اشترك فيها عند ما سافر إلى الشرق ثم عاد إلى تونس عاملا على مبادئها . وعند ما صدرت صحيفة العروة الوثقى فى باريس عام ١٨٨٤ وجدت فى تونس إقبالا منقطع النظير . وقد تابع هذه الروابط ودعمها سفر محمد عبده من باريس إلى إلى تونس عام ١٨٨٤ وإلقاء الدروس بجامع الزيتونة الأعظم .

وفى « الزيتونة » التى سبقت الأزهر تخرج عبد العزيز الثعالبى [١] الذى قصد

(١) اقرأ قصة كفاحه فى كتابنا « من رواد القومية العربية » .

إلى الشرق عام ١٩٢٦ وأمضى فيه سنوات طويلة زار خلالها مختلف أجزاء العالم العربي ، وكان عاملا ضخماً من عوامل التطور الفكرى فى تونس ومن الذين دعموا أواصر الروابط العربية بين تونس ومصر . « محمد الخضر حسين » الذى بدأ عمله فى الصحافة التونسية داعياً لفكرة التجمع والمقاومة عام ١٩٠٤ والذى طارده الاستعمار الفرنسى فأقام فى القاهرة وولى منصب شيخ الأزهر فى أواخر أيامه وتوفى عام ١٩٥٨ وكان زميلا فى الجهاد الوطنى العربى لشكرى القوتلى وسعد الجابرى ، وطاهر بن عاشور وعبد الرحمن الصنادلى .

وكما قاوم الفكر التونسى الاستعمار الفرنسى بالسيف قاوم الدعوات التغريبية التى أثارها مزيفا بها الحقائق ومحاولا ايجاد عوامل تفرقة بين العرب والبربر أو من محيط القضاء على اللغة العربية وجعل اللغة الفرنسية أداة الفكر العربى وترجمة القرآن إلى الفرنسية .

وقد استطاعت تونس أن تقاوم محاولة الفرنسيين فى تطعيم مناهج التعليم التونسى باللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا وذلك بتعزيز الثقافة العربية فى الزيتونة والصادقية . وكان فريق « الخلدونيين » الذين بدأوا عملهم فى حماس عام ١٨٩٧ واستمروا فيه بضعة عشر عاماً هم أبرز عوامل هذه المقاومة .

٣ — الشيخ قبادو

لعلنا إذا استعرضنا الحركة الفكرية فى تونس منذ وقت مبكر فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر وجدنا « الشيخ قبادو » فى عام (١٨٣٧) يحمل راية الدعوة لأول إصلاح حقيق وهو أستاذ عظيم من علماء جامع الزيتونة كما يصفه محمد الفاضل بن عاشور [١] .

---

(١) مؤلف كتاب الحركة الفكرية فى تونس وهو أحد مراجعنا فى هذا البحث .

وتتلخص نظرية الشيخ «قبادو» فى أن العالم الاسلامى فى حالة تأخر وتدهور ، مع أن الإسلام بذاته كفيل بأن يكون المجتمع القائم على أصوله فى حالة تخالف ماهو عليه الآن فينبغى أن يعزى السبب فى ذلك إلى أمر خارج عن جوهر الدين وقد سارت أوربا على الإسلام بنسبة ما هجر هو هذه العلوم وأخذت به هى فلا سبيل ، حينئذ إلى أخذ الإسلام بحظه من السعادة والنهضة إلا باستعادة نهضة هذه العلوم التى أضاعها ولا سبيل إلى ذلك إلا باقتباسها عن الأوربيين بالنقل والتعلم » .

وقد كان لهذه الصيحة المحددة الباكرة من الشيخ قبادو أثرها فى الشباب الذى ينتسب إلى جامع الزيتونة فتعلقوا به وبرز من تلاميذه سالم أبو حاجب ومحمد بيرم والوزير احمد ابن أبى ضياف والقائد مصطفى أغه .

وحاول تلاميذ قبادو إقامة الحكم على أساس الضمانات مع تحديد الحكم المطلق وقد طبع هذا الاتجاه العميق الأدب التونسى بطابع تحويل النظريات المثالية فى العدل والحرية إلى مجال التطبيق مما أدى إلى انتصار الحركة بإعلان الحكم الدستورى فى تونس عام ١٨٥٧ .

« وكان ذلك انتصاراً للدعوة الاصلاحية وعاملا على انضمام البلاد كلها حكومة وشعبا إلى رجال تلك الدعوة [١] » .

٤ — خير الدين التونسى

وكان من ثمرة هذا الاتجاه الزعيم « خير الدين التونسى » الذى تولى قيادة الحركة الفكرية عام ١٨٦١ ولكن هذا الاتجاه قد وجد من يقاومه بفعل الاستبداد العثمانى والمطامع الخاصة مما أدى إلى قيام الثورة الكبرى عام ١٨٦٤ التى أدت إلى سقوط البلاد فى هوة الخراب وغوائل الحرب الأهلية والمجاعات وتعطل النظام الدستورى مدى ست سنوات كاملة .

(١) نفس المصدر .

وقد اعتزل خير الدين الحكم واكتفى بالعمل فى إعداد دراساته ولجانه الإصلاحية التى انتهت بإصدار كتابه الضخم «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» ويعتبر هذا الكتاب بإجماع أهل الفكر من أنفس آثار القلم العربى فى القرن الماضى ومن دعائم الفكر العربى وعلاماته المميزة فى أفريقيا الشمالية .

وقد وصفه الأمير شكيب أرسلان فقال : أنه من خيرة ما ألف لكسر قيود الجمود الضار القاتل وحطم سلاسل التقليد الأعمى وتنبيه المسلمين إلى أنهم ما لم يبادروا إلى التسلح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم حظ السقوط العاجل »

وكان « خير الدين » قد سافر إلى أوربا سنة ١٨٦٠ وطاف بها وشاهد صور عمرانها وحضارتها واقتنع بتفوقها وتمنى من صميم قلبه أن ينقل إلى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب . وكان لكتابه هذا أعظم تأثير فى نفوس الأحرار ورجال الأحزاب الوطنية فى الشرق الأدنى عامة وأفريقيا الشمالية خاصة حيث كاد الكتاب يقدس عند أهل تونس والجزائر إذ كان باعثاً قويا على استيقاظ العصبية الجنسية ففيه استصرخ خير الدين بنى قومه لتحطيم الأغلال القديمة وبسط لهم ضرورة الاقلاع عن الافتخار الفارغ بمجد الماضى افتخاراً بالغاً ضد القعود بهم عن استيعاب طلب العلا[1] » .

وقد قضى خير الدين ثمانى سنين فى مسئولية الحكم أنشأ خلالها المدرسة الصادقية ونظم التعليم بالزيتونة وأنشأ المكتبة العبدلية وشجع الطباعة والصحافة والنشر . وقد أجمع خريجو الصادقة والزيتونة على أن المبادىء الإصلاحية التى بسطها خير الدين فى كتابه هى المثل الأعلى للشباب فى سبيل تحقيق نهضة ألوطن .

وفى نفس السنوات التى كان التآمر البريطانى قائما على احتلال مصر كان قائما على الاحتلال فرنسا لتونس وقد وقع احتلال تونس فى ١٢ مايو ١٨٨١ والاحتلال البريطانى لمصر فى ١١ يوليو ١٨٨٢ .

(١) لوثوب ستوارد « حاضر العالم الإسلامى » ترجمة عجاج نويهض .

وكان احتلال تونس حلقة من حلقات المؤامرة البريطانية الايطالية الفرنسية الأسبانية التى تآمرت على الساحل الأفريقى من مصر إلى مراكش

ذلك أنه فى نوفمبر ١٩٠٢ سلمت ايطاليا مراكش لفرنسا مقابل الاعتراف لها بحق احتلال طرابلس الغرب كما تركت بريطانيا فى عام ١٩٠٤ بمقتضى معاهدة الوفاق لفرنسا بسط يدها فى تونس مقابل أن تبسط بريطانيا يدها فى مصر .

٥ - البربر والعرب

وقد قامت سياسة فرنسا فى مراكش وغيرها من بلاد الأطلس تجرى على فصل البربر عن العرب واخراجهم من العرف العربى الاسلامى وردهم إلى العرف البربرى لذلك ألغت تدريس اللغة والدين فى مناطق هذه القبائل وشجعت البعثات التبشيرية فى كل مكان وخصصت إعانة طائلة من ميزانيتها باسم نشر الثقافة الفرنسية .

وحاول الاستعمار الفرنسى تحطيم سيادة الأمة القومية ليحل محلها وضع فرنسى مستغرب ونظمت للمدارس منهاجا باللغة الفرنسية أطلق عليه منهج التعليم الفرنسى العربى وقد ظل هذا المنهاج عهداً طويلا يفتك بناشئه العرب فى تونس .

ثم لم يلبث الاحتلال أن ألغى مادتى اللغة والثقافة العربية إلغاءاً كليا وجعل اللغة الفرنسية أداة المعرفة العامه ولم تعد اللغة العربية إلا مادة تعليم ذاتية « مع خلل فادح فى طرائق تعليمها[1] » . وكانت هذه محاولة ضخمة لقطع حاضر الأمة العربية عن ماضيها :

ولم تلبث فرنسا أن قاومت الحركة القائمة على تعاليم جمال الدين الأفغانى

(١) الحركة الثقافية فى تونس .

والعروة الوثقى ، ونـكلت بأنصارها فاضطروا إلى الهجرة إلى مصر وكانوا قد عدلوا من منهج جمال الدين السياسى إلى منهج محمد عبده الثقافى .

وبدأت موجة تحمل الشباب التونسى إلى التعليم فى فرنسا ثم عادت جماعة منهم فيما بعد وقد جمعت بين الثقافة العربية والفرنسية وكان عدد كبير منهم قد انخدع لآراء الاستعمار غير أن الصفوة لم تخدعها دعوة التغريب ولم تتأثر بالبريق وفى مقدمة ولاء « البشير صفر » الذى دعا إلى عدم الانخداع بالفرنسيين .

٦ — دعوة التجنيس

وقاومت تونس دعوة أخرى لا تقل خطراً عن هذه الدعوة هى قضية « التجنيس » فقد كانت هذه إحدى محاولات التغريب : وكانت فرنسا قد حاولت « فرنسه » تونس عن طريق المسيحية فبدأت تنشر الدعوة لتجنيس المسلمين بصفة فردية ولـكنها لم تلبث أن دعت إلى ذلك عن طريق قانون أقره البرلمان الفرنسى وبذلك انتقلت مسألة التجنيس إلى محاولة إجماعية وذلك عام ١٩١٤ .

وقد انفجرت المقاومة العربية التونسية على أثر هذا القرار وقامت الصحافة الوطنية بدور ضخم فى هذا الصدد ووضعت المسألة على بساط النقد الجدى والمناقشة الصريحة « وتناولتها جميع أقلام الـكتاب التونسيين التى جالت فى الموضوع وأسالت أنهراً من المداد على أعمدة الجرائد السيارة [١] » . « وقد لقيت مسألة التجنيس من عامة التونسيين معارضة أعربت عن ثبات تاريخ الأمة واستقرار جنسيتها فى نفوس المجتمع منذ مصادقة البرلمان الفرنسى على تعميم التجنيس وجعل حدوده سهلة الاختيار [٢] » وقد أعلن الشعب مقاطعة المتجنسين وعدم الزواج منهم أو التعامل معهم ومنعهم من دخول المساجد .

وكان أبرز الـكتاب الذين قاوموا هذه المؤامرة الطيب بن عيسى (جريدة الوزير)

(١و٢) كتاب الشعب التونسى والتجنيس — الفلاح الجبلانى — ١٩٢٤ .

وسليمان الحادوى (جريدة مرشد الأمة) وحسين الجزيرى (جريدة النديم) وعلى كاهيه (جريدة الفجر) وتعد مسألة التجنيس من أبرز القضايا فى تاريخ تكوين الحركة الفكرية فى تونس .

وأما الحركة « الخلدونية » التى بدأت عملها ١٨٩٦ شبيهة بحركة مصطفى كامل فى مصر فهى عملية يقظة ومقاومة فى نفس الوقت وقد أبرزت الخلدونية محمدالقروى والبشير صفر ومحمد الأصرم وكانت جماع الجامعتين الكبيرين الزيتونية والصادقية وكان هدفها الأكبر هو سد النقص الذى أصبح موجوداً بحكم الاستعمار وحماية اللغة العربية وقد قام البشير صفر بدور ضخم فى كشف الحجاب عن الأخطار المحدقة بالعالم العربى الإسلامى وقد ترامت أنباء الحركة وتجاوبت معها الجزائر والمغرب الأقصى .

وقد تأثر المفكرون فى تونس بالأدب المصرى وأثار محمد عبده ورشيد رضا ومحمد المويلحى وبشعر حافظ وشوقى وما طبع من آثار المعرى والجاحظ وأبى تمام وظهر كتاب تونسيون تعلموا اللغة الفرنسبة وظهرت بأقلامهم معان وصور وأفكار وتعابير متأثرة بالحضارة الغربية ودخلت الأخيلة والتعابير الغربية إلى الأدب التونسى العربى .

وكان من أبرز معالم هذا الدور كتاب لمحمد الأمين الخلفى اسمه « حديث مع الرايه [1] بناه على وصف خواطره السياسية عند نظره إلى العلم الفرنسى مرفرفا على مدينة تونس مسرفا على البحر .

وقد سجل ذكريات التاريخ العربى المجيد والعدوان الفرنسى . كما نشرت مجلة السعادة (١٩٠٦) فصولا عن التاريخ التونسى والمغربى والأندلسى .

وصدرت صحف سياسية فى تونس تدعو إلى المبادىء الاشتراكية وتتحدث عن الحرية والعدل وقد أقبل على المساهمة فيها شباب الجيل الجديد .

(١) صدر ١٩٠٥ .

ويسجل المؤرخون أن سنة ١٩٠٦ هى بداية الحركة الفكرية التونسية فى الأخذ بطابع الدعوة السياسية والتحرر الوطنى .

وقدحاول الفرنسيون إقامة حركة تقريب عن طريق الشباب المتعلم فى فرنسا وعقدوا عدة مؤتمرات تستهدف جذب الشباب التونسى وقد قاوم ذلك المفكرون المنتمون إلى الجمعية الخلدونية وعلى رأسها البشير صفر فقشلت محاولة الامتزاج الغربى التى كان نواتها التونسيون الذين جمعوا بين الثقافة العربية والفرنسية . فلما استطاع الفرنسيون إنشاء جمعية جديدة روح الثقافة فيها غريبة قوامها الذين ثقفوا ثقافة فرنسية أسموها « قدماء الصادقية » وحاولوا استغلال عدد من الكتاب والنقاد ورجال الفكر لإلقاء محاضرات وكان من نتيجة ذلك أن أزوّر عن الجمعية أهل الثقافة العربية ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل كانت له نتيجة عكسية إذ أن الغرور الفرنسى رد هذه الشبيبة - التى كانت مخدوعة بفرنسا — إلى الامتزاج بالعاملين فى ميدان الفكر العربى الخالص (١)

وقد أحس العاملون مع فرنسا أنهم معزولون عن مساندة أمتهم وأدركوا مدى الحرج الذى هم فيه نظراً لانفصالهم عن أهداف الأمة العربية .

وانتقلت الحركة الفكرية التونسية مرحلة أخرى حين طالب على باش حامبه ١٩٠٧ ، بحقوق التونسيين السياسية والاجتماعية والاقتصادية فتجمعت الأمة كلها حوله وماتت نزعات التمايز بين العناصر الثقافية وماتت الحركة التى ترمى إلى إدماج التونسيين إلى الفرنسيين على حد تعبير محمد الفضل بن عاشور مؤرخ الحركة الفكرية التونسية .

وفى عام ١٩٠٨ استمرت مقاومة الاندماج ودعم الكيان القومى وارتفعت الأصوات بإصلاح القضاء فى نطاق أحكام الإسلام وتعليم البنت التونسية باللغة العربية وإنشاء جامعة تونسية عصرية .

---

(١) الحركة الفكرية فى تونس .

وبرز الاتجاه العربي بوضوح عند ما أعلن « على باش حامبه » في صحيفته « التونسي » أن تونس لن تقطع حاضرها من ماضيها ...

ومن ناحية أخرى « شاعت في اللغة العربية مناهج تفكير غربي في تحليل الموضوع وضبطه وأساليب تعبير فرنسي في تركيب الجمل ونظمها وخصائص تعبيرها وانسجمت مع الروح القومية باعتبار كونها معبرة عن أفكار الوطنيين ومترجمة عن إحساساتهم فكأنهم أوتوا بها وسائل الإفصاح عما يدور في عقولهم ويختلج في نفوسهم[1] » .

٧ — عبد العزيز الثعالبي

ومن أبرز قادة هذه الحركة الفكرية في هذه الفترة « عبد العزيز الثعالبي » وهو واحد من طلبة جامعة الزيتونة ومن أعضاء الحركة الخلدونية . ومن تلاميذ سالم بو حاجب والبشير صفر : وقد سافر الثعالبي إلى القاهرة والاستانة وعاد يتكلم بأفكار جمال الأفغاني ومحمد عبده ويعجب بالكواكبي وعلي يوسف ويدعو إلى التطور والحرية وفهم أسرار الوجود .

وقد أصدر جريدة «سبيل الرشاد» التي عطلها الاستعمار الفرنسي ، وقدم الثعالبي إلى المحاكمة . وظل الرعاع يترصدونه في ذهابه إلى المحكمة ورجوعه منها يهاجمونه بالأذى فلما حكم عليه بالسجن كان ذلك وقوداً للحركة الفكرية الجديدة .

وقد ألف الثعالبي بالاشتراك مع الهادي السبعي وسيزاز بن عطار (١٩٠٥) كتابه المعروف « الروح الحرة للقرآن » .

وقد عاد الثعالبي مرة أخرى إلى الشرق سنة ١٩٢٣ ولم يرجع إلى تونس إلا عام ١٩٣٧ :

---

(١) الحركة الفكرية في تونس .

وقد زار مصر وسوريا والعراق والحجاز والهند وقام بدعاية ضخمة للحركة العربية وتحرير تونس، وكان يواصل كتابه المقالات النارية فى مهاجمة فرنسا ، هذه المقالات التى كانت تترجم إلى الفرنسية كجزء من خطة مرسومة تهدف إلى ترجمة كل ما يكتب بالعربية فى أنحاء العالم العربى وينشر فى الصحف الوطنية فى تونس — وقد زار الثعالبى العراق سنة ١٩٢٥ حيث كانت روابط ضخمة تقوم بين الشاعر الرصافى وتونس وكان الرصافى دائم الحنين إلى بنى قومه فى المغرب العربى ، وهذا جانب من صور الترابط التى حاول الاستعمار عبثاً القضاء عليها وفى هذا يقول الرصافى :

أتونس إن فى بغداد قوما ... ترف قلوبهم لك بالوداد

ويجمعهم وإياك انتساب ... إلى من خص منطقهم بضاد

ودين أوضحت للناس قبلا ... نواصع آيه سبل الارشاد

فنحن على الحقيقة أهل قربى ... وأن قضت السياسة بالبعاد

وشعر الرصافى يحتل فى تونس مكانة قل أن يصل إليها شاعر آخر[١] ومما يذكر فى هذا الصدد أنه قامت دعوة فى القطر الليبى تهدف إلى إقامة تمثال للرصافى. ويؤكد المؤرخون أن عبد العزيز الثعالبى منذ عام ١٩٢٠ بما له من ماض فى السياسة والإصلاح الدينى والاجتماعى والأدب قد أصبح زعيم النهضة التونسية المطلق .

وقد نشر الثعالبى كتابا هو « تونس الشهيرة » غفلا من النسبة إلى مؤلف ما وقد سرى فى البلاد ، وقد نشأ نتيجة ذلك عزم اجتماعى قوامه عقيدة وطنية . وقد ألقى القبض على الثعالبى فى باريس فحمل إلى تونس تحت حراسة السجن

---

(١) الشاعر التونسى عبد الرازق كرباكه كان صديقا للشاعر العراق الرصافى وعند ما حدثت الأزمة النفسية التى خرج بعدها الرصافى من بغداد نشر كرباكه قصيدة عنوانها « معروف — العزيمة ! » ومن الأعاجيب أن يموت عبد الرازق كرباكة فى ١٥/٣/٩٤٥ ويموت الرصافى فى اليوم التالى ١٦/٣/١٩٤٥

وأحيل إلى المحكمة العسكرية فقضت بسجنه ثلاثة أشهر خرج بعدها فى أكتوبر ١٩٢٠ ليشرف على توجيه الحياة السياسية والفكرية .

وقد وصفه « محمد أبو الفضل عاشور » بأنه كان داعياً دينياً ومصلحاً إجتماعياً وزعيما سياسياً يدعو إلى الأقدام فى سبيل الغاية والاستخفاف بما يتعرض القائم لها من متاعب ومن قوله إن الدعوة الإصلاحية تصطدم بالحاقدين والمستعمرين وأن مصر مستقر هذه الدعوة وعنها تلقى رجال الاصلاح بتونس دعوتهم .

وقد أعلن الثعالبى برنامجه الفكرى الإصلاحى فى مجلة الفجر عام ١٩٢٠ وبذلك ارتبطت الحركة الأدبية بالحركة السياسية فى تونس — وهو تقريباً ما حدث فى هذه الفترة فى مختلف أنحاء العالم العربى — وسيطر النفوذ السياسى على ميادين الإصلاح الدينى والاجتماعى ؛ ويقف الثعالبى فى تونس فى منزلة «ابن باديس» فى الجزائر متأخرا قليلا من حيث الزمن ومع اختلاف الاتجاه فقد كان الثعالبى يعمل فى نطاق الصحافة وباديس فى نطاق التعليم والمعروف أنه عند ما خرج الثعالبى الى مصر فترت الحياة الصحفية فى تونس فترة من الزمن .

ويذكر فى هذا المجال عدد ضخم من أعلام الفكر الذين كانوا بعيدى الأثر فى التطور الأدبى فى تونس من هؤلاء عبد الرحمن الصنادلى . ومحمد الحبائى وصالح سويسى ومحمد أبو الخوخة ومحمد النخلى ومحمد الأصرم وخير الله بن مصطفى وحسن حسنى عبد الوهاب وزين العابدين السنوسى وأحمد[1] توفيق والظاهر الحداد والطيب العنابى

٨ — الأسلوب العربى التونسى

ويصور الشيخ محمد النيفر[1] تطور التعبير العربى الحديث فيربط بين ابن خلدون وفارس الشدياق : فيقول « إن الإنشاء العصرى صار أميل للأرسال منه للسجع وهذا الأسلوب المنتشر الآن بكثرة بين أغلب الكتاب هو الأسلوب

(١) هو وزير التربية فى وزارة الجزائر

(٢) مقدمة كتابه « عيون الأرب عما نشأ بالمملكة الفرنسية من عالم أديب » ١٩٣٢ — تونس

الذى انتهى ولى الدين ابن خلدون فى المقدمه وغيرها من مصنفاته الجليلة والفضل فى إحياء هذه الطريقة بين حملة الأقلام فى الأعصر الأخيرة يرجع بأكمله لشيخ الجماعة أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة « الجوائب » التى أسسها خلال ١٢٧٧ هـ فقد كانت هذه الجريده مناراً لهداية الكاتبين فى العالمين . وما كتاب كنز الرغائب الجليل القدار إلا وليدها كما هو معروف بين أهل الأمصار والأقطار .

« .. ولدينا كتاب للعلامة المصلح المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية فى تعريف الأجزاء الأولى من الرزنامة التونسية قال عنها أنها دائرة معارف تونسية ناطقة تمكن بلادنا من الحضارة والعلم والأدب وأعظم الموسوعات الآن فخراً (١) ويصور الشيخ النيفر تونس فى عبارات تصلح نموذجا للأسلوب التونسى العربى الحديث . « . هذه بلادنا تونس المحبوبة وتربتنا المرغوبة قد امتاز بنوها قديماً وحديثاً برقة الحاشية والذوق السليم بما منحتهم الأقدار من المواهب وحسن الاستعداد لتقدير معانى الكلام وسبر غوره والغوص لاستخراج أصدافه من مناهجها وسبكها نظما ونثراً . وبالرغم من كون التونسيين كتبوا كثيراً فى فنون الأدب فإن تآليفهم وإن كانت واسعة المدى قد ذهبت بشدة الترك سدى بحيث إنه لم يظهر مما دونوه فى ذلك إلى عالم الطبع سوى النزر اليسير على أن لهم فى باب التراجم لأهل الأدب القدح المعلى .. » .

وقد صور النهضة الأدبية الحديثة فقال :

« النهضة الأخيرة الآن التى بدأت آثارها تظهر بتونس (٢) قد بعثت فيهم روحا جديدة دفعتهم نحو الأدب وفنونه وجريا على نواميس الخليقة فكانت النتيجة

(٢) يقصد الكاتب « سمط اللآلىء للعلامه الشيخ محمد بن على قوايسيم المتوفى سنة ١١١٤ وهى موسوعة جليلة استغرقت اثنى عشر جزءاً من القالب الكبير وقد وصفها الشيخ محمد النيفر بأنها نسجت عليها لسوء الحظ عناكب النسيان .

(٢) طبع الكتاب عام ١٩٣٢

ظهور طائفة من الكتاب والشعراء بلغ درجة النبوغ أو كادت » ويصور « حسن حسني عبد الوهاب » القيروان؛ فيقول: إنها رابعة العواصم العربية الكبرى فى نشر الثقافة « ومن القيروان انتقلت إلى المغرب العربى وإلى السودان المغربى وإلى الأندلس لغة العرب وثقافة العرب . ومن القيروان نبغ القزاز والحصرى وابن رشيق» . وقد وصف جامع الزيتونة بأنه أسبق معاهد العروبة مولداً؛ حمل مشاعل الثقافة العربية منذ اثنى عشر قرنا وستين عاما إذ تجرد لدراسة العلوم العربية منذ سنة ١١٦ هـ ومن خريجية عبد الرحمن بن خلدون فخر العقلية العربية وقد ورثت تونس القيروان على تراث العروبة وارساء دعائم القومية العربية وقد أقامت إلى جانب معهدها العتيق معهد الزيتونة هى والمدرسة الصادقية التى أسسها المصلح الكبير خير الدين التونسى ومنها خرج محمود قابادو وأبو القاسم الشابى » .

ولحسن حسنى عبد الوهاب دور فى نهضة الفكر التونسى ، فقد عرف بالدراسات التاريخية[1] « وقد تتبع دراسات المستشرقين والأثريين الأوربيين وغلب عليه الانقطاع للدراسة والعكوف على المطالعة والتحرير وبث روح الوطنية العربية فى دروسه فى الخلدونية . وقد صدر أول بحث تاريخى له ١٩١٢ وهو « بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق » وصف فيه معالم القيروان وخططها وحضارتها على أسلوب وصفى يعتمد على إبراز نتائج المعارف التاريخية والبحوث الأثرية فى قالب حى [2] » .

ولعل مما يتصل بالنهضة الاجتماعية كتابه شهيرات التونسيات (سنة ١٩٣٤

---

(١) الحركة الفكرية فى تونس .

(٢) له مؤلفات أخرى من بينها خلاصة تاريخ تونس ١٩١٨ وله مؤلفات بالفرنسية منها الاستيلاء الاسلامى على صقلية ١٩٠٥ و « شاهد عيان بفتح الاندلس » ١٩٣٣ .

المطبعة التونسية) وقد عرض فيه لشخصيات عربية تونسية كانت لها آثار طيبة ونافعة فى تاريخ تونس العربى ،قد أهداه إلى ابنته بعبارات يجدر بنا تسجيلها :

« وددت أن أهديك عقداً تندمج فى سمطه جواهر حسان ويواقيت ثمان، حور مقصورات فى الخيام . يزرى شعاعها بالكواكب والنجم الثاقب فطالعى بنيتى إشراق سناها . تجدى فيه سراجا وهاجا يضىء حياتك ويهديك صراطا سويا فتنالين مرضاة ربك وابتهاج تربك . . » .

وقد تحدث فى نهاية كتابه عن دور المرأة التونسية فى النهضة فقال « نحن فى احتياج شديد إلى فتيات مسلمات متعلمات لكفالة مستقبلنا يفقهن حالة العصر الذى وجدنا ، فيه محرزات على تربية قومية صحيحة نافعة تنهض بالأمة وتوقظ الفكر القومية »

وعرض فى مبحث التربية الاجتماعية والمنزلية للبنات المسلمات خلال العصور الأخيرة بالمملكة التونسية إلى عهد الاحتلال الفرنساوى والطريقة المتبعة فى الحاضرة والقيروان وسوسه والمهدية ونابل وباجه :

٧ — النثر

انتقل النثر التونسى من المقامة والرسالة إلى الميدان الاجتماعى والتحرر الوصفى والمقال السياسى . وقد كان للصحافة الفرنسية أكبر الأثر — أكبر من الكتاب — فى توسيع دائرة الحياة الفكرية .

وجريدة الحاضرة التى صدرت ١٨٨٨ أول جريدة [١] عربية غير رسمية فى تونس كان منهاجها «الأخذ بوسائل التمدن الأوربى ومسلكها السياسى معتدلا» وجريدة الرائد التى كان يحررها محمد بيرم . أما جريدة الزهرة فقد صادرتها الإدارة الفرنسية . وأصدر الثعالبى جريدة سبيل الرشاد وعطلتها الإدارة الفرنسية وأصدر

(١) حررها على بوشوشة والبشير صفر .

محمد الخضر حســـين مجلة السعادة عام ١٩٠٤ . وزادت الدوريات عام ١٩٠٩ الى ٤٥ نشرة وكثرت المطابع وصدرت مجلة «خير الدين» ١٩٠٦[1] وأصدر عبد الرحمن الصناوى مجلة الزهرة كما أصدر محمد الحقائبي مجلة « الصوات » ١٩٠٦ كما أصدر على باش حامبة ١٩٠٧ جريدة وطنية باللغة الفرنسية أسماها « التونسى » ·

وتوالت الصحف — فصدرت مرشد الأمة والتونسى — وتنافست، وكان مجال حديثها المناهج السياسية والثقافية المختلفة وقد قامت بينها مجادلات فكرية ضخمة قوامها التجديد والمحافظة ، وكانت الصحافة بوجه عام تناصر الدعوة الإصلاحية التى تستهدف اليقظة الفـكرية كأساس للمقاومة ، وكانت تنوه بالمنـار والشيخ محمد عبده وقد حملت هـذه الصحف لواء مقاومة الدعوات المختلفة « التجنيس والتغريب والفصل بين العرب والبربر وقضية الاندماج وتغليب اللغة الفرنسية على العربية .

وفى ميدان التأليف ظهرت مؤلفات متعددة منها « سلوك الابرز فى مسالك باريز » لمحمد بن الخوجة الذى رحل إلى باريس عام ١٩٠٠ وأصدر زين العابدين السنوسى كتاب «العرب» فى أجزاء . والتاريخ العام للجزائر لعثمان الـكعاك

كما ظهرت مؤلفات اجتماعية منها كتاب « امرأتنا فى الشعرية والمجتمع » (للظاهر الحداد — ١٩٣٠) . عارض فيها تعدد الزوجات وتنصيف الميراث وقد أثار ضجة كبيرة بين علماء جامع الزيتونة ورد عليه بكتاب عنوانه « الحداد على امرأة الحداد » ١٩٣٢ .

وأول قصة عربية تونسـية أصدرها صالح سويسى عام ١٩٠٦ وعنوانها « الهيفاء وسراج الليل » ومن أوائل الشعراء محمد النخلى — القيروان عام ١٩٠١ .

وفيما بعد الحرب العالمية الأولى ظهر كتاب جدد من تلاميذ الثعالبى وزملائه منهم محمد الصادق النيفر والشيخ عثمان ابن الخوجه ومحمد مناشو ·

---

(١) يحررها محمد الحقائبي .

ومن هؤلاء ، أحمد توفيق المدنى[1] (الوزير الجزائرى الان) ومحى الدين القليبى وزين العابدين السنوسى ومحمد المهدى بن ناصر .

وقد أخذت الصحف تدعو إلى التكتل الاجتماعى وحكم البلاد حكماً شعبياً دستوريا نيابياً وكان جزاءها من الإدارة الفرنسية أن نكبت بالتعطيل ثمانية أيام

وفى عام ١٩٣٤ كانت حركة «المقاومة الفكرية» قد بلغت ذروتها وتحولت إلى مصادمات وضُيقت حركة الصحافة وعطلت صحف كثيرة وحلت الأحزاب وزادت حركة التمرد الشعبى شدة وغليانا .

وجرت محاولات فرنسية لتخفيف التوتر الذى دام ثلاث سنوات كاملة حيث أبدل المقيم العام وأعلن العفو عن المبعدين وإطلاق الصحف المعطلة ورفضت القوة الشعبية المساومة وعادت إلى العمل ودخلت طور العصيان المدنى والتصادم مع السلطة وعند ما أعلنت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) جند التونسيون فى الحرب وسيقوا إلى ميادين القتال فى أوربا وأصبحت تونس دار الحرب واضطر الناس أن يتركوها إلى البوادى تخلصاً من القذف الجوى من الطائرات الايطالية وما كادت تنتهى مأساة الحرب ، حتى انتشرت المجاعة بسبب تعطل استغلال الأرض وامتدت ستة أشهر ثم عادت الجيوش الفرنسية إلى البلاد مرة أخرى . ولم تهدأ تونس واستمرت فى المقاومة ونازعت المحتل السلطة .

٨ — نماذج من الأدب التونسى

ولقد كان الأدب التونسى العربى بعد الحرب العالمية الثانية بالغ القوة والعمق فى مقاومة الاستعمار الفرنسى وهذا نموذج كتبه أبو القاسم محمد كرو فى كتابه ، وهو فضلا عن أنه وثيقة أدبية فهو صورة حقيقية للكفاح العربى فى

---

(١) كان يكتب بتوقيع المنصور وقد نفى الى الجزائر عام ١٩٢٣

فى الشمال الأفريقى كله؟ « الحرية : إنها فى باريس الثورة الجامحة وتحطيم الباستيل وإعلان حقوق الإنسان ولكنها فى تونس دماء تراق وعهود تنقضى وشباب يتسابق إلى الموت بلا سلاح وهى كذلك فى باريس ، ولكنها فى تونس إعدام اثنى عشر ألفاً رمياً بالرصاص ، وسجن أربعين ألفاً سجناً مديد السنين لأنهم رفضوا أن يحتفلوا بعيد الثورة عن تحطيم الباستيل .

هى كذلك فى باريس ولكنها فى الجزائر مائة وعشرون عاما من الاضطهاد والظلم وتحويل المساجد إلى كنائس وخمارات . وعقاب من يتعلم لغته العربية أو يخاطب بها الأجنبى .

هى كذلك فى باريس ولكنها فى الجزائر جهاد عبد القادر خمسة عشر عاماً ونكث للعهود والمواثيق وإبادة للقبائل حتى آخر فرد فيها وإحراق للقرى بما فيها ومن فيها . هى حوادث « اسطيف » وقسنطينة وقرى الشمال والجنوب ، يوم رميت بالطائرات والبوارج الماخرات وسحقت بالدبابات والمصفحات ، يوم مات من أهلها أربعون ألفاً من الضحايا والشهداء وامتلأت السجون بثلاثمائة ألف من المنكوبين المظلومين

يوم حرقت القرى بنار من البر والجو واصليت حمماً من البحر والسماء . كل ذلك يجرى والعالم الحر يحتفل بالحرية .

هى كذلك فى باريس . ولكنها فى مراكش ملك تحيط بقصره الدبابات (١٩٥٣/٨/٢٠) يوم عيد الأضحى ، وزعماء لا يعلمون بأن حربا حدثت ودامت ست سنين ، لأنهم قضوها فى كهوف الجبال ومغاور الغابات فى الكابون .

هى كذلك فى باريس ولكنها فى مراكش تمزيق للوطن ونشر للبغضاء بين مواطنيه فالريف مرتع للأسبان . وطنجه مقهى للدول . والباقى مزرعة للفرنسيين .

أما السكان فهم (عرب متوحشون دخلاء) وبربر مغاوير (أمازيغ) انحدروا من أصل (أفرنكى) خالص فهم وسكان باريس أبناء أب واحد .

إذن فليشقوا لتسعد باريس • وليثمروا الأرض فيجنى خيرها ابن السين ويتحول أحمر شفاة لبنات الحى اللاتينى وغابة بولونية وليكون على أجسادهن فساتين من حرير تتهادى فوق الركبتين . هى كذلك فى باريس ولكنها فى المغرب العربى خمس وستون فى المائة من عائلاته ترتدى الحداد لأن كل أسرة منها فقدت واحداً من أبنائها مات أو سجن فى سبيل الوطن . هى فى المغرب فقر وجهل . وهى فى المغرب خمسة ملايين من الأطفال البائسين يجوبون الطرقات مشردين لا مدرسة ولا مأوى ولا عمل أو مجال للحياة .

ويقول أبو القاسم محمد كرد فى وصف المشعب التونسى :

إن بين شعبه الذى يعد ثلاثة ملايين : نصف مليون طفل بلا مدارس وأكثر من نصف مليون أجير فى الشركات الاستعمارية تذيب قوته وتمتص دمه وتشرب عرقه وتعيش على أرضه عيش القياصرة والجبابرة مقابل أجر حقير لا يسمن ولا يغنى من جوع .

٩ ــ الحركة الخلدونية

واختضنت الحركة الخلدونية أبرز القضايا الفكرية التى كانت موضع البحث فى بوتقة الصراع الفكرى الفرنسى مع الفكر العربى ومحاولات التجزئة والتغريب والادماج ومن ذلك ما أسماه محمد الحجوى من كتاب السلطنة الشريفة المغربية (١٩٣٤) الذى زار تونس - كما أوردته نشرة الجمعية الخلدونية ١٩٣٤ — بدعوه من محمد الطاهر بن عاشور رئيس الخلدونية ما أسماه «الفتح العربى لأفريقيا

الشمالية ودفع المثالب عنه . ومن هذا قوله : « العرب هم الذين يحق لهم أن يفخروا بفضلهم على البربر حيث صرفوا همتهم لتهذيبهم وتكميلهم وإدخالهم حضرة الإنسانية وهم الذين ذوقوهم حلاوة التدين وطعم العدالة . »

ومما أورده مؤلف حاضر العالم الاسلامى فى هذا الصدد قوله : كان البربر لا يملكون لغة مكتوبة يستطيعون التخاطب بها واستعمالها فوجدوا فى اللغة العربية ضالتهم المنشودة فقبلوها وقبلوا معها كتابها الكريم[1] » . وقد كانت الجمعية الخلدونية مناط التطور الفكرى فى تونس زمناً طويلا . تتجاوب مع الشرق العربى فى جميع أحداثه ومواقفه . وقد احتفلت بذكرى حافظ وشوقى ومواقف فلسطين وضرب دمشق بالمدافع وأحداث مصر والعراق وغيرها . كما جرت إحتفالات بمرور ١٣ قرنا على تأسيس القيروان فى ٤ (مارس ١٩٣٢) ذكر فيه مؤرخ القيروان الخالد « أبو العرب أحمد بن محمد بن تميم التميمى » فى محاضرة ألقاها محمد النخلى ومما جاء فيها : إن الاحتقال بمرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس عاصمة الاغالبة ، مدينة عقبة ، تلك العاصمة التى زاحمت قرطبة وبغداد واستمرت بيت الحكمة التى اخرجت لنا أمثال ابن الجزار وكان قاضيها أسد بن الفرات قائد الأساطيل وابن خلدون واضع علم الاجتماع وسابق ميكافيلى وشيخ المؤرخين »

وقد عملت الحركة الخلدونية على بعث أمجاد الأمة العربية فى المغرب لتقاوم به تيار الدعوة الاستعمارية الفرنسية فى تحطيم التاريخ العربى وتغليب التاريخ الفرنسى عليه وقد صور عبد الرحمن الكعاك رئيس الخلدونية هذه المهمة بقوله :

«ما كانت الخلدونية غرفة أحزان ولا قاعة أفراح فهى إن أقامت احتفالا فلغاية معلومة فذكرى القيروان القصد منها أعلام الشبيبه بأن أسلافهم زاحموا قرطبه .

---

(١) تناولنا هذا الموضوع بتفصيل أوفى عند عرض الحركة الفكرية العربية فى مراكش

وبغداد وتملكوا البحر المتوسط حيناً ، وأخرجوا من الحكماء من كان استاذاً للعالم . وإن ذكرنا ابن خلدون وهو الرجل العالمى فلهذه الغاية حتى يقتدى الخلف بالسلف . وإن أقمنا الاحتفالات لرجال الشرق فلنبرهن على أنه قد انقضى ذلك العصر الذى كنا فيه شعوبا وقبائل وأصبحنا أمة واحدة [١]

وفى حديث آخر ينادى الكاتب كل تونسى بقوله : ياوريث القرطاجنين، ومنتج حنبعل وحانون ووريث دولة الأغالبة والصنهاجين ومنتج ابن خلدون . وابن شرف وابن رشيق. والتبغاشى وابن منصور وشيخ المؤرحين أبو العرب التميمى وشيخ الفقهاء سحنون » .

ومن الشعر الذى ألقى فى مناسبة الاحتفال بالقيروان قول الشاعر :

حدثى عن عقبة فى جنده	يحمل النور لليل الدلجين
جاء للناس ببشرى وهدى	يفتح الدنيا ويهدى الحائرين
فإذا التكبير موصول الصدى	فى سهول ذاهبات وحزون
وإذا الإسلام خفاق اللواء	وإذا النصر حليف المسلمين

١٠ — الشعر

أما الشعر التونسى فقد عاش منذ أول اليقظة يتغنى باحياء الأمجاد العربية والإسلامية والتطلع إلى مستقبل أعظم ، وقد كان فى أول أمره يتحدث عن المحيط الإسلامى العام فى غيرة وحماسة . ثم تطور حتى واجه قضية المقاومة والتجمع وضرب على اوتار الغيرة القومية وأشاد بالروح الكفاحية ودعا إلى الجهاد ومجد المجاهدين .

---

(١) نشرة الجمعية الخلدونية — ١٩٣٤

وكانت أقرب الأحداث مساساً بإحساس الشعراء التونسيين هو حدث حرب فلسطين[1] ، وكان من أبرز شعراء هذه الفترة صالح سويس وسالم بن حميده والصادق الفقى .

كما انفعل الشعر العربى بحركة الكفاح السياسى التونسى وما فيها من مصادمات دامية ومظاهرات إيجابية وسلبية ودعا إلى الثأر والتنويه بالضحايا .

كما صور ألوان العسف التى لقيها المجاهدون من سجن وقتل بالجملة وقد أودع عدد كبير من الشعراء والمفكرين السجن مثل حسن الجزيرى الذى وصف حياة السجن فى شعر ساخر وروح تهكمية نقدية ·ومنذ ١٩٢٠ إلى ١٩٢٨ اتجه الشعر نحو العروبة والقومية الواسعة والدعوة إلى الوحدة المغربية وقد ظهر فى هذه الفترة أبو القاسم الشابى وعبد الرازق كرباكه ومصطفى خريف ومحمود بورقبيه . وقد تأثر بعض شعراء تونس بالمدرسة المهجرية الرومانتيكية التى كان أول من دعا إليها إيليا أبو ماضى ونعيمه وجبران وقد اعتنقها عدد كبير من شعراء العالم العربى ومن بينهم « الشابى » أبرز وأشهر شعراء تونس الذى توفى فى سن الثلاثين وقد كانت للشابى نوحات شكوى اليتيم وقلب الأم : وكانت له صيحات للحرية والمقاومة من أبرزها قصيدته المعروفة .

إذا الشعب يوما أراد الحيـاة　　　فلا بد أن يستجيب القـدر

ومن شعر القوة عنده :

سأعيش رغم الداء والاعداء　　　كالنسر فوق القمة الشماء

أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا　　　بالسحب والأمطار والأنواء

---

(١) تاريخ الحركة الفكرية فى تونس

لا المح الظــــل الكئيب   ولا أرى ما فى قرار الهوة السوداء
النور فى قلبى وبين جوانحى   فعلام أخشى السير فى الظلماء

وهناك شاعر مغمور حظى بعناية الأدباء بعد وفاته لأنه كان بطلا من أبطال المقاومة فى أشد أوقات العسف والظلم هو « سعيد أبو بكر » الذى وصفه مصطفى رجب فى كتابه شاعران[1] . ولد عام ١٨٩٨ وعاش فى جو قاتم وفى فترة من فترات تونس الدامية لم يرهب ولم يجبن وكان محاربا قويا وبطلا صلباً ، وقد سار هو الآخر وراء الثورة المهجرية ولكنه جدد شعره وحمل لواء الكفاح :

أنا الغصن فى زهر الشباب   يقصه بقاوم الحطاب وهو مولول
أنا تونس الخضراء ويك إلى متى   على السير فى نهج العلا تتغافل
كأنك لا تلقى المعرة إذ ترى   بلادك فى خطب ولا تتقلقل

وقوله :

يزعم المستبد أن يد الفولاذ   أولى بمن يداه عليــــه
ليس بالضغط يسكن الشعب لكن   يوم يلقى حقوقه فى يديه

وقد حارب سعيد أبو بكر الاستبداد والبدع والمروق والمدنية الفاسدة والتذبذب والتلون فى المشرب كما أيقظ الجماهير الشعبيه فى كل مكان وهو يصور الصراع بين الشرق والغرب :

علم الشرق أنه اليوم أضحى   لبنى الغرب لقمة الأطماع
فاستوى فوق عرش همته الشماء   مستبسلا لدى الأوجاع

وكان سعيد مؤمنا بالأمة العربية وقضايا الحرية فى الوطن العربى كله ، دعا

---

(١) طبع فى قابس ١٩٣٩

إلى إنشاء جمعية الرفق بالإنسان ومهمتها تضميد جراح الانسان ومسح دمع اليتيم واسكان آهاته وإجابة صرخة المظلوم .

وهو يدعو إلى توجيه الادب إلى الكفاح والقوة :

دعونا من الأطناب فى وصف غادة ... دعونا من الأطناب فى مدح سيد
وكيف بدت سلمى وكيف تكللت ... بكف خصيب أو بحلى وعسجد
إليكم سلاطين الكلام مقوله ... وهذا لكم كالخاضع المتعبد
فلا تحرموا تلك الرعية حقها ... ولا تجعلوها فى بقاع المفاسد
وصيحوا بأقوام حيارى ... فقوموا فساداً ومدواً للبلاد بساعد

وهناك شعراء مغمورون ضمنهم زين العابدين السنوسى فى كتابه « الأدب التونسى » ومن بينهم الشاعر محمد الشاذلى خزنه دار الذى مات بعد أن نظم ٥٠ ألف بيت من الشعر كلها مخطوطة . وكذلك مات الشاعر محمد الفاتر القيراوى وترك شعراً مخطوطا « بل أنه حتى الآن لم ينشر ديوان كامل لأى شاعر وأن هناك عدداً من الشعراء الشباب لم ينشروا من شعرهم أى مجموعة مستقلة[1] » .

ومن أناشيد الشباب التونسى : نشيد السجن .

فرنسا عذبى زيدى ... فما مثلى برعديد
ومنه : أرى قتلى وتشريدى ... قضاء وقد حانا
فرنسا لا تلومينا ... إذا صرنا شياطينا
قد أخليت وادينا ... وبات الفقر مأوانا
ومنه : فرنسا سلطى عنا ... عذاباً واملئى السجنا
حديد القيد إن رنا ... يزيد الشعب إيماناً

---

(١) تاريخ الحركة الفكرية فى تونس .

لك التعذيب والقهر   لنــا الإيمــان والنصر
ومهما مسنا الضر   فلن ننسى ضحايانا

وقد ألقى أبو القاسم الشابى (١) محاضرة موضوعها الخيال الشعرى عن العرب . وقد أعلن أن الأدب العربى خال من الخيال الشعرى وأنه لا يستطيع مجاراة الشعر الغربى وقد أثار بذلك القول ضجة كبرى .

وقد تخرج الشابى من الزيتونه وكان فى أول أمره لا يجد من ينشر له شعره (٢) وكانت الصحف تهمله حتى كاد يستولى عليه اليأس . ولد فى قرية (الجريد) التى تغص بالرياض الزاهرة وحبات النخيل الجميلة مما كان له أثره فى أخيلته الشعرية .

وقد أصيب بذات الرئة وكان آخر ما كتبه بعد مرضه الذى وقع إثر زواجه بعد أن حذره الأطباء — وهو ما يوصف بأنه نعى لنفسه وتنديد بجراحه .

أسكتى ياجــراح   اسكنى ياشجون
مات عهد النواح   وزمان الجنون

ومن شعر الشابى الذى صور به شقوته ومأساته :

فى الليل ناديت الـكواكب ساخطاً   متــأجج الآلام والأراب
الحقل يملكه جبــابرة الدجى   والروض يسكنه بنو الأرباب
والنهر للغول المقــدسة التى   لا ترتوى والغــاب للحطاب
وعرائس الغاب الجميــل هزيلة   ظمأى لـكل جنى وكل شراب

---

(١) توفى الشابى فى ٩ أكتوبر ١٩٣٤ .
(٢) مجلة الندوة التونسية .

وهو يصور آلامه النفسيه التى تصور أحزان المفكرين فى العالم العربى فى ظل الاستعمار :

مهما تضاحكت الحيـاة فإننى أبداً كئيب
أصغى لأوجاع الـكآبة والـكآبة لاتجيب
فى مهجتى تتأوه البلوى ويمتلج النحيب
ويضج جبار الأسى وتئن غمغمة الـكروب
إنى أنا الروح الذى سيظل فى الدنيا غريب
ويعيش مضطلعاً بأحزان الشبيبة والمشيب

وفى ميدان الشعر ظهر غير من ذكرنا : محمد العربى ومصطفى أغه وعلى الدوعاجى ومحمد بو سريبه ومحمد البشروش .

١١ — مفهوم الأدب العربى

ويصور محمود المسعدى الـكاتب التونسى مفهوم الأدب الحديث فيقول :

« إن أدباء تونس يؤمنون بما للأدب من وظيفة سامية فى حياة المجتمعات الإنسانية وبما له من مغالبة فى تـكييف تطورها التاريخى وخلق مصيرها الإنسانى

لقد بعث هذا الشرق من الرقدة : الأدب والفـكر . وحررته من الاستعباد الحركات الوطنية التى غذاها ونسقها وقادها الأدب والفـكر . وإننا نرى الأدباء والمفكرين الذين عملوا بجهادهم المتواصل فى الماضى على تحرير الشرق السياسى من ربقة الاستعمار والاحتلال الأجنبى لاتنى جهودهم عن شق طريق العزلة بين المجموعات الانسانية فاذا هو يخرج كل مرة من الغمرات الخطيرة بخاصة باقية فيه لم تؤثر فيها الحوادث أى تأثير . وقد وحدته فى الروح وفى العاطفة وفى الاتجاه الفـكرى العام وكانت كل تجربة محلية تبعث من صميم الواقع العمرانى وصميم الظروف التاريخية

تجرى مجراها الطبيعى حتى تنصب بالطبع كما ينصب الجدول فى نهر الحضارة العربية الأعظم » . ولا شك أن هذا التصوير يتميز بالوضوح والعمق وفى مجلة المعارف التونسية[1] يكتب البشير احمد تحت عنوان هدفنا الأدبى : «هدفنا» : بعث أدبى جديد؛ أن السحب الدكناء التى تلبدت منذ أمد بعيد فى أفق حياتنا الأدبية الموحشة لتنذر بالوبل . لسنا متشائمين إذا قلنا هذا بأيمان وتوكيد . بل أردنا أن نقلب صفحات من واقعنا المحسوس وننظر إليها بامعان وتمحيص ونستخرج من خلالها عبرا ونتائج كيفما كانت مؤلمة محزنة . نريد أن نسير فى درب حياتنا التى نحياها ونبعد كل الخيالات الزائفة التى تحملنا على أجنحة الأوهام الكاذبة إلى حياة غيرنا من الناس . نريد أن نضع مرآة خيال وجوهنا لنراها على حقيقتها التى هى عليها بدون تزييف أورتوش ، فان لم يكن وعينا مستمدا من صميم يومنا الذى نعيشه فسلام على الشعور الأشل المقبور فى هوه العام المقيت . مامدى النشاط الفكرى فى هذه الربوع ؟ الجواب بدون مراء حقيقة مرة يتحتم على روادالمعرفةعدم انكار مرارتها حتى نصارح أنفسنا بما نحن عليه من تأخر فكرى مفزع ، وبنصر انحطاطنا فى حضيض نربأ بالجيل الجديد أن يظل راسبا فى أعماق سراديب مظلمة . ومن الخيانة هنا إذا لم نتحفز ونقفز نحو طريق الإنتاج الأدبى الجديد الذى يتمشى وروح العصر فيعبر عن نزعاتنا المتنوعة ويعالج أمراضنا ومشاكلنا الحيوية فينهض بالفكر المهدد بداء الخمول البليد والنوم الابله . ويبعث فيه حياة حديثة تكفل له الخلود على ممر الأيام ومواكب الأجيال . أننا فى حاجة شديدة إلى الإيمان بالحياة فالشعب الذى لايؤمن بوجوده على سطح الأرض . ولا يقدر نبوغ أبنائه وعبقريتهم ولا يؤثر إنتاج بلاده الفكرى مهما كان ضعيفا على إنتاج الغير : ولم يشجع ذوى

---

(١) اكتوبر ١٩٥٣ .

المواهب من الشباب الذى يحمل مشعل الغد على متابعة السير فهو شعب لن تغرس يد الحياة في قلبه بذرتها النيرة المقدسة ، لأنه انتحر فى الطريق فعانق الموت وانكر ذاته واطفأ مشعل معرفته وأحرق بيته بنار الغرور وقتل مستقبله الذى هو روحه ... »

ومن هذين النموزجين تتمثل صورة التيار الفكرى التونسى العربى وهو يصور الأصالة العربية وعمق الارتباط بالوطن العربى ككل ومجموع وهو ينقض الدعوات التى حاولت، أن تربط بين اليقظة العربية والثورة الفرنسية أو تحاول القضاء على اللغة العربية كأداة للفكر العربى ولعل الصورة التى نراها فى اتجاهات الفكر العربى التونسى ومعالمه هى نفس الصورة التى نراها فى المنطقة العربية كلها : صراع ومقاومة ومحاولة للتجمع والتحرر ، وقتال واستشهاد ودماء ومصاولة ، وعدوان من المستعمر ومحاولة جبارة للافناء فى كل مكان ، تزيد قوة التجمع والايمان بالوحدة العربية وتضفى على الأدب العربى قوة وحياة وضراوة فى العداء ، وبالرغم من هذا فقد مثل الأدب العربى كل ألوانه وأسهم فى كل الميادين واشترك — شعراً ونثراً — فى الغزل والحب والرثاء بالإضافة إلى الوطنيات والعربيات وكان أبرز معالم الفكر العربى هو الاندفاع بالكثرة الكاثرة إلى الإمام لطلب حياة أفضل وقيم اسمى .

وقد تأثر الأدب التونسى بالأحداث كلها ، وتأثر أشد مايكون باستشهاد أبطاله أمثال فرحات حشاد (١٩٥٢/١٢/٥) الذى « قتل غدراً وغيله على الصورة المجرمة التى نفذتها وحشية المستعمرين » .

كما تأثر بالمهاجرين والمسجونين . فقد صور المفكرون الذين سجنوا ضراوة السجن (حسين الجزيرى) وتحدث المهاجرون عن أشواقهم وحنينهم إلى الوطن

وشكواهم من الغربة (محمد الخضر حسين) وكذلك من ضاقت نفوسهم بويلات الحرب مترقبين انفراج الأزمة وانجلاء الغمرة .

وقد كان الأدب التونسي — على الرغم مما يحمل من صورة الحزن والألم — يتطلع إلى المستقبل بروح الأمل والتفاؤل . وكان يتجه دائما وجهتين (١) إلى تأكيد الروابط العربية بين أقطار المغرب الثلاثة تونس ومراكش والجزائر مرة وإلى مصر والمشرق كله مرة أخرى (٢) ويعمل على تأكيد الوحدة العربية الكبرى . وكما احتفلت بالمؤرخ القيرواني أبي العرب التميمي وابن خلدون فقد احتفلت أيضاً بالمويلحي وحافظ وشوقي .

وكما تأثرت تونس بأعلامها أمثال خير الدين وقبادو وعبد العزيز الثعالبي وطاهر بن عاشور من الدعاة والمصلحين فقد تأثرت بالسنوسية القادمة من ليبيا ، والعروة الوثقى القادمة من الهند ودعوة محمد عبده القادمة من مصر ، وتأثرت أيضاً بالمعارك التحريرية التي قام بها الأمير عبد القادر في الجزائر والأمير عبد الكريم في الريف .

وقد ظهر في تونس كتّاب متعددوا النواحي : حسن حسني عبد الوهاب وعثمان الكعاك وتوفيق المدني في التاريخ ، والطاهر الحداد ومحمد المرزوقي في الاجتماع وسعيد أبو بكر ومصطفى اغه وخزنه دار وأبو القاسم الشابي في الشعر .

وقد كان جامع الزيتونة هو قبله الضياء الثقافي ومركز الحركة الفكرية في تونس وقد وصفه محمد الحليوي[1] بأنه حصن العربية الأشم وخريجوه هم صفوة العلماء والحكام والقضاة .

---

(١) الرسالة ١٩٣٦ مقال « الأدب في تونس » .

٤ — فى ليبية

ترسم « ليبية » أروع صور البطولة فى معركتى المقاومة والتجمع ، فقد عاشت ليبيا منذ فجر القرن تقاوم صفوفا من الاستعمار والاحتلال والاستبداد ممثلة فى ألوانه العثمانية والايطاليه والفرنسية والبريطانية والأمريكية · وهى فى هـذا الـكفاح الدائم المتصل أشبه بشـكنة عسكرية محاربة كل من مدنها الثلاث الـكبرى : برقة وطرابلس وفزان ومن وراءها من الصحراء فدائى مجند مقاتل يقاوم ولا يسلم .

هكذا عاشت ليبيا تقاوم الاستعمار الايطالى واحدا وعشرين عاماً بلا انقطاع دون أن ترضخ أو تستسلم وهان عليها أن تضحى بمليون شهيد من أبنائها وهو ما يزيد على نصف سكانها فى سبيل حريتها وعروبتها .

ولقد كانت صحراء ليبيا فى خلال فترة امتدت من ١٩١١ إلى نهاية الحرب العالمية الثانية مسرحا لمعارك ضخمة هاجمت خلالها ايطاليا سواحل طرابلس وقاومها العرب ثم توقفت المعركة واستؤنفت مرة أخرى وامتدت واستطالت ولـكنها لم تلبث بعد قليل أن أصبحت مسرحا لمعركة أخرى بين ايطاليا وبريطانيا تقدمت فيها الجيوش وانهزمت مرات ومرات .

وقد واجه الليبيون الغزو الايطالى وحدهم بعد أن انسحبت تركيا من المعركة الأولى ، وصمدوا لوحشية هذا الغزو الذى ترك جراحا لما تلتئم ورسم صورة قاتمة لفترة من تاريخ ليبيا مازالت حية فى نفوس الـكتاب والمؤرخين تبدو مرارتها واضحة فى كل صفوف الإنتاج الفـكرى ولقد كانت هذه المرحلة هى قاعده الفـكر الليبى العربى المعاصر وقوامه . فـكرة الغدر الغربى ممثلا فى الأعمال الوحشية التى قام بها جرازيانى وبالبو والحملة الضخمة المنظمة التى كانت تهدف إلى افناء أهالى البلاد وسلبهم أراضيهم وموارد ثروتهم .

ولقد كان الفكر الليبي العربي من قبل واضحاً في إيمانه بالقومية العربية والتحرر من الاستبداد العثماني الذي استمر يضغط على ليبيا منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي ويرسم كاتب ليبي معروف هو الشيخ طاهر الزاوي[1] صورة لهذه الفترة :

« في سنة ١٩١١ تم إحكام الخطط لقطع طرابلس من جسم وطن العربية وفصلها عن المملكة العثمانية . وفي اكتوبر كانت أساطيل دولة الروم تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم فكان اعتداء فظيع . وكانت غارة شعواء مثلت فيها قوة الحديد والنار أفظع رواية عرفت للظلم في تاريخ الظلم . ووجد الطرابلسيون أمامهم أمام دوى المدافع وازيز الطائرات وجيوش الظلم المدججة بالسلاح تحيط بهم . فتنادوا إلى الحرب ونفروا خفافا وثقالا دفاعا عن الوطن وذوداً عن كرامة العرب وفي أقل من خمسة عشر يوماً انتقلت الحرب من حدود مصر إلى حدود تونس . وتركزت بين البحر والجبل ثمانية عشر شهراً من اكتوبر ١٩١١ إلى مارس ١٩١٣ ثم امتدت إلى فزان تتقاذفها أمواج الصحراء فكان وقودها تلك الفلول من الطليان. وما استقر بها المقام في فزان حتى ارتدت على أعقابها في ديسمبر ١٩١٤ تسابق الريح فراراً بالحياة ولا فرار .

ولم يكن للطليان ملجأ بعده إلا حصون البحر ومدافع الأسطول . ووقف الطرابلسيون ثانية على سواحل البحر وأبواب المدن وتركزت الحرب فيما بين مصراته وزواره ثمان سنوات فكانت حربا قاسية ومريرة ما تركت بيتاً في طرابلس إلا طوحت بأحد أفراده . وانهارت قوة الطليان تحت ضربات العرب ... » .

وفي برقه والجبل الأخضر وفزان كانت هناك بطولات : كان هناك محمد

(١) (ك) جهاد الأبطال في طرابلس الغرب ، ١٩٥٠ .

ابن عبد الله البوسيفى وسالم محمد الزنتانى وسالم بن عبد النبى ورمضان السويلحى ومختار كبيار ودعون سوف ومحمد البيساوى بوخنجر يقودون المقاومة ويؤلفون العصابات المسلحة ويغيرون على مواقع الطليان وينقضون على معسكراتهم ويثيرون الحماسة فى قلوب المجاهدين فى الساحل كله وعلى رأس الأبطال جميعاً عمر المختار واستمرت المقاومة بين الطليان والمجاهدين فى عمليات حربية مستمرة ، وصمد العرب أمام جحافل الغزاة وقاوموا حرب الأبادة .

وأخُرج الطرابلسيون من بلادهم بعد جهاد دام أربعة عشر عاما فمنهم من لجأ إلى مصر وتونس ومنهم من آثر البقاء لمحاربة الطليان فانحاز إلى فزان أو انتقل إلى برقة وأشترك فى القتال تحت راية عمر المختار[1] .

وعلى أثر طغيان الاستعمار الايطالى فى ليبيا انتقل نشاط الليبيين السياسى إلى مهاجرهم فى القاهرة وتنادى العالم العربى كله واستمر عمر المختار يكافح حتى استشهد عام ١٩٣١ وكان مقتل عمر المختار على الصورة البشعة التى قتله بها الايطاليون حدثا من أضخم الأحداث فى ليبيا كلها مازال بعيد الأثر فى حياتها الفكرية .

ولم تكن هذه المعركة القائمة بين هذا الجزء من الوطن العربى وبين الاستعمار الإيطالى وقفا على ليبيا نفسها وانما كانت تتنادى بها باقى أجزاء الوطن العربى . فى مصر وسوريا وتونس وفلسطين عقدت اجتماعات وارتفعت صرخات وحملت الصحافة العربية لواء الدفاع عن ليبيا وكشفت جرائم الاستعمار الإيطالى . وفى جنيف كان الأمير شكيب ارسلان يذيع هذه الأحداث وينور الأذهان ويرسم للعالم العربى كله مظالم الطليان فى طرابلس وبرقة التى كانت تقاسى إذ ذاك أقسى ألوان العسف والجور من قتل الرجال والأطفال إلى إحراق المصاحف إلى احتلال المساجد إلى

(١) (ك) قصة ليبيا — محمود الشنقيطى — ١٩٥١ .

سجن المجاهدين ، وكان بشير السعداوى فى دمشق يجاهد بقلمه جهاداً جباراً .

وكان عدد سكان ليبيا حينما أغارت عليها ايطاليا نحو مليون ونصف مليون وقد أفنت الحروب المستمرة الجانب الأكبر ، كما ذهبت الهجرات التى هى إلى الاخراج أقرب بأكثر من المائة وعشرين ألف نفس وقد تكونت منهم فى تونس جالية طرابلسية برقاوية كبيرة .

وما كادت الحروب تنتهى حتى عادت مرة أخرى عام ١٩٤١ حيث عمدت بريطانيا إلى إحتلال برقه وعادوت الجيوش الإيطالية والبريطانية حتلال ليبيا عدة مرات فقد بدأ الهجوم على ليبيافى ديسمبر ١٩٤٠ وانتهى فى مايو ٩٤٣ وفى خلال هذه الفترة كانت صحراء ليبيا المتدة مجالا لعمليات حربية ضخمة احتمل أهل برقة وطرابلس وفزان قساوتها وظلمها …

٢ — السنوسية

وإذا كان هذا الكفاح يرسم صورة فكرية فانماهى صورة المقاومة والاستشهاد والدماء والهجرة . ففى خلال ١٩١١ — ١٩٤٦ كانت الصورة ترسم محاولة الاستعمار الغربى فى أفناء أهل ليبيا ومقاومة أهل ليبيا لهـــذا الإفناء وصمودهم فى وجه العدو …

ولعلنا فى حاجة أن نذكر أن سر هذه القوة والصمود والصلابة فى المقاومة ترجع فى الأغلب إلى أثر المدرسة الفكرية الضخمة التى قامت باسم « السنوسية » .

ويجب أن نصحح هنا ما ردده الاستعمار من أن السنوسية هى دعوة دينية بأن نؤكد أن السنوسية كانت مدرسة فكر به ضخمة تقوم على أساس العلم والسلاح والتدرب على القتال والتعمير وهى حركة مدنية دينية تدعو إلى العودة للاســلام فى جوهره وأصله وهى حركة عسكرية جريئة تعمل على التحرر من سلطان العثمانيين وعسفهم فى أول الأمر فلما جاء الاعتداء الايطالى أمكن أن تصمد صموداً قويا وأن

تقاوم طويلا وقد بدأت الحركة السنوسية ١٨٣٧ . وأبرز قادة السنوسية هم السيد محمد بن على المتوفى ١٨٥٨ — السيد المهدى ١٩٠٢ — السيد احمد الشريف ١٩١٨ والملك إدريس السنوسى ؛ ولم تكن الحركة السنوسية دعوة محلية ، ذلك محمد بن على السنوسى الكبير هو من مواليد الجزائر ، وقد درس فى جامعة القيروان ثم انتقل إلى فاس ثم إلى مكة حيث تأثر بالحركة الوهابية ثم عاد إلى برقه وفى سنة ٥١ اتجه إلى مصر فبرقه حيث أخذ يؤسس المعاهد لبث تعاليمه بين أهل البادية ، وبناء الزوايا . وقد أسس أول زاوية فى أرض أفريقية فى واحة سيوة وتقدم من هذه الناحية غربا إلى برقة فأسس الزوايا فى جالو وأوجله وتوغل غربا فى طرابلس وتونس ينشر تعاليمه بين البدو ، ثم أسس زاوية كبيرة فى الجبل الأخضر بالقرب من درنه وفى الجغبوب انشأ الزاوية التى أصبحت بعد ذلك مركز العلوم والعرفان وقد قصد باختيار الجغبوب أن تكون مركزا للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر راية السلام بينها جميعا فهى وسط قبائل الشرق والغرب ، وقد انقطعت بعد قيام الحركة السنوسية تلك الاغارات التى كانت مستمرة بين القبائل ثم انتقل إلى قبائل برقه فقضى على ما كان بينها من عداء قائم من قديم الزمان ، وفى الكفرة أوقفت الأغارات والنهب ومهاجمة القبائل الأخرى ، وقد امتدت الحركة السنوسية إلى مراكش غربا والسودان جنوبا وأصبح السنوسيون قوة روحية كبرى فى تلك الأصقاع وعاملا فعالا فى بث السلام ونمو التجارة وازدهارها .

ولما هاجمت إيطاليا طرابلس فى ٢٩ سبتمبر ١٩١١ كانت الحركة السنوسية أضخم قوة صمدت فى وجه الاحتلال ، وقد ظل عمر المختار يحارب ١٩١١ إلى ١٩٣١ — وكان زعيم المجاهدين فى الجبل الأخضر — ولم ينزل عن سرج جواده سبع سنين واستشهد فى ١٦ سبتمبر ١٩٣١ .

ويعجز الوصف عن رسم صورة المجازر التى أوقعتها ايطاليا لأهالى برقه وطرابلس ،

فقد سلطوا السيوف على الأعناق والرقاب وخربوا البلاد ودكوها بالمدافع وهاجر ٣ ملايين إيطالى إلى طرابلس كما هاجر ٢٥٠ ألف إلى السودان الفرنسى وفقد ٧٥٠ ألفاً من المواطنين وبلغ من استشهد ما يقرب من مليون نسمة وجندت إيطاليا من الليبيين فى الحرب العالمية الثانية ١٧ ألف جندى ، واستهدفت مدن ليبيا خلال الحرب للتخريب والتدمير .

وأصبحت مدينة طبرق أثراً بعد عين . وانتهى الحكم الإيطالى من ليبيا عام ١٩٤٣ وأعلن فى أول يونيه ١٩٤٩ استقلال برقه وتم إستقلال ليبيا بأطرافها الثلاثة فى يناير ١٩٥٢ وقد أقفل الحاكم الإيطالى غرزيانى الزوايا السنوسية فى مارس ١٩٣٠ وصادر أملاكها وأقام معسكرات الاعتقال التى ضمت ٨٠ ألفاً من البدو .

ولا غرو إذن أن يكون الفكر الليبى قاتماً يحمل صورة الاستشهاد والقتال والمقاومة التى رسمتها الحركة السنوسية . ويرسم صورة العناد والصلابة التى عرف بها الليبيون فى مقاومة الغاصب . وقد صور عدد كبير من أدباء ليبيا الواقع الفكرى خلال هذه الفترة وهو يتلخص فى (١) ضياع معظم الآثار الأدبية نتيجة للأحداث (٢) إنشغال أكثر الشباب فى معارك المقاومة (٣) حرم الشباب لذة العلم وأوصد المستعمر أبوابه أمامه (٤) منع المستعمر وصول الصحف والكتب من مختلف أنحاء العالم العربى رغبة فى تعميق نطاق العزلة .

يصور على مصطفى المصراتى أثر هذه المعارك فى الأدب الليبى فيقول : « كان لما أصيبت به البلاد من هزات عنيفة ، وكوارث مؤلمة ونكبات مروعه، وما أصابها من استعمار ديكتاتورى بغيض اسود زهاء ثلاثين عاما كاد يقضى على كل مالها من صلة بالعروبة والفكر الإسلامى من أجل ذلك ذهبت أكثر الآثار الفنية والمؤلفات التى كتبها أعلام الفكر والأدب والفقه . وامتدت يد السرقة والنهب

والجهل إلى تلك الآثار فكاد أن يصبح هذا الجانب قاعا يبابا اجردا » .

ويقول محمود الشنيطى : أنه ظهر فى بنغازى ودرنه فى القرن الماضى عدد من الأدباء ولكن الظروف التى مرت بالبلاد أضاعت ما كان قد قيد من ذلك المنتوج الأدبى العظيم » . ويقول خليل القلال من أعضاء جمعية عمر المختار « لقد قضينا معظم حياتنا نئن تحت الاستعباد مدة طويلة تسيطرت علينا يد المستبد فحرمتنا لذة العلم وأوصدت فى وجوهنا أبوابه وأبعدنا عن مناهله ففى مدة الاحتلال الأسود التى تزهو عن ثلاثين سنة حرمنا من المشاركة فى الفنون والعلوم العصرية فلا تاريخ لنا يدرس ولا لغة لنا تلقن ولا آداب لنا تنشر بل حجب عنا حتى مطالعة الجرائد والمجلات فبقينا منعزلين عن العالم العربى والحياة الاجتماعية ... » .

٣ — الحركة الفكرية

يقول صلاح الدين موسى : كانت النهضة الأدبية زاهرة قبل احتلال الطليان لطرابلس . حيث كان بها على سياله ومحمود نديم بن موسى وابرهيم باكير . وسعيد المسعودى . ممن ساعدوا على نشر اللغة العربية فلما جاء الاستعمار الايطالى طغى على الأفكار الوثابة وغمرها بسيل من التبلبل والارتباك وسد عليها المنافذ فلم تجد ما تتسرب منه وتسمع صوتها وقد أطفأ الاستعمار الايطالى السراج الذى أخذ يضىء ماحوله وأخمد جذوة هذا الروح الفياض واضحى الأدب منصرفاً إلى ما يقوم الحياة الحقيقية . والاستعمار يناهضه ويسعى بكل ما أوتيه من قوة فى إبعادهم عما يرتجى من الأدب واقصائهم عن غاياته الشريفة » .

فلما كانت الحرب الثانية قاسى أهل طرابلس من مصائبها الشىء الكثير . فشردوا فى أقاليم القطر المختلفة وهجروا المدن العامرة وكانت صواعق الأساطيل

وقذائف الطائرات تدق البيوت القائمة وتهدم شوامخ القصور بين عويل النساء وأنين الشيوخ وكان لهذا أثره فى الأدب اذ بات القلق بسيطر على السكان ويبعث فيهم الرهبة والخوف . وانجلت الحرب عن ديار أصابها الخراب والدمار . وشعب اضره التفرق والانشقاق .

ويصور مفتاح الشريف[1] دور الشعر الليبى فى المقاومة والتجمع فيقول :

قاومت ليبيا الحرب الفكرية الإيطالية بمقوماتها العربية . فمنذ بدأت ايطاليا الفاشية تنزل حجافلها على الشواطىء الليبية فى ٣ سبتمبر ١٩١١ بدأت حرب اللغة العربيه ومنع انتشارها . وسجن أشخاص عدة بتهمة العثور معهم على كتاب العبرات للمنفلوطى مجتمعين لقراءته وفرض تعليم اللغة الإيطالية واستيعاب ثقافتها واتسع ذلك العمل فشمل الصحف التى أخذت تنشرها وتذيع فى ظلالها الأفكار التى تدمر العقل العربى وتجعله قطيعا مسلوب الإرادة فاقداً للكة الخلق وأشعلت النيران فى المكتبات الضخمة التى أنشأها الإمام محمد بن على السنوسى وسيقت الجماهير بالإرهاب والاعتساف لتشهد وأد ثقافتها وخنق فكرها فى نفس المكان الذى شنق فيه بطل جهادها عمر المختار ... ولكن إيطاليا بجيوشها وإرهابها وأساطيلها لم تستطع أن تطفىء جذوة النضال المستعر ضدها ، واستمر الكفاح ثلاثين سنة ضحى فيها الشعب بنصف عدده . وبلغ عدد الضحايا مليون مواطن . وقد غذى الشعر الليبى المعركة وأضاف إليها قوى جديدة وجرّ فى الجماهير طاقات نضالية متزايدة . ومازال شعبنا يترنم بقصيدة الشاعر رجب بوجويس فى سمفونية خالدة .

«وحين[2] انشقع ظلام الاستعمار الايطالى إستطاع الشعراء الليبيون أن يتصلوا بالمنابع الثقافية فى العالم العربى فى ثورات مصر وسوريا ولبنان والعراق وعبأ الشعراء الشعب فعبروا عن أهدافه الاستقلالية » .

(١و٢) (ك) الادب الليبى لمفتاح الشريف .

« والنزعة القومية فى الشعر الليبى قديمة قدم تاريخ الشعب العربى فى ليبيا وقد أسهم الشعراء فى بث الوعى العربى ولم تشغلهم معركة التحرر الداخلية لاعتقادهم أن قضايانا جميعا قضايا واحدة تنبع من جذور واحدة وتجمعها وحدة النضال وقد كانت الوحدة العربية على لسان الشعراء مطلبا من مطالب الشعب الليبى الحاسمة فى صراخه الكبير ضد المستعمر نادى بها رفيق المهدوى . وابراهيم أسطى عمر وقنابه والشارف والهنغارى وأبو حامد وعلى الرقيعى وخالد رغيبه وحسن صالح والططاطى والسباعى .

وقد تعانقت القضايا العربية عندهم وانصهرت فى وحدة لا تتجرأ ولا ينعزل بعضها عن البعض الآخر ، وكانت المدرسة الليبية ظلا لمدارس الشعر الجديد فى مصر والعراق ولبنان وسوريا .

وهكذا تنفس الشعراء فى كل المراحل بصدق وأصالة فى محيط ضيق من واقعهم وقد ربطوا مشاكل شعبهم ببقية مشاكل الشعوب العربية . وكانت حياة الشعب الليبى الصغير كلها نضال دائب لاينى ولا يفتر للحفاظ على حياته وحماية وجوده والذود عن مصيره من الإبادة والإفناء والتدمير ا.هـ .

٤ — مقومات البحث

وقد كان من نتيجة هذا أن اتجه بعض الكتاب إلى إعادة البحث عن الآثار الضائعة والصفحات المندثرة من الفكر الليبى العربى فى هذه الفترة وقام عدد من المفكرين بهذا العمل فى مقدمتهم على مصطفى المصراتى الذى رسم قصة هجرة أهله من طرابلس فى هذه الصورة :

« طرابلس الغرب » : اسم حلو عذب ، سمعته لأول مرة من أمى وأبى وهما يقصان على مسامعى تاريخ هذا البلد وقصص البطولة فيه وأدوار الجهاد الوطنى

لأبنائه ، وكانا مشردين مهاجرين فرا من اضطهاد الاستعمار الظالم مع آلاف المهاجرين وقوافل القادمين على الإبل والأقدام قاطعين الصحراء اللافحة تاركين وطنا مغصوبا قادمين أرض مصر الحبيبة الكريمة قبلة الأحرار وملجأ الكرام[1] » .

ويصف طرابلس فيقول أنها باب المغرب وسيدة الصحراء وقد عاشت خلال التاريخ معبراً وسبيلا للمشارقة الذين يريدون التوجه إلى المغرب إلى بلاد الأندلس، ومحطا هاما ، وموقفاً طبيعياً ، وقد مرت بها الجيوش العربية والقوافل وركاب الحجيج وطلاب العلم والمجد وكل راحل وقادم كما كانت بطبيعة الحال معبرا وسبيلا للمغاربة والأندلسين الذين يريدون التوجه للمشرق »

وكتاب ليبيا ومفكروها يؤمنون بالوحدة الطبيعية بين برقه وليبيا وفزان ويؤمنون بالوحدة العربية على حد قول الشاعر :

ليس بين العراق والشام حد هدم الله ما بنوا من حـــدود

ويسجلون « للمعهد الجغبوبي » أثره الضخم فى تخريج عدد ضخم من العلماء الذين يجيدون الشعر ويقفون فى صف الأدباء المرموقين . وقد كانت الحركة السنوسية تشجع الأدباء وتهيىء لهم الفرص لإبراز ما تجود به قرائحهم ، وإن كان الأدب فى تلك الفترة يحمل صورة الصوفية والاستشهاد فقد كانت الحركة السنوسية تملأ القلوب بالجهاد والاستشهاد والفدائية والتجرد من المطامع والاندفاع فى طلب

---

(١) لمصطفى المصراتى عدد من الكتب والدراسات تؤرخ الفكر والحياة الليبية .
- مدرسه جغبوب وآثرها الفكرى والاجتماع .
- لمحات ادبيه عن ليبيا .
- اعلام من طرابلس.

وهو ابناء المهاجرين المجاهدين نشأ فى القاهره وتخرج من اصول الدين وكليه اللغه العربية وطاف بأنحاء ليبيا ١٩٤٨ داعيا للاستقلال . وهو خطيب مرتجل وله عده المؤلفات وذهب إلى الحجاز مرتين . واشتغل بالتدريس .

الحرية والتسلح لها بالسلاح الفعلى الذى يقتل ويفتك دون رغبة فى حاجة الدنيا، ومع تضحية النفس فى سبيل الحرية .

وفى هذه المعانى يقول الشاعر أبو سيف مقرب :

تقود جيوشاً ضاق عن بعضها الفضا ... تذيق العدا كأس الردى والدواهيا

كتائب من سام وحام تجمعت ... وما جمعت إلا الأسود الضواريا

أسود لها سر الحديد ملابس ... واعينها كالجمر أحمر قانيا

إذا حملوا تحت العقاب تخالهم ... صقوراً على الأشلا توالى التهاديا

كتائب أمثال الجبال رزانة ... وأن حملت خلت الهضاب جواريا

أولئك أقوام على الموت بايعوا ... مبايعة أضحى به الصدر راضياً

ويقول السيد عبد الله السنى :

إذا صفقت تحت العقاب جنوده ... تخال خيالا فوقها شعل شعل

وإن زحفوا يوم اللقاء حسبتهم ... سيول خيول برقها يبرق يعلو

كأن مثار النقع فى حومة الوغى ... غيوم بها برق الصوارم ينهل

فتطهر أرضا طالما قد تنسجت ... بأوثانهم سيل الدماء لها عل

ولقد كان للفكر العربى فى المشرق أثره فى ليبيا وسائر أنحاء الشمال الأفريقى وقد كان لأفكار الكواكبى ومحمد عبده وجمال الدين الأفغانى وغيرهم أثرها البعيد، وكان كتاب طبائع الاستبداد من أبرز هذه الكتب .

مراجع البحث .

- برقة العربية : محمد الطيب بن أحمد ادريس الاشهب — ١٩٤٧ .
- قصة ليبيا — محمود الشنيطى — ١٩٥١ .
- جهاد الأبطال فى طرابلس الغرب — طاهر الزاوى — ١٩٥٠ .
- الشعر والشعراء فى ليبيا — محمد الصادق عفيفى — ١٩٥٧ .

وقد كان هناك تجاوب ضخم فى الفكر العربى بين ليبيا والعالم العربى ومصر بالذات وقصيدة شوقى فى عمر المختار كان لها دوى كبير .

وكان للصحافة الليبية دورها الواضح فى الحركة الفكرية الليبية كجريدة الزهرة ١٩١٢ وبريد برقه ١٩٢٥ وبنغازى اليومية وكان يمكن لهذه الصحف أن تؤدى دوراً ضخما لولا وجود الرقابة الإيطالية التى كانت تقيد الأحرار ، والتى كانت عاملا من عوامل بقاء الكثير من الأدب الليبى مخطوطا يتداوله الناس ويرددونه دون أن يجسروا على طبعه ، ومن هنا ضاعت كثير من الآثار فى أمواج الحادثات .

ولعل أبرز شاعر « انفلت من أصفاد الاحتلال » على حد تعبير محمد الصادق عفيفى ؛ هو رفيق المهدوى ، ويقول الصادق عفيفى « أن شعراء ليبيا فى فترة الاحتلال هم الطلائع التى تلقت الضربات وأحدقت بها الخطوب . أما الشاعر الذى صاحب الدعوة إلى الوحدة والاستقلال وكذا الشاعر فى الجيل المقبل فسوف تكون مهمته أسهل من أخيه السابق لأنه سوف يدلى بجهد مشكور فى خلق قوالب وأبواب شعرية لم يكن لها وجود ... »

وإذا كان الاستعمار الايطالى كان يعمد إلى « افناء » أهل ليبيا كما فعل الاستعمار الأسبانى فى الأندلس وكما يفعل الاستعمار الفرنسى فى الجزائر وكما فعل الاستعمار البريطانى فى فلسطين فان الخطط المترتبة على ذلك كانت تتركز فى محاولة سحق اللغة العربية والغاء [1] تراثها . وتغليب اللسان الايطالى والقضاء على كل صاحب قلم وقد اضطر ذلك إلى رجوع البلاد إلى الوسائل الأولى حيث احتفظت بآدابها عن طريق الرواية والحفظ وضاع الكثير من تراثها الأدبى نتيجة لعدم تدوينه فلم يبق منه إلا النزر اليسير . وكان كل إنتاج يظهر لاسبيل إلى نشره أو طبعه .

---

(١) الشعر والشعراء فى لبيا — محمد الصادق عفيفى — ١٩٥٧ .

وكان من الطبيعي أن تكون الثورة على الاستعمار وتجنيد كل الشباب في معارك مستمرة أعواما طوالا سببا في ضعف الإنتاج الأدبي · ولكن الشعر في خلال هذه الفترة كان نشيد القتال وأن عدداً من القصائد كان ينشر في الصحف والمجلات بتوقيعات مستعارة مثل « وطني — أنا — مؤمن — محامي الشعور الوطني » .

وقد ترعرع جيل من الشعراء في خلال فترة جهاد الاحتلال الايطالي وإن كان أغلب « أهل الشعر والنثر عاكفون على أنفسهم منطوون على عزلتهم[١] » .

وقد كان للقيود التي كبلت الشعراء حتى جنت على شاعريتهم قد دفعت بعضهم إلى الهجرة من وطنه أو التجنس بجنسية عربية أخرى حتى يفلت من أذى المستعمر.

وقد استطاعت الأصالة الليبية العربية أن تقف في وجه الإستعمار الإيطالي مع ضعف مقدراتها. وامتنعت أن تأخذ من غيرها مع قوته وشدة بأسه ورقى حضارته وأن لم يحل ذلك دون نقل بعض الأخيلة والتعابير والألفاظ . وقد فعلت الأصالة الليبية ذلك في أثناء سيادة الإمبراطورية العثمانية[٢] التي لم تستطع أن تطغى على اللغه العربية. والدليل على ذلك أن الآثار القوية التي تركتها اللغة العربية في اللغة التركية أكثر بكثير مما تركته اللغة التركية في اللغة العربية . ولم تستطع اللغة الايطالية في خلال ثلاثين سنة خلال مقامها في أرض ليبيا أن توهن من اللغة العربية أو تحررها من مقوماتها بل ظلت العربية محتفظة بشخصيتها وقواعدها ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الحروف[٣] .

ويصور الأدباء الليبيون هذه الفترة التي مرت بهم بأنها فترة انصهار وأنها ستكون بعيدة الأثر في خلق أدب ليبي جديد .

---

(١) الشعر الشعراء في ليبيا (ك) .

(٢) استمر الحكم العثماني في ليبيا سبعين عاما .

(٣) وفد على ليبيا بعد زوال الاحتلال الإيطالي الدكتور منصور فهمي الذي عجب كيف أن البلاد لاتزال تتكلم اللغة العربية وقال : كنت أظن إنها انقرضت نتيجة لهذا الاستعمار الجائر وأن ابناء ليبيا قد اضحوا في حكم الأعاجم .

يقول المهدى أبو حسان : أملنا قوى جدا بعد ذلك الانصهار الطويل والصمود المدعم بروح الإيمان العميق والمصطبغ بالوان مختلفة من الفخار والبطولة أمام الحوادث والأحداث . أملنا قوى بعد كل الذى فات ، أن نكتب ، ونكتب ونتحاور ونتخاصم حول كل موضوع فى ميدان العلم والأدب والفن لننتج النهضة الأدبية التى نرضى عنها » .

٤ — الشعر الليبى

وقد قام الأدب الليبى المنقول لا المطبوع خلال فترة القاومة بأثر ضخم : يقول رفيق المهدوى أن قصائد شعراء ليبيا كانت نقمة على الغاصب . ويقول غيره أن الألم دائما كان هو قيثارة الأديب . وقد أجمع الذين كتبوا عن الأدب الليبى أن الأمة الليبية قد سلمت من اللحظات النفسية والاجتماعية التى تسرى فيها عدوى التقليد النفسى والاجتماعى . وقد تشبثت بكيانها وناضلت فى سبيل بقائها وانطوت على نفسها وذلك — فى تقدير هؤلاء الكتاب — بعكس ماحدث فى مصر وسوريا عندما وجد الاستعمار الفكرى مجالا خصبا لبث أفكاره .

وقد بدأت نهضة الشعر الليبى متأثرة بظهور مدرسة أبولو فى مصر (١٩٣٣) حيث ظهرت دعوة إلى التجديد تحمل دعوة التحرر من التقليد والاتجاه إلى الابتكار وحامل لواء هذه الدعوة هو الشاعر المهدوى فقد كتب غير مرة داعيا أى إيجاد أوزان جديدة للشعر العربى والتحرر من ربقة القوافى كما يقول مؤلف كتاب الشعر والشعر فى ليبيا : أن شعراء ليبيا وكتابها كانوا متأثرين بمصر وشعرائها وبما يجد فى القاهرة من ألوان الأدب والفنون لأن عدداً كبيرا من أبناء ليبيا كانوا يتعلمون بها ويعودون يحملون كتبها وصحفها ، ولأن مصر كانت ولا تزال قبلتهم ويرون فى أدبائها وشعرائها حجتهم . هذا فضلا عن أن الأساليب العربية بما فيها

الأسلوب الليبي متقاربة فى السمات والخصائص . وان كانت تصبغ الأسلوب بصبغة أقليمية طفيفة ، وهناك طائفة من الشعراء فتنت بالأساليب الغربية وبخاصة أسلوب جبران خليل جبران وقد أطلق عليهم « المتجبرنون » .

وكالعادة دائما : أصبحت هناك مدرستان : مدرسة قديمة تسير على الأساليب القديمة على نحو الصور التى قدمناها فى أول هذا الفصل وشعراء مجددون: جددوا الألفاظ وأعرضوا عن الألفاظ العتيقة ومالوا إلى اختيار الألفاظ التى تناسب العصر واتجهوا إلى الوضوح وكان من الطبيعى أن تكون الأغراض التى طرقها الشعراء الليبيون فى هذه الفترة تختلف عن أغراض القدماء :

وتمثلت المدرسة القديمة فى : على صدقى والرقيعى والأسطى عمر والحاجرى، وشبيب وتمثلت المدرسة الحديثة فى رفيق المهدوى واحمد قنابه وعلى الديب وأحمد الفقيه حسن وعلى صدقى عبد القادر .

وإلى جوار الشعراء الذين يمثلون غالبيـة حملة لواء الفكر فى ليبيا والحجاز والسودان فى مثل هذه الفترة — نجد الكتاب الذين يقولون إن بلادنا حرمت فترة غير يسيرة من الاتصال تبراث آبائها وأجدادها السابقين فى عهد الاحتلال الايطالى فلا بد من عرض هذا التراث القديم عرضا جديدا والسير على منواله .

وقد كان للصحافة أثر كبير فى تحرير البلاد وحمل رسالة الفكر الليبى العربى الذى كانت المقاومة أبرز مقوماته فقد أذكت الوعى الوطنى وأثارت الرأى العام ونبهت الأذهان إلى ما يحاك من أغلال تربطها إلى دول الاستعمار . والهبت مشاعر الشعراء وأظهرت طائفة من الشباب المتحمس كانت فيهم شاعرية « فلما وجدوا المحك وانقدح الشرر صاغوها عقوداً تفيض بالوطنية[1] » ولم يجمع من هذا التراث الذى

---

(١) الشعر والشعراء فى ليبيا .

أنشأه الشعراء إلا ديوانين هما ديوان مصطفى بن ذكرى (١٩١٨) وسليمان البارودى (١٩٤١) ويرى بعض الباحثين أنه بالرغم من الأغلال التى كبلت الفكر الليبى العربى فى العهدين التركى والايطالى وبالرغم من أن الاستعمار قد جرد الليبى من كل شىء إلا أنه لم يستطع أن يحطم فيه تلك الروح الشاعرة الفياضة بالعواطف التى ورثها عن أبائه .

٢ — الشعر الليبى

ولعل الدعوة التى اجتمعت لها أقلام الكتاب والشعراء فى القطر الليبى هى القومية العربية إذكاء الروح الوطنية الثائرة فى نفوس الشباب وقد كان للشعر الوطنى أثر عميق فى المقاومة والمجتمع .

يقول فؤاد شبيب :

يابنى يعرب من تاريخكم سفر حياتى
منه أمسى فى نضال زاخر بالتضحيات
منه يومى فى أباتى ومضائى وثباتى
منه آمال غد يجمعنا رغم العداة
عدة للحق للايمان تردى كل عات
أمة تستلهم الماضى لتبنى خير آت

ويقول على الرقيعى :

ولسوف أبعثها قذائف عصبة ... غضبى تدك معاقل الأقزام
حتى يلوح الفجر مؤتلق الضيا ... يغشى المهاد الشاسع المترامى

ويقول الأسطى عمر :

فهذا الشعب كافح ثلث قرن ... فلم يذعن ولا التقى الحساما
إلى أن غادر المحتل قسراً ... أراضيه وقد ولى انهزاما

تصبر بعد ذا سبعا عجافا ... يراقب كشفها عاما فعاما
وجاء الحق يدحض كل ظلم ... ويرسل نوره يطوى الظلاما

ولا ينسى شعراء ليبيا ماساة فلسطين يقول رفيق المهدوى :

أبعد فلسطين الشهيدة عندنا ... سرور وعيد . نحن بالحزن أخلق
فلسطين فى الأعماق مازال جرحها ... يعج دما أو ادمعا تترقرق

ويذكر « على صدق » الأردن والصراع بين العرب والاستعمار :

بعدها الذرات صاحت فى امتعاض وغضب
ان فى الأردن شعبا ... يقدح الآن اللهب
فرق الحلف اليهودى ... وقد ثار وهب
إن حاف الغرب ذل ... وامتهان للعرب
كيف نرضى لاوربى ... ان للشعب الغلب
هو حلف لا نريده ... والى الغرب نعيده
لا تغرنا وعوده ... قطعت أين تقوده

ويصور « الأمين أبو حامد » ملاحم أبطال فى ليبيا فيقول :

يارائد المجد حدث عن مواضينا ... فما المفاخر إلا ملك أيدينا
نحن الالى تعرف الأعداء وطأتنا ... فى حائمات الحمى أو فى مغازينا

ويقول أحمد قنابه يهاجم دعوة الاستعمار ليقسم ليبيا :

شتت الله شملهم فرقونا ... أنهم ظالمون مستعمرونا
أوهمو الناس أننا فى إنقسام ... لم تكن وحدة وهم وحدونا
أوهموا الناس أننا فى اسار ... واضطهاد وأنهم أنقذونا

أوهموا الناس أننا فى سقام ... وأعتلال ياليتهم عالجونا
أوهموا الناس أننا فى احتياج ... ولهم ثروة بهم زودونا
قاسمونا فى أرضنا كل شىء ... أو لم يكف أنهم أفقرونا
ما أراد القرار تقسيم ليبيا ... انما هم لغاية قسمونا
إن فزان مثل برقة عضو ... من طرابلس يشهد المنصفونا

وفى الدعوة إلى القومية العربية يقول « على الذيب » :

لها النيل مأوى والكنانة حارس ... بعين ترى الإغضاء من أكبر الوزر
وبغداد سرى والحجاز وجلق ... ولبنان حصن عند غائلة الشر
لها ليبيا منظار كل مغيب ... وراء ستار حاول النفث بالغدر
وفى المغرب الأقصى مجال ركابها ... فسيح يرى الأقدام ديباجه العمر
وفى حوض بحر الروم أثار طارق ... وموسى سل الحيتان عن قصة البحر

وقال احمد الفقيه حسن :

كانت طرابلس لشعبك زاجراً ... عن أن يلاقى الذل والبأساء
فيها رجال برهنوا لك أنهم ... كانوا لها يوم القتال فداء
لا يرتضون الذل ماعاشوا وما ... خضعوا لطاغية الورى إستخذاء
قوم من العرب الكرام نعودوا ... خوض الوغى والطعنة النجلاء
كانت وقائعهم لدى أعدائهم ... مشهورة وفعالهم بيضاء

وقال على صدقى عبد القادر :

سال منه الدم الطهور وقد ... أنبت فى الأرض زهرة ذات طيب
تلك زهرة الحرية اليوم تزكو ... وبميلادها احتفى كل ليبى
سائراً حاملا عموداً من النور ... يشق السماء شق القضيب

ذلك النور رمز ليبيا التى فاضت دما طاهراً بيـــوم عصيب
ما رأى الدهر كالعروبة شعبـا عاش عيشـــا بموطن مغصوب
إننـــا أمة حيينا ونحيـــا رغم أنف الجبان والمســتريب
وعلى جبهـــة الزمان مشينـــا واتخـــذنا غضونها كدروب

وهكذا يحمل الشعر الليبى صورة المقاومة والتجمع ، فى احساس عميق بالجريمة الاستعمارية والمؤامرات التى يدبرها للتمزيق .

وقد بدأت عام ١٩٤٢ فى ليبيا الدعوة إلى الوحدة بين الأقطار الثلاثة : برقة وطرابلس وفزان . وقد حاول الاستعمار أن يستغل التوتر بين الولايات وابنائها محاولا بث الفرقه والشقاق والخلاف ، وعمد إلى بث بذور الروح الانفصالية عن طريق البحث العلمى المشوه بقوله : إن طرابلس يغلب على أهلها الجنس البربرى وأن برقة يغلب على أهلها الجنس العربى ، وأن فزان تنحدر من السلالة الأثيوبية ولـكن هذه المحاولات لم تجد مجالا فى نفوس الليبيين الذين كانوا يعرفون الحقيقة ويؤمنون بالوحدة القائمة على أساس روابط الماضى الطويل .

وفى هذا يقول مصطفى بعيو « إن الأساس الجنسى الذى انبثقت منه دوحة طرابلس وبرقة وفزان منذ القدم هو سلالة البحر الأبيض المعروفة باللوبيين قديما وبالبربر عند العرب . هؤلاء العرب الذين عملوا فيما بعد على تدعيم السـلالة وتطعيمها بالدم العربى فاضحت عربية صرفة وذلك منذ أن قدموا إليها فاتحين مستوطنين عام ٢٢ هـ » .

٣ — حركة البعث

وتستهدف حركة البعث العربى القائمة فى ليبيا منذ الاستقلال (١٩٤٦) استعادة الأمجاد العربية واحياء ذكرى الاعلام وهو عمل ضرورى ونافع ، ويحاول «على مصطفى المصراتى» ذلك فى كتابه أعلام من طرابلس حيث قدم فيها كامل

مصطفى صاحب الفتاوى ، ومصطفى بن ذكرى الشاعر المنمور ، ومحمد بن العربى واحمد عبد الدايم الانصارى وعلي بن عبد الصادق ، وابن غليون واحمد البهلول ومحمد الحطاب ، وابراهيم المصراتى ، وعبد السلام المصراتى الفقيه ، وابو اسحاق الاجرابى ، وابن معمر الهوارى ، وابويحيى بن مطروح[1] .

وهو نفس الطريق الذى يتخذه الوزير «عبدالله بن كنون» فى مراكش .

وقد كتب كثيرون من كتاب ليبيا يصورون البطولة فى حروب المقاومة ويسجلون فى دراسات طويلة حياة الأبطال والشهداء أمثال سليمان البارونى وعمر المختار وبشير السعداوى وغيرهم من زعماء المجاهدين .

وهنـاك لون من الأدب الليبى يتمثل فى صور الكتابات والمذكرات والأحاديث التى أفضى بها زعماء الحركة الوطنية فى خلال معركة المقاومة والتى نشرت فى الصحف المصرية والعربية خلال هذه الفترة الطويلة والتى صورت بأقوى عبارة وأشدها حرارة جرائم الاستعمار الابطالى ، ومن بينها نداءات إلى شباب المقاومة بالعمل والاصرار والفداء . وذلك فى خلال الفترة التى انتقلت فيها القياده الليبية إلى القاهره ، وهذا نموذج مما ورد فى إحدى هذه الرسائل محررة بقلم عمر فائق شنب « لقد استهدفت المدن للخراب الأبدى والدمار الذى لايعوض كطبرق التى أصبحت أثرا بعد عين ، وبنغازى عاصمة برقه التى دمر ثلاثة أرباعها وقسما من درنه وسرت وطرابلس وغيرها وتعرض الكثير من المدنيين العزل للقتل والشنق والنهب حتى أن الفاشيست شنقوا فى يوم واحد وفى مدينة واحدة وهى المرج (٣٠٠ رجلا) وصادروا جميع ما فى الأسواق عنوة واقتداراً وهو ما يقدر بنصف ثروه التجار

وتبددت ثروه البلاد وتشتت الأهلون سنين فى البرارى والقفار بعد أن دمرت مدنهم وهدمت أملاكهم وقتلت نساؤهم وأطفالهم وضاعت ثروتهم . . . »

(١) الحقيقة والتاريخ : ليبيا مهد البطولة وعرين الأسود — ١٩٤٦ .

٥ — فى السودان

قاسى السودان عنف الاستبداد العثمانى والعدوان البريطانى وعاش خلال القرن التاسع عشر وحتى منتصف هـــذا القرن فى صراع قوى . وكان فى صراعه هذا يرتبط بالأمة العربية وقد كشف عن صلابته فى المقاومة فى ثورتيه الكبيرتين : الثورة المهدية وثورة على عبد اللطيف اللتين وقعتا بعد الثورة العربية وثورة ١٩١٩ فى مصر .

وقد حاول الاستعمار أن يحطم وحدة السودان وامتزاجه بربراً وعرباً وأن يقضى على اليقظة الفكرية واللغة العربية منذ عهد باكر جداً لعله قبيل عام ١٨٧٤ عندما أرسل غردون إلى السودان اليوم بهذا العمل وباسم مقاومة تجارة الرقيق .

وقد لقى السودان ما لقيت مصر من عنف الاستعمار البريطانى ، ولقيت فى تمزيق وحدة الوطن مثلما لقيت تونس والجزائر ومراكش . وكما جرت المحاولات لعزل العرب عن البربر فى السودان فقد جرت محاولات ضخمة لفصل السودان عن مصر .

ولكن تخريج عدد ضخم من الشباب المثقف من جامعة غردون ، وتحول الثقافة من الصوره الدينية إلى الصوره السياسية كل هذا لم يصل بعد حوالى سبعين عاما لم يسفر عن نتائج فى صالح الاستعمار إذ تحطمت كل هذه الخطط التى كانت ترمى إلى القضاء على عروبة السودان وروابطه بالعالم العربى ومصر واستطاع

السودان أن يحقق الجلاء والاستقلال الذاتى وأن يعلن مولد جمهوريته فى أول يناير سنة ١٩٥٦ .

* * *

وصل العرب إلى القارة الإفريقية فى القرن السابع الميلادى يحملون لغتهم العربية ورسالة الإسلام وتابعوا سيرهم من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطى . ولكن هجرتهم لم تتسع إلا فى القرن الحادى عشر حين امتزجوا بالبربر الذين كانوا يتحدثون باللغة العربية كلغة أصلية ويدينون بالإسلام ، وقد امتد النفوذ العربى إلى الجنوب عبر الصحراء حتى بلغ شرق إفريقيا ثم واصل امتداده إلى سينجامبيا وحوض النيجر الأوسط ودانت « تمبوكتو » بالاسلام ١٥٩١ .

وعند ما طاف فاسكودى جاما حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى ميناء ما لندى على شاطىء إفريقيا التقى هناك بالرحالة العربى « أحمد بن مجيد » واستعان الرحالة البرتغالى بما كان يحمله الرحاله العربى من خرط بحرية دقيقة ومن أدوات ملاحية لم تكن معروفة لدى الأوربيين[١] .

وعند ما نزل الرجل الأبيض إلى السودان فى عام ١٨٦٢ ممثلا فى صمويل بيكر . ثم فى غردون ١٨٧٤ وبدأت بعد ذلك حملات ستانلى وغيره إلى منابع النيل — كان هذا مقدمة الغزو الاستعمارى .

فقد كان هؤلاء الرواد الأول — الذين ظل تاريخنا يصفهم برسل الحرية محاربو الرقيق — يحملون رسالة التفرقة العنصرية بين السكان وإثارة الخلافات بين القبائل . والعمل على ابقاء عوامل التفكك والتفتت وخلق هوة سحيقة بين العرب الذين نزحوا إلى البلاد الإفريقية وبين السكان المحليين

(١) محمود كامل — تحرير وادى النيل (ك) .

والمحافظة على الجفوة بينهما بغرس بذور الكراهية والبغضاء فى نفس كل منهما نحو الآخر[1] .

والمعروف أن السودان كالمغرب يتكون من قبائل حامية وعناصر أهلية ، وقبائل عربية هاجرت بعد الإسلام ، وقد امتزجت جميعها فخلقت مجتمعا مترابطا لغته العربية فقد كانت قبائل شمال السودان : الهادندوه والبشارين وبنى عامر التى تقطن البر الأحمر تتحدث العربية بلهجاتها الحامية وكذلك النوبيون فى شمال السودان يتحدثون العربية مطبوعة بطابع اللغة النوبية القديمة وكان لهذا الامتزاج أثره العميق فى جميع حركات المقاومة التى عمل فيها الجميع صفا واحداً وكذلك فى بناء المجتمع وقد عرف عرب كردفان ودارفور بالشجاعة والشهامة والقدرة على الحرب والقتال

وفى خلال هذه الفترة — منذ وصول الرجل الأبيض ١٨٦٢ إلى أن أعلن المهدى ثورته ١٨٨١ — كان الاستعمار ممثلا فى بيكر وغوردون وأعوانهما جسى وكازاتى وفردريك وشنتزر وهم من الحاقدين على العرب يعملون على استئصال جذور الوحدة ومنع الامتزاج بالقوة .

اتخذت بريطانيا من تجارة الرقيق وسيلة لتحقيق مآربها الاستعمارية فى القاره . وقد وجدت أن اتساع النفوذ العربى من السودان إلى إفريقيا هو العقبة الوحيدة التى تعرقل سياستها · وكانت مقاومة تجارة الرقيق هى الحجة التى غطت بها بريطانيا مؤامراتها التى استهدفت القضاء على العناصر العربية فى السودان ومطاردتها وقد طاردت هذه الحملات زعماء السودان وأبطاله أمثال حسن الشلالى السودانى الذى اكتسب مكانة عالية بين مواطنيه لقدرته ووعيه فى تفهم مشاكلهم وحلها بالطريقة المثلى . وسليمان الزبير الذى اتهم بالمقاومة وطورد فخرج على وجهه حتى نفدت ذخيرته

(١) (ك) يقظة السودان — إبراهيم أحمد العدوى — ١٩٥٦ .

فقبض عليه فى ١٥ مايو ١٨٧٩ وأمر جسى باعدامه فى نفس اليوم الذى استسلم فيه ونفذ فيه الاعدام ضربا بالرصاص مع تسعة آخرين من زعماء السودان ؛ ويرى المؤرخون أن قتله كان كارثة انطفأت على أثرها الحضارة العربية فى دارفور وبحر الغزال[1] وقدواصلت هذه المجموعة الحاقده على العرب التى تعمل تحت قيادة « غردون » عملها فى مقاومة كل زعماء العرب السودانيين الذين يحملون اللغة العربية والمدنية والعمران وهم متجهون جنوبا إلى منطقة البحيرات ومطاردتهم فى مراكزهم فى دارفور وبحر الغزال .

وقد كتب كازاتى الإيطالى — وهو من أعوان غردون : «يجب أن نفصل تماما البلاد السوداء عن البلاد العربية فى السودان أو التى يهيمن عليها العرب وأن تجمع تحت إدارة مستقلة واحدة أراضى بحر الغزال ومديرية خط الاستواء . ذلك أن العرب المنتشرين فى البلاد ليسوا إلا لصوصا أو شحاذين يجب إرجاعهم إلى بلادهم الأصلية وقطع كل أمل عندهم فى العودة » .

ولذلك كان لا بد أن تتجمع هذه الاضطهادات الضخمة فى إطار ثورة ضخمة تحمل علم المقاومة العربية ، وتكون رد فعل حقيقى عنيف ضد أعمال الإبادة والتجزئة التى حمل لواءها غردون وزملاؤه : فكانت ثورة المهدى الذى لجأ إلى جزيرة «أبا» كإعلان لبدء دعوته (أغسطس ١٨٨١) وقد تفاعلت فى نفسه آثار العمل الخطير الذى واصله غردون خلال عشرين عاما ومن هنا بدأ حركته وظل ينتقل إلى جبال النوبا مقر مملكة تقلى العربية وقريبا من كردفان ودارفور موطن آلام العرب وجراحهم منذ حملات جسى الإيطالى على سليمان بن الزبير .

ومضى المهدى يجند الشباب ويكتل القوى ويحث على الجهاد والمقاومة

---

(١) إبراهيم العدوى فى يقظة السودان — ١٩٥٦ .

وتدارس أحوال البلاد وقد انتهى من هذا كله إلى وضع خطة شاملة للحرب.
وقد انضم إليه عبد الله التعايشى كبير زعماء قبيلة البقاره فكان ذلك عاملا هاما من عوامل اشتعال الثوره .

وفى كردفان تجمعت القوى التى كانت فى سبيلها إلى الانطلاق لتحرير السودان وبذلك أصبحت مركز المقاومة العربية . وقد بدأت الثورة بقضاء المهدى ورجاله على الحملة الإنجليزية بقيادة هكس فى موقعة كيشان (٥ نوفبر ١٨٨٣) وسقوط القائد البريطانى قتيلا .

وكان لهذا النصر أثره فى الروح المعنوية بين أفراد القبائل للتخلص من الرجل الأبيض ولم تلبث بريطانيا عندما استفحلت الثورة المهدية أنه أرغمت حكومة مصر على إخلاء السودان (٣ نوفبر ١٨٨٣) ولما رفض شريف باشا عرض بريطانيا أقيل وحل بدلا منه نوبار باشا الأرمنى الذى سلم لبريطانيا بما أرادت .

وقد ظلت الثورة المهدية مندفعة إلى غايتها حتى استطاعت احتلال الخرطوم فى ٢٥ يناير ١٨٨٥ وبذلك قضت على آخر نفوذ لبريطانيا بقتل غردون وتولى زعامة الثورة فى شرق السودان «عثمان دقنه» شيخ قبيلة دقنه المشهوره بسواكن والذى اتصف بقوة الشكيمة والعزمة الصادقة وقد قاد الثورة ضد الانجليز فى سواكن ونجح فى ضم عرب البشارية والأحرار وغيرهم من العرب المقيمين حول سنكات كما ذود القبائل العربية فى مدن السودان الشمالى بالأسلحة ومعدات القتال . وهزم الجيش البريطانى عندما هاجم السودان بحراً من سواكن .

وقد استهدفت بريطانيا من حمل مصر على إخلاء السودان فصم عرى التعاون بين المصريين والسودانيين وبث الفرقة والوقيعة بين المهدى وسائر أنصاره[1] .

(١) يقظة السودان — إبراهيم العدوى — ١٩٥٦ .

وقد نفذ مهمة الجلاء المصرى عن السودان الضابط البريطانى « غردون » الذى كان يحمل لواء الدعوة إلى تحطيم الروابط بين شمال وادى النيل وجنوبه .

وقد وصف أحد الكتاب الغربيين « الحركة المهدية » بأنها أدمجت فى اتحاد عام جميع القبائل العربية التى كانت بطونها وأفخاذها المتعدده لا تتحد أو تأتلف فى أى وقت من الأوقات فهى تؤلف الآن شعبا منظما رزق شجاعة خارقة مستميته » .

هذا وليس صحيحا ما كانت ترده كتب التاريخ والأبحاث عن أن دعوات المهدية والوهابية والسنوسية دعوات دينية صرفه ، فهى فى الواقع حركات سياسية هدفت إلى المقاومة والتحرر وكانت تقوم بطبيعتها على عنصرى الزهد فى المطامع والفداء بتجريد النفس وفنائها فى سبيل الهدف الكبير وهو ما وصف بالدين . وأننا لو راجعنا عوامل النصر فى أى معركة من المعارك لوجدناه يعتمد على هذين المنصرين وبغيرها لم يقع النصر مطلقا . ولم يكن المهدى ورجاله يطمعون فى السلطان . بل كانوا صوفية زاهدين دفعهم الظلم والاستبداد والتسلط الاستعمارى ومخلفات عهد طويل من مظالم العثمانيين ومحمد على . إلى المقاومة والتجمع ولذلك عجزت بريطانيا عن خداعهم حينما أرسل غردون إلى المهدى هداياه ووعده بالسلطان فقد رد إليه المهدى هداياه ووجه إليه أعنف الصفعات على مقدار ماوصلت إليه العقلية الاستعمارية فى فهم حركات التحرر والمقاومة .

ولعله مما يرسم صوره التضامن العربى والوحدة العربية إنه المهدى كان حريصا على ألا يقتل غردون ليفتدى به أحمد عرابى زعيم ثوره مصر إذ ذاك . وأن غاية القول أن ثورة المهدى ليست إلا حركة مقاومة ضخمة لمحاولة التخلص من فساد

العهود العثمانية والانجليزية وبعثات الفتح وعمليات التغريب والتجزئة تحت اسم «مقاومة الرقيق وتمدين القارة المظلمة» . وأنها حركة بناءة سياسية تقدمية إيجابية كانت تستهدف تحرير السودان وانقاذ مصر فى ظل المعنى العربى الكبير ولذلك حال الاستعمار دون استمرار الحركة بعد انتصار الثورة (١٨٨١ — ١٨٩٩) التى استمرت ثمانية عشر عاما عندما قتل الخليفة التعايشى فى ٢٤ اكتوبر ١٨٩٩ وكانت بريطانيا قد عادت إلى فتح السودان ١٨٩٦ باسم مصر وبريطانيا فى نفس الوقت الذى لم تكن مصر فيه سوى مظهر خداع اختفت وراءه بريطانيا . وقد سقطت أم درمان عام ١٨٩٨ وانهارت مقاومة الدراويش ، ومنذ ذلك اليوم استطاعت بريطانيا أن تنفذ خططها التى حمل لواءها غردون من قبل على أمد طويل استمر بعد عقد اتفاقية ١٨٩٩ الباطلة وكانت بريطانيا فى حقيقة الأمر منفردة بالحكم منـــذ ذلك التاريخ . ولم تلبث ان اتخذت من مقتل سرداد الجيش سرلى ستاك فى ٢١ نوفمبر ١٩٢٤ ذريعة لاخلاء السودان من الجيش المصرى وقد استهدف الاستعمار فصل السودان عن أعز ينبوع عربى مجاور له وهو مصر ثم عمد إلى تفكيك أواصره ثانيا بمحاولة اقتلاع جذور العروبة التى تأصلت فى أرضه .

* * *

ولكن السودان لم يتوقف عن المقاومة . وفيما بين ثورة المهدى وثورة على عبد اللطيف (١٨٩٩ — ١٩١٩) . لم تتوقف المقاومة . لقد أطبق المارد البريطانى على السودان بكلتا يديه ومضى فى أعمال الضغط والارهاب والتنكيل . كانت السجون تفتح أبوابها والمشانق تنصب . والعزلة الاجتماعية تفرض على البلاد . والمظالم والقوانين الجائرة تتواصل . وكانت أحقاد الشعب تحتشد وتتجمع فى ثورات متتالية .

وفى عام ١٩٠٤ وقع أول انفجار اعلن عن غضبة الشعب فى ثورة الشريف محمد

الأمين و ١٩٠٨ فى ثورة تالودى . وفى نفس العام ثورة الحلاويين بقيادة ودحبوبة المظيم و ١٩١٦ ثورة السلطان على دنيار و ١٩١٧ ثورة الدلنج ، وتلاقت الثورات المحلية فى شمال السودان مع عواطف الجنوب وبدأت قبائل السودان تنصهر فى قومية واحدة هى القومية السودانية قوامها اللغة العربيه .

ثم بدأت طلائع الوعى القومى بقياده على عبد اللطيف وزملائه عبيد الحاج وصالح عبدالقادر وحسن الشريف وحسن صالح وعلى ملاسى وعمر رفع الله ومحمد المهدى الذين كونوا جماعة اللواء الأبيض بعد ثورة ١٩١٩ المصرية وقد عرفت هذه الحركة الجديده بالقوه والصلابة والايمان بوحدة مصر والسودان . وعرف على عبد اللطيف بالاعتزاز بالنفس والتضحيه فى سبيل الكرامه والشهامه والشجاعة وهو من قبائل الدنكا بجنوب السودان وقد اتصل بمجامع الثقافة فى مصر وارتبط مع شمال السودان .

وقد أصدر على عبد اللطيف بيانه التاريخى فى مايو ١٩٢٢ باسم مطالب الأمه السودانية فاحدث هزة ضخمه فى البلاد واستجاب له المواطنون . وألقى القبض عليه وزج فى السجن بتهمة الخروج على قوانين البلاد واحداث شغب عام

وعندما خرج من السجن (أبريل ١٩٢٣) كان أشد حماسة من ذى قبل ولم يلبث بعد قليل ان أصبح رمز اليقظة السودانية ورسولها الأول .

وعند ما ألف جماعة اللواء الأبيض فى (مايو ١٩٢٤) تجددت المقاومة والتف حول الحركة أهل السودان جميعا . وقد قبضت الادارة البريطانية على أعضاء الجميه وقدمتهم للمحاكمة (يوليو ١٩٢٤) بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم وحكم على (على عبد اللطيف) بالسجن ٣ سنوات وعلى ملاسى ست سنوات .

---

(١) ابراهيم العدوى (د) يقظة السودان .

ونقلوا إلى سجن كوبر مع المجرمين وبقى به حتى صرعه الانجليز سنة ١٩٢٤ ولم تتوقف حركة المقاومة وان اخذت طابعا جديدا يتمثل فى الطليعة المثقفة من خريجى المدارس السودانية والمصرية التى تشبعت بتعاليم على عبد اللطيف . وقد تجمعت هذه الصفوة فى صيف ١٩٣٧ وعقدت ما اطلق عليه مؤتمر الخريجين الذى حمل أمانة التحرر السياسى والذى طالب عام ١٩٤٢ بحق السودان فى تقرير مصيره وظل يعمل حتى تحقق توقيع اتفاق السودان (١٢ فبراير ١٩٥٣)

٢ — معالم الثقافة السودانية

تتمثل فى معالم الثقافة السودانية العربية الحديثة روابط مصر والسودان ، هذه الروابط التى امتدت أولا بعيدة فى التاريخ ولكنها حملت طابعا إيجابيا فى خلال القرن التاسع عشر ، فقد ارتبطت السودان ثقافيا بالأزهر وكان لها من مساجدها وخلواتها مراكز للثقافة واليقظة الفكرية فى الخرطوم وسنار والتاكه قوامها كفاح فقهاء الحلاوى والزوايا فى سائر أنحاء السودان وفى مقدمتهم مصطفى زاوير بربر وخلف الله ومحمد نوم وقد كان للسودانيين رواق خاص فى الأزهر عرف برواق السناريه .

وقامت مصر بترجمة الكتب الأوربية التى تتصل بالسودان وأهله والتى تبين مكانته فى قارة افريقيا . ثم عمدت إلى إرسال هذه الكتب إلى السودانيين وقد ساهم فى هذه الحركة العلمية رفاعه الطهطاوى الذى عرف باسلوبه الواضح وقد ترجم كتاب الرحالة « سبيك » الذى ضم مباحث هامة عن حياة الأقاليم السودانية من منبع النيل إلى مصبه كما ترجم رحلة محمد عمر التونسى إلى دار فور وإلى الحبشة وقد أحب رفاعه السودانيين بعد أن أقام بينهم حقبة من الزمن .

وقد صور رفاعه معالم الفكر العربى فى السودان فى مقدمة كتابه مناهج الالباب المصرية فقال « ان للسودانيين استعدادا للتمدن الحقيقى لدقة اذهانهم ، فان أكثرهم قبائل عربية لاسيا الجمليين والشايقية وغيرهم ولهم

مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم حتى أن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد الأجنبية المجاورة العدد الكبير من الطلبة » .

وقد اقتصر التعليم فى السودان على كلية غردون التى وضع الاستعمار لها برامج لاتعد الا انصاف معلمين[١] وتغلب اللغة الانجليزية كجزء من الخطة التى تهدف إلى القضاء على اللغة العربية وتغليب لسان المحتل .

وقد استطاع السودانيون مقاومة تيار التغريب والتجزئة معا وعاشوا اكثر من ثلاثين سنة فى محافظة على شخصيتهم العربية فى ظل ماضيهم العربى الاسلامى « ولكن بازياد الشعور الوطنى وتعاون عوامل شتى ، أدرك السودانيون وجوب اتحادهم بجميع سلالاتهم وقبائلهم فى مقاومة الاستعمار ومدافعته وتنبهوا إلى مكائده فى الدس والوقيعه والتفريق بين ابناء الشعب الواحد[٢] ... »

وكانت المسئولية مزدوجة : فالسودان جزء لايتجزأ من الوحدة العربية تجمعه بسائر الشعوب العربية وشائج حيوية وثيقة . وتجمعه بالشعوب الافريقية روابط وصلات توجب معاونتها فى انتفاضاتها ضد سيطرة المستعمرين الاوربيين وهكذا تآلف المنصران العربى والافريقى فى وحدة كاملة ستؤدى بعد طرد جيوش الاستعمار إلى مزيد من الثقة

وقد وصل السودانيون بعد مواجهة صراع طويل إلى حقيقة تقول[٣] إن جميع العناصر البشرية قد صارت إلى درجة من الاختلاط والتمازج يستحيل معها الاحتفاظ بفكرة البقاء المنصرى . وأدركو أن كينونتهم السودانية مكونة من الامتزاج ، والاتحاديين عنصرين كلاهما شطر جوهرى فى هذه الكينونة التى

---

(١) يقظ السودان — ابراهيم العدوى — ١٩٥٦ .
(٢) الاتجاهات فى الشعر السودانى — محمد النويهى .
(٣) نفس المصدر .

لاقيام لها بدونه » وقد تجلى ذلك فى مقالاتهم وأناشيدهم الوطنية، فقد استوحى الأدباء «السودان العريض» كله صحاريه فى السودان ، وأدغاله فى الجنوب ، ومزارعة فى الشرق ، وسهوله فى الغرب ، وجميع سلالاته وقبائله ومدنه وقراه .

ولكى نستعرض الحركة الفكرية فى السودان علينا ان نراجع بعض ماقاله المؤرخون والنقاد حول تطور الأدب السودانى العربى :

١ — يقول عثمان عيسى شاهين[١] : استطاع عرب بنى امية تحت ضغط العباسيين فى القرن الثامن العبور إلى بلاد النوبة عن طريق البحر الأحمر وهيأوا لأنفسهم موطنا قريبا من « سنار » التى تقع على النيل الأزرق . ولذلك اتجهت الحياة الفكرية فى السودان اتجاها عربيا فى أسلوبها وموضوعاتها وتفكيرها . ذلك لأن طبيعة البداوة التى انحدرت من دماء النازحين الينا مافتئت توجه الشعور فى طريقة الاداء .

ولذلك عالج الشعراء موضوعات الحماسة والفخر والاباء والحب والرثاء وافتتحوا قصائدهم بالغزل والاعتداد بالنفس . وهم يؤمنون فى السودان بأن العربية الفصحى يجب ان يكون لها المقام الأسمى فى التعبير .

وقد قرأ أدباء السودان جبران ونعيمة والريحانى واعجبوا بالزهاوى إلى حد بعيد وكتبوا المقالة والقصة والبحث والمسرحية وعكفوا على أدب التراجم .

وقد تأثرت الذهنية السودانية فى انتاجها بكثير من العوامل منها الينبوع العربى الفياض ومنها الاسلامى الذى درس القرآن والحديث والسيرة والفقه »

٢ — ويقول الشيخ عبدالله البنا عميد الشعر العربى السودانى : ما زال

---

(١) الرسالة : الأدب فى السودان — ١٩٤٤ .

الشعر فى السودان هو التعبير الأول وما زالت له مكانته وتأثيره على النفوس . وذلك لأن النثر لم يتطور بعد فى فنونه التطور الناضج . والثانى أن السودان ظل ينظر إلى علاقته بمصر — وهى علاقة تاريخية وطبيعية — نظره إلى إحدى مقدساته ومقوماته . وقد ساهم الشعر السودانى فى كل الاحداث العربية منذ وُجد وهو اليوم يدعم مواقفه وتعبيراته القومية العربية فى موكب الفكر العربى الصاعد مع شعراء العرب اجمعين .

ويقول حيدر موسى[١] ان أدب السودان يسير وراء الأدب المصرى ويتبعه خطوه خطوه نظراً للجوار ولتشابه الاخلاق والعادات وغير ذلك من الاوصاف التى فرغ رجال التاريخ من سردها . ولكنا سرنا ببطء وبخطوات متزنه لاننا نخشى الكبوة . وصحف القاهرة مقروءة لدى كل الطبقات في المدن الكبرى والقرى .

والشباب السودانى متطلع دائما إلى العليا وقد خصص جهده ووقته للالمام بمختلف الآداب والفنون .

والقصة السودانية قد صار لها شأن فى عالم التمثيل السودانى وقد كادت تكتسح كل الروايات غير الوطنية ومنها : مصرع تاجوج ومحلق ، ضراب سوبا وفتاه المستقبل ، البتول . ويوجد شعراء وكتاب وادباء يملكون كتبا ودواوين شعرية وهم حائرون لا يعرفون كيف يخرجون هذه الآثار الأدبية »

ويقول سعد الدين فوزى[٢] أنه توجد مدرستان فى الأدب : قدماء ومحدثون

---

(١) الرساله : الحركة الفكرية فى السودان — ١٩٢٦ .

(٢) مقال الحياة الأدبيه فى السودان — سعد الدين فوزى : مجلة الرسالة ١٩٤٤ .

المدرسة الأولى نهلت من الأدب القديم ورشفت من العباسيين وعاصرت شوقى وحافظ ومن هذه المدرسة عبد الله عمر البنا ، واحمد صالح وصالح عبد القادر

المدرسة الثانية : تأثرت بالأدب المصرى الحديث ثم تشربت روح الآداب العربية واهتزت لشعر أدباء المهجر ومن هذه المدرسة : التيجانى يوسف بشير ، محمد عثمان محجوب ، المرضى محمد خير ، يوسف التنى .

٤ — يقول العماد الكاتب : تأثر السودان بكل تطور فكرى فى مصر وبكل ما احتضنته مصر من ثقافات وحضارات وديانات بعد الفتح الاسلامى منذ ان اقتحم هذا الاقليم من الشمال القائد العربى عبدالله بن ابى السرح ٨٤٢ م

وقد رأى ابناء الجيل الجديد ممن تمخضت عنهم ثورة ١٩٢٤ حاجتهم الملحة إلى زيادة معلوماتهم فكانت أول خطوة خطوها ان أقبلوا على قراءة جل ما تخرجه المطابع المصرية . والأدب المصرى وإن كان عربى الثوب إلا أنه نتاج ثقافات غربية متنوعه فانت تلمس اثر المدرسة الانجليزية فى كتابات العقاد والمازنى كما تلمس اثر المدرسة الفرنسية فى كتابات طه حسين وهيكل وزكى مبارك .

وعندما فرض الستار الحديدى بعد حوادث ٢٤ وجد الانجليز فرصتهم لتوجيه الشباب نحو نتاج المطابع الانجليزية واخذوا يدفعونه دفعا للحديث عن الاستقلال وتقرير المصير بعيدا عن مصر . وقيل أن أنصار مجلة الفجر هم الذى احتضنهم الانجليز .

وقطع الكثيرون منها شوطا بعيدا فى هذا المضمار ، وتأثروا بالأفكار الغربية والتخيلات الغربية واخذوا يسمعوننا صدى ذلك الأثر فى قصائدهم وكتاباتهم ووجدت مملكة النقد الفاحصة الباحثة . وقد تأثر الادباء السودانيين بالاسلوب المصرى فى نتاجهم كله .

(١) عن كتاب « الحركة الفكرية فى السودان — إلى أين تتجه ؟ » .

من جملة هذه النقاط التى جمعتها دراسات الكتاب عن الأدب العربى السودانى يتخلى مظهر واحدهو عمق الروابط الثقافية بين مصر والسودان ، ويتأكد أن ابرز معالم الفكر العربى السودانى هو الوحدة العربية الشاملة : وحدة الدين واللغة والمصالح المشتركة والمقاومة لكل اسباب الاستبداد والاحتلال .

هذه الصورة التى تتجلى فى اشتراك « يحيى السلاوى السودانى » فى الثورة العرابية . فأنه لما ثار العرابيون بمصر عام ١٨٨١ قام من الخرطوم الى دنقلا وطلب ترحيله إلى مصر فرحل ، ثم اندمج فى الثورة وطلب منه أن ينظم قصيدة تطبع فى مصر فنظم البائية المشهورة من ٩٩ بيتا طبعت بماء الذهب وبيعت النسخة منها فى القاهرة بجنيه ذهبا وقد استهلها بقوله :

شغل العدى بتشتت الاحزاب ... والله ناصرنا بسيف عرابى
والقطر فيه من الرجال كفاءة ... للحادثات فهم أولو الألباب

وهو فى موقفه هذا أشبه بعبدالله نديم . ويؤمن السودان بمجد اللغة العربية ، يقول الاستاذ البناء فى قصيدة طويلة منها :

أم اللغات رعاك الله يانعة ... فى مصر دائبة بالعلم سقياك
سقا الحياء نفرا من مصر قد وهبوا ... لك الحياة وحياهم محياك
وباكر المزن قبر اليازجى ومن ... بالشام نضر بالسقيا محياك
فالشام مصر ومصر الشام انهما ... على محاربة الايام حذراك

وقد قسم « العباد الكاتب » أجيال الفكر العربى السودانى فى العصر الحديث إلى ثلاثة أجيال :

الجيل الذى عاصر العهد المصرى الخالص قوامه « الثقافة العربية الاسلامية

الخالصة » . وكان هناك ادب قومى فى فتره المهدية على السنة العامة فى دراسة الروح السودانية وخصائص تفكيرها .

٢ – الجيل الثانى : مكون من خريجو الأزهر دار العلوم ، وقد اتصلت بالثقافة الأوربية عن طريق الكتب والمقالات المترجمة ومنها حسن شريف (رئيس تحرير حصارة السودان) محمد عبد الرحيم ، واحمد عثمان القاضى مؤلف (أعراس ومآتم) . ومحى الدين جمال ، ومحمد عبدالله العمرابى ، واحمد يوسف هاشم وعبد الله عمر البنا ، وابو بكر عليم واحمد صالح ومحمد سعيد العباسى وحسين منصور . وهذا الجيل من الكتاب مع اعجابه بالبارودى وشوقى وحافظ والرافعى والزيات ومحاولتهم تأثر خطواتهم إلا أنهم فى الوقت نفسه يستقون مع النبع القديم الأصيل .

الجيل الثالث : وسواده من خريجى كلية غردون التذكارية عندما انحطت الدراسة بها وطغت عليها الثقافة الانجليزية بعد مغادرة الاساتذة المصريين للسودان عقب عام ١٩٢٤ : هذا الجيل يسمى نفسه (جيل ما بعد عام ١٩٢٤) ومثلهم الأعلى فى الأدب الأوربى مع ضعف ظاهر فى اسلوبهم لنقص ثقافتهم العربية يتجهون وجهة انفصالية متحدية ويؤمنون بعدم الفناء فى الذاتية المصرية» ا.هـ

٣ – الشعر السودانى[1]

الشعب السودانى ذو شاعرية خصبة وقد سار شعره فى التيار التقليدى فترة ، تناول

---

(١) رجعنا فى كتابه هذا الفصل إلى كتابين : ١ – الاتجاهات الشعرية فى السودان لمحمد النويهى . ٢ – تاريخ الثقافة العربية فى السودان لعبد المجيد عابدين .

خلالها الفنون القديمة كالوقوف على الطلول والنسيب والغزل التقليدى كما تناول أحداث السياسة والمجتمع والآمال الوطنية والالام — وهى موضوعات جديدة — بنفس الأدوات التقليدية . وهناك عوامل واضحة فى الشعر السودانى العربى من أهمها :

١ — «العامل الدينى» هو منبع الادب الفصيح ويتمثل فى المدائح النبوية والأشعار التقليدية والأناشيد الصوفية وقد ظل هذا الاتجاه مستمراً فى الأجيال الثلاثة حتى بلغ مبلغه فى التيجانى يوسف بشير الذى وصف بأنه المجدد الأول فى الشعر السودانى ، وفى جيلى عبدالرحمن وتاج السر وهما من ابناء المدرسة الواقعية الاشتراكية .

٢ — « كراهية الاستعمار الغربى» . الذى ترك فى السودان آثاره البارزة فى استشهاد عشرات الألوف من المجاهدين الذين وقفوا فى وجهه . ولذلك فقد توجسوا من علومه ونفروا من حضارته ، وزهدوا فى منابعه ورأوها ضربا من الخيانة الوطنية مما زاد تشبثهم بمعالم الفكر العربى والإسلامى .

٣ — « استمرار المقاومة وبروز العامل الوطنى » الذى التقت فيه وتفاعلت الاجناس السودانية وتفاعلت وانصهرت، وقد عمل السودانيون إلى بذل جهدهم للاحتفاظ « بعزة نفوسهم ومداواة كرامتهم المجروحة فلم يجدوا هذا إلا فى التشبث بعروبتهم من ناحية والتمسك بالدين الإسلامى من ناحية أخرى »

وقد تأثر الشعر السودانى بالثورة المهدية على أنها حركة مقاومة للاستعمار وكان أبرز شعراء الثورة المهدية « عمرالبناء » . كان شاعراً بليغاً قوى الديباجة رصين العبارة ومن قوله

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت فى شأن الأله حيـاة

وتبرز الشخصية السودانية العربية واضحة فى « طبيعتها الصحراوية العسرة الشاقة المعزولة المحصنة بقسوتها وشظفها من أطماع الفاتحين . وقد ربت فيهم الجلد والبأس والأحتمال » ويرى عبد الحميد عابدين «ان الشعر التقليدى فى السودان بدأ تركيا مملوكيا حينا وعثمانيا حينا آخر على أيدى شعراء الأتراك والمهدية . وقد ظلت مصر والحجاز من أهم منابع الأدب السودانى فى القرن التاسع عشر . تظهر آثاره العصر التركى فى الميل إلى أسلوب المحسنات والتلاعب اللفظى . ويبدو الأثر الدينى قويا فى هذا الشعر السودانى ويتجلى فى المدائح النبوية وشعر المدح والغزل والشكوى كما كان الحزن والتبرم بالحياه والشكوى ، والأوضاع ظاهرة غالية فى الشعر السودانى وذلك إلى جوار تقدير البطولة والإعجاب بأبطال الحروب »

ومن شعراء هذه الفتره حسن الزهراء وعبد الله ابو المعالى ومحمد احمد هاشم وعمر الازهرى ومحمد عمر البنا ، وعبد الغنى السلاوى ومحمد طاهر المجذوب .

ويمزح الشعر السودانى بين فلسفتى الدين والجمال ومرجع هذا إلى غلبة الروح الصوفية وقد كان للشعر الغربى أثره فى توجيه الشعر السودانى إلى الواقع والمجتمع والتطور الاقتصادى والاجتماعى :

وقد ظهرت مسرحيات وطنية شعرية حملت صورة الأدب القومى ، منها رواية تاجوج وفتاة البادية والملك نمر

٤ — النثر السودانى[1]

أما النثر فقد كان ميدانه واسعا رحبا وفيه تتمثل معالم الفكر العربى المعاصر

---

(١) من مراجع هذا الفصل : ١ — تاريخ الثقافى الدينى فى السودان — عبدالحميد عابدين ١٩٥٣ . ٢ — محمد النويهى — الاتجاهات الشعرية فى السودان .

على صوره أعمق وأوضح . ولعل أبرز قضايا الفكر السودانى العربى هو الصراع بين الثقافة العربية والثقافة الغربية . فقد بدأ المثقفون فى الربع الثانى من القرن العشرين فى الالتفات إلى الثقافة الغربية وأخذوا يتأثرون بها ومع ذلك فهم لم يتنكروا لروابطهم بالماضى العربى فى محيط القومية العربية .

ويتمثل الاتجاه الحديث فى موجة الوعى القومى والثقافة الغربية التى من أهم مصادرها كلية غردون . وقد بقى السودان حتى عام ١٩١٩ بمعزل عن العالم الخارجى ولكن الثوره المصرية لم تلبث ان هزت كيانه وتفتحت أذهان شبابه على قصص البطولة والتضحية .

وتحول الاتجاه القبلى والدينى إلى اتجاه سياسى . وقال «محمد محجوب» وهو من أوائل خريجى كلية غردون « إن تراث الانسانية الفكرى تراث مشترك ولا تعرف دنيا الفكر والتنافر والدسائس التى تسود عالم السياسة والاقتصاد

ولم تلبث الأفكار الجديده فى الأدب والدين والاجتماع إن أحدثت فى نفوس الكثيرين بلبله وترددا زعزع من بعض الاراء والعادات والمثل السودانية ومن هنا قامت دعوات للاصلاح الدينى والاجتماعى (اسماعيل العتبانى — ١٩٣٣) تحاول أن ترد الناس إلى التسرع فى أعتناق الجديد قبل أن يدرسوه أو التعصب للقديم قبل أن يصغوا إلى حجة المعارض .

وواجهت الحركة الفكرية فى السودان ما واجهت كل بيئة من صراع بين الجديد والقديم وما من داع يدعو إلى جديد إلا « قامت فى وجهه عاصفة هوجاء ترميه بالألحاد تاره وبالخروج عن حدود الدين طوراً »

وبدأ الحديث عن مشاكل المرأه وتعليمها ووظيفة المرأه فى المجتمع وعاداتها

وظهرت صفوه من مفكرى السودان : عرفات ومحجوب ومحمد عشرى وعبد الله عشرى يتحدثون عن الحق والخير والجمال

وقد صور المؤرخ السودانى محمد عبدالرحيم فى كتابه « نفثات اليراع » اتجاه الفكر فى هذه الفترة فقال « أن يكون للسودان أدب خاص يحمل طابع شمسه المشرقة وطفراء بدره الوضىء ، ويخص بعنايته الحياة السودانيه وحدها منحنيا عليها يصفيها ويحللها ويصدر عنها مؤثرا بها متأثرا معها ثم ينكمش على النفس السودانية يوسعها درساً وتمحيصا فينقدها ويمتحنها متحينا بها أسباب الرقى والكمال . مستخرجا من مبادئها غاياتها ، ومن يومها غدها ، ومن أحلامها حقائقها دافعا بها حافزا لها مسيطرا عليها نازلا منها منزلة العقيدة من نفوس المؤمنين يحوطونها بالرعاية ويذودون عنها بالنفس . . »

* * *

ويرى بعض الباحثين أن ثوره ١٩٢٤ فى السودان تعد علامة من علامات الطريق نحو الوعى العربى القومى الصحيح ، وقدقامت دعوه «السودان للسودانيين» فى جريده حضاره السودان ١٩٣٠ وقد تشكك الكثيرون فى سلامتها من الأغراض والأهواء ، واعتقد البعض أن هذه الدعوه بمثابة معول يحمل على تحطيم وحده وادى النيل . وقام سجال عن اتجاه الثقافة ١٩٣٥ بين حسن صبحى الصحفى المصرى فى السودان ومحمد احمد محجوب كان من رأى الأول توحيد الثقافتين المصرية والسودانية باسم الثقافة النيلية ، أما محجوب فكان ينادى بوحده الثقافة السودانية ووجوب فصلها عن الثقافة المصرية وكان مجال السجال مجلة الفجر ، وقد ظل هذا الصراع قائما وقتا غير طويل . وانتقل إلى صوره أخرى عندما قال بعض المفكرين أن الاستعمار استغل الحضاره الغربية فى بسط سيادته عليهم .

وقد ارتبط السودان بالعالم العربى منذ فجر اليقظة الفكرية . وكانت رابطته بالقاهرة قوية ضخمة ، كما هاجر بعض السودانيين إلى مصر وكان اساتذه كلية غردون فى أيامها الأولى من سوريه وفى مقدمتهم فؤاد الخطيب الكاتب الشاعر الذى تأثر به أدباء السودان وسافرت بعثات سوذانية إلى بيروت وعادت ١٩٢٨ ومن بين أبنائها من كان لهم أثر غير قليل فى الفكر العربى السودانى أمثال معاوية نور ، كما اتصل السودان بالادباء فى الشام والمهجر الامريكى وجرت مكاتبات بين ابوالقاسم الشابى شاعر تونس وبعض ادباء السودان .

ويقول الأديب السودانى «عرفات محمد عبدالله» أن الرابطة بين قطرين شقيقين شريكين فى السراء والضراء مرتبطين برباط مثلث : من اللغة والدين والجوار لن يزيده الزمان إلا قوه مهما جهل ابناؤهما أو بعض ابنائهما حقيقة ذلك ومداه .

واتهم المقلدون المجددون بانهم «اشربوا حب الاعاجم وسحرتهم حضاره الغرب فخضعوا لسلطانها خضوعا أغفلهم عن عروبتهم واسلامهم وأن الغربيين يبيتون النية ضد اللغة العربية ويتآمرون عليها باسم التجديد ويحقدون على الثقافة العربية ويحتقرونها» .

وقد انكر دعاه التجديد هذه التهمة وقالوا انهم وطنيون مخلصوا الوطنية يريدون للسودان التحرر والكرامة والرقى ويهدفون إلى أن يكتسب سماحة فى النظره وسعة فى الأفق الفكرى .

وقد كانت حجه المجددين أن طريق التفوق على الغرب إنما يكون عن طريق الثقافة والفكر والعلم وذلك بتوسيع ثقافتهم واكسابها عمقا ودقة . وأن النهضة الأدبية وسيلة إلى نهضة وطنية شاملة تحقق للسودان تحرره واستقلاله السياسى والاجتماعى والفكرى .

كما اتجه الأدب السودانى الى الترجمة باعتبارها سلما إلى التطور الأدبى وأعجب أبناء المدرسة الحديثة عشرى صديق وعرفات محمد عبد الله ومحجوب براود النهضة الأدبية فى مصر هيكل وطه حسين والعقاد . ودرس عشرى شعر المازنى ونجح فى تعريف السودانيين ببعض آثار الغرب المدنية .

ويتميز أسلوبه بالفكاهة فى ضرب الأمثال . ويقرر فى بعض مقالاته أن التاريخ أقرب إلى الأدب ، وقد كان عميق الاطلاع على الآثار الانجليزية والفلسفات التجريبية والنظرية .

٥ — محاولات الادب القومى

ولعل أبرز قضية فكرية ظهرت فى الثلاثينات من القرن العشرين فى محيط تطور الفكرى العربى السودانى : هى قضية «سودنة الأدب» التى حمل لواءها محمد محجوب وهى فى مظهرها تحمل الدعوة إلى ابراز الطابع السودانى والثقافة الشعبية والأدب الدارج ، وانتاج أدب قومى صادق يعتمد على مقومات الحياة السودانية ويرتكز على تجارب السودانيين الخاصة فى الحياة تكون مادته مما يلاحظونه فى غدوهم ورواحهم . وقد قامت هذه الدعوة إلى القومية السودانية فى نفس الوقت الذى كان هيكل وعبد الله عنان وغيرهم يحملون لواء الدعوة إلى خلق الأدب المصرى القومى (أعوام ١٩٣٠ وما بعدها) باسم الفرعونية وغيرها وهى نفس الدعوة التى سادت العالم العربى كله .

وقد وصف أدباء السودان هذه الدعوة بأنها : تهدف إلى ايجاد ثقافة سودانية تؤلف بين جميع العناصر وتربطها برباط القومية الموحدة ثم تنقلب فيما بعد من حركة أدبية إلى حركة سياسية هدفها استقلال السودان السياسى والاجتماعى والفكرى .

ويتلخص رأى محجوب بأن هناك فوارق ظاهرة بين طبيعة الإقليم والأخلاق

والطبائع بين مصر والسودان . وانه ليس هنـاك ثقافة مصرية حتى يدمج السودانيون فيها ثقافتهم ، ثم يرى أن ثقافات الشرق يجب أن تتعدد بتعدد البيئات وان كان يربط بين أممه رباط الدين واللغة وفى تعددها دليل الحياة المنتعشة السارية فى أممه .

ودعا محجوب إلى : بث الشعور القومى وذلك بتلقين الأطفال بطولة عثمان دقنه وعبد الله ولد سعد وعبدالرحمن النجومى ومحمد احمد المهدى .

وقد رد عبد القادر حمزه صاحب البلاغ فى مصر على هذه الدعوة بمقال جاء فيه « يجب ألا يفكر أحدنا أو أحد السودانيين فى فصل الأدبين واستقلال الواحد عن الآخر فهو الوسيلة الوحيدة التى بقيت لنا اليوم واسطة فى اتحاد القلوب وتقارب النفوس وتكاتف الجميع وتآزرهم .

وقد واصل محجوب — الذى يمتاز بتعمقه فى الثقافة الانجليزية — الدعوة إلى قومية الثقافة السودانية على أسس علمية من الدراسة الموضوعية والتحليل التاريخى فاكد « الكينونة المتميزة » التى لشعب السودان فقال :

« انه وإن كانت الطبيعة البشرية يندر أن تختلف كثيرا إلا ان اختلاف الزمان والمكان والبيئات قمين بان يعطى كل أمة طابعا خاصا يميزها عن بقية الأمم فى مناحى تفكيرها واتجاهاتها وبالتالى فى انتاجها المادى والفكرى .

والسودان ككل بلاد الله له ماضيه البعيدوالقريب وله حاضره كما له مستقبله وسودان اليوم تراث أجيال متعاقبة من الوراثة والاختلاط والتفاعل كما أن سودان المستقبل سيتأثر بمخلفات ذلك الماضى وتراث الحاضر .

وسكان هذه البلاد الأصليون هم السود أو الزنوج . ولكن السودان من قديم الزمان كان قبلة كثير من الشعوب التى هاجرت اليه من عرب الحجاز واليمن

وسكان آسيا ومن الأمم المجاورة كالحبشة ومصر وبربر وبلاد المغرب، وقد اختلطوا باهله بعض الاختلاط وامتزجوا بهم إلى حد ما »

وأكد أن دعوة القومية السودانية لا تنكر العنصر العربي والأثر الاسلامى فقال « انه لزاما علينا ألا نغفل هذا الأثر ونحن نحاول توجيه الحركة الفكرية فى هذه البلاد ، وانى لأقرر فى تأكد زائد أن أثر الدين الاسلامى والثقافة العربية سيظل ملازما لحركتنا الفكرية ما بقت هذه البلاد وما قامت فيها ثقافة وحركة فكرية .

وقد عقد المجددون فصول مختلفة فى مجلة حضارة السودان (١٩٢٧ إلى ١٩٣٠) والنهضة السودانية (١٩٣١ إلى ١٩٣٣) ومجلة الفجر (١٩٣٤ إلى ١٩٣٥) بينوا فيها أهمية الثقافة الغربية وحتمية التأثر بها ، وعلل ذلك بأن المدارس التى فتحت بعد الاتفاقية الثنائية فى عام ١٨٩٨ غلبت عليها الثقافة الانجليزية وخاصة فى القسم الثانوى والأقسام العليا وساعدت المطبعة الانجليزية وكثرة انتاجها فى شتى الفنون والعلوم على تعميق هذا الاتجاه .

وجاء فى هذه الفصول : أن الجيل الجديد من أبناء هذه البلاد وخاصة من تمخضت عنهم ثورة ١٩٢٤ رأوا حاجتهم الملحة إلى زيادة معلوماتهم فكانوا ان اقبلوا على قراءه جل ماتخرجه المطبعة المصرية والأدب المصرى وإن كان عربى الثوب إلا أنه نتاج ثقافات غربية متنوعة .

وقال محجوب واخوانه :انه لاعجب أن تتخذ الثقافة الغربية سبيلها إلى بلادنا فحياه الشرق والغرب أخذت فى التقارب والتحاكك من قديم الزمان ولا تزال آخذه فى التقرب إلى يومنا هذا .

وذلك لأن تراث الانسانية الفكرى تراث مشترك ولا تعرف دنيا الفكر الحر مايسود عالم السياسة والاقتصاد من دسائس .

وقالوا : لقد تأثرت هذه البلاد بالثقافة الغربية والأنجليزية منها بوجه خاص كما تأثرت بالثقافة العربية والمصرية منها بوجه خاص ؛ ولكن لهذه البلاد طبيعتها وجوها وظروفها الخاصة التى لابد أن تؤثر على الحركة الفكرية فيها وتوجهها نحو المرمى الذى يريده لها المخلصون .

وسجل محجوب خلاصة رأيه فى قوله « المثل الأعلى للحركة الفكرية فى هذه البلاد أن تكون حركة فكرية تخدم شعائر الدين الإسلامى الحنيف وتعمل على هداه وأن تكون عربية المظهر فى لغتها وذوقها مستلهمة فى كل ذلك تاريخ هذه البلاد الخاص والحاضر مستعينة بطبيعتها وعادات وتقاليد واخلاق أهلها متسامية بكل ذلك نحو إيجاد أدب قومى صحيح .

وقال :ان علينا أن نتقدم نحو بلادنا ندرس تاريخها ونجوب انحائها ، لنتعرف شعابها المختلفة . ونقف عند مواطن الحسن فيها ونتقرب من شعبنا نعرف عاداته وتقاليده واريحيته وحبه للخير فنصور كل ذلك فى أدبنا تصويرا صحيحا . ونفصح عن آمالنا وآلامنا ونوحد أغراضنا ونهيب بقومنا إلى النهوض من عثرتهم لايجاد أدب قومى .

وقال : ان مثلنا الأعلى هو الحفاظ على ديننا والتمسك بتراثنا العربى مع تسامح شامل . وأفق فكرى واسع · وطموح يجعلنا نقبل على دراسة الثقافات الأخرى ، كل ذلك لنحيى به أدبنا القومى ونثير شعورنا بوطننا لنصل إلى حركة سياسية لن ينكرها علينا أحد لأن طبيعة الأحياء توجبها والمرمى الذى تسير نحوه هو استقلالنا سياسيا واجتماعيا وفكريا ·

وقدسجل محمد النويهى فى كتابه (الاتجاهات الشعريهفى السودان) ان أول من دعاهذه الدعوة إلى إبرازالطابع السودانى هو« حمزه الملك طنبل »الذى كتب مقالاتة فى مجلة النهضة ١٩٢٧ ثم جمعها فى كتب بعنوان « الأدب السودانى وما يجب أن يكون عليه » ١٩٢٨

« وقد تأثر طنبل بدراسته للنقاد المصريين المعاصرين واستفاد منهم كثيرا . وهو يطبق المقاييس النقدية التى تعلمها منهم على الأدب السودانى تطبيقا يدل على أنه فهمها ووعاها فيستخرج منها نتائج قيمة وبعض أحكامه تدل على ذوق أدبى أصيل .

وقد حمل حملة قوية على شعراء السودان لتقليدهم صور الشعر العربى القديم تقليدا أعمى ، وهاجم افتتاح القصائد بالغزل ووصف الناقة ، ودعا إلى العناية بالمضمون وطالب بالأهتمام بالمبنى لا بالمعنى ودعا أدباء السودان إلى الصدق والأخلاص » ، ثم جاء من بعده « محمد احمد محجوب » الذى حمل لواء الدعوة بصورة أوسع وأشد عمقا وقد أعد بحثا توجيهيا أهداه إلى المهرجان الأدبى بأم درمان عام ١٩٤١ عنوانه الحركة الفكرية فى السودان . « إلى اين يجب أن نتجه »

وقد عارض عبد الله عشرى وهو أحد المجددين (مثالية) محجوب وكان أميل إلى الواقع ، وأقرب إلى الاتجاه العلمى وقد وجد هذا الاتجاه الجديد مقاومة بالغة — كما سبق ان ذكرنا — مما دفع المدرسة القديمة إلى العمل . وقد وصف محمد النويهى هذا الصراع بقوله : أن كلا المدرستين قد لعبت دورها . فأولاها أثارت فى النفس السودانية روح العزة والاباء وقوت من عزمها واصرارها على رفض الخضوع والاذعان للمستعمر برغم قواته المتفوقة وقدمت الاساس الثقافى الذى

ارتفعت عليه النهضة فى التراث العربى الاسلامى وثانيهما نمت الوعى القومى السودنى الصميم ووسعت دائرته حتى شمل جميع أقاليم السودان ، وقدمت للسودان الاسلحة الجدلية العصرية التى كان لازما أن يتسلحوا بها فى معركتهم السياسية والفكرية مع المستعمر وازالت مركب النقص » .

٦ — الصحافة وأثرها الثقافى

أسهم الأدب العربى السودانى فى جميع أوجه النشاط الفكرى ومختلف ألوان الأدب : من قصصه واقصوصه ونقد وتراجم ونثر وشعر وترجمة.

واسهمت الصحافة فى النهضة فكانت مرآتها الحقيقية ومركز للمساجلات والمراجعات التى تمخضت عنها الحركة الفكرية .

وقدعرف السودان الصحافة العربية منذمطلع القرن وكانت أول صحيفة هى جريدة السودان — ١٩٠٣ وأول مجلة سودانية ادبية هى « النهضة » أصدرها محمد عباس ابو الريش ١٩٣١ ثم ظهرت مجلة الفجر (١٩٣٤) أصدرها عرفات محمد عبدالله . وجريدة النيل ١٩٣٥ أصدرها حسن صبحى الصحفى المصرى واحمد يوسف هاشم . ومرآة السودان (سليمان كشه) وجريدة السودان ١٩٣٤ وصوت السودان ١٩٤٠ وكلها صحف سياسية ولكنها شاركت فى الحركة الفكرية: ذلك ان اغلب كتاب السودان ومفكريه عملوا فى السياسة من بعد .

ويقول النويهى : ان الاتجاه الواقعى ظهر فى النثر قبل الشعر : وان النثر السودانى فى اوائل هذا القرن كان فنا مصطنعا يغص بالمسحنات البديعية من سجع وتورية وجناس . ثم أخذ يتحرر بقيام الاسلوب الصحفى الحديث الذى يعتمد على سرد الوقائع . وقد بدأ ركيكا ثم أخذ يقوى ، ثم ظهرت المقالة الاجتماعية التى تحلل أوضاع المجتمع السودانى وتنقد عيوبه » .

وقد وصف أبناء المدرسة الحديثة الأدب الذى يتطلمون إليه بأنه يجب أن يكون أدبا يصف الحياة مباشرة وهو ، إما وصف أو قصة . وأدبا يصف نفسه وهو النقد .

وكان كل من مجلتى النهضة والفجر يزخر بالمقالات النقدية فى حين كانت المقالات الوصفية قليلة .

فى عام ١٩٣٠ بدأت الاقصوصة السودانية تظهر على صفحات مجلة النهضة السودانية ثم مجلة الفجر . وقد وصفت بأنها كانت فى أول أمرها مسرفة العاطفة تصور أحلام اليقظه بعيدة عن طبيعة المجتمع السودانى . ثم أخذت تظهر القصة الاجتماعية ودارت حول مشاكل الخطوبة والزواج والطلاق .

وفى هذه الفترة كتب عثمان محمد هاشم قصة « تاجوج » باللغة الفصحى . وقد ولد هاشم فى بربر ١٨٩٨ ، وقد استقى نواة فنه من قصص معروفة متداولة بين قبائل الهدندوة والحمران باللغة الدراجة وهى قصص « الحب الممتزج بالبطولة » فهى نموزج لاتجاه الأدب الشعبى البطولى . وقد عد نقلها إلى اللغة الفصحى محاولة ناجحة فى احياء هذا الاتجاه القومى القديم فى ثوب فصيح .

٣ — أما النقد فقد ظهر باكراً فى حوالى عام ١٩٢٧ عندما كتب (حمزة الملك طنبل) فى جريدة الحضارة السودانية يدعو الكتاب إلى أن يظهروا أمام القراء بمظهر لائق . وقد كانت فكرة النقد على صفحات الجرائد جديدة ولذلك لقيت بعض المعارضة .

وفى عام ١٩٣١ اتجه النقد فى الصحف السودانية وجهة التعيير والتشهير (١)

(١) عبد المجيد عابدين فى كتابه تاريخ الثقافة العربية فى السودان . وعندى أن هذا ليس غريبا فقد كان النقد فى القاهرة يسير فى نفس الاتجاه ولذلك لا يستبعد أن يكون قد جاء بصفة تقليدية .

وقد حمل طنبل على الشعر التقليدى ودعا إلى جعل « التعبير عن التجربة النفسية » هو الغرض الأول والأخير للشاعر وترك كل ما يحول دون التعبير الحر الصادق عن مكنون الحالة النفسية ، فإذا إستطاع الشاعر هذا ،برزت صورة صحيحة شفافة للحياة السودانية والقومية السودانية .

وقداشترك فى الحركة النقدية كثيرون .

أما الترجمة الذاتية أو السيرة الشخصية فقد ظهرت فى عام ١٩٤٠ نتيجة لعوامل الاتجاه الواقعى . وفى عام ١٩٤٦ نشر مثقفان سودانيان ترجمة مشتركة لطور الصبا والشباب الأول من حياتهما بعنوان « موت دنيا » هما محمد أحمد محجوب والدكتور عبد الحليم محمد ، وقد تضمن هذا الكتاب « سبحات وجدانية وعاطفيات » وفيه تسجيل لبعض تجارب الحياة وفيه تقليد لأسلوب طه حسين وتصوير للعقلية السودانية الجديدة واتجاهها التحررى وما تلقاه من سخرية الناس .

وقد صور الكاتبان ما جرى فى فترة من حياتهما من أحداث فى كلية غردون فى المجتمع السودانى كما صورا الصراع النفسى الذى يشعر به المثقف الذى يعاوده الماضى بين الحين والحين أو يحرص على التوفيق بين حياته الراهنة ونشأته الماضية ، وقد صورا تطور الفكر والفن وقالا : إن الفن فى بلد ناشىء كالسودان ينبغى أن يكون وسيلة لا غاية لذاته . وان الأدب الخالص والفن الرفيع فى بلد ناشىء كالسودان لن يكون له شأن إلا إذا استخدما لايقاظ الشعور واذكاء نار الوطنية .

وقد صور الكاتبان « الحرمان العاطفى » الذى يعانيه المثقف فى المجتمع الانعزالى

الصارم ودور اللهو الاجنبية والاجنبيات الرائحات والناديات والموسيقى الغربية ومحاولة التحرر الشخصى من تقاليد المجتمع وقيود الزينة القديمة .

كما انطوى على حمله على الحزبية الضيقة والقبلية التى فرقت الشعب السودانى وقد امتد هذا التيار الذاتى فاحتضنته جريدة الرأى العام ومضت تنشر فصولا عن ذكريات الطفولة السودانية تحت عنوان (وطنى الصغير) سجل فيها مختلف الكتاب تجارب نشأتهم وعناصر حياتهم ، ومن بينهم الدكتور ابوشمة وصلاح الدين المتبانى ، ونشرت جريدة الصراحة « مذكرات أغبش » لعبد الله رجب وكانت أشد واقعية حيث صور الطفولة البائسة والفقر والآلام وتجارب الشباب والصراع فى سبيل تحصيل لقمة العيش والاضطهاد من السلطات الاستعمارية

وقد ظهر اتجاه آخر هو الطريقة التاريخية الفنية ، ويتمثل هذا فى كتاب «نفثات اليراع» الذى أصدره محمد عبد الرحيم . وهذا الكتاب مجموعة من الدراسات اكثرها عن الأدب الشعبى السودانى تربط بين الآثار الفنية والتاريخ الأدبى والسياسى للسودان ، ويرى عبد الرحيم أن الأدب الشعبى أصدق فى الحديث عن الأمة السودانية وأدق فى التعبير عن منازعها واحاسيسها وتصوير مشاعرها وخلجاتها .

كما ظهر اتجاه فكرى آخر فى الحياة السودانية والفكر السودانى فى الفترة ما بين (١٩٤٦ — ١٩٥٦) هو انتفاض الطبقات الشعبية وقيام الحركة العمالية ونشاط الدعوة الاشتراكية مما كون اتجاها عاما تأثر به الكثيرون .

٩ — الشعر السودانى

ومن الشعراء السودانيين المجددين يبرز اسم « التيجانى يوسف بشير » الذى

(١) « أغبش » فى الاصطلاح السودانى معناها « ابن الشعب الساذج البسيط »

امتزج اسمه باسم « أبو القاسم الشابى » شاعر تونس لانهما قضيا فى سن الشباب

فقد ولد التيجانى عام ١٩١٢ بمدينة ام درمان ،وتوفى فى يوليو ١٩٣٧ ووصف شعره بانه مزاج من « الاحاسيس العاطفية المتناهية فى الدقة والتأملات الروحية والفلسفية الصوفية التى ترى أن كل الكائنات كبيرها وصغيرها جليلها وحقيرها تحدث عن جلال الخالق عز وجل »

وله ديوان « اشراقه » الملىء بالشعر الصوفى ويروى انه دفع وهو صغير إلى خلوة عمه الشيخ محمد القاضى لحفظ القرآن ثم التحق بالمعهد العلمى فى أم درمان وكان لهذه الخلوة اثرها فى اتجاهه الفكرى وقد اتصل بالصحافة بعد ان استوعب عدداً من كتب الأدب القديم وكتب الصوفية والفلسفة وساهم فى جريدة ملتقى النهرين وحرر فى مجلة ام درمان ومجلة الفجر ، وله شعران غزلى ووطنى .

ومن شعره فى حب مصر قوله :

عادنى من حديثك اليوم يامصر رؤى طوفت بى ذكرى
وهفا بأسمك الفؤاد ولجت بسمات على الياسم سكرى
انما مصر والشقيق الاخ السودان كانا لخالق النيل صدرا
نضر الله وجهها فهى ما تزداد إلا بعدا على وقسرا

ومن شعره الذى يصور تطلعه إلى المجد

ويحك نفسى تنام من دونها الانفس شوطا ومافاتهم بشوط
أنا والنجم ساهرين نمد الصبح خيطا من الشعاع لخيط
كم صباح نسجته أنا والنجم وارسلت شمسه من محطى

ومن مقاله فى الرسالة بعنوان « ضرورة الوحدة الأدبية بين مصر والسودان »

(٤ مارس ١٩٣٥) يقول « لقد حاولوا بعد عام ١٩٢٤ أن يجعلوا اسم مصر لاتسوغ القوانين النطق به وكلما شددوا فى التنكير وامعنوا فى المنع كان اسمها أشد اغراءاً واكثر جاذبية وأقوى على لفت النظر وحمل عامة الناس أن يبحثوا عن السر الغامض الذى يأبى عليهم الانجليز الاتصال به »

ومن شعراء السودان « جعفر حامد البشير » الذى نشر مقالاته فى الرسالة والثقافة فى القاهرة والصراحة والتلغراف فى الخرطوم . وقد نشأ فى بادية السودان وتثقف بالثقافة العربية الحديثة فى العاصمة فاجتمع له عنصران : عنصر الفطرة العربية الشاعرة وثقافة العالم الجديد وله ديوان « حرية وجمال » .

بدأ عام ١٩٤٨ النظم على الأوزان الطويلة ثم تحرر بعد ذلك من التزام القافية ويبدو فى شعره متزهدا غارقا فى حلمه متأثراً بالموجه الصوفية، ويقول ناقده أن شعوره بالجمال ليس من قبيل الذاتية المنعزلة وانما هو ينظر اليهما من خلال الهيئة والمجتمع

ومن شعره :

قد جئت للناس حراً ... وما تعبدت يوما
وما رضيت احتقاراً ... ولا تقلبت صنما
ولى فؤاد معنى ... بالحسن فى كل شكل
أحسه بفؤادى ... وليس ينكر عقلى

وقد تأثر البشير بكفاح العرب وآمن به

فتيان يعرب لن تلين قناتهم ... للمرجفين بقوة ونكال
وسيكتب التاريخ عنهم معجبا ... أسفار مجد شامخ متعال
اخواننا جودوا لهم بنفوسكم ... وبمالكم وبكل ذخر غال

لاتحجموا عنهم فى إحجامكم كل العقوق لأصلنا الفضال
ان العروبة أمنا الكبرى وكم للأم من حق على الأشبال

وهو محب لمصر مؤمن بمكانها فى العروبةوالنيل :

ياشعب مصر حبال النيل تربطنا والذل والنكد المشئوم والثأر
فحالنا اليوم نرضى أن بنوئهم ديارنا بئس ما نرضي ونختار
فلا البلاد التى عاثوا بها زمنا ولا القناة لهم فى أرضنا دار

وهو يدعو إلى الوحدة والتجمع :

تعالوا نقم صف الجهاد موحداً فلا نفع فى الأحزاب شتى جهودها
تعالوا نحطمها قيوداً بنيضة يصل على سمع الاباة حديدهـا
تعالوا فلن نرق الى المجد أمة إذا لم يضمخ بالدماء شهيدهـا

وقد انفعل «البشير» بحوادث الماو ماو وديوانه «حريةوجمال» حافل بالقصائد التى ندد فيها بالاستعمار وأعمال المحتلين فى بلاده ويقول البشير :

ياويح قومى الام الخلف يدفعهم نحو الحتوف وما يدرون ماصنعا
هل آثروا الخلف فى أهدافهم جزعا ام آثروه على أهدافهم طمعا
من لى بهم أمة خرساء ان نطقت الفيت شمل بنيها ظل مجتمعا
حتـام ياقوم حتى فى تخلصنا من ربقة الذل يغدو رائيا شبعا
أواه انى احس الغيظ يفجعنى من أمه لاتحس الضر والوجعا

ويقول فى وصف شعره :

شعرى فلا كان شعرى ان قصدت به	لهوا وفى الضيم والآلام أوطانى

* * *

ومن شعراء السودان « يوسف مصطفى التنى » . وهو من الرومانسيين. أصدر ديوانه الأول ١٩٣٨ . وله ديوان السرائر الذى اصدره عام ١٩٥٥ ويقول فى مقدمته « ان اضطراب الحياة السياسية بالسودان وتمليق مصير الوطن فى كف القدر وتقادم السن نحو الأربعين ومشاغل العيش انضبت معين الشعر العاطفى »

وكان التنى قد ترك الوظيفة إلى خضم الصحافة مكافحا فى سبيل الدعوة الاستقلالية . وقد وصف بأنه سودانى صميم ملتهب الوطنية يحب بلاده حباً جارفا ويأسى لما تعانيه من ضعف ، وهو فى شعره لا يريد أن يكون تابعاً لأحد كائنا من كان ولا يرضى أن ينتقص من حرية وطنه وسيادته .

وهو من المؤمنين بالمدرسة الجبرانية المهجرية ويستخدم فى شعره الفاظ الظلال والضياء والغمام والضباب .

وطنى سقيت بشيبه وشبابه	زمن سقاك السم فى أكوابه
قد أسلموك إلى الحراب ضحية	واليوم هل طربوا لصوت غرابه
وطنى تنازعه التحزب والهوى	هـذا يكيد له وذاك طغى به
ولقد يعانى من جفائه أبنائه	فوق الذى عاناه من أغرابه
بالأمس كانوا وحـدة فتفرقت	فسطا المغـــير بظفره وبنابه
واليوم هم شيع ينافس بعضها	فى رقهـا لمسود أو نابه
حتى الذى نزف الدماء مسخراً	كالطير حفوا خشما بركابه

* * *

ومن شعراء السودان القدامى « العباس » وقد عرف شعره بالفخامة والجزالة والموسيقى العربية الأصيلة ذات الايقاع الكلاسيكي والرنين البدوى العنيف . وقد جاء إلى مصر فى مطلع حياته ودخل المدرسة الحربية فى القاهرة ١٨٩٩ وكان أستاذه الشيخ زناتى ومن شعره قوله فى مصر :

مصر وما مصر سوى الشمس التى	بهرت بثاقب نورها كل الورى
ولقد سعيت لها فكنت كأنما	أسعى لطيبة أو إلى أم القرى
وبقيت مأخوذاً وقيد ناظرى	هذا الجمال تلفتا وتحيرا

ومن شعراء السودان المجددين : جيلى عبد الرحمن الذى يقول « حفظت القرآن وأنا صغير وفى كيانى صوفية عميقة وكانت اشعارى تحلق فى المجهول » وقال نقاده ان له قدرة حقيقة على ادراك التفاصيل الدقيقة للصورة ويتسع مجال الرؤيا أمامه ليقدم لنا صوراً واقعية حية تهزنا ببساطتها العميقة وتتمثل لنا هذه الصورة فى قصيدته « أطفال حارة زهرة الربيع »

ومن شعراء السودان « تاج السر » الذى يقول عن نفسه : لقد كان لعراقة أسرتى الدينية وللجو الغيبى الذى يحيط بنا أثر كبير فى تكوينى فشبت فى أعماق أحاسيس ملتهبة وأخذت أشعارى تحلق فى عالم بعيد » .

وقد هاجر الشاعران (جيلى عبد الرحمن وتاج السر) إلى مصر واصدرا معا ديوان :قصائد من السودان (١٩٥٦) ووصف العقاد شعرهما بأنه شعر مهجرى ولكن فيه واقعية اشتراكية ، وقد تأثرا بالثورة المصرية العربية التى حطمت الملكية والفساد والاقطاع والرجعية وهما يؤمنان — على حد قولها — بالواقعية الاشتراكية وخضوع الأدب والفن لأهداف محددة يلتزم الفنان والأديب بالسعى لها · ولا يؤمنان بحرية الفنان المطلقة ولا القيم الفنية الخالصة للفن · ولا يؤمنان بالشخصية القوية للفنان وانما يؤمنان بدلا منها بشخصية الجماهير »

ومن شعراء السودان « محمد الفيتورى » قال محمد النويهى بأنه «وصف نفسه بأنه أفريقى وأفريقى فقط . بل سمى نفسه زنجيا وأهمل عنصره العربى إهمالا تاما وأهمل ذكر السودان فى شعره وتحدث باسم أفريقيا والأفريقيين والسود والزنوج والعبيد . ويرى النويهى « أن هذا رد فعل عنيف لهذا الاتجاه الذى كان ينزع إلى انكار العنصر الأفريقى فى الكينونة السودانية وأن الفيتورى قد أسرف حتى بلغ النقيض ونفر من تعصب ليقع فى التعصب المضاد » .

ومن شعره :

ولم أزل أذكر لى أخوة مشوا عبيداً تحت ثقل القيود
والسيد الأبيض من خلفهم وسوطه ملتصق بالجلود
ولم أزل أسمع أصواتهم والعرق الدامى يغطى الجباه
والشمس فوقهموا موقد أحرق حتى العشب فى الحياة

ومن شعره :

ولسوف يزحف ألف وجه ألف عبد مارد
من ألف كهف مظلم من ألف قبو بارد
ولسوف يستبقون نحوك فى عويل حاقد

وعندى أن الفيتورى يمثل عصره تماما . وأنه جيد الأسلوب والعبارة وهو بحكم تنقله بين السودان ومصر قد كسب تجربة فكرية وانسانية واضحة فى شعره وإن كانت عاطفته أكبر من عقله . وهو كاتب عربى أيضاً له أسلوبه الواضح وهو مؤمن بالقومية العربية وعظمة أمجادنا العربية وروابط تاريخنا القديم مع الجديد فى وحدة وتناسق .

١٠ — النثر السودانى

هذه نماذج من النثر العربى السودانى نعرضها لنرسم صورة واضحة لهذا اللون من الادب ؛ يقول «البدرى» من مقال عنوانه «وقفه عند الملتقى» .

« خرجت من دارى وأنا منشرح الصدر . مفتون بجمال الـكون فى ذلك اليوم المطير . وكان قوس قزح يرسم على وجه الأفق خطه الجميل الجامع لـكل ألوان الطيف والطرق المغسولة بقطرات المطر ، والجداول من كل الجهات تجرى مسرعة لتلحق بالموكب السائر ولتتحد مع إخوانها الآتيات من أطراف الوادى ووهاده وجبال الحبشة ومرتفعات كينيا وروافد السوبات مسرعة لتـكون ضمن السيل الأزلى المنهمر الذى ألهه القدماء وعبدوه وقدموا له القرابين البشرية ونحتوا له التماثيل تقديراً لفضله واعترافا بجميله والذى تجرءوا على عظمته فاذلوه وأقاموا على متنه الجسور وعلى قلبه القناطر والسدود فعدلوا طريقه وشعبوه كيف شاءوا . جاريه تلك الجداول مسرعة لتلحق بأخوات لها من قطرات الأمطار رسل الرحمة ومعنى الحياة وأصلها » ،

وهذا نموذج آخر من يحيى الفضلى بعنوان « إنبثاق الفجر » :

« ... وفجر مستطير وهو بلا ريب تنفس بعد ليل اقتم اللون . يتمطى فى ظلماته ظلمات من الجهل • بعضها فوق بعض • وظلمات أخرى كثيفة كبحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب .

ولابد لليـل أن ينجاب مهما أردف أعجازه وناء بكلـكله ولأبد من إدبار الـكواكب المنحرفة نحو المغرب الأقصى أن تطمس نجمة الفجر اللامعة بشماعها صفحة الظلمة مؤذنة بانبثاق الفجر » .

٢ — وفى الشعر : يقول عبد الله عبد الرحمن فى قصيدة النيل :

رف فيه النبات حتى كأنى ... من وراء الزجاج أرنو إليه
وكأن المياه صفحة خد ... وكأن الظلام شام عليه
وكأن الدخان من جانب الشط ... مكتئب يلوح فى عارضيه
يتلقى الأديب منه قوافى الشعر ... رقراقة على حافتيه
وظلال الجميز والطلح والسدر ... ترامى على المروج الوسيمة
ووجوه النبات تحلو وتبدى ... صوراً للحياة كانت بديمة
ليس أدعى إلى السرور كروض ... خلعت حسنها عليه الطبيعة

ويقول العباسى :

زرت سنار والجوانح أسرى ... زفرات هدت قوى الصبر هدا
إن محا الدهر حسنها فلقد كانت ... مرارا للمعتفين وخلدا
كم لها فى الرقاب منا ... دبون وعزيز على ألا تؤدى
وجميل لأهلها عند أهلى ... ويد بالصنائع الغر تندى
كنت مثوى للأكرمين وميدانا ... رحيبا لخيلهم ومندى
ورحابا قد رنيت وقبابا ... زان أرجاءها مليك مفدى
وبتودا تهفوا وخيلا تنزي ... بالأناسى ساده وعبدى
فرقتهم يد الزمان أناديد ... وما خلفوا لعمرى ندا

وفى قصيدة لـ « مرضى محمد خير » بعنوان القربان :

ياشعاعا فى السما سنيا ... أبديا يضيء فى ظلمائى
يانسيما من الخلود عليلا ... بعث الأمن والمنى بفنائى
ياضياء حبا الضياء لقلب ... نفحة الخلد من صبا ورواء
ياصباحا نشقت منه حياتى ... نغمة فى مسارح النعماء

ياجمالا عشقته بكيانى فهو نارى وجنتى وسمائى
أنت بالفتنة الجمال وعهدى بك أنأى على البعيد النائى
أسعدينى فقد أطلت عذابى أضحكينى فقد ملات بكائى

وفى قصيدة لتوفيق احمد البكرى .

إن الذى ملأ الكهوف مخاوفا جعل الشباب فتوة ويقينا
لا يرهبون الدهر فى أحداثه أو يعرفون تشككا وظنونا
لا يطلبون النجم فى عليائه دانى وأصبح باليدين رهينا

وفى قصيدة أخرى « لمحمد سعيد العباسى » شيخ شعراء السودان . يتغنى فيها بذكريات « قلبيط » وهو واد غرب السودان .

حياك قلبيط صوت العارض الغادى وجاء واديك ذا الحبات فى واد
فكم حبوت لنا من منظر عجب يشجى الخلى ويروى غلة الصادى
أنسيتنى برح الأمى وما أخذت منا المطايا بإيجاف وإنجاد

وفى قصيدة لمختار محمد مختار .

تفديك يامصر العزيزة النفس لقد مسها يامصر إذ مسك الضر
فلا زلت للسودان والعرب معقلا ترف على الأفاق أعلامك الخضر

وفى قصيدة لـ « المبارك المغربى »

إيه يامصر حسب مسماك فخراً إن أعدت الغداة مجد الجدود
ثرت للحق ثورة أيقظ الشرق لظاها فهب عالى البنود
يابنى العرب والحوادث تترى مفزعات لقاصفات الرعود
لا تصيخوا للغرب أو تستجيبوا لنداء الأحلاف شأن العبيد
حلفنا الضخم أن نصون أراضينا ونسمو بالشرق دون قيود

وفى قصيدة ا « التجانى بشير»

وشباب من الكنانة حمس ... يشترون الحماس صاعا بصاع
يدخلون النفوس كالأمل الثائر ... فى رعده أجل والتياع
كلهم ثائر الحفيظة حر القلب ... ليث لدى الوغى والمصاع
صرخوا بالعرين صرخة وذى مجد ... مذال وذى مقر مضاغ
فى سبيل الجهاد يدرأ عن مصر ... بنوها بمنصل ويراع
وأرى مصر والشباب حليفى ... مجد فرعون أو ضجيجى يفاع
حبذاً الموت فى سبيلك يامصر ... لنشء عن الحمى دفاع
ياصروحا من الجهاد بناها ... من بناها لدرأه وامتناع
رسل للشباب تنجبهم مصر ... على فترة وفى أدقاع
قبس من هدى ونور وإشعاع ... من الحق ماله من قناع
حطموا تلكم القيود وصونوا ... دم مصر عن منتنين جياع

وفى قصيدة لـ « صالح عبد القادر :

حكموا الرأى وهزوا القلما ... فلكم أزعجنى منتقما
ولكم وجه نحوى تهما ... فأسال العالم عنا أننا
أمة كنا وكانوا عدما ... من لقوى أنهم قد أهملوا
ما بنى اباؤهم فانهدما ... غلب اليأس على أمالهم
ليت شعرى من بهذا حكماً ... عادة الدهر وما أعهده
يوهن الدهر ويثنى الهمما ... يابنى قومى أفيقو أنكم
ماخلقتم لتعيشوا غنما ... ليتنى أعرف ماأخركم
سادة كنتم فصرتم حذما ... ولقد يحزننى أنى أرى
رأيكم مختلفا منقسما

١١ — معالم الثقافة السودانية

كتب الدكتور زكى مبارك عن الأدب العربى الحديث فى السودان[1] فقال «ان المصريين والسودانيين أخوة . وان السودان قادر على المشاركة الجدية فى احياء الأدب العربى . فلأهله ماض مجيد فى خدمة اللغة العربية . وفى السودان تطلع شديد إلى الاستفادة من تقدم العلوم والآداب فى العصر الحديث وأغلب أهل السودان من أرومة عربية فغيرتهم على الود غيرة طبيعية »

وقد تجلت هذه الروابط بين السودان ومصر من ناحية وبين السودان والأمة العربية باعتباره جزءاً منها من ناحية أخرى بوضوح فى أدب السودان نثره وشعره

وأغلب كتاب السودان كتبوا فى الصحف المصرية . وبالرغم من الدعوة إلى الأدب السودانى القومى فقد ظل مرتبطا بمصر وهو فى دعوته إلى القومية فى الأدب السودانى ، إنما كان مقلدا لنفس الدعوة التى كانت بمصر اذ ذاك فقد سار التياران متجاورين . وانت عندما تنظر لمحجوب عباراته عن الأديب تجده يستقى من طه حسين وهيكل والمازنى حيث يقول:

« الأدب هو الذى يعنى بوضع المثل العليا ليتبعها الناس . وان قيمة الحياة فى الخلق والابتكار . والأديب شخص وافر الأطلاع ثابت القدم فى كل مايتصل بالأدب من لغة وعلم وتاريخ . وله إلمام بالاساليب الأدبية والفكرية فى اللغة التى يكتب فيها . ولا بد له من بصيرة نافذة ومقدرة على الملاحظة القوية والاستنتاج والاستنباط وقدرة على التعبير البسيط الجميل وحساسية نادرة »

وتتمثل التيارات الفكرية السودانية اليوم فى صورتين : يرسم إحدى هذه الصور الدكتور محى الدين صابر فى قوله

---

(١) ١٧ مارس ١٩٤١ — الرسالة

« ان الدور الذى يقع على عاتق الفكر العربى والأدباء العربهو دور قيادى، دور رئيسى فى خلق الايدلوجية الجديدة التى تصوغ هذا المجتمع العربى ، على نسق يتمثل به الحضارات والثقافات المعاصرة

المجتمع العربى الذى يتحرك فى جوانبه يقظة القومية العربية . تعمل فيه قوى مختلفة وواجب الفكر العربى هو رسم الخطوط الأمينة لهذه القومية التى لم تعد من الآن دعوة انثولوجية ، ولكنها صراع ودعوة فى سبيل تحقيق أقصى مثاليات الحضارة الصناعية واكثرها عدالة فى ميدان الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة

القومية العربية تمتد إلى كل مكان يناضل فيه الاستعمار ،تمتد الى افريقيا والى آسيا لأنها رسالة عاليةوليست دعوة اقليمية فى جوهرها

والسودان وهو يمسك بكلتا يديه التراث العربى والواقع الافريقى يتطلع إلى يوم تتحرر فيه الشعوب الشقيقة المناضلة فى كينيا ويوغندا والكمرون والسنغال والكونغو» .

ويصور الثانى ما ذكره النقاد والباحثون عن نشاط الدعوة الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية فى السودان ، مما كون اتجاها فكريا عاما تأثر به الكثيرون وكان له أثره فى فتح آفاق جديدة بعد ان كان السودانيون لايقرأون الأدب الانجليزى والفرنسى فى مذاهبه الانحلالية وتقديسه للفردية فقد حرص الاستعمار على ان يأخذ السودان الجانب المريض والمذاهب الفوضوية من هذا الأدب ، وما يتمثل ذلك من جموح فردى وانعزالى عن روح الشعب . ومن هنا بدأ الاتجاه الى الأدب الذى يعنى بالشعب وطبقاته ويهتم بسواد الناس .

ولكن هذا الاتجاه الواقعى القومى الذى استهدف الاهتمام بتجارب الناس البسطاء وكافه الفقراء . قد اندفع فى قصص صورت أحلام المراهقة والخيالات الرومانسية،وقصرت على الاهتمام بالناحية الشريرة المفجعة من تجارب المجتمع وهو ماعرف فى مصر بالأدب الأسود » ا . هـ

٦ — فى الجزيرة العربية

كانت الجزيرة العربية مبعث الضياء الفكرى فى العصر الحديث كما كانت مصدره فى العهد القديم اذ ظهر فيها أول حركة فكرية تدعو إلى يقظة العقل وتحريره من أسار الخرافات والوراثيات والأوهام باعتبار أن هذه هى الوسيلة الوحيدة للتحرر من الاستبداد العثمانى الذى ران على الأمه العربية ثلاثة قرون . هكذا انبعثت «الدعوة الوهابية» من قلب الجزيرة تحمل راية المقاومة للجمود وتدعو الى التحرر ، وبالرغم من لونها الدينى فهى دعوة سياسية لم تلبث ان اصبحت حركة تقدمية رائعة مضت تحقق اهدافها بقوة السيف وتغير على الأطراف وتديل من خصومها فى الفكرة وفى السياسة وعلى أفكارها قامت الدولة السعودية التى استطاعت فى خلال قرنين من توحيد جانب كبير من الجزيرة العربية وكانت «الام» لكل دعوة فكرية تحررية جاءت بعد ذلك فى خلال هذه الفترة حتى الآن.

عاش محمد بن عبد الوهاب القرن الثامن عشر (١٧٠٤—١٧٩٢) واستطاع فى خلال حياته ان يحقق حركته بالاستيلاء على الجزيرة . وقد حارب الغرب المتربص الذى كان يتحفز ليقسم تركة الرجل المريض هذه الحركة لثقته بأنها حركة بعث ومقاومة للاستبداد العثمانى ، وخلق جيل جديد يحمل السلاح ويحارب ويفتح ويحرر وهو يطوى فى أعماقه مبادىء التقشف والازدراء عن متاع الدنيا

وقد اندفع الباب العالى فى مقاومته للحركة الوهابية اندفاعا لا حد له : أمر والى بغداد بتجهيز حملة ضخمة سارت الى الأحساء ثم ازمعت فارس غزو الجزيرة العربية ولم تلبث الدائرة ان دارت على خصوم الحركة التى استطاعت ان تستولى على البحرين وخوازم وعمان بعد دخول مكة وذلك فى أوائل القرن التاسع عشر

(١٨٠٣) وعادت الدولة العثمانية تقاومها عن طريق والى الشام وامام مسقط . ولم تقف الوهابية جامدة بل هاجمت العراق مرتين ١٨٠٢ و ١٨٠٧ فاجتاحت الفرات وزحفت على دمشق وقطعت صلة جزيرة العرب بتركيا . عندئذ أغرت تركيا محمد على بمقاومة الوهابية ، وكان يطمع فى احتلال الحجاز فاندفع عام ١٨١١ فى حملة ضخمة بقيادة طوسون ثم لم يلبث أن ركب محمد على البحر الى جدة فى ٢٨ أغسطس ١٨١٣ وسافر ابراهيم على رأس حملة أخرى ٢٨ ايلول ١٨١٦

واستمرت المقاومة الوهابية للحملة المصرية حتى قضت عليها عام ١٨٢٠ بقيادة (تركى سعود) .

وفى خلال ذلك احتملت الحركة الوهابية كل ما تحتمله الحركات الجديدة من عنف المقاومة والدفاع عن كيانها فى مواجهة أعدائها . وكانت أهداف الحركة هى القضاء على الفساد والاستبداد العثمانى وتجنيد الامة العربية كلها للمقاومة تحقيق الاصلاح الاجتماعى والسياسى وقد استطاعت قطع العلاقة مع تركيا وابطال الدعاء لسلطان تركيا فى خطب المساجد .

كما تمكنت الوهابية من مواجهة تركيا ممثلة فى جيش محمد على خلال سبعة عشر عاما كاملة فى ثلاثة حملات ضخمة قتل فيها طوسون ابن محمد على وقتل فيها عبدالعزيز آل سعود .

وتحقق للجزيرة العربية — ما عدا بعض اجزاء منها — العمل تحت لواء هذه الحركة .

وقد تجددت الدولة السعودية الوهابيه على يد تركى وفيصل (١٨٢٠) وظلت قوية إلى ١٨٩١ عندما تآمر عليها آل الرشيد فى شمر ، واسسوا امارتهم فى حائل وانقضوا على الرياض حتى استردها عبد العزيز آل سعود عام ١٩٠٢ فقامت الدولة

السعودية التى مازالت قائمة حتى اليوم والتى قضت على امارة حائل بعد ان استولى السعوديون على الاحساء والقطيف وسائر لواء نجد . وذلك ١٩٢١ بعد ان انهارت تركيا التى كانت تؤيد حكام مقاطعة جبل شمر ، وفى ١٩٢٤ غزا السعوديون الحجاز فاستولوا عليها نهائيا ١٩٢٦ وبذلك تحقق للحركة الوهابية باسم الحكومة السعوديه التى اعتنقت الدعوة وتزعمت الحركة قيام المملكة العربية السعودية تضم اغلب اجزاء الجزيرة العربية .

وقد ظلت الدعوة الوهابية مناراً قويا للحركة الفكرية التى ظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر فى العالم العربى والإسلامى جميعا . ولقد كانت دعوة جمال الدين الافغانى وهى أولى دعوات منتصف القرن التاسع عشر وما جاء بعدها سواء من حركات المهدية فى السودان أو السنوسية فى ليبيا أو حركة خير الدين فى تونس ، أو محمد عبده فى مصر أو الثمانى ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبى وعبد القادر المغربى هو تبع لها ولم تلبث الوهابية أن تطورت فتأقلمت أو تحررت من بعض مظاهرها العنيفة التى كانت تدعو الى الجهاد بالسيف . وهى عندنا قمة الحركات الفكرية التى ان تكن قد ضعفت آثارها فى مسقط رأسها فانها ظلت شديدة الاوار فى المشرق منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن وما تزال حتى اليوم عميقة الأثر فى ليبيا وتونس والجزائر ومراكش .

* * *

ومن أهم اقطار الجزيرة العربية « اليمن » التى ظلت محافظة على استقلالها وعزلتها حرصا يستهدف مقاومة كل ماهو بسبيل أن يؤثر على حريتها وهى وإن كانت قد رفضت الحضارة وقتا طويلا فانها ظلت قادرة على مقاومة الغزو العثمانى الذى تحررت منه باكراً حين جلا عنها عام ١٩١١ ولكن اجزاءها الأخرى لم تسلم من الغزو البريطانى الذى تسلط على المنطقة منذ منتصف القرن التاسع عشر حيث

احتلت بريطانيا ميناء عدن ١٨٣٩ . وحين أرغمت بريطانيا نحو ثلاثين سلطانا من سلاطين ومشايخ هذه المنطقة على أن يتعاقدوا معها وكانت بريطانيا تهدف بهذا إلى الاستيلاء على المواقع الاستراتيجية فى الخليج ومفتاح البحر الأحمر وإقامة امبراطورية انجليزية فى جنوبى الجزيرة العربية .

وفى خلال هذه الفترة حاولت بريطانيا محاولاتها التقليدية فى إثارة الخلافات بين العرب فى جنوبى شبه الجزيرة . وايقاظ المذاهب وصراعهافاثارت الخلاف بين أنصار المذهب الزيدى فى اليمن والمذهب الشافعى فى بعض أجزاء الجزيرة وذلك للتفريق بين اليمن وهذا الجزء المنتزع منها كما شجعت بعض أهل اليمن الساخطين على الأوضاع فى وطنهم على الهجرة إلى عدن .

* * *

وفى الجزيرة: حضرموت وعمان والكويت والبحرين ومسقط وقطر وكلها أمارات وسلطنات فرض الاستعمار سلطانه عليها بعد منتصف القرن التاسع عشر وأرغمها على الخضوع له ، وحاول أن يكبح جماح الحرية فى أهل هذه المنطقة الصحراوية الجبلية الواسعة التى جرت فى عروقها منذ مئات السنين نزعة الحرية والإيمان بالوحدة والمقاومة والتى كانت ولا تزال وستظل مليئة بالاصرار على أن لا تسلم .

وتاريخ المنطقة فى المقاومة مضىء مشرق ، منذ بدأ الاحتلال حتى الآن وقد حقق صوراً رائعة فى البطولة والفدائية فى عمان والبحرين وقطر .

وقد عاش الصراع بين بريطانيا والمانيا وفرنسا وروسيا وتركيا على هذه المنطقة العربيه كما عملت الدول المحتلة على تمزيق وحدة هذه الأقطار حتى قسمت حضرموت وحدها إلى ست مناطق .

٢ — الوهابية والبترول

وإذا كانت الجزيرة العربية قد حملت لواء الحركة التحريرية للفكر والمقاومة للاستبداد العثمانى فى صورة الدعوة الوهابية فان هذه المنطقة بالذات بعد أن تحررت من الاستعمار العثمانى قامت بها سلطنة نجد ، كما قامت بالحجاز الثورة العربية بقيادة الشريف حسين ١٩١٦ ثم امتد سلطان السعوديين باسم الدعوة الوهابية من نجد إلى الحجاز حتى نهاية ١٩٢٦ كان ذلك ختاما لمقاومة المعركة للاستعمار ولذلك فان الأدب الحجازى لا تشيع فيه صور المقاومة التى عرفتها الأقطار التى صارعها الاستعمار وصارعته وقامت فيها الثورات والمعارك .

ولم يبق بعد إلا الأجزاء الجنوبية المتاخمة للبحر الأحمر وسواحل الخليج الفارسى وهى الأمارات السبع واليمن والأجزاء التى انتزعت من اليمن وأطلق عليها اسم المحميات التسع فهذه جميعا مازالت حتى اليوم تقاوم .

ولذلك فان الجزيرة العربية مازالت تحمل لواء الدعوة الإصلاحية الوهابية التى مهدت للمصلحين وقد حول بها محمد بن عبد الوهاب مبادىء ابن تيمية إلى برنامج سياسى يهدف إلى تحرير الجزيرة من الدولة العثمانية وجمع العرب واصلاح المجتمع . وقد قاومها فى أول أمرها رجال الدين فى العالم الاسلامى كله إذ كانوا فى عون الحاكم المستبد . وهى أول دعوة عملت على أن يكون لها سناد سياسى يمكنها من تحقيق المبادىء وتعزيز الدعوة ونقلها إلى حركة فعالة .

وقد استطاعت الوهابية أن تفصل الجزيرة من الدولة العثمانية . وقد تصادف فى نفس الوقت قيام حركة محمد على الذى كان يطمع فى إقامة حكومة عربية واستطاع الاستعمار من وراء الدولة العثمانية أن يضرب الحركتين فيقضى عليهما معا فإنه لم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى كانت حركة مصر قد تلاشت . وكانت الدعوة الوهابية

قد قبعت فى حدود الجزيرة . ويتصل بها الأثر أن السنوسى سمع الدعوة الوهابية وهو يحج فاعتنقها وعاد إلى الجزائر يبشر بها ويؤسس طريقته ، وفى اليمن ظهر الإمام «الشوكانى» فسار على نفس المنهج وفى كتابه نيل الأوطار حارب التقليد ودعا إلى الاجتهاد . وفى العراق ظهر «الألوسى» يستهدف نفس المنبع وفى خضم هذه الدعوات فلسفت الوهابية ولاءمت حاجات المجتمع .

ولم تشهد الجزيرة العربية حركات مقاومة إلا فى أطرافها . أما الحجاز ونجد فانها لم تواجه ماواجهت تلك الأطراف فقد كانت هذه بعيدة عن مطامع الاستعمار

* * *

وقد حدث فى خلال الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن حدث هائل ضخم بعيد المدى فى حياة الجزيرة وفى حياه العالم العربى كله ذلك هو تدفق النفط «الذهب الأسود» فى مناطق كثيرة من الجزيرة ففى عام ١٩٣٤ ظهر البترول فى الكويت وفى عام ١٩٤٤ ظهر فى نجد .

وقد كان هذا الحدث بعيد الأثر بعد ظهور البترول فى مناطق أخرى من العالم العربى والمشرق كالعراق وايران ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية هى حرب البترول الذى دفع الاستعمار إلى تأكيد السيطرة على هذه المناطق ومن ثم تزايدت عمليات العنف فى الجنوب العربى والخليج العربى نظراً لوجود البترول بكميات ضخمه فى هذه المنطقة .

وكان للبترول أثره الاجتماعى والفكرى البعيد المدى . فقد بلغت أرقام المبالغ التى وصلت إلى السلاطين والملوك فى هذه المنطقة إلى بلايين الجنيهات بعد أن عاشت هذه المناطق فى فقر مدقع ومستوى منخفض . وكان لهذا أبعد الأثر أيضاً فى إعداد مجموعات من شباب الأوطان التى ظهر فيها البترول للعمل

فارتفع دخلهم وبدأت المجتمعات تأخذ صورة جديدة ، وبدأ الاستعمار يحاول السيطرة على هذه الموارد الضخمة وبوجهها حتى لا تكون أداة للقوه فى المنطقة وشن الحرب عليه فاتجهت أغلب هذه الموارد وجهه المتاع الذاتى وخرجت ملايين منها إلى العواصم العربية حيث استغلت فى بناء عمارات وإقامة شركات ، وانفق جانب كبير منها فى مصارف بعيده عن حاجات الوطن نفسه الذى ظلت الأغلبية فيه تعيش فى مستواها المنخفض .

وقد كان فى الامكان أن توجه بعض هذه الموارد لتحرير الوطن العربى . ومع الأسف ضاعت فلسطين من خلال هذه الملايين دون أن يوجه منها شىء لأعمال المقاومة فيها أو فى ثورة الجزائر الباهرة المستمرة .

ولا شك أن هذه الموارد الضخمة قد ظهر أثرها فى بناء مجموعات ضخمة من المبانى مع تعبيد الطرق ورصفها وإدخال مظاهر الحضارة الغربيه وبعض مخترعاتها النافعة ولكن فى حدود ضيقة لا تغطى حاجات الشعب كله ولا تحقق له ارتفاع المستوى المعيشى الواضح ، إلا فى بعض المناطق كالكويت الذى تحسن مستواها العام ومرجع هذا النقص إلى أن الأمراء والسلاطين والملوك قد استأثروا بأغلب هذه المبالغ لمتاعهم الخاص .

كما أدى هذا إلى قيام دعوات اشتراكية فى المنطقة تطالب بإعادة توزيع الدخل .

٣ — صورة الأدب الحجازى

يقول الكاتب الحجازى عبد القدوس الانصارى[1] « كانت الحياه الأدبية عندنا فيما قبل الحرب العامة الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) تجرى على سنن أدباء القرون الوسطى جريا تقليديا محضا ، قصائد غزل ورثاء ومدح وهجاء . رسائل منهوكة القوى المعنوية بما تحمله دواما من أغلال السجع المرهقة وأمثال المحسنات

(١) الرسالة : ١٩٣٦

البديعية الجافة . كان الجو الأدبي محاطا بسياج من الجمود . فلما وضعت الحرب أوزارها أيقظ فى نفر من ناشئة الحجاز المتعلمين روح النهـوض وشعروا أن أدبهم قد أخنت عليه التقاليد فتركته هيكلا عظمياً نخراً بالياً . هنا شاهدنا سببين ممدودين إلينا من أقطار العروبة الناهضة وكل منهما له مغرياته : هذا الأدب المصرى يجذبنا بنصاعة أسلوبه وقوة تركيبه . وهذا الأدب المهجرى يسحرنا بمرونة أسلوبه وسهولة تعبيره . وهكذا حدث انقسام فى اتجاه حياتنا الأدبية . وفى مكة كان منا إجماع على اعتناق الأدب المصرى أسلوبا وفـكراً . وفى مكة وجـده تمسكت طائفة بذيول الأدب المهجرى وأخرى اعتنقت الأدب المصرى وكل سار فى اتجاهه يفكر ويكتب حتى كان تفاعل فـكرى فى الآونة الأخيرة أنتج توحيد مناهج الأدب الحجازى فى انتهاج سبيل الأدب المصرى وحده » .

ويقول أحمد أبو بكر ابراهيم[1] « أن المطلع على أدب الحجاز فى هذه الفترة بعد اعلان الدستور العثمانى ١٩٠٨ يعجب أشد العجب إذ يجد أن هـذا الحادث العظيم لم يحرك مشاعر الحجازيين ولم يؤثر فى أدبهم إلا تأثيراً طفيفا لا يكاد يذكر اذا ماقيس بما حدث فى أدب الشام وأدب العراق . ويزول هذا العجب عند مايعلم أن حال الحجاز كان يختلف تماما عن القطرين الأخيرين : فالشعب الحجازى لم يدرك ظلم العثمانيين كما أدركه غيره من الشعوب لذلك لم يشعر الحجازيون بالسرور عند اعلان الدستور لأنهم لم يكتووا بالظلم فى عهد الاستبداد .

لقد كان الحجاز بعيداً عن حركات التبشير ومدارسه الأجنبية . وظل التعليم طوال القرن التاسع عشر محصوراً فى الـكتاتيب والحرمين الشريفين . ولعل أولى المحاولات للنهوض بالحجاز فى حمل راية التجديد هو (أحمد بن زينى دحلان)

---

(١) (ك) الأدب الحجازى فى النهضة الحديثة — ١٩٤٨ .

المتوفى ١٨٨٦ وفى مدته أنشئت أول مطبعة فى مكة وكان لها بعض الأثر فى طبع الكتب العربية القديمة » .

ويعد الشاعر فؤاد الخطيب ، الحجازى شاعر الثورة العربية ومن شعره قوله:

إيه بنى العرب الأحرار إن لكم ... فجراً أطل على الأكوان مبتسما

من ذلك البيت، من تلك البطاح على ... تلك الطريق مشت أجدادكم قدما

من كل أروع وثاب اذا انتسبت ... بعض الصوارم كان الصارم الخدما

لستم بنيهم ولستم من سلالتهم ... إن لم يكن سعيكم من سعيهم أمما

إلى الشام إلى أرض العراق إلى ... أرض الجزيرة سيروا واحملوا العلما

ويقول خير الدين الزركلى وهى شاعر حجازى أيضا :

إلى أم القرى عــدت المذاكى ... وفى أم القرى خفق البنود

بروق بالحجــاز ومضن وهنا ... فـكان بجلق قصف الرعود

ولم تلبث الحجاز بعد الثورة العربية وانتهاء الحرب العالمية أن واجهت الخلاف بين الهاشميين والسعوديين واستيلاء السعوديين على مكة وجدة وهزيمة الهاشميين وانسحابهم بعد فشل مشروع إقامة الدولة العربية الذى كان قد اتفق عليه مع بريطانيا قبيل اعلان الثورة العربية وذلك خلال الفترة (١٩١٦ — ١٩٢٦)

ثم بدأ عهد جديد فى الحجاز ونجد حيث قامت المملكة العربية السعودية كثمرة للحركة الوهابية ثم بدأت حركة صراع بين الصحراء والدين من ناحية والحضارة الحديثة التى بدأت تغزو العالم العربى كله من ناحية أخرى ؟

وقد حمل العهد الجديد فى الحجاز الطابع العربى الخالص وظهرت فيه مظاهر

الإحساس بالتأخر والبكاء على المجد العربي القديم والدعوة إلى اليقظة والاتجاه نحو المعالى .

يقول الشاعر الغزاوى :

أجل تقهقر هذا الشرق فانغمزت ... قناته بعد أن صالت بها الأمم

واندك مجد بنيه منـذ أن غفلوا ... عن الحيـاة وزلت منهم القدم

وخالفوا فطرة الأخلاق واختلفوا ... فسامهم كل خسف من رقى بهم

وقوله :

هل كان للغرب المصوت نأمة ... أيام كان الشرق لا يستسلم

أو كان للغرب المدل بعلمـه ... بصر بما أمسى به يتنعم

ويقول احمد عبد الغفور :

كنا عباقرة الدنيا بأجمعها ... واليوم ـ واسفا ـ صرنا لقى الطرق

مضت قوافل تعدو وهى مسرعة ... ونحن كالنائم المرور لم يفق

وقول عبد الوهاب آشى :

بلاد أضـاءت سوالفها ... ورثنـا أساها وتذكارها

تصدى الزمان لتصديعها ... وأدهى التناحر ابرارها

وقوله :

لسنا من المجـد فى أعلى منارته ... أوفى الطريق قطعنا منـه ماعظما

لكنا نحن شعب نرتجى أمـلا ... ضخماً وأرقى أمانى الشعب ماضخما

من رجا وسعى بالمجـد متشحا ... بالصبر مدرعا — نال المنى نعما

وقول عبد الغفور :

يا أمتى حطمى الأغلال واطرحى	عنك الخمول وهذا الدرب فانطلق
واستيقظى فشعوب الأرض قاطبة	تسعى حثيثا بعزم غير مفترق
فمجدك الضخم فى الغبراء منبسط	وفى السماء تعالى كالسنا اليفق

٣ — الحياة الأدبية

يقول عبد المجيد شبكشى [1] ، بدأت النهضة عام ١٩٢٦ نظم فى خلالها أدباء الحجاز الشعر وظهر أدباء الحجاز البارزين وفى مقدمتهم محمد سرور الصبان الذى أصدر كتاباً أدبيا ضم بين دفتيه مختارات لأدباء الحجاز :

ولقد تمثلت روح الحجاز فيه من حيث صحة النزعة وبساطه التفكير وجماله :

وقال : إن الكتاب البارزين فى الحجاز لا يزيدون عن عشرة ولكن أقلامهم الممتازة هى التى صورت مبلغ تأثر الحجاز باليقظة الفكرية .

والحجاز يحتذى أدب مصر ونزعاتها الفكرية ولا غرابة إن شابه البعض من أدباء الحجاز بعض أدباء مصر فى روحهم الأدبية .

وقال : إن الأدب الحجازى رمز لما افتقده الحجازيون من عواطف وأحاسيس وحب وولاء وغرام عميق بالحرية .

وقالت صحيفة صوت الحجاز التى تصدر فى مكة [2] : حياتنا الأدبية إنما تستمد كيانها وعناصرها من الأدب العربى الإسلامى القديم كمؤلفات الجاحظ وقصائد المتنبى ومن قرائح أدباء مصر المعاصرين : وقلما تأخذ أى فائدة أو تستمد أى فكرة

(١) مقال بمجلة الرسالة ١٩٣٦ .
(٢) ١١ مايو ١٩٣٦ :

عن الأدب الغربى رأسا لعدم إلمام الأكثرية الساحقة من القائمين بها باللغات الأجنبية . وقد ظهر فى عالم المطبوعات كتب أدبية حجازية منها . أدب الحجاز وآثار المدينة المنورة ، التوأمان ، إصطلاحات فى لغة الكتابة والأدب ، التحفة الشماء فى تاريخ العين الزرقاء ، حياة سيد العرب .

وقد عرض طه حسين للأدب الحجازى مرتين . الأولى عام[١] ١٩٣٣ فقال

• بدأ الحجازيون المجددون ينشئون الشعر والنثر على مذهبهم الجديد ولكنهم لم يوفقوا بعد إلى أن يكونوا للحجاز شخصية أدبية . إنما هم تلاميذ السوريين المهاجرين إلى أمريكا بنوع خاص فمثلهم العليا فى الأدب يلتمسونها عن الريحانى وجبران ومن إليهما .

• دفع إسراف النجديين فى المحافظة بحكم مذهبهم الوهابى إلى مقاومة الحركة التجديدية التى تأتيهم من العراق ومصر .

• هناك قصائد فيها تأثير ظاهر للروح العراقى فى شعر الزهاوى والرصافى والكاظمى والروح المصرى فى حافظ وشوقى :

• لكن للشعر النجدى الجديد «شخصية» تميزه عن شعر العراق ومصر فهو على تأثره بالشعراء المحدثين محافظ على لغته محافظة غريبة يتخير القوافى الصعبة ويطيل فيها ويكثر منها ويسرف فى الألفاظ العربية البدوية . كانه يلتمسها من المعاجم . وكأنه يأخذها من لغة البادية النجدية التى هى من مادتها على كل حال لغة الشعر العربى القديم . وقلما يستطيع الشعراء النجديون أن يتبعوا شعراء العراق فى تأثرهم بفلسفة المعرى والخيام ، أو بالنزعات الأدبية الجديدة أو يتبعوا

---

(١) مقال مطول فى مجلة الهلال

المصريين فى تجديدهم العنيف لألفاظ الشعر وأساليبه ومعانيه . إنما هم معتدلون .
وهم إلى إحياء الشعر القديم أقرب منهم إلى إيجاد شعر جديد .

وأهل نجد يختلفون إلى العراق كثيراً والعراقيون يصعدون إلى نجد . ولا بد
من أن يعود الحال بين القطرين إلى ما كان عليه أيام بنى أمية من التعاون الأدبى
الوثيق .

• وفى تهامة وعسير حياة عقلية ولكنها ضئيلة . وهى ممعنة فى التصوف
متأثرة فى ذلك بأفريقيا الشمالية ، فقد نقل إليها الأدريسيون طريقة مغربية
انتشرت فيها وظفرت بالسلطان السياسى ولكنها لم تحدث نهضة أدبية ولم تغير
من حال الأدب شيئاً . »

ثم عاد طه حسين إلى الكتابة عن الشعر الحجازى بعد ذلك بعشرين عاما
فى مقدمة ديوان فى ظلال الوحى للشاعر حسين عبدالله القرشى (١) فقال :

• لقد سكت الشعر الحجازى فأطال السكوت وأسرف فيه على نفسه
وعلينا وهو الآن يؤوب بعد غيبة طويلة وينشط بعد هدوء أوشك أن يكون خموداً

• سمعت شعراء الحجاز يتغنون بالحب والأمل وبالحرمان واليأس وبالشوق
والطموح وعرفت أن قد آن لى أن أغير ماقلته منذ عشرين سنة من أن الحجاز
لا شعر فيه وما أكثر ماتتغير حياة الأجيال فى عشرين عاما .

• لم يكن فى الحجاز شعر ذو بال ولكن فى الحجاز الآن شعراً له خطر
أى خطر يتغنى به رجال قد كادوا ينضون عن أنفسهم ثياب الشباب فى نشاط وأمل
وثقة وإيمان . ويتغنى به صبية سمعت بعضهم فى المدينة لم يكادوا يبلغون
طور الشباب .

---

(١) صدر الديوان عام ١٩٥٣

• إن فى غناء أولئك وهؤلاء حزنا يمزق القلوب وأسى يفرق النفوس وفيه غزل عذب وحماسة معقدة وطموح إلى المجد وسمو إلى عظائم الآمال والأعمال وفيه العذوبة الرائعة الشائقة التى تنسل إلى النفوس فتشعرها رضى حلواً لا يخلو من حزن ضئيل يجرى فيه مجرى خفيا .

وفى شعر الحجاز صفة تحببه إلينا نحن المصريين ، فإخواننا الحجازيون قد قرؤونا قيمن قرؤوا من الأدباء المعاصرين ، ولأمر ما أحبوا قراءتنا وكلفوا بها ثم تأثرونا ثم حاولوا أن يذهبوا مذهبنا لا فى الشعر وحده ولكن فى شئون الحياة على اختلافها وهم يذهبون مذهبنا فى الشعر . يتغنون مانتغنى به من الحب والأمل ويشكون ما نشكو من اللوعة والحرمان .

* * *

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل فى تصوير معالم الفكر العربى فى الحجاز :

انه ليرى مافى الروح العربية من توثب وطلعة . وحرص على الانتشار إلى غاية ما يستطيع بلوغه كحرص البدوى الرحالة على أن يصل فى أناة وصبر إلى كل ماتيسر له راحلته الوصول إليه من اصقاع وإن نأت . فابن البادية يترسم اليوم الطائرات ويخيل لنفسه عيش أهل الغرب كما كان بدوى العصور الماضية يرسم لنفسه صورة أيوان كسرى ويخيل لنفسه ترف الفرس والروم !

وقد يجول بخاطر ابن البادية اليوم مثل ماجال بخاطر سلفه القديم من غزو أهل الحضارة الحالية » .

وقال احمد أبو بكر ابراهيم[1] : لقد تأثر أدباء الحجاز بالأدب المصرى وبالأدب المهجرى . وأن عنايتهم بالقراءة فى الكتب الحديثة أكثر من الكتب

(١) فى كتابه: الأدب الحجازى فى النهضة الحديثة .

القديمة ، يقرأون من الشام والعراق · وهم يقبلون على الكتب وخاصة الكتب التى تمثل الأدب الصريح . ولما كان الشعر ديوان العرب فانه فإنه أبرز ماعندهم من ألوان . وهم يتشيعون للأدباء المصريين ، ويعجب بعضهم بأسلوب الزيات أو العقاد أو أحمد أمين أو طه حسين ·

• إن الأساس الذى يقيم عليه الحجازيون أدبهم · والمعين الذى استمدوا منه مناهجهم إنما هو أدب المهجر ، لذلك تراهم إلى الآن متأثرين أشد التأثر بأساليب هذا الأدب وطرائفه .

• كان للصحراء وحياتها الخشنة أثرها فى أخلاق الصرامة والثبات والجلد والعمل المتلاحق الذى لا يدركه فتور .

• لا يزال الأدب فى الطور الأول من أطواره ؛ ماض إلى الامام بخطوات ناجحة. كان أثرأدباء المهجرمن السوريين أقوى وأظهر فى أدبهم الحديث حتى عهد قريب ثم بدأ يتحرر من صور التقليد وأخذ يشتد ساعده .

• ثقافة الحجاز لا تتعدى الثقافة العربية · استوعبوا كثيراً من ألوان الثقافة استيعابا يغبطون عليه ، فهم يقرءون إنتاج المتأثرين بالثقافات الأجنبية من أدباء مصر والشام والعراق وأمريكا .

• عند مارأى شعراء الحجاز أنهم فى مؤخرة الركب العربى هالهم الأمر وأرادوا اللحاق به فأسرعوا الخطى وأغذوا السير فى حركة الواثب المتحفز . وهناك طائفة مجددة متمهلة تحرص على الأسلوب حرصها على الموضوعات والمعانى الملائمة الجديدة . وطائفة مسرفة فى التجديد لا تقنع حتى تأتى بآخر جديد لايهمها بعد ذلك حسن الأسلوب استقام أم هان وضعف .

• من المتمهلين : العزاوى والعربى وبالخير ومن المتسرعين محمد سرور

وعمر عرت وعواد وحسن فق ولم يقدر للحجاز شاعر كبير .

• قلد الحجازيون أدباء المهجر واستمعوا لدعوة جبران التى يطالب فيها بالخروج عن التقليد التى يتمثل فى هذه الالوان : الصحراء . النوق . الجيوش. الحب ، الجمال ، الخمر ، مدح الملوك .

• أكثر أدباء الحجاز شعراء وكتاب وخطباء · لم يظهر التخصص ظهوراً واضحاً عند أدباء الحجاز · هناك كتاب لم يحاولوا الشعر : السباعى وزيدان وأحمد جمال .

وهناك من يجمعون بين الكتابة والشعر : عبدالقدوس · النقشبندى ، على حافظ ، محمد سرور ، شاكر ، عبدالله عريف .

• النثر الحجازى يحمل طابع الشعر وخصائصه ففيه خياله الفياض وحماسته المتدفقة ووقدة التعبير عن العواطف والأحاسيس . حتى ليخيل إليك وأنت تقرأ نثر المجددين منهم أنك أمام شعر شاعر (١) .

• الحجازيون خياليون فى نثرهم . يتميزون بالألفاظ الموسيقية التى تشبه ألفاظ الشعر .

• أما المدرسة المتشددة التى تتبع ادب مصر والشام فإنها تتحرى الدقة فى التعبير وتحاول مخاطبة العقل فنها : عبد السلام عمر ، أحمد العربى ، على حافظ

---

(١) هذا نموذج من النثر الحجازى لعزيز ضياء بعنوان : ياوطنى .

أنت ياوطنى ينبوع تدفقت منه أنوار المدنية والحضارة والعلم . من روابيك وربوعك. من جبالك وسهولك . من صحاريك وقفارك . تعالى فيك صوت الدين الإسلامى الحنيف فسمعته الإنسانية فاستيقظ فيها مواضع الإحساس وانبعثت فيها روح الحياة . منك ياوطنى انبثق الفجر الذى بدد ليل الهمجيه والوحشية التى ظلت تتخبط فى دياجيره الإنسانية قرونا طوالا . ياوطنى يامهبط الوحى . يامنجم الأبطال الخالدين ومنبت العباقرة النابغين .

زيدان . أمين عقيل . ويعد «احمد سباعي» اثبت الناثرين قدما فى الحجاز وأقواهم حكما . ومن كلامه قوله :

« مارأيت كالقوة منعة تحصن جانب المرء وتعزز مكانته وتحفظ كرامته وأنه يخيل إلى أن البسيطة بآهلها وأهلها بقواعدهم اصطلحوا على احتقار الضعيف وأطبقوا على الاستهانة به فحذار ياصاحبي أن تـكون ضعيفا »

وهو فى هذا متأثر بأسلوب المنفلوطى

وهذا نموذج آخر لحسن كتبي « أرقت نفسى فى أعماقها بضع ساعات من ليل مكبوت الافلاك . غائم الجو ، كانما تجليت فيه السماء بصحراء نقية بيضاء كصحراء الغبراء ، وساد صمت الليل العميق واخذ الأرق يطوف فى عوالم الخيالات لاحلم فى يقظتى بحلم لم تره عين ولا هجس فى قلب ولا سمعت به اذن » وهو فى هذا متأثر بالمدرسة المهجرية

- يرى الشعراء انهم لم ينجحوا فى حاضرهم إذا لم يقتفوا اثر السابقين ويعملوا على غرارهم يفخرون بأن بلادهم مهبط الوحى ومبعث الدين

- يعالج الشعر الحجازى النواحى الاجتماعية ويرسم المثل الأعلى . ويدعو المرأة الحجازية لتكون أما صالحة . ويدعم الـكتاب كتاباتهم الاجتماعية بأدلة من الدين، وما يزال الشعر أقوى من النثر .

٤ — الشعر الحجازى

أبرز الشعراء المعاصرين فى الحجاز الآن : حسن سرحان ، والفلالى ، وعبد القدوس الانصارى وحمزه شحاته وحسن العواد والغزاوى ، وحسين عرب واحمد القنديل ومحمد العامر لرميح ، ومحمد سعيد نانصيل ، واحمد الفاسى ومحمد كامل جحا ومحمد حسن فقى والعامودى ومن جماع ما كتب عن الأدب الحجازى

نستخلص أن الشعر الحجازي يتبع الشعر المصرى ممثلا فى مدرسة ابولو (ابوشادى وناجى وعلى محمود طه) والشعر المهجرى والشعر العراقى . ويقول احمد العربى الشاعر السعودى — ان اثر أدباء المهجر من السوريين قوى ظاهر فى أدبنا الحديث . وفى شعراء نجد . وان الفلالى يحتذى حذو على محمود طه فى موسيقاه وعواد يتبع خطوات أبوشادى ومدرسة ابولو ،وحسين سرحان من تلاميذ ناجى، ومحمد العامر الرميح مهجرى الاتجاه ،واحمد القاسى ينهج نهج شعر العراق وهناك من تأثر طاغور حيث ترجمت من آثاره « الزنابق الحمر » ويوصف عواد بالتمرد الذهنى . كما يوصف العربى بأن العاطفة والوجدان هما قوام الشعر وعنصر الحياة فيه ويقول عبد الله بالخير لايمكن للأديب أن يهرب من واقعه . ويؤمن العواد بأن رسالة الشعر فى الحياة هى انماء ثروة الحياة فى النفس وشعل مصابيح الفكر الانسانى وشرح حقيقة الجمال والصعود بالآدمية إلى أفق سام من آفاق الخلود . أما محمد سرور الصبان فهو شاعر رصين العبارة متميز الديباجة . شعره رومانسى وتظهر فيه النزعة الذهنية بوضوح . وهناك شاعرة حجازية شهيرة هى السيدة خديجة الشنقيطية ١٩٣٨ لها ديوان من الشعر فى مدح الرسول ، وهذه نماذج تعطى الهدف والصور :

العامودى :

ياشباب الحجاز ما عاش من يلزم نوما فايقظوا النواما

عاجز فى الحيــاة من يطلب الراحة فيها ويبتغيها دواما

ساحة المجد لايفوز فيها غير الذى يسبق الجموع اقتحاما

آن أن ندحر الجمود فحتام إليه ركوننا أو إلاما

آن ان ننشر الحقيقة إنا قد سئمنا الخمول والأوهاما

ويقول عواد :

لم نحيا على البسيطة جبرا ونعيش السنين فيها حيارى
أترى الفلسفات والدين والعلم أقامت للسالكين المناراً
هل أفاقت عقولنا من سبات هل شققنا من حيرة استاراً
رب آمنت انك القادر الفرد ملكت الظلام والأنواراً

ويقول محمد حسن فقى :

لا أنت ياقلب بالسالى فتهجره ولا الوصول بميسور ولا دانى
عش هكذا خافقا ياقلب مكتئبا فليس حزنك بعد اليوم بالفانى
اواه : أن جحيم الحب يصهرنى فما الذى بجحيم الحب أصلانى
لا آخذ الله من اصمى بمقلته قلبى وغادرنى نهبا لأشجانى

ويقول الغزاوى

خمدت جذوة الشباب وأمسى ما أعانيه من زمانى ثقيلا
وتثقفت بالتجاريب حتى راودتنى الحياة ان استقيلا
لم اجد فى الوجود إلا جدالا ورأيت الضعيف فيه ذليلا
وإذا الناس كلهم أهل غى يكرعون الحياة كأسا وبيلا
فتراجعت زاهداً وبقلبى رجفة البعث حائرا مذهولا

ويقول الصبان :

ويحى أيعترض القنوط عزيمتى والحزم من طبعى ومن عاداتى
والدهر طوعى والزمان مصادق والصبر درعى والثبات قناتى

فلقد اكر على الخطوب فتنثنى   جزعا أمام مهندى وشباتى
وتمر بى شتى الحوادث خشعا   ويصبها وخو حيال شباكى

٥ — الحركة الفكرية فى الجزيرة

يقول ضياء الدين رجب الكاتب الحجازى فى وصف الحركة الفكرية فى الجزيرة العربية :

« كثيرا ما كانت فترات الضعف والركود تقدمة طبيعية مؤهلة لانتقال أعنف الحركات وانشطها كما تستقبل الخصب والحياة حتى تترك للتاريخ فى حلقاته والمراكز الانفصالية من عهد وعهد وأمة وأمه وحين يتجلى كل عهد بطابعه وسماته وفوارقه ونقاطه ، يضع التاريخ الحدود كما يضع النقاط على الحروف ، وذلك عمل التاريخ منذ كان ولولا ذلك لتعطلت معانيه لأن حركة التاريخ بازمانه واحداثه اياً كانت وكيفما كانت تستقبل فى اطوائه وأعماقه الحسنات كما تستقبل السيئات .

وإذا خصصنا اليوم بآخر عنقود من عناقيد تلك الشجره فى شخص « المالكى » و « الكتبى » فى مكة وعمر البرى والحركان فى المدينة ومحمد بن ابراهيم وعبد الله ابن دهيش فى نجد ، فقد احتفزت الذاكرة احتفازة المجد والتمجيد إلى الدهان والخياط واليمانى والقارى وأمثالهم فى مكة وإلى الاسكوبى والبرابرة والخربوطى والبرى والكردى والكماخى فى المدينة

لقد أعاد الطيب الانصارى ذلك الشرف الأول للمدينة المنورة بما بذل وعلم جاهد حتى انجب كثيرا من العلماء والأدباء فى عيون العلم والأدب فى المدينة .

والشيخان المنقرى وبن بلهيد فى نجد حتى نصعد بالذاكرة إلى مجدد النهضة الاكبر محمد بن عبدالوهاب .

وهناك نمط آخر أقرب إلى الحركة التجديدية وأدنى الى الانطلاق والتحرر

كانت إلى حد ما تمهيداً للتطور الفكرى فى الأساليب والاتجاهات الحديثة هيأت على الأقل جيلا صالحاًمن ابنائها انبثقت مع مولده إشراقة الفجر الباسم فى مطلع النهضة الفكرية والأدبية . ولولا ماكانت تعترضه من قيود ثقيلة فى العهد الذى سبق العهد الحاضر بما فيه من رواسب رجعية قائمة ، كان الحاكمون يعتبرون كل حركة جديدة ثورة وكل تطور سياسة ، حتى كان العلم مخيفا والأدب ووسائله من صحافة ونواد واتجاهاته أخوف . ولكن ذلك كله بما فيه من اعنات وكبت وتزمت كان مبعث اخصاب ونقطة تحول وانطلاق عندما ابتسمت الحياة فى عهد السعوديين فاخذت تلك الركائز المخبوئة طريقها إلى النور وتمنى بالركائز المواهب والأفكار والحيوية والشباب فانطلقت إلى حيث المدى الأرحب . . »

تعطى هذه الصورة نموذجا للكتابة وترسم صورة لمعالم الفكر العربى الحجازى التى تتمثل اليوم فى دواوين لشعراء الحجاز ، ومؤلفات نثرية ، وقصص فى طريقها إلى النضوج وصحف أم القرى وصوت الحجاز والمدينة المنورة والمنهل (عبد القدوس الأنصارى) والبلاد السعودية (عبد الله عريف) وقد عطل بعض هذه الصحف لأزمة الورق إبان الحرب العالمية الماضية .

وقد ظهر أدب حجازى خارج الحجاز، وفى مصر مثلا كان هناك من يحمل راية الثورة على المجتمعات العربية ويتحدث عن أثر ظهور البترول فى الجزيرة العربية مثل «هذى هى الأغلال » لعبد الله القصيمى (اكتوبر ١٩٤٦) .

وقد وصفه العقاد بأنه « يشن الغارة الشعواء على من يقدسون البلاهة ويوجبون على الناس الكسل باسم الاتكال على الله ويحرمون تعليم المرأة ويوهنون ثقة الإنسان بنفسه وينكرون الحكمة القديمة والعلم الحديث »

ويكاد هذا الكتاب أن يجمع بين ثورة الوهابية فى تحرير الدين وثورة البترول فى تعمير مناجم الصحراء من التوقف إلى الحركة ومن الجمل إلى الطائرة ومن الفقر إلى الأموال الضخمة .

٦ — فى اليمن

وفى اليمن حركة أدبية ابرز معالمها الشعر وقوامها المحافظة على الحرية ولا مانع من تضحية التجديد ، وايثار التقوقع زيادة فى الحرص على بقاء الأرض ، لاتدنسها أقدام الغزاة . والنفس العربية فى اليمن تخشى الغريب والغربى معا وتشك فى نواياها ولذلك اقفلت أبوابها فى وجه الحضارة أربعين عاما حتى لاتكون مسرحا للاحتلال ومقرا للغزاة أو ممراً للقوات الأجنبية . وقد استطاعت أن تحفظ كيانها بدويا عربيا صحراويا فيه الأصرار والصمود والحرص والقوة .

يقول احمد محمد الشامى وهو من ابرز مفكرى اليمن فى العصر الحديث : الأدب اليمنى أدب شعب عريق فى عروبته محافظ على مقدساتها – معنى وشكلا – منذ زمن بعيد حتى يوم الناس هذا . وقد يزدهر وقد يخبو ولكنه لم يمرق من اطاره العربى الخالص . وقد ظل عربيا خالصا فى عصوره المزدهرة انه يظل عربيا خالدا فى لياليه الصامتة . وأدباء اليمن وشعراءها عرفوا منذ القدم بايمانهم بعروبتهم بل ووصلوا فى ذلك إلى حد بعيد .

ويصور احمد الشامى فى بحثه عن الشعر والقومية العربية[1] أبرز خصائص الفكر اليمنى وهو كراهية المستعمر الأجنبى فيقول « لقد تجلى هذا المعنى فى تحرر اليمن المبكر من نير الاستعمار العثمانى فقد انطلقت ثورة القومية العربية متأججة كالبركان وظل الصراع الرهيب فترة من الزمن نال بعدها الشعب اليمنى استقلاله وسعى نحو تدعيم شخصيته الدولية السياسية بالحياد الايجابى فكان أول قطر عربى أقام صلاته مع المعسكر الشرقى على أساس هذا الحياد »

(١) القى البحث فى مؤتمر الادباء العرب الثانى فى القاهرة

وصور الشامى تجارب اليمن مع الأمة العربية فقال « لقد ثار الشعب اليمنى عن بكرة أبيه عند وقوع الحملة الفرنسية على مصر ، ولم تقف هذه الثورة داخل اليمن بل تعدت إلى دعوة زعماء العرب كى يهبوا للوقوف ضد الغزو الفرنسى وقد نقلت كتب التاريخ بعض الوسائل التى بعث بها علماء اليمن إلى الزعماء وذلك مثل رسالة العلامة المشهور الشوكانى ، ولقد كان اليمنيون إبان حرب فلسطين ينضمون إلى أول جيش عربى يلقونه غير ناظرين إلى أى قطر من أقطار العروبة ينتمى قياده هذا الجيش »

وقد صور طه حسين تطور الأدب العربى فى اليمن[1] فقال :

اليمن أشد البلاد العربية محافظة على قديم القرون الوسطى ، يعنى أهلها بعلوم الدين على طريقة الزيدية من الشيعة وينشرون الكتب الكثيرة فى هذه العلوم يطبعونها فى مصر ولهم شعر كثير ولكنه ما زال قديما متأثرا بالروح المصرى الشامى الذى كان منبثا فى الشعر قبل النهضة الحديثة .

والشعر عندهم مختلط بعلوم الدين فقلما تجد منهم عالما دينيا إلا وله مشاركة فى الشعر . واكثر أئمتهم شعراء . وأمامهم يحيى الآن يجيد الشعر على النحو القديم . ومن غريب أمر اليمن انها ظلت طوال القرون الوسطى اكثر البلاد العربية حظا من العلم والأدب فى حواضرها . وكان يرجى أن تكون اسرع البلاد العربية إلى الأخذ بأسباب الحياة الجديدة . ولكنها الآن ربما كانت اسرع البلاد العربية إلى الأخذ بذلك »

والواقع أنه منذ[2] انسحبت جيوش مصر من الحجاز واليمن (١٨٤٠)

(١) من بحث فى الهلال — ١٩٣٣ .

(٢) اليمن حاضرها وماضيها — ك — أحمد فخرى ١٩٥٧ .

بعد الحملة الوهابية فقد عاد الأتراك إلى حكم اليمن ١٨٤٩ وكان الانجليز قد احتلوا جزيرة بريم ١٧٩٩ ثم نزلوا بالقوة عدن فى ١١ يناير ١٨٣٩ وهى جزء أصيل من اليمن ، ومن هناك بدأو يقتطعون اجزاء اخرى اطلق عليها فيما بعد المحميات التسع . وبدأ حكم الإمام يحيى لليمن ١٩٠٤ وانتهى ١٩٤٨ وقد ناهض العثمانيين ومضى بجاهدهم لمدة سنوات سبعة حتى تحرر من سلطانهم عام ١٩١١ عندما اعترفوا بحق اليمن فى الاستقلال .

ولكن ايطاليا لم تلبث أن أرسلت اسطولا إلى البحر الأحمر واطلقت مدافعها على أكبر موانى اليمن وخربت ميناء الصليف ،وعندما بدأت الحرب العالمية ١٩١٤ انزلوا جنودهم فى ميناء الحديدة بعد ان هاجوها بأسطول مكون من ١٥ سفينة وقد ظل الاستعمار فى هذه المنطقة بفصل الاجزاء ويوقع بين الاخوة . ويثير بين أهل المحميات العصبيات والخلاف بين الشوافع والزيدية فى داخل اليمن ، فضلا عن اثارة الفتن فى سلطنة لحج وتدبير انقلاب بها ، ثم انتهى هذا إلى احتلال الانجليز للشاطىء الجنوبى لليمن بأكمله ابتداءاً من باب المندب حتى الخليج الفارسى .

ومن شعراء اليمن الإمام احمد وعبد الله عبد الوهاب المجاهد واحمد الشامى واحمد الخزان

يقول الإمام احمد فى الوحدة العربية :

أيها العرب حبذا اليوم موت — بفلسطين فاشربوه شرابا
لا تهابوا قومى العدو فأنتم — باتحاد القلوب اعلى جنابا

ويقول عبد الله عبد الوهاب الماجد

خطر يهددنا يهد كياننا — ان لم يجد منا الصواعق منطقا

فله أعدوا جهدكم وجيوشكم   فالفوز بالأقوال لن يتحققا

ويقول احمد الشامى وله ديوان مطبوع « النفس الأول »

ابن العروبة والعروبة أمه   قد وحدتها طاعة الرحمن

لا فرق بين يمانها وشآمها   وعراقها والشم من لبنان

ولمصر اخت والحجاز يضمنا   لغـة ودين واتحـاد أمانى

ومن أوائل الكتاب فى اليمن : القضاة يحي بن محمد الاربانى وعبد الكريم مظهر واحمد الخضرانى . وفى مقدمة العاملين فى ميدان الصحافه احمد عبدالوهاب الوريت رئيس تحرير مجلة الحكمة اليمنية .

وقد شهد اليمن فى المرحلة الأخيرة أحداثا داخلية منها مقتل الإمام يحيى ١٩٤٨ ومؤامرة ١٩٥٥ ضد الإمام احمد كما شهد أحداثا خارجية هى مواصلة العدوان البريطانى على الاجزاء المحتلة من اليمن منذ فبراير ١٩٢٧ وقد تحققت خطـوه ضخمة فى مارس ١٩٥٨ عندما تم الاتحاد الفيـدرالى بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة .

٧ ــ الكويت

وفى الكويت حركة أدبية واضحة المعالم تتأثر بالعـالم العربى كله وخاصة مدارس الأدب فى بغداد والقاهرة وقد تأثر بالاستبداد العثمانى كما تأثرت الاجزاء الأخرى من الوطن العربى .

يقول احمد العدوانى من كتاب الكويت : دخل الأدب العربى كما دخلت الأمة العربية فى غياهب الظلام بعد أن أظل البلاد الحكم التركى ، حكم الأغوات والسلاطين وقد جد هذا الحكم الاسود استمرار العرب الحضـارى وعطل

كل حركة عربية واسلامية وحاول جاهداً تتريك العرب ومسخ تاريخهم وقوميتهم ولغتهم .

وانتهى العصر التركى بماله وماعليه وخلّف تركة ثقيلة لا تزال بعض آثارها باقية فى الوطن العربى حتى اليوم وفوجئت البلاد العربية بالاستعمار الغربى بكل ما يملك من حول وطول ونهم ووحشية .

ومما يجدر ذكره أن الكويت تأثر بالحركة الوهابية ثم تأثر بعد ذلك بحركة جمال الدين الأفغانى ممثلة فى العروة الوثقى والمنار وقد زار رشيد رضا الكويت فى مستهل القرن العشرين .

وسجل خالد سليمان العدسانى فى كتابه تاريخ الحركة الفكرية فى الكويت للشيخ محمد الشنقيطى مؤسس مدرسة النجاة ما كان له أكبر الأثر فى تحريك الأذهان للحركات الاصلاحية والفكرية التى تتالت متباطئة فيما بعد » وقد برزت دعوته إبان الحرب العالمية الأولى .

وقد أرسلت الكويت أول بعثة علمية مكونة من خمس طلاب إلى كلية الامام الأعظم فى الأعظمية بالعراق عام (١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م) .

كما يذكر الكويت المصلح الأول « يوسف بن عيسى » الذى أصدر عدداً من المؤلفات فى مقدمتها كتابة « الملتقطات » وصفحات من تاريخ الكويت .

ثم صدر عدد من المجلات فى مقدمتها مجلة الكويت والعراق « عبد العزيز الرشيد » .

ومن الشباب الذى حرك موجة الفكر الكويتى فى مطلع النهضة : سليمان خالد العدسانى وعبد الحميد الصانع ومحمد جعفر .

ويعد « البصير صقر بن سالم بن شبيب » شاعر الكويت الأول . وقد جال

البصير ببلاد الهند وتمرس باللغات الهندية كما ذهب إلى البحرين، ومن شعراء النهضة فى الكويت خالد محمد الفرج ويسمى شاعر الخليج . وعبد الله العلى الصانع وحجى بن قاسم الحجى وعبد اللطيف ابراهيم النصف وهم نواة اليقظة .

وفيما بعد الحرب العالمية الثانية وتفجر البترول فى الكويت وتحقق الثروة النفطية أعطت الدولة إمكانيات ضخمة للثقافة والفكر وظهرت مجلة التعبئة يحررها عبد العزيز حسن وعبد الله زكريا والرائد وهى مجلة نادى المعلمين فى الكويت : ومن أبرز محرريها حمد الرجيب واحمد العدوانى وفهد الدويرى كما صدرت مجلة الايمان وصدى الايمان :

ويقول أحمد طه السنوسى[1] من أدباء الكويت: يستفيد الشعر فى الكويت من كل نهضة حوله . ويتكون حيث أثر فيه التجديد دائما وتلعب النهضة الأدبية فى مصر دورها الخطير فى هذا التلون والاستفادة من الشعر الكويتى . كما تلعب فيه النهضة الأدبية فى العراق والمملكة السعودية وسوريا والبحرين .

● الاتزان والمغالاة ميزتان كثيراً ما نلاقاهما فى الشعر العربى المعاصر وهما يظهران بجلاء فى الكويت . بيد أن المغالاة أتت من الشعراء الذين اندمجوا فى الحضارة والنهضة العربية الخارجية عن بلدهم فصدمهم الاعجاب بها وكان الانفجار كالبركان .

● الشعر الكويتى خير ما يعبر عن نفسية الكويتيين . وهذه النفسية قد يستعصى فهمها على عابر لأن أعظم صفة يتصف بها الكويتى هى الجمود والبرود »

ومن أبرز شعراء الكويت فى العصر الحديث فهد العسكر ، احمد مشارى العدوانى وعبد المحسن رشيد البدر وعبد الله زكريا وأحمد السيد عمر .

---

(١) مارس ١٩٥٠ .

ومن أبرز الكتاب عبد الله أحمد حسن الرومى · وأحمد السقاف ، وأحمد الخطيب ، فهد الدورى ، عبد الوهاب محمد ، والعبد الوهاب ، وسيف مرزوق الشملان ، وفاضل خلف .

ويعد « فهد العسكر » من أبرز شعراء الكويت وقد كتب عنه « عبد الله زكريا الانصارى » رسالة[1] وصفه فيها بأنه من شعراء الكويت المجددين الذين آمنوا بضرورة مسايرة الشعر لتطور الزمن وحاجيات المجتمع الجديد ، وهو عربى صميم نشأ فى الكويت بين عائلة عربية محافظة · ومجتمع متمسك بالتقاليد والعبادات وقد رماه الناس بالكفر والجحود . ومله أهله واعتزلوه وأصبح يعيش فى وحدة تامة : وأصبحت حياته سلسلة من الآلام والأحزان انعكست على شعره وهرب من ضيق الحياة إلى الراح وفى السنوات الأخيرة كف بصره فزاد ذلك من شدة حساسيته وانطوائه على نفسه وهروبه من الناس وإيثاره العزله وظل بذلك رهين المحبسين : العمى والعزلة حتى توفى عام ١٩٥١ وقد حث الأمة العربية على النهوض وتحطيم القيود والسير نحو العز والمجد ويقال أن بعض أقارب الشاعر أحرقوا بعد موته جميع أشعاره التى كان يحتفظ بها ويسجلها فى أوراق خاصة » ا . هـ

ويمثل فهد العسكر دور الانتقال فى الشعر الكويتى بين الشعر القديم والشعر الحديث وقد زاد غليانه وجوده فى مجتمع عرف بالهدوء والمحافظة وكان شعره ثورة عاصفة فى وجه التقاليد والعادات وتغنى بالحب والجمال وتغزل وشبب ولذلك حمل عليه الناس ويوصف (أحمد العداوى) بأنه شاعر الكويت الأول بعد فهد العسكر . وهو كثير التشبيب والتأثر بايليا أبو ماضى · وفى شعره روح التشاؤم

---

(١) صدرت فى عام ١٩٥٦ .

والسخرية ، وقد عرف بوحدة القصيدة والعنايه بالهدف فى شعره .

وأثرت كتب المنفلوطى فى نفس (عبدالله زكريا الانصارى) ومجلة الرسالة وكتب الرافعى وتأثر فى الشعر بمعروف الرصافى وعمر أبو ريشه : ومن شعره :

مضت حقب والنوم ملء جفوننا فليس بنا إلا أسير مكتف
تعبث بنا أيدى القوى فلا نرى من الجور الاظالم متعسف
وطال علينا الليل حتى كأنه أقام فلم يبرح ولا هو يصرف

ويجيد عبد المحسن محمد الرشيد اللغة الفارسية وقد أحب عمر الخيام وسافر إلى إيران. أما أحمد زين السقاف فقد ولد فى عدن وأثرت فى حياته عوامل الاستبداد التى كانت تسود منطقة لحج وثورة فلسطين التى عمل لها فى عدن والعراق ، كما أثرت فى نفسه ثورة رشيد الكيلانى وتأثر بالجاحظ فى القديم وساطع الحصرى فى الحديث .

أما عبد الله النورى فهو من مواليد العراق ، تأثر بسقوط طرابلس فى بدء الغزو الايطالى والقضاء على عمر المختار واهتزت مشاعره لمحنة طرابلس والدم الذكى المسفوك .

وتأثر صقر سالم الشبيب بالمتنبى والمعرى من القديم والمنفلوطى وحافظ وشوقى فى الحديث وقد حرم نور بصره فثارت فى نفسه نزعة الشك .

ويصور شعر ناجى علوش المقاومه العربية الضخمة ؛ وهذا نموذج من شعره

« إلى رفاقى الذين يغنون للنصر فى أعماق سجون العراق والأردن .

(عمان) تحتضن السكينة . عمان خاشعة حزينة

عمان تبتلع التمرد والضراوة والضغينة .
عمان تستلقى طمينة .
عمان مابرحت حصينة ، ولسوف تصمد للسياط وللعساكر والمحاكم
عمان ملحمة التحرر والكرامة والضياء .
عمان مازالت تقاوم ولسوف تبقى كالقضاء أمام جلاد القضاء
عمان سوف تفجر التاريخ ، تاريخ الملاحم
فى السجن . فى الصحراء . فى أعماق أقبية المظالم» :

أما بالنسبة للنثر والتطور الفكرى فيرسم « ابن الحياة »[1] هذه الصورة تحت عنوان « أزمة المثقف الكويتى »

• يمر الكويت بمرحلة ازدوجت فيها الحياة الاجتماعية ازدواجا بالغ الخطورة . ولقد كان للقفزات السريعة فى ميدان التقدم المادى الذى طرأ على الكويت فى السنوات الأخيرة دخل كبير فى هذا الازدواج العصيب .

• الكويت يستضيف جميع النتاج الحضارى وينعم بخيراته واطايبه كما هو حاصل فى بناء المساكن الحديثة وفى استعمال أدوات المنازل وأنواع المواصلات وفى مظاهر اجهزة الدولة اذا اعتبرت ذلك ، فان الكويت من هذه الوجهة قد ضربت بسهم كبير فى الاستفادة من الحضارة الحديثة فى تنظيم شئون حياتها ومجتمعها .

• ولكن الكويت التى تقبل كل هذه المظاهر المدنية وتستقبلها بشغف وكرم وحماسة منقطعة النظير — فى بعض الأحيان — الكويت هذه لاتزال من حيث الأسس الفكرية تحكمها روح القبيلة ، فهنالك تعارض عنيف بين الواقع المادى للكويت لاينعكس كاملا فى نظم وقوانين وعلاقات مادية تناسبه تماما بل

(١) سبتمبر سنة ١٩٥٨ — مجلة المجتمع : الكويت .

أن هناك موروثات مختلفة من عهد سابق تشارك فى السيطرة على الواقع الفكرى أو النظرى للكويت .

• فالجيل الحاضر من المثقفين الذى فرضت عليه تطورات الكويت أن يطلب الثقافة من المدرسة أو الجامعة أو يكسب ثقافته من الكتب أو من وعيه لاحداث المجتمع الجديدة أو من جميع هذه الأشياء كلها قد تكونت لديه فكرة متكاملة عن الحياة المدنية ونوع العلاقات التى تنشأ بسبب ظروف هذه الحياة ولكنه عند ما يحاول أن يحيل افكاره إلى معاملات وعلاقات اجتماعية ويسعى فى سبيل الوحدة بين الفكر والعمل يجد هناك تمارضا بين الواقع الذى يمارسه عمليا والفكر الذى يؤمن به نظريا .

• هناك مظاهر متعددة لهذه الأزمة · هنالك روح الانعزالية أوالانطوائية وهى تكاد تكون شائعة بين المثقفين الواعين من الطبقة المتوسطة .

• هذه أزمة فرضها تطور الكويت والسبيل إلى الخلاص من هذه الأزمة بالنسبة للمثقف هى الاندماج فى المجتمع والنضال مع الجماهير الواعية فى سبيل تطوره إلى مجتمع أفضل ، فالثقافة مسئولية والمثقفون مسئولون تجاه أنفسهم وضمائرهم عن رصيدهم الثقافى المجمد فى مصارف نفوسهم ومسئولون عن المجتمع الذى يعيشون فيه وبقاء المثقفين فى عزلة عن المجتمع ينتهى إلى الضلال والانحراف

* * *

وهناك فى البحرين نهضة فكرية تسير فى فلك اليقظة الفكرية العربية : يقول ابراهيم العريض شاعر البحرين :

« الأدب مظهر من مظاهر احتفالنا بالحياة ، فتلك هى الغاية التى تستهدفها بيننا الحياة . وفى سبيلها يعيش الأحياء . ويموتون . أما الأدب الذى هو مرآة

الحياة فى كل عصر — فتنعكس فى التعبير عن العلاقات القائمة ابداً بين ذاتين — انا وانت . إن مدلول الصدق فى الأثر الأدبى ليس مجرد مطابقته للوقائع الخارجية فذاك من اختصاص العلوم تقررها بلغة الرياضة والمنطق »

وابراهيم العريض شاعر عربى يهتز للأحداث . وقد عاش طفولته مريضا وكان مرضه يلزمه الفراش دائما مما جعله يقرأ كثيرا . وكان والده من تجار اللؤلؤ وقد نزح من الهند إلى البحرين وتلقى دراسته فى بومباى وكان مذيعا فى راديو دلهى . وله مؤلفات كثيرة من بينها : العرائس . قبلتان — أرض الشهداء . وله ملاحم شعرية وقد مثل بلاده فى مؤتمرات الأدباء العرب .

٨ — الأدب فى الخليج العربى

وفى دراسة لعبد الرحمن العبد من أدباء الدمام بعنوان « الأدب فى الخليج العربى » يقول أن شعر العريض والأنصارى والماودة والجشى والعسكر والخنيزى والعدوانى والمبارك والمسلم والحظى والمنصور والبواردى من ادباء المنطقة الشرقية والكويت والبحرين لايقل عن شعر البلاد العربية الأخرى

ويقول انه فى اوائل هذا القرن كان هناك بلبلة وحيرة ، وليس هناك انتاج ابداعى ولمحات تشع بين الفينة والفينة ، وهى لمحات قاصرة نشأت دون أن ترتقى إلى الدرجة اللائقة بها والأتراك كانوا يسيطرون على الخليج وقد وقفوا بالمرصاد لكل حركة انبعاثية وفى الأربعين سنة الماضية حدث الأمن بعد ان شمل الجزيرة حكم موحد ، وكان الرواد الأوائل من المتدينين ومن بيوت العلم فى الأحساء : بيت المبارك وعبد القادر

ويقول أنه فى السنوات العشر الماضية تفتحت أكمام التفكير الادبى فى هذه

---

(١) طبع ١٩٥٧ .

المنطقة وكانت « القطيف » سباقة فقــد نشأت بها حركة أدبية وعلمية وكانت على صلة بالعراق ولا سيما النجف .

ومن شعراء الخليج : عبد الحميد الخطى ومحمد سعيد المسلم وعبد الرسول الجشى ومحمد سعيد الشيخ على الخنيزى وكان هؤلاء قد عاصروا الحركة الأدبية فى العراق فتأثروا بها تأثرا مباشراً بعد عودتهم إلى القطيف . وقد ظهرت آثارهم فى مجلة (العزى) والأديب والعرفان اللبنانيتان والرسالة المصرية .

وفى الإحساء ظهر أحمد الراشد المبارك ومحمد على النحاس .

ومن أدباء الدمام والخبر : محمد أحمد فقى وعبد السلام العمرى وعبد العزيز محمد القاضى وعبد الله أبوسنيد وعبد الرحمن المنصور ، وسعد البواردى .

وفى البحرين انشأ عبدالله الزائد الطباعة وصدرت هناك مجلة صوت البحرين وقد احصى الكاتب عدداً من الكتاب فى المنطقة الشرقية هم :

• نجـد : عبد الكريم الجهيمان (أخبار الظهران) عبد العزيز المحمد القاضى (أخبار الظهران) سعد البواردى (شبح فلسطين) ونفحات وزوابع . وعبد الرحمن المحمد المنصور (ديوان تمرد) محمد احمد فقى : اللفحات (ديوان)

• العراق : عبد العزيز أبوسعيد (التعليق السياسى)

• القطيف : عبدالحميد الخطى (آرآء وخاطرات) فرج العمران (الكلم الوجيز) عبد الله الشيخ (نسيم وزوبعة) على الخنيزى ، محمد سعيد المسلم (شفق الأحلام) عباس مهدى خزام (بسمات ودموع) محمد سعيد الشيخ على الخنيزى (الأغاريد ، ورود الصباح) عبد الرسول الجشى (مجلة الغزى النجفية ، بحث عن القرامطة) عبد الواحد الخنيزى (حب وأمل)

الإحساء : احمد الراشد المبارك (المذاهب الفكرية فى الإسلام) عبد الله

أحمد شباط (أسس مجلة الخليج العربى ، كتاب التراث الهجرى) وعبدالله الباز

- الجبيل : ثانى المنصور ويعقوب اليوسف .

- الدمام : يوسف الشيخ يعقوب (الفجر الجديد) .

- الـكويت : خالدالفرح (علاج الأمية) يوسف عيسى القناعى (المتلقطات) عبد العزيز الرشيد (مجلة الـكويت) فهد العسكر . أحمد مشارى العدوانى . عبد الله زكريا الانصارى . صقر بن سالم بن شبيب ، عبد الله العلى الصانع . عبد اللطيف ابراهيم النصف . خالد سليمان العدسانى . سيف مرزوق الشملان . محمود شوقى عبد الله الأيوبى (رحيق الأرواح) .

- البحرين : ابراهيم العريض · عبد الله الزائد عبد الرحمن الباكر . عبد الله الطائى . أحمد محمد الخليفة . ناصر بو حميد . على التاجر .

- عمان : صقر بن سلطان الهاشمى ، خلف بن مصبح ، محمد بن شيخان السالمى وجمه بن سليم ، وهلال بن بدر .

- قطر : عبد الرحمن المعاوده ، فاتح بن ناصر الثانى ، صالح سليمان المانع ، جاسم بن محمد ، أحمد يوسف الجابر ، عبد المجيد الخفاجى .

ويقول السقاف العلوى شاعر حضرموت :

يابلادى تفديك نفسى إننى	حائر الفـكر فى الوجود المزور
إن نظرنا إلى الثراء فانا	فى مجال الثراء أقوى وأقدر
أو نظرنا إلى الجمـــوع فلسنا	بأقل الشعوب بل نحن أكثر
أو نظرنا إلى العـــلوم فمنا	هذب الذوق والدماغ تثور

ويقول عبد الرحمن الجهمان :

ومن يلن لبنى الغبراء جانبه	سقوه من جرعات الذل ألوانا

والحازم الرأى من يجزى مبادئه بالشر شراً وبالاحسان إحسانا
وليس يصبر للأذلال يدهمه إلا الذى عاش فى الإذلال حيرانا

ويقول الأمير صقر بن سلطان الهاشمى .

دع كل صوت لغير السيف أهذار فانه لدم الباغين هدار
حتام صبرك والأيام ما برحت تدعوك للثأر فاسمع أنه الثأر
حانت إلى الغاية العظمى وكلها نصر من الله . إن الله قهار
يا ابن العروبة أنت اليوم مأملها وركنها ان دهتها اليوم أعصار
جرد حسامك ماغير الحسام لها شاف وما غيره بالحق أمار

ويقول عبد الرحمن المعاوده .

وطنى وإن أصبحت فيك معذبا يجنى عليك تحفزى وأبائى
فهواك فى قلبى وذكرك فى فمى رغم الخطوب ودعوة الدخلاء

غرب آسيا

الجناح الأيمن من الأمة العربية

هذه المنطقة الممتدة من شواطىء البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى سواحل البحر الأحمر والخليج الفارسى جنوبا ، الزاخرة بالأمجاد العربية الاسلامية ، موطن النبوات ومتنزل الرسالات ، ومهوى أفئدة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، حيث تقع الجزيرة العربية بحجازها ونجدها يمنها وكويتها، حيث بزغت الرسالة المحمدية ومن اعماقها انبعثت جيوش العرب وفرسانهم مندفعة نحو العراق والشام حيث قامت حضارة عظيمة وبرزت أمة قوية حكمت العالم وزادت فى الحضارة وجددت فى الثقافة والعلم وأضافت إليه. فيها العراق : حاضرة العباسيين ودمشق حاضرة الأمويين وفلسطين حيث بيت المقدس .

وفى قلب هذه المنطقة قام الأزهر والأموى والنظامية والنجف الأشرف وقبة الصخرة والكعبة المشرفة وهناك والجبل الأشم فى ذرى لبنان وقيسون والغوطه فى الشام ولقد كتبت المنطقة صفحة مشرفة من « المقاومة والتجمع » للاستعمار البريطانى فى فلسطين والأردن والعراق وجنوب الجزيرة العربية والفرنسى فى سوريا ولبنان ، كما امتزجت بالجناح الأيسر من العروبة فى معارك الكفاح فكانت صيحات الجزائر وتونس ومراكش وليبيا تتردد فى قلب دمشق وبغداد ومكة والقدس ، فتهز نفوس الشعراء وتثير مشاعر الكتاب فجرت على ألسنتهم وأقلامهم شعراً ونثراً .

ولقد حاول المستعمر وفق خطة ضخمة مدروسة ان يفصل الجناح الأيمن من الأمة العربية عن الجناح الأيسر وكانت اقامة اسرائيل فى السنوات الأخيرة ، تكرار ألمؤامرة الملكة اللاتينية منذ ثمانمائة سنة أريدبها دعم تأكيد الفصل بين الجناحين والقضاء على عوامل

الارتباط الروحى والثقافى ، وكانت مصر فى نظر الاستعمار أداة هذا الفصل ووسيلته فقد حاول الاستعمار ان يوجه مصر وجهه التغريب وركز قدراً كبيراً من مغريات الحضارة عليها حتى تصبح دولة غربية أو غير عربية . وجرت فيها مناورات ضخمة لتحويلها إلى دولة فرعونية أو غربية ، وركزت مؤتمرات للقضاء على عروبتها ولغتها العربية وإسلامها ، وعزلت أكثر من أربعين عاما عن ركب الأمة العربية حيث كان الاستعمار البريطانى فيها يسمم الأفكار ويرسم صورة عجيبة للمقاومة . كنا فى مصر نحاول أن تقاوم الاستعمار البريطانى بالاتصال بالدولة العثمانية فى حين أن العرب فى سوريا وفلسطين ولبنان والعراق والحجاز (وهو الجناح الأيمن) يحاولون الاستعانة ببريطانيا فى التخلص من الاستبداد العثمانى فقد كان هذا الجناح الأيمن حتى قيام الحرب العالمية الأولى ما زال جزءاً من الامبراطورية العثمانية .

وفى نفس الوقت كان الجناح الأيسر من الأمة العربية قد انفصل من وقت طويل عن الدولة العثمانية حينما وقع تحت سلطان الاستعمار الفرنسى (تونس — الجزائر — مراكش) والاستعمار الايطالى فى ليبيا والاستعمار البريطانى فى مصر والسودان .

ولذلك فان قضية اللامركزية العربية والدعوة إلى قيام الكيان المغربى منفصلا عن العثمانية ، وقيام الدولة العربية بعد الحرب العالمية الأولى . . كانت كلها معارك جزئية لم يشترك فيها المغرب العربى الذى كان مقفول الأبواب إزاء أصوات الحرية فى الجناح الأيمن .

وهكذا كان يطمع الاستعمار أن يفصل بين الجناحين بواسطة مصر فاذا بمصر تصبح هذا العالم العربى وتحتضن كل حركات الكفاح ، فقد تكونت بها الجمعيات السرية

السورية والعراقية التى قامت بالثورة العربية كما نشأت بها الجمعيات السرية الليبية وأصبحت مركزا للحركات الوطنية الجزائرية والتونسية والمراكشية .

وكانت صحف القاهرة وأزهرها وجامعاتها مناراً عربياً كبيراً وفشل الاستعمار فى عمليات الغزل الصغرى والكبرى ، فلم يستطع أن يمزق كيان وحدة هذه الأقطار ولم يستطع أن تمزق الكيان الكبير وتنادى الجناح الأيمن بآلام وأمال الجناح الأيسر وردد الجناح الأيسر مشاعر الجناح الأيمن ، وهزت مأساة فلسطين كل قلب فى الجزائر وتونس ومراكش وليبيا وكانت أحداث سطيف ومعارك عبد الكريم وكفاح المغرب العربى كله ومقاومة إيطاليا واسبانيا ومنازله بريطانيا وفرنسا ، كانت تمتد كل قلب فى مصر والعراق وسورية وكان الشعر والنثر العربى فى كل قطر عربى يردد نفس الآمال ، حرية لكل قطر ، ثم التقاء لكل الأقطار فى وحدة كبرى .

---

١ – العراق

قاسى العراق من مظالم الحكم العثمانى ماقاسته سائر أطراف العالم العربى . يرسل الأتراك خصيا أو عبداً يصطنع كل وسائل العسف والاضطهاد يطلق عليه اسم « الأغا » ليس من همه إلا جمع الضرائب للدولة والأتاوات لنفسه وتقوم الخصومة بينه وبين أهل الوطن وتتأجج الخلافات . وزاد من ذلك أن العثمانيين كانوا لا يرسلون للعراق إلا من يعتبرون إرساله نفياً أو عقوبة لبعد العراق عن مركز الخلافة .

كما عاش العراق فترة طويلة من حياته فى صراع بين الترك والفرس إذ جعل كل منهما الاستيلاء على العراق رمزاً لسيادته مما كان له أسوأ الأثر فى العراق نفسه وثروته وحياة أهله . وكان الفرس لا يكفون عن ترويع البلاد بغاراتهم وغزواتهم التى تعرض العراق للخسائر . ولم يكن إهمال الادارة التركيه إلا مثلا لفساد الحكم التركى وبذلك عاش العراق فترة طويلة من حياته فى ظل هذه المطامع والخصومات وقد بلغ من ظلم الملتزمين العثمانيين واستبدادهم أن اهملوا مياه الرافدين تجرى مطلقة تصب فى الخليج دون فائدة ، وكانت أراضى دجله تعتبر ملكا للحكومة تؤجرها للملتزم لمدة خمس سنوات ويستأجرها الشيوخ المحليون الذين يسيطرون على المنطقة ويستأثرون بالعشيرة . ثم بدأت قوة ثالثة تفرض سلطانها فى هذه المنطقة هى قوة الاستعمار الغربى ممثلة فى البرتغاليين ثم فى الانجليز الذين وصلوا إلى الخليج ونشبت الحروب بين البرتغاليين حيناً وبين الأتراك وانتهت بهزيمة العثمانيين مما مكن للاحتلال فى صورته الأولى وهى التجارة أن يمتد ويسيطر .

وكان لهذا أثره فى الحالة الفكرية التى تدهورت ، ولم تعد العراق التى كانت منار الحضارة والفكر العربى إلا أطلالا وقصة تاريخ ؛ فقد تفاقم نظام الإقطاع الذى كان يمنح السلطان بمقتضاه إلى زعماء القبائل ممن يرضى عنهم ما يشاء من الأرض وكان هؤلاء يوردون له الجند الذين يرسلون إلى مختلف الميادين . وكان شمال العراق وجنوبه (الموصل والبصرة) قد استقلا عن بغداد .

ولم يلبث أن قام صراع بين الانجليز والبرتغاليين انتصر فيه الانجليز الذين بدأوا فى أوائل القرن السابع عشر يسيطرون على هذه المنطقة كلها بواسطة شركة الهند الشرقية ، ثم لم يلبث أن قام صراع بين الافغان والترك فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . ثم كان هجوم فارس على العراق بقيادة « نادر » الذى حاصر العراق حصاراً شديداً .

وكانت هذه المنازعات والحروب فرصة للاستعماريين الأوربيين الذين أخذوا يوسعون دائرة سلطانهم ويثبتون أقدامهم فى أرض البصرة . ويتدخلون فى أمور البلاد ويوقعون بين الطوائف .

ثم ظهر سلطان المماليك فى العراق واتسع اتساعا خافته الدولة العثمانية . ولم تستفد البلاد منهم كما كان يتوقع، فقد انقطعت الأموال عن مقر الخلافة ولكنها لم تنفق لمصلحة العراق وانما بلغ حكام العراق من المماليك مبلغاً فى الحروب والغارات على القبائل المختلفة للسيطرة عليها . وأصبح العراق فى شبه استقلال عن مقر الخلافة .

وعند ما ظهرت الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية بدأت محاولاتها للسيطرة على العراق ، وأخذت غاراتها تمتد إلى غرب العراق فى منطقتى المنتفق وظافر (١٧٩٠) باعتبارها مقر المزارات الشريفة ومركز الشيعة الذين يخالفون الوهابيين فى الرأى .

إذ رصد الوهابيون قوافل الحج العراق وهاجموها وانتهى الأمر بأن أعد والى العراق حملة لرد العدوان سارت فى حدود سنة ١٨٠٠ ولكنها لم تتقدم كثيرا ولكن الوهابيون عادوا إلى مهاجمة العراق بعد ذلك فهاجموا كربلاء مركز الشيعة واستمر خطر الوهابيين قائماً مدة غير قليلة .

وقد أدى توغل الانجليز فى العراق — كتجار — إلى اتجاه أنظار الروس إليه . كما جرت محاولات فى فارس لغزو إقليم البابان فى شمال غرب العراق . وكانت قد وصلت إلى العراق مع تجار أوربا حملات رجال الدين الذين أخذوا يهيئون وسائل الغزو الثقافى والتبشيرى ونما نفوذ الانجليز فى العراق حتى أصبحت مركزاً للسياسة الانجليزية فى بلاد العرب والبلاد التركية الأسيوية .

وكان ضغط بريطانيا على العراق يهدف إلى تأمين طريق الهند وخاصة بعد وصول الحملة الفرنسية إلى مصر ونهضة مصر فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر .

ثم لم يلبث سلطان العثمانيين أن اشتد مرة أخرى فى العراق بولاياته الأربعة . بغداد والبصرة وكركوك وحلب بعد أن قضى على سلطان المماليك بمذبحة قام بها على الرضا (١٨٣١) . وفى خلال هذه الفترة الطويلة كان العراق يقاوم فى عنف ولا يتوقف عن المقاومة . كانت روحه العربية الأبية المؤمنة بالحرية والعزة تجعله دائما صامداً للأحداث مقاوما للغزو .

وقد ظل العراق كذلك فى صراع بين الاستعمار العثمانى والبريطانى حتى وصل مدحت باشا والياً على العراق ١٨٦٨ ليمهد النهضة العراق الحديثة .

وتجمع كل مصادر التاريخ على أن ولاية مدحت للعراق فتحت أمامه أفاقا من الحرية الفكرية والاصلاح كما فتحت للشام أثناء ولايته لها (١٨٦٩) فقد ألف مجلساً للشورى . وشجع الناس على الجهر بالرأى وكان الناس لا يرون بجوار رأى الوالى رأيا .

فكان إذا اقترح عليهم رأياً وافقوا عليه ، فاذا عاد فامتدح ما يخالفه وافقوا

فقال لهم : ماقيمة المجلس إذا رجعتم دائما إلى رأيى وحده . إن من حقكم أن تقولوا بخلاف ما أرى .

وعمل مدحت على تهيئة حياة استقرار للعشائر فى مناطق معينة وتمليكها أراضى زراعية تدفع ثمنها على آجال طويلة وتقوم بزراعتها وتعميرها · ولكن الاستبداد العثمانى لم يلبث أن عاد مرة أخرى بعد « مدحت » وزاد ارتباط الانجليز بالعراق فى هذه الفترة بعد اكتشاف منابع البترول فى الموصل وكركوك وكان ذلك تمهيداً لاحتلال العراق بعد الحرب العالمية الأولى .

* * *

فقد أسرع الانجليز إلى احتلال البصرة عام ١٩١٥ عند ما دخلت تركيا الحرب فى صف المانيا وأنزلوا فيها جنودهم بحماية أسطولهم وقاومهم العراقيون مقاومة عنيفة فى (كوت الأمارة) وجندت كل مقدرات العراق لمصلحة الحلفاء وادعى الانجليز أنهم سيحررون العراق بعد الحرب كما نشروا هذا الادعاء فى مصر وغيرها ، فلما انتهت الحرب فكرت بريطانيا فى إلحاق العراق بحكومة الهند أى أن تكون مستعمرة لمستعمرة [1] .

وهنا ثارت فى نفوس العراقيين معانى الحرية فاندفعوا إلى المقاومة العنيفة البالغة العنف التى اقضت مضاجع الانجليز سبعة شهور . وتألفت العصابات الضخمة ونشطت الجمعيات الوطنية وأخذ الضباط العراقيون يعدّون وسائلهم لإضرام نار الثورة وألف جميل المدفعى عصابة قوية قادها بنفسه وزحف بها لمنازلة الانجليز .

وانطلقت الرصاصة الأولى من الرميثة على الفرات ثم اتسع نطاقها حتى شملت جميع أنحاء البلاد (٣٠ يونية ١٩٢٠) وقد كلف احتلال بريطانيا للعراق

(١) العالم الإسلامى والاستعمار : انور الجندى — ١٩٥٨ .

خسارة فادحة فى الأنفس والأموال تقدر بنحو مائة ألف قتيل ومفقود وجريح ومائتى مليون جنيه وقد اضطرت بريطانيا أن تعترف بالاستقلال الذاتى للعراق ، وإن ظلت قوات احتلالها مقيمة مسيطرة عن طريق العرش الهاشمى الذى أقامته للملك فيصل فى بغداد ولعملائها ممثلين فى نورى السعيد وعبد الاله وفاضل الجمالى

ولم يلبث العراق أن ثار مرة أخرى فى أبان الحرب العالمية الثانية (١٩٤١) بقيادة رشيد عالى الكيلانى وصلاح الدين الصباغ ويونس السبعاوى وفهمى سعيد

وكانت ثورة رشيد الكيلانى من الحركات التحريرية الضخمة فى مقاومة البريطانيين .

وقد ارتبطت هذه الثورة بأحداث فلسطين ومحاولة بريطانيا السيطرة على المنطقة . وقد كان العراق هو صاحب أول منظمة من الفتوة والنجادة ١٩٣٢ للعمل فى المقاومة الفلسطينية ضد اليهود والانجليز . فلما انتهت ثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٩ كان العراق ملجأهم وملاذهم .

ولم تهزم ثورة رشيد الكيلانى إلا بعد أن نفدت ذخائرها ودخل الانجليز بغداد (٣١ مايو ١٩٤١) .

ولم تتوقف مقاومة العراق فى خلال هذه الفترة (١٩٤١ — ١٩٥٨) حتى قامت ثورة ١٤ تموز . بل مضى يوالى مقاومته للمعاهدات والأحلاف وأعلن روابطه الوثيقة بالأمة العربية فى سوريا ومصر وفلسطين كما تأثر بأحداثها جميعاً فى انتفاضات متوالية كلها حيوية وعروبة .

٢ — اليقظة الفكرية

بدأت اليقظة الفكرية فى العراق فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه فى العالم كله : نهاية القرن التاسع عشر . فقد كان الظلم والاستبداد العثمانيين مثارا

لقرائح الشعراء والكتاب ومصدراً لصيحات التحرر والابانة عن أثر الاضطهاد فى الأمة إذ كانت أقلام الكتاب مرآة صادقة طوال العصور لواقع الحياة فى أوطانهم، ولقد كان شعراء العراق يهاجمون الاستبداد العثمانى ولا يستطيعون إظهار آثارهم فى أوطانهم فكانوا يرسلون بها إلى القاهرة لتنشر فى المؤيد أو اللواء أو المنار بأسماء مستعارة، ولكنها كانت تشفى الصدور وتجدد الأمل فى المقاومة وكانت الطبقة الفكرية فى العراق — كما هى فى الشام ومصر — قوامها بعض الشعراء ورجال الدين . وكان من أبرز شعراء فترة النصف الثانى من القرن التاسع عشر عبد الغفار الأخرس وعبد الباقى العمرى ومحمد الحبوبى النجفى وكاظم الأزدى وحيدر الحلى وكان النجف الأشرف ولا يزال مثابة العلم والفقه والثقافة والحرية . وكان الشعر قسمة بين مدح الولاه ومدح آل البيت ويعد المؤرخون « عبد الحميد الشاوى » أسبق شعراء عصره إلى التغنى بالقومية العربية وذكريات أمجادها .

ولم يلبث قليلا حتى ظهر صوتان جهيران هما علامة البدء فى المقاومة الفكرية جميل صدقى الزهاوى (١٨٦٣ — ١٩٣٦) ومعروف الرصافى (١٨٧٥ — ١٩٤٥) وقد قاوم الزهاوى الاستبداد الحميدى وحرض على الثورة ودعا إلى تحطيم القيود وفك الأغلال وخاطب السلطان عبد الحميد فى جرأة :

أيأمر ظل الله فى ارضه بما ... نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مال وينفى مبرأ ... ويسجن مظلوما ويسبى ويقتل
تمهل قليلا لا تغظ أمة إذا ... تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيديك إن طالت فلا تغترر بها ... فإن يد الأيام منهن أطول

وقد عاصر الزهاوى والرصافى فترة الاستبداد وشقيا بها وشاهدا شقوه العراق بها ومظالم الخليفة فى استانبول والولاة فى بغداد .

ثم اهتزا بما اهتز به العالم العربى كله لإعلان الدستور العثمانى (١٩٠٨) هذه الهزة التى لم تمتـد طويلا ، إذ لم يلبث خلفاء عبد الحميد أن حاولوا سحق القومية العربية وهنا خرج المارد العربى وبدأ حربه علانية للعثمانية الطورانية .

وفى نفس الوقت الذى كان الشعر فيه يهز المشـاعر ويوقدها ويدعوها إلى المقاومة كانت هناك حركة فـكرية ضخمة انبعثت من الدعوة الوهابية تهدف إلى الإصلاح هى المدرسة الألوسية التى أيقظت الفكر بالدعوة إلى التحرر ومحاربة المذاهب المادية ونشر الثقافة والعلم ومكافحة الخرافات . واحياء مذهب السلف .

وكانت هناك مساجد النجف الأشرف تقف مع الأزهر فى مصر والزيتونة فى تونس والقرويين فى مراكش وزوايا السنوسية فى ليبيا تحمل شعلة الفكر والدين .

وقد حاول الاستعمار البريطانى من بعد أن يثير الخلافات فى العراق كما أثارها فى كل قطر آخر من أقطار العالم العربى بين السنة والشيعة ، ولـكنه عجز أن يوقع بينهما فقد كانت فى كلا جانبيها المشرقين تمثل روح العروبة والإسلام صادقة مؤمنة باللغة العربية وأمجاد الفكر العربى الإسلامى .

وظلت العراق مركزا عظيما من مراكز الفكر العربى تتمثل فى مختلف مدنها ومزاراتها وقصورها وجامعاتها صورا حية من التاريخ العربى كله فى أوج مجده وأشرف حلقاته عندما كانت بغداد تضىء العـالم العربى كلة فى امتداد الطريق حتى الأندلس . فقد كانت مقر الخلافة وفى نفس الوقت مقر العلم والترجمة والفـكر العربى ممثلا فى الشعر والنثر والجدل .

وقد وصف العلامة محمد بهجه الأثرى[1] تيارات الحياة الثقافية فى هذه الفترة

(١) كتاب محمد شكرى الألوسى وأراءه اللغوية : محمد بهجة الأثرى — ١٩٥٨ .

من نهاية القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن بأنه « كان هناك مجريان للثقافة أحدهما عصرى يمثل فى الدراسات العسكرية والمدنية ومدرسة الحقوق فى أواخر أيام الدولة لتخريج حكام ومحامين وكان الطلاب يرسلون إلى استانبول ليستكملوا دراساتهم العلية .

وقد قامت هذه الثقافة على « اللغة التركية » فى الغالب وعلى لغات أخرى أحيانا وأخذت بها هذه الأجيال العربية العراق وحجبت عن لغتها لتنسى ماضيها العربى ولا تفكر إلا فى سلطان العثمانيين فلم تنتفع منها اللغة العربية شيئاً يذكر فكان المثقفون بها فى واد والعراق فى واد .

والمجرى الثانى هو مجرى الثقافة العربية الإسلامية وهو مجرى قديم موروث كان حظ العراق منه فى عصوره الزاهرة من أعظم الحظوظ أن لم يكن أعظمها. ولما دمر المغول حضارته واستعجم الحكم فيه وغنى الحكام الأعاجم عن استعمال اللغة العربية بالرطانات ، كاد يندرس هذا المجرى الثقافى وتنقطع ينابيعه لولا علماء الدين الذين تداركوه وحفظوه على قدر ما تهيأ لهم من مساعفة الظروف والاحوال .

ثم أتيح له أن يغزر ويخصب فى عهد المماليك وأعان داود باشا خاصة — وكان عالما وأديبا بالعربية — على إمداده بجميع وسائل ازدهاره الميسورة له امداداً أظهرت آثاره فيما نتج عن ذلك من حركة علمية وأدبية تؤلف سفراً ضخماً فى التاريخ الثقافى فى هذه الديار » .

وقال « إن هذا المجرى تفرعت منه مدرستان إحداها مجددة تتميز بالنشاط العقلى وتنزع إلى الاجتهاد والتحرر من نوازع التقليد تدعو إلى تطهير الإسلام من البدع وتجريد العقيدة من رواسب الوثنيات .

وقد نهضت هذه المدرسة بالعرب والعربية ونشطت للاشتغال بالصحافة وكان منها أقدر كتابها الأوائل فى صدر تأسيس الصحافة فى هذه الديار . وجددت فى الشعر والنثر وحبرت القصـائد المحجلة الغر ، والمقالات الوطنية والسياسية والاجتماعية وصححت الافـكار وناضلت فى سبيل المثل العليا للدين والقومية . وبالجملة احتلت هذه المدرسة أصول النهضة العلمية والأدبية فى البلاد . »

وفيما يتعلق بالحياة الدينية — أشار العلامة بهجة الأثرى أنها كانت تتجاذبها عدة مذاهب يصطرع حولها[1] العلماء : أظهرها « التصوف » و « التشيع » و « الدعوة السنية السلفية » . وكانت الدولة العثمانية تؤيد التصوف جملة فى مختلف طرائقه من رفاعية ونقشبندية ومولوية وغيرها ، وتمـكن له ، وتحرص على تشجيع أربابه . وتناهض التشيع والحركة السنية والسلفية معاً وقال « إن الدعوة السنية هى المظهر الصحيح للعقائد السنية قبل أن تغشاها التحريفات والبدع فقد كانت خلفها قوة عربية صغيرة فى أواسط جزيرة العرب — هى الدعوة الوهابية — فهزت جوانب الدولة العثمانية هزاً كاد يفقدها زعامة العالم الإسلامى فاستعدت عليها « محمد على » فسارع إلى نجدتها ونهد بجيوشه إلى جزيرة العرب وحارب العرب بأسلحة جديدة فتاكة من أسلحة الغرب لم يألفوها فغلبهم وأزال سلطانهم وأخمد اليقظة العربية الاسلامية المتحررة فى عقر ديارها حيناً طويلا من الدهر .

ولذلك فإنها ماكادت تنجم ناجمتها ثانية فى هذا القرن حتى عاود الأتراك الخوف الشديد من استفحالها فبادروها بحربين لافسادها والقضاء عليها ، وقد قامت حرب الدعاية على تأليف الـكتب والرسائل فى تشويه صورة الإصلاح الدينى الذى تتبناه ، وحشد لهـا أبو الهدى الصيادى الرفاعى أعوانه وقد قوبلت هذه الـكتب والرسائل بردود كثيرة من علماء نجد والعراق والشام ومصر والهند ، أوحت إليهم بها الدراسات العلمية الحرة لا السياسات العابثة بالعقول . فـكانت

هذه الحركة وما نتج عنها من آثار قيمة من أكبر المظاهر العقلية التى ظهرت فى عصر النهضة ، زعزعت الناس عن المألوف من الخرافات والبدع .

٣ـ المدرسة الألوسية

كانت المدرسة « الألوسية » بقيادة الامام محمود شكرى الألوسى (١٨٥٦ ١٩٢٤) من أبرز الحركات الفكرية فى العراق وهى من فروع الحركة الوهابية وصنو الدعوات : المهدية فى السودان والسنوسية فى ليبيا والباديسيه فى الجزائر وحركة محمد عبده فى القاهرة .

وكان موقفه من التصوف قويا وحاسماً فقد هاجم البدع الصوفية وحاربها باعتبارها التكأة التى يستند إليها الخليفة العثمانى ومستشاره الدينى أبو الهدى الصيادى .

وكانت مقاومته للصوفية عملا ضخماً من أعمال مقاومة الاستبداد العثمانى الذى كان يعتمد على رجال الطرق وقد كانت مؤازرته للحركة السلفية عملا تحررياً تقدمياً وهو فى نفس الوقت عمل سياسى بعيد الأثر فى العراق .

ولقد اضطهد الامام الألوسى لحركته هذه وتجمع رجال الدين ضده ونقلوا عنه لعبد الحميد ما أثارحفيظته ، ولكن الألوسى مضى فى خطته الإصلاحية غير هياب ولا وجل ، مؤمناً برسالته « يؤازره بصر نافذ وعلم واسع بأصول الإسلام وفروعه وإحاطة تامة بتاريخه وبما تحكم من النحل والبدع والأهواء الدخيلة فى إتجاهاته عبر عصوره . ومضى الألوسى يجمع الناس على فكرته ويؤلف بين قلوبهم » .

وقد كان أبرز أهداف الألوسي « ترويجه للدعوة العربية والانفصال عن الدولة العثمانية[1] » .

وقدامتد سلطان الألوسي واتسع حتى بلغ جزيرة العرب والشام والهند ومصر وأصبح موضع تقدير العلماء والأمراء فيها جميعاً،فلما امتدت أسباب الدس عند السلطان أمر بنفيه إلى الأناضول غير أن أهل الموصل ، منعوا الألوسي وحالوا دون سفره فبقي بها شهرين ثم عاد إلى بغداد . وعلى أثر ذلك نشر كتابه الضخم « غاية الأماني » في القاهرة (١٣٢٥ هـ) وهو أعظم ما كتبه في تحرير التوحيد وتصحيح العقائد ، وعند ما احتل الانجليز العراق بعد الحرب العالمية الثانية انقبض عنهم وقد حاولوا أن يسترضوه بعروض مغرية تقدم بها إليه الأب انستاس الكرملي غير أنه رفض أن يتولى الافتاء أو منصب قاضي القضاة . وعند ما اجتاحت العراق الأزمة الاقتصادية العنيفة رؤى وقد تخفف من ملبسه ومطعمه . فقد كان راتبه الزهيد لا يوفى بمطالبه . ولما حمل إليه الذهب والفضة رفضهما وقال «خير لي أن أموت جوعا من أن آخذ مالا لم أتعب في كسبه » .

وقد كان الألوسي مثلا للعالم الممتاز : عمق فهم وقوة خلق وقد زهد في مطامع الدنيا وانقطع للدرس والتأليف وعكف على التعبد وترك مدرسة ضخمة آمنت بأهدافه ودعوته كانت بعيدة الأثر في تطور الفكر العربي العراقي .

وقد رأى الإمام الألوسي أن اللغة العربية قد تأثرت بما لحق بالأمة من ضعف وانحلال فسرت إليها العجمة ونشأ فيها اللحن فرميت بالتخلف والقصور .

ورأى الألوسي: أن تاريخ الأجيال الماضية هو الدعامة العظمى في بناء المجتمع البشري وأنه على اختلاف ضروبه وتفرق شعبه ضروري لعامة الناس ولا غنى

---

(١) محمد بهجت الأثري في كتابه عن الألوسي .

(٢) نفس المصدر .

لأحد عنه أبداً فهو الماد الروحانى ومرقاة الأمم التى تتوق إلى التقدم وتتسابق فى مضمار الرقى والعمران ، وألف فى التاريخ كتابا ضخماً هو « بلوغ الأرب فى معرفة العرب » حاز به السبق فى جمعية اللغات الشرقية فى استوكهلم وقد استوعب فيه ما كان عليه العرب فى جاهليتهم من عوائد وأحكام وأشهر القبائل وتفصيل مجامعهم وأيامهم وأعيادهم ومشاهير رجالهم .

كما عنى بالتاريخ العربى قبل الإسلام وأثناء البيعة وبعد الاسلام ودرس أساس التمدن العربى .

وقد أسند إليه رئاسة تحرير القسم العربى فى جريدة الزوراء وهى أول جريدة أنشئت فى بغداد عام (١٢٨٦ هـ) .

ويبلغ مجموع كتبه ٥٢ كتابا فى اللغة والدين والتاريخ .

كما قاوم الألوسى البدع ودجاجلة الفساد وقاوم الافتتان بحضارة الغرب وقد تأثر بجمال الدين الأفغانى واحب روحه الجريئة فى مقاومة الاستبداد العثمانى والاستعمار الغربى .

٤ — النجف الأشرف

ومن أبرز المراكز الثقافية فى العراق (النجف الأشرف) حيث مقر الدعوة الشيعية التى تمثل جانبا واضحاً قويا من جوانب الحركة الفكرية ، ويصور الشيخ ضياء الدين الدخيلى هذه الحركة فيقول :

« يزدحم فى جوامع النجف الأشرف ألوف المهاجرين لانتجاع الثقافة الاسلامية وقد امتطوا ظهور الأسفار من كل حدب وصوب فى شتى الأقطار الشعبية . ففيها العشرات من سورية من جبل عامل وغيره والألوف من مختلف

أنحاء إيران وفيها من سمرقند وبخارى وغيرها من تركستان وفيها من أرزبيجان وفيها الكثير من الهند والأفغان وهضبة التبت . هذا عدا من يرتادها من أطراف الحجاز ومن شيعة الحجاز . لذلك قد شيدت فى النجف الأشرف المدارس المديدة ذات الغرف المعدة لإيواء الغرباء حيث يكفل المجتهدون (وهم أئمة الشيعة) ضمان معاشهم ويقول الشيخ الدجيلى[1] أن تاريخ الدراسة فى جامع النجف الأشرف يتوغل فى أعماق العصور الإسلامية إلى أمد بعيد .

فقد كان حب الشخصية الإسلامية القوية الدفينة هنا ، هو الذى جذب العلماء إلى مجاورة المرقد الطاهر ليشيدوا قواعد هذه المدرسة ويكونوا الحلقات لرفع منار الثقافة الاسلامية .

ويتصل بهذا أدب الطف[2] « كما يسمونه وهو الأدب الذى يصور مأساة مقتل الحسين التى كانت بعيدة الأثر فى الأدب العربى الحديث وقد كان أدب الطف عاملا من عوامل نمو الشعر فى العراق كما أن الفوارق — ولا أقول الخلافات — بين الشيعة والسنة قد عادت بالنفع على الأدب والبيان فى العراق . يقول عبدالكريم الدخيلى » «أن الشعر الذى رثى به الحسين بن على بن أبى طالب يكشف صفحة مندثرة من الأدب العربى ومنجماً مليئاً بغرر الشعر وأطايبه ، وأن أغلب دواوين الشعراء العراقيين المطبوعة تحفل برثاء الحسين . وأن (أدب الطف) شعر رثاء الحسين يعد عاملا من عوامل نمو الشعر فى العراق ففى شهر محرم الذى قتل فيه تقام الاحتفالات التأبينية فى العراق وعلى الأخص فى نواحيه الجنوبية وتعقد النوادى فى كل أيام السنة ، أما إذا أهل شهر المحرم فإن الأشغال تكاد تعطل والحوانيت

---

(١) تاريخ الحياة العلمية فى جامع النجف الأشرف — ١٢ سبتمبر ١٩٣٨ .

(٢) الطف والجمع طفوف : اسم المكان الذى قتل فيه الحسين بن على قريبا من كربلاء يحاذى نهر الفرات قديما .

تكاد تقفل طيلة شهري محرم وصفر فتعقد مئات النوادي لذكرى قتيل الطف .

● إذا كان الأدب العربي يفخر بسوق عكاظ لأنها كانت السبب في رفع مستواه . وكانت السبب في احترامه وتعاليه فإن الأدب العربي مدين كل الدين لهذه النوادي التأبينية إذ أنها خير مدرسة وخير عامل لنمو الشعر في العراق ، فالشاعر الذي ينشد قصيدته على رءوس الأشهاد وتستحسن يستمر بحكم الضرورة في قرض الشعر .

● أدباء الأمة العربية لم يعرفوا هذا المنجم الأدبي الضخم ولم يسبروا ما فيه من غور وعمق ولو أنهم فعلوا ذلك لظهر لهم من شعر الطف ما يغذي العاطفة ويربي الذوق . ولأضيفت إلى الأدب العربي صفحة مليئة بنفائس الشعر الجيد الممتاز ولتفتحت أمام حملة الأقلام والقوامين على سير الأدب العربي أبواب فيها من الشعر ماهو قمين بكل تقدير .

● إذا كانت الخصومات الدينية والخلافات المذهبية في العراق هي السبب في حفظ كيان الأدب والبيان ولولاها لذهبت به تلك الأعاصير الهوج التي مرت به طيلة سنين عدة فإن نفس تلك الخصومات كانت السبب الوحيد في انزواء هذه التحف الفنية والنوادر الأدبية .

● يقول هاشم عطيه : إن هذا الشعر خلاصة تفكير أمة كاملة لا تفكير فرد . ويقول ضياء الدين الدخيلي[1] : جاء المحرم فالمساجد العراقية مجللة بالسواد والوجوه تعلوها الكآبة ، هنا وهناك عويل ونواح يكربان القلب ، الصدور موجعة بضرب الأيدي والمتون مكلومة بالدم بالسلاسل النحاسية . والنفوس فزعة جزعة قد تملكها الهلع إذ خبلتها الألسن الذلقة التي لم تدع أسلوبا لتهويل

---

(١) ٢٨ مارس ١٩٣٨ — مجلة الرسالة .

فاجعة كربلاء ألا ركبت سبيله الأوعر والأشهد إيلاما والأنكى لذعة ولوعة . مواكب تجلببت السرابيل المضاعفة من الحزن خنقها الأسى فلا تأسى . ورؤوس تشج بحد السيوف ودماء تراق على مذبح فاجعة كربلاء فما قيمة العبرات والزفرات والدموع المنصبة على أقدام هذه المأساة المؤلمة التى لم يع التاريخ أفجع منها ولا أكثر جلبة من تبعاتها فى إيران والعراق والهندوسورية والحجاز وهنا وهناك مآتم ومناحات تعقد لتسكب العبرات وتنفث الزفرات فكأن نفس الشرق الحالمة بالأشباح والرؤى المفعمة بالطموح وأحلام الغيب ، المتبرمة بالحياة وأحكامها التى ترزح بأعبائها وجدت فى هذه المأساة مجالا واسعاً لإعلان عويلها والتنفيس عن كربها .

• صبغ « المحرم » أدب الشيعة بصبغة سوداء قاتمة بالكآبة حمراء ملطخة بدم الشهداء كالحة تعلوها شارات التكدر والانزعاج من الوضع الراهن الواقعى . وهذا الأدب الباكى تسوده الأحلام بفردوس مفقود أساسه العدالة ويرجع فيه من الحكم إلى أهله وذويه الشرعيين . لذلك فهو أبداً يندب «صاحب الزمان» الذى غاب عن الأنظار ليعود فيملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت جوراً وعسفاً .

• الشيعة تعتقد أن حكم اليوم مضرّج بدماء الأبرار وملطخ ببقع سوداء من قضاء الجور والشبهات . وفى الحق أن الأدب الشيعى خير مثال لأدب التشاؤم الساخط على الحياة الحالم بالمثل الأعلى .

وقد صورت صحيفه عراقية (يوم الأربعين — ٢٠ صفر) بأنه :

يوم الاربعين

٢٠ صفر — يوم أربعين سيد الشهداء الامام الحسين

يوم خالد فى التاريخ مكانه وعلى ألسنة الأجيال ذكره ومن المكانة الصدارة ومن الذكر أخلده وأسماه .

إنه ليوم انطوى على أرفع وأسمى معانى البطولة والآباء والشمم لأنه جزء متمم لأيام عاشوراه ومأساتها الدامية ، وما استقبل المسلمون هذا اليوم إلا عادت بهم الأذهان إلى واقعة ألف يوم وقف أبو عبدالله الحسين يصارع البغى ويحارب جنود الشر والرذيلة ليدرأ عن حرمة الاسلام وقدسية رسالته ماعلق بهما من أوشاب الفساد والطغيان ، وقف على رأس نزر معدود من بنيه وأصحابه يواجه جحافل مدججة تنكرت للحق وزاغت عن السبيل السوى وارتضت لنفسها عار الدنيا وشنار الآخرة ، فما ولى ولا استكان ولا ضعف ولا تراجع ، وظل صامداً كالطود ثابتاً على المبدأ الحق حتى شاءت إرادة الله له الخلود فمضى إلى ربه محفوفا بالطهر تاركا للانسانية من بعده القدوة الحسنة والمثل السامى الذى يقتدى به فى الأباء والتضحية والكرامة .

سلام الله على أبى عبد الله الشهيد الذى علم الأجيال كيف تطيب الشهادة فى سبيل الحق والعدل والمثل العليا وسلام عليه فى الخالدين إلى يوم الدين » .

ويصور محمد رضا الشبيبى[١] الأدب العلوى أو الأدب الحسينى بقوله : ليس هو أدب دموع وآلام فقط كما يتبادر إلى الأذهان . بل هو فى جوهره أدب قوة وحماسة أشاد بالبطولة ودعا إلى النضال ومجد الدفاع عن النفس والعقيدة فى قصص وملاحم وقصائد يتخللها ذكر عادات العرب ومنازلهم فى بلادهم

(١) بحث عن الأدب العراقى ألقى فى مجمع اللغة العربية .

وأوصاف الحروب والسلاح وهى قصص وقصائد وملاحم لا تكاد تحصى عداً .

ولقد انتفعت الفصحى بما فى هذا الأدب من ثروة لغوية وأساليب عربية ودحرت العامية لاقبال العامة عليه .

٥ — الثقافة العراقية

يقول محمد مهدى البصير فى كتابه « نهضة العراق الأدبية فى القرن التاسع عشر[1] » . لقد شهد العراق فى القرن التاسع عشر كثير من أعاظم الفقهاء والمحدثين والمفسرين وفى مقدمتهم شهاب الدين الألوسى صاحب تفسير (روح المعانى) ومحمد حسن (جواهر الكلام فى الفقه) ومرتضى الانصارى (الرسائل والمكاسب) . ومحمد سعيد الحيوبى وحيدر الحلى وعباس النجفى واللوازان وعبد الباقى العمرى وصالح التميمى وعبد الغفار الأخرس . وابراهيم الطباطبائى ومحسن الخضرمى .

● إن الثقافة العربية الاسلامية فى العراق لم تنقرض بانقراض الدولة العباسية وانما ظلت سائرة فى طريقها فى أروقة المساجد وحلقات المدارس ولا سيما على الفرات حيث كانت «الحلة» مركز نهضة ثقافية عظيمة بزغت شمسها فى أوائل القرن السادس للهجرة ومازالت إلى الآن ثم مالبثت أن انتقلت إلى «النجف» التى لا تزال مركزاً عظيما من مراكز الثقافة العربية .

● لقد احتضن الثقافة آل النقيب وآل الشاوى وفى الموصل آل العمرى وفى النجف والحلة آل قزوين .

● إن مركز العراق الأدبى فى القرن التاسع عشر بين جميع البلاد العربية مركز مرموق حتى مصر التى أنجبت البارودى ، واذا كانت مصر قد أنجبت

---

(٢) طبع فى بغداد ١٩٤٦ — محمد مهدى البصير (الاعظيمة — بغداد) .

البارودى وحده فقد أنجبت العراق ثلاثة ؛ ولو أنه لم ينبغ عندنا غير التميمى والحبوبى وحيدر كما نبغ الزهاوى والرصافى والكاظمى

● كان الأدب فى العراق يمثل كل ألوان الأدب العربى : الأدب الاجتماعى والرسائل والمقامات وكان من أبرزها مقامات أبى الثناء الألوسى ١٠ . هـ

ويقول زكى مبارك[1] . أن هناك ثلاثة ينابيع للأدب العراقى العربى الحديث الأدب الفارسى والأدب التركى والأدب المصرى . واتصال الأدب العراقى بالأدب الفارسى معروف ولا يزال بين ادبائهم رجال ونساء يسايرون الآداب الفارسية ويتأثرون مابها من أخيلة وتعابير وقد يكون فيهم من ينظم الشعر باللغة الفارسية كما صنع « الزهاوى » هـ

واتصال العراقيين بالأدب التركى لا يحتاج إلى بيان فقد كان جمهور ادبائهم على صلة وثيقة بالتيارات الأدبية فى البلاد التركية وأكثر رجالهم الكبار تلقوا دروسهم العالية فى استانبول . أما اتصال العراقيين بالأدب المصرى فهو أقوى من اتصال المصريين بالأدب العراقى ولن يمضى زمن قليل حتى يكون من الصعب أن يميز اختلافا جوهريا من أساليب الشعراء والكتاب فى مصر والعراق[2] .

● أدباء العراق لهذا العهد ينقسمون إلى جيلين مختلفين : الجيل الوثيق الاتصال بالآداب الفارسية والتركية . والجيل الذى يأخذ أكبر مادة لغذائه العقلى والروحى من الآداب العربية المصرية .

● اللغة العربية فى العراق مدينة أثقل الدين للخلافات المذهبية فتلك

---

(١) ملامح المجتمع العراقى — وكان زكى مبارك صادق الحب للعراق يعد نفسه سفيرا له فى مصر وكان له أكبر الأثر فى دعم الروابط العربية بين مصر والعراق فى وقت كانت المؤمرات التى يقوم بها الاستعمار للتجزئة تحاول سحق عواطف القومية العربية .

(٢) اضاف محمود العباية رافدارابعا هو « الأدب المهجرى » الذى كتبه جبران ونعيمه والريحانى

الخلافات هى التى أوجبت أن يحرص أقوام على رواية أخبار بنى أمية وبنى العباس وأن يحرص قوم على رواية أخبار الحسن والحسين وكانت جميع الأخبار مصبوبة فى قوالب هى الغاية فى الفصاحة والبلاغة والبيان .

• ثبت عندى بعد مطالعات كثيرة أن الأدب العراقى كان انطوى على نفسه فى عهود الظلمات فلم يكن إلا مطارحات شعرية أو مراسلات نثرية لا تصور صراع العواطف ولا صيال العقول بغض النظر عن الشجار الذى لم ينقطع بين المذاهب والآراء . فمتى خرج الأدباء العراقيون من صوامعهم ليحدثوا الجمهور عن المطامع السياسية والقومية ؟ . كان ذلك يوم صار للعراق مبعوثون فى استنبول فهناك وجدوا إخوانا ثائرين على الدولة العلية من رجال مصر واليمن والحجاز والشام ولبنان ومن أولئك تكونت جماعات أدبية وسياسية تنتصف للعرب من الأتراك بأن يكون للعرب وجود أدبى وسياسى يسترد الحقوق التى أضاعها الزمن

• من الواضح أن اللغة العربية كانت أداة التعبير عن تلك الثورة بالتصريح أو التلميح فظهرت مقالات وقصائد ومطبوعات أثارت ما أثارت من نوازع الحمية العربية وانطلقت الألسنة والأقلام بأدب جديد هو « الأدب السياسى » ، وهذه الفترة هى التى أوحت إليه أن يجعل العروبة عماد سياسته القومية فى أكثر الشئون .

* * *

ويصور الدكتور زكى مبارك خصائص الأدب العراقى فيقول :

• العراق يميل إلى التحرر من التزام القافية والتزام الوزن فى القصيد الواحد وتلك رجعة إلى نظام الموشحات ولكنها من حيث الصورة تخالف نظام الموشحات وأشعر شعراء العراق فى الميل الى هذا التحرر هو « الزهاوى » . وقد

يكون فيهم من انساق مع تيار الموشحات فى أغلب ما نظم من القصائد وأشهر هؤلاء هو « الحبوبى » .

• يمتاز الأدب العراقى بالإكثار من الحديث عن الأمة العربية فلمصر وفلسطين والشام ولبنان صور كثيرة جداً فى أشعار العراقيين . ويرجع ذلك إلى هيامهم بالبلاد العربية وكثير من أدباء العراق عاشوا فى مصر كما سارت قصائد شوقى فى وصف مرابع سورية ولبنان مسير الأمثال .

• « الاخوانيات » لا تزال مرموقة المكان عند أدباء العراق فهم يتراسلون بالرسائل والقصائد والهجاء لا يزال من الفنون الأدبية بالعراق . أشعار «المجون» لها بقايا فى العراق وهى أشعار تغلب عليها لطافة الدعابة وخفة الروح .

• أهم خصائص الأدب العراقى هى إمعانه فى الصدق . ولو عصر الروح العراقى كما يعصر الورد لكان عصيره دموعاً تشتهيها الحمـــامة المواصلية يوم فراق الأليف .

• هناك لون من الأدب العراقى يصح تسميته بالأدب المجهول وهو الأدب الشعبى الذى لم يدون ولن يدون بعد أن صارت اللغة الفصيحة هى الغاية التى يسعى لتأييدها جميع شعراء العراق : هذا الأدب قد صور طوائف كثيرة من أحلام القلوب وأوهام العقول . وهو الشاهد على أن العقل العراقى لم يذق طعم الغفوة برغم ما مر بالعراق من أحداث وخطوب تعصف بمنابت الأهواء والآراء . وفى العراق أشعار شعبية تحيا على السنة الناس منذ قرون بدون تدوين .

٦ — تطور الشعر العراقى

وقد رسم السيد محمد رضا الشبيبى شاعر العراق الأشهر صور لمعالم الفكر العراقى العربى فقال : فى خلال عصر سلطة عبد الحميد وما بعدها حتى تخلى الترك عن العراق (١٨٧٦ — ١٩١٨) . هذا العهد يدعى عصر العزلة . كانت

البلاد بمعزل عن كل ما هو أجنبي من حضارة أو ثقافة . وكانت الثقافة عربية بحتة . وكان حكام الترك المستبدون هم المشتغلون بالسياسة ولذلك انصرف أهل البلاد عن السياسة إلى الأدب .

وفى فترة الاستبداد كانت النهضة دينية بحتة تقوم على وفاة الحسين فى النجف والحلة وتقتصر فى الأغلب على الشعر دون النثر وقد تأخر النثر لذلك .

• من أبلغ شعراء النجف : جعفر الخطى ، ابن معتوق ، الكعبى ، ابن معصوم الأرزى ، عبد الباقى العمرى ، السيد رشيد الحلى ، صالح الكواز ، حسن القيم ، وليس معنى هذا أن أدب العصر كان أدب مراثٍ فقط فقد ظهر شعراء الغناء والغزل محسن آل الشيخ خضر ، ومحمد الجزائرى والسيد الحبوبى والطباطبائى .

• ودخل العراق بعد إعلان الدستور ، وانفساح حرية الكتابة ١٩٠٨ دوراً من أدوار اليقظة الفكرية ونهضت الصحافة وكثرت المجلات ، وهى فترة التجدد والتطور فى أدب العراق نظماً ونثراً وظهر المجددون من الشعراء الذين عدلوا عن أساليب القدامى . وقل المدح وكثر الوصف وظهر الشعر الاجتماعى السياسى يصور مساوىء الاستبداد ومحاسن الحرية . وارتقت لغة الكتابة . وظهرت وحدة الموضوع فى الشعر . وظهر عدد من الكتاب والصحفيين وبدأت رسالة الأدب العراقى تهدف إلى أدب «قومية عربية» بعد أن كانت «وطنية عثمانية» وكان مركز الحركة الأدبية فى البصرة والنجف وبغداد . كان فى البصرة منتدى الشيخ أمين عالى وخزائن كتبه الثمينة . وفى بغداد مدرسة آل الألوسى وعميدها محمود شكرى الألوسى . وتلاميذه طليعة المثقفين فى اللغة والآداب العربية . ومنتدى دير الآباء الكرملين فى بغداد .

• حافظت النجف على استقلالها الأدبى وتراثها الروحى . وظهرت فيها طائفة من رجال الفكر والأدب راعهم ما تعانيه البلاد من الجمود . فدعوا إلى إصلاح نظم التدريس والتعليم .

بعد الحرب العالمية (١٩١٨) خرج العراق من العزلة واحتك احتكاكاً قوياً بالحضارة الحديثة . واتجه النشاط إلى السياسة وانحسر عن الأدب . وإذا كان عصر الخلافة التركية هو عصر الأدب فى العراق فإن عصر الاستقلال فيه هو عصر السياسة .

• هناك ثروة أدبية صغيرة فى الكتب والمدارس وتراث ضخم من العصور القديمة .

• يرجع صفف الناشئة والشباب المثقف فى اللغة والأدب والثقافة العربية إلى انزواء أكثر الإخصائيين من أبناء البلاد وإلى أثر الجمود والتقاليد البالية وإلى انصراف فريق آخر من الأدباء إلى السياسة .

وفى مقال للسيد الشبيبى فى الهلال (١٩٣٧) عن نهضة الأدب العراقى :

• ابرز مظاهر النهضة الأدبية فى العراق فى أول القرن:الشعر الذى ازدهر فى النجف والحله وكان اتجاهه دينياً فى مدح آل البيت يمكن أن يطلق عليه الأدب العلوى وموضوعه ماساة الحسين وغيره من أئمة أهل البيت . ويتصف هذا الأدب بالحرارة والصدق والإخلاص مع البساطة ويتميز طابعه بالحماسة وذكر البطولة والاشارة بالأمجاد والدعوة إلى النضال والدفاع عن العقيدة ، فلما أعلن الدستور ١٩٠٨ أخذ الشعر يتحول عن مذهب المقلدين فاتجه إلى وصف جمال

---

(١) ١٩٤٢ — مبحث عن الأدب العراقى فى المجمع اللغوى فى مصر .

السكون والطبيعة وإلى معانى الحرية ومهاجمة الاستبداد . أصبحت القصيدة وحدة كاملة بعد أن كانت متعددة الموضوعات .

وتطور النثر فاتجه إلى التعبير السليم الخالى من التكلف والسجع فأصبح الأدب هادفاً له رسالة . وقد اتخذ هذا الأدب لوناً قومياً بحتا بعد أن كان وطنياً عثمانياً . وظلت النجف تتمثل قيادتها الأدبية فى لونها الروحى الخالص وقد أظهرت طائفة من أعلام الأدب والشعر الثقافة .

ويصور كارل بركلمان فى كتابه الدول الإسلامية بعد الحرب العالمية الحياة العقلية فى العراق فيقول : لم تكن السنوات العاصفة مؤاتية على الخصوص لازدهار الحياة الفكرية فى العراق . وإذا كانت العناصر الأهلية الشيعية والسنية المتنافسة فى أحياء تراث البلاد الأدبى القديم خاضعة لسلطان هذا التراث خضوعا هو أقرب إلى العبودية فقد وجهت الحكومة وجهها فى المحل الأول نحو سورية ومصر لتجتذب ممثلى الثقافة الحديثة فى البلاد ولكن هؤلاء نادراً ما استطاعوا الاحتفاظ بماضيهم فترات طويلة لشدة حساسية العصبية العراقية .

وأخذت روح الثقافة الحديثة تقتحم بتأثير الصحافة المصرية أبواب العراق شيئاًبعد شيء محاولة انتزاع الميدان من المحافظين وخاصة فى حقلى الشعر والتاريخ .

ويقول جميل سعيد فى كتابه التيارات الأدبية الحديثة فى العراق .

● النهضة الأدبية الحديثة فى العراق تأخرت كثيراً بالنسبة إلى مصر والشام ونستطيع أن نقول أنها لم تبدأ إلا بعد قيام الحكم الوطنى خلال العقد الثالث من القرن الحاضر ، كما نستطيع أن نؤكد بأن أدباء أدبية العراق لم يتصلوا فى بادىء الأمر بأدب الغرب اتصالا مباشراً ، إنما اتصلوا به بواسطة ما كان ينشر فى مصر والشام من الكتب والمجلات العربية عن طريق الترجمة والتأليف . أما التأثر بالأدب العربى مباشرة فإنه لم يبدأ إلا فى وقت قريب جداً .

• تعرّض العراق إلى أحداث سياسية اجتماعية واقتصادية خطيرة تفوق كثيراً ما تعرضت له سائر البلاد العربية فإن الحرب بين الجيوش العربية والجيوش التركية فى العراق استمرت أربعة أعوام والثورة على الحكم البريطانى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى كانت ثورة دامية شاملة . والنضال بين الحكم الوطنى والسيطرة البريطانية لم ينقطع أبداً بل كثيراً ما اقترن بثورات فعلية .

٧ — تطور النثر العراقى

يرسم « روفائيل بطى » صورة « الأدب العصرى فى العراق العربى » فى كتاب له صدر عام ١٩٢٢ على أنه شعر ونثر وقد سجل الشعراء فى قائمة والكتاب فى قائمة وهاتان هما القائمتان :

الشعراء . جميل الزهاوى . حسن الصعيدى . خيرى الهنداوى .رضا الشبيبى عبد المحسن الكاظمى • كاظم الدجيلى • معروف الرصافى .

الكتاب : على الشرقى . محمد الهاشمى . عبدالحسن الأزودى:محمد الكاشف الغطاء . مهدى القصير . باقر الشبيبى . محمد حسن أبو المحاسن . محمد السماوى . عبد العزيز الجواهرى • أحمد الفخرى . رضا الهندى • عطا الله الخطيب . مهدى الجواهرى • إبراهيم منيب الباجه جى . شكرى الفضلى . قاسم السقا ، منير القاضى . عبد الرحمن البناء . جواد الشبيبى • محمود شكرى الألوسى . محمد حبيب العبيدى . رضا الشبيبى . القاس الكرملى . يوسف رزق عنيمه . إبراهيم حلمى العمر . حسن العضيبه . باقر الشبيبى . على الشرقى • عطاء أمين . عبد العزيز الجواهرى . هبه الدين الشهرستانى • شكرى الفضلى . إبراهيم صالح شكر .رزوق عيسى حنـــا خياط . سلمان الشيخ داود . سليمان قبضى . منير القاضى . على الجميل .

وقد كان هؤلاء الكتاب والشعراء قد بلغوا فى هذه الفترة النضج والقوة وكانت أسماؤهم أو أغلبها مدوية فى جميع أنحاء العالم العربى الإسلامى .

وقد كان هذا العدد الكبير من الكتاب والشعراء بعيد الأثر فى تطور العقل العربى الحديث وحمل لواء الدعوه إلى «المقاومة والتجمع» . وقد تمثلت فى آثارهم وإنتاجهم جميع صور الأدب وألوانه من قوة وإثارة للهمم وتغن بالأمجاد والمفاخر ووجد وشوق وحنين وحب وبكاء وأنين ، وبدت فيه خلال أكثر من نصف قرن صيحات القومية العربية وحرارة الايمان بالأمجاد العربية . وقد رسم الشبيبى والزهاوى والرصافى والكاظمى بآثارهم وشعرهم صورة المقاومة للاستبداد العثمانى والاحتلال البريطانى وكان الألوسى علما على النهضة الفكرية وانستاس الكرملى مرجعاً لغويا للعالم العربى كله ، ثم لقى عدد كبير من هؤلاء وغيرهم ممن جاء بعدهم من عسف الاستعمار وظلم عملائه ما أخرجهم من ديارهم وأصارهم غرباء إلى أجزاء أخرى من العالم العربى تقوم فيها حكومات خاضعة للاستعمار أيضاً .

صور عبد القادر أمين أثر الاحتلال البريطانى للعراق فى الفكر العربى العراقى[1] فقال : لما جاءت الحرب العالمية الأولى هبط صوب العراق قوم لم يكن لهذا البلد بهم عهد . فشهدت أزقة البصرة وبغداد جيشاً يكتسح أمامه الجيش العثمانى المحتضر . واستيقظ الشعب على أصوات تلك المدافع الهادرة وشهدت سماء بغداد لأول مرة فى تاريخها ضجيج الحديد يطير فى الهواء ويلقى بالنار على الأحياء والأموات .

• انبعثت صحف وأحزاب وجمعيات تعمل لرفعة الوطن وتغذى النفوس

---

(١) القصص فى الأدب العراقى الحديث (كتاب) عبد القادر أمين — بغداد ١٩٥٥ .

الحائرة بحب البلد والحدب على مصالحه وكلما ازداد العسف الأجنبى وجبروته ازداد نمو الوطنية فى نفوس الناس وكانت أنباء الثورة فى الحجاز وجهـاد الصفوة الممتازة من أبناء العرب قد طرقت أسماعهم فزادتهم حماسة واشتعلت فى هومهم الدانية نيران العزم والانتقام فهبت البـلاد بثورة مسلحة (١٩٢٠ — ١٩٢١) سجلت آيات البطولة والشجاعة .

وهال المثقفين أن يروا أنفسهم فى مؤخرة القافلة العربية ، لـكن أيمانهم بالعروبة وتشبثهم بالوطن الأكبر هون عليهم الأمر فاطمأنت نفوسهم وانصرفوا إلى نتاج البلاد العربية العلمى والأدبى يتدارسونه .

● استأثرت « مصر » بالجانب الأكبر من سوق الأدب والعلم العراقيين فوجد القراء غذاؤهم الروحى والعقلى فيما يكتبه كتابها . وكان هؤلاء الـكتاب الواسطة الوحيدة فى اتصال مجهود القراء العراقيين بثقافة الغرب وأعلام الفكر العالمى بما نقلوا من آثار وما وضعوا من مؤلفات .

● لما جاءت الحرب العالمية الثانية استأثر لبنان بالجانب الأكبر من أسواق المعرفة العراقية ولقيت الآثار اللبنانية المترجمة والموضوعة إقبالا منقطع النظير . كما كان للصحافة اللبنانية القدح المعلى فى حين أصيبت الصحافة الأدبية المصرية بانتكاسة مؤلمة اختفت على آثارها صحف جليـلة كالرسالة والمقتطف والثقافة وسارعت صحف أخرى إلى إحداث انقلاب فى خطتها كالهلال . ومكن هذا لمجلة « الأديب » وأخيراً « للآداب » وغيرهما أن تحتل المكانة الأولى لدى القارىء العراقى كما وجد الـكاتب العراقى مجالا واسعاً فى المساهمة بتحرير تلك الصحف ، فى حين لم يكن تتاح له المساهمة فى الصحف المصرية لبعد الشقة وعناية المصريين فى الغالب بالأدب الـكلاسيكى ثم ارستقراطية الـكتاب المصرى . وكانت مجلة

الحديث فى حلب من أوائل المجلات ذات الفضل العميم على الأدب العراق لعنايتها الفائقة بنشر ما يكتبه العراقيون .

● كان الغزو الأدبى كما أسلفت هائلا وكان سلاحا ذا حدين فقد حملت الصحافة الحديثة معها أطيب الثمرات وتركت أعمق الآثار فى عقول القراء ونفوسهم وإلى جانب ذلك منينا بصحافة أخرى تسمى وراء الربح طبعت جمهور القراء العراقيين بطابع السطحية والتفاهة بما تقدمه من مادة رخيصة لا هدف لها غير التسلية وقضاء الوقت .

● ران على العقول والعزائم كسل وتراخ إذا قيس ما نتج فى هذا البلد — العراق — خلال الربع قرن بما صدر فى لبنان ومصر ، كان بمثابة القطرة إلى البحر الزاخر وقدح الماء إلى العين الثرة الدفاقة .

● الصحافة العراقية لم يتح لها المحتـــل لكى تقوم برسالتها على الوجه الصحيح . كما أتيح للصحافة اللبنانية مثلا إذ لعبت ـ الأخيرة ـ دوراً هاماً فى إصلاح اللغة العربية والنهوض بالبيان العربى الحديث إذ كانت مدرسة لتدريب الناشئين من الكتاب كما أنها اعتمدت فى تحريرها أسلوبا حديثاً يتمشى على روح العصر .

● كانت المدرسة المهجرية أولى المدارس التى وجدت صدى فى العراق ، لأنها حملت لواء الثورة على القديم بعنف وإصرار . ودخل المنفلوطى كعامل مساعد فى تقوية أثر المدرسة الرومانتيكية . وتمـكن أسلوب المنفلوطى فى قلوب الناس .

ويضاف إلى مؤلفات المنفلوطى ما ترجم الروايات من روائع الأدب الرومانتيكى مثل آلام فرتر وروفائيل . ولـكن لم يكن لهذين الـكتابين من الذيوع ما كتب لآثار مدرسة جبران والمنفلوطى .

كأمر طبيعي بدأ الكاتب العراق يترجم عن التركية فقد تعلمها بحكم الظروف التي مرت على البلد وكان الأدب التركي مشبعاً بالتأثير الفرنسي لاقبال كتاب الأتراك على تلك اللغة وتأثرهم بآثارها . وكان الرصافي أول من فكر في فوائد الترجمة لذا نقل إلى العربيه رواية « الرؤيا » للشاعر نامق كمال ١٩٠٩ كما أنها كانت أول أثر نثرى للشاعر العراق . وعنى محمود السيد بترجمة القصص التركية وكتابة « البحوث الضافية عن الأدباء والشعراء في الصحف المحلية والعربية كما ترجم من اللغات الأوربية روفائيل بطى (١٩٢٣) وعبد الوهاب الأمين (١٩٣٦) وانور شاؤل .» ا . ﻫ .

٨ — تطور الفكر العراقى

عرض عدد كبير من كتاب العراق[1] لتطور الفكر العربي العراق ومظاهره والتأثيرات التي طرأت عليه وهذه خلاصة لما جاء في هذه الدراسات :

يقول «مير بصرى» : نشأت النهضة الأولى — في العراق — في نحو ١٩٠٨ على أثر نشر الدستور العثماني وتقلص ظل الاستبداد الحميدى وكان لهذا الانقلاب السياسي أثره الواضح في إطلاق ألسنة الشعراء وتحفيز أقلام الأدباء ، فتجددت ألوان الشعر وازدهرت فنون النثر وصدرت الصحف والمجلات ونشرت الصحف والدواوين ودوت أصوات الخطباء والشعراء فوق المنابر وفي المحافل والأنديه .

وارتفعت الأصوات الخافتة وتقدمت جموع الشعب إلى الميدان تودع

---

(١) مير بصرى « بابل » مجلة الحديث كان الأول ١٩٤٧ ، غائب طعمه فرمان — مارس ١٩٤٨ الرسالة ، دكتور مصطفى جواد — الرسالة ديسمبر ١٩٤٤ ، عبد الرزاق محيى الدين جريدة النبأ — بغداد ٣٠ تموز ١٩٥٢ .

بغبطة الماضى الموحش القاحل . وتتطلع بشوق وحماسة إلى أنوار الفجر الجديد .

● أما النهضة الثانية فازدهرت أثر الثورة العراقية بطابع جديد مستمدة ألوانه من تطور الحياة الوطنية فى البلاد وموحيات الأحوال فى الأقطار الخارجية وفى طليعتها البلدان العربية المجاورة .

● ان الحرب العالمية الحاضرة — الثانية — التى طال أمدها أعواما وامتدت نبراتها إلى دانى الأقطار وقاصيها ما كانت تدع العراق ليبقى بمعزل عن هذا التيار العالمى الجارف فتطلع ببصره قدما وتحفز للمشاركة فى النهضة العظيمة الشاملة ولا ريب أن هذه النهضة ستتناول الأدب فتجدد أساليبه وتنوع مواضيعه لتفى بمطالب العهد الجديد .

● حركات البعث الأدبى فى العراق استلهمت وحيها من أربعة مصادر : الآداب القديمة ، الآداب الجديدة ، الآداب الأجنبية . والدوافع الناشئة عن حياة العصر .

● استمدت النهضة الأدبية قوتها بعد عهد الانحطاط الطويل من الأدب العربى القديم وسارت على نهجه وائتمت بأساليبه ثم تقدمت خطوة أخرى فاغترفت من معين الآداب الغربية وقلدت آثارها ونسجت على منوالها حتى انشطرت مناهج الأدب الحديث شطرين ظاهرين تمسك أحدهما بأهداب الماضى لا يرضى عنه بديلا واتجه ثانيهما صوب الغرب لا يحيد عنه سبيلا .

* * *

ويقول الدكتور مصطفى جواد :

● للأدب العراقى سمة واضحة وخصائص لائحة ومزايا مشهورة . والعراق فى صفة الأرض معدود من إقليم بابل ويصفة المسعودى فى مروج الذهب بأنه

منار الشرق وسرة الأرض وقلبها . وقد تضافرت الآثار والأخبار على أن الذوق الأدبى العراقى حكم بارع كريم وقد اشتهر النفس الشعرى العراقى فى الأندلس فضلا عن المشرق .

ويقول عبد الستار الجوارى :

• كان الأدب العربى أول معقل طمح إليه الغزاة ورسموا خطة اقتحامه حتى نفذوا منه إلى صميم الأمة ، إلى فكرها وشعورها وكيانها المعنوى وقد اتخذت منه وسيلة للطعن عليها والاعتداء ، وكان هؤلاء يعبثون فيه ويخربون . ولكن طبيعة المناعة فى الأمة العربية كانت لهم بالمرصاد فلم تقدم طائفة من سراة العرب أحست أن عليها أن تكافح وأن تقاوم وأن تقف فى وجه هذا الفساد .

ويقول غائب طعمه فرمان[١] :

• الحقيقة أن العراق ككل أمة حية لها أدب ، ولكنه لم تكتمل بعد أساليبه الفنية . وأن الرواد الأولين عند ابتداء القرن العشرين ليذكرون بالاجلال والاحترام لا لأنهم ارتفعوا بالأدب العراقى إلى منزلته العليا ولا لأنهم أصابوا حظا عظيما من التجديد بل لأنهم عبروا عن الجيل الناشىء وواكبوا الشعب العراقى فى قصة نضاله ، وسجلوا آثاره وعواطفه وانفعالاته ولم يتأخروا عن قافلة الحياة السائرة .

• العراق قريب عهد بنوز الحضارة وقريب عهد بنور الحرية وقريب عهد بعصر النضال والكفاح فى سبيل السيادة الوطنية والاستقلال الذاتى . ومازالت صور الاحتلال العثمانى البغيض وتعسفه المؤلم ، وأصداء الثورة العراقية ترن فى الآذان . ولا زالت قصة الكفاح لنيل الحقوق كاملة والاستمتاع بالحياة حرة

(١) نظرات فى الأدب العراقى (مقال) الرسالة : مارس ١٩٤٨ .

والانعتاق من القيود والأصفاد والعراق بلد الثورات والانتفاضات ومهد الحرية الفكرية فى عصر الاسلام الذهبى . والعراق عابد الحرية والاستقلال أبداً لأنه مجبول على الاستمتاع بها والتضحية لأجلها

وتاريخ العراق سلسلة من الثورات الداخلية والخارجية وسلسلة من التمرد والتحرر من الوضع القائم .

• قصه الشكايه هى قصة الشعب العراقى التى ستبقى خالدة سرمدية يشتكى من السلطان ويشتكى من الطبيعة ويشتكى من الحياه ويشتكى من الناس جميعاً .

ولن تنتهى هذه الشكايات لأنها لازمة من لوازم طبعه أو التأمين على حياته فمنذ عهد مغرق فى القدم كان العراق بركانا للثورات وناراً مضطرمة الاوار لا تخمد نار ثورة إلا لقوم مقامها ثورة أخرى .

• كان العهد العثمانى مظلماً كئيباً . سارت فيه المأساة بخفوت وصمت . وامتلأت النفوس غيظا . والقلوب حقداً على الترك المحتلين وحباً للتخلص من تعسفهم وظلمهم ولم يسكت العراق عما يجول فى ضميره وعما يضطرم فى قلبه من نوازع الحرية ودوافع الثورة وما انفك يطالب بالإصلاح ويعلن سخطه على الولاة الظالمين .

• وفى العهد الوطنى لم يسكت العراقيون وظلوا يطالبون بالحقوق ويلهجون بالاستقلال التام ويتحرقون للعدالة الاجتماعية والديمقراطية الصادقة والحكومات تتوالى والوزارات تتبع الواحدة الأخرى والشعب دائب على اعلان السخط .

• ماعلة هذا التمرد الطويل والتقلب الدائم والسخط المستمر ؟ .

الجغرافيون يقولون أن طبيعة العراق متقلبة لا تثبت على حال ثائرة لا تستقر على منوال فهو بلد قارى متغير الطقس تغيرا سريعا ملحوظا قارس الشتاء .

حاد القيظ . وشمال العراق متوج بجبال عالية تكللها الثلوج وجنوبه مكتنف بصحراء واسعة جافة حمراء الرمال كثيرة الزوابع فكثيراً ماتهب الرياح حاملة معها رمالا مزعجة حمراء . فى هذا الجو الغاضب المتقلب يعيش العراق فماذا يكون مزاجه وطبائعه . لابد أن يتقلب كما ينقلب جوه ويتلون كما تتلون بيئته ويثور ويصخب كما تثور صحراوه ويصخب .

• حذار من أن يفهم أننا ننسى أنفسنا ونبتر قوميتنا ونتجنى على تاريخنا . ومهما يكن من طغيان التيار الأعمى فان ملامح القومية لا تزول ولن تزول أبد الدهر ونحن العرب لا نزال نعتز بقوميتنا مقدسين لتاريخنا .

• اصطبغ الأدب العراقى الصميم منذ عصور ازدهاره بصبغة التمرد على الحياة والضجر من الطبيعة والتأفف من الناس . وكما وسم الأدب العراقى بالثورة وسم بالسخط . وفقد الرجل العراقى إيمانه الثابت الراسخ بما يسن من نظم ومايقوم من حكومات . لأن مسرحه المتقلب أفقده الايمان بالبقاء الدائم فى كل ما يرى من الأشياء التى نواضع الناس عليها .

• هذه العوامل مضافا إليه أثر الاخفاق الدائم فى أغلب ما يحاول من أمور خلقت روح الكآبة المرة فى نفسه وأشاعت الألم فيه والإخفاق الدائم يبلغ الفرد إلى الانطواء على نفسه وإلى الكآبة القاتمة . ويضفى روحاً تشاؤميا خفيفاً على إرادته

وعواطفه . فلهذا لم يشهد تاريخ العراق رجلا يستطيع أن يضمه إلى دعاة التفاؤل والمؤمنين بسير البشرية إلى الحياة البعيدة وبلوغها مراتب الاطمئنان . وللأسباب ذاتها لم يخلق فى العراق فيلسوف يحسب له حسابه ويشمخ مع الشوامخ من الفلاسفة العاملين .

• إذا استطاع العصر الحاضر أن يضع حداً لهذه الملامح والخطوط ويخرج أدبا يميل إلى التحرر من عبودية هذه السمات فالفضل فى ذلك لنور الحضارة القائمة على تجاوب الأمزجه فلم يعد كل قطر مهما بلغ من عزلته وانطوائه على نفسه وحرصه على البقاء فى حدود ذاتيته مستطيما أن يقاوم تيار الحياة الجارف القائم على الاخاء والتعاون .

وصور الدكتور عبد الرازق محى الدين المشكلة الأدبية فى العراق فقال :

أن الأدب فى نظرنا — مهما يكن من قصة أو مقطوعة شعرية أو مقاله — ليس بتلك الاشاعات المتذبذبة العاطفية المتناثرة التى لا حد لها المتموجة بأحوال نفسية مضطربة تاره هادئة مستقرة ثائرة بدون هدف عام .

ثم تساءل عن الأدب العراق فقال « لماذا وصل الحال بالأدب العراق إلى هذه الدرجة من الضياع والاهمال ، إن الظروف المتولدة فى حاله الاوضاع السياسية وغيرها هى المسئولة عن موت وخنق تلك المقدرات والعبقريات فأن أزيلت تلك الظروف فأنها تظهر للحياة . . إذن فكساد الأدب العراق ليس سببه عزوف القارىء العراق وعدم متابعة الآثار الأدبية التى تمس متناقضات حياته الفكرية والعاطفية والاقتصادية .

٩ — دور الصحافة فى اليقظة

قامت الصحافة العراقية بدور واضح فى اليقظة الفكرية . فقد ظهرت أول صحيفة عام ١٨٦٩ « الزوراء » وكانت تصدر بالعربية والتركية إبان ولاية مدحت على بغداد وقد ظلت تصدر حتى الاحتلال البريطانى ١٩١٧ وصدرت جريدة الموصل ١٨٩٧ وجريدة البصرة ١٨٩٥ وفى عام ١٩٠٩ كان فى العراق ٢٥ صحيفة ومجلة .

ويقول روفائيل بطى [1] : أن أول جريدة أهلية شعبية هى بغداد التى أنشأها حزب الإتحاد والترقى العثمانى ورأس تحريرها معروف الرصافى وفهمى المدرس ويوسف غنيمه وكاظم الدجيلى (صدرت فى ٦ آب ١٩٠٨).

• كانت أغلب الصحف فى العراق معارضة للحزب الحاكم ولها مواقف مشهودة فى المقاومة . وكان الصراع عنيفا بين الصحافيين والوالى . وقد قامت صحافة الفكاهة والهزل بدور أعمق تأثيراً فى هذا المجال.

• تفاقمت النعرة القومية عند أهل بغداد بعد انعقاد المؤتمر العربى الأول فى باريس ١٩١٣ وكذلك الجمعيات السرية والعلنية وبدأت تبرز شخصية الأمة العربية وكيانها وكانت جريدة « النهضه » الصحيفة القومية الفذة بين زميلاتها جهيرة الصوت فى محاسبة الحكومة العثمانية يحررها إبراهيم حلمى العمر ولم تتحمل الحكومة لهجتها الثائرة فتعطلت بعد العدد الحادى عشر .

• ظهر عدد كبير من الصحف ولكنه سرعان ما اختفى لمقاومة السلطة الحاكة منها جريدة الايقاظ والرصافة والرياضى ومصباح الشرق والتهذيب والدستور وكان يحررها سلمان فيضى ومحمد أمين عالى وعبد الله الزهير .

• كانت لغة الصحافة العراقية فى فجر حياتها تشوبها العجمه . وأسلوب الكتابة فيها ضعيف مهلهل وعبارته مشحونة بالاغلاط اللغوية والنحوية ويرجع ذلك إلى شيوع الأمية والتخلف الثقافى .

• فى خلال الحرب العالمية ، عندما احتلت الجنود الإنجليزية البصرة شددت الحكومة العثمانية الخناق على الصحافيين وطاردتهم بحجة ظروف الحرب الاستثنائية .

---

(١) الصحافة فى العراق (كتاب) روفائيل بطى — ١٩٢٥ .

● أصدر أحمد حمزة الأعظمى جريدة (لسان العرب) تنافح عن الفكرة العربية وتبشر بالرسالة التحررية بلهجة عنيفة ثم حولها إلى (المنتدى الأدبى) وقد غدت لسان الجمعية السياسية العربية التى ضمت شباب العرب فى العاصمة العثمانية وسيق هذا الصحفى إلى المحكمة وسجن ثلاثة أشهر .

وقد كانت النشرات التى تحرض العرب على الثورة على الترك ترد إلى الإستانة ضمن الجرائد المرسلة إلى مدير مجلة المنتدى الأدبى .

● أصدر الإنجليز بعد احتلال البصرة فى ديسمبر ١٩١٤ جريدة العرب وكان يتولى سياستها جون فيلبى كما أصدروا صحيفة فى كل من الموصل وبغداد وكانت المصادرة والقوانين الضاغطـــة على جرية الصحافة تعرضها للانذار والتعطيل والإلغاء الإدارى .

● كان أبرز كتاب الصحف فى العراق : إبراهيم حلمى العمر، محمد حبيب العيدى ، الزهاوى ، الرصافى ، الشبيبى ، نجيب الارمنازى وكاظم الدجيلى وعبد المحسن الأزرى . » ه .

* * *

ويقول الدكتور زكى مبارك [1] عن صحافة العراق :

لم يصح عندى أن فى العراق صحافة تساير ما فيه من النهضات العلمية والقومية وأن كثرت فيه الجرائد والمجلات . فكيف تخلف العراق فى هذا الميدان مع أنه تقدم فى أكثر الميادين . قد يجاب بأن الصحافة هناك ترزح تحت اثقال من القيود بسبب العواصف السياسية ؟ يرجع السبب إلى أن الصحافة العراقية

(١) ملامح المجتمع العراق (كتاب) ١٩٤٣ .

رى أن الحرية لا تكون إلا فى الحدود التى تتمتع بها الصحافة المصرية وذلك خطأ . فالمصريون والعراقيون يختلفون أشد الاختلاف فى الميول والأهواء والمقالة القاسية فى جريدة عراقية تزلزل إحساس الجمهور المثقف أعنف الزلزال وقد سمعت أن جريدة عراقية أغلقت لأنها كتبت مقالا عنوانه الفرات الهائج وتناست الفرق بين الهياج والطغيان : فالهياج يضاف إلى السكان : أما الطغيان فيضاف إلى الماء .

● إن العراق بفطرته طيب القلب مأمون الغيب . وأن العراق وطن النبل والصفاء . إن للعرب أعداء يتقولون عليهم فى كل يوم ويذيعون عنهم السوء فى كل يوم وفى كل حين ولن يسكت أولئك الأعـــداء عن إفساد ما بين العرب من صلات . لأن العرب مقبلون على تاريخ جديد لا تنهض قواعده بغير الاخاء الصحيح . من أجل هذا تبذل الملايين من الدنانير الأجنبية لتعويق ذلك الاخاء أو لقتله فى المهد إن كان قتله من الممكنات .

ويصور غائب طعمة فرمان أثر الصحافة فى الأدب « كنت أعتقد أن الصحافة بفضل انتشارها وتغلغلها فى جميع الطبقات استطاعت أن تهدم الأسوار التى كان يبنيها بعض الأدباء الذين يشعرون بنشوة واعتزاز حين يوصفون بأنهم ليسوا من الجنس البشرى فقربت من الأدب إلى الجمهور بقدر ما قربت الجمهور إلى الأدب وأصبحت الصحافة المزاحم القوى للكتاب فى نقـله للانتاج الأدبى » .

١٠ — حركة النشر والتأليف

تحدث الكتاب والمفكرين فى العراق عن ضعف حركة التأليف والنشر

فى العراق أرجع الكثير من أسبابها إلى قلة عدد المتعلمين فيه . أو فقدان الطمأنينة الروحية والاستقرار النفسى أو عدم التفرغ للأعمال العلمية .

وقيل أن من العلماء وأهل الرأى وذوى الفكر من آثر الانزواء والاكتفاء بالقراءة والاطلاع على التأليف والكتابة ومنهم من لووا أعنة اجتهادهم إلى مسارب السياسة ومجارى التجارة بعد أن وجدوا فى البحث والتأليف ما تصوروه مضيعة للجهد واضناء للفكر[1] .

ويقول الدكتور محمد حسين ال يس(١) قلة عدد المتعلمين فى العراق(٢) ضعف ملحوظ فى التذوق الأدبى إذ يفضل الكثير من القراء قراءة الروايات ومنشورات الجيب التى لا تتطلب جهداً كبيراً (٣) الاهتمام بالمؤلفات التى تنشر خارج العراق لقلة أثمانها (٤) رداءة الطبع فى العراق وعدم جاذبية الكتب .

ويقول محمد مهدى كبه « السبب هو فقدان الطمأنينة الروحية والاستقرار النفسى الناجمين عن عدم استقرار الحياة الاجتماعية والماشية بين أوساط المثقفين والمفكرين ذلك الاستقرار النفسى الذى هو الشرط الأساسى لنشاط الفكر ونمو إنتاجه وإبداعه .

ويقول الدكتور احمد عبد الستار « الذين يملكون القدره على التأليف ليسوا متفرغين للأعمال العلمية تفرغاً يجعلهم قادرين على الكتابة والتأليف بل أن معظمهم مسئولون بمطالب العيش الضرورية » .

* * *

ويرى « غالب طعمه فرمان[2] » أن خلق أدب عراقى أصيل يتوقف على أمرين رئيسين :

---

(١) من نشرة المكتبة الخلانى العامة بغداد ١٩٥٥ عن حركة الصحافة والنشر بالعراق .
(٢) حصيد الرحى (قصة) بغداد ١٩٥٤ .

١ – احترام الحرية الفكرية وضمانتها من كل اعتداء يقع عليها .

٢ – الرجوع إلى البيئة العراقية واستخلاص مادة الأدب منها والتعبير عن الشخصية العراقية بكل ما يحيط بها من ظروف وإظهار أمانيها وأهدافها فى الحياة الحرة الكريمة » .

ومع هذه الصور التى رسمها كتاب العراق فان النهضة الفكرية لها أصول وجذور فى العراق ومن أمثلة ذلك نادى القلم العراقى وقد أصـــدر مجموعة من المحاضرات التى ألقيت فيه تتضمن أبحاث محمد باقر الشبيبى . ومحمد فاضل الجمالى ، متى عقرادى : روفائيل بطى . عباس الغزاوى ، عبد الكريم الأزدى ، على حيدر سليمان . شيت لقمان ، مجيد فاخوى ، زكى مبارك، عبد المسيح وزير .

وكان الرئيس الأول له ١٩٣٥ الزهاوى ثم الشبيبى .

وقد تضمنت هذه المجموعة الأبحاث الآتية :

الشبيبى	: المجريطى فلسفته ومكتشفاته
عبد الكريم الأزدى	: الانقلابات الاقتصادية الحديثة
	: الدولة بين الواقعيين والمثاليين
الدكتور متى عقراوى	: مشروع التعليم الاجبارى فى العراق
عبد المجيد محمود القره غولى	: النزاع الحبشى الايطالى
احمد حامد الصراف	: الغلاة أو عباد على بن أبى طالب
جعفر خياط	: الحركة العلمية فى العصر العباسى
عبد المسيح وزير	: صناعة الترجم

ولا شك أن هذه الرءوس للموضوعات تدل على القوة والعمق — وكان ذلك منذ ربع قرن — ويتصل بهذا ما نشره « طالب الحيدرى » فى مجلة الثقافة

(١٩٤٧) بعنوان العراق مظلوم قال فيه أن النجف الأشرف كان ولا زال منار المسلمين ومحطا لطلب العلوم ورواد الأدب .

وقال ان الأزهرى ماهو كاحدى المدارس الدينية فى النجف . والنجف مركز الشريعة الاسلامية وعاصمة الفقه المحمدى وبه عشرات من المجتهدين العظام والتلميذ فى النجف الأشرف يدرس طيلة حياته وقدتفوق العراق فى العلوم الدينية من فقه وأصول وكلام على غيره من الأقطار العربية بصورة خاصة . وفى اللغة عدد من المتضلعين ممن أصبح أو سيصبح حجة وموضع استشهاد الأب أنستاس الكرملى وطه الراوى ومصطفى جواد وكذلك البحوث التضمنية القيمة التى تنشر على صفحات الاعتدال والغزى والدليل .

وقد أرجع عبد الوهاب [١] الأمين اليقظة الفكرية فى العراق إلى عام ١٩٢٩ يقول : من يتصفح الصحف والمجلات (١٩٢٦) لما فاته أن يلحظ طيف اليقظة الأدبية فى مهدها ولرأى من كثرة ما تنشره الصحف حينذاك من الشعر على الأخص ، وإن كانت بصورة بدائية روحا أدبيا يبشر بمستقبل لا بأس به .

ثم أشار إلى جناية السياسة والصحافة على الأدب فى صوره [٢] أولئك الأشخاص الذين بدءوا حياتهم أدباء ثم انقلبوا سياسيين فلما ظهرت أسماؤهم على الأفواه تركوا الأدب وانصرفوا إلى السياسة . وجعلوا الأدب مطية لأطماعهم .

وقال أن جريدة « البلاد » وهى كبرى جرائد العاصمة كانت فى أول أمرها تخص الأدب بثلث صفحاتها يوميا ، وتستكتب الأدباء والشعراء ، ثم تركت الأدب مرة واحدة » .

---

(١) سنة ١٩٣٦ الرسالة : مقال الحياة الأدبية فى بغداد .

(٢) نفس المصدر .

ويقول شاكر حيدر فى مقال له عن الأدب العراقى قبل ثورة ١٤ تموز :

• كانت الصراحة فى الأدب والتعبير محرمة بحكم القوانين والتشريعات الجائرة ، وإن قلة مناضلة كانت تتخطى كل هذا وتجاهد من أجل الفكرة ولكن على حساب الثمن الغالى الفادح فى القوت والحرمان والمطاردة وليس بعيداً عنا ذلك اليوم الذى كانت أنباء الشعراء والأدباء المغتربين الموزعين على الأقطار العربية الشقيقة تصلنا بنتاجهم وهم فى المهاجر .

• كل أديب يشكو . وكل شاعر يغنى آلامه . ويتصومع فى أفكاره ومحتواه . والقصاص والرسام كلاهما كذلك كانا ضاربين على الوتيرة نفسها .

وللمتتبع أن يتصور مدى أربعين سنة من الزمن تقف عقبة كأداء فى سبيل التفتح والارتواء من المناهل الصافية العذبة . ولكل متتبع أن يقرر بعد ذلك أى نوع من المكابدة والصبر العاصف كان يشحذ كل عاطفة من العواطف الانسانية التى أغلقت من وجوهها حتى نوافذ الضوء المباح » .

وقد حمل الأدب العراقى رسالة القومية العربية منذ وقت بعيد بالرغم من الضغط الذى كان يواجهه ؛ يقول : «أبو الهيثم[1] » :

« إذا كانت القومية العربية هى السعى للوحدة العربية وانشاء الدولة العربية القوية فنحن قوميون عاملون على القومية مجاهدون فى سبيلها ومن يأبى الوحدة ويؤثر الانقسام ويرضى بهذه الحال المضحكة المبكية ؟ .

إن الداعين إلى الوحدة الاسلامية يعلمون أن الجهود يجب أن تصرف أولا إلى توحيد العرب وهم أعقل بحمد الله من أن يطلبوا وصل بغداد بحيدر أباد قبل أن تتصل بغداد بدمشق » .

---

(١) اغسطس ١٩٣٩ مجلة (بغداد).

وقد تأثر زكى مبارك بالقومية العربية فكان رسولها فى الوقت الذى كان طه حسين يقف ضدها وينادى بحضارة البحر الأبيض المتوسط وعظمة العقل اليونانى ولعل مرجع ذلك زيارته لمراكش واقامته فى بغداد (١٩٣٨) فقد نضجت مفاهيمه فاصدر عن إيمان بالوحدة العربية فى كثير مما كتب لم يكن مألوفا فى كتاباته من قبل ومن ذلك قوله[1]:

« المهم أن تكون لنا خطة قومية فى التعرف إلى الشرق ، خطة قومية تنزل من القلوب منزلة اليقين وتفرض على المصرى أن يشعر بالأخوة الصحيحة لكل من يتكلم اللغة العربية فإن تجاوزنا ذلك إلى العطف على كل ماصدر عن القومية العربية عددنا الإسلام صوت العرب فى الشرق والغرب وأدركنا أن الإسلام ميراث عربى يشاطرنا فيه نصارى لبنان والعراق : لأن محمداً هو أول عربى رفع اسم العرب فى العالمين » .

ولعل العراق كان بعيد الأثر فى تفكير عدد كبير من كتاب مصر الذين ذهبوا إلى العراق أمثال عبد الوهاب عزام واحمد حسن الزيات وابراهيم عبد القادر المازنى ومحمود عزمى .

١١ — الشعر والقومية العربية

كان الشعر العراق أعمق أثرا فى الحركة الفكرية وأبعد مدى ، ذلك لأنه يتصل بالمشاعر والعراقيون أهل عاطفة وحماسة ، وكان الشعر فى النجف أوسع رقعة وأضخم إنتاجا منه فى سائر الحواضر العراقية فإن أغلب الأسماء البارزة ولدت بالنجف أو رحلت إليه كما رحل الكاظمى حيث تلقى العلم على الشاعر النجفى ابراهيم الطباطبائى آل بحر العلوم .

فالشبيبى الكبير وباقر الشبيبى والجواهرى والصافى والبصير كلهم من النجف .

(١) اقرأ بتوسع عن زكى مبارك والقومية العربية فى كتابنا عن حياة زكى مبارك وأدبه (تحت الطبع) .

وظاهرة أخرى واضحة فى شعراء العراق أنهم مجاهدون ، تعرضوا بشعرهم الجرىء للنفى والاعتقال وحملوا راية المقاومة قوية ضخمة فخيرى الهنداوى سجنه الأتراك والحبوبى تسامت نفسه إلى الجهاد والزهاوى لقى من الاستبداد العثمانى أعنف الاضطهاد والكاظمى هجر العراق إلى مصر ومحمد مهدى البصير الذى اشترك فى ثورة جعفر أبو التمن ونفى إلى جزيرة هنجام ومحمد صالح بحر العلوم الذى دعا إلى الثورة وحوكم وسجن سجناً شديداً ومن شعره قوله :

فاترك الزرع ونح المنجلا عنك حيناً واملأ الأرض دما

وبحد السيف حاسب دولا بينها حقك أضحى مغنما

كما هاجر عدنان الراوى وكاظم جواد والبياتى هؤلاء جميعاً هاجروا من العراق فى فترات مختلفة إلى جانب غيرهم ممن رحلوا إلى سجون تركيا والعراق. ويجمع المؤرخون على أن الشعر العراقى قد مهد لثوراته المتوالية ، كما أسهم فى جميع الحركات الثورية والتحررية من ثورة ١٩٢٠ إلى ثورة جعفر أبى التمن إلى ثورة الكيلانى إلى مقاومة معاهدة بورتسموث وحكم نورى السعيد .

وقد صور إبراهيم الوائلى نهضة الشعر العراقى العربى فقال :

• فى العراق حركة أدبية ضخمة هى فى الحقيقة إمتداد لتاريخ العرب فى العراق منذ العصر الجاهلى مرت به فترة مظلمة كما مرت بالبلاد العربية الأخرى أوقفت تيار الحركة الأدبية . بدأت الحركة تستعيد نشاطها فى القرن التاسع عشر إذ نبغ شعراء كثيرون فى النجف والحلة وبغداد والموصل والبصرة .

• بدأ التطور الحقيقى للأدب والشعر فى العراق مع بداية القرن العشرين نتيجة للتطور الذى شمل البلاد العربية وإنتشار الصحافة والمطبوعات . ونبغ فى القرن العشرين كثيرون : الرصافى ، الكاظمى ، الزهاوى ، جواد ، الشبيبى ، أبو المحاسن ، خيرى الهنداوى ، عبد الحسين الازرى وهؤلاء توفوا ومن الأحياء

رضا الشبيبي وعلى الشرقي ومهدى الجواهرى، ومحمد صالح بحر العلوم الذى شرده شعره فقضى أغلب حياته فى السجن. ومحمد على اليعقوبى وهناك طائفة من الشباب مرتضى فرج الله عبد المنعم الفرقوصى ، خالد الشواب ، ابراهيم البياتى ، كاظم جواد .

ولقد كان الشعر العراقى قبل ثورة تموز يمهد لانتفاضة العرق ويساهم مساهمة فعالة فى توجيه الشعب على صفحات الصحف . ولقى رواده ألوانا من التنكيل والاضطهاد » .

* * *

ويقول النقاد أن الشعر العربى العراقى فى القرن التاسع عشر جمع أغرب الصفحات على اختلافها وتباينها . وقد ازدهرت التقاليد الأدبية القديمة فى المدن الكبرى كبغداد والموصل وقاد حركة الشعر أفذاذ مثل عبد الغفار الأخرس (١٧٨٣) وعبد الباقى العمرى الفاروقى (١٧٨٩ — ٨٦١) وازدهر الشعر العباسى فى النجف الأشرف وكربلاء مدينتى الشيعة المقدسين وأبرز زعمائها إبراهيم الطباطبائى (١٨٣٢ — ١٩٠١) . ثم ظهرت مجموعة أخرى مجددة كان فى مقدمتها عبدالمحسن الكاظمى (١٨٦٥ - ١٩٣١) ومعروف الرصافى (٨٧٥ — ١٩٤٢)

ويجمع النقاد على أن الشعر العراقى بعد عام ١٩١٤ تناول الأحداث الاجتماعية والسياسية ودعا إلى تحرر المرأة وامتداح الحضارة وبرز الصراع فى القصيدة العربية وبدأ الشعراء يلتزمون موقفاً واضحاً من الأحداث وقد وصف شعر الزهاوى بأنه كان مشربا بالروح الفلسفية وكان يطلق لنفسه حرية الأسلوب والتعبير بعكس الرصافى الذى حصر شعره فى دائرة الأسلوب التقليدى

وقال النقاد إن الرصافى هو أول من أدخل مشاهد البؤس فى الشعر وقال إنها من أشد الدواعى للنظم .

وكان الزهاوى ينظم الشعر باللغات الثلاث: العربية والتركية والفارسية .

يقول الزهاوى «غنيت لأبناء وطنى أريد إيقاظهم فلما فتحوا عيونهم شتمونى ثم غنيت فأخذوا ينظرون إلى شزراً ثم غنيت فابتسموا لى ثم هتفوا لى وبقى فيهم من يشتم ، وغنيت وسأغنى إلى أن يسكتنى الموت ، وسوف تبقى بعده كلمات معربة عن شعورى وما كابدته فى حياتى من شقاء واضطهاد فهى دموع ذرفتها يراعتى على الطرس ناطقة بالآمى . وهى خليقه بأن تنزرف من عيون قارئها دمعة هى كل جزائى على نظمها » .

* * *

وقد دخلت على الشعر العراقى الحديث تيارات وإتجاهات جديدة بعد عام ١٩٤٥ :

● يقول عبد الوهاب البياتى « إن اتجاهات شعراء العراق متباينة ولعل أبرز إتجاه هو الواقعية الجديدة وهذه المدرسة تعتمد على مقومات وخصائص فنية وهناك اتجاه الأدب للادب ومنه تتفرع مدارس شعرية مختلفة منها الزمزية والسريالية فوق الواقعية .

والرأى القائل بأن شعراء العراق شعراء فكرة لا ينطبق على جميع الشعراء، صحيح أن الشعراء الذين سبقوا الحرب الكونية الثانية كان أغلبهم يهتمون بالفكرة حتى أنهم كانوا يضحون بالشكل الفنى للقصيدة والتجربة الشعورية » .

● يقول عبد الوهاب الأمين[1] أنه بموت الرصافى (١٦ أزار ١٩٤٥) تبدأ صفحة جديدة فى عالم الشعر العراقى وتنتهى سلسلة الشعراء الكبار الذين إمتدت حياتهم بين القرن التاسع عشر والعشرين .

---

(١) الرسالة (٩ أبريل ١٩٤٥) .

• يقول الدكتور بديع شريف[1] أن فى أساليب الشعر الحديث محاولة غريبة لتقليد الشعر العربى والابتعاد عن الأسلوب القديم المحافظ ، ولكنها محاولة فى الشكل إن لم يقدر لها الفشل فلم يقدر لها النجاح بعد . فهى محاولة ساذجة لم تؤخذ عن دراسة أو رواية ، بل أخذت عن قراءة سطحية أراد المحاولون أن يسجلوها فلم يفلحوا .

١٢ — مراكز الفكر العربى فى العراق

فى النجف والحلة والموصل مراكز هامة للفكر العربى وقد أبرز النجف الأشرف عدداً كبيراً من الشعراء منهم محمد رضا الشبيبى ، على الشرقى ، باقر الشبيبى ، محمدمهدى الجوهرى وسيد أحمد الصافى والدكتور محمد مهدى البصير محمد طه الحوزى وحميد السماوى ومحمد صالح بحر العلوم وعبد الرازق محى الدين

وقد ظهرت حركة تجديد وبعث للأدب العراق العربى القديم فى النجف كان أبرز كتابها على الخاقانى صاحب مجلة البيان الذى عكف على دراسة الفترة التى لم تؤرخ وقد اتفق خمس عشرة سنة اتصل خلالها بالمجاميع الأدبية النادرة وقرأ الدواوين الخطية وغير الخطية وأصدر أربع مجموعات ضخمة هى :

شعراء كربلاء « الحائريات » .

شعراء الحلة « البابليات » .

شعراء الغرى « النجفيات » .

شعراء الزوراء « البغداديات » .

وتتناول هذه المجموعات التى تبلغ أجزاء كل مجموعة منها خمسة مجلدات (كالنجفيات) والبابليات دراسة واسعة للشعراء وعصورهم وانتاجهم ، وللخاقانى كتاب عن أدب العراق فى القرون المظلمة يبحث فى

(١) مقال خط الفكر فى أدبنا العربى — مجلة الإذاعة العراقية — ١٩٥٦ .

شعراء الكاظمية والبصرة والموصل فى خمس مجلدات أخرى أمضى فى إعداده ٢٠ عاماً . وقد صحبت هذه الحلقات أكثر من ٧٠٠ ترجمة لأعلام الأدباء والشعراء الذين لم يكن يعرف هواة الأدب عن أكثرهم إلا الأسماء فقط .

وقد صور الكاتب المؤرخ مهمته فى مقدمة كتاب «شعراء الحلة (البابليات)» الصادر فى عام ١٩٥١ فقال : إنه حرص على تغطية شعراء العراق فى الفترة المظلمة التى تبتدىء من النصف الثانى من القرن السادس الهجرى وتنتهى بالربع الأول القرن الرابع عشر الهجرى ؛ تلك الفترة التى اضطربت فيها اللغة العربية أو كادت نظراً لتعاقب الحروب والرجات السياسية التى منى بهـا العرب فذلوا لسلطان الأتراك حقباً طويلة . وناضلوا فى سبيل إحياء لغة الضاد واستمرار بقائها ما وسعهم النضال . غير أن الضعف فى الفكرة العربية والهزال الذى أصاب الجسم والفلج الذى خامر الأرواح كان مدعاة لأن تبقى اللغة بقاء تستمد القوة فيه من الكتاب العزيز وتعتصم بوجوده فقط وقال :

لقد كنت مولعاً بجمع هذا الضرب من الأدب المنشىء وإخراجه بالصورة التى تعين القارىء وتوقفه على ما يبغيه . غير أن أفراداً سبقونا بزمن أعلنوا نفس الفكرة . وقد هيأت لى — الأسفار التى قمت بها والتى جمعتنى مع بشر لطيف وأوقفتنى على مكتبات عامرة — القدرة على جمع كثيراً من هذا الأدب .

٢ — وهذه صورة من الموصل :

كانت حركة المقاومة للاستبداد العثمانى تتمثل فى الأناشيد الموصلية[1] التى كان شعراء الموصل يلقنونها للتلاميذ والشباب فى مقاومة طغيان عبد الحميد وجمال السفاح .

---

(١) كتاب الأناشيد الموصلية : محمد سعد الجليلى — ١٩٥٣ .

يقول محمد سعيد الجليلي : بينما كان السفاح يسوق أحرار العرب وشبابهم ومفكريهم إلى ديوان الحرب العرفى فى عالية حيث كانوا يحاكمون محاكمة سورية تصدر على أثرها أحكام الإعدام فتنفذ فوراً بالعشرات فى ميادين بيروت وساحاتها حيث تتأرجح هاماتها على أعواد المشانق وأراجيح الأبطال . بينما كان الوضع فى مفتتح الحرب فى البلاد العربية على هذا الشكل ، كان فى بقية البلاد العربية ولاسيما العراق رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فى تبنى الفكرة القومية ونشرها بين ظهرانيهم فألفوا جمعيات سرية لهذا الغرض وكان من جملة هذه الجمعيات القومية فى الموصل جمعية العلم وعلى رأسها محمد سعيد الجليلى ، محمود الملاح ، محمد رؤوف الغلامى » وقد كانت أول خطوة هى نقل الشباب المتعلم من الأناشيد التركية التى كان مقرراً انشادها فى المدارس آنذاك إلى أناشيد عربية حماسية .

١٣ — أدب المرأة العراقية(١)

وللمرأة فى العراق دور فى نهضة الفكر العربى فقد كانت الدعوة إلى تحرير المرأة التى حورب من أجلها الزهاوى والرصافى بعيدة الأثر فى تطور المجتمع العراقى وبروز المرأة إلى ميادين الدرس والبحث والعلم ولقد كان الزهاوى تقدمياً أكثر من شعراء مصر فى هذه الفترة فى الوقت الذى يقول فيه حافظ إبراهيم فى القاهرة :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً   بين الرجال يجلن فى الأسواق

كان الزهاوى فى بغداد يقول :

اسفرى فالحجاب يا ابنة فهر   هو داء فى الاجتماع وخيم

لم يقل بالحجاب فى شكله هذا   نبى ولا ارتضاه حكيم

---

(١) سنتناول هذا بالفصل فى دراستنا المستقلة عن (أدب المرأة العربية) .

كما حارب الرصافى بقاء المرأة مسلوبة الرأى . ولذلك فقد ظهرت فى الثلاثينات من هذا القرن مجموعة من الشاعرات أمثال رباب الكاظمى وأم نذار الملائكة ونازك الملائكة وعاتكة الخزرجى وصدوف العبيدية ولميعة عباس .

وبالرغم من أن شعرا المرأة فى العراقية وصف « بالذاتية » فإن رباب تمثل النخوة العربية فى أوضح صوره عند ما تقول :

أنا من اناس كلهم ... بدر ولكن عند تم

كرموا ولما يلبسوا ... لعداتهم جلباب لؤم

فإذا لجأت إليهم ... تلجأ إلى هضبات شم

ويقول الدكتور بدوى طبانة فى مقدمة كتابه « أدب المرأة العراقية[1] إن شاعرات العراق عالجن أموراً من صميم المجتمع وعالجن الأغراض الساسية شعراً ونثراً لا يقل براعة عن أدب الرجال ، أما فيما يتصل بتصور هذا النتاج لعواطف صواحباته وشعور منتجاته فأغلب الظن أنه لن يجد ذلك وإن وجده فسيجده على حاله ينقصها الوضوح ويعوزها الإفصاح عن العاطفة والصراحة فى التعبير . كانت الأديبات مضطرات إلى تجنب مزالق التعبير عن الانفعالات الوجدانية والعواطف النفسية التى تجيش فى نفوسهن الشاعرة وقد لا تحمد عقبى التصريح بها .. » .

ويقول بعض النقاد أن أغلب شاعرات العراق يملن لنظم الشعر الذاتى الذى يعكس حياتهن ومن هؤلاء نازك الملائكة التى تناولت صوراً عامة للحياة الاجتماعية والسياسية الوطنية ويرسم المرحوم الدكتور إبراهيم سلامة صورة لأديبات العراق من مقاعد الدرس فيقول :

---

(١) صدر فى القاهرة عام ١٩٤٨ .

« كم[1] لمحت فى نازك الشاعرة العراقية صمتاً ممضاً . لا يلبث أن يتنفس عن حكمة، كان وجهها الطفلى الصغير تنومه سحائب من قلق لا أعرف مأتاه وربما لا تعرف هى مأتاه . كنت أهم أن أبدد هذه السحب التى تغشى الهلال فى أيامه الأولى ثم أرجع فأحترم هذا الصمت . وهذه عاتكة أراها فى عباءتها العراقية فى آخر الصفوف منقبضة كالخائفة ، يقظة كالخائفة أيضاً وخوفها الأول من فرط أدبها وخوفها الثانى من الحرص على تقاليدها ولكنها واعية مستوعبة لكل ما يلقيه الأستاذ . ولكنها مع ذلك تبدو فى سواد دائم . ولقد تستشف نفسها فتجد أن نفسها اشتملت على سواد ثيابها ثم تعلم من أمرها أن عاطفتها مقسمة بين نفسين هى كل منهما : نفس أبيها وقد تركها طفلة فهى لا تنساه كما أنها لا تذكره . ونفس أمها التى أفرغت فيها كل عواطف الأمومة وأفرغت لها كل جهودها العلمية لتقابل جميلها بصنع جميل » ونازك الملائكة التى كانت موضع إعجاب أستاذها تخرجت من دار المعلمين العالية وأبوها صادق الملائكة أديب وشاعر ومؤرخ ،وأمها شاعرة «أم نذار» وقد قرأت أبى شادى وناجى وعلى محمود طه وتأثرت بمحمود حسن اسماعيل والشابى وجون كيتس وأصدرت عن اللون الحزين الصامت من الشعر وأخرجت روايتها «عاشقة الليل» عام ١٩٤٧ و«شظايا ورماد» ١٩٤٩و«قرارة الموجة»١٩٥٦ .

ومن شعرها قولها :

حياتى يا شاعـــرى كلها	حياة فتاة من الحالمـــين
الهيـــة الروح لكنها	على الأرض حفنة ماء وطين
تغذيها صرخات الأسى	وترعشها صرخات السنين

(١) مقدمة كتاب أدب المرأة العراقية للدكتور بدوى طبانة .

ولولاك ما وجدت فى الثرى . عزاء ولم يجتذبها الحنين

أما عاتكة الخزرجى فقد كانت توقع قصائدها « عليه بنت المهــــدى » سافرت إلى باريس حيث حصلت على الدكتوراه فى الآداب العربية من السربون، كانت رسالتها العباس بن الأحنف ولها ديوانها «أنفاس» يمثل تطورها الفنى من ١٩٣٧ — ١٩٥٧ وهى تؤمن بأن رسالة الشاعر أن يحيا بين قومه وأن يستلهم قضاياهم فيما يعنيه وأن يجد لها من الحلول على ضوء من فكره الثاقب وثقافته العميقة

١٤ — الشعر والمقاومة

إذا أردنا أن نرسم صورة عامة لشعراء العراق أمكن أن نقول أن شعراء العراق حملوا لواء الدعوة إلى «المقاومة والتجمع» بكل أمانة وشرف وأنهم جميعاً كانوا مثلا للايمان بالعروبة ومع أنهم شاركوا فى مختلف الفنون الشعرية فقد كانت القومية والتجمع أبرز معالم شعرهم .

لقد سجل الرصافى «صورة الطموح القوى فى أحلك عصور الاستبداد ؛ فقد كان ناقماً وكان طموحاً ولم يتمتع فى حياته بسنوات راحة أو هناء : انغمر فى التيار السياسى فلم ينجح . حاول أن يكون مصلحاً فاخفق . اكتسب عداوة الحاكمين وسخط المحكومين بسبب شذوذ آرائه فى أمور الدين والاجتماع ، عقيدته تحمل طابع التحرر والانطلاق . فيه بدوات ونزوات عارمة ذات شذوذ جلب عليه سخط الكثيرين من معاصريه . لقد ترك ثروة وافرة من الشعر والأدب . وكان أحد المجددين فى الحقل الاجتماعى والسياسى والمنافحين عن حرية الرأى » .

أما حياة « الكاظمى » فإنها تمثل صورة صادقة للمقاومة . نشأ فى العراق وغادرها فى صدر شبابه مهاجراً إلى القاهرة فقد كان الطغيان الاستبدادى العثمانى يقصف كل داع للحرية .

« هتف الكاظمى بذكر الحرية فى رسائل وقصائد فأصابه ما يصيب دعاة الحرية فى بلاد الاستبداد من كيد وأذى وحاق به الخطر من كل جانب فلاذ بالوكالة الايرانية فى بغداد ، وهاجر من وطنه العراق ١٨٩٧ إلى إيران فالهند وانتهى به المطاف إلى مصر ١٨٩٩ . صقلته الأسفار وكونت له مزيداً من التجارب ومكنت فى نفسه دعوة الإصلاح .

كان ينظم كن يتحدث على مهل ويملى فيعاد فى بعض إملائه ، يسبق من يكتب ويستعيد الأبيات حينا بعد حين ولكنه كان يستفيدها ليربط ما بينها وقلما كان يستعيدها لتبديل أو تنقيح[1] » .

وكان مثال الشاعر العربى القديم فى صفاء الفطرة وغزارة المادة وحضور البديهة . كان يرتجل القصيدة التى تزيد على المائة بيت دفعة واحد، فتأتى خالية من الحشو والفضول . وكان يترنم فى الشعر بنغم بدوى حلو فيهز النفوس هزاً وقد أخذ حافظ إبراهيم عنه هذه الطريقة :

ولما نقلنا للبواخر رحلنا ... وعفنا المطايا وهى حرى وظلع
هجمنا على جيش من الموج ضارب ... بزخاره نحو السما يترفع
يطالعنا من كل فج كأنه ... جبال شرورى أقبلت تتقلع
ولما تبينت السويس وسار بى ... إلى النيل سيار من البرق أسرع
هرعت إليه ثانياً من حشاشتى ... وقلت لصحبى هذه مصر فاهرعوا

ومن شعر الحرية قوله :

أقيمى على العز أو فارحلى ... وإن سامك الهون لا تنزلى

---

(١) مصطفى عبد الرازق فى مقدمة ديوان الكاظمى — ١٩٣٥ .

وهبي إلى الرحل محمودة لقد طال مكثك في المنزل
وطيري مع النجم مشهودة فنجم سعودك لم يأفل
أنا منك أن تعظمي في الورى وما أنت مني أن تذللي
فلا تتواني لنيل العلى إذا سنحت فرصة فاعجلي

ويقول موجهاً نداءه إلى بغداد يدعوها إلى الثورة .

عسى بغداد يوقظها بياني فتقرأ فيه أبكار المعاني
مضى أمس فلا يرجى لأمس مآب أو يؤوب الفارطان
عسى بغداد تسمع من بعيد فتاها أو يقر الناظران
وتلفتها عظات من خطوب تقوض بالفقار وبالجران

ويصف مصر التي يحبها أشد الحب :

نعم أهل مصر أنتمو خير أمة وما الخير إلا منكم يتفرع
خذوا حذركم فالكاشحون بمرصد وأنتم كما شاء الكواشح هجع
ولكنني أرجو إنتباهة حازم تصرف عنا هول ما يتوقع
دعوا عنكم مر الهوان وعرجوا على جنبات العز من حيث تنصع

* * *

أما « محمد رضا الشبيبي » فهو علم من أعلام الفكر العربي العراقي الحر .

ولد بالنجف في أواخر العقد الآخر من القرن الماضي ، وموهبته الشعرية موروثة عن الآباء والأجداد ، عمل وزيراً للمعارف وعضوا في مجلس الشيوخ والنواب .

نظم فى الحماسة والشعر الوطنى والحكميات أو قصائد الحكم والاجتماعيات والاخلاقيات والالهيات والوجدانيات والوصفيات فالرثاء .

تعسف قوم بالعراق وساوموا	على وطن ماسيم يوما بأثمان
هموا احتقبوا الاوزار يقترفونها	وقالوا جنى عمدا وما هو بالجانى
وقد تنكر الحر العراقى أرضه	فينأى ليدنو منه من ليس بالدانى

والشبيبى من دعاة القومية العربيـة وحمله لواء المقاومة والتجمع وقد عاصر الثورة العربية الأولى وشارك فى مقاومة الاستبداد العثمانى والاستعمار البريطانى .

يقول : [1] غلب على الأمة العراقية شعور عام بضرورة الخروج من عزلتها والاتصال بالعالم للتعريف بأمانيها ومطالبها ... كنا فى العراق مأخوذين بما نسمعه عن ثورة العرب فى الخارج وعن النجاح الذى أحرزه القادة الثائرون فى بعث الدولة العربية المرجوة . رايات قومية تنشر بعد طى طويل . وكيان سياسى مرموق ، وحكام تجرى فى عروقهم دماء عربية إلى روايات أخرى جذبتنا جذبا إلى الوطن العربى الأكبر تحدونا آمال جسام فى الحصول على معونة إيجابية لهـذا البلد المنكوب باحتلال الانجليز وسرعان ماصدمتنا الحقيقة المرة صدمة أشعرتنا بأننا كنا مسرفين فى التفاؤل فاذا الحركة فى الديار الحجازية يخيم عليها الجمود . أما الدولة الهاشمية هناك فتنقصها مقومات . الدول . إذ لا جيش ولا سلاح .

وتعاقبت علينا بعد ذلك فى العراق وخارجه عبر الليالى وتصاريف الزمان بين شدة ورخاء وبأس ورجاء .

وقدر لى أن أنال بعض أوطار النفوس ومطالبها . نلتها بالترفع عنها والزهد فيها لا بالاسفاف إليها أو التهالك عليها . فتعلمت أن البصيرة النافذة والحذر

(١) علمتنى الحياة «كتاب الهلال» ١٩٥٧

والاحتياط من أمنع المعاقل والحصون فى معترك الحياة » .

وللشبيبى مؤلفات متعددة منها : المسألة العراقية : تاريخ النجف الأشرف . تاريخ الفلسفه ، فلاسفة اليهود فى الإسلام . المأنوس من لغة القاموس . أصول ألفاظ اللهجة العراقية هو ناظم وناثر ولشعرة مسحة عباسية وله شعر فى الحب العفيف .

تفاهمتا عينى وعينك لحظة — وأدركنا أن القـلوب شواهد
مشت نظرة بينى وبينك وانبرى — من القلب مدلولا على القلب رائد
كأن الذى حاولت ثم حاولت — من الحب معنى بيننا متوارد

ومن شعره الوطنى قوله :

مرت بنا الأمم الطليقة وأثنت — أخرى تعالج أسرها ووثاقها
هذى الجيـاد فمن تعاطى شأوها — ياشرق فيك ومن أراد سياقها

ويصور بدء اليقظة العربية الحديثة ويقول .

« كانت مصر أسبق الجميع ، وتجىء سورية بعد مصر فى المرتبة من هذه الناحية ، ولا ينـكر نبوغ عدد غير قليل من الشاميين واللبنانيين العرب الذين رأيناهم يعتزون بانتسابهم إلى تنوخ وغسان ووائل وغيرها من القبائل العربية التى استقرت فى سورية ولبنان وجبل عامل . .

أما عن العراق فـكانت التركية — دون العربية — إلى عهد غير بعيد لغة التعليم فى مدارس الدولة . ولغة القضاء فى المؤسسات القضائية . وانزوت العربية فى بعض معاهد العلم القديمة . ومع ذلك أخرجت بعض هـذه المعاهد القديمة فى النجف والحله وبغداد وغيرها من الحواضر عدداً من الأعلام المعنيين بشئون

الأدب والشعر واللغة . ويصور الشبيبي الروابط العربية بقوله :

بيغداد أشتاق الشـام وها أنا ... إلى الـكرخ من بغداد جم التشوق

فما أنا فى أرض الشـآم بمشئم ... ولا أنا فى أرض العراق بمعرق

هما وطن فرد وقد فرقوهما ... رمى الله بالبشتيت شمـل المفرق

* * *

ومن شعراء العراق الذين كانوا مثـلا للمنافحة عن العربية والقومية « كاظم الدجيلى » : ولد فى دجيل ١٨٨٤ وتردد على الأدباء وتأثر بشكرى الألوسى وحسن الصدر الأعظم والأدب انستاس الـكرملى وجميل الزهاوى .

وقد نشر عام ١٩١٤ مقالا بعنوان « حول الضماد » فى مجلة المستقبل المصرية التى كان يصدرها سلامه موسى فحكم عليه الأتراك بالسجن سبع سنوات .

وقد رحل الدجيلى إلى إيران وكردستان وأطراف العراق وعربستان وجاب القرى ومنازل الاعراب ودرس أخلاقهم وعاداتهم .

وسافر إلى برلين مع الدكتور أرنست هرنسفلد الألمانى وكتب كتابا عن أحوال الإعراب وعاداتهم ووصف جغرافية العراق وقد ضاع المخطوط بعد عودته .

وله مؤلفات تبلغ الثـلاثين ومعظمها عن العراق وتاريخه وأدبه والإعراب والقضاة والأمثال العراقية والأسر البغدادية والأغانى العراقية وتاريخ البصرة والـكاظمية وسامراء والمشاهد المقـدسة وكربلاء والـكوفة والنجف ودجله والفرات .

* * *

وأحمد الصافى النجفى من شعراء الحرية والوطنية تأثر فى القدامى بالمتنبى

وابن الرومى والمعرى وأبى نواس وأبى العتاهية وفى المحدثين بايليا أبو ماضى وأبى الشمقمق (رئيف الخورى) والياس أبو شبكة .

ويصفه نقاده بأنه تعبير عن الفن قريب إلى الطبيعة . صادق الحس قوى النظرة واضح الفكرة عميقها « تطفو عليها جميعاً سذاجة فى الاداء يستهويك فيها واقعها الفورى » .

ويقول الصافى « أن السقام والآلام أبعدتنى عن بلادى منذ ثمانية وعشرين سنة لم أستطع خلالها أن أعود إلى العراق ولو لفترة وجيزة » .

ولد الصافى ١٨٩٥ فى النجف الأشرف وكان من المجندين لثورة العراق الأولى سنة ١٩٢٠ ولما حاول الانجليز القبض عليه فر إلى ايران وعمل مدرساً للأدب العربى بطهران وتعلم الفارسية وترجم رباعيات الخيام من الفارسية . ثم عاد إلى بغداد ١٩٢٧ ولم يلبث أن سافر إلى سوريا وتنقل بين ربوعها وما زال يقيم

وله دواوين : الأمواج — التيار — الأغوار — هواجس — ألحان اللهيب — أشعة ملونة — حصاد السجن — شرر اللطات ؛ وديوان حصاد السجن هو ثمار سجنة مدة ٤٣ يوماً فى بيروت أثناء الحرب العالمية بأمر القوات الانجليزية عام ١٩٤١ .

وقد رسم لحياته صورة عابسة مظلمة فى ديوانه الأمواج :

- ياليتنى كنت كالحيوان عيشى من حشائش الأرض كى أناى عن المدن

أسير وظل البؤس يمشى بجانبى كأنى حليف للشقاء وذوو رحم

فيا مثوى العواطف أنت كوخ سموت على سامى القصور

يرف إلى بغاث الطير قلبى ويأنف من مشاهدة النسور

مناقير عقفن لأكل لحم ... فما هى حكمة الرب الخبير
رأيت العقل للوجدان ضداً ... وقد أضحى أداة للشرور

وفى مقدمة ديوان «الأغوار» يقول الناشر : الشعر فى رأى الصافى كل ماجاش بالنفوس ، قيل أم لم يقل . حتى أن الشاعر ليفضل الصامت منه على الصائب إذ يقول :

وأجمل شعرى هاجس لم أفه به ... فظلت تهز النفس منى خفاياه

ويرى الصافى فى الشعر « درساً وتصويراً للنفس . وأن فى النفس قد استقر الوجود بكامله ، ثم يؤوبون إلى النفس ويتوفرون عليها بالبحث والتحليل فى حين أن الشاعر يبدأ حيث ينتهون . والشاعر ليس له أن يتكسب بالشعر . بل يكفيه ما يأتيه به من مسرات النفس » وينعى الصافى على الجسم جحوده للنفس .

* * *

و « مهدى الجواهرى » من شعراء العراق الذين عانوا الاضطهاد فى عهد الاستبداد السياسى الذى سبق ثورة ١٤ تموز . ولكنه انحرف مع العوامل التى انحرفت بثورة ١٤ تموز عن اهدافها وطريقها الطبيعى وهو التجاوب مع القومية العربية فى انتقاضتها التى تمثلها الجمهورية العربية المتحدة وأبرز إنتاجه الشعرى ملحمة يوم الشهيد التى استعرض منها تاريخ الوطن العراقى وانتفاضاته فى ثورة ١٩٢٠ وثورة كورباغى وثورة الجسر ويبدأها بثورة عنيفة فيقول:

يوم الشهيد تحية وسلام ... بك والنضال يؤرخ الاعدام
بك والضحايا الغر يزهو شامخاً ... علم الحساب وتفخر الأرقام
بل يبعث الجيل المحتم بعثه ... وبك القيامة للطغاة تقام
سيحاسبون فإن عرتهم سكتة ... من خيفة فستنطق الآثام
سينكس المتذبذبون رقابهم ... حتى كأن رءوسهم أقدام

وقد بدأ حياته موظفا فى وزارة المعارف ١٩٢٧ ويلخص حياته فى بيت من الشعر :

سبحان خالق نفس كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم

وقد أصدر صحيفة « الرأى العام » التى صادرها نورى السعيد . ونزل القاهرة عام ١٩٥٦ وذهب إلى سوريا ضيفاً على الجيش السورى فأمضى هناك عاما ونصف عام

وقد تنبأ الجواهرى بثورة ١٤ تموز فقال :

أطل مكثا فسوف يزاح ليل تلفك منه والدنيا سجوف
ومن هذه الكوى سيطل فجر ضحوك يملأ الدنيا كشوف
ولم تزل الدنا من الف الف يصرف فى أعنتها الرغيف
صفوف للسجون بها تعبى إذا ازفت وتنتظم الصفوف
وأجنحة إذا طويت ففيها على الأجيال قادمة رفيف

ومن شعر الجواهرى :

لا تيأسوا إن لم يلح من ليلة فجر ولم يؤذن بضوء نهار
لابد أن يشب الزمان وينثنى حكم الطغاة مقلم الاظفار

والشاعر باقر الشبيبى من أبرز الشعراء الاحرار ، ولد فى النجف الاشرف وتخرج فى مدارسه الادبية ومحافله وكان يطارح أباه حجة العراق وأخاه بلبل العراق حتى جاراها »

كل البلاد من القيود تحررت إلا العراق الحر فهو مقيد

واحسرتاه على العراق يقوده ... عهد بموجبه يذل السيد
طف بالعراق من الخليج لنينوى ... واستطلق الملأ الذى يتجرد
تخذوا من الحكم المشوه صورة ... ومثالها هذا الزمان الأسود

وهو شاعر سياسى وكاتب اجتماعى قليل النظم سريع التأثر بالاحداث

* * *

ومن شعراء العراق «خيرى الهنداوى» الذى سجنه الاتراك لجهاده القومى وضيقوا عليه فى سجنه ولما سقطت الصلاحية بيد الجيش البريطانى فى الحرب العظمى وأحس الاتحاديون بذلك حاولوا إهدار دمه وترحيله ففر من السجن .

و«الحبوبى» شاعر عراقى عاصر شوقى وحافظ وزناتى وصبرى وله ديوان مطبوع فى بيروت عام ١٩٥٣ ويقول زكى مبارك عنه: أنه شاعر أضاعته الحياة الفقهية وهى حياة لا يرتفع معها شعر ولا خيال . ولما مات رثاه محمد رضا الشبيبى بقصيدة عنوانها «شهيد الدفاع » .

وكان قد نهض إلى الدفاع عن الوطن عام ١٩١٥ فأجابه خلق من أهل الفرات والاقاليم الجنوبية وسار بهم إلى الشعيبة ولكنهم أصيبوا بالخذلان فعادوا إلى الناصرية ورابط « محمد سعيد حبوبى» هناك إلى أن مات عام ١٩١٥ ومعنى ذلك أنه لم يكتف بالمنزلة الأدبية العلمية فتسامت نفسه إلى الجهاد . » ا . هـ

ومن شعراء الحرية فى العراق محمد بهجت الأثرى، وله ديوان «ظلال الأيام» وله شعر فى مأساة فلسطين :

ولصالح بحر العلوم الذى حكم عليه بالسجن المؤبد سنة ١٩٣٥ شعر ثائر منه قوله :

هــذه أنات أطفالك لم ... تبق فى نفسى غير الجزع

طرحتني فوق أشواك الألم تتجارى كبدى من مدمعى
وأناجى النجم فى داجى الظلم علـــه يشركنى فى وجعى

ويعبر « راضى مهدى [1] السعيد » عن أحزان الشعب العراقى وتطلعه لى السير فى موكب التحرير العربى . ولشعره مسحة من القلق والحزن والإحساس بالألم :

أنا يارفيقة ذاهب وغدا أعود .

ومعى يعود الذاهبون ، عبر الحدود .

فتعود دنيانا كأن شبابها حلم القرون ٠

ونعود ننشد للربيع أحلى الآغانى باسناء .

ويصور « كاظم جواد » مصرع البطل الشهيد عبد القادر الحسينى فى معركة القسطل فى فلسطين فيقول :

من ترى ذلك المطل أنجز أم شهاب على الربى صاح ٠

تتملى الاجيال ملحمة حواء كالنور فى الضحى الوضاح

حملته عرائس الوحى للنجم شهيدا على أعف جناح ٠

تمزمز الرعد فالجوانب إصداء تخطت على أنين الجراح .

كوثوب الأمواج والبحرداو صفعت جبهة الخطوب الطلاح .

ومن شعراء العراق الأحرار « عدنان الراوى » فك الله أسره :

هدهد شهيدك بالرصاص وبالدم واسكت حيال القبر لا تتــكلم

---

(١) ديوان « رياح الدروب » بغداد — ١٩٥٧ ومع مقدمة للشاعر بدر شاكر السياب

هذى بقاعك لا الفرات بخالد	فيها ودجلة لن تجير فتحتمى
لولا الدماء السابحات بموجها	والشط رمل من تناحر أعظم
فاشمخ بأنفك فى بلادك مرغماً	أنف العدو على مذلة مرغم

ويقول .

أيا زاحفاً للمجد بوركت زاحفاً	لقد نفض الشرب العراق وقد هبّا
يصافح فى دنيا المعارك أمة	يعانقها فخراً ويلثمها حباً
فإن باعدت دنيا السياسة بينها	فقد جمعت حرب تمارسها العربا

ومن شعراء العراق الذين واكبوا اليقظة العربية وآثروا فيها محمد على العقولى من النجف الأشرف . وقد تأثر بأحداث فلسطين والعراق وله ديوان مطبوع وهو شاعر وخطيب .

وقد ظهر فى الشعر العراقى صور متعددة : منها الدعوة إلى المقاومة للاستبداد الداخلى والعدوان الاستعمارى . كما برزت فيه صورة الوحدة العربية وترابط الأجزاء التى فصلها الاستعمار من الوطن الواحد . يقول الرصافى[١] بعد تكوين الدولة التى أنشأها الانجليز فى العراق ، ونصبوا فيصلا ملكا عليها :

لنا ملك وليس له رعايا	وأوطان وليس لها حدود
وأجناد وليس لهم سلاح	ومملكة وليس لها نقود

---

(١) لا أستطيع أن أقول أنى عرضت بالتفصيل لكل شعراء وكتاب الأمة العربية وانما الهدف الاصلى من الدراسة هو رسم صورة عامة شاملة تظهر الأهداف والملامح والنزعات

ويكفينا من الدولات أنا تعلق فى الديار لنا البنود

وأنا بعد ذلك فى افتقار إلى ما الأجنبى به يجود

متى شفق القوى على ضعيف وكيف يعاهد الخرفان سيد

ولكن نحن فى يدهم أسارى وما كتبوه من عهد قيود

وعند مازار الزعيم التونسى عبد العزيز الثعالبى بغداد عام ١٩٢٥ صور الرصافى روابط الوحدة العربيه بين بغداد وتونس فقال :

أتونس إن فى بغداد قوما ترف قلوبهم لك بالوداد

ويجمعهم وإياك انتساب إلى من خص منطقهم بضاد

فنحن على الحقيقة أهل قربى وإن قضت السياسة بالبعاد

وما ضر العباد إذا تدانت أواصر من لسان واعتقاد

وأن المسلمين على التآخى وإن أغرى الأجانب بالتعادى

ويدعو الزهاوى إلى يقظة الأمة العربية كلها فى أبيات من شعره [1].

أيها الشعب طال يومك فايقظ للمساعى فالليل صار نهاراً

تيقظت الأقوام من غفلة لها ونحن بحال لم نزل فيه نهجع

ياقوم قد وعر الطريق أمامكم فاذا عزمتم تسهل الاوعار

إن التوقف فى زمان حازم فيه تقدمت الشعوب ، لعار

* * *

أمة تكسر الرتاج إذا ما وجدت دون ما تريد رتاجا

---

(١) الاهرام ١٩٢٢ .

١٥ — شعر « الطف »

أما شعر «الطف» فهو لون عميق الحزن ، وشعراؤه من أصدق شعراء العرب إيمانا بعظمة الشخصية الحسينية التى استشهدت على أرض كربلاء وصرعها البغى والظلم والاستبداد .

ويقول ضياء الدين الدخيلى[1] : إن الأدب الشيعى خير مثال لأدب التشاؤم الساخط على الحياة الحالم بالمثل الأعلى . ولا أريد أن أصدر حكما عاما شاملا على أدباء الشيعة وأكسوهم بهذه الصبغة الحالكة . فمن قرأ غزليات « محمد السعيد الحبوبى » وأسام سرح الطرف بين موشحاته الرقيقة وروضياته وهمزياته وجدها ضاحكة متهللة طروبا . ومن خير ما يمثل الحياة المرحة البهجة ، وإنما أعنى هذا القبيل الذى أترع أدبه بالعويل والنياحة وعلى رأس هـذا الرعيل السيد حيدر الحلى وهاشم الكعبى وصالح الكواز وصالح القزوينى العلوى ، وابرهيم الطباطبائى وجعفر الحلى ورضا الهندى وكاظم الازدى وعبد المطلب الحلى وعبد الحسين الأعسم ، وهؤلاء شعراء مطبوعون لهم دواوين مفعمة بالأدب المشبع قوة وحيوية ، وقد أقاموا على شواطىء الفرات فى غضون عصر النهضة دولة للشعر يدعمها خصب القراع ورصانة الأساليب ومتانة السبك ودقة المعنى وسمو الخيال .

• إذا تصفحت ماخلفوه من شعر محكم الأثر قوى البيان فخم التعبير جزل الألفاظ وجدته طافحاً بالتجريح والتنديد بالأمويين وما استباحوه من الدماء المحرمة فى كربلاء، وما انتهكوه من حرمة ذرية الرسول وترى « المحرم » قد صبغ أدبهم بصبغة خاصة لا تجد نظيرها فى كثير من الآداب العالمية »

ومن أبرز شعراء العلويين : «حيدر الحلى» ولد عام ١٢٤٦ وتوفى عام ١٣٠٤[2]

---

(١) الرسالة ٢٨ مارس ١٩٢٣ .

(٢) ضياء الدين الدخيلى . نفس المصدر

«يمتاز بفخامة التعابير وروعة الأحلام ودقة الوصف والتصوير والمقدرة على التهويل والباس الحوادث جلباب الضخامة والجسامة ونحت هيا كل الأشباح والأخيلة من مادة الواقع .

وله براعة ممتازة فى استنهاض الراقد وتحذير الغافل من الخطر الداهم وقد عاش مفجوعا بواقعة «كربلاء» التى تركت فى نفسه أثراً عميقاً فظهر هذا الانفعال النفسانى جليا فى مراثيه :

ودعت حولى الشجا ذات طوق — مات منها على النياح الهجوع

شاطرتنى بزعمها الداء خزنا — حين أنت وقلبى المفجوع

يا طروب العشى خلقك عنى — لم يهجنى صبابة وولوع

لم يرعنى نوى الخليط ولكن — من جوى «الطف» راعنى ما يروع

أى يوم بشفرة البغى فيه — عاد أنف الاسلام وهو جديع

ويقول هاشم عطيه : أن مثل هذا الشاعر (حيدر الحلى) لا يوجد فى الأمة العربية مثله فى كل وقت وحين وإنما يجىء على رأس قرن أو قرنين وإن شعره خلاصة تفكير أمة لا تفكير فرد واحد .

ومن شعراء الطف : كاظم الأزرى وفى شعره عمق وقوه وحب صادق للحسين

وضربة تتجلى من صوارمه — كالشمس طالعة من جانبى نهر

كان كل دلاص منهم برد — يرمى بجمر من الهندى مستعر

إذا انتضى بردة التشكيل تحسبه — لا هوت قدس تردى هيكل البشر

صالوا وصلت ولكن أين منك هم — النقش فى الرمل غير النقش فى الحجر

ما أنصفتك الضيا يا شمس دارتها — إذ قابلتك بوجه غير مستتر

ولا رعتـــك القنا ياليت غابتها   إن لم تذب لحياء منك أو حذر
قد كنت فى مشرق الدنيا ومغربها   كالحد لم تغن عنها سائر السور

١٦ — كتاب العراق الأحرار

من أبرز كتاب العراق الذين ساهموا فى معركة المقاومة والتجمع للأمة العربية ابراهيم حلمى العمر وهو من أوائل الأدباء الذين نهضوا بالصحافة العراقية (توفى يناير ١٩٤٢) وأنشأ جريدة لسان العرب فى دمشق وهوأول عراقى خلق لوطنه صداقات فى مصر وكان من مراسلى المؤيد واللواء .

وطه الهاشمى الزعيم المحارب له دور فى عالم الفكر فقد ترجم كتاب الوحدة الإيطالية وصدره بمقدمة تحمل لواء الدعوة للأمة العربية الواحدة ومقاومة التجزئة وهذه أهم نقاطها :

● إن أوجب واجبات الشـــباب العربى أن يعرفوا كيف نهضت الأمم المستعبدة وأقامت وحدتها ، ففى ذلك عبرة لهم وحافز .

وقد دلت هذه الثورات على ما كان كامنا فى نفوس العرب من حيوية زاخرة لم يسبق فى تاريخ الأمم أن ناضلت أمة عزلاء دولا قوية الشكيمة فى سبيل الحصول على استقلالها .

● أية أمة أجدر من العرب بتأسيس هذه الوحدة أو الاتحاد بين دولها .
وعلى العرب أن يعلموا أنه لا يتسنى لهم أن يحتفظوا بكيانهم إلا إذا هم أقاموا وحدتهم وأنقذوا أنفسهم من قيد الحكومات الاقليمية الضعيفة ودخلوا نطاق دولة عربية . ولا سبيل أن يعيشوا أقوياء أعزاء سعداء إلا فى نطاق الوحدة

الشاملة. ولا يمكن أن تكون بلادهم عاملا من عوامل الاستقرار فى السياسة الدولية العامة إلا بتأسيس الدولة العربية الكبرى . فعليهم أن يوقنوا أن فى التجزئة ذلهم وشقاءهم وأن فى الوحدة عزهم وبقاءهم .

● قد يظن بعض قادة الأمور أن الاستقلال والوحدة لا يحتاجان إلى كل هذه الثورات والتضحيات ، فعلى الشبان أن يعلموا أن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى وهو إنما يؤخذ بالتضحية . وأن الوحدة لا تتم إلا بالقوة والإيمان ومن أبرز ما يستنتج من كتاب الوحدة الإيطالية أن الوحدة لا تتم إلا بالقوة .

وفى التاريخ أمثلة كثيرة تدل على أن الوحدة القومية والسياسية لا تؤسس إلا بقوة السلاح .

● أن الأجنبى الذى يتظاهر بنصرته للوحدة ويساعد بجيوشه على انجازها إنما يعمل لمصلحته ولقاء فائدة قد تكون أشد ضررا من التجزئة، وإذا ما ساعد بحلفه على أن تخطو الأمة خطوة فى سبيل الوحدة فإن ذلك قد يعرقل سير القضية ويرجعها إلى الوراء خطوات فلذلك يجب على الأمة أن تعتمد على نفسها فقط وأن تتجنب الحليف الأجنبى جهد طاقتها .

● أن التجزئة القائمة فى دنيا العرب هى السبب المباشر لحدوث النكبة فى فلسطين لأن العدو استغل التجزئة والمستعمر استأثر بها وذوى النفوس الضعيفة احتموا بها ولو كان الاتحاد قائما فعلا بين الدول العربية لما انتهت قضية فلسطين على هذه الصورة المحزنة لهذا لا سبيل إلى أن يزيل العرب عنهم وصمة هذا العار ويقضوا على اليهود إلا إذا اتحدت أقطارهم وألفوا منها الدولة العربية الكبرى .

ومما يتصل بتاريخ اليقظة الفكرية فى العراق الدور الذى قام به الأب انستاس

الكرملي في حماية اللغة العربية ورعايتها فضلا عن مجالسه الأدبية النافعة .

ويصور مهدي قزاز — (بغداد[1]) هذه الصورة التاريخية فيقول :

« كان للكرملي مجلس أدبي يعقده بداره في الكرملين يوم الجمعة يختلف إليه صفوة من الشعراء والأدباء والمؤرخين والصحفيين تدور في هذا المجلس قضايا الأدب والنقد والشعر . ويثيرون بعض المسائل الفكرية التي تتخذ في النهاية شكلا من أشكال الجدل يطلع منه المرء على تيارات مختلفة من الأفكار والمنازع والأهواء . وكنت من الذين يحضرون مجالس الكرملي الأدبية هذه ويشتركون في بعض المناقشات التي تثار في قضايا الأدب والفكر فكان لا يرضيني هذا التزمت في الأدب الذي تفرضه أبحاث العلامة الكرملي ومناقشاته . فقد كان يحاول دائما أن يضع للأدب مقاييس وقيوداً وحدوداً لا يتعداها ولا يرى في الانطلاق والتحرر إلا خروجا وخطأ وجريمة . وكان تفكيره الرتيب جاء نتيجة لدراساته الجافة التي لا يسمح له بالتجول إلا في آفاق محدودة ودوائر خاصة لا يتعداها ولا يسمح لنفسه بالخروج منها .

لذا كان لا يستسيغ هذا اللون من الأدب الحديث الذي برع فيه ناشئة الأدب في البلاد العربية وتحرروا فيه من قيود الماضي وانطلقوا يكتبون في أجواء حرة وأساليب حديثة .

لم يكن الكرملي أديباً خلاقا أو باحثاً مبدعا . ولم يترك أثراً في الحياة الفكرية فيه هذا اللون المشرق الذي يغذي العواطف ويهز القلوب .

وبعد فإن عبقرية الكرملي وإشراق ذهنه في اللغة العربية وتاريخها لو أضاف

---

(١) الرسالة فبراير سنة ١٩٤٧ .

إليه إشراق العبارة وذهنيه تشرك عقلها وقلبها فيها تنتج وتفكر لعد من العباقرة الخالدين فى الأدب العربى ولكن هذا التخبط والجمود فى أسلوبه قلل من أثره فى الحياة الفكرية وحسبه أشبه بمعجم لا يراجع إلا عند الحاجة إليه .

١٧ — القصة العراقية

وللقصة فى الأدب العراق تاريخ فقد بدأت كسلاه . وأول من كتبها محمود أحمد السيد وذو النون أيوب وأنور شاؤول ويعد « محمود أحمد السيد » أول القصاصين العراقيين الذى حاول أن يضع أسس القصص القصير فى نفس الفترة التى كان « محمود تيمور » بضع أساسها فى مصر : بدأ حياته الأدبيه سنة ١٩١٨ حين دخل بغداد وقد عرف طريقه فى خلال الثورة العراقية ١٩٢٠ وله قصتى « النكبات » ومصير الضعفاء .

وكاتب القصة الثانى هو « ذو النون أيوب » أكبر قصاص العراق المعاصرين دخل السجن ١٩٤٧ لتعريضه بالحكومة ومحاربته لها وقد منع من دخول البلاد وتعد قصتة « الدكتور إبراهيم » أصدق وصف لطبقة العملاء الذين كانوا يسيطرون على سياسة العراق وله مجموعة قصص « عظمة فارغة » تهكم فيها على أحد رؤساء الوزارات العراقية . وقد وصف ذو النون أيوب بأنه يحمل روحا متحررة وأفكارا شعبية وله قصة « الكادحون » تتحدث عن محنة شعب بائس حزين يتخبط فى دياجير الظلمة مصوراً قسوة الاقطاع على الفلاحين ؛ ومن كتاب القصة الأوائل : أنور شاؤول (الحصادالأول) (١٩٣٠) ومن القصص المحدثين : عبد الملك خورى وشاكر حصباك وعبد المجيد لطفى (أصداء الزمن) وقد تأثر كتاب القصة بالكتاب الغربيين والسوريين والمصريين

ومن أحسن قصص عبد الملك نوري[1] قصة (الرجل الصغير) ومن قصص محمد روزناجي (المستنقع) والشمس وخيوط العنكبوت . ومن قصص فؤاد التكرلي (العيون الخضر) .

وللكاتب غائب طعمه فرمان قصة « حصيد الرحى » حاول أن يصور فيها ضرورة احترام الحركة الفكرية وصيانتها من كل اعتداء يقع عليها والرجوع إلى البيئة لاستخلاص مادة الأدب منها وفي هذه القصة يقول البطل « لست أنا الذي يبتز أموالكم أيها العراقيون . ولكنكم لو كنتم شجعانا لوجهتم هذه التهمة للذين ينهبون الذهب الأسود النابع من أرضكم والتمر النابت من صفاف فراتكم » .

(١) القصة القصيرة في الأدب العراقي الحديث (مقال) محسن البصري : ديسمبر ١٩٥٤ (الرسالة الجديدة)

٢ – فى الشام

[سورية ولبنان وفلسطين والأردن]

كانت هذه المنطقة قبل الاحتلال موحده فى كيان واحد داخل الامبراطورية العثمانية باسم الشام . والشام يعنى مايسمى اليوم بسوريا وفلسطين والأردن ولبنان وقد كان لهذه المنطقة العربية (الشام) مدلول جغرافى قديم ويعرفها ياقوت فى معجم البلدان بأنها منطقة واحدة ، حدها من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية وبها من امهات المدن منبج وحلب وحماه وحمص ودمشق وبيت المقدس والمعره ، وفى الساحل انطاكية وعكا وصور وعسقلان . وفى المحدثين جعل لويس شيخو إقليم الشام بما فيه فلسطين ولبنان وسورية والأردن إقليما واحداً .

وقد كان للشام مركزه الدقيق لأنه أول اجزاء الوطن العربى الكبير اتصالا بالحدود التركية العثمانية وهو الذى حمل لواء القومية العربية ومنه بدأت اليقظة الفكرية وحملات المقاومة ضد العثمانيين وضد الانصهار فى البوتقة الطورانية واحتمل فى سبيل ذلك أقسى مالقى العرب عندما علق أحمد جمال باشا حاكم سورية وقائد الجيش الرابع صفوة اقطاب القومية العربية على المشانق ثم كان من نصيبه أيضا أن يحمل لواء التجمع فكان رائده ورافع علمه .

وفى الشام بدأت حركات التحرر الفكرى والأيمان باللغة العربية مسلمين ومسيحين وكان التجمع حول اللغة العربية وأمجاد العرب القديمة هو الدرع الواقى من محاولات العثمانيين لسحق القومية العربية ومن محاولات الاستعمار بعد ذلك وقد حرص الاستعمار على تمزيق الشام إلى أربعة أجزاء أخضع كل جزئين منها لحكم مختلف فكانت سوريا ولبنان خاضعة لفرنسا وفلسطين والأردن

خاضعة لبريطانيا . وكانت أقوى هذه الاجزاء وهى فلسطين صريعة لاستعمارين ممتزجين هما الاستعمار البريطانى واليهودى وقد مهد أولهما لثانيهما وعاونه خلال أربعين سنة .

وكانت البيئة الشامية أقوى البيئات العربية تحررا فى الفكر وكان الساحل أشد تحرراً من الداخل . وكان المسيحيون اسبق إلى الاتصال بالافكار الحديثة . ثم كانت ابرز احداث الشام هى الهجرة التى امتدت إلى مصر وأوربا والولايات الأمريكية وشملت عدداً كبيرا ، والتى كانت الدافع إليها هو ضيق الوقمة وتزايد الاستبداد العثمانى وتسلط الاقطاع الداخلى دافعا لاهل المنطقة للنزوح منها .

وقد استقبلت القاهرة جاليات كبيرة من الشاميين . كان فى مقدمتها عدد كبير من أحرار الفكر الذين ترصدهم طغيان عبد الحميد فوجدوا فى القاهرة مجالا ومتنفسا . وكانت هذه الهجرة بعيدة الأثر فى عالم الفكر والرأى إذ كان الشاميون مؤثرين فى الصحافة المصرية وكان لهذا أثره فى امتزاج الافكار والاراء وتلاقى وجهات النظر حـول فكرة العروبة التى كانت مصر محجوبة عنها تحت ضغط الاستعمار البريطانى الذى حاول الفصل بينها وبين المنطقة العربية وإيجاد عزلة مصطنعة .

* * *

يقول أمجد الطرابلسى أن « لفظة سورية لاتعنى شيئا جغرافيا ثابتا واضح المعالم فسورية اليوم تمثل منطقة مصطنعة الحدود ، فرض الأجنبى حدودها فى البدء . وسوريا كما يحددها ياقوت « اقليم أصغر رقعة من سورية الحالية لانه اسم الاقليم الممتد من خناصرة وسلمية » .

وفى أوائل هذا القرن — حين اشتد نضال العرب فى سبيل استقلالهم — كانت

هذه البلاد تؤلف كلا لايشك أحد فى وحدته . ولم يباعد بين هذه البلدان إلا رغبة الأجنبى وإرادته بعد انتهاء الحرب العامة الأولى واقرار نظام انتداب »

ويرجع المؤرخون أول اشمة اليقظة الفكرية إلى وصول نابليون إلى الشام وهزيمته عند أسوار عكا ثم بدأ الحكم المصرى الذى استمر تسع سنوات (١٨٣١ — ١٨٤٠) فقد بدا المفهوم العربى يتضح وينضج وينفصل عن المفهوم العثمانى ولم تلبث الاحداث أن توالت بانفصال الشام عن مصر مرة أخرى بدسائس الإستعمار ، ثم قيام المؤامرات البريطانية الفرنسية العثمانية للايقاع بين طبقات الشعب العربى مما أدى إلى وقوع مذابح ١٨٦٠ فى لبنان والتى كانت مقدمة للتسامح بعد أن تنبه العرب إلى مؤمرات الاستعمار التى كانت ترمى إلى تمزيق وحدة الأمة العربية وبعد أن تكشف انها حوادث مفتعله استهدفت اشعال نار الطائفية.

واتصلت الاحداث حين ارتقى عبد الحميد العرش ١٨٧٦ وأعلن بضغط من احرار العثمانيين دستوره الأول وعهد إلى مدحت بمنصب الصدارة ثم لم يلبث بعد سنتين أن اعتمد على الأحزاب الرجعية واوقف العمل بالدستور وحل البرلمان ونفى مدحت حيث عينه واليا على الشام .

وقد ترك مدحت آثاراً بعيدة المدى فى الحياة الفكرية فى الشام إذ يعد بحق باعث الحركة التحررية فى مختلف انحاء الدولة العثمانية فى أواخر القرن التاسع عشر. وقداسس فى الشام بعض الجمعيات العلمية والأدبية والثقافية ولكن عبدالحميد لم يلبث أن اقصاه عن الشام واستدعاه لمحاكمته .

وامضت الشام اثنين وثلاثين عاما فى ظل الاستبداد الحميدى حتى اضطر عبد الحميد إلى إعادة الدستور عام ١٩٠٨ . وفى خلال هذه الفترة كانت المنطقة الساحلية تتسع ثقافيا بانشاء المدارس الأجنبية والدينية فى لبنان وفيها ظهرت

بوادر التمرد على الترك قبيل نهـاية القرن التاسع عشر حيث كان ناصيف اليازجى وفؤاد الخطيب رسلان أول صوت للمقاومة . وقد تمثلت عوامل التمرد فى تصوير البسفور حيث كان يلقى عبد الحميد خصومه . والذى حوى فى جوفه الأسرار :

فـكم فى لجه البسفور قوم   هم خير العشائر والصحاب
وقد كان شموس هدى فغابوا   به من قبل ميعاد الغيـــاب

وكذلك كانوا شعراء المهجر يرددون نفس الشاعر : مشاعر التمرد على الاستبداد العثمانى ؛ يقول جورج عساف (١٩٠٥) .

هذا هو البحر الذى حدثت عن شهدائه ؛ هذا هو البسفور
فى جو من الأسرار بل فى جوفه كما شاء يلدز واصطفى المقدور

وكان مهاجرى الشام إلى مصر يرددون نفس العبارات . ويجمع المؤرخون على أن أول قصيدة فى القومية العربية هى ماقاله الشاعر المسيحى : ابراهيم اليازجى (١٨٩٥) يدعو إلى اليقظة :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب   فقد طمى السيل حتى غاصت الركب

فلما أعلن الدستور العثمانى فى « يوليو — تموز » ١٩٠٨ أعطى حرية واسعة وأحدث فرحة كبرى حيث انطلقت العواطف المـكبوتة وبدا الحماس وتدافعت المشاعر فى الحديث عن الحريه ثم عزل عبد الحميد فى « ابريل — نيسان » ١٩٠٩ فأعطى ذلك الفـكر حرية ابعد مدى ، وبدأت الصحف فى مختلف انحاء العالم العربى تتحدث عن شهداء الطغيان الحميدى والتمرد على الأتراك وابراز مقومات الشخصية العربية فلما اشتد طغيان غلاة الاتحاديين بعد عبد الحميد واتجهوا إلى

دعوة « تتريك العناصر » وعندئذ اتخذت اليقظة الفكرية صورة أشد قوة وعمقاً فقد بدأ الأدب العربى يأخذ طابع « المقاومة » الجادة « والتجمع » الواضح ؛ وكان للشاميين الفضل الأول فى إبراز فكرة اللامركزية عند ماعقدوا مؤتمر باريس ١٩١٣ .

وفى هذه الفترة وقعت حوادث الجور العثمانى العنيفة وعلق احمد جمال باشا حاكم سوريا الأحرار على المشانق فى ساحتى دمشق وبيروت يوم ١٦ مايو ١٩١٦ وقاوم العرب الأتراك مقاومة فعالة كان مبعثها الغيرة على لغتهم العربية والوقوف فى وجه المحاولات التى كان الاتحاديون يحاولونها لالغائها وتغليب اللغة التركية . وكانت المقاومة واضحة إزاء نزع العثمانيين لأسماء كبار العرب من الصحابة عن قباب المساجد لوضع أسماء عظماء الأتراك بدلا منها وإزاء حملة الصحف التركية فى الطعن على العرب ولغتهم .

وقد واجه المفكرون العرب حملة التحدى بالمقاومة والعنف فى مخاطبة الأتراك وردوا لهم الصاع صاعين وأجابوا على هجماتهم العنيفة بمثلها وبأعنف منها .

ولما أعلنت الحرب العالمية عام ١٩١٤ انحازت الدولة العثمانية إلى جانب المانيا ضد الحلفاء . واحتدمت المعارك فى أوروبا وآسيا وبدأ الصراع بين الاتحاديين العثمانيين والعرب ، وكانت أحداث الديوان العرفى الشهير بعاليه وأحكامه واتجاه احمد جمال باشا إلى الفتك بصفوة زعماء العرب معجلا بإعلان الثورة العربية على الترك ودخول العرب الحرب إلى جانب الحلفاء .

وما تزال هذه المرحلة الدامية من تاريخ الشام بعيدة الأثر فى الشعر والأدب فقد ظل هؤلاء الشهداء قوة فعالة فى الفكر والسياسة باعتبارهم رواداً للقومية العربية وتحررت البلاد العربية بعد ثورتها ودخل فيصل على رأس الجيش العربى

« دمشق » دخول الظافرين فى ٣ تشرين الأول — أكتوبر — ١٩١٨ .

ولـكن جيوش الحلفاء لم تلبث أن احتلت دمشق والقدس ، بعد أن اتفقوا على اقتسام ارض الدولة العربية التى تعهدوا للعرب بانشائها بعد انتهاء الحرب . وواجهت الشام مناورات الاستعمار ، ذهب فيصل إلى مؤتمر الصلح ليدافع عن حقوق بلاده ، ووصلت بعثة كراين لتستفتى أهل الشام عن رغباتهم الوطنية وقرر المؤتمر السورى عدم للسماح للجيوش الفرنسية بالتغلغل فى المناطق الداخلية والدفاع عن استقلال البلاد بقوة السلاح واعلان الخدمة الاجبارية . ثم أعلن المؤتمر فى ٨ (ازار — مارس) ١٩٢٠ استقلال البلاد السورية ونودى بالأمير فيصل ملكا دستوريا عليها وأوحت الثورة العربية وقيام الدولة العربية فى سوريا إلى شعراء الشام وكتابها بالـكثير من الأعمال الأدبية .

فقد صورت على أنها ملحمة ضخمة مشت فيها فصائل الجيش العربى الثائر المنتصر يخترق الصحراء من العقبة ومعان إلى دمشق . غير أن الأمر لم يستمر إلا قليلا حتى بدأ كيد الاستعمار يعمل عمله فى تمزيق هذه المنطقة إلى أجزاء ويقطع أوصالها فتحتل فرنسا ساحل لبنان وتحتل بريطانيا المنطقة الجنوبية (شرق الأردن) وفلسطين ثم لا تلبث بريطانيا أن تمنح فلسطين لليهود .

وكانت الجنود الفرنسية قد احتلت الساحل السورى فى تشرين أول ١٩١٨ ثم تقدمت القوات الفرنسية بقيادة «غورو» نحو دمشق والمناطق الداخلية والتقت فى صباح ٢٤ تموز ١٩٢٠ فى هضاب ميسلون الواقعة على بعد ٢٥ كيلو متراً من

---

(١) ٢٧٧

(٢) ٢٧٨

دمشق إلى جهة الغرب بعد أن سرحت جيوشها نزولا على إنذار فرنسا وسقط يوسف العظمة ودخل الفرنسيون دمشق ومرت بسوريا فترة يأس عقب معركة ميسلون ولكنها استفاقت فى ثورة ضخمة جبارة ١٩٢٥ بدأت من جبل الدروز وامتدت إلى مناطق دمشق وحماه وجبل القلمون . واستمرت عامين هدمت خلالها القرى . وضربت أحياء دمشق بمدافع الفرنسيين وسقط ألوف الشهداء . وكانت بطولة الشهداء الذين كتبوا أروع مواقف الفداء والبطولة مصدر إلهام الشعراء والكتاب .

١ — سورية (الاقليم الشمالى من الجمهورية العربيه)

بعد موقعة ميسلون واحتلال دمشق كانت « عملية التجزئة » قد تمت فعلا ولكن سورية كما أراد لها الاستعمار أن تنفصل عن الأجزاء الأخرى من الشام لم تتوقف عن عملين خطيرين : المقاومة من أجل الحرية والدعوة إلى الوحدة . ومع ذلك فإن الاستعمار قد ذهب فى عملية التجزئة إلى أبعد حد فأعلن إقامة دولتين منفصلتين فى حلب ودمشق وفصل جبل الدروز . كما فصل منطقة العلويين ولم تلبث فرنسا أن انتزعت لواء الاسكندرونة العربى وتنازلت عنه لتركيا .

وتوالت ثورات سورية . ثورة الشيخ صالح العلى وثورة حوران وثورة هنانو فى جبل الزاوية وكانت هذه كلها مقدمات لثورة ١٩٢٥ الكبرى التى بدأت فى جبل الدروز ثم شملت أنحاء الوطن العربى وكلفت فرنسا الألوف من خيرة جنودها . وكان على قيادة الثورة شيخ الجبل سلطان باشا الأطرش وفوزى القاوقجى ثم تطورت إلى معارك حامية انتصر فيها الدروز ثم امتدت إلى حماة فدمشق .

وفقد الفرنسيون أعصابهم فضربوا الشام بالمدافع من القلاع حيث فتحت هذه الآلات الجهنمية أفواهها وصبت حممها على قلب المدينة فلم يمض ٢٤ ساعة

إلا وقنابل التحريق والتدمير قد أكلت الأحياء وابادت الأهالى .

وكما سجلت الثورة بطولات فى عالم الفداء فقدكانت بعيدة الأثر فى نفوس الكتاب والقراء ومصدراً ثريا للالهام ، كانت معارك حماه والغوطه والزور والنبك والسويداء وحوره قصصاً من البطوله والبراعة فقد استقبل الشباب الرصاص فى بسالة وهو يقاوم أعنف مقاومة حتى أن جسراً صغيراً يقوم على أحد أنهار دمشق المعروف بنهر نورا يبلغ عرضه أربعة أمتار كلف الجيوش الفرنسية أكثر من عشرة آلاف قتيل وجريح إذ كان رصاص المجاهدين من بين الأشجار يصرعهم كلما دنوا منه شبراً أو حاولوا اجتيازه .

ومضت المقاومة بعد الثورة . فقد لقى الفرنسيون من سورية سلبية مطلقة ومضت سورية تقارع الاستعمار وتحطم مؤامراته السياسية واحدة بعد الأخرى فى إصرار بالغ على الجلاء الكامل .

وعند ما شبت نيران الحرب العالمية الثانية « ارتفعت سيوف الارهاق فوق رءوس الأحرار وحيكت المؤامرات لتشريد الوطنيين واكتظت المعتقلات والسجون بالعاملين والوطنيين وندد «شكرى القوتلى» بمبادىء الحكم المباشر والنظام الاستثنائى وحمل حملة شعواء على خطط العنف والأرهاب وأعلن انهيار الأساس الذى جاءت فرنسا باسمه إلى سورية نائبة عن عصبة الأمم التى زالت . وقد اهتزت سورية لهذا النداء ، واضطرب معسكر الاستعمار وكان هذا مقدمة لاضراب شامل عم البلاد من أقصاها إلى أقصاها دام ستة وثلاثين يوما وتردد صداه فى العالم العربى كله فتعالت صيحات الانتصار لسورية فى العراق وفلسطين » .

وحاولت الصهيونية أن تقف فى وجه قيام دولة حرة فى دمشق يكون من شأنها أن تتبنى الدفاع عن فلسطين، عندئذ عمد «شكرى القوتلى» إلى تجميع القوى

للنضال ، وكانت الجيوش الفرنسية قد هزمت فى الحرب العالمية الثانية ودخل الألمان باريس فى يونيه — حزيران ١٩٤٠ وشكل المارشال بيفان حكومة فيشى وأعلن المفوض السامى لفرنسا ولبنان تأييده لحكومة فيشى ومن ثم طبقت على هذين البلدين شروط الهدنة الفرنسية الألمانية . ووصلت لجنة المانية ايطالية إلى دمشق لمراقبة القوات الفرنسية واستخدموا المطارات السورية وزاد الموقف خطورة اندلاع ثورة العراق بقيادة رشيد عالى الكيلانى فنهض الانجليز لمواجهته وعبرت قوات بريطانية تضم قوات من فرنسا الحرة الحدود لاستخلاص سورية من الأعداء وأعلنت قيادة هذه القوات أنها جاءت لإنهاء الانتداب والاعتراف باستقلال البلدين .

وتطلع السوريون إلى الحرية ، ولكن الأمور لم تلبث أن أصبحت موضع مساومة جديدة بين انجلترا وفرنسا ولكن صلابة الشعب وتصميمه على المقاومة اضطر الفرنسيين إلى إجراء محادثات سياسية بعد أن أعلن الفرنسيون استقلال الجمهورية السورية فى ٢٧ سبتمبر دون أن ينفذوا شيئاً .

وقد كان من نتيجة هذا أن أضربت البلاد إضرابا عاما استمر أربعة وثلاثين يوما . واستمرت مؤامرات الحلفاء فى دمشق حتى عام ١٩٤٣ حيث عمل شكرى القوتلى وزملائه من قاده سوريا على توحيد الجبهة الوطنية وجمع الكلمة لمواجهة الموقف مواجهة فعالة .

وعند ما تقرر إجراء الانتخابات لاختيار أعضاء المجلس النيابى واختيار رئيس الجمهورية تجمعت البلاد كلها صفاً واحداً حول شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية وبهذا استعادت البلاد حقها الشرعى ودخلت فى دور نضال جد شاق لتحرير الوطن .

ومضت سورية تعمل عملا سريعاً دائباً لاستكمال أسباب السيادة وممارسة

الصلاحيات الاستقلالية بتسليم الجيش السورى بكامل عدده وعتاده وإزالة أية سيطرة أجنبية عليه . ولما أحست سورية أن ثمة مماطلة مقصودة . وأنه ليست هناك نية للجلاء توقفت المفاوضات وتجلى الشعب السورى وهو يتأهب مرة أخرى للكفاح والنضال ·

وبدأ الاستفزاز الفرنسي يلوح بالتهديد مطالباً منحه قواعد بحرية فى لبنان وأخرى فى سورية .ورفضت سوريا وعادت فرنسا إلى العدوان فى مارس ١٩٤٥ حيث اعتدى على الأهالى فى دمشق وحلب وحماة وجرت أحداث الارهاب فى كل مكان . فقد كان الجنود الفرنسيون يطلقون الرشاشات على الأهلين فى القطارات وفى الشوارع وفى كل مكان ·

واتجه الفرنسيون إلى العمل الأجرامى عند ما نقلوا نساءهم وأطفالهم وشيوخهم من أحياء دمشق إلى مطار المزه . وأعلن القائد الفرنسى فى بيان وزعه على جنوده بأن واجب فرنسا العسكرى يقضى بإبادة جميع العناصر التى تريد إخراج فرنسا من سورية وأنه يجب احتلال جميع دوائر الحكومة السورية ومنع سورية من الاتصال بالبلاد المجاورة ·

وفى ٢٩ (أيار — مايو) ١٩٤٥ رابطت المصفحات الفرنسية أمام المجلس النيابى ودعا رئيس الوزراء النواب وزعماء الأحياء فى دمشق للاجماع فى دار الحكومة · ولكنه لم يكد يكتمل عقدهم حتى اشتد اطلاق الرصاص من الرشاشات والبنادق وقد وجه بعضها إلى سراى الحكومة نفسها وظلت النيران الفرنسية تفتك بالآمنين · وظلت المدافع الفرنسية تقذف نيرانها على دور الحكومة ومستشفياتها . كما مضت المصفحات الفرنسية تطوف الشوارع وتصليها قذائف محرقة تدمر وتضرم المرافق وألقت الطائرات الفرنسية قنابلها على قلعة دمشق

وامتدت عملية الضرب أربع ليالى وثلاثة أيام دمرت فيها المنازل والأحياء . كما أطلقت النار على المجلس النيابى من جميع أطرافه فتهدم قسم من واجهة بنايته وهاجمت الدبابات مداخله وجميع أطرافه الأخرى .

وفى خلال ذلك كان شباب الأمة يقاوم فى كل مكان ويوقع الفريسيين فى الكمائن كما واصل الفرنسيون العدوان فى المحافظات فهاجموا دور الحكومة وروعوا والأهلين وقد انتصر الأهالى على القوات الفرنسية فى مواقع مختلفة وأسروا منهم عدداً كبيراً . وقام رجال الجبل بدورهم كاملا فى عزيمة ماضية وامتدت المقاومة بصورة رائعة إلى حلب ودير الزور وجسر الشاغور واللاذقية .

واستنكرت الأمة العربية فى مختلف أقطارها العدوان الفرنسى ولم تلبث سورية أن عرضت قضيتها على مجلس الامن وأيدتها الدول من جميع الأقطار فاتخذ المجلس قراراً بسحب هذه القوات .

وكان يوم ١٧ نيسان — ابريل ١٩٤٧ هو يوم الجلاء ، كما تم الجلاء عن لبنان فى نفس الوقت وسجل التاريخ لسوريا صفحة جبارة من المقاومة وكانت أول جزء من الوطن العربى المحتل يتحرر وبذلك لم تلبث سورية أن بدأت تعمل للوحدة ولتعضيد الأجزاء العربية الأخرى فى معركة الحرية والاستقلال كما آزرت العمل الحاسم من أجل تحرر فلسطين وقد صور شكرى القويلى دور الشام فى الحركة العربية فقال:

إن بلاد الشام التى كانت مهداً للفكرة العربية فى عهدها الزاهر وحملت رسالة الحضارة بين أولى الدول العربية إلى الآفاق البعيدة ورفعت راية العروبة على ضفاف اللوار وروابى الأندلس وأسوار الصين تعلن اليوم أنها تؤمن بالعروبة فى أوسع معانيها وتساهم فى إيمان بإداء رسالة العروبة للحضارة الانسانية وهى رسالة سامية قائمة على الحق المطلق وأننا لن نقبل أن يرفع فوق هذه البلاد سوى علم واحد هو علم الوحدة العربية ، وأنه لمن مقتضيات اعتناقنا العقيدة القومية

أن تقف سورية من الأقطار والشعوب العربية التى تشكو بعض القيود تعيد سيادتها وتعمل جاهدة على فكها والإفلات من ربقتها موقف المتضامن معها المؤيد الظهير لها . أما فلسطين العزيزة وهى الجزء الجنوبى من ديار الشام فخلاصها من خطر الصهيونية ركن أساسى من أركان سياستنا .

إن فلسطين عربية وستظل عربية ولو أطبقت عليها شعوب الأرض » .

واستمر الحكم الوطنى بعد الجلاء حتى وقع فى (أزار — مارس) ١٩٤٩ انقلاب عسكرى توالت بعده الانقلابات العسكرية لمدة خمس سنوات ١٩٥٤ عند ما انتهت هذه المرحلة وعادت سورية مرة أخرى إلى حياتها الطبيعية ثم لم تلبث أن اتجهت إلى مصر بعد أن بدأ الجلاء عنها حتى إذا تم الجلاء عن مصر عام ١٩٥٦ كانت الأنظار كلها تترقب حدثا تاريخياً كبيراً هو الاتحاد بين مصر وسوريا فى ظل القومية العربية التى حملت سوريا لواءها طويلا والتى دعا إليها جمال عبد الناصر قائد الثورة المصرية العربية عام ١٩٥٣ كاتجاه طبيعى لجمع شتات الأمة العربية فى وحدة شاملة .

وقد تحقق هذا الاتجاه بوحدة شاملة بين مصر وسوريا عند ماقامت الجمهورية العربية المتحدة فى (فبراير ١٩٥٨) .

٢ — تطور الحركة الفكرية

مرت سورية بثلاث مراحل : مرحلة مقاومة العسف الحميدى والاستبداد العثمانى (١٩١٥) . ثم مرحلة مقاومة الاستعمار الفرنسى (١٩٤٦) ثم مرحلة الجلاء والدعوة إلى التوحد والتجمع ومقاومة التجزئة .

وقد استجاب الفكر العربى لهذه المراحل . وكان عاملا من عوامل اليقظة والتجمع والمقاومة .

وكان الوطن العربى كله هو مسرح كل كاتب . وكان كل كاتب فى أى بلد عربى يمثل الكاتب العربى فى الوطن كله ، ذلك أن العوامل كلها كانت واحدة ومتشابهة .

كان الاستبداد العثمانى يسيطر على المنطقة كلها وكانت دمشق وبغداد تتشابهان فى المصير . كان الولاة العثمانيون فى كل منهما يذيقون الشعب أشد ألوان العسف فى سبيل جباية الضرائب وفرض سلطانهم . وقد ثار السوريون على الوالى التركى أكثر من مرة وكانت القاهرة ودمشق تلتقيان فى الاتجاهات الفكرية والرأى .

وقد صور شكيب أرسلان هذا اللقاء فقال : كانت مصر ميدانا لجياد القرائح السورية . وأن أنبغ الذين تخرجوا فى بيروت إنما ظهروا واشتهروا فى مصر ، كما أن معاهد خرجت كثيراً من أبناء سوريا فى العلوم بالأزهر والقصر العينى فكان كل من القطرين الشامى والمصرى يشد الواحد منهما الآخر فى ضرب من ضروب الرقى العقلى . كذلك اشتد اختلاط ابنائها واضطر السوريون إلى الاتصال بمصر ومدارسها وحلقاتها على أنها كعبة جامعية وأرض صالحة لحمل البذور . وحملت إلى مصر أحرار سوريا يقيمون بها طويلا . أو يشربون من ينابيعها فى رحلات متكررة قصيرة » .

ويرى المؤرخون أن أولى حركات النهضة الفكرية بدأت فى القرن الثامن عشر عند مانبغ فى حلب المطران جرمانوس (١٦٧٠ — ١٧٣٢) الذى رأى ضعف اللغة العربية فعمل على إصلاحها . وقد عرّب الانجيل تقريباً مسجوعا وعرّف الكنيسة فصاحة لغة العرب وهو أول من أوجد مجمعاً لغويا فى حلب وجمع المخطوطات العربية وجعل من حلب فى عهده مركزاً للاشعاع الفكرى .

وفى خلال القرن التاسع عشر أظهرت سوريا عدداً كبيراً من أعلام الفكر أحمد عبد اللطيف البربر (١٨١١) بطرس كرامه (١٨٥١) أمين الجندى (١٨٤٠) ناصيف اليازجى (١٨٧١) يوسف الأسير . (١٨٨٩) أحمد فارس الشدياق (١٨٨٨) بطرس البستانى (١٨٨٣) ابراهيم الأحدب (١٨٩٠) حسن بيهم (١٨٨١) طاهر الجزائرى (١٩١٩) وعمر الأعشى (١٨٧٦) فرنسيس المراشى (١٨٧٣) ابراهيم اليازجى (١٩٠٦) الكواكبى (١٩٠٣) أديب اسحق (١٨٨٥) شبلى الشميل (١٩١٦) فرح أنطون (١٩٢٢) نجيب الحداد (١٨٩٩) جمال القاسمى (١٩١٤) سليم النجارى (١٩٢٨) صادق العظم (١٩١٠) عبد الرازق البيطار (١٩١٨) عبد الحميد الزهراوى (١٩١٦) ومحمد أمين ابن عمر ابن عبد العزيز (١٩٣٦) وقد أخرج هؤلاء الكتاب عدداً من المؤلفات .

وقد تأثرت الحركة الفكرية فى الشام بعاملين : الأول اليقظة العربية لاسلامية ممثله فى الدعوة الوهابية ثم بحركة محمد على على احتلاله لسورية . كما تأثرت بحركة الألوسيين فى العراق . وقد تأثر بهذه الأفكار الاصلاحية عدد من المفكرين أمثال طاهر الجزائرى ورفيق العظم وشكيب أرسلان وسليم النجارى وعبد القادر المغربى . ورشيد رضا ومحمد كرد على؛ وكانت تهدف إلى أحياء جذوة القومية العربية والوقوف أمام حملة التتريك وانتزاع حقــــوق العرب انتزاعا من الأتراك .

كما ظهرت فى هذه الفترة الحركة الوطنية السرية . تحمل هذه المعانى وتحولها إلى عمل إيجابى . وتأثرت سوريا بروح الأمير عبد القادر الجزائرى الذى كان قد هاجر من الجزائر مع جالية كبيرة من الجزائرين ، كما كان لإقامة جمال الدين الافغانى

فى استامبول فى نهاية القرن التاسع عشر مدعاة لتأثر الشاميين بافكاره فقد اتصل به الكثيرون أمثال رشيد رضا وعبد القادر المغربى وشكيب أرسلان وعبد الرحمن الكواكبى وكانت الأفكار التى بثها السيدفى جريدة العروة الوثقى قد تسربت إلى نفوس الشباب الذى كان يبحث عن أعدادها المصادرة الممنوعة فى المملكة العثمانية ولم تكن العروة الوثقى صحيفة بقدر ماكانت جمعية سرية لمقاومة الاستبداد العثمانى ·

وكان برنامج «العروة الوثقى» هو تنبيه الضعفاء إلى ماريده الأقوياء لهم وشرح الأسباب التى أدت إلى ضعف الضعفاء وقوة الأقوياء وأن يكون لهؤلاء الضعفاء دول قوية آخذة بأسباب المدنية والعمران الموصلة إلى العزة والاستقلال .

ويرى عبد القادر المغربى أن العروة الوثقى « مهدت بين ناشئة العرب مناهج فى الكتابة وأساليب الإنشاء ماكانوا يعهدونها من قبل ونبهت إلى وجوب استعمال كلمات اللغة الفصحى والاستعانة بها على أيراد المعانى العصرية ومطالب الحياة الاجتماعية » .

كما تأثرت الحركة الفكريه فى الشام بالشيخ محمد عبده الذى لجأ إلى بيروت بعدفشل الثورة العرابية ١٨٨٢ والقبض على الزعماء العرابيين . فقد كانت أحاديثه المتصلة بالشعلة الثورية التى أوقدها جمال الدين وإن كانت تختلف فى أساليب التنفيذ ، بعيدة الأثر فى تكوين عدد من المفكرين الأعلام الذين حملوا لواء مقاومة الاستبداد .

وقد كان لدعوة «طاهر الجزائرى » أثرها فى رفع مستوى الثقافة فقد عمل على نشر كتب الأقدمين وحث على الربط بين الحضارة العربية والحضارة الغربية

أما العامل الثانى فهو «نهضة بيروت» التى قادها دعاة الكتلة والبروتستانية من حملة العلوم الحديثة . فقد أنشئت عام ١٨٦٠ الجامعتان الأمريكية واليسوعية

وكانت ثلاث لغات تتنازع الديار الشامية غير العربية : هى الانجليزية والفرنسية والتركية . وقد كانت مدارس لبنان موئلا للسوريين واللبنانيين جميعاً . كما كانت أول مطبعة هى مطبعة حلب التى أنشأها عبد الله زاهر عام ١٨٩٠ وأول صحيفة عربية هى جريدة سورية ١٨٦٥ .

وقد ظهرت فى سوريا كاتبتين منذ ١٨٧٠ هما مريانا مراش وسلمى قساطلى كما أنشئت مارى عجمى ١٩١٠ مجلة استمرت فى الصدور ٢٥ عاما .

ومن أبرز الشخصيات التى قادت التطور الجديد : فتح الله مراش ورزق الله حسون وقد وصفهما فارس نمر بقوله : هذان الحران الحلبيان اللذان فاقا الأقران فى حب الحرية ، كما فاقا الاقران بمعانيها السحرية ، وقضيا ردحا من الزمن يرسلان شعاع الحرية إلى أنباء سورية من قلب أعظم عاصمتين اشتهرتا فى أوربا بالحرية والنظامات الدستورية ولكنهما مزجا بلاغتهما بعلقم التفريق بين الترك والعرب

* * *

وقد صور « محمد كرد على » النهضة الفكرية فى سوريه فى أوائل هذا القرن[1] فقال :

فى الربع الأخير من القرن الماضى كان هناك معسكرين يقود الأول دعاة الكثلكة والبروتستانية وهم حملة علوم المدنية الحديثة والثانى دعاة تتريك العناصر أصحاب القومية التركية . وكانت الجامعة الأمريكية تدرس بالانجليزية والجامعة اليسوعية تدرس بالفرنسية ومدارس الترك تدرس باللغة التركية . وكانت مدارس التبشير والطوائف فى الساحل تدرس دراسة جيـــده . ومدارس الحكومة

---

(١) كتاب الهلال الذهبى — ١٩٤٢ .

والمدارس الدينية ضعيفة سقيمة الأسلوب حتى قيل أن اللغة العربيه كانت فى حالة نزع فى البلاد الداخلية .

وكانت علوم الدين واللسان تدرس فى مدارس حلب ودمشق على طريقة الأزهر . كانوا يحفظون القرآن ولا يقرأون تفسيره ويتعلمون الفقه ولا يعرفون أصوله . وكانوا يحرمون دراسة التاريخ بعد أن كانت تدرس فى الجامع الأموى كالحديث . وكانوا يكرهون علوم الطبيعيات والفلك ويعدونها من الزندقة . كما حرموا قراءة المنطق والفلسفة .

ثم قام فى الشام فى ذلك الوقت الشيخ طاهر الجزائرى الذى سعى لإنشاء المدارس الابتدائية والأميرية للذكور والأناث وألف الكتب ولقن المعلمين أصول التدريس والتربية وعرف بالحركة والتجديد واليقظة .

ويقول كرد على : إنه لما صدر الدستور العثمانى هبت القوى السكامنة فى بعض النفوس إلى أحياء كل ما كان فيه إحياء مجد الأمة العربية وغدت دمشق عاصمة الأمويين مبعث تلك الحركة فصدرت عنها « الصحف » السياسية والمجلات العلمية كما سافرت بعثات إلى فرنسا .

ويقول سامى الكيالى فى تصوير الحركة الأدبية من ١٩١٨ – ١٩٣٩[1] .

• كان الأدب فى سورية قبل الحرب العالمية ١٤ — ١٨ أدب مباسطات وتورية ، وجناس ومطابقة ، وأدب قصيدة وخطاب . كان أدبا ضعيفا كل مادته هذه البهرجات وهذه الشعوذات التى تقوم على الصنعة والبديع لا على التصور والتوسيع مما لا يتصل أبداً بأدب الحياة .

• كان شعور السوريين القومى يتجه إلى الرغبة الحارة بانتصار الحلفاء

(١) نقلا عن كتابه « من الأدب المعاصر » ١٩٥٧ .

لينبثق من وراء هذا الفوز نور جديد وحرية ضائعة . فاحتمل السوريون خلال سنوات الحرب شتى أنواع الظلم والارهاق وقد دهمتهم المجاعة ففتكت بهم فتكاً ذريعاً وكان ذلك مدعاة لأن يرسم الأدباء بعض الخلجات ويصوروا هول الحرب وهول المجاعه وما عانته بلاد الشام من أحداث .

ولم تلد المطابع فى سورية ولبنان أثراً واحداً يرسم هذه النكبات حتى بعد أن وضعت الحرب أوزارها ؛

● كانت سوريا والعراق تتغذى بقصائد اسماعيل صبرى وشوقى وحافظ والمطران ، ومقالات ولى الدين يكن والمنفلوطى . وما أثاره قاسم أمين وفريد وجدى حول تحرير المرأة ومقالات (الكواكبي) والشميل وصروف وكتب فتحى زغلول . وقامت الصحافة تؤدى واجبها وقد أستهدفت ماضى العرب وفتوحاتهم وحضارتهم وحقهم فى الحياة فى غمز مر للأساليب الاستعمارية .

وكان المفروض أن يتقدم كاتب بليغ أو أديب موهوب أو مؤرخ يجمع صفة الكاتب الأديب فتخرج أكثر من كتاب واحد عن تاريخ العرب ومدنيتهم والدور الفذ الذى لعبوه فى تاريخ الإنسانية .

● دعا جميل مردم فى (٤ أزار ١٩٢١) رهطاً من الأدباء والشعراء إلى منزله حيث أسسوا جمعية الرابطة العربية بوحى من حاجة الأدب العربى إلى نهضة توقظه من سباته وتبعث فيه روح النشاط وقد صدرت مجلة الرابطة الأدبية (أيلول ١٩٢١) وكان خليل مردم هو رئيس التحرير وقد صور الأدب السورى فقال :

« أدبنا اليوم أشبه بمريض ألحت علية العلل والامراض حتى أمضته أماعلاجه

فهو لايعدو أحد قسمين : تمهد جسمه الناحل الضاوى بالتقوية ونفى الأوضاع التى علقت ببدنه وكان منها بؤرة جراثيم خارت له عزائمه فعلى من يتصدى لمعالجته أن يكون بانيا وهادما وطبيبا وجزاراً » .

ولم تلبث السلطة الفرنسية أن أغلقت هذه المجلة بعد تسعة شهور .

ثم صدرت صحيفة الميزان فى دمشق : أسبوعية أصدرها أحمد شاكر الكرمى وكان قد بدأ حياته الأدبية بتحطيم أصنام الأدب ونقد كل أديب أو شاعر يقدم أدبه على الصنعة أو البهرجة والزيف وقد دهمه السل وهو فى ريعان شبابه .

• فى سورية أدب عربى صميم فى روحه ومادته فأدباء دمشق أكبر أدباء العرب حرصا على الاتصال بالماضى وبالأدب العربى القديم . ولا عجب فدمشق إحدى المدن التاريخية التى يربطها بالتاريخ الإسلامى روابط وثيقة وهى حريصة على هذه الروابط وعلى لقب ذياك الماضى .

٣ — تيارات الفكر

إذا كان للعرب فى مختلف أقطارهم صفات مشتركة توحد بينهم إلا أن الشاميين ميالون[١] إلى الأدب والفصاحة مغرمون بالألفاظ الرنانة والتراكيب الفخمة . يفعل الشعر فى أنفسهم ما لا يفعله النثر . يحبون حرية القول . عاطفتهم أقوى من عقلهم. القيم الخلقية عندهم مقدمة عن القيم الفعلية . قيل أنهم أجرأ الناس على الموت. ميالون إلى المخاطرة. أظهروا صنوفا من البطولة فى جبل الدروز وغوطة دمشق .

وقيل أن الدمشقى دمث الأخلاق . والحمصى وفى طيب القلب : والحلبى صريح متهكم . واللبنانى شجاع معجب بنفسه .

---

(١) جيل صليبا : الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام .

وقيل أن المصرى أكثر طاعة والشامى أكثر دأبا والمغربى أشد بأسا .

ويقول نزية الحكيم[1] أن السورى يلقن وهو يدرس الجغرافيا أن الدنيا واسعة فله فى كل أرض وطن آخر يهاجر إليه . ومن هذا كان السورى العادى شاعر التراب أكثر منه شاعر المرأة . بل إن المرأة لتلبس عنده جمال الطبيعة فهى مثلها قاسية تدل . تشترى حبه بتمنعها فيغنيها على نايه الذى صنعه من قصب الأرض . وفى زجله الذى يستشعر فيه خضرة المرعى ورائحة الزهور البيض .

ويقول : أن الرجل السورى العادى شديد القلق بطبعه . شديد الطموح . وهو بطبعه ذو قابلية عجيبة للعدوى وأنه ماهر فى التقليد . سريع فى التمثل » .

ولا شك أن هذه الصفات تنعكس بوضوح فى معالم التيارات الفكرية ومظاهر الأدب السورى — فشخصية الشامى الجريئة ترسم صورة ذلك المحارب الذى عاش مع بلاده فى نضال طويل ومقاومة مستمرة للاستبداد العثمانى والاستعمار الفرنسى وثورات كبرى وحركات دفاع وهجوم على الأجنبى الغاصب ظهرت واضحة فقد كان الأدب الشامى أدب نضال ومقاومة . وقد أنجبت سوريا ولبنان مجموعة من الأدباء المناضلين هم صفوة أدباء العرب ؛ يقول نزيه الحكم « لقد عاشت سورية أبدا فى مراحل متتابعة من النضال السياسى . لا استقرار فيها ولا لفتة إلى غير شىء . لم تكن الروح المتوثبة فى الشعب لتجد منفذاً لها فى غير الصراع مع الأجنبى فكان لابد للأدباء فى سورية أن يتجهوا هذه الوجهة . وامتدت هذه الحال على صورة أعنف وأقوى فيما بعد الحرب الثانية إذ اتخذ النضال مظهراً قوميا يشمل أمال الوطن العربى كله وقد جعلوا القومية معياراً للقيم » .

---

(١) مقدمة لدراسة الأدب السورى الحديث : سبتمبر ١٩٤٤ مجلة الثقافة .

٢ — يختلف أدب سورية عن أدب لبنان . ويقول جميل صليبا : ان الأدب الداخلى (سورية) أدب مدرسى كلاسيكى يحافظ بجملته على الأساليب العربية القديمة فى الشعر والنثر فى حين أن الأدب الساحلى (لبنان) يزيد إبداعا وروعة على قدر أخذه من المدينة العربية . ولذلك كان الدمشقيون والحلبيون يؤلفون الكتب العلمية ويحققون المخطوطات القديمة وينشرون الدراسات العلمية بلغة عربية مصرية .

أما الأدب الساحلى فيزداد إبداعا وروعة بقدر أخذه من المدينة الغربية . وقد مضى المجددون من أبناء لبنان يقلدون الغربيين باتجاهاتهم الفنية وأشعارهم الرمزية والرومانتيكية .

٣ — يجمع المؤرخون على أن سورية هى بؤرة أدب القومية العربية وأعمق الأقطار العربية إيمانا بالوطن العربى الواحد؛ ويقول ساطع الحصرى أن سورية أعرق الأقطار العربية فى الشعور بالقومية العربية وأكثرها تحررا من النزعات الأقليمية وأشدها شوقا إلى الوحدة العربية .

ويقول شكرى القوتلى : إن هذا الشعب بما تميز به من كفاءة وجرأة وثبات ووعى وطموح ، وبما أتاح الله له من حياة الحرية مضمونه العزة والكرامة ليعرب باشراقه أبلغ إعراب عن إشراق هذه الأمة الخالدة . وأنه ليأخذ دور المعلم الأول فى مدرسة العروبة . وهى عروبة أصيلة الفكرة صافية الجوهر .

٤ — كانت تتنازع سورية ثلاث تيارات[1] : (١) تيار وحدة الأمة العربية على الرغم من تعدد دولها (٢) وتيار الأقليمية الناتجة عن تعدد الدول

---

(١) جميل صليبا = الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام .

ويعتبر كل دولة من الدول العربية أمة قائمة بذاتها (٣) وتيار يسلم بوجود أمة عربية . ويرى أن المصلحة تقضى ببقاء كل دولة مستقلة عن غيرها فهو يعارض كل شكل من أشكالها ولكنه يوافق على تكتلها وتجمعها .

٥ — انقسم الأدباء والمفكرين بالنسبة للحضارة الغربية : قسم يرى أن البلاد العربية لا تستطيع النهوض من كبوتها إلا إذا أخذت بما أخذه الغرب من أسباب العلم والصناعة .

وقسم يرى أننا نحن العرب عندما فتحنا أبصارنا على الحضارة الأوربية وجدنا أنفسنا ضعفاء فلما أخذنا نقلدها على غير هدى لم نصبح أقوياء ذلك لأننا هجرنا قيمنا الروحية وأخذنا نقلد الغرب فى كل شىء[1] .

٦ — كانت كتابات البعثيين العرب فى سورية بعيدة الأثر فى الفكر العربى السورى فقد كانت دعوتهم تهدف إلى جمع شمل العرب كلهم تحت لواء واحد على أن يتم ذلك عن طريق الثورة لا التطور البطىء . وهم يرون أن الاكتفاء بالاصلاح الجزئى البسيط يهددان القومية والاشتراكية . كما ينظرون إلى الثورة[2] على أنها عصيان على ماض رجعى لتحقيق حاضر فيه تجديد ونضال ضد واقع تقادم فانقطع الرجاء منه للاستعاضة عنه بآخر يرجى الخير من أمجاده » .

وبذلك قام فى المجتمع الشامى ككل مجتمع عربى مدينتين : قديمة وحديثة وطبقتين شرقية وغربية .

٧ — سيطر الفرنسيون — إبّان الاحتلال — على التعليم فى لبنان وسورية كما سيطر الانجليز على التعليم فى فلسطين وقد كان للروح العربية فى سوريا أبعد

(١) الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام وأثرها فى الأدب الحديث : جميل صليبا .
(٢) نفس المصدر .

الأثر في إفساد خطط الاستعمار الفرنسي مما اضطره إلى مجاراة الرأي العام . وقد طهر السوريون التعليم بعد الجلاء .

يصور جميل صليبا[1] الأدب الشامي فيقول :

٨ - أنتج أدباء الشام أدبا جمع إلى جمال الفن قوة التصوير . وإلى روعة الأسلوب دقة التعبير . وأن تصوير الكتاب والشعراء لحياتنا تصوير عام لا يستخرج من واقع الحياة صوراً كاية تصلح لكل زمان ومكان .

ولكن الكتب الأدبية المشتملة على البحث والدراسة خالية من الاستقصاء التام ونفس أصحابها أقصر من صبرهم على إيفاء الموضوع حقه من الجودة والاتقان .

قد قال لي أحد المستشرقين مرة أن كتابكم المعاصرين لايزالون يعالجون المسائل على طريقة كتاب القرن الثامن عشر . وهذا القول على ما فيه من مبالغة لا يخلو في بعض نواحيه من الصدق . ذلك أننا لا زلنا نكتب بمداد من عواطفنا . وقلما وجدنا فينا كاتبا ينهج نهجا موضوعا في بحثه .

وإن كثير مما يكتبه الروائيون والقاصون مقتبس من الروايات والقصص الأجنبية لا يصبون فيه ذوب روحهم ولا يصورون به واقع حياتهم .

٩ — صورت « وداد سكاكيني » أدب الشام الحديث بعد الحرب العالمية الثانية[2] فقالت : أدب الشام ؛ أدب عربي الوجه والروح . وقد صقله الفن والتطور وظهرت عليه مغارس الوطن . ولم يولد هذا الأدب ولادة ارتجال . وإنما فتحت الشام العيون بعد الحرب العالمية الثانية على حركة أدبية جديدة .

---

(١) نفس المصدر .
(٢) الثقافة — فبراير ١٩٤٠ .

ويقظة ثقافية يلفها شذاها من ضفاف النيل فودت لو أتاح لها العصر منها مثيلا . فكانت مثل سجين لم يجد أرفه لنفسه وأقرب إلى قلبه من أدب المصريين فتأثرت الشام بنهضتهم ومضت على غرارهم فى نشأتها الحديثة . وكم راجت فيها سوق الأدب لقصيدة قالها شوقى أو حافظ ولكتاب ألفه الرافعى أو المنفلوطى .

● كان فى تلك الآونة نفر من الشاميين متنورين لكل نهضة . بعضهم عرف الغرب وورد مصر ورود النحل على الأزاهير . ثم صدر عنها فعاد إلى الشام ينشىء المجلات وينشر الصحف ويحاضر فى الجامع والندوات داعيا إلى نشر الثقافة والأدب . وأسس المجمع العلمى العربى فى دمشق على الفصحى وحفظ أمجادها وذخائرها فجمع بين لغوى مدقق وعالم فيلسوف ومؤرخ وشاعر أديب .

● من السوريين شعراء استيقظوا بعد الحرب الغابرة على صيحات البعث والتحرر والتجديد . فأخذوا بشىء من القصيد كأنه الينبوع يفيض حينا وينضب حينا . ومنهم من حذا حذو جرير والأخطل حتى قلدهما فى حلبة القريض . ومنهم من أدمن الإلمام بالمتنبى حتى سرى فى بيانه روح أبى الطيب وهنجميته .

وجمع الشباب بين الثقافتين العربية والغربية . واندفعوا وراء المثل العليا يستبشرون بالهداة ويتأثرون أعلام هذه النهضة التى تنوروها من قريب أو بعيد .

● إنه أديب طريف الألوان . أصيل السمات . ولكنه ضئيل الجرم . محلى الشيوع . مقيد الخطوات . وفى مصر أدب جبار قيضت له أسباب الانتشار والازدهار . والشام سوق لهذا الأدب المصرى بأكثر مما هى فيه لأهلها .

فلو سئل المثقف أو المعلم فى ديار الشام عن مصر وأدبائها وكتبها وعلمائها لأجاب بما يعجب ويطرب إذ أن أدب مصر يعيش فى تلك الديار منذ ثلاثين عاما

كما يعيش فى حمى الأزهر وتحت قبة الجامعة وفى ندوات الثقافة المصرية غير أن مصر التى يجمل بها عتاب الحبيب لا تعرف من أدب الشام إلا القليل .

١٠ — رسم شكرى فيصل ملامح الأدب السورى بعد الوحدة فقال :

نلمح[1] فى الأدب السورى ظاهرتين أساسيتين فى النتاج الأدبى المعاصر .

١ — إن أدبنا شعره ونثره ، المقالة من هذا النثر والقصة — يتميز تميزا واضحا بهذا القلق الذى يطبعه . فانت لا تقرأ القصيدة فى أعماقها البعيدة التى تنبع منها أو فى صورها القريبة التى تتخذها وأنت لا تقرأ المقالة أو القصيدة فتتعرف إلى مضمونها الجلى . أنت لا تفعل ذلك حتى تجد أن تياراً حاراً ملتهبا ، يطالعك من هنا وهناك هو تيار هذا القلق العنيف الذى يعانيه هذا الجيل والذى ينعكس فيما يكتب من نثر أو يقال من شعر .

وهذا القلق لا ينبعث دائما عن ذات المصدر . إنه فى بعض الأحيان قلق . نفسى . ذاتى . محض . لا يكاد يجاوز ذاتية الشاعر لأنه يتصل بقلبه المتفتح وعواطفه الخاصة التى ننشد ألفها أو تبث نجوراها .

وهو فى بعض الاحيان قلق مبعثه المشاركة الاجماعية وشعور المواطنة وافتقاد الحد الأدنى من المعانى الانسانية فى حياة الانسان ويتبدىء هذا القلق فى بعض الانتاج الأدبى الذى استهدف الحديث عن الآخرين فى حياتهم اليومية أو فى مآسيهم العائلية أو فى واقعهم المثير .

ولون ثالث من القلق نلمحه فى هذا النتاج لا يتصل بالعواطف ذاتية محضة أو اجتماعية عامة قدر ما يتصل بالفكر نفسه ويوشك أن يكون الفكر قاعدته

---

(١) مجلة الثقافة الدمشقية ١٩٥٨ مقال بعنوان ظاهرتان فى الأدب السورى .

الأولى التى ينبع منها ، ذلك هو هذا القلق الذى يتصل بالقضايا الذهنية التى ملأت على العربى بالعقود الأخيرة دروبه وغزت عقله من كل نحو وفى وسع الدارسين أن يرصدوا بوضوح كيف كان هذا القلق يتجه يمينا حينا أو يتجه يساراً حينا آخر . وكيف كان يتجه إلى أمام فى اندفاع لا يجد شيئا من الأناة . يتصل فيها بالماضى أو كيف كان يتجه إلى وراء فى حذر شديد من أن يفقد صلة مابين الماضى والمستقبل .

غير أن هذا القلق لا يتبدى وحده ظاهرة منفردة فى انتاجنا الأدبى ، وإنما يوافقه ويرافقه ويسير معه فى آن واحد ، الظاهرة الأخرى الصارخة التى تطبع هذا الإنتاج وتبرز فيه ، وتلك هى « التطلع » التطلع إلى أفق أبعد أو إلى حياة أفضل .

إنه لم يكن هذا القلق الذى يتلوى فى مكانه فى أرض آلامه ، ولكنه كان هذا القلق الذى يحاول أن يمر فوق هذه الآلام وأن يزحف على الشوك إلى منطقة النجاة أو أن يشير إليها .

وعلى قدر ما كان يختلف القلق كان يختلف التطلع فبعض هذا التطلع كان فى نطاق الروح. ذلك أن الروح العربية لقيت فى نصف هذا القرن وتماورتها النفحات واللفحات . ولكنها فى أغلب الاحيان جهدت فى أن تصفو لذاتها الروحانية وأن تسكت عن مآسيها المادية أو تنتصر لها ولذلك اندفعت تخط دروبها فى معاناة عميقة وتفكر فى معارجها وتتساءل عن خصائصها التى لها ، وخصائصها التى يجب أن تكون لها وشغلها ذلك عن بعض هذا النتاج الأدبى ، عن كل شىء آخر أو عن أكثر الأشياء الأخرى التى لابد منها حتى يستقيم للروح وجودها المادى.

إن القلق والتطلع يمضيان معا فى النفس العربية وفى انعكاس هذه النفسية فى انتاجها الفنى .

وتتمثل ابرز مظاهر الأدب الشامى فى الحرية والإيمان بالعروبة :

يقول اديب اسحق : أيتها الحرية : يامصدر كل أمر جليل فى الأرض . لقد علمنا أنه لا نجاح إلا بدونك . ولا سعادة مع البعد عنك. فإن الأمة الحرة تكون كفرس غير مقيد يسير رافعا رأسه ويستنشق ملء صدره الهواء النقى . أما الشعب المستعبد فهو كفرس مستعبد يدور حول الوحى مغمض العينين يسير ألسنة بتمامها ولا ينتقل من مكانه .

و يقول «إنهاشعلة العرب التى سرت من الحجاز فأنارت الشام والعراق ومصر والمغرب والهند واتصلت بأطراف الفرنجة فلأتها نوراً .

ويقول عبد الرحمن الكواكبى : أن الدين الإسلامى نشأ فى العرب وبلغتهم . فهم أهله وحملته وحافظوه . والعرب هم أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية وهم أعرق الأمم فى أصول الشورى وأهداها لأصول المعيشة الإشتراكية وأحرصها على احترام العهود .

و يقول كرد على : العقل العربى الذى شاد فى القديم قصر غمدان وسد مأرب . وعمّر فى الإسلام أموى دمشق . وأقصى بيت القدس . وقصور سامراء والفسطاط وقصر الحمراء وجامع قرطبه وسدود بلنسيه لا يستحيل عليه اليوم تمثل المدنية الحديثة حق التمثيل وأن يعمل أكثر مما عمل .

ويقول محمد المبارك : إن التاريخ والبشرية والضمير العالمى تحملنا مسئولية ضخمة وتوجب علينا تكوين حضارة عربية حديثة تستمد من ماضينا فهى روحية الجذور والأعماق . إنسانية المبادىء . اخلاقية الأهداف . مادية

الوسائل . ايجابية السلوك ولكنها تعيش فى العصر الحديث فى ظروفه وشروطه ، فى عاله وجوه .

ويقول فؤاد الشايب : أمة ذات حضارة كانت فى مشرق نهضة المدنية الجديدة . ومن حقها بل من حق الانسان عليها أن تعمل لاسترداد مكانها ، والمساهمة فى بناء عالم قويم بنضال يضع فى أول أهدافه تحويل الغزوة الاستعمارية عما سنته لنفسها من عزل هذا الشرق عن المجموعة البشرية الفاعلة ليعيش أبداً فى حالة بدائية .

٤ — الشعر السورى

كانت الأحداث العربية المتصلة فى الشام أبرز مصدر لإلهام الشعراء وانفعالاتهم إذا كانت الشام منذ فجر النهضة العربية مجالا حيويا تفاعلت فيه الأصوات تفاعلا صخبا جباراً فقد واجهت سورية سطوة الاستبداد العثمانى وقاومتها وحملت لواء ثورة ١٩١٦ ثم تلقت فى اصرار وصمود انتقام جمال باشا فعلق صفوة احرارها ورجالها على المشانق ثم شاهدت الحكومة العربية الأولى وانتقاض الاستعمار الفرنسى وهجومه ومعركة ميسلون ثم الاحتلال الفرنسى وجرائمه ، وفيه قامت ثورات متوالية لم تتوقف هى ثورات إبراهيم هنانو والشيخ صالح العلى وشهدت ربوعه المعارك والثورات من جبل الدروز إلى الغوطة إلى قلمون إلى جبل الزوابة إلى حماه وحمص وحلب واشترك شعبه فى ثورتان كبيرتان عام ١٩٢٥ وعام ١٩٤٦ وشارك فى معارك فلسطين ومقاومتها على طوال هذه الفترة فهو بذلك قد عاش التاريخ القومى العربى كله وتأثر به ولذلك تغنى شعراء الشام بامجاد الأمة العربية وحضارتها وفتوحها فكان أغلب شعرهم قوميا .

وقد صور ذلك شفيق جبرى فقال : أننا معاشر أهل الشام نفضل الشعر الذى نرى عليه آثار القومية وآثار الوطنية لأننا فى غلاب ونضال . أننا نستخدم هذا الشعر حتى يقوى فينا هذا الغلاب وهذا النضال . فإذا اطمأنت النفوس إلى حرية تفكيرها وحرية شعورها . وإذا استطاعت أن تدفع عنها هؤلاء الذين بسطوا عليها ظلمهم وإذا اطمأنت النفوس إلى حرية حياتها فليخرج الشعر يومئذ من افقه الضيق : افق القومية وافق الوطنية ليحلق فى السماء التى يريدها . أما نحن اليوم فى دمشق فلا يرضينا إلا النغمة الوطنية فى الشعر » .

ويقول جميل صليبا : أن شعر سورية كان قوميا فلما تحررت الشام تحول الشعر من الحماسة القومية إلى تصوير الحياة . وقد سار الشعر الاجتماعى بجوار الشعر الوطنى يطالب بالحرية للمرأة » .

وجملة ما يقال عن الشعر الشامى أنه حمل الدعوة إلى الثورة والاستقلال ومقاومة الاستعمار وعبر فيه الشعراء « عن يقظة الأمة العربية واستجابوا لنزعة النضال وآثروا أنفسهم فى خلق هذا الشعور الفاعل » .

ومن هؤلاء ابراهيم اليازجى وسليمان التاجى الفاروقى وعبد الحميد الرافعى ومصطفى الغلاييني وفؤاد الخطيب وخير الدين الزركلى وخليل مردم وشفيق جبرى وعمر أبو ريشه .

وفى لبنان تغنى بالحرية وحمل على الاستعباد أمثال خليل مطران ورئيف الخورى وبشارة الخورى والياس أبو شبكة وأمجد الطرابلسى .

٢ — صور الشعر الشامى جور الاتراك قبل الدستور العثمانى (امين خالد الجندى)

هذا ولما فاض جور الترك فى ظلم العباد وصار أمراً مشكلا

وتظاهرت أعمـــالهم بمقاصد ومظـالم وحوادث لن تقبلا
سلبوا البلاد من العباد فلا ترى في حكمهم ذا نعمة متمولا

وصور البسفور الذى كان يلقى فيه عبد الحميد خصومة (جورج عساف)

هذا هو البحر الذى حدثت عنه شهدائه : هذا هو البسفور
في جوفه الأسرار بل فى جوفه ما شاء يلدز واصطنى المقدور
أمواجة للصالحين مضاجـع حياته للمصلحين قبـــور

ودق الشعر الشامى جرس الخطر وعا إلى الالتفاف حول القومية العربية (ابراهيم اليازجى) .

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
فـــلم التعلل بالآمال تخدعكم وانتم بين راحات القنا سلب

وصور سعيد شقير شهداء العرب الأبطال :

ما مات من بطل إلا أنبرى بطل للعيش مختضر فى الموت مرتقب
ماتوا فعشنا وأحيوا بعدهم وطنا فـكل ما نحن فيه بعض ما ذهبوا

وصور فؤاد الخطيب سقوط عبد الحميد :

سلوه وقد مال السرير المطنب اذلك عن عدل أم الدهر قلب
وسادت على ارجاء يلدز وحشة فليس سوى الأشباح تأتى وتذهب

كما صوره فارس الخورى ٠

الله أكبر فالظّلام قد علموا لأى منقلب يقضى الألى ظلموا
أين الغضاريف أرباب العزائم من اسلافك الصيد من بالعدل قد نظموا

شاروا لك العزة القعساء من قدم   لجئت تهدم ما شاءوا وما رسموا
كانت لهم دولة بالسيف ناهضة   وفى زمانك لا سيف ولا حكم

ويفعل الاستعمار فى سورية فعله ويذيق الأحرار من نكاله وهوانه فيهتز خير الدين الزركلى لذلك .

الله لحديثان كيف تكيد   بردى يفيض وقاسيون يميد
لهفى على وطن يجوس خلاله   شذاذ آفاق شراذم سود
ابرابر السنغال تسلب أمتى   وطنى ولا يتصدع الجلمود
شر البلية والبلايا جمه   ان يستبيح حمى الكرام عبيد
غلت المراجل فاستشاطت أمة   عربية غضبا وثار وقود
زحفت تذود عن الديار ومالها   من قوة فعجبت كيف تذود
الطائرات محومات حولها   والزاحفات صراعهن شديد
ولقد شهدت جموعها وثابة   لو كان يدفع بالصدور حديد

وعندما تم الجلاء عن سورية هتف بدر الدين الجامد :

يوم الجلاء هو الدنيا وزهرتها   لنا ابتهاج وللباغين ارغام
وجه الغراب توارى وانطوى علم   للشئوم إذا خفقت لليمن أعلام
يا راقداً فى ربى ميسلون أفق   جلت فرنسا فما فى الدار هضام
هذه الديار قبور الفاتحين   يغررك ما فتكوا فيها وما ضاموا

ثم اتجهت سوريا إلى الوحدة والدعوة للتجمع فى قول بدوى الجبل :

كل الربوع ربوع العرب لى وطن   ما بين مبتعد منها ومقترب
أن لم تكن وحدة الأنساب جامعة   فاننا جمعتنا وحدة الأدب

وللضاد ترجع انساب مفرقة ... فالضاد أفضل أم برة وأب
تفنى العصور وتبقى الضاد خالده ... شجى بحلق غريب الدهر مغتصب

ولما شبت الثورة السورية عام ١٩٢٥ اهتزت قرائح الشعراء فى ملاحم وطنية رائعة ؛ يقول الشاعر القروى :

لله أروعهم ، كالنار متقدا ... يبغى حياض الردى بالنار مبتردا
يقبل الجراح ولو يغره طمع ... بغير ما اتمنى أنه ضمدا

ولما غدر الحلفاء بالعرب اهتز الشعر قال خير الدين الزركلى :

يا أمة وقفت على حب العلا ... افلاذها والشيب والشبانا
لبس العداة لها الرياء جلاببا ... وطووا لها الاحقاد والاضغانا
هم عاهدوك على الوفاء وما وفوا ... ووثقت منهم بالحليف نخانا

وهاجم مصطفى الغلايينى مجلس سان ريمو ومؤتمرات الصلح :

لا تخدعونا بألفاظ إذا سمعت ... تحلو وإن نختبرها مر معناها
فى الحماية إلا السهم يقصدنا ... وما الوصاية إلا النار نصلاها

ووالى الزركلى صرخاته الحماسية :

يا راقدين على الهوان تأهبوا ... وتجلببوا الأدراع والأكفان
هذى بلادكم تباح . ودوركم ... تجتاح ، فابغوا غيرها أوطانا
من خال أن المجد يدرك هينا ... فلينتظر بعد الهوان هوانا
أسليل يعرب طال منكم تريث ... حتام تلبث لاهيا وحيرانا

هلا امتطيت من الجياد عتاقها وجلوت عنك العار والخذلانا

ولما وقعت معركة ميسلون اهتزت لها قلوب الشعراء وتباروا فى رثاء يوسف العظمة . يقول خليل مردم :

أبو يوسف والضحايا اليوم كثر ليهنك كنت أول من بناها
زكا نبت البلاد وليس بدعا زكيات الدما كانت خباها
فديتك قائداً حيا وميتا رفعت لكل معركة صواها
فيالك راقدا منها نبهت شعبا وأيقظت النواظر من كراها
ويالك ميتا احييت منـــا نفوسـا لا تقر على اذاها

ويقول إيليا أبو ماضى :

بأبى وأمى فى العراء موسد بعث الحياة مطامعا ورغابا
لــا ثوى فى مسيلون ترنحت هضباتها وتنفست أطيــابا
وأبى النجوم حديثة فتهافتت لتقوم حراســا له حجابا

ويدعو عبد الحميد الرافعى العرب إلى التجمع والوحدة :

هبوا بنى العرب آلام الـكرى وقــد دها الآمال دهاسها
طلبتم الاصلاح من عصبة توتر بالإفســاد أقواسها
فــكيف تقيمون على ذلة وروضه الصبر ذوى آسها

وشارك الشعر الشامى فى حرب طرابلس بين العرب والإيطاليين : (عبد الحميد الرافعى) .

الله أكبر أن النصر موهوب للمؤمنين وغاب الليث مرهوب
تطاولت نحوه الطليان فانقلبت ويومها كغراب البين غربيب

ولما استشهد شباب العرب على مشانق جمال السفاح اهتز الشعر الشامى يقول : محمد الشريقى

لله شبان البلاد وشيبها باسم البلاد على الجذوع تعلق
يتدفقون على الردى بتبسم لا يرهبون الموت وهو محقق
ليكل لنا الأوغاد ما شاءوا أذى لابد أن الظلم يوما يمحق
نقموا علينا أن نحب بلادنا والحب فى شرع الآله مصدق

وقول الزركلى :

نعى نادب العرب شبانها فجدد بالنعى احزانها
بكى كل ذى عزة تربه فهاج نزار وعدنانها
فمن للمدامع إلا تفيض وترسل كالسيل هتانها
نعت لغة العرب من أحكموا لسان قريش وتبيانها
وناحت على من بنوا عزها وأعلوا بما أثلوا شأنها

وقد بقيت ذكرى شهداء ٦ ايار ١٩١٦ حيه فى نفوس أهل الشام فجعلوا من ذكرى استشهادهم فى كل عام مناسبة أدبية كبرى .

وقد تنبأ فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية بفجر القومية العربية فقال :

ايه بنى العرب الأحرار أن لكم فجر أطل على الأكوان مبتسما
من ذلك البيت . من تلك البطاح على تلك الطريق مشت أجدادكم قدما

من كل أروع وثاب إذا انتسبت	بيض الصوارم كان الصارم الخدما
لستم بنيهم ولستم من سلالتهم	إن لم يكن سعيكم من سعيهم أمما
إلى الشام إلى أرض العراق إلى	أقصى الجزيرة سيروا واحملوا العلما

ويقول خير الدين الزركلى :

انظر إلى القوم لا حول ولا عضدا	ثاروا على البغى لا هابوا ولا ريعوا
زادوا العداة بأسياف محددة	عزارها شعار الحـــق مطبوع
شتان ما زاحف للمجد مندفع	وزاحف للقاء الموت مدفوع

ويقول محمد البزم يصف قصف دمشق بالمدافع :

أمطرتمونا بصوب من قنابلـكم	حوائما بالردى مثنى ووحدانا
فـكم لهيب بعرض الجو مرتفع	يكاد يلتهم الشعرى وكيوانا
وكم خرائب كانت فى نضارتها	تزهو على الدهر بنيانا وعمرانا

٥ — اليقظة الأدبية فى حلب

للأدب فى حلب مكانه الواضح فى الأدب الشامى خاصة وفى الأدب العربى عامة . فقد خرّجت عدداً من المفكرين والـكتاب عملوا على إيقاظ الشعب وقاوموا الاستبداد العثمانى والاحتـــلال الفرنسى ومن هؤلاء شيخ الـكتاب الأحرار عبدالرحمن الـكواكبي وغيره من كانوا رواداً للفـكر العربى الحديث أمثال رزق الله حسون وجبرائيل دلال وفرنسيس مراش وكامل الغزى وبشير الغزى وميخائيل الصقال وراغب الطباخ وعبد المسيح الانطاكى وقسطاكى الحمصى وابراهيم صالح الـكيالى وبدر الدين النعسانى وشكرى كنيدر وعلى الناصر وعمر أبو ريشه وخليل هنداوى

وشارل الخورى ومصطفى بدوى وعبد الرحمن الكيالى وسامى الكيالى وسليمان العيسى وشارل الخورى وشكيب الجابرى وسامى الدهان وأسعد طلس وعمر أبو قوس وقدرى قلعجى وعبد الرحمن ابو قوس وأمجد الطرابلسى ووجيه السمان وفؤاد افرام البستانى ومحمد سعيد الزعيم وغسان نويهى .

ولحلب مكانتها التاريخية القوية حيث كانت حصن البلاد العربية الذى دافع دائماً عنها وحماها من غارات العثمانيين وما تزال قلعة حلب التى شهدت مواقع سيف الدولة قائمة تزدهى على الزمن كما تضم آثار اليـونان والرومان وكتابات الفراعنة وقد انقضى عليها أكثر من ألفى عام .

يقول سامى الكيالى مؤرخ حلب: لقد أخذت حلب من الحيثيين ومما أبدع الإسلام وما غزت به أوربا الشرق أخيراً فكان من تفاعل هذه الحضارات أثر فى كل بقعة من بقاعها وكل مظهر من مظاهر حياتها » .

وقد ضمت حلب فى تاريخ الفكر العربى شاعرين عظيمين : هما أبرز شعراء العرب ؛ المتنبى الذى عاش بها زمناً وخلدها بشعره والمعرى الذى أقام فى إحدى قراها رهين المحبسين . ومنذ فجر اليقظة العربية شاركت حلب دمشق فى كل مراحل الكفاح والثورة والنضال وتحملت العبء وقدمت الشهداء ..

وكتاب حلب ومفكريها عملوا فى الأغلب فى الصحافة إذ كانت ميدان الفكر الأول ومجال الدعوة والمقاومة ؛ ويعد السيد عبد الرحمن الكواكبى ابن حلب من أبرز مفكرى العالم العربى والإسلامى كله فليس يوجد كاتب فى ذلك العصر الذى ظهر فيه (نهاية القرن التاسع عشر) أكثر جرأة فى الكشف عن الاستبداد ومقاومته والبحث عن جوانبه الخفية وآثاره الواضحة على النحو الذى كتب

يئه الكواكبي كتابه « طبائع الاستبداد » وقد تحمل الكواكبي ظلم الاستبداد قولا وعملا واضطر إلى الهجرة من حلب إلى القاهرة هارباً من الظلم العثمانى وجور السلطان المستبد وحفلت حياته بالكفاح المستمر والنضال الثورى العنيف . وقد طوف الكواكبي بلاد العالم العربى باحثاً عن فكرة كان يوقن بها وليس كتابه « أم القرى » إلا صورة نفسية للأمل الذى كان يراوده فى جمع كلمة العرب لمقاومة الاستبداد العثمانى والاستعمار الغربى . ولا شك أن الكواكبى قد بذر بذور الحرية فى مصر والشام وامتدت آثاره إلى أقصى المغرب وكان كتابه « طبائع الاستبداد» حقاً كما قال «صرخة فى واد أو نفخة فى رماد إن ذهبت اليوم مع الريح فستذهب غدا بالأوتاد » فإنه لم تلبث أن عصفت صيحة الحرية بالاستبداد الحميدى بعد وفاته بسنوات قليلة[1]

ومن كتاب حلب « رزق الله حسون » الذى يجمع المؤرخون على أنه رائد من رواد الصحافة العربية والفكر الحر . وهو صاحب جريدة مرآة الأحوال التى صدرت فى استانبول ١٨٥٥ ثم انتقلت إلى لندن ، ومن لندن أخذ يكتب مقالات ثورية فى نقد سياسة الحكومة العثمانية والتنديد برجالها والكشف عن جور ولاتها .

قال عنه الفيكونت دى طرازى: أنه امام النهضة بلا مراء بل وجد الصحفيين وزعيمهم على الاطلاق : أحب نفائس المخطوطات وقد استنسخ كثيرا من نوادرها. له ديوان شعر وقد نظم قصائد الثورة وسفر أيوب وكانت بينه وبين الشدياق خصومة أدبية أصدر من أجلها كتابا عنوانه « رجوم وغساق إلى فارس الشدياق» ١٨٦٨ ويعد جبرائيل الدلال من شعراء الثورة على العادات والتقاليد والأوضاع الفاسدة . وله قصيدة النونية : العرش والهيكل التى تأثر فيها بكتابات فولتير

(١) دراسة مطولة عن الكواكبى فى كتابنا (رواد القومية العربية ج ١) .

وحمل فيها على الدجاجلة من رجال الدين وقد أودت به إلى السجن إلى أن مات وهو فى الأصفاد

ولآل المرآش أثر كبير فى الفكر العربى الحلبى: فإن «مريانا مراش» كانت أول أديبة كتبت فى الصحف العربية. كما كان لاخويها فرانسيس مراش وعبد الله مراش انتاج له اتصال بحياة الفكر العربى.

٢ — ولم يكد القرن العشرين يبدأ حتى كانت الحركة الفكرية فى حلب أقوى ساعداً وأرسخ قدماً فقد مضى أدباؤها يطالعون الآثار الغربية فاتسمت أساليبهم الكتابية واتجاهاتهم الفكرية بالروح العصرية الحديثة ولمع غير واحد من الأدباء والشعراء الذين امتازوا عمن سبقوهم بجزالة الأسلوب. وكان أدبهم صدى الواقع الذى تعيشه الأمة العربية وقد كتبوا تجاربهم الذاتية وتجارب مجتمعهم وفى مقدمة هؤلاء سامى الكيالى وعلى الناصر.

● أما سامى الكيالى فقد كانت مجلته الحديث من أقوى المجلات الأدبية التى حملت رسالة التجديد والنهضة والتى — كما يصورها الأديب الحلبى العربى خليل هنداوى — وقفت من الحركات الأدبية الاضطهادية فى مصر من موقفا مجيداً وكانت رسوله لأفكار الأدباء المصريين فى سورية. وقد نقلت مجلة الحديث صدى النزعات الفكرية المختلفة بأمانة وصدق.

● أما الشاعر الدكتور على الناصر فقد[1] «آمن بالواقعية فى الأدب وأصدر عدة دواوين كلها تتحدث عن ذاته وميوله وهواجسه وآرائه فى الكون والحياة

---

(١) الحركة الأدبية فى حلب لسامى الكيالى. (ك)

وفى الطبيعة والبشر وهو فى طليعة الثوار المحدثين الذين ثاروا على الوزن والقافية ودعوا إلى تحرير النظم من هذه القيود وارسال الكلام ارسالا » .

ويصور يوسف شلحت الحركة[1] الفكرية فى حلب حتى فى النصف الأول من القرن الشرين فيقول « كشف لنا أدباء ذلك العصر على قلمهم وإقلالهم عن نواح كثيرة ونزعات عدة تتعلق بالحياة والاجتماع فى الشهباء . وبالأفكار والمشاعر المتسلطة على سكانها . فمنهم من أبان عن الروح الدينية المتغلغلة فى نفوس الشعب . ومنهم من كشف عن الحق الكامن ضد عسف الولاه والحكام ورجال الدين . ومنهم من أظهر القلق الذى كان يساور الطبقة الغنية الشحيحة المحافظة تجاه خروج بعض أفرادها على التقاليد وثورتهم على النظام والعادات ، ومنهم من نادى بتحرير المرأة أو دعا إلى طرح التعصب وبذر بذور الشقاق . ولكن هذه المحاولات كانت تجرى فى محيط خاص ولها صبغة محلية بحتة وهى محصورة ضمن نطاق ضيق من التجربة » .

٦ — تطور النثر الشامى العربى.

اشترك النثر الشامى فى مجال الوطنية التحررية فى ميادينها الثلاثة : مقاومة الاستبداد العثمانى . ثم مقاومة الاحتلال الفرنسى . ثم الدعوة إلى التجمع والوحدة ومقاومة التفرقة والتجزئة .

وإن كان الشعر أقرب إلى النفوس لأنه ديوان العرب ولأنه بطبعه يهز النفوس ويكون أكثر استجابة وتوجيهها فى مراحل المقاومة غير

---

(١) الحركة الأدبية فى حلب لسامى الكيالى (ك) .

أن النثر لم يقصر عن أداء واجبه فقد رسم الكتاب صوراً للكفاح السورى العربى وللمواقف الضخمة الفاصلة .

ولم يقف أدباء الشام عند هذا الحد وإنما اتجهوا إلى كافة آفاق الأدب وألوانه. ولعلنا لو علمنا أن الأدباء الذين تكلموا عن المرأة وحريتها كانوا جميعاً سوريون أمثال فارس الشدياق وبطرس البستانى وسليم البستانى ويعقوب صروف وجرجى زيدان وجبران خليل وخليل سعد ومحمد كردعلى وعبد القادر المغربى وخليل سكاكينى ونقولا حداد ونقولا فياض وشبلى ملاط وخليل مطران ومصطفى الغلاييني وعبد الحميد الرافعى — لتولتنا الدهشة .

وكما حارب محمد على كرد التخريف والتصوف وهاجم الزوايا والتكايا والخوانق ألف فى محاسن الحضارة الأوروبية . واشترك معه فى هذا الاتجاه أمين الريحانى وسامى الكيالى .

كما دافع عن الأمجاد والتقاليد : بهجة البيطار وأحمد مظهر العظمة وعلى الطنطاوى وسعيد العرفى وكان من المعتدلين الدكتور نقولا فياض .

وتحدث عن الأدب العربى وأعلامه شفيق جبرى (المتنبى) عبد العزيز الميمنى (أبو العلاء) وخليل مردم (شعراء الشام) وأمجد الطرابلسى (رسالة الغفران) وجودة الركابى (الأدب فى الأندلس) وسعيد الأفغانى (أسواق العرب) وبطرس البستانى أدباء العرب ، وكذلك زكى المحاسنى وسليم الجندى وشكرى فيصل .

وقد تأثر هؤلاء جميعاً بطريقة المستشرقين والأسلوب العلمى الحديث فجاءت دراساتهم تحليلية علمية . ويضع النقاد قائمة باسم « نثر العلماء » مكونة من صروف ونمر وشبلى شميل

وفرح أنطون وفارس الخورى وشهبندر والشهابى وقسطنطين زريق وفؤاد صروف وقدرى طوقان وساطع الحصرى .

ولا شك أن إنشاء المجمع العلمى السورى عام ١٩١٩ كان له دور ضخم وأثر كبير فى تطور الحركة الفكرية قدّم صدّ رهدفه بنايتين: الأولى : البحث فى العلوم الحديثة والقديمة . والثانية : إحياء تراث العرب فى العــلوم والآداب وبحث علوم اللغة العربية · وقد أدى أعضاءه أكثر من أربعمائة محاضرة وحققوا ونشروا أكثر من ثلاثين مخطوط وصدر من مجلتهم ٣٢ مجلدا وترجموا الإصلاحات الإدارية ولغة القوانين وفى عام ١٩٢٢ — ١٩٢٣ كان أبرز محاضرى المجمع وكتابه : عبد القادر المغربى ومحمد كرد على وبهجه البيطـار ومرشد خاطر وعارف الـكندى وأنيس سلوم وعيسى اسكندر المعلوف وفارس الخورى . وكانت المحاضرات عن الشام تضم دراسات عن تاريخ دمشق وحضارتها ومصانع الشام وصناعات دمشق القديمة والجباية فى الشام ومعبد دمشق . ومحاضرات الأعلام تضم : ابن تيمية وبشار بن برد وأحمد تيمور وأبو الهزيل العلاف والغزالى · وفى الأدب القديم : معلقة طرفة بن العبد وابن الحلاج والزباء .

* * *

٢ — وكانت حركة الترجمة العلمية فى دمشق امتداداً لحركة الترجمة فى مصر وبيروت التى ظهرت فى القرن التاسع عشر فقد عكف أساتذة الجامعة السورية على وضع مصطلحات الطب والكيمياء والفيزيات والرياضيات والهندسة والنبات والحيوانات والجيولوجيا والبيولوجيا وعلم النفس والتربية والفلسفة .

ووضع الأمير مصطفى الشهابي معجم الألفاظ الزراعية ، وترجم الدكتور مرشد خاطر وحمدى الخياط وصلاح الدين الكواكبي معجم (كلرفيل) الطبي إلى اللغة العربية .

وترجم سليمان البستاني «الإلياذة» عن اليونانية كما ترجم عادل زعيتر كتب جوستاف لوبون وهنرى برجسون . هذا بالإضافة إلى ما قام به أساتذة كلية بيروت الامريكية أمثال كرنيليوس فانديك وجورج بوست ويوحنا ورتبات الذين أتقنوا اللغة العربية وألفوا في الكيمياء علم أحوال الجو وعلم الأمراض .

٣— وقد أحيت الشام ذكرى المتنبي (يوليو ١٩٣٦) في مدرج الجامعة السورية بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته اشترك فيها من كتاب العرب : شهبندر وخليل مردم وعبد الوهاب عزام وأحمد أمين ومعروف الرصافي ورضا الشبيبي . وطه الراوى وعز الدين التنوخي ونقولا فياض وأنيس المقدسي وأمين الريحاني وفؤاد البستاني وخليم دموس وسامى الكيالى ومحمد البزم وعمر أبو ريشه وسليم الجندى وجميل صليبا .

وقد صور على الطنطاوى الحياة الأدبية في دمشق في نفس هذه الفترة[1] فقال :

«لقد رجعت أعرض تاريخ الأدب في دمشق منذ عهد الاحتلال إلى اليوم . انظر الآثار الأدبية الخالصة التي أخرجها أدباء دمشق في هذه الخمسة عشر عاماً فلا أجد إذا استثنيت مجلتي الرابطة الأدبية والميزان ورواية سيد قريش لمعروف

(١) مجلة الرسالة ١٩٣٦ .

الارناءوط ، وكتاب المتنبي والجاحظ لشفيق جبرى ورسائل أئمة الأدب لخليل مردم بك وكتابين آخرين أو ثلاثة ، لا أجد أثراً أدبياً له قيمة . وهناك كتب محمد كرد على خطط الشام والإسلام والحضارة العربية ولكنها ليست من الكتب الأدبية الخالصة . ثم قال « إن أدباء دمشق فى منزلة بين الموت الكامل والحياة الصحيحة . هى السبات العميق والنوم الطويل الذى يشبه نوم الضفادع طول الشتاء . ليس فى دمشق غير مجلة أدبية واحدة هى « الطليعة » وقد توقفت مجلة الثقافة التى كان يصدرها جميل مردم وجميل صليبا وكاظم الداغستانى » .

ويقول خليل هنداوى فى إحدى محاضراته عن «الحركات الأدبية التى عاصرتها» (١٩٥٢) أننا لن ننسى الدور الخطير الذى قامت به مجلات مختلفة نذرت نفسها للأدب ومنها مجلة الميزان لصاحبها أحمد شاكر الكرمى صدرت فى دمشق . واسمها يدل على ما كان يريد صاحبها وهو نفس ما أراده أصحاب الديوان فى مصر من عرض للادب الصحيح وقضاء على مهرجى الأدب .

أما الحركة الأدبية فى سورية فلا أستطيع أن أجعل منها حركة مستقلة لأنها كانت أكثر ما كانت تابعة للحركة الأدبية الخارجية وكثير من أدبائها من بلاد بعيدة كأدباء المهجر . والذين هم منها ، فمنهم من شغلته الحركة الوطنية وفنى أدبه فيها . ومنهم من لا يستطيع أن ينشر أدبه داخل بلاده لاعتبارات مادية فكان يستعير منابر المجلات المصرية التى اغرقت كثيرا بالأدب السورى » .

٤ — ولكننا بالرغم من هذه الآراء نرى أن الأدب الشامى قد برز بطابعه الواضح والدراسات التى عاصرناها فى الرسالة والثقافة لقسطنطين زريق وشفيق جبرى وأمجد الطرابلسى وعلى الطنطاوى وسعيد الأفغانى وصلاح المنجد وسامى الكيالى

وخليل هنداوى وزكى المحاسنى وجودة الركابى وشكرى فيصل تكوّن فى مجموعها صورة قوية واضحة .

ولهذا الجانب من الفكر العربى قوامه : الجرأة والصراحة فى النقد . وإحياء أمجاد العرب ومقاومة دعوات الانفصالية والتجزئة والفرعونية والاعتماد على المناهج الحديثة والطريقة العلمية وتأثر إلى حد ما بالأدب الفرنسى والغرب عامة . وجرى مع أساليب الأدب المهجرى ولعل خليل هنـــداوى فى محاضرته عن « الحركات الأدبية التى عاصرتها[1] » يبين أثر ثلاث حركات تأثر بها الأدب الثورى العربى فيقول :

الحركة الأدبية المهجرية وقوامها رجال هجرو الوطن إلى ما وراء البحار طلبا للرزق الميسور وهم يحملون شعلة أدبية فى صدورهم والحركة الأدبية المصرية . وهى أم الحركات الأدبية فى العالم العربى . وهى أشد ما تكون اختباطاً واضطراباً لأنها تضم أدباء مختلفى النزعات متباينى الثقافات .

٢ — والمذهب الجرىء فى تحرير الدين : يصوره كتاب الخلافة وأصول الحكم تأليف على عبد الرازق والذى أثبت فيه أن الخلافة أمر لا تملق له بالدين وإنما هو اتفاق دنيوى لم ينص عليه القرآن والكتاب الثانى هو الشعر الجاهلى الذى يقوم على الشك فى الشعر كله دون أن يمس الدين »

ويهاجم بدر شاكر السياب من كتاب الشام « الأدب الذاتى المحايد » الذى ظهر بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٦ وما بعدها ويقول : لا أغالى إذا قلت أن الأدب الذاتى فى هذه المرحلة من حياة أمتنا ترف لا غير . وأن أمة تجنح إلى الترف وهى

---

(١) المحاضرات العامة فى حلب — ١٩٥٢ .

تقود معركة المصير لهى أمة أمرها إلى خسران . إن انتاج أدب كهذا لهو نوع بشع من أنواع الجريمة لا يغير من ذلك مكان ولا زمان . بل إن انتاجه فى بلاد كوطننا العربى وفى مرحلة كمرحلتنا هذه ترق إلى درجة الخيانة . فالإغراء الذى فيه والرواج الذى يلقاه نتيجة لذلك يجعلانه أشد خطرا من أدب اليأس والهزيمة » .

ويصور عادل العوا الحركة الفكرية فى سوريا[1] فيقول :

إن الفكر السورى حالياً سفينة شراعية قديمة تريد الابحار فى عالم الذرة وهى سفينة تحتاج إلى فكر جديد لتستبدل الاتجاه السلبى الذى ينتظر رحمة رياح التاريخ باتجاه منظم متين .

ويجمع النقاد على أن محمد كرد على وعبد القادر المغربى وسليم الجندى هم فى مقدمة السوريين الذين فتحوا الطريق للشباب المثقف .

فالشيخ كرد على — كما يقول على الطنطاوى « هو أبى النهضة الأدبية فى الشام . كان محرراً فى المؤيد وفى المقتطف من قبله . وكان يصدر مجلة المقتبس من بعده . فكان دعامة ضخمة فى صرح نهضتنا الأدبية والعلمية » .

وعبد القادر المغربى هو تلميذ جمال الدين ومحمد عبده . وكان يكتب فى المؤيد مقالات فى اصلاح الأزهر وقد انتخب عضوا فى المجمع العلمى العربى السورى منذ أن تأسس عام ١٩١٩ وسمى عضوا عاملا فى مجمع اللغة العربية المصرى وأنتخب عضوا فى المجمع العلمى ١٩٤٩ : نشأ فى بيت علم وفضل وتتلمذ على والده القاضى فى اللاذقية وعلى الشيخ حسين الجسر و إبراهيم الاحدب من أكبر علماء الجيل الماضى . وقد رحل إلى القسطنطينية ودرس على كبار علمائها وأئمة

(١) مجلة الخبر — ١٣ يناير ١٩٤٦ .

الفقه فيها . وقد اتيح له إذ ذاك أن يلازم جمال الدين الأفغاني وقد دعا إلى بعث الروح الخاملة فبادر العثمانيون إلى اعتقاله واضطهاده حتى لا تكون آرائه عاملا في مقاومة الخمول والكسل العقليين الذين يحرص بقائهما كل محتل أجنبي ويصف عارف الكندي «فارس الخوري» بأنه أوحد رواد الفكر السوري العربي والرجل الذي علمنا تقديس الشريف وتقدير الرجولة . وقد كان يصدر جريدة اليوم ويعد «محمد سليم الجندي» في نظر تلاميذه الرجل الذي وعى المعاجم والعالم الذي يتحدث عن التصريف والاشتقاق : والنحو . والفقه والغريب . لاتغيب عنه كلمة . ويجيب على البديهة . يلقى عليه بالبيت وجده أحدهم في كتاب فإذا هو ينشد القصيدة كلها ويعرّف بالشاعر الذي قالها .

ومعروف الأرناؤوط[1] صاحب فتى العرب الصحفي الكاتب الذي زار كل بقعة في البلاد العربية وناصر الحرية « وكان شديد التحمس للعروبة والأمة العربية قوى الايمان بقدرة هذا الشعب على القيام بالدور المقدور له »[2]

ويقول على الطنطاوى عنه : ما رأينا في الأدباء من هو أحلى حديثا وأظهر صفاء واملأ بالأدب الحق من نوعه إلى قدمه من معروف »

(١) توفى في ٣١ يناير ١٩٤٨ .
(٢) برهان الدين الداغستاني : الرسالة ٣٠ فبراير ١٩٤٨ .

٢ — فلسطين

تعد نكبة فلسطين أضخم حدث تحول فى حياة الوطن العربى كله . وهى بذلك ذات أثر بعيد فى الأدب العربى كلة. ذلك أن سقوط فلسطين فى يد الصهيونية ١٩٤٨ كان من أبرز أحداث الفكر العربى لا يدانيها أى حدث آخر بعد احتلال الاستعمار الغربى للعالم العربى بعد الحرب العالمية الأولى .

وكما أثرت نكبة فلسطين فى محيط السياسة العربية فأحدثت هذا التطور الضخم الذى انبثقت من أعماقه الثورة المصرية العربية ١٩٥٢ وامتدت فى نداءها الصاعد بالقومية العربية ، كذلك أثرت هذه النكبة فى الأدب العربى المعاصر كله فى مختلف أقطار الأمة العربية . وما من كاتب أو شاعر فى هذه الفترة إلا وكان لفلسطين اهتزازات فى فكرة وقلمه وبيانه . ومن بوثقة المأساة نفسها ومن قلب فلسطين . ومن المهاجرين الذين عاشوا المعركة والهجرة ظهرت أثار أدبية فى الأناشيد والقصص والكتابة والتوجيهية والتسجيلية .

و«مأساة فلسطين» بدأت فى وقت واحد مع غدر الإنجليز للعرب بعد الحرب العالمية الأولى بعد أن تعهدت بريطانيا بوثائق أطلق عليها « محادثات مكماهون — حسين » على تأييد العرب فى إقامة الدولة العربية فى مقابل أن ينفصل العرب عن الأتراك وأن ينضموا للحلفاء فى الحرب . وقد وفّى العرب لبريطانيا ولحلفائها طوال فترة الحرب بتعهداتهم وكانوا سببا رئيسيا فى ترجيح كفه الانجليز وانتصارهم على المانيا وتركيا لم تلبث بريطانيا أن غدرت بالعرب حين أعلنت تقسيمها للبلاد العربيه وفق معاهدة سا كس بيكو . ثم كان الحدث الخطير فى إعلان

وعد بلفور (٢ نوفبر ١٩١٨) الذى أعطى اليهود الحق فى إقامة وطن قومى فى قلب الوطن العربى « فلسطين [1] »

ولقد قاوم العرب فى فلسطين وفى المنطقة كلها هذا الوعد منذ اليوم الأول . ولكن بريطانيا استطاعت بقوة الحديد والنار أن تفرض الوعد على العرب فى فلسطين فرضا وأن تنفذه تنفيذا قاسيا . وكان هدفه منذ اليوم الأول إبادة عرب فلسطين واحلال اليهود محلهم وإقامة دولة يهودية فى هذه البقعة من قلب الوطن العربى الكبير . ولم يكن المقصود إتاحة الفرصة لعدد من اليهود فى الهجرة إلى فلسطين لمشاركة أصحابها العرب فقط بل إلى إقامة حاجز ضخم بين العرب فى آسيا وأفريقيا وايجاد بؤرة ملتهبة لتدمير وحدة الأمة العربية .

وقد لقى عرب فلسطين استعمارا مزدوجا : هو استعمار اليهود والانجليز .

وفى خلال ٣٠ عاما كاملة (١٩١٨ — ١٩٤٨) كانت الحرب لا تكف والجهاد لا يفتر فى سبيل مقاومة هذه الهجرة غير المشروعة . غير أن اليهود بالاشتراك مع دولة الانتداب استطاعوا أن يحطموا القومية العربية فى فلسطين وأن ينتزعوا الأراضى من أهلها، وأن يقيموا قلاعهم الحصينة فى المواقع الاستراتيجية وأن يسيطروا على الموانى والشواطىء والمدن والأرض الزراعيه . وأن يخرجوا أهلها منها بعد أن شنوا غارات مجرمة على القرى فأحرقوها وأن يواجهوا المقاومة العربية التى كانت بدائية فى اسلحتها بأسلحة حديثة جبارة؛ وقدمت فلسطين شهداءها طوال هذه الثلاثين عاما . لم تفتر ولم تتوقف . كان هناك صف من الشهداء يسقط ويروى الأرض بدمائه ليتقدم صف آخر ليستشهد .

وكان صراعا رهيبا. ومقاومة دائمة. وسقط الوف الشهداء وهدمت ألوف القرى ونهبت مئات الألوف من البيوت واستولى اليهود على ألوف الأفدنة من الأرض.

---

(١) اقرأ تفاصيل المؤامرة فى كتابنا « العالم الإسلامى والاستعمار » .

وفى خلال ذلك كانت دفعات ضخمة من اليهود تصل إلى الموانى ومئات الألوف من الجنيهات تدفع لتحقيق إقامة الوطن القومى اليهود .

ثم كانت الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ التى اشتركت فيها الدول العربية السبعة للقضاء على الاحتلال اليهودى ، وذلك بعد أن انسحبت بريطانيا من فلسطين تاركة أياها فى أيدى اليهود وانهزمت الدول العربية السبعة لأن قيادتها السياسية كانت فى يد الخونة ولأن أهل فلسطين لم يشتركوا فى الحرب ولان الهدنة التى فرضتها الدول الغربية على العرب كانت هى قمة الهزيمة .

وبذلك استطاع الغرب أن يضرب الأمة العربية أقسى ضربة وجهت إلى كيانها وهى إقامة دولة صهيونية فى قلب الوطن العربى وفى هذه المنطقة الدقيقة الحساسة التى تتصل بالبحر الأبيض والتى تفصل الطريق الطبيعى بين آسيا وأفريقيا .

وقد كان لوقوع هذه الجريمة الضخمة أثر بالغ فقد سحقت عددا ضخما من أبناء فلسطين وأخرجت مليون عربى من أرضهم حيث يعيشون منذ عشر سنوات فى خيام ممزقة فى العراء ينظرون إلى الوطن المغضوب وليس بينهم وبينه إلا الأسلاك الشائكة .

واستيقظ العرب على القارعة الكبرى . وأحس العرب بعد هزيمة فلسطين بالجريمة التى اشتركوا فى اقترافها والمأساة التى يلقاها اخوتهم والخطر الذى جثم على صدر الوطن العربى وبات يهدد كل الأقطار والأنحاء بتوسع أرهابى يهدف إلى أقامة وطن قومى كبير من النيل إلى الفرات بنفس أساليب إبادة العرب التى حدثت فى فلسطين .

وقد كان لهذه القارعة أثارها السياسية فى أحداث متوالية لم يبعد قطر واحد عن أثرها ، ظهرت أثارها فى القاهرة والخرطوم ودمشق وبيروت وعمان وبغداد

وفى خلال عشر سنوات تغيرت القيادة فى هذه المواسم ، وبزغ فجر الدعوة إلى الوحدة والتجمع لمقاومة والخطر والقيت قيادة هذه الدعوة إلى الثورة المصرية العربية التى قامت فى مصر ١٩٥٢ فاسقطت العرش الذى نخره السوس وحطمت الحزبية وحققت جلاء الاستعمار البريطانى عن مصر وامتدت أثارها من المحيط إلى الخليج تحمل صيحة الوحدة والتجمع وتقف وراء كل حركة تحررية فى سبيل إجلاء الغاصب وقامت الثورات فى مراكش وتونس والجزائر وعمان وجنوب الجزيرة العربية والعراق والأردن وتوالت انتصارات القومية العربية بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة .

وتنادى العرب جميعا فى صوت واحد ، ونغمة متصلة هى : « عائدون إلى فلسطين » .

وهكذا ايقظت فلسطين العرب والهبت قلوبهم وملأت نفوسهم بالدعوة إلى التجمع والالتقاء والترابط والوحدة ثم الثأر لفلسطين وتحريرها وإعادتها إلى أهلها العرب .

٢ — وقدتأثر الفكر العربى كلهأبلغ الأثر بهذه المأساةوارتبط بها وظهرت فى مختلف صورة شعراً ونثراً وقصه: صورة الغدر الغربى وكراهية العرب له وانقطعت أسباب الثقة به والصداقة معه واتسمت مختلف الأثار الأدبية بظاهرتانهما : المرارة والحقد لأغتصاب أرض العرب و «الثأر» لتخليص هذه الأرض وتحريرها . فقد كانت ماساه فلسطين عملية أبادة ضخمة بربرية لم تحدث فى التاريخ من قبل على مثل هذه الصورة البشعة .

كما صور الأدب « اليقظة » التى شملت العرب والصيحة التى تنادت إلى الوحد والتجمع مع الايمان بالعودة .

وهكذا كانت نكبة العرب فى فلسطين ينبوعاً تفجرت منه عواطف الكتاب والأدباء ووحياً وإلهاما للشعراء وموضوعا للتأليف المستمر فى الأسباب والنتائج .

وقد كان لنكبة فلسطين أثرها فى أدب اسعاف النشاشيبى وساطع الحصرى وعلى ناصر الدين وقسطنطين ورزيق وموسى العلمى وأحمد رمزى وقدرى طوقان وأكرم زعيتر ومنيف الرزازوغيرهم وظهرت واضحة فى شعر ابراهيم طوقان وعمر ابو ريشه .

٣ — ألف عدد كبير من الكتاب مؤلفات عن فلسطين وأثرها فى القومية العربية منها : الصهيونية (نجيب نصار) تحليل وعد بلفور (محمديونس الحسينى) تاريخ الحركة الوطنية العربية (نجاتى صدق) فلسطين بين الانتداب والصهيونية (عيسى الشمرى)القصة الفلسطينية ونحو الوحدةالعربية (يوسف هيكل)الصهيونية (سعدى بسيو) وبلادنا (مصطفى الدباغ) بعد النكبة (قدرى حافظ طوقان) معالم الحياة العربية الحديثة (الدكتور منيف الرزاز) النكبة والبناء (وليد قحاوى) أثر النكبة فى القصة العربية (محمود يوسف) القضية الفلسطينية (أكرم زعيتر) عبرة فلسطين (موسى العلمى) من وحى فلسطين (أحمدرمزى) كما كتب نقولا حداد ٣٠ مقالا فى القومية العربية والدعوة إلى وحدة العرب وتضامنهم.وهناك عدد آخر من القصص : لحن الشهيد (برهان الدين العبوشى) الأخوات الحزينات (نجاتى صدق) لاجئة (جورج حنا) صوت اللاجى (هدى حنا) من وحى الواقع (أمين فارس ملحس) وديوان (مع الغرباء وعودة الغرباء) لهارون هاشم رشيد ومن شعراء فلسطين : عبد الرحيم محمود وابراهيم الدباغ وأبو سلمى ومحمود الحوت وكمال ناصر .

٤ — يقول محمود يوسف فلاحة فى رسالته «أثر النكبة فى القضية العربية[1]» :
أن نكبة فلسطين هزة عنيفة فى حياة الامة العربية تأثرت بها حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية . فهذا جزء من الوطن يقتطع واعداد من أمته تقدم ضحايا بخسه فى ميدان الافناء لا لشىء إلا لاسكان طغمة من الشذاذ الذين لفظتهم الأرض المقدسة منذ أقدم العصور .

وقد أثرت هذه المأساة فى الأدب : الأدب الصادق الذى يتحسس أوجاع مجتمعه فيصورها ويحاول أن يصف أدواءها ولكن هذا الأدب لم يطبع فى الأغلب وما نشر منه قليل » . وقد صور هذا الأدب أكبر أثرين خلقتهما النكبة : ضياع فلسطين والنارحون . وقد عالجت القصص حالات النازحين المختلفة وصور هذا الأدب جبن اليهود وبطولة الأهالى العرب ، وإصرارهم بالرغم من فقرهم وبؤسهم على الحق ، كما صور الحقد على اليهود والأجانب وعلى بعض الزعماء وكذلك الشوق والحنين بذكر الوطن واغتنام مناسبات السفر لرؤيته والتسلل إلى الأراضى المحتلة وكما أبرز صوره « العودة » والايمان بها والاعداد لها . وقوة العزم واندفاع الشباب الفلسطينى فى الطريق الايجابى وخاصة فى العلم وقد ثبت أن نتائج المدارس فى غزة ١٠٠ فى المائة .

٥ — أجمع الكتاب الذين صوروا النكبة على أن العروبة[2] لم تتبلور ولم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل فلسطين وأن النكبة كانت بعيدة الأثر فى النثر والشعر والقصة العربية فى الحاضر والمستقبل وأنها أعادت إلى الأذهان نكبة الأندلس وأن إخواننا المسيحيين شاركوا فيها على قدم المساواة فقد كانوا عربا من قبل الإسلام

(١) كتبها عام ١٩٥٥ الجامعة السورية بإشراف الدكتور أمجد الطرابلسى .
(٢) كامل السوافيرى من كلمة فى مؤتمر الأدباء العرب الثالث .

٣ ـ فلسطين والأردن

كانت فلسطين والأردن أرضاً واحدة مرتبطة بالوحدة الشاملة مع بلاد الشام ولم تعرف هذه الفواصل إلا بعد الاحتلال البريطانى الفرنسى للوطن العربى وليس أدل على هذه الوحدة من أن « صور » التى هى اليوم من « لبنان » كانت من مدن الأردن . وكانت عمان عاصمة الأردن اليوم جزءاً من أرض فلسطين .

وقد احتلت بريطانيا مدينة « القدس » فى أواخر عام ١٩١٧ وتم لها احتلال فلسطين فى أواخر عام ١٩١٨ وكان هدف الاستعمار من تمزيق أرض الشام إلى هذه الأجزاء هو القضاء على وحدتها وقد عمل فى سبيل ذلك على إقامة حدود وهمية مصطنعة وأنشأ فى كل قسم منها نظماً تختلف عن الأجزاء الأخرى ، وكانت بريطانيا بانشاء أمارة شرق الأردن إنما تمد فلسطين لتحقيق وعد بلفور . وذلك باقامة حاجز يحول بين الدول العربية وبين نصرتها فضلا عن أن الفيلق العربى الذى كان يقوده جلوب كان عاملا فى سبيل تحقيق أمال اليهود .

وقد أخرجت فلسطين والأردن على مر العصور مفكرين وكتابا أعلاما فى مقدمتهم المقدسى والصفدى والنابلسى والعسقلانى والطبرانى والناصرى وكان هؤلاء الأدباء يتنقلون بين أرجاء هذا الوطن العربى الكبير وكانت فلسطين البلد المقدس الذى يتنادى إليه الناس من كل صوب لمكانته التاريخية ولذلك كان مصدر حركة فكرية علمية .

وقد وهب الله فلسطين من مفاتن الطبيعة ما جملها كذلك قبلة الأعلام والأعيان بسهولها الفسيحة وجبالها الشاهقه وجداولها ورياضها وحقولها وغاباتها وشواطئها الطويلة ذات الرمال البيضاء .

« بل[1] إن فى البلد الواحد قد يجتمع منظر عجيب . جبال بذراها السامقة

---

(١) الحركات الأدبية فى فلسطين والأردن : الدكتور ناصر الدين الأسد.

محتضن البحر فتنكسر أمواجه على سفوحها ثم تطيف بها من خلفها ومن جانبها سهول فساح ممرعة » .

٢ — وقد اندمجت النهضة الأدبية بين فلسطين والأردن وخرجت ميخائيل نعيمة ونسيب عُريضة واسكندر الخورى وخليل بيدس ونعمة الصباغ وخليل السكاكينى وابرهيم طوقان وكثير غيرهم تخرجوا من مدارس فى الخارج منهم اسعاف النشاشيبى وخليل الخالدى وابراهيم الدباغ والدكتور اسحق الحسينى .

ثم أظهرت الأردن من الكتاب : أديب عباسى والدكتور محمد أبو غنيمه وبشر الشريقى وعبدالحليم عباس والبدوى الملثم ومن الشعراء : مصطفى وهبى التل وحسنى فريز ورشيد زيد وحنا الشوارب .

ثم ظهرت طائفة أخرى من شباب الشعراء منهم محمد الشريقى وحلمى عبد الباقى ونديم الملاح ومحمد العدنانى ومصباح العامودى ومحمد سليم الشهدان .

وقد جمت الأردن بعد الحرب العالمية الأولى صفوة من الأدباء منهم عبدالمحسن الكاظمى وخيرالدين الزركلى وفؤاد الخطيب ومحمد على الحومانى ومصطفى الغلايينى .

وصدرت فى فلسطين مجلات : « العرب » (عجاج نويهض) فى القدس . ومجلة الفجر (محمود سيف الدين الايرانى) فى يافا ومجلة الهدف (يحيى حموده) والحكمة (نديم الملاح) والجزيرة (تيسير طيبان الكيلانى) والرائد (أمين أبو شعر) والقلم الجديد) عيسى الناعورى .

ويقول جريس القسوس[1] أن هذه الفئة كانت باعثاً كبيراً على إحياء الأدب العربى واحداث نهضة فكرية مباركة وفى الأردن ظهر من الكاتبات : فدوى

(١) الرسالة ١٩٣٦

طوقان (أخى ابراهيم — وحدى مع الأيام) واسما طوبى (نعيم فى لبنان) وسميره عزام(أشياء صغيرة) ٠

كما ظهرت سميرة أبوغزاله ودعد الكيالى وثريا ملحس . وما زال أدب الأردن وفلسطين شبيها بغيره فى ليبيا والسودان والحجاز يفتقد دور النشر والإمكانيات المالية ولذلك بقى منطويا على نفسه ملفوفا فى أدراجه .

٣ — كان الأردن حتى سنة ١٩٣٠ جزءاً من بلاد الشام سياسياً واقتصادياً وفكريا وكانت الاتجاهات الفكرية والأدبية فى جميع بلاد الشام وحدة متماسكة يغلب عليها طابع الثورة من نير الاستعمار التركى بالإضافة إلى مايقال ويكتب من المدح والغزل .

وبعد أن انفصلت الأردن عن أمها سوريا فيمن انفصل مثل لبنان وفلسطين بقى هذا الطابع سائداً حتى استقرت الأوضاع السياسية فى الأردن . وأخذ الشعب العربى فى الانتعاش الاقتصادى وتلمس مايجرى حوله . فانتشرت المدارس وكثر طلاب العلم فى الجامعات المجاورة . وبدأ المثقفون يعبرون عن شعورهم وآمالهم وأحاسيسهم نثراً وشعراً ودونوه فى الصحف الأدبية فى مصر وسوريا ولبنان ٠

ثم أخذت الشخصية الأردنية تتميز بعض التميز ٠ وظهر الأدب الأردنى بطابعه الأقليمى ممثلا فى المرحوم الشاعر مصطفى وهبه التل الذى تغزل فى الأردن غزلا ممتعاً . وتغزل فى جباله ووديانه . فى نباته وزهوره ، كما نقد الأوضاع السياسية نقدا رقيقاً حينا وعنيفاً أحيانا كثيرة ٠ وظهر من الشعراء الأساتذة محمد الشريقى وحسنى فريز وأديب عباسى وقد تميز أولهم بأشعاره الوطنية وثانيهم بالغزل وكان فى الأردن إلى جوار هؤلاء الشعراء بعض الناثرين أمثال الأساتذة عبد الحليم عباس ومحمود سيف الدين الايرانى .

ولقد بقى الأدب الأردنى سائراً فى هذا الاتجاه ومحاكياً إتجاه الأدب العربى المجاور فى سوريا ولبنان ومصر حتى كانت النكبة الكبرى فى ضياع فلسطين تلك التى أثرت تأثيراً كبيراً فى الأردن سواء منهم الأديب أو العالم أو المواطن العادى . بالإضافة إلى انضمام الجزء المتبقى من فلسطين وإلتجاء أغلب الأدباء والعلماء الفلسطينين إلى الأردن ، الأمر الذى صبغ الأدب الأردنى الحاضر بصبغته الوطنية والحماسة الجارفة والحزن على ضياع هذا الجزء العزيز من الوطن العربى . ومن أدبائنا فى هذا الاتجاه غير من ذكرت فدوى طوقان وعزمى النشاشيبى بالإضافة إلى عدد غير قليل من الشباب الأدباء الذين لم تتبلور شخصيتهم بعد وغالبهم من ذوى الأفكار المتحررة .

٤ — ويصور عبد الكريم الكرمى أحد أدباء الأردن تفاعل الفكر العربى مع الأحداث وتجاوبه مع دعوة القومية والتجمع والمقاومة فيقول : تفتحت أعيننا على نضج القومية العربية وعلى ومضات أدبية تلمع فى أفق بلادنا فيها نور وأمل ووهج نضال وسنا حرية . وكان الموجهون أبطالا وقفوا بين العواصف والظلمات ورسموا لشعبهم طريق الأدب الصحيح .

وفى كل أرض عربية فى الصحارى اللاهبة وعلى السفوح المخصبة ساروا جميعاً فى القدس ويافا ونابلس وغزه وسيناء ودمشق وعمان وأربد والنقب وبور سعيد . وعلى وميض السيف واليراع أطل الأدب على ضفتى الأردن . وهكذا حمل الشعراء والفرسان قلوبهم فى المعركة ، وتفجرت شعرا ودما على التراث العربى ، ونحن فى الضفتين تقلبنا على اللهيب هذه الأعوام المديدة ، وحاربنا الاستعمار والصهيونية وأذناب الاستعمار طول هذه السنين ولما نزل نحارب .

وكان الأدباء مع الأبطال يحومون فى الساح كالنسور المخضبة الأجنحة تنشر ريشها الدامى إلى جانب السلاح الرامى .

وانجلى الغبار بعد هذا النضال المرير . وإذا بالاستعمار يقطتع قطعة غالية من قلب البلاد العربية ليقيم فيها اسرائيل رمزاً للغدر والجريمة والعار وتشرد مليون عربي وكانت نكبة فلسطين نكبة للعرب أجمعين بل نكبة الانسانية قاطبة ·
ونستطيع أن نعرض عنا صورة سريعة لطائفة من أدباء الأردن[1] .

١ — أحمد عارف الزين : أصدر مجلة العرفان ١٨٩٦ و استمرت حتى ١٩٥١ ، كان يكتب قبل ذلك فى مجلات ثمرات الفنون والاتحاد العثمانى وحديقة الأخبار .

قال « كانت جل كتابتنا ، أو كلها فى محاربة الزعماء المستبدين وبعض الموظفين الخائنين المرتشين ونصرة القائمين بنشر الحرية والدستور . هذه حالنا على عهد العثمانيين حيث سجنا عام ١٩١٢ ثم أخذنا مع من أخذ عام ١٩١٥ بعد أن روع أهل بيتنا فى المرة الأولى والثانية إذا أحاط الدرك بدارنا وأخذونا أخذ عزيز مقتدر . وعطلت جريدتنا . واشترك أحمد عارف فى الحركات العربيه على اختلافها وظل ينادى بالاستقلال حتى وقعت الحرب ثم دخل الفرنسيون بيروت — حيث كان يعمل — وحاولوا اغراءه بالمال ولكنه رفض التعاون معهم ونادى بالاستقلال وهاجم الانتداب بعنف .

٢ — روكس بن زائد العزيزى ولد فى أغسطس ١٩٠٣ · عمل مدرسا فى بلدة « مأدبا » فى ١٩١٨ . لما وقعت حوادث فلسطين نهب منزله وخزانة كتبه وفى اعدادها مؤلفاته المخطوطة فأعاد تأليفها إلا رسالة واحدة . عمل رئيسا لتحرير جريدة الجهاد يناير ١٩٤٨ — نشر مقالاته فى صحف القدس والبرازيل وصيدا والنجف وبغداد وبيروت ومصر . تأثر بالأب انستاس الكرملى . يرى أن شاعر الأردن الخالد هو مصطفى التل .

---

(١) أستعنا فى اعداد هذه التراجم بعدد من المراجع من أهمها كتاب الحركات الأدبية للدكتور ناصر الدين الأسد .

يقول إن الأديب الحق لا يكتب الا مايعتقده حقا وصدقا . وهو بالتالى لا يخاف ولا يتذبذب . والذى يقول الحق لا يراوغ ولا يمكن أن يندم على قوله الحق ، وما يعرف نفسه ندم على مقال كتبه » يقول أن الكتب التى أثرت فى توجيهه هى : الكتاب المقدس والقرآن الكريم وجمهورية أفلاطون ومقدمة ابن خلدون واللزوميات والريحانيات للريحانى من مؤلفاته : سدنة التراث القومى (الكرملى) ووطنية الصحراء وشاعر الانسانية والزنابق وفريسة أبى ماضى وسواها .

٣ — محمد أسعاف النشاشيبى : أديب فلسطين الكبير . ولد فى القدس ١٨٨٢ . تعلم فى القدس ثم فى المدرسة البطريركية فى بيروت . تلقى العلم على الشيخ عبد الله البستانى ومصطفى الغلايينى . عمل فى الصحافة والتحرير فى مجلات الأصمعى والنفائس والمنهل فى القدس . عمل مفتشاً للغة العرب . عرف بأسلوبة العصبى النارى الذى تتوهج عباراته بالحماسة والإيمان . له رحلة الشتاء إلى مصر ورحلة الصيف إلى دمشق يقرأ ويبحث . فإذا جلس كان مجلسه ندوة علم وأدب وفكاهة.

مؤلفاته : قلب عربى وعقل أوربى . البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقى . مقام إبراهيم . الإسلام الصحيح . نقل الأديب — اللغة العربية وأمين الريحانى .

٤ — اسحق موسى الحسينى : يميل اسلوبه إلى البساطة واليسر . وملاحقة المعنى دون المبنى . مؤلف : مذكرات دجاجة . أزمة الفكر العربى ـ عودة السفينة . ابن قتيبة . الجامعات الإسلامية . هل الأدباء بشر . الإسلام فى نظر الغرب ، وهو من القائلين بأن المقالة اليوم هى الوسيلة الوحيدة للتعبير عن الأدب والثقافة وما يتصل بهما .

٥ — أحمد سامح الخالدى : أبو التربية فى فلسطين . تولى عمادة الكلية

العربية فى القدس (٢٥ ـ ١٩٤٨) ألف عدداً من الكتب فيها : الحياة العقلية ، أقنعة الحب . خفايا النفوس . جدد كثيراً من المخطوطات القيمة : فضائل بيت المقدس للواسطى . الإعلام بفضائل الشام وله أيضا «الأردن فى التاريخ الإسلامى» قام برحلات مختلفة فى ديار الشام .

٦ — أحمد شاكر الكرمى : ولد فى طولكرم . وتعلم فى الأزهر . واستقر فى دمشق ١٩٢٧ ، حرر فى كوكب الشرق فى مصر . كما حرر فى صحيفتى القبلة فى الحجاز . الفيحاء فى دمشق . أسس الرابطة الأدبية ١٩٢١ وحرر مجلتها وكان يوقع بإمضاء « قدامة » وقد وصفه النشاشيبى بأنه مازنى الشام وعقاده . أصدر صحيفة الميزان فى دمشق . وله مترجماته من الانجليزية وله كتاب : الكرميات : مجموعة مقالات .

٧ — نخلة زريق : قضى ربع قرن معلما للغة العربية فى الكلية الانجليزية بالقدس . من تلامذه خليل السكاكينى تتلمذ له كثيرون فى مجالسه وإن لم يحضروا دروسه . كان أستاذاً لإبراهيم طوقان واسع الاطلاع على الآداب الإسلامية العربية . شديد التعصب للغة . فتح نظر تلاميذه على كنوز الشعر العربى وحببها إليهم . كان بيته محجة العلماء والأدباء فى القدس . وكان شديد الاعتزاز بعروبته وهو من سورية أصلا .

٨ — روحى الخالدى : ولد فى بيت المقدس ١٨٦٤ . طلب العلم فى بلاد الشام فى الاستانة فباريس . انتخبه أهل القدس مبعوثاً عنهم فى مجلس المبعوثان له مؤلفات علم الأدب عند العرب والافرنج . العالم الإسلامى والانقلاب العثمانى . علم الكيمياء عند العرب علم الألسنة فى مقابلة اللغات . اتصل بجمال الدين الأفغانى .

٩ — إبراهيم طوقان : ولد فى نابلس سنة ١٩٠٥ ودرس فى الجامعة

الأمريكية فى بيروت . تولى الإشراف على الإذاعة الفلسطينية عند تأسيسها ١٩٣١ . شاعر مطبوع . شعره من وحى النفس . يعبر عن انفعالاته النفسية تعبيراً صريحا قويا .

١٠ — عادل زعيتر : درس فى باريس وعاد ليشتغل بالمحاماة ولكن شغفه بترجمة روائع الفكر الغربى صرفته عن العمل وقد أدى للأدب العربى عملا ضخماً بترجماته لكتب جوستاف لوبون أمثال حضارة العرب وحضارة الهند وروح التربية وفلسفة التاريخ والسنن النفسية لتطور الأمم كما ترجم عن اميل لدوفيج : النيل والبحر المتوسط وبسمارك ونابليون وكيلوباتره وابن الإنسان . وترجم مونتسكيو وجان جاك روسو وفولتير وريناان ودرمنجم وأناتول فرانس وسيديو وهو دؤوب صابر قوى العمل دقيق فى الترجمة له اصالة فى التعبير وضلاعة فى اللغة وميل إلى إحياء الألفاظ العربية المهجورة توفى عام ١٩٥٨ .

١١ — إبراهيم الدباغ : ولد فى فلسطين . درس فى الأزهر وأقام فى مصر . نظم الشعر وهو صغير . كان صديقاً لعبد الله نديم له ديوان الطليعة وحديث الصومعة وهو رسائل فى الأدب والفكاهة والنقد . وله ديوان فى ظلال الحرية ويمتاز شعره بالجزالة وصدق التصور وطول النفس . يقول عادل الغضبان : امتاز شعر الدباغ بالقوة ثم بالعاطفة فى أبهى وجوهها . ولم تكن عاطفة رخية تقوم على البكاء والنحيب وراء حبيب هجر وعزول رقب وعلى التوجع والتأوه لنفس قريحة وفؤاد جريح . بل كانت عاطفته قوية فيها رقة القلب وكرامة النفس وفيها الحدب على الإنسانية فى أبلغ صور العطف والحنان .

وقال خليل مطران : هل يوجد فى الأقطار العربية من لم يردد اسم الشيخ إبراهيم الدباغ ولم يردد له بيتا من الشعر رائعا أو طرفة من النثر شائعة . أو لطيفة من اللطائف الأدبية تهتزلها النفوس طربا . إن الشاعريه دارجته منذ نعومة

أظافره ثم تكاملت مع ازدياد معرفته بالحياة وأحوالها . ومع ادمانه المطالعة وتوفره على التخير من أنقى أساليب العرب ديباجة وأسلم تراكيبهم من الركاكة أو التعقيد .

١٢ — خليل السكاكيني : من القدس : درّس الانجليزية وكان أستاذه نخلة زريق . عاش فى حياة التعليم مدرساً ومديراً لدار المعلمين ومفتشاً للمعارف وأنشأ عام ١٩٣٨ كلية بالقدس. وهو من دعاة التجديد . وقد دارت بينه وبين الأمير شكيب مساجلات فى الأسلوب واللغة .

١٣ — بندلى الجوزى : رحل إلى روسيا فالتحق بجامعة قازان طالبا ثم أستاذاً للغة العربية فيها ، فى عام ١٩٠٢ عين أستاذا للغة العربية فى جامعة باكو . كتب فى تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام وجبل لبنان وترجم عن نولدكه وفرلكن .

١٤ — قدرى حافظ طوقان : رئيس الجمعية الأردنية للعلوم . عضو الجمعية اللغوية العلمية فى القاهرة ودمشق كتب تراث العرب العلمى ١٩٤١ وله الكون العجيب دين العلم والأدب ـ الخالدون العرب والعلوم عند العرب .

ومن كتاب فلسطين والأردن أدباء زاولوا التدريس وألفوا الكتب منهم :

محمد عزة دروزة : باحث فى التاريخ العربى القديم له مؤلفات: سيرة الرسول. القرآن . المرأة . القرآن واليهود . حول الحركة العربية الاجتماعية .

محمد رفيق التميمى: مؤلف الحروب الصليبية ١٩٤٥ .

الدكتور نقولا زياده: جم فى تأليفه بين المباحث القومية العربية : وله : رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى وشخصيات عربية

والقوميه والعروبة ووثبة العرب .

خليل بيبرس : ترجم عدداً من الروايات الروسية .

محمد يوسف نجم : باحث ومؤرخ للحركة الأدبية : القصة فى الأدب العربى الحديث . وفن القصة والمسرحية فى الأدب العربى وفن المقالة .

خليل الخالدى : وقف حياته على جمع المحفوظات العربية ومراجعتها .

عبد الله مخلص : من العلماء المحققين للمؤلفات القديمة وقد حقق بعض مؤلفات ابن جابر الأندلسى وابن الصيرفى .

عارف العارف : مؤلف أغنى المكتبة العربية : مؤلف تاريخ بئر سبع وقبائلها . تاريخ غزة تاريخ عسقلان . النكبة .

برهان الدين العبوسى: مؤلف مسرحية وطن الشهيد : صور فيها مأساة فلسطين .

الدكتور إحسان عباس: مؤلف الحسن البصرى . وفن الشعر . وفن السيره والتوحيدى والحسن البصرى وكتاب الشعر لأرسطو ورسائل ابن حزم .

عنبره سلام الخالدى: مترجمة الياذة هوميروس .

عجاج نويهض : مترجم حاضر العالم الإسلامى .

عبد الرحمن بشناق : مترجم فى سبيل المجد لأرثر كاوير كاوتش .

محمد زايد : مترجم الأمبراطورية البيزنطية .

نبيه أمين فارس : مترجم العرب فى التاريخ لبرنارد لويس .

فدوى طوقان : شاعرة مجيدة . ديوانها «وحدى مع الأيام» انعكاس صادق لحياتها ومراحلها النفسية . تأثرت بشعراء المهجر وخاصة بأبى ماضى .

٥ — القصة فى فلسطين والأردن

يعد « خليل بيدس » هو رائد القصة فى فلسطين والأردن (١٧٨٥ — ١٩٤٩) كان ينشر اثاره فى مجلة النفائس المصرية . يتقن اللغة الروسية . علم فى المدارس الأجنبية فى حمص وسوق الغرب وبسكنتا وحيفا . له مؤلفات : تاريخ روسيا القديم ، والدول الإسلامية وتاريخ القدس والعرب وأبطالهم .

وقد عنى بالقصة والأقصوصة وترجم من الأدب الروسى . يقول « لا يخفى ما للروايات على اختلاف مواضيعها من التأثير الخطير فى القلوب والعقول حتى اعتبرت أنها من أعظم أركان المدنية بالنظر إلى ما تستبطنه من الحكمة فى تثقيف الأخلاق وما تنطوى عليه من العبر والمواعظ فى تنوير الأذهان » .

٢ — ومن كتاب القصة المبرزين « نجاتى صدقى » الذى عرف بالاطلاع الواسع على القصص العالمى : الروسى والانجليزى والفرنسى والاسبانى . وقد أحب بالذات بوشكين وتشيكوف ومكسيم غوركى . عمل فى الصحافة فى باريس وبيروت وفى اذاعة يافا وقبرص . له مجموعة « الأخوات الحزينات » التى تضم طائفة من أقاصيصه وهى تقوم على التفاعل بين الأديب ومجتمعه واحداث الحياة . وقد صور انطباعاته فيا خبر من بعض البلاد التى زارها وهى العراق وقبرص وباريس .

٣ — ومن رواد القصة اسحق موسى الحسينى مؤلف « مذكرات دجاجه » التى صدرت ١٩٤٣ وقال فى تقديمها « هذه القصة تصف حياة دجاجة عاشت فى بيتى . ووقع بينها وبينى ألفة ومحبة . فكنت اطعمها بيدى وأراقب حياتها يوما

فيوما . والأحداث التى ترويها وقعت لها بالفعل . وهى لاتتجاوز المألوف فى حياة الدجاج . ولو قدر لصديقتى الدجاجة أن تتكلم بلغة الأناسى لما قالت غير ما تقرأ . فأنا فى الواقع — اترجم لك ما أوحت به إلى . أما عنصر الخيال فيها فضئيل . وهو لا يعدو أن يكون تعليقا على هامش الحياة أو تحليقا فى عالم المثل العليا » وقد علل النقاد اضطراره إلى الرمز حتى يستطيع أن يعبر عن ذات نفسه تعبيراً امينا صادقا فى وقت لم تكن فيه ظروف بلده ولا ظروفه الشخصية تتيح له أن يعبر تعبيراً صريحا مكشوفاً . وقد استطاع بذلك أن يتحدث عن الاستعمار والعرب بكنايات وأوصاف وملابسات واضحة مفهومة من غير تسمية ولا اعلان

٤ — ومن كتاب القصة : شكرى شعشاعة مؤلف قصة «ذكريات» التى انتزعها من واقع الحياة وصور فيها النفس الإنسانية وسبر اغوارها . وقد تضمنت ذكرياته عن أمه وأبيه . وعبد الحميد ياسين ومجموعته « أقاصيص » وعبد الحليم عباس فى قصته « فتاة من فلسطين » وهى أول قصة صورت التشريد فى المجتمع الفلسطينى قبيل النكبة وأثناءها . ومحمد اديب العامرى مؤلف قصة « شعاع النور » وسميره غرام فى مجموعتيها أشياء صغيرة والظل الكبير وقد صورت ما يعانيه الفقراء العاملون فى سعيهم لكسب مؤنهم وما يلقون فى مجتمعهم من تحكم وظلم واستغلال

وعيسى الناعورى مؤلف « طريق الشوق » وهو من المؤمنين بأن هدف الأدب أن يكون وسيلة لتحقيق أهداف كبيرة فى نفسه ومجتمعه .

ومحمود سيف الدين الايرانى الذى يوصف بأنه أكثر ادباء الأردن وفلسطين انصرافا إلى القصة وتخصصا فيها وله مجموعة « مع الناس » . كما أن له مجموعة مقالات « أول الشوط » يضم رسائل زاخرة بارائه فى الثقافة وهو من المؤمنين بالتجديد فى المضمون والموضوع وقد سجل رأيه فى القصة فقال « الحياة هى مصدر الهامنا . فإذا لم نسو شخوص قصصنا على مثال أحيائها فلست أدرى ماذا

عسانا نفعل ومن أين نلتقط مادة ابداع أولئك الشخوص وبث الحياة فيهم وإدارة الحوادث بينهم وتصوير الجو الذى يعيشون فيه » .

٦ — نماذج من شعر نكبة فلسطين

كانت فلسطين فى نكبتها ومعركتها المقدسة الحية الباقية الممتدة مصدراً للالهام فهى باعتبارها بؤرة معركة «التجمع والمقاومة» قد هزت الشعراء فى كل مكان وكان شعراء فلسطين بالطبع فى مقدمة من تأثروا بالاحداث أمثال ابراهيم طوقان وفدوى طوقان وعبد الرحيم محمود وابراهيم الدباغ وأبو سلمى ومحمود الحوت وكمال ناصر وهارون هاشم رشيد وعلى هاشم رشيد .

ويعد هارون هاشم رشيد من أعمق شعراء فلسطين تأثرا بالمأساة فقد عاشها وصورها ووقف شعره كله عليها . وفى أثناء العدوان الثلاثى كان فى غزه فظل مختبئا بها خمسة وسبعين يوما إلى أن وقعت فى يد الجيش الاسرائيلى رسالة بريديه مرسله من بيروت تحوى ٥٠ نسخة من ديوانه « عودة الغرباء » وقام الاسرائيلون بالبحث عنه مرة أخرى وهنا اضطر إلى الهرب من غزة فى وضح النهار وله ديوان آخر هو « مع الغرباء » . ومن دواوين شعر فلسطين « المعركة » لمعين بسيسيو والمشرد لأبى سلمى والمهزلة العربية لمحمد الحوت وهذه نماذج من شعر فلسطين :

١ — محمود الحوت[1] .

يافا : لقد جف دمعى فانتحبت وما ... متى أراك وهل فى العمر من أمد
أمسى وأصبح والذكرى مجددة ... محمولة فى طوايا النفس للابد
كيف الشقيقات ؟ واشوق لها مدنا ... كأنها قطع من جنة الخلد
ما حالها اليوم يايافا وهل نعمت ... من بعد أن سلمت يدا بيــــدا

---

(١) من ديوان المهزلة العربية : بغداد ١٩٥١ .

وكيف من تبقى فى مرابعها وقد تركناه فيها ترك ملتحد

٢ — عبد الرحيم محمود :

سأحمل روحى على راحتى وألقى بها فى مهاوى الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدى
وما العيش لا عشت إن لم أكن مخوف الجناب حرام الحمى

٣ — كمال ناصر :

فيا شعب أما أردت الحياة ورمت السمو ورمت الكمال
فذا ملعب الموت فاخطر به وشد إلى ساحتية الرحال
فإن يد الشعب إن أطلقت تعلق للمجرمين الحبال

٤ — فدوى طوقان :

اختاه هذا العيد رف سناه فى روح الوجود
وأشاع فى قلب الحياة بشاشة الفجر السعيد
وأراك ما بين الخيام قبعت تمثالا شقيا
يطوى وراء همودة الماعتيا
يرنو إلى اللاشىء منسرحا مع الأفق البعيد
اترى ذكرت مباهج الأعياد فى يافا الجميله
اهفت بقلبك ذكريات العيد أيام الطفولة
إذ أنت كالحسون تنطلقين فى زهو غرير
والعقدة الحمراء قد رفت على الرأس الصغير
والشعر منسدل على الكتفين محلول الجديله

٥ — ابراهيم طوقان

١ — أجسادهم فى تربة الأوطان   أرواحهم فى جنة الرضوان

وهناك لاشكوى من الطغيان   وهناك فيض العفو والغفران

لاترج عفوا من سواه   هو الإله

وهو الذى ملكت يداه   كل جاه

جبروته فوق الذين بغرهم   جبروتهم من برهم والأبحر

٢ — ليست فلسطين الرخيصة غير مهد للشقاء

عرضت لكم خلف الزجاج عيس فى حلل البهاء

هيهات ذلك أن فى بيع الثرى فقد الثراء

فيه الرحيل من الربوع غداً إلى وادى الفناء

فاليوم أمرح كاسيا وغداً سأنبذ بالعراء

وأضمت صادقة الرجاء فأين كاذبة الرجاء

من ذا ألوم سوى بنى وطنى على هذا البلاء

٣ — عرج على حطين وأخشع يشج قلبك ماشجانى

وأنظر هنالك هل ترى آثار يوسف فى المكان

وأيقظ صلاح الدين رب التاج والسيف اليمانى

ومثيرها شمواء أيوبيه الخيل الهجان

بالعاديات لديه صبحا والأسنة فى اللبان

ترمى بمارجها وما غير العجاجة من دخان
من كل خطار على الأخطار صبار الجنان

٦ — القدس : لعمر أبو ريشه

والقدس ؛ ما للقدس يخترق الدما وشراعه الآثام والأوزار
أي العصور هوى عليه وليس فى جنبيه من أنيابه آثار
عهد الصليبين لم يبرح له فى مسمع الدنيا صدى دوار
صف الملوك فما استباح إباؤهم شرف القتال ولا أهين جوار
ناموا على الحلم الأبى فنفرت منه الطفوف نبوة فجار
صلبوا على جشع الحياة وفاءهم ومشوا على أخشابه وأغاروا
ولكل كف غضة سكينة ولكل عرق نابض مسمار
مدوا الأكف إلى شراذم أمة ضجت بنتن جسومها الأمصار
ورموا بها البلد الحرام كما رمت بالجيفة الشط الحرام بحار

٧ — اللاجئين : سمير على قدرى

الليل كالعملاق يضرب فى البطاح
والرعد يقصف والغيوم
والحائرون البائسون . مشردون على الطريق
يرمون بالآمال فى نير الشقاء
ويمزقون الليل فى ألم وضيق
وعلى الوجوه الشاحبات، مرارة العيش الكئيب

والأعين المتقرحات الذابلات من النحيب
وعويل أفئـــدة يؤرقها الحنين
وبكاء أرواح من الأفق البعيـــد
يتســاءلون مــتى نعــود
وأنسابت الأحـــلام كالنهر الوديع
ومضت تدمدم فى حقـــول الذكريات
لم لا نعود
لم لا نعود ونهجر الذكرى المريرة والدموع
ونودع المــاضى الحــزين
ونعيش ملء حياتنا والظلم يطويه الفناء.
لم لا نعـــود إلى الديار
الليـــل يمضى والنهـــار ولا نعود
فمتى نعود

٨ — رفيق المهدوى — فلسطين

أبعد فلسطين الشهيدة عنـــدنا سرور وعيـد ، نحن بالحزن أخلق
فلسطين فى الأعماق مازال جرحها يمج دما أو أدمعـــا تترقرق
فلسطين لولا الغرب ماجاس حولها لشـــذاد إسرائيل شعب ملفق
ولا صار ذكر اللاجئين إذا نما إلى عربى قلبـــه يتمزق

٩ — فلسطين : معين بسيسو

نحن المحترقون على صلبان الكلمات
كى تولد شمس الانسان
فى قلب قصيدة
ونصوغ الأنشودة
ونصوغ الأوزان
لخطى الانسان
تلك هى الرآية والمغزل
الجدول لاينسى المنبع
وطريخ الأصفاد
يحلم بجواد
وبسهل مفتوح الأذرع
وسنزرع لمن نقلع
فى روض المتنبى الأزهار
فهل تسمع
أجراس الفخار وهل تقرع

١٠ — هارون[1] هاشم رشيد

إليهم قصـــيدى وما أنظم وشعرى وما فى دمى يضرم
إليهم ؛إلى إخوتى اللاجئين إلى إخوتى يوم يدعو الدم
إليهم وإن سكنوا فى الكهوف وفوق ربى الأسى خيموا

(١) من ديوان « مع الغرباء » صدر ١٩٥٤ .

إليهم وأن حطمتنا الخطوب ... وأرهقنا الحادث المؤلم
وجار علينا الزمان العتى ... وأنهكنا الناب والميسم
إليهم ساشدو بشعر الحياة ... سأشدو واشدوا واستلهم

٢ — عائدون

عائدون عائدون ... أننا لعائدون
فالحدود لن تكون ... والقلاع والحصون
فاصرخوا يانازحون ... أننا لعائدون

١١ — فلسطين : (أبو سلمى) عبد الكريم الكرمى[1]

يا أخى أنت معى فى كل درب ... فاحمل الجرح وسر جنبا لجنب
نحن أن لم نحترق كيف السنى ... يملأ الدنيا ليهدى كل ركب
سر معى فى طرق العمر ... وقل أين من يحمى الحمى أو من يلبى
فهنا الأيتام فى أدمعهم ... وهنا تهوى العذارى مثل شهب
وشيوخ حملوا أعوامهم ... مثقلات بشظايا كل خطب
هم ضحايا الظلم هل تعرفهم ... أنهم أهلى على الدهر وصحبى
يارفاق الدهر هل شردكم ... فى الورى غدر عدو أو محب
زعماء دنسوا تاريخكم ... وملوك شردوكم دون ذنب
وجيوش غفر الله لها ... سلمت أوطانكم من غير حرب
دول ! تحسبها شرقية ... وإذا أممنت فالحاكم غرب
يوم هزت للوغى راياتها ... حكمت فيه على تشريد شعب

١٢ — فلسطين : يوسف الخطيب

أما ترانا فى الدجى تنقلى ... وموعد الثأر ينادينا

(١) ديوان المشرد ١٩٥٣ .

نسعى إلى الفجر وما نأتلي | تمزق الليــــل أياديـنـــه
إن كنت لا تعرف من أمتي | فاسأل عن العرب الميادينا
نكاد من سورة الآمنا | نتخذ الحقـــد لنا دينا
سنلتقي يوما على موعـــد | للثأر في يافا وفي الكرمل
سيجمع التاريخ أشتاتنا | واحدة الراية والجحفل
وثم نمضي في ائتلاق الضحى | إلى مراقي مجـــدنا الأول
ويعـــلم الشذاد من أمتي | وأي دار حـــرة موئلي
فليزرعوا في الرحب آثامهم | ها نحن الونيا على المنجـل

١٣ — عيسى الناعوري

ن يرتضي الفردوس داراً له | وداره ندعوه أن يرجعا
ولن يهاب الموت من أجلها | ولن يخاف النار والمدفعا

في روحه عزم يذل الصـــعاب
ويسحق الهول ويفني العدى
فلتعصف الدنيا وويلاتهـــا
ولتزيد الهول ويطغ الردى

في أذنه صوت حبيب حنون | يدعوه في شوق : متى ترجع
لبيك لبيك نداء الوطن | لبيك اني سامع طيّع

وارتفعت يمنـــاه في دعوة
إلى الحمى إلى الحمى يارفاق

---

(١) عيسى الناعوري : ديوان أناشيد — ١٩٥٦ .

أن الحى أذرعه نحـــونا
مفتوحة مشـــتاقة للعناق

١٤ — معين توفيق بسيسو[١]

أنا إن سقطت فخذ مكانى يا رفيق فى الـكفاح
وأحمل سلاحى لا يُخفك دمى يسيل من السلاح
وانظر إلى شفتى أطبقتـــا على هوج الرياح
وأنظر إلى عينى أغمضنا على نور الصـــباح
أنا لم أمت ، أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

* * *

البحر يحكى للنجوم حكاية الوطن السجين
والليل كالشـــحاذ يطرق بالدموع وبالأنين
أبواب غزة وهى مغلقة على الشعب الحزين
فيحرك الأحياء ناموا فوق أنقاض الســـنين
وكأنهم قبر تدق عليـــه أيدى النابشين

١٥ — خليل[٢] زقطان

« مخيمات البؤس ومواطن الحرمان التى أرادها لها المستعمر فمهد لها قبل ثلاثين عاماً مستعينا على تنفيذ خططه بتجار السياسة وباعة الضمائر » .

(١) ديوان المعركة ١٩٥٣ .
(٢) ديوان صوت الجياع — ١٩٥٢ .

أنا قد صحوت على الجراح تسيل من بعضى لبعضى
أنا قد صحوت وإذ أنا ملقى بأرض غـير أرضى
أنا من هناك فـكيف أحيا هكذا فى الـكون عاله
ويظل مأكلى الفتات ومشربى هـــذى الفضاله
وأظل مرتقبا مصـــيرى إذ تقـــرره الحثالة
لا كان يا دنيا الذى لم يُسمع الدنيـا نضاله

٤ — لبنان

يمثل لبنان الجزء الساحلى من الشام وقد عاش مدى التاريخ الطويل له طابعه الخاص . جباله وأرزه وارتباطه بساحل البحر الأبيض المتوسط وأقطاره وحضارته القديمة . وقد رسم بعض أدباء لبنان صوراً له تناولت حياتة وأثره الفكرى

يقول مارون عبود : لبنان هو الأولمب الأول . من قمه المتمردة رفع بنوه عرشا لهركيل ومسرحا لادونيس وخدراً للزهرة . تصوروا راهبا لبنانيا هو المطران جرمانوس فرحات يتنقل فى أواخر القرن السادس عشر بين أعمدة جامع قرطبة ، ومحرابه يتأمل باعجاب وجلال آثار ذلك الفردوس المفقود . وتحرك الخيال اللبنانى بعد حين فرأينا كاهنا آخر يركب البحر إلى رومه . لقد أبحر السمعانى حاملا على سفن أجداده حاصلاتنا الثقافية وفى مكتبة الفاتيكان هدأ روع العربية الملهوفة .

وتحرك الخيال اللبنانى فاذا اليازجى يقف بإزاء الحريرى وانتفض ذلك العرق الأصيل فى احمد فارس الشدياق نخلق الأدب الجديد فى الفارياق وكشف المخبا وكان من ذريته النبيلة اسحق والحداد وعبده وصروف وزيدان وتقلا .

وأبى الخيال اللبنانى أن يستقر فعاد مارون النقاش من أوروبا يحمل إلينا المسرح ، وهب الملم بطرس القبانى يطعم ويلقح فأخرج من جنانه ثماراً جديدة شهية . ثم ضاقت بالخيال اللبنانى أرضه كما ضاقت من قبل فكانت الهجرة الثانية إلى الأقطار التى اكتشفها اللبنانى الأول . وأبى الخيال اللبنانى أن يهدأ فكانت المدرسة الرومانطيقية الرمزية فخلقت القصة والشعر والنثر الجديد . أنه لدم جديد لقحت به مدرسة جبران والريحانى أدبنا العربى .

وقال داود بركات « اللبنانيون قوم شهد لهم التاريخ إنهم ما ذلوا لفاتح

او غاز . وقفوا على قمم الجبال والغزاة من حولهم يندفعون كالبحار الزاخرة وعواصف القوة تعصف بهم فتجتاح الممالك وتثل حولهم العروش وهم كجبلهم الراسخ إن ماتوا ماتوا كراما وإن عاشوا عاشوا كراما . ولذلك لا نخشى إذا ذكر الاستقلال والشمم أن نقول : نحن لبنانيون .

ويقول سعد عقل « إذا اتفق لشعب أن وجد فى بلاد ذات طبيعة جميلة ومختلفة . بلاد تغص بالجبال المختلفة الألوان هنا الأخضر وهناك البنفسجى فالأدكن فالأحمر فالأبيض . بلاد تهدر فيها الانهار وتموت على أقدامها الخلجان بحمومر شفقها كالخدود ، تزورق سماؤها كالعيون . يصخب شتاؤها بالغضب ويموج ربيعها كحلى العروس . أخذ هذا الشعب يمزع أنظاره وإحساسه على الجمالات فيحسها وتحسبها زيادة لاختلافها . يعجب بما يحبها ، يكرمها ، يقدسها ، وأخيراً يؤلهها فاذا البحر إله والنهر حورية والغابة جنية والسماء إله والصدى خيلانه والأسماك نياب بحر »

ويقول الدكتور زكى المحاسنى : إن طبيعة لبنان أودعت مزاج أهله الهاما وطموحا . ومن طبع اللبنانى أنه نزاع إلى الرحلة والسفر ، رائد للرزق تحت كل شمس . و تأثر اللبنانيون بالثقافة الفرنسية . ونبغ منهم من أجاد الشعروالنثر بلغتها وإن كل نهضه فى غير لبنان قامت بها الحكومات إلا لبنان . والمرأة اللبنانية ذات أثر كبير فى نشر الثقافة النسوية والفنية وقال شوقى :

لبنان والخلد اختراع الله لم   يوسم يا زين منهما ملكوته

٢ — الثقافة اللبنانية العربية

كانت المدرسة الوطنية التى أنشأها المعلم بطرس البستانى ١٨٦٣ أول مدرسة تخرج فيها صفوة من الأدباء اللبنانيين الذين كانوا عدة الكليتين الأمريكية

واليسوعية فى تعلم اللغة العربية . وكانت كتب التعليم فى هذه المدارس هى كتب الأزهر[1] « بعد أن بيض اللبنانيون أوراقها الصفر وسهلوا أساليبها الوعرة وقرنوا قواعدها الجافة بالأمثلة الشارحة والتطبيقات المدربة » . ثم كان من البستانين سليم وسليمان . وكانت المدرسة الثانية هى المدرسة اليازجية خليل ونصيف وابراهيم اليازجى . وقد انشقت من هذه المدرسة اليازجية المحافظة مدرسة أخرى تتميز بالشاعرية والطرافه والانطلاق والتمرد هى مدرسة جبران ومن أتباعهاميخائيل نعيمة وأمين الريحانى ومى زيادة ؛ وقد حفظ لبنان بالاشتراك مع مصر التراث العربى فى عهد الأتراك العثمانين وطبع آلاف الكتب وأصدر عشرات المعاجم العربية . وكانت المجموعة الضخمة التى ذهبت إلى المهجر من لبنان فى الأغلب . وكان لبنان مصدر هذا اللون الجديد من الأدب . ويعد الشيخ نصيف اليازجى مركز الدائرة فى الصلات الفكرية بين مصر ولبنان وله ديوان عنوانه فاكهة الندماء فى مراسلات الأدباء . وكان ناصيف يحفظ القرآن وديوان المتنبى . ومن رواد الأدب العربى فى لبنان الشيخ يوسف الأسير اللبنانى الذى تتلمذ على الشيخ حسن العطار وعمل أستاذا للآداب العربية فى طرابلس وصحح عبارة الكتاب المقدس وكان أستاذا للمستشرق الدكتور غالى سميث كما علم العربية للدكتور فان ديك وكان من أعمدة المدرسة التى أنشأها بطرس البستانى فى بيروت ١٨٦٦ .

٢ — تأثر الأدب العربى اللبنانى بالثقافة الفرنسية وكان الرهبان الموارنة قد أسسوا عام ١٦١٠ مطبعة ذات حروف سريانية والمعروف أن المطبعة العربية ببولاق أنشأت ١٨٢١ ومطبعة حلب ١٧٠٠ وبذلك كانت أسبق البلاد العربية

(١) أحمد حسن الزيات .

إلى العناية بالثقافة . ويقول الدكتور زكى المحاسنى[1] . لقد كان للموارنة أثرهم فى فضل تعريف مواطنيهم بنماذج من الثقافة الغربية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت لأن خريجى الكلية الشرقية خاصة نشروا فى أوربا معارف الشرق : لغاته وتاريخه ودياناته وآدابه .

ويقول أحمد حسن الزيات : كان اللبنانيون لبعدهم عن بيئة القرآن وتأثرهم بأسلوب الانجيل وكثرة اختلاطهم بالفرنسين والإمريكين وشدة احتياجهم فى الترجمة والصحافة إلى تطويع اللغة وتوسيعها لتعبر عن المعانى الحديثة — كانوا أشبه بالكوفيين فى تقديمهم القياس . وقبولهم الكلمات المولدة والنصرانية واقتباسهم بعض الأساليب الأوربية . وتساهلهم فى بعض القواعد النحوية والتراكيب البلاغية ولذلك رماهم الدرعميون بضعف الملكة وسقم الأداء وقصور الآله . ولكن الحق أن المدرسة اللبنانية كانت عملية تقدمية حرة ، واكبت الزمن فى السير وطلبت العلم للعمل وسخرت الأدب للحياة وقد طوقت العربية منها أيادى مشكورة بما أمدتها به من مصطلحات الفنون الجميلة وأسماء المخترعات القديمة عن طريق الترجمة والتأليف والتمثيل والصحافة والتجارة ثم كان فى جانبها الزمن وفى مؤازرتها الطبيعة . . » .

٣ — مرت المدرسة اللبنانية بثلاثة أطوار (١) التقليد والمحاكاه (٢) التحرر مع الاعتدال (٣) التحرر مع الانطلاق . فكتاب مشهد الأحوال الذى كتبه مراشا الحلبى كان تقليداً لابن حبيب الحلبى فى نسيم الصبا . وكتاب مجمع البحرين الذى كتبه ناصيف اليازجى تقليداً للحريرى فى المقامات . وكتاب لغة الجرائد الذى كتبه ابراهيم اليازجى كان تقليداً لنهج الحريرى فى دره الغواص .

---

(١) ص ٢٠١ كتاب النهضة العربية .

ويقول سعيد عقل زعيم الرمزية فى الأدب اللبنانى : إن لبنان هو أقرب إلى الآداب الغربية من أى قطر آخر . وقد ظل الأدب اللبنانى فى هذه الفترة التى أعقبت الحرب بعيداً عن التطورات فهو هو « قصيدة وخطاب » بعيداً عن الابداع وقفت آفاقه عند هذه الحدود الضيقة التى تصله بأدب قبل الحرب إلا بفروق ضئيله وكان لبنان قد اكتفى بادبائه وشعرائه الذين أرسلهم إلى مصر وإلى المهجر فى أواخر القرن التاسع عشر واكتفى بهذا المجد الذى ضفره على هامته اليازجيون والبستانيون والشميل والمطران وصروف وزيدان ولولا هذه الكتب التى نشرها الريحانى وجبران ونعيمة وبعض انبثاقات شعورية وقطع من الشعر المنثور تمت إلى أدب جبران وتقلده تقليدا ممسوخا لولا هذه الألوان لخلا لبنان من أى أثر فنى يذكر » .

٤ — وقد صور سامى الشفيقى[1] تيارات الحياة الأدبية فى لبنان فقال : أن الشاب اللبنانى حائر بين الأدب الغربى والأدب العربى . يقبل على الأول لأنه يرضى ذوقه وثقافته ويجذبه إلى الأدب العربى نوع من الشعور الوطنى .

وإن الأدب اللبنانى يتجه نحو القصة (خليل تقى الدين . رئيف الخورى . توفيق عواد) وقد تطورت عقلية النشء الجديد من الأدباء على نحو الأدب الفرنسى الحديث . وأشار الكاتب على « عصبة العشره » التى تبث روحا جديدا فى الادب وجهت خطواته على غرار الأدب الغربى الحديث .

٣ — تطور الشعر اللبنانى

الشعر اللبنانى جزء من الشعر الشامى وقد تعرض كما تعرض الشعر السورى لنفس العوامل : قاوم الاستبداد العثمانى والاحتلال الفرنسى وأكد الشخصية

(١) الرسالة سنة ١٩٣٦ .

العربية وتأثر بأحداث الأمه العربية وحمل راية العلياء والعزة والكرامة .

وقد جرى فريق من هؤلاء الشعراء مجرى شعراء العرب فى حرصهم على اللغة ومفرداتها ولكنهم تأثروا بأحداث الأمة ومناحى الفكر العصرى فهم شعراء عرب من حيث الديباجة والسبك أثرت فى شعرهم النزعة الوطنية .

يقول نصيف اليازجى :

بناء العلى بين القنا والبوارق على صهوات الخيل تحت البيادق
ولله سر فى العباد وإنما قليل محل السر بين الخلائق

ويقول الياس صالح :

تلك السفينة بالله مسراها على دموعى مسراها ومرساها
تجرى وفى قلبها النيران موقدة مثلى كأن هوى الأوطان أشجاها

ويقول نسيب أرسلان :

يا ناهضين إلى العلا تداركوا وطناً لكم من ذلة وخراب
إن الأمانى الغر قد نيطت بكم هل يحمل الأعباء غير شباب
ردوا لنا المجد الذى قد فاتنا وكأنه سلب من الأسلاب
علَّ الديار تعز بعد صغارها يا ربما نهض الجواد الكابى

ويقول شكيب أرسلان:

مواطن اخوان تملوا من الردى كؤوساً تساقوها بملء الحلاقم
دفاعاً عن الأوطان ان دفاعها لدى كل قوم كان أولى المكارم

ويقول رشيد نخلة :

لغد يا نفس إن يأت الغد بين موتى وحياتى موعد

أنا إما مائت لا يرتجى   أو طليق ليس تعلونى يد
إن أكن أحيا للبنان   أكن رغم ما يلقى الكريم المنجد
أو أكن ميتاً فنى لبنان لى ذمة   طابت وعهد جيد

ويقول سليمان البستانى :

ذكرت لبنان وهاج الحنين   فؤادى العانى لذاك العرين

ويقول صلاح لبكى فى كتابه « التيارات الأدبية الحديثة فى لبنان» إن هؤلاء الشعراء « ظل شعرهم وفيا للمثل القديمة فقل تأثرهم بمناهل الغرب ونظرياته . ظلوا على الغالب « وصفيين » الا ما عبروا عن إحساس وطنى أو عن عاطفة تحركها الشفقه والبر . هدرت العاطفة الوطنيــة حتى فى أغراض النسيب . ولكنهم لم يحسنوا التعبير إلا فى ما ندر . وكانت الأحداث التى ألهمتهم أكبر من فنهم ولربما كان انفتاح أعينهم فجأة على روائع أدب الغرب هو الذى بهرهم وأعجزهم إلا عن شىء من التمتمة فى موضوع الحنين . أو لربما كان وجودهم فى قلب المعمعة قد حال دون تجسيد العاطفة ضمن إطار الفن » .

٢ — الفئة الثانية من شعراء لبنان هم الذين يطلق عليهم « المخضرمين » أو الرومانتيكيين الذين غلب على شعرهم الارتباط بنظريات الغرب وفى مقدمتهم الشيخ اسكندر العاذار وسليمان البستانى الذى ترجم الإلياذة شعراً ونقولا رزق الله وسليم عازار والياس فياض ونقولا فياض وأمين تقى الدين .

ويعد « بشاره الخورى » الأخطل الصغير فى نظر صلاح لبكى « النجم الذى سطع نوره من أفراد الحلقة ـ وهو من تلاميذ الشيخ العازار ـ فنفذ إلى قلب كل قطر من الأقطار العربية.

٣ — نشأ فى لبنان من بعد مدرستان : الرومانتيكية بقيادة بشارة

الخورى والرمزية التى يتزعمها سعيد عقل . وقدهاجم الرمزيون الأدب الرومانتيكى وقال سعيد عقل : إنه لا يقيم وزنا لشاعر يعيش على ساحل البحر الأبيض المتوسط تغسل أقدامه الأمواج ويكلله صنين (جبل) بتيجانه ثم يحمل نفسه إلى الصحراء ليوشى قصائده . ويعد صلاح لبكى : الأخطل أبا للرومانتيكية والرمزية .

وقد صور عمر فاخورى هذا الاتجاه إلى الرومانتيكية فى لبنان [1] فقال :

«الأدب العربى بين أمرين لا ثالث لهما؛ إما أن يظل محافظا يحيا بمادته متآكلا مجترا . ويعيد نفسه كرجع الصدى ويتقمص رجاله بعضهم بعضاً وإما ... بل ثمة أمر واحد لا مناص منه هو ما نراه . وما ليس لأحد من دفعه يدان . يعنى التبديل الطارىء على أدبنا الحديث . بفعل عناصر خارجية أجنبية . ليس الأدب العربى جزيرة فى عرض الاقيانوس ينتظر كولومبس . ولا روحنا صخرة تتحطم عليها هذه الثقافات العربية الجائحة الفاتحة الهائجة المائجة ، وإذا كان التبديل طارئاً على حياتنا فى كل مظاهرها : فأين نجعل أدبنا كى لا يناله تبديل ؛ هذا هو الطوفان ولا عاصم اليوم » .

ويقول صلاح لبكى أن الرومانتيكية والرمزية ظهرا معاً وتواكبا ، ولم يتقدم أحدهما الآخر. وأبرز فرسان الرومانتيكية : أديب مظهر ويوسف عضوب والياس أبو شبكة وخليل تقى الدين وميشال أبو شهلا . ويرجع صلاح لبكى هذا الاتجاه إلى توثق صلات لبنان بالأدب الفرنسى .

٤ — ظهرت بواكير الرمزية عام ١٩٣٣ . بدأها « أديب مظهر » بقصيدته النسيم الأسود « وقد كان مدعاة لتحول الناشئة من الشعر الروحى الصوفى

---

(١) مقدمة القفص المهجور : يوسف عضوب

المهجرى إلى الشعر الرمزى . واستهوت الرمزية الشعراء الطالعين بما أنطوت عليه من فيض نورى ومن حركة ومن هدم لمعالم المحدود من المحسوسات التى تداخل بعضها لبعضها الآخر .

٤ — القصة اللبنانية

لعل من أبرز ما يذكر فى هذا المجال أن القصة العربية بدأت من لبنان وفى وقت مبكر جدا عند ما كتب ناصيف اليازجى قصة : « مجمع البحرين » (١٨٥٠) وأحمد فارس الشدياق : « الساق على الساق » وسليم البستانى : « زينوبيا » وجميل نخلة المدور : « حضارة الإسلام فى دار السلام » وفرح أنطون : «أورشليم الجديدة » ونقولا حداد « حواء الجديدة » ويعقوب صروف : « فتاة مصر » وأمين الريحانى : « خارج الحريم » وجرجى زيدان فى قصصه التاريخية . وقد أصدر طانيوس عبده مجلة قصصية « الراوى » كما أصدر نقولا رزق الله مجلة «الروايات الجديدة » .

ثم كتب القصة العربية اللبنانية فى هذا القرن: ميخائيل نعيمه وكرم ملحم كرم وتوفيق يوسف عواد وخليل تقى الدين ومارون عبود وسعيد تقى الدين . وللبنان فضل الريادة فى تأليف الأدب المسرحى ويعزى هذا إلى مارون النقاش ويرى سهيل ادريس «ان الجيل الأول» أنتج أدبا بعيداً عن الابداع لأنه كان محض تقليد للقصة الغربية التى غزت البلاد آنذاك بلغتها الأصلية أو بترجماتها».

وفى هذه المرحلة ظهرت القصة التاريخية مستلهمة تاريخ لبنان البعيد :

قصة الكفارة : الخورى توما أيوب : تستوحى موضوعاً تجرى حوادثه بين روما والقدس ٤٠٨ ق. م .

« أنيسه » : ميشال جاموس : تصور حوادث القرن ١٨ فى عهد جمال الدين التنوخى حاكم لبنان العربى .

« على عهد الأمير » : فؤاد أفرام البستانى : لوحات عن العادات والتقاليد فى عهد الأمير بشير الكبير .

« لمـــاذا » : الخورى مارون غصن: قصة عن عهد الأمير بشير ١٧٩٧

ثم جاء الجيل الثانى «فحاول أن يخلق القصة اللبنانية الحقيقية وتوسل إلى ذلك باستلهام الأرض اللبنانية والشخصية اللبنانية والروح اللبنانية أى أنه انتج القصة ذات اللون المحلى » .

ويرى سهيل إدريس أن العصر الذهبى للأدب القصصى فى لبنان يمتد من ١٩٣٠ — إلى ١٩٣٩ وهو ما أطلق عليه الجيل الثـانى حيث ظهر كرم ملحم كرم وتوفيق عواد وخليل تقى الدين ومارون عبود وسعيد تقى الدين وسهيل ادريس وكان اتجاههم إلى اللون المحلى والروح الواقعية .

أما الجيل الثالث : فهو جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية : « الذى ما زال حتى اليوم يغذى القصة اللبنانية بانتاج يتراوح بين الجيد والوسط « ولـكنه لم يتمكن حتى الآن — لسبب حداثة عهده — أن ينتج أدبا قصصيا ذا سمات بارزة » .

٢ — ترسم القصة اللبنانية صورة الطغيان والإقطاع والاستغلال الدينى وغير الدينى وانتشار الفقر والجهل . والموضوع الأول فى القصة اللبنانية هو : « الهجرة » . «لهذا[٢] كان نموذج المهاجر هذا الذى غادر أرضه سعيا وراء

---

(١) سهيل ادريس : القصة فى لبنان (ك) .
(٢) نفس المصدر .

الرزق والمجد فى المهجر البعيد البعيد بطلا مألوفاً لدى كتاب الفترة . والحبكة التى تدور حولها حكاية المهاجر هى هذا الصراع الذى ينبعث فى نفسه بين وصفه فى العالم الجديد ووصفه فى البلد الذى هجره . وصراع بين حاضر يطبعه جمع المال ومواجهة المادية والعيش فى وسط الآلة وبين ماض قد يكون الفقر والحاجة والعوز أبرز مظاهره ولكن ذلك كله مقترن بعاطفة إنسانية تربط المرء بمسقط رأسه وتملأ صدره بالحنين والحب.. ولا شك أن « الهجرة » هى أهم موضوعات القصة اللبنانية منذ نشأتها إلى اليوم وهى ميزة يكاد ينفرد بها النتاج اللبنانى سواء أكان قصة أم شعراً . وليس من الغريب أن ينصب هذا الانتقال من أرض إلى أرض صراعاً بين الأرض كان ينتهى فى أول أمر الهجرة بانتصار الأرض الأم مسقط الرأس إذ غالباً ما كان المهاجر يعود إما مخفقاً فى بلوغ ما كان يصبو إليه من الغنى والثروة والجاه أو منكراً هذه الآلية المادية التى تكاد تنزع الإنسان من إنسانيته فيرجع إلى بلده راضيا بأن يعيش فى أرضه مجدداً العزم على أن يحيى هذه الأرض . هذه الصديقة الوفية التى يعيش فى كنفها قانعاً .

● كانت «الأرض» من أقوى أبطال القصة اللبنانية : فهى تجسد همّاً من أعمق هموم الفرد اللبنانى لا سيما القروى . وقد شارك فى تصوير هذا البطل جميع كتاب القصة على وجه التقريب . فقد بدأنا نجد الأرض فى آثار نعيمة ثم مع فؤاد البستانى والخورى غصن ثم التقينا بهـا فى المرحلة الثانيـة كرم وعواد وخليل تقى الدين ومارون عبود وكذلك لقيناها كثيراً مع سعيد تقى الدين ، وما زالت حتى الآن تحتل مكاناً كبيراً فى الإنتاج المعاصر .

● كان تطور فكرة الأرض فى آثارنا القصصية يماشى تطورهـا فى حياة المهاجرين أنفسهم . فبينما كانت الأرض فى ضمير المهاجرين الأول خيالا حبيبا إلى نفوسهم يجسد الحنين ويدعو إلى العودة بهت شبحها قليلا فى نفوس الدفعات

الثانية من المهاجرين الذين قصدوا العالم الجديد فى أعقاب الحرب العالميه الأولى. فتمكنوا من أن يوفروا لأنفسهم فيها قدماً ثابتة ربطتهم بالأرض الجديدة والمعيشة والمصلحة .

• وتمثل «الأرض» فى هذا النتاج رقعة واسعة ترتبط بالقرية ارتباطاً يدخل أصحابها فى صراع مع المدينة . فكأن القرية هنا هى مسقط الرأس . والمدينة هى المهجر البعيد . وهى بهذا تقدس القرية التى تقوم فيها الأرض الأم وتحذر من المدينة التى تغشى بأنوارها عيون القرويين .

• فى بعض أقاصيص هذه الفترة تصوير لمهاجرين يعودون ولكنهم يعودون وقد فقدوا صلتهم بتقاليدهم الموروثة وعادات أرضهم القديمة . فهم لن يلبثوا طويلا حتى يرجعوا إلى موطنهم الجديد (أقاصيص عبود وكرم) ثم ضعف موضوع الهجرة وارتباطها بالأرض فى الانتاج القصصى الأخير .

وقد عالجت القصة اللبنانية كثيراً من مظاهر المجتمع اللبنانى : ومن أهم هذه المظاهر : الاقطاعيتان الدينية والرأسمالية (أقاصيص جبران وعبود) .

• صورت الاقطاعية الرسمالية فى بعض انتاج عبود وعواد تصويرا مقتضباً لا يتناسب وخطورة هذه الآفة ، وتأثيرها فى المجتمع . وقد قصرت القصة اللبنانية فى تصويرها هذه الاقطاعيــة التى تخلق زعامات مزيفة تنصب من أصحابها انصاف آلهة يقدسون ويبجلون ويفرضون على البلاد نوعاً من التوجيه يحول دون تقدمها » .

• أسهب القصصى اللبنانى فى تصوير الطبيعة التى تتجلى بها لبنان وتصوير العادات والتقاليد والعلاقات البشرية التى تطبع الحياة اللبنانية فى القرى والمدن».

• يؤخذ على النتاج القصصى اللبنانى انه لا يعالج مشكلة الطائفية فى لبنان،

هذه الآفة التى تشد البلاد كلها إلى عجلة الجمـــود والتأخر وتمنع الوطن من أن يتطور التطور الذى تقتضيه مصلحته والمصلحة العربية العامة » اه .

٣ — وعندى أن القصة اللبنانية شاركت مشاركة فعلية فى اليقظة العربية ، فقد صور توفيق يوسف عواد فى قضية الرغيف (١٩٣٩) البعث العربى كله . وجعل تسجيلها ليقظة الوعى الوطنى فى مختلف البلدان العربية . وهى شبيهة برواية توفيق الحكيم «عودة الروح» ولـكنها تصور حركة أوسع وأشمل . وصراعاً دخلت فيه جميع الشعوب العربية لا شعباً واحداً فقط وكان هدفها الدعوة إلى الوحدة الـكاملة . وقصة « قوس قزح » لشكيب الجابرى الذى صور فيها عشية الثورة العربية عام ١٩١٦ حيث كانت الأمة العربية تتجمع للتحرر من النير العثمانى وأعدم عدد من الأبطال على أيدى الترك . وتصور المجاعة التى أصابت لبنان بعد الثورة وما وقع من تخريب . وهؤلاء أبرز كتاب القصة :

كرم ملحم كرم : صاحب مجلة الف ليلة وليلة . أغزر الـكتاب اللبنانيين . له ترجمات واقتباسات عن الفرنسية . استأنف عمل طونيوس عبده . أصدر أشباح القرية (١٩٣٨) وصرخة الألم (١٩٣٩) والشيخ قرير العين ١٩٤٤ ودمعة يزيد تصور دهاء معاوية وقهقهة الجزار تصويراً لعهد الجزار فى لبنان .

توفيق يوسف عواد : يبرز اللون المحلى فى أغنى مظاهره . ويصور الشواغل الاجتماعيه فى أعمق معانيها . ويحلل بدقة النفسيات الجديدة والنزعة الإنسانية . أصدر الصبى الأعرج (١٩٣٦) قميص الصوف ١٩٣٧ . الرغيف ١٩٣٩ العذارى ١٩٤٤ انصرف عن القصة إلى الصحافة فالسلك السياسى .

خليل تقى الدين : اشتهر باللون المحلى · يصف العادات والتقاليد والأخلاق اللبنانية بلهجة صريحة حية ويتناول موضوع العلاقة بين الحب والحياة . وهو بارع

فى وصف أعماق الجو اللبنانى . له : عشر قصص (١٩٣٧) الإعدام - (١٩٤٠) وقصة تمارا (١٩٥٥) التى أحدثت ضجة فى الأوساط السياسية لتناولها موضوعاً سياسياً دولياً .

مارون عبود : يصور تصويراً صادقاً أشكال الحياة المحلية فى القرى والمدن الصغيرة ويصف العادات والتقاليد والهوايات الخاصة التى تنبض بها القرية اللبنانية ويستشهد بالأمثال والنوادر والأقوال العامة ويحيى الصور والتشابيه اللبنانية فى لوحات مأخوذة من صميم الحياة اللبنانية . له قصة : أقزام جبابرة (١٩٤٨) الأمير الأحمر (١٩٥٣) أحاديث القرية ١٩٥٦ . وتصور قصة الأمير الأحمر محاربة اقطاعية الأمير بشير الشهابى . ومعظم انتاج مارون عبود يتناول رجال الدين على مختلف مراتبهم بسخريته اللاذعة عن ازدواج سلوكهم فى الحياة .

سعيد تقى الدين : معظم أبطاله مهاجرون أصابوا غنى بعد فقر فقام فى نفوسهم الصراع بين الواقع والمثال ، وبين الشهوة والطهر وبين الطمع والزهد وبين الأنانية والتضحية . وكان المؤلف قد هاجر إلى العالم الجديد وعاد بعد ربع قرن ولذلك فهو يروى قصصاً حقيقية تقوم على تجربة صحيحة : وله الثلج الأسود (١٩٤٦) موجة نار (١٩٤٨) غابة الكافور (١٩٥١) .

٤ — كتّاب من لبنان :

قدم لبنان للأدب العربى صفوة من كتابه كان لهم الأثر البعيد فى اليقظة الفكرية . وكان أبرز ما فى كتاب لبنان المجموعة المسيحية التى شغلت نفسها باللغة والأدب ونشرت القواميس والمعاجم والالياذة ودوائر المعارف كاليازجيين والبستانيين وزيدان وصروف وسركيس والشدياق وتقلا.

١ — إبراهيم اليازجى : أنشأ فى القاهرة مجلتى البيان والضياء ، وابتدع فى

مجلة الضياء باباً أفرده لنقد الأغلاط اللغوية السائرة وجعله تحت عنوان ثابت « لغة الجرائد » وقال عنه جرجى زيدان أنه كان يشتغل بالقلم التماساً لتلك اللذة التى كثيراً ما أغوت أصحاب القرائح واستنزفت قواهم فماشوا فقراء وماتوا أعلاء ولو أراد الارتزاق لكان له مما فطر عليه خير سبيل بل لم يكن يعدم منصباً فى بعض مصالح الحكومة .

وقد اخترع إبراهيم اليازجى لفن الطباعة العربية علامات التعجب والاستفهام وغيرها مما يستعمل فى اللغات اللاتينية . وهو أول من ألف قصة تمثيلية هى قصة «المروءة والوفاء» التى بلغت نحو الف بيت من الشعر .

٢ — سليمان البستانى : تعلم فى مدرسة بطرس البستانى . أتقن اللغات العربية والانجليزية والفرنسية . تعلم السريانية واليونانية اللاتينية والإيطالية والتركية . وتنقل بين الشرق والغرب وأسهم فى دائرة معارف البستانى وترجم إلياذة هوميروس ١٩٠٤ وقد تحدث البستانى فى مقدمة الالياذة عن الشعر العصرى القديم وأصله . ثم قابل لغة قريش بلغة الإلياذة وبحث أطوار الشعر العربى وطبقات الشعراء والملاحم . وقد كانت الإلياذة مهابة من قبل يتحاماها الأدباء لأنها تختلف مع الأديان فلما جرؤ على ترجمتها اتجهت الأقلام إلى أدب اليونان تنقله وأثرت فى جبران ونعيمه فخلقا أدباً جديداً .

٣ — سليم سركيس (١٨٦٩ ـ ١٩٣٦) . علمه والده صف الحروف فتصحيح المسودات ثم تنقيح الرسائل وتعريب شذرات من الصحف الانجليزية فكتابة المقالات. سافر سليم ١٨٩٢ إلى باريس فكتب فى جريدة « كشف النقاب » وفى لندن أنشأ جريدة « رجع الصدى» وعاد إلى مصر ١٨٩٤ وأصدر فى الاسكندرية جريدة المشير ثم انتقل إلى القاهرة . ثم أصدر مجلة مرآة الحسناء .

وهاجم الخديوى عباس فهرب فذهب إلى نيويورك وبوستن حيث أنشأ جريدتى

البستان والراوى . وفى عام ١٩٠٥ أنشأ مجلة سركيس • وضمه الشيخ على يوسف إلى تحرير المؤيد ١٩٠٦ ثم انتقل إلى الاهرام .

٤ — جميل نخـــلة المدور ١٨٦٢ ـ ١٩٠٧ : برع فى اللغتين الفرنسية والايطالية . توغل فى دراسة تاريخ الغرب وأصاب بسهم وافر فى أدبهم . أبرز مؤلفاته « حضارة الإسلام فى دار السلام » الذى وصفه جبر ضومط بأنه كتـاب لو وزن بالدرر لرجحها • وقال جرجى زيدان انه خدم آداب هذا اللسان خدمة حسنة. وقد عنى عناية فائقة بتاريخ العراق فأصدر كتاب تاريخ بابل وأشور. نشر مقالاته فى المقتطف ومجلة الجنان للمعلم بطرس البستانى .

٥ — الياس أبو شبكه : شاعر وصحفى كتب فى صحف المعرض والمكشوف وصوت الأحرار . قال نبيه صقر : كانت نفس أبى شبكه قيثارة جبارة فيها من عصف الرياح ومن هزيم الرعود ومن عويل الهاوية ومن صدى فحيح الأفاعى . ومن قرارات تسابيح الملائـكة . ومن هديل الحمائم الشجى ومن زقزقة الطيور ومن هدير الأغصان ومن هينمة النسيم المتـــلاعب بالأغصان المزهرة المغمورة بضباب الصباح .

وقال فيلـكس فارس عنه : « لقد قرأت شعر الياس أبى شبـكه قبل أن أعرفه فجزعت نفسى عليه من نفسى . شخصيته تنطق بأرق ما فى القلب من حب. وبأرق ما فى الحب من الوحدة والاخلاص . فقلت انه قلب معد للسحق . مهيأ لأن يذبح على مذبح غواية الغانيات فى زمان وفى وطن تتمرد فيه المرأة على كل شىء لتمد عنقها صاغرة أمام الهة التقليد والبذخ والمطامع » . ولـكن الياس أبو شبكه تأثر بالحياة الاجتماعية وشارك فى معركة الوطنية وآية ذلك قصيدته عن « الفلاح » يقول الياس أبو شبكه :

وتناءت عيناه فى الشفق الأخضر فانحطتا على فلاح
يحرث الأرض هادئاً مطمئناً فيشق الايلام كالجراح
قال : طوبى لى وطوبى لنفسه ما ألذ الصفاء من ماء كأسه
ما أعز الأعشاب حول سواقيه وأغناه فى قناعة بؤسه
لا يرى غير حقله أن أطل الفجر أو أقبل المساء غير أنسه
غده مثل يومه ليس يغشاه شقاء ويومه مثل أمسه

وفى غير هذه القصيدة يدعو الياس أبو شبكه إلى النهضة وينصر الحق ويدفع قومه إلى الحياة:

يا بلادى لك قلبى لك آمالى وحبى
طهرى اليوم دمى وغداً كونى فمى
يسترح فيك رمادى يا بلادى

٦ — عمر فاخورى: كان زميلا لعمر حمد شهيد مشانق جمال باشا السفاح ١٩١٦ فقد اتجه عمر فاخورى إلى الكتابة داعياً قومه إلى القومية العربية وكتابه «كيف ينهض العرب» الذى صدر ١٩١٣ أثار رجال الدين وأحنقهم لأن مؤلفه أعلى من شأن الرابطة القومية على الرابطة الدينية . وقد سافر عمر فاخورى إلى باريس حيث أتم دراسته ثم عاد ١٩٢٢ وقد أصدر خلال الحرب العالمية الثانية كتابه « لا هواده » هاجم فيه النازية والفاشية وتوفى فى ربيع ١٩٤٦ .

٧ — شبلى الملاط : ولد ١٨٧٨ تعلم فى مدرسة الضيعه على أحد الرهبان فحفّظه شعر بن الفارض . قرأ كتب عنترة والزبير وأبى زيد ودياب بن غانم والزناتى خليفة وعلى الزيبق وفيروز شاه وألف ليلة واشتغل بالتدريس والصحافة وله قصيدة مشهورة فى مهرجان شوقى :

ردت على مطامعى وشبابى ذكرى الصبا وملاعب الأحباب

٧ — صلاح لبكى : أديب لبنانى امتهن المحاماه وعرف فى دوائر القضاء ببلاغة المرافعات . كما اشتهر برسائله السياسية التى يبعث بها إلى جريدة الهـــدى النيويوركية . أصدر ثلاثة دواوين : أرجوحة القمر ١٩٣٨ ـ مواعيد ١٩٤٣ ـ سأم ١٩٤٩ من أعمـــاق الجيل ١٩٥٤ . وصف بأنه شاعر ملهم ، تصورى عاطفى يجلو لمناظر الجبل الأشم ولياليه الساحرة صوراً بارعة طريفة يمزجها بمناجاة الحبيب ووصف لواعجه . عاش يصارع مرض القلب ـ توفى فى ٢١ يوليو ١٩٥٥ .

ومن كتاب لبنان وشعراءها مصطفى الغلاييني قاضى القضاة الذى سلخ حياته فى دراســة تاريخ الأدب وتثقيف العقول وتأليف الـكـتب وهو شاعر مطبوع فى شعره الجزل صورة البعث فى بيروت بعد إعلان الحرية .

وكرم ملحم كرم : باعث القصة الحديثة وله روايات صرخة الألم والمصدور .

وعمر أبو النصر : أكبر أدباء لبنان انتاجاً ونشراً

وأمين نخلة : شاعر الرقة والأناقة وصاحب الفـكرة الريفيـــة وتحت قناطر أرسطو .

وشبلى ملاط : الشاعر الذى يوصف بأنه بسط جناحى شعره على لبنان .

وعمر فروخ : صاحب مجلة الأمالى .

ويوسف عصوب : صاحب الموسجة الملتهبة والقنص المهجور وأخـلاق ومشاهد .

وعارف الزين : صاحب مجلة العرفان.

وزكى نقاش : المؤرخ الذى سجل كبريات الأحداث المعاصرة والغابرة .

وأنيس النصولى : المؤرخ المحقق الذى كتب تاريخـه عن العصر الأموى والدولة الأموية .

وفيليب حتى : أستاذ التاريخ والآداب الشرقية فى جامعة برتسن بالولايات المتحدة .

وعيسى اسكندر المعلوف : الذى سخر التعابير الشعرية للمصطلحات العلمية ووضع تاريخ الأسر الشرقية فى أربعة عشر مجلداً وتاريخ الطب عند العرب .

ومارون عبود : الساخر شبيه أناتول فرانس وبرنارد شو والذى يقول : مذهبى فى الحياة أن لا مذهب لى فيها وما أريده لا أفعله والشيء الذى لا أريده اياه أصنع.

وألبير أديب: صاحب «الأديب» كبرى مجلات الشرق وهو من طليعة رواد الفكرة العربية .

وعبد الله العلايلى : مزج العلم بالأدب . متحرر يجمع بين إيمان الشيخ محمد عبده وحماسة عرابى باشا . له كتب ثلاثة : إنى أتهم . دستور العرب القومى . أبو العلاء ذلك المجهول .

وجبران التوينى : الكاتب السياسى . الذى كان قلمه يسقط وزارة ويرفع وزارة .

والياس خليل زكريا : الكاتب المبدع الذى يعرف كيف يحمل الكلمة الواحدة الذى يتبعها .

وسعيد فريحه : الكاتب الصحفى المعروف بالسخرية اللاذعة وبراعة الاستهلال

وسعيد تقى الدين صاحب الفن القصصى الموقوف عليه . جدوهزل فى بلاغة.

الخورى مارون غصن : البحاثة الأديب الذى طالب باغناء اللغة العربية وبحث علاج فقرها .

وهناك من الكاتبات : ابتهاج قدوره وعنبره سلام الخالدى وسلمى صايغ وأنس بركات باز وجوليا طعمة وحبوبة حداد ووداد محمصانى وسلوى محمصانى الفيرا لطوف وقد لفتت « نظيرة زين الدين » الانظار بكتابها الجرىء الذى أصدرته عام ١٩٢٨ عن السفور والحجاب .

فى المهاجر الأمريكية

هجرة الشاميين إلى أمريكا ظاهرة من أهم ظواهر الفكر العربى المعاصر ، كما أنها معلم من معالم المجتمع العربى فى ابان الاستبداد العثمانى ويتصل هذا البحث بالأدب الشامى إذ أن المهجريون هم من أهل سوريا ولبنان فى الأغلب وتدل الاحصائيات على أنهم بلغوا مليونا ونصف مليون على وجه التقريب وهم من اليمن والحجاز ومصر وسوريا ولبنان يضمون فئات من جميع المذاهب والأديان ومنهم المسلم والنصارى والدروز وأكثريتهم فى الأغلب من المسيحيين .

وقد دفعهم إلى الهجرة ظلم العثمانيين وكان اللبنانيون أكثر اندفاعا إلى الهجرة ويعزو البعض ذلك إلى أحداث ١٨٦٠ التى وقعت بين الدروز والمسيحيين .

يقول جورج صيدح : إن العامل الأهم والأقوى للهجرة هو العامل الاقتصادى فقر وحرمان لم ينفع فى مداواتهما جهد ولا نشاط فى وسط رجعى النزعة . وفى ظل حكومة غاشمة تشل الأرزاق وتهدد الأرواح . وقد شجع على استمرار الهجرة نجاح بعض المهاجرين الذين سبقوا وأخبار ثروتهم ومساعدة السابقين للاحقين من الميل الفطرى للرحلة والهجرة وحب الكسب والرغبة فى تحسين الحياة على هيئة موجات متتابعة تزيد كل عام حتى بلغت قمتها عام ١٩١٣ حيث دخل أمريكا الشمالية فى هذا العام ٩٢٠٠ مهاجر .

وقد ألفوا لأنفسهم أحياء فى مدن أمريكا . وبرزوا فى عالم الفكر فكونوا الجمعيات الأدبية كالرابطة القلمية التى ضمت جبران وميخائيل نعيمه وايليا أبو ماضى ونسيب عريضة والعصبة الأندلسية التى ضمت ميشيل معلوف ورشيد الخورى والياس فرحات وأصدروا مجلة العصبة .

وقد صدرت أول صحيفة عربية فى الولايات المتحدة ١٨٨٨ باسم كوكب أمريكا

بلغت صحفهم ٧٩ جريدة ومجلة وفى كندا والمكسيك ١٧ صحيفة وفى البرازيل ٩٥

وقد كانت نيويورك مركز الهجرة ولكن العرب ذابوا فى مجتمع الولايات المتحدة وكانوا يتكتلوا فى سان باولو بالبرازيل ثم فى بونس ايرس بالأرجنتين .

ويقول الدكتور زكى المحاسنى[1] إن هناك هجرة إلى أفريقيا ورحلة إلى أمريكا لالتماس الرزق والحرية ومن السوريين من هاجروا إلى مصر والسودان. وقد بدأت الهجرة قبل الحرب العالمية الأولى وكان الحكم العثمانى فى لبنان بضغطه وبعنفه حافزاً للهجرة. وقد كافح المهاجرون طويلا حتى طاب لهم المقام ودر عليهم الخير. ولم يأت منتصف القرن العشرين حتى كان عدد اللبنانيين فى دار الهجرة قد بلغ الألوف المؤلفة موزعين على المدن فى الشمال والجنوب مكبين جميعاً على ضروب التجارة والصناعة حتى صار أكثرهم من ذوى الأموال والمؤسسات الاقتصادية وقد تركوا أهلهم وذويهم الذين عاشوا على انتظار عودتهم . لم تكن هجرتهم كراهية للوطن بل كانوا يحنون اليه . لقد حملوا معهم اللغة العربية وكانوا يرددون على البعد أغانى الرعاة اللبنانيين ويتسم المهاجرون بروح الحرية إذ أخذوا ينشدون معانى الحرية ويصفون أغلال الوطنيين فى ظل العثمانيين والفرنسيين ولم يقطع المهاجرون بينهم وبين بلادهم بل زاروا وطنهم زورة كبرى .

ويقول أوغست أديب باشا « إن السبب الأول فى مهاجرة الألوف من اللبنانيين الذين فى عنفوان العمر كل عام . تلك المهاجرة التى خفضت عدد سكان لبنان إلى ثلاثة أخماس ما كان يجب أن يكون عليه فى أحوال عادية هو القانون الأساسى الذى وضع عام ١٨٦٢ و ١٨٦٤ فان أشد ضرر جلبه على لبنان الذى إنما وضع لأجل نفعه

---

(١) كتاب النهضة العربية الحديثة لعدد من الكتاب .

هو حصر ذلك الجبل فى حدوده الحالية لأنه لو كان وضع هذا التحديد على قاعدة الحق والعدل والسياسة البصيرة لضمت إلى لبنان الأراضى والثغور البحرية التى هى ملكه من أوجه كثيرة . فكان القسم الأول من تيار هذه المهاجرة قد تحول إلى أراضى خصبة هى الآن مهمله والى مدن عامرة كان فى وسع اللبنانيين أن يطلقوا العنان لنشاطهم فيها . وسبب آخر هو احتلال أصحاب الاقطاعيات الأراضى الزراعية فى الجبل فقد كان الفلاح اللبنانى عرضة لظلم صاحب الأرض من أصحاب الاقطاعيات يستبيح أتعابه ويصده عن التقدم فى المجتمع » .

وأول مهاجر هو «انطون البشعلانى» الذى هاجر عام ١٨٥٤ وأقام فى نيويورك ومعنى هذا أنه مضى على بدأ الهجرة قرن كامل وأعوام . وقد تكاثر المهاجرون بعد الثورة العرابية عام ١٨٨٢ عند ما لجأ[1] اللبنانيون والسوريون المقيمون فى مصر إلى البواخر البريطانية فأقلتهم مجانا إلى موانى فرنسا وايطاليا ومنها استأنفوا السير إلى كندا والولايات المتحدة . وكانت أقدم هجرة إلى البرازيل عام ١٨٧٤ وقد اتجهت إلى الأرجنتين .

وقد هاجر عام ١٩٠٥ جبران خليل جبران وأمين الريحانى وندره حداد وعبد المسيح حداد وهاجر الشاعر القروى (رشيد سليم الخورى) ١٩١٣ وشكر الله الحر ١٩١٩ . وشفيق معلوف ١٩٢٣ ويبلغ عدد الناجحين واحد فى المائة .[2] « أما الباقون فلا يزالون فى المهجر يدافعون أشباح الفاقة والعوز فى أعمال تستنزف الشباب والعافية » ويقدر المهاجرون بسبع السكان . وقد تطوع منهم ٧٠ ألف محارب فى الجيش الأمريكى أثناء الحرب الأخيرة » .

ويقول جورج صيدح أن هذه الهجرة « هى ملحمة بطولة رائعة لأولئك المهاجرين الذين غالبوا الزمن وخضبت أقدامهم وناءت كواهلهم « بالكشه »

(١) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية

(٢) نفس المصدر

وقد كان البيع سلمتهم المتواضعة بحثاً عن لقمة العيش . ثم نجحوا فى تكوين الثروة واحتلال مكانة مرسومة فى المهاجر وخلق تيار شعرى عربى أصيل ويقول فيليب حتى فى كتابه السوريون فى أمريكا «أنه كان يجتمع مرة فى وقت من الاوقات فى مدينة نيويورك وحدها لا أقل من عشرين شخصاً من الذين حكمت عليهم المحكمة بالاعدام فتمكنوا من الهرب خلاصاً من الموت . وكان من هذا أن تميز أدب المهاجرين العرب بالثورة والتمرد على الأوضاع الاجتماعية والسياسية » .

ويصور نعوم مكرزل ايمان المهاجرين بالثورة العربية من أجل التحرر والتجمع « نحن فى المهاجر نشعر بالحركة لا بالسكون ونعتقد بأن من لا يتقدم يكون بحكم جوده وتقدم غيره متأخراً . نعتقد بالاخلاص فى النية والقول والعمل . نعتقد بالحرية والمساواة والعدل . ونعتقد بالثورة إلا أن اعتقادنا بالثورة مشروط فيه أن تكون أدبية إصلاحية حتى اذا ضاعت كل حيلة مع أعداء أنفسهم قبل أن يكونوا أعداءنا. نعتقد بها دموية لأن كل أنظمة الشعوب الحرة كتبت بنجيع القلوب لا بالمداد الاسود » .

٢ — أدب المهجر

« فى مزود الغربة القاسية . فى قبو عفن من شارع وشنطون فى نيويورك فتح عينيه على الوجود أدب طفل . ولد مع القرن العشرين بعد أن تمخضت به الجاليات العربية زهاء نصف قرن . ولد مع عمر وفقر كالأنبياء المرسلين ، وفى حذر وخوف كالعبيد الآبقين . غمره الظلام سنين عديدة وظل صوته النابى مكبوتاً لا يستوقف الأقدام المسارعة على رصيف الشارع العالى . أما أبوه — امين الريحانى[1] — فقد كبر واستبشر وما أن دلف الصغير من السرير حتى اعتلى المنبر

(١) ظل أمين الريحانى حرباً على التعصب وعلى علل الطائفية والأقليمية والاتكالية والمحسوبية

وصاح «أنا الشرق » وامتدت أيدى الكهان لخنقه فى المهد . ولكن الأصداء ترامت من بعيد من بوسطن إلى حىّ الصينيين » .

هكذا وصف جورج صيدح مولد الأدب اللبنانى .

ويقول كامل يوسف[1] إن الأدب المهجرى صراع عنيف بين عقليتين متباينتين : عقلية الشرق بما فيها من روحانية وسمو وتواكل . وعقلية مادية قاسية لا ترحم المتوانى . وكان من نتيجة هذا الاصطدام الحنين إلى حياة الشرق بمافيها من دعة وبساطة وهذا الحنين ظاهر فى حياة أقطاب مدرسة المهجر ، فكتابات جبران الانجليزية والعربية تترجم عن ذلك بجلاء ، وكأنى به يريد أن يشرق أمريكا قبل أن يتأمرك هو وأبناء جلدته . ومن دواعى عظمة هذا الرجل أن طبيباً عالما من كبار أطباء انجلترا وفيلسوفا يشار إليه بالبنان هو « هافلوك اليس » كان يستشهد بأقوال جبران فى كتابه العظيم «سيكولوجية الحب» ويدعوه بالنبى الشاعر ومع هذا الجاه كان جبران يحن إلى الشرق بقلبه وروحه ويود لو أمضى بقية أيامه فى وطنه بين أحضان الطبيعة . مثل ذلك ميخائيل نعيمه فقد أصاب ثروة فى أمريكا ولكنه آثر الدعة والبساطة فعاد إلى وطنه وعاش فى صومعة فى جبل صنين » .

٢ — وهكذا بدأ الأدب المهجرى فى شارع وشنطون بنيويورك فى مطلع القرن العشرين بأمين الريحانى ثم انتقل إلى بوسطن « حى الصينيين » بجبران خليل جبران ثم تزايد الرواد فانضم إلى قافلتهم : ميخائيل نعيمه وإيليا أبو ماضى ونسيب عريضه ورشيد أيوب والمعلوف وندره حداد وجورج صيدح ونشأت الرابطة القلمية فى نيويورك . ثم نشأت العصبة الأندلسية فى سان باولو .

وأنشأ عبد المسيح حداد فى نيويورك صحيفة (الرابطة القلمية) ١٩١٢ وكان

---

(١) أغسطس ١٩٤٣ — مجلة الرسالة

من أعلامها جبران والريحانى ورشيد أيوب وندره حدادو نعمه الحاج وعبد المسيح جواد ونسيب عريضة وميخائيل نعيمه وأسعد رستم وإيليا أبو ماضى وفكتوريا طنوس وعيسى خليل صباغ ونجلا معلوف وفريد غصن وحبيب عيسى .

وصدرت مجلة العصبة الأندلسية فى سان باولو (البرازيل) ١٩٣٢ وكان من أعلامها ميشال معلوف وشفيق المعلوف ورشيد سليم خورى (الشاعر القروى).

٣ — كان أبرز معالم الأدب المهجرى الحنين إلى الوطن والمقاومة والدعوة إلى الانعتاق والحرية يتمثل ذلك فى صور متعددة . يتجه جبران خليل جبران إلى تمثال الحرية ويقول له :

متى تحولين وجهك نحو الشرق أيتها الحرية . أيتأتى أن يرى المستقبل تمثالا لك بجانب الاهرام وعلى شاطىء بحر الروم . ومتى تدورين مع البدر لتنيرى ظلمات الشعوب المقيدة والأمم المستعبدة .

ويقول إيليا أبو ماضى :

الأرض : سوريا أحب ربوعها عندى ... ولبنان أعز خيالها

تشتاق عينى قبل تغمضها الردى ... لو أنها اكتحلت ولو برمالها

ويقول القروى :

وما حزنا إن لم يك العرب وحدة ... وقد وحدتنا فى الجهاد المقاصد

أصابع كف المرء فى العد خمسة ... ولكنها فى مقبض السيف واحد

ويقول جبران : أحب مسقط رأسى ببعض محبتى لبلادى . واجب بلادى بقسم من محبتى للأرض . وطنى الحقيق . اتشبث بذكر قريتى واشتاق بيتاً ربيت فيه . ولكن إذا مر عابر طريق وطلب مأوى وقوتاً فمنع وطرد استبدلت حينئذ

تشبثى بالرثاء وشوقى بالسلو . أحن إلى بلادى لجاهلها وأحب سكان بلادى لتعاستهم .

ويقول الريحانى : أنا الشرق عندى فلسفات وعندى أديان فمن يبيعنى بها طائرات . ويقول أبو ماضى :

متى يذكر الوطن الغافلون كما تذكر الطير أوكارها

ومن هذه النماذج وغيرها الكثير تبدو صوره الإيمان بالوطن وحبه والشوق إليه والتطلع إلى حريته . وكانوا بذلك يؤمنون «بالوطنية على أسس ثابتة كوحدة اللغة والتاريخ والأهداف وليست وطنية جغرافية ولا دينية» . وما حدثت حادثة فى الأقطار العربية ولا نزلت محنه إلا عاشها المهاجرون . واستخرجوا منها العبر . كما حملوا دعوة « الانعتاق » والتحرر ودعوا إلى الثورة وطلبوا حشد القوى لمحاربة العدو . ولم تستطع الحياة فى أمريكا أن تجعل الفكرة الأممية تطغى فى نظرهم عن الفكرة القومية .

وقد وقف الريحانى قلمه على القضية العربية وقضى حياته مسافراً إلى بلاد العرب يزورها ويتحسس مشاكلها وآثار الاستعمار فيها ويتطلع إلى حريتها . ويعد الشاعر القروى شاعر القومية العربية العارمة الثائرة . كما وصف فرحات بأنه مطلق القذائف النارية فى قصائده الوطنية . وقد أتاحت لهم هجرتهم الحرية فى أن ينقدوا حكوماتهم وأن ينقدوا رجال الدين ويحملوا على الاستعمار .

٤ — يقول جورج صيدح « إن الأدب المهجرى : أدب عربى البذار . عربى الأرومة . عربى الجنى . فرع من دوحة العروبة . حملته الرياح إلى مشاتل العالم الجديد فزكا فى كل تربة وأينع تحت كل سماء . طبعت شمس الغرب ألوانها على أوراقه . أما لبه فيحيى على شعاع الشرق . وقلبه يختلج بنسمات الصحراء . وأدب المهاجرين رسالة عربية لم يلصق بها الغرب إلا طابع البريد . عبرت البحار

إلى قراء العربية فسارع المتشوقون إلى فض الرسالة لـكى يستمتعوا بما كتبه لهم الاحباب النيب . أما الـكسالى فوقفوا عند الغلاف المختوم » .

ويقول صيدح إن المؤثرات الماثلة فى حياة المهجر وحدت انتاجهم فى الأدب. فقد حملوا إلى الأمريكيين التربية الشرقية والثقافة العربية وتأثروا إلى حد ما بالبيئة الأمريكية من حيث التحرر والاجتهاد والنزعة العملية . وهم لم يكتبوا أو ينظموا إلا بروح عربية ولمصلحة عربية حتى أولئك الذين كتبوا ونظموا بلغة أجنبية كانت الروح العربية تهيمن على انتاجهم . وقد اشتركوا فى مقاومة تيارات الحياة المادية وطغيان الفـكر واللسان الأعجميين ودافعوا غوائل الانحلال والفنـاء عن لغتهم وأدبهـــم .

٥ — يجمع المؤرخون على أن المهجريين أدوا للعرب رسـالة كبرى عند ما ألفوا مئات الأسفار بلغات أجنبية ضمنوها رسالة الشرق الروحية وتاريخ حضارة الأمة العربية شارحين فلسفتها وآدابها وعلومها . مترجمين سير المشاهير من رجالها وآثار الـكبار من شعرائها . كتبوا باللغة الانجليزية للولايات الشمالية وبالاسبانية لأمريكا اللاتينية وبالبرتغالية لجمهورية البرازيل . وقد استهوت العامة تلك المؤلفات لطلاوة أسلوبهـا وجدة موضوعاتها وأصبح الحديث عن وطنيـة الشرق ومدنية العرب مألوفاً . وقد ألف جبران ثمانيـة كتب باللغة الانجليزية . وطبع من كتاب (النبى) ما يزيد على مليونى نسخة وترجم إلى أربع وخمسين لغة . و « تـكرس » فى مناهج التعليم وقد حاول فيـه جبران أن « يمشرق » الغرب وقال روزفلت لجبران : أنت أول عاصفة انطلقت من الشرق واكتسحت الغرب ولـكنها لم تحمل إلى شواطئنا غير الزهور .

وألف الريحانى أحد عشر كتاباً باللغة الانجليزية وعالج قضايا العرب ونظم

ميخائيل نعيمة الشعر بالانجليزية وترجم ديوانه « همس الجفون » إلى الانجليزية والاسبانية . وأصدر الدكتور فيليب حتى ثلاثة عشر كتاباً بالانجليزية عن الشرق العربى وهو ما زال يكتب عن قضية العرب منذ أربعين عاماً . وكتب الدكتور نبيه فارس بالانجليزية عن الميراث العربى والنبالة عند العرب وكذلك فعل الدكتور حبيب كانبه فى مؤلفه ليالى عربية . والروح العربية فى بلاد العرب . وكتب يوسف الغريب عن فلسفة ابن حيان وحكمة العرب وآثارهم .

ولم ينظم الشعر بالانجليزية إلا جبران ونعيمة ومسعود وسماحة وألف جميل منصور حداد عشرين كتاباً فى النقد والفلسفة والاجتماع . كما علمت مدرسة وديع اليازجى (فى سان باولو) اللغة العربية لخمسة عشر ألف طالب من أبناء العرب وغيرهم . وهكذا نفذ الأدب المهجرى إلى الأوساط العلمية حاملا رسالة العروبة فقرأه الأمريكى والانجليزى والفرنسى والاسبانى .

٦ — استمد أدباء المهجر الهامهم من تأملاتهم فى الحياة فقد عاشوا ملتصقين فكراً وعاطفة بأوطانهم الأصلية بعيدين بالروح عن البيئة الأمريكية لا يهتمون بأدبها وصحافتها وأخبارها مثل اهتمامهم بأدب الوطن العربى ويرى جورج صيدح أن أدب المهاجرين ليس ثمرة انتقالهم إلى المحيط الأمريكى لأنهم لم يجدوا إلا القليل من الميسرات والكثير من المعسرات ولا هو وليد أدب الغرب لأن أكثرهم لم يقرأه بل أومن بأنهم لو تخلفوا فى الوطن وعاشوا بين زملائهم لأنتجوا أدبا أروع مما انتجوه فى المهجر الأمريكى .

٧ — الأديب المهجرى — كما يصوره جورج صيدح — رجل فقير وقف فى مفترق الطرق ليختار التجارة فالثراء أو الأدب فالحرمان . ثم اختار طريق الأدب . والذين نجحوا من الأدباء هم الذين مسحوا أقلامهم من لغة الضاد وكتبوا

باللغات الأمريكية مثل الريحـانى وجبران وميخائيل نعيمـة . وكان جبران إذا كتب باللغة العربية طبع كتبه على نفقته بينما كان إذا كتب بالانجليزية تهافتت عليه دور النشر لأنها كانت تطبع من الـكتاب الواحد لجبران مليونى نسخة . وقد تدفق عليه المال بحيث بلغت ثروته حين مات ١٠٠ الف دولار .

٨— وصل الأدب المهجرى إلى الشرق فماذا قوبل ؟

لقد كان الأدب المهجرى على الجملة بعيد الأثر فى أدب لبنان والعراق والحجاز والمغرب ومصر — وقد فصلنا ذلك فى مكانه — وذلك بالرغم من الحملات التى وجهت إليه . فقد انقسم النقاد بشأنه . قال بعضهم انه كنز خالد لم تظفر بمثله اللغة العربية وهو يضاهى أرقى الآداب العالمية الحية . وقالوا انه هجين تعوزه القافية . وقالوا انه صناعة بيانية مزورة عن الذوق العربى السليم وقالوا إنه عبد الصورة الجامدة والاستعارات والـكنايات البدائية .

ويقول جورج صيدح : لقد أخذت الألحان المهجرية تنطلق من وراء البحار. واستقبلها شيوخ الأدب بتحفظ واحتراس وأقبل عليها النشء الطالع . ورحب بها أدباء لبنان وكانوا أسبق البلاد العربية فى الأخذ بسننها بحكم العاطفة الأخوية والذوق المشترك » وقد لقيت كتابات سان باولو تقديراً أكثر مما لقيت كتابات مدرسة الرابطة الاقليمية وذلك لأنها تتسم بالنزعة القومية «فالشعوب الرازحة تحت الاحتلال والانتداب المتعطشة إلى الانعتاق من الاستعمار لا يستهويها فى محنتها إلا الشعر الوطنى الحماسى الصادق النبرات » .

وقد نال « إيليا أبو ماضى » شاعر الرابطة القلمية الأكبر الحظوة فى سوريا والعراق حتى يقال ان لدواوين أبو ماضى رواجاً فى العراق لا يطاوله أى ديوان آخر . وفى حوران وجبل الدروز وأطراف الجزيرة كان المجـاهدون يرددون شعر الشاعر القروى .

٩ — وجهت إلى الشعر المهجرى اتهامات كثيرة منها قول النقاد ان الحب عندهم يكاد يكون ثانوى القيمة فى مخاطر الحياة . وأن الشك طابع شعرهم . وأنهم لا يأبهون لتعاليم الدين . والطبيعة ليست فى شعرهم حارة متدفقة .

وقد رد على ذلك جورج صيدح فقال : إن الحب هو المادة الأولى فى الأدب المهجرى أما الشك فإنه لا يعنيهم لأن فلاسفة العالم تأملوا وتساءلوا وشككوا ولم يهتدوا إلى شىء . أما الاستهتار بتعاليم الدين فعلى العكس . كل ما هنالك أنهم متدينون لا طائفيون . وما ثار أدباء المهجر على العقيدة فى جوهرها بل على السلطة التقليدية التى أعطت رؤساء هذه الطوائف سلطات سياسية وجبران يقول « إن الدين هو ما أثار القلب » أما الطبيعة فهى معشوقة أبو ماضى فهو يتوجع لقطرات الماء محبوسة فى ابريق ويقول : يتجسم شعورى بصلة القربى بينى وبين هذه الأكوان فانعطف على الشجرة أعانقها وعلى الصخرة أضمها » .

١٠ — أتهم جبران باهماله اللغة كما أتهم المهجريون باشاعة الفوضى فى اللغة.

ويقول جورج صيدح : أنهم لم يقصدوا إشاعة الفوضى فى اللغة — كما زعم البعض — بل إنهم فى حدود التزامهم للاطار العام للغة اتخذوا القوالب الأنسب لأفكارهم الجديدة وتفننوا فى تقطيع البحور العربية التقليدية تقطيعاً يناسب أنغام شعرهم . ولغتنا كانت تحتمل هذا التقطيع وهم لم يخرجوا على العروض بل واصلوا رسالة الأندلسيين ونوعوا الموشحات وحملوها الفكر العميق . وهم خلقوا الحوار فى الشعر وقد كتب إيليا أبو ماضى المسرحيات والملاحم والمطولات كما كتب فوزى المعلوف ملحمة بساط الريح وكتب شفيق معلوف ملحمـــة (عبقر) هم بعثوا الحياة فى الكلمة العربية . وميزتهم انهم واقعيون لم ينفصلوا عن حياة المجتمع وإنما لونوا الواقع بألوان الفن ليصبح جذاباً . وقد رد جبران على هذا الاتهام بقوله :

لكم لغتكم ولى لغتى . لكم منها القواميس والمعجمات والمطولات . ولى منها ماغربلته الأذن . وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مانوس تتداوله السنة الناس فى أفراحهم وأحزانهم .

لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق . ولى من لغتى نظرة فى عين المغلوب ودمعة فى جفن المشتاق وابتسامة فى ثغر الزمن .

لكم لغتكم ولى لغتى . لكم أن تلتقطوا مايتناثر خرقا من أثواب لغتكم ولى أن أفرق بيدى كل عتيق بال وأطرح على جانبى الطريق كل مايعوق مسيرى نحو قمة الجبل . »

١١ — تناولت مناحى الأدب المهجرى : الملاحم : (بساط الريح لفوزى المعلوف وملحمه عبقر لشفيق المعلوف) والقصص : (جبران ونعيمة) والشعر (أبو ماضى — الشاعر القروى — فرحات) النقد (نعيمة : — الغربال وشكر الله الحر) الشعر المنثور : الريحانى وجبران . الترجمة : يوسف الغريب وحبيب كاتبه ونبيه فارس .

١٢ — يقول جورج صيدح: « فقد الأدب المهجرى شيئا من روعته الاخاذة حين انتقل زمامه إلى أيدى العصبة الاندلسية (١٩٣٢) فماع الشعر وتقهقرالنثر ثم قال أن دعائم الأدب المهجرى قد زلزلت بوفاة عميده جبران ولكنه وجد دعامته الثانية فى الجنوب عندما تأسست العصبة الأندلسية فى سان باولو. فاحتفظ بالمستوى العالى الذى وضعته الرابطة العلمية فيه .

ويقول « لقد قطع شعراء المهجر أشواطا فى الإبداع أبعد من شوط مطران وجماعة أبولو لان الفكرة فى شعرهم لم تطغ على الفن فتشوه الجرس الموسيقى ،

وأشواطا أبعد فى الانطلاق لأن فكرتهم لم تتقيد بوجه السياسات المحلية .

١٣ — اتسم أدباء الرابطة العلمية بالطابع الإنسانى كما اتسم أدباء العصبة الأندلسية بالطابع القومى . كما غلب على الأدب المهجرى روح الصوفية والأخلاق والتأمل .

يقول جورج صيدح : أن أدباء الجنوب اختلفوا فى تحديد الفكرة الوطنية وقالوا (القروى وفرحات) إنه يستحيل أن نقر جبران على أننا نحب بلادنا لجمالها ونحب السكان لتعاستهم . كأن الإنسان معفى من حب بلاده إن لم تكن جميلة ومن حب سكانها إن لم يكونوا تعساء .

١٤ — أجمع المؤرخون والكتاب على أن تفكير الأديب المهجرى مزدوج يستوعب مسائل محيطه ويتفاعل فيه . التزم شعراء المهجر أصول الشعر من حيث الوزن والروى ولكنهم تفننوا فى تنويع الأصوات وتنسيق الأبيات . وبذلك روحوا على المغتربين هموم العيش بأناشيدهم العذاب ورفعوا معنويات المغتربين بتمجيد عنصرهم . وقد طل المهجريون فى تجاوب عاطفى متبادل مع أبناء وطنهم طوال سنى هجرتهم . يقول عريضة : أنا المهاجر ذو نفسين واحدة تسير سيرى وأخرى رهن أوطانى ويقول الياس قنصل « لقد وقفنا على مفرق طريقين : الأدب مشدود إليه الفقر والتجارة فى طيها الاثراء فلم نتردد « لحظه فى اختيار وما كان ليزيد فى سؤددنا أن يكون بيننا مائة غنى أكثر . بيد أن المائة من الأدباء الذين ربحناهم هم أعلام هذا المجد الباذخ .

ويصور أبو ماضى الازدواج فيقول :

أنا فى نيويورك بالجسم والروح ... فى الشرق على تلك الهضاب

فى ابتسام الفجر فى صمت الدجى ... فى أسى تشرين فى لوعه آب

أنا فى النوطة زهر وندى   أنا فى لبنان نجوى وتصـــابى

١٥ — هناك خطر ضخم يتهدد الأدب العربى فى المهجر وذلك بانقراض هذا الجيل فقد حمل المغتربون اللبنانيون معهم لغتهم العربية إلى المهجر . فاقاموا دولة أدبية هناك منذ نصف قرن تقريبا . وانتقل أدب المهجر من الشمال إلى الجنوب — إلى البرازيل . والأدب هناك بين مدوجزر وقد تنازعته عوامل البقاء والفناء مراراً . ويتعرض الأدب اليوم للفناء نظراً لأن الجيل الجديد من أبناء المهاجرين لايعرف اللغة العربية إلا قليلا . فإنه قد تعلم لغة غير لغة أبائهم وأجدادهم . ويقال أن «التأمرك» سيامب دوره بقوة فى نفوس هؤلاء الأبناء — كما يقول سامى الـكيالى[1] — الذين ستنقطع صلاتهم لا بالأدب العربى فحسب بل باللغة العربية التى لم يعرفوا فيها غير كلمات يرطنون بها دون أن يكتبوا بها . ويقول جورج صيدح أن البيئة الأمريكية والمدارس الأمريكية تحتضن أبناء المهاجرين وتلقنهم لغتها وعقليتها ونزعاتها وعاداتها فما يكاد هؤلاء الأطفال يترعرعون ويدخلون غمار الحياه ويتسلمون هذه المتاجر الـكبيرة والمصانع الضخمة والأعمال الواسعة التى اسسها لهم أباؤهم وأجدادهم حتى يكونوا قد أصبحوا أمريكيين روحا وفـكرا وقلبا وقد قطعوا علاقتهم بلغتهم ووطنهم إلا بقايا حنين قد يذكرونه بالمناسبات الطارئة قومية أو دينية ثم لايلبثون أن يعودوا إلى سلطان البيئة التى أحالتهم آلات متحركة تدور بسرعة مع الزمن فى تلك البقعة الـكبيرة التى صهرت وما تزال تصهر فى مجتمعها مختلف الجماعات وشتى الثقافات .

وتـكهن جورج صيدح بأن المدرسة المهجرية مقضى عليها بالتلاشى بعد عشرين عاما حيث لاتبقى نغمة عربية فى المهاجر .

---

(١) مصير اللغة العربية فى المهجر الأمريكى — مقال الاهرام — ١٩٥٢/١٢/١٢ م .

٣ — نموذج من المهجر : « الشاعر القروى » سليم رشيد خورى

من أبرز شعراء العصبة الأندلسية ومن دعاة القومية العربية . قام مع «الياس فرحات » بإثارة روح الوطنية ومقاومة الاستعمار . يقول الياس فرحات :

ما الشام . مالبنان . ماحوران ما عمان والقدس الشريف الخالد
هذه الدويلات المبعثرة القوى محمد يقوم بهن بيت واحد
قسما بأمة يعرب وبتربة فيها أبو الجرات يعرب خالد

وقد صدر الشاعر القروى هدفه فى مقدمة ديوانه فقال :

قويت الحركة الوطنية فى سان باولو على أثر انفضاح وعد بلفور وشبوب الثورات فى العالم العربى . فانشطر الكتاب إلى استقلاليين واحتلاليين ومرتزقة مذبذبين فقامت الحفلات الوطنية الأدبية على قدم وساق تدعونى للاشتراك بها قولا وعملا . كنت انقطع عن التجوال شهراً كاملا مضحيا باجرتى ومنفقاً من جيبى لأنظم القصيدة التى طلبت منى وبعد أن أهيىء القصيدة كنت أنظم التراتيل وألحنها وأمرن الجوقه على إنشادها حتى إذا انتهت الحفلة بعد منتصف الليل وبعد أن أكون أقمت الحفل وأقعدته تحمسا وهتافا أخرج إلى الريح والبرد والعرق يبلل ثوبى ولا أجد من يقلنى بعربة إلى بيتى ثم أصبح لأرى الجرائد الاحتلالية توسعنى قدعا وتلوم الذين دعونى إلى الكلام » وقد عاد الشاعر القروى إلى الوطن لبنان بعد ٤٥ عاماً . وكان قد فارقه عام ١٩١٣ بدعوة ملحة من عمه وزاد فى إكراهه على الهجرة دون خلفها والده فسافر . وهاجر من شرق يعانى الاضطهاد السياسى وظلم الحكام والعيش الضيق. وكان يحمل الكشه (كامة برتغالية بمعنى صندوق) يربطها وراء ظهره وهو يطوف بها فى مختلف الولايات وكما اكتشف فى نفسه قول الشعر قال « بعدت همتى فعفت كنوز الأرض لما عرفت قيمة كنزى . لا أبالى شبعت أم جعت والفن

شرابى وعزه النفس خبزى » وقد تتبع فى قصائده الوطنية تاريخ النكبات التى حاقت بالأمة العربية منذ أيام الحرب العالمية كما سجل مظالم الأتراك ومؤامرات الانجليز والفرنسيين . وغنى لثورة الجبل ضد الاستعمار الفرنسى .

وقد صور مفهومه للقومية العربية فقال « العروبة عندى أن يشعر اللبنانى أن له زحله فى الطائف ويشعر العراقى بأن له فراتا فى النيل . هى دم زكى يجرى فى عروق الجسد الواحد أعضاؤه الأقطار العربية وكل مايعوق دورة هذا الدم يعرض الجسد كله للأخطار . وكان شعره فى عهد الانتداب يصل مهربا إلى بعض أصدقائه فيقومون بطبعه سراً فى نشرات يوزعها باعة الصحف على الجماهير . وكانت نفسه تتمزق بالحنين للوطن . وقد وصف أعضاء العصبة الأندلسية فى المهجر الجنوبى بأنهم توخوا الابتعاد عن التطرف الذى اتسمت به الرابطة القلمية فى الشمال . والعصبة أقل تجديداً وأكثر حفاظاً على اللغة وله مؤلفات البواكير والأعاصير والزمازم والمحافل والمجالس والأزاهير ومن شعره فى القومية العربية قوله :

حملت صليبى قاصداً أرض موعدى ... فمن شـاء فليحمل ورائى صليبه

ولـكننى أصـبو إلى عيد أمة ... محررة الأعناق من رق أعجم

إلى عـلم من نسج عيسى وأحمد ... وآمنة فى ظـل أخت لمريم

هبونى عيـدا يجعل العرب أمة ... وسـيروا بجثمانى على دين برهم

وقد وصف رشيد الخورى بانه قديس الوطنية العربى وقد لقى من بعض خصوم الفكرة العربية فى المهجر والوطن عواصف من الظلم والتجريح .

٤ — نماذج من ميخائيل نعيمه

يقول : « إذا سئلتم عن أبدع أيات الفن وأغلاها قولوا : ضمير لا يسخر وجبين لا يعفر ولسان حليم شكور وقلب عفيف غفور . وعين لا تبصر القذى ويد لا تنزل الأذى وفكر يرى فى البلية عطية وخيال يربط الأزلية بالأبدية »

كحل اللهم عينى بشعاع من ضياك كى تراك
فى جميع الخلق . فى دور القبور
فى نسور الجو . فى موج البحار
فى سرير العرس فى نفس العظيم
فى يد المحسن : فى كف البخيل
وافتح اللهم أذنى كى تعى دوما نداك — من علاك
فى ثغاء الشاه ، فى زار الأسود
فى نعيق البوم . فى نوح الحمام
فى خرير الماء ، فى قصف الرعود
فى هدير البحر فى مر الغمام
فى صراخ الليل . فى همس الصباح
فى بكا الأطفال . فى ضحك الكهول
فى ابتهالات العراة الجائعين

فى انتحاب النـــاى . فى دق الطبـــول
وإذا ما قرب المـــوت ووافاها الصمم
فاختمن ربى عليهـــا ريثما تحيـــا الأمم
واجعل اللهم قلبى واحة ـ يستقى منها القريب ـ والغريب
ماؤها الإيمـــان أما عرسهـــا
فالرجا والحب والصـــبر الطويل

— ٢ —

أيها اللابسون عرس اليتامى كيف تدفأون
أيها الكارعون رى العطاش كيف تنقعون
أيها الآكلون خبز الجياع كيف تشبعون
أيها الراضمون ثدى الثكالى كيف تسمنون
أيها المستحمون بالدم الحى كيف تطهرون
أيها المدلجون إذ يقبل الليل أين تدبرون
أيها البائعون سم الأفاعى هل سوى السم تربحون

— ٣ —

إذا سماؤك يوما تحجبت بالغيـــوم
أغمض جفونك تبصر خلف الغيوم نجـــوم
والأرض حولك إما توشحت بالثلوج
أغمض جفونك تبصر تحت الثـــلوج مروج

وإذا بليت بداء وقبـــل داء هياء
أغمض جفونك تبصر في الداء كل الدواء
وعندما الموت يدنو واللحـــد يفغر فاه
اغمض جفونك تبصر في اللحد مهد الحياه

يصور « مناور[1] عويس » طريقة ميخائيل نعيمة ومذهبه الأدبي فيقول :

« إن نعيمه فيه نبوة ولـكنها من نوع جديد وآثاره الأدبية هي امتداد لأنبياء العهد القديم » ونعيمة أشد الشعراء اتصالا بالنفوس وأعلقهم بالأرواح . إنه من أولئك الشعراء والـكتاب الذين يرتفعون بالانسان إلى آفاق الروح الـكلي ويمتزجون امتزاج الليل بالنهار والروح بالجسد فما قرأته مرة إلا رأيتني أقرب ما أكون إلى الله وأبعد ما أكون عن التراب. وشاعرية نعيمة لا تعتمد على بلاغة الألفاظ ورنين القوافي، وإنما هي شاعرية مجنحة تحلق بين الأرض والسماء قوامها الروح ولحمتها وسداها الأفـكار السامية والتأملات العميقة . وفي شعر نعيمة صوفية حالمة وحيرة وتساؤل وشك وإيمان . فيه ثورة وتمرد واستسلام . فيه امتزاج بالـكون . فيه صلوات وابتهالات تحمل في تضاعيفها النور والطمأنينة . في شعر نعيمة هينمة النسيم وأنداء الربيع .

٥ — نماذج من جورج صيدح — المهاجر

مل عيش السلم في ظل الســلامة فمشى للبحر يســتوحي غرامه
ركب الأخطـــار فاستسهلها مركبا واجترف الموت أمامه
من رآه في المغـــارات رأى أســداً يستنجز الغاب طعامه
وله أجنحـــة النسر إذا نفر الرزق وأطراف النعـــامة

---

(١) الرسالة — ديسمبر ١٩٤٧ .

٦ – يوسف فاخورى :

هجروا وبين ضلوعهم أمل ... هيهات يبسم ذلك الأمل
وتشتتوا فى الكون رائدهم ... العزم والأقدام والعمل
لم يثنهم عن خوض معترك ... وجل ولا عن مأرب فشل
لوكان فى الحسبان أن غدا ... فى الهجر ينسى الكوخ والطلل
قسما لما مخرت سفائنهم ... بحرا ولا عن ربعهم رحلوا

٧ – نسيب عريضه : مجاعة لبنان :

كفنوه وادفنوه وأسكنوه هوة اللحد العميق
وأذهبوا لا تنبذوه فهو شعب ميت ليس يفيق
ولنتاجر — فى المهاجر — ولنفاخر — بمزايانا الحسان
ماعلينا أن قضى الشعب جميعا أولسنا فى أمان
رب ثار — رب عار — رب نار؛ حركت قلب الجبان
كلها فينا — ولكن لم تحرك ساكنا إلا اللسان

مصر

الاقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة

عاشت[1] مصر تاريخا طويلا من المقاومة والتجمع . فقد اتصل بها الاستعمار باكراً حتى ليمكن القول بأن أثر الاستبداد العثمانى لم يكن بالنسبة إليها مباشراً أو فى نفس القوة والصرامة التى قاستها الأمة العربية فى سورية والعراق وغيرها. فقد كانت التركية العثمانية قد تمثلت فى أسرة محمد على الذى كانت تحكم مصر والتى خلقت على وجه الحياة المصرية العربية لونا « تركيا » حائلا مريرا فيه ذلك الظلم الشامل والتفرقة الواضحة وكانت العلاقة بين هذه الأسرة الألبانية التى تحكم مصر وبين المصريين على حد قول اسماعيل فيما بعد « أنتم عبيد إحساناتنا » فقد كان محمد على وأبناؤه وخلفاؤه من بعده يظنون مصر ضيعة كبيرة لهم ويرون المصريين عبيدهم فيها . وقد ظل هذا المعنى يعيش فى نفوسهم وقتا طويلا حتى أنهم كانوا يفصلون دائما بين الدم السلطانى الأزرق وبين الدم المصرى . وهم الذين كانوا يذيعون دائما قصة بناء الهرم الأكبر على أنها رمز على عبودية المصريين .

وقد حرصت أسرة محمد على منذ اليوم الأول على الاستعانة بالأجناس المختلفة كالأرمن والقوقازيين والشركس والأتراك فكانوا موضع ثقتهم ومحل تقديرهم وقد جعلوا منهم حاشيتهم وبلاطهم، وكانت هذه الأجناس كلها تنطوى على كراهية عميقة للمصرين والعرب معا .

وكان الاستعمار الفرنسى قد اتجه إلى مصر عام ١٧٩٨ فى حملة بقيادة نابليون تعتبر فى تقديرى أول حركة للسيطرة على العالم العربى إذ سبقت كل حركات

---

(١) العالم الإسلامى والإستعمار لأنور الجندى وجمال عبد الناصر وكفاح الشعب للمؤلف نفسه .

بريطانيا فيما بعد لاحتلال بعض شواطىء الخليج الفارسى وقد كانت مقاومة مصر لهذه الحملة بهذه الصورة المعروفة من التجمع والعنف والاستمرار مدى ثلاث سنوات هو استهلال قوى لحركات المقاومة التى تلت ذلك فى مختلف الاقطار العربية التى حاول الاستعمار احتلالها وقد كانت محاولة احتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٠٧ بواسطة حملة فريزر هى بداية هذه المرحلة الطويلة من معركة المقاومة والتجمع التى قام بهاالعرب فى مواجهه الاستعمار الغربى الذى هاجم المنطقة كلها بأساليب مدروسه .

وقد عجزت الحملة الفرنسية أن تستمر وما أن انجلت هذه الحملة حتى زحفت حملة فريزر على رشيد عام ١٨٠٧ وسحقتها المقاومة الشعبية واضطرتها إلى الجلاء .

وفى هذه الفترة كان محمد على قد نصب نفسة حاكما على مصر وبذلك بدأت مرحلة جديدة من حياة كان قوامها الاستبداد والديكتاتورية التى أقام عليها محمد على حكمه والتى كانت أطماعه الخاصة والشخصية عاملا من العوامل البعيدة المدى فى إرهاق الشعب وحشد المظالم فوق كاهله . فقد فدحت السخرة جيل المصريين فى عهد محمد على فلم يتذوق طعم الحرية الشخصية ولاحق الملكية وذلك عندما حرق محمد على جميع مستندات تملك الأراضى بعد أن سحبها من أصحابها وسيطر هو على جميع هذه الأراضى ووضع نظام احتكار الحاصلات المصرية .

وقد بدأ محمد على فوزع هذه الأراضى على أعوانه وأطلق على هبات الأراضى التى أعفيت من الضرائب إسم الابعاديات لأنها أبعدت عن السجلات وكانت مساحات هذه الأرض من نصيب أفراد أسرة محمد على وأعوانه من الشراكسة والاتراك والفرنسيين الذين كانوا من حوله . ثم سار اسماعيل فى نفس الطريق الذى أجاز للأجانب تملك الأراضى وقد بلغ ما قدمه من هبات ، لرجال وسيدات أكثر من ٧٨٦ ألف فدان . ومضى اسماعيل فى سياسة الاستدانة التى كانت بعيدة المدى

فى تحطيم معنوية الشعب واقتصادياته والتمهيد للاحتلال البريطانى وذلك بعد حفر قناة السويس والسير فى نهج البذخ والإسراف .

وإذا كان محمد على قد قضى على روح المقاومة الشعبية التى كانت عاملا فعالا فى القضاء على الحملة الفرنسية فإن هذه المقاومة قد عادت من جديد لتواجه مظالم اسماعيل وديونه وإسرافه ولم تلبث روح الشعب أن ظهرت قوية فى مجلس شورى النواب — الذى أرغم على إقامته فى أواخر أيامه — وذلك عندما هاجم محمود العطار وعبد السلام المويلحى الحكومة هجوما عنيفا. ثم كانت ثورة عرابى ١٨٨١ ثمرة لهذا الضغط العنيف الذى جاء نتيجة إسراف الخديويين واستبدادهم . وكانت متنفسا للمشاعر الشعب . وقد بدا هذا واضحا فى موقف عرابى فى ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ وما تلاه من مواقف ، فقد انهزم عرابى فى التل الكبير بعد انتصاره فى كفر الدوار بفعل الخيانة سواء من ناحية أعوان الخديو الذين كشفوا الطريق لجنود الانجليز أو من ناحية قناة السويس حين خفر دلسبس وعوده .

وقد أبدى المصريون مقاومة باسلة فى مواجهة الأسطول البريطانى كما خرج أهالى باب الشعرية والحسينية يحملون الهروات ويمسكون بالسكاكين وقال لهم محافظ القاهرة : لا فائدة : قد سلمت الدولة . وصاح الأهالى : سلمت الدولة ولكن الشعب لم يسلم . ثم ارتفع صوت مصطفى كامل يعيد الأمل والحياة بعد فترة من اليأس . وعادت إلى مصر روح المقاومة من جديد . وكان ميدان المقاومة هو السلطة الاستبدادية ممثلة فى الخديو والسلطة الفعلية ممثلة فى الاحتلال البريطانى وقد كانا يتعاونان فى سبيل القضاء على روح الشعب وتركيز الاحتلال وتدعيمه . فقد ادعى الاحتلال أنه إنما جاء ليسند عرش الخديو وآمن أبناء أسرة محمد على من بعد بأنهم فى حماية المستعمر من غضب الشعب ونقمته .

وكانت دنشواى بؤرة أخرى ألهبت المشاعر الوطنية (٢٤ يونية ١٩٠٦)

فقد نصب الإنجليز المشانق قبل المحاكم وحكم على اثنين وخمسين وطنيا .

ثم لم تلبث الحرب العالمية أن أعلنت وفرضت بريطانيا الحماية على مصر وقطعت آخر علاقة لها بالدولة العثمانية كما جند بضعة ألوف من المصرين أكلتهم الصحراء . . وكانت بريطانيا قد أعلنت فى بلاغ الحماية أنها تحتفظ بحقوق شعب مصر لتردها له بعد الحرب . ثم تبين بعد الهدنة أن هناك مؤامرة لتحويل مصر إلى نظام حماية دائم ؛ هنالك انفجرت الثورة المصرية التى كانت قد استمدت ضرامها من كفاح مصطفى كامل ومحمد فريد وكانت ثورة ١٩١٩ ثورة عارمة قوية هزت العالم كله . وكشفت عن أصالة المعدن المصرى العربى إذ كانت ثورة بدون قائد وقد عمت انحاء البلاد فى نظام وقوة وتجمع تمثلت فيه فيها جميع طوائف الشعب . واستشهد فيها عدد من الجنود المجهولين من غير البيئات التى تنازعت مجد الثورة وثمرتها فيما بعد . وعندما توقفت الثورة امتدت المقاومة عامين كاملين كان شباب مصر خلالها يهاجون كبار الانجليز وأعوانهم ويصرعونهم فى الميدان والشوارع .

ولكن الاستعمار استطاع أن يحطم ثورة ١٩١٩ بإدخال نظام الحكم النيابى والدستور وقيام الأحزاب فى ظل الاحتلال وفى خلال أربعين عاما كان الصراع الحزبى والفساد السياسى قد بلغ مداه . وكان الاقطاع قد أستشرى فقد خلق الاستعمار طبقة جديدة من السياسيين المحترفين . وسيطر بواسطتهم على الحكم وأخذ ينقلهم كقطع الشطرنج . وكان حكام أسرة محمد على قد ساروا فى ركب بريطانيا مؤمنين بأنها هى القوة الوحيدة التى تحميهم من عدوان الشعب .

ولم يتحقق لمصر فى خلال هذه الفترة (١٩٢٢ — ١٩٥٢) أى تقدم بالنسبة لقضاياها الرئيسية [الجلاء والحرية الداخلية] ولكن الشعب قاوم فى معارك متعددة وقدم شهداءه وضحاياه . وكان للفكر دوره الواضح فى مقاومة هذه السلطات الاستبدادية ومحاولة الخروج عن القيود المضروبة عليه حتى كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حين قضت على الإقطاع والملكية والحزبية جميعا .

٢ — أثر جمال الدين فى الثورة المصرية

قاوم الفكر[1] العربى المصرى الحملة الفرنسية وقاوم استبداد أسرة محمدعلى وقاوم فى الثورة العرابية وقاوم فى ثورة ١٩١٩ ثم قاوم بعد ذلك طوال فترة الاحتلال وقاوم فى معركة السويس وظهر فى هذا المدى كتاب وشعراء أثاروا الروح الوطنية وهزوا أعماق الشعب من هؤلاء عبد الله نديم والبارودى ، وأحمد محرم وحافظ وأحمد فؤاد وأحمد حلمى والمنفلوطى ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وأمين الرافعى .

ولقد شرد هؤلاء وقاسوا النفى والسجن والإرهاب بمختلف صوره ولكنهم قاوموا وهزوا المشاعر مصورين قسوة الاحتلال وظلم دنشواى واستبداد أسرة محمدعلى . ولا ينسى فى هذا المجال رجل أجج الثورة على الاستعمار والاستبداد معا هو جمال الدين الأفغانى الذى كانت الثورة العرابية وثورات تركيا وإيران وغيرها ثمرة لروح التمرد التى بعثها فى الشباب حين كشف لهم عن فساد المستبدين الحاكمين وطغيانهم وتسلط الاستعمار على البلاد عن طريقهم . وفى مصر كان جمال الدين يجمع من حوله الأعوان ويفضح بريطانيا ويدعو إلى المقاومة بكل وسيلة ويهاجم عبد الحميد خليفة المسلمين المستبد ويدعو إلى اغتيال المستبدين إسماعيل خديو مصر وعبدالعظيم شاه إيران.

وامتلأت مصر بالمنشورات السرية التى تصور سوء الحال وانتشار الظلم وكان أول المنشورات بيان سياسى فى ٤ نوفمبر ١٧٨٩ طبع منه عشرون ألف نسخة ولم تلبث أن أسفرت هذه الجماعة عن وجهها فى حزب سياسى هو الحزب الوطنى الأول (يناير ١٨٨٢) . ولكن جمال الدين الأفغانى الذى أمضى فى مصر عامين يثير النقمة على اسماعيل فى إستبداده وإسرافه وتمكينه للدول الأجنبية كان يتوقع أن يسير توفيق سيراً حميداً من بعده فقد اجتمع به طويلا قبل نفى اسماعيل وعاهده على أن يقيم

---

(١) اقرأ ذلك بالتفصيل فى كتابنا (معالم الأدب العربى المعاصر — مصر) .

دعائم الشورى عندما يتولى الحكم . ولكن توفيق ما كاد يلى الملك حتى كان أول أمر أصدره هو نفى جمال الدين من مصر وكان ذلك بقرار من مجلس النظار الذى انعقد برئاسته وذلك لأن بريطانيا أوعزت إلى الخديو الجديد منذ أول لحظة من لحظات ملكه أن يخرج جمال الدين من مصر وكان نفيه غاية فى القسوة والغدر إذ قبض عليه مساء ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ وهو عائد إلى بيته ومعه خادمه « أبو تراب » وحجز فى الضبطية ولم يمكن من أخذ ملابسه وفى الصباح حمل فى عربة مقفلة إلى القطار . ثم نقل تحت المراقبة الشديدة إلى السويس وأنزل إلى باخرة أقلته إلى الهند وسارت به إلى بومباى .

وصدر بيان رسمى فى مصر ذكر فيه أن نفى جمال الدين الأفغانى جاء لأنه « سعى فى الأرض بالأفساد وأنه رئيس جماعة من الشبان ذوى الطيش للعمل على فساد الدين والدنيا » وقد ظهر أثر جمال الدين الأفغانى فى الفكر العربى المصرى واضحا فى مختلف صور المقاومة الفكرية وقد كان «صالح مجدى» أول شاعر هاجم اسماعيل مصوراً المظالم التى حملها إسماعيل للبلاد من جراء الديون التى استدانها لينفقها على شهواته وملاذه .

رمى بلادكم فى قعر هاوية	من الديون على مرغوب جوسبار
وأنفق المال لا بخلا ولا كرما	على بغى وقواد وأشرار
فاستيقظوا ؛ لا أقال الله عثرتكم	من غفلة البستكم ملبس العار

وقال فى مناسبة أخرى يدعو إلى الجهاد والمقاومة وتحرير البلاد من ظلم اسماعيل وأسرة محمد على :

فلو كان فينا نخوة عربية	لملنا على أعدائنا بالصوارم
فان نحن متنا قبل أن نبلغ المنى	عذرنا ورحنا بالثنا والمكارم
وان نحن أنقذنا من الجور أهلنا	ظفرنا وفزنا بالثنا والمغارم
أما فيكم يا أهل مصر كغيركم	نصير يرجى للقنا والعزائم

وفى إبان الثورة العرابية كان عبد الله نديم هو خطيب الثورة والكاتب الذى يحرر صحيفة الطائف داخل المعسكر يحمل فيها على استبداد توفيق وعدوان البريطانيين . وعنه تلقى مصطفى كامل دروس الوطنية الأولى وعرف الكثير من إسرار الثورة العرابية ودسائس السياسة الانجليزية .

وكانت الدعوة التى حملها عرابى باقامة النظام النيابى ١٨٨١ ترمى إلى الحد من سلطة الخديو ، وكان عرابى وأصحابه يفضلون النظام الجمهورى ويهمون بتنفيذه . يقول عرابى: فلما خلع اسماعيل زال عنا عبء ثقيل ولكنا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا تخلصنا من أسرة محمد على بأجمعها وكنا عندئذ أعلنا الجمهورية .

ويقول البارودى : لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية مثل سويسرا ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم ومع ذلك فسنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت . وقد استهل مصطفى كامل دعوته لجاهر بطلب الجلاء فى أول حديث له فى الأهرام ٢٨ يناير ١٨٩٥ ثم أصدر اللواء فى ٢ يناير ١٩٠٠ .

وواصل الكتاب الجهر بالعداء للخديو فنشر محمد عبده مقالا فى صحيفة المنار ١٩٠٢ يهاجم فيها سياسة محمد على بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس الأسرة العلوية :

« ما الذى صنع محمد على . أنه لم يستطع أن يحيى ولكنه استطاع أن يميت ، مات معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستمين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر حتى إذا سحق الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأسا يستثير فيه ضمير واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا إلى جمع السلاح من الأهلين وأخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى . حتى انحط

الكرام وساد اللئام ولم يبق فى البلاد إلا الآت له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأى طريقة وعلى أى وجه تخنق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى لتصير البلاد المصرية جميعاً أقطاعا واحداً له ولأولاده » .

وصاح مصطفى كامل صيحة « المقاومة والتجمع » : بلادى بلادى . لك حبى وفؤادى . لك حياتى ووجودى . لك دمى ونفسى . لك عقلى ولسانى . لك لبى وجنانى فأنت أنت الحياة ولاحياة إلا بك يامصر» وعرّض «على الغاياتى» شاعر الحزب الوطنى بالخديو الذى يحارب الأحرار والذى يمارض إرادة الشعب المطالب بالدستور . وكانت القومية العربية على لسان عبد الله نديم قبل أن يهل القرن العشرون[1] أنا أخوك فلم أنكرتنى . ما الشام ومصر الا توأمان أبوهما واحد يسوء الاثنين ماساء أحدهما . فلم تنافر أبناؤهما وانحاز السوريون من جانب بعيد عن المصريين.ونادى عبد الله نديم بأن اللغة العربية هى أبرز مقومات الوحدة العربية وهاجم الذين استهوتهم المدنية الغربية فاخرجتهم عن قوميتهم كما هاجم الجامدين من رجال الدين وفى عام ١٩٠٧ رفض محمد فريد أن يقف عند عزف السلام الخديوى فى الأوبرا وارتفع صوت الصحافه المصرية لأول مرة بانشاء المؤيد (ديسمبر ١٨٨٩) باثارة مسألة الجلاء وحمل عبد الله نديم فى مجلة الأستاذ ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ حملة عنيفة على الاستعمار . وفى ذات يوم والخديو عائد من مصيفه بالاسكندرية صدرت صحيفة الصاعقة فى ٣ نوفمبر ١٨٩٧ وعلى صدرها قصيدة غير ممهورة نظمها مصطفى لطفى المنفلوطى بدأها يقول :

قدوم ولكن لا أقول سعيد ... وملك وأن طال المدى سيبيد

بعدت وثغر الناس بالبشر باسم ... وعدت وحزن فى الفؤاد شديد

---

(١) مجلة الأستاذ — ١٧ يناير ١٨٩٣ .

تمر بنا لاطرف نحـــوك ناظر ولا قلب فى تلك القلوب ودود
علام التهانى هل هنـــاك مآثر فنفرح أو يسعى لديك جهيـــد
تذكرنا رؤياك أيام أنزلت علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم (مقـدونيا) فأصابنا مصوب سهم بالبلاد شـــديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا إذا أصبح التركى وهو عميـــد
فـكم سفـكت منا دماء بريئة وكم ضمت تلك الدماء لحود
وكم ضم بطن البحر أشـلاء جمة تمزق أحشـــاء لها وكبـــود
وكم صــــار شمل للعباد مشتتا وخرّب قصر فى البلاد مشيد
وسيق عظيم القوم منا مكبــــلا له تحت أثقال القيود وتيـــد
فما قام منـكم بالعـــدالة طارق ولا ساد منـكم بالبـــلاد سعيد
كأنى بقصر الملك أصـــبح بائداً من الظلم والظلم المبـــين مبيد
وينـــدب فى أطلاله البوم ناعيا له عند ترديد الثناء نشـــيد
أعباس ترجو أن تـكون خليفة كما رام آباء ورام جـــدود
فياليت دنيـــانا تزول وليتنا نـكون ببطن الأرض حين تسود
أعباس لاتحزن على الملك أنه تقضى فهذا الحزن ليس يفيـــد
أعباس صـــار الملك فى يد عازل يذب الردى عن حوضه ويذود
وقد كان جفن الدهر وسنان هامداً وهاهو هب اليوم منـــه وجود

واعتقل « أحمد فؤاد » صاحب الصاعقة واعترف فى التحقيق بأنه يأسف لتأخره فى طبع القصيدة . وكان ينوى أن ينشرها مرات ومرات حتى يتم نشرها .

وألقى القبض على المنفلوطى وذاعت القصيدة فى كل مكان .

وأراد الصحفى سليم سركيس أن يزيد فى نشرها وأن يمعن فى تضليل القصر عنها فألقى على الشيخ الموصلى تشطيرها بمدح الخديوى فجاءت هكذا :

قدوم ولكن لا أقول سعيد على فاجر هجو الملوك يريد

لا ضرابه بيت من اللؤم عامر وملك وإن طال المدى سيبيد

وعرف الناس الذين لم يعرفوا أصل القصيدة .

وكانت أول قصيدة تشهدها المحاكم . ووقف أحمد فؤاد فى المحكمة يدافع عن نفسه ويقول : أن ليس فى القصيدة قصد سىء . وهى خالية من كل سب وطعن . وقال إنى لست أول من قال بظلم العائلة الخديوية فإن أشهر صحف مصر نشرت مرة أن الخديوى سعيد أراد يوما أن يجرب مدفعا جديدا . فقال له أحد رجال الحاشية : هل يأمر مولانا بان نتمهل ريثما يمر الناس فاجابهم : أضرب النار . نحن لم نتسلم الناس بالعدد ..

وقال أيضا : أن الخديوى اسماعيل حاصر إحدى قرى الصعيد فضربها بالمدافع لغضبه على رجل واحد . وقد حكمت المحكمة على أحمد فؤاد بالسجن عشرين شهرا وعلى المنفلوطى ستة أشهر . وقد كان لصدور ديوان «وطنيتى» للشيخ على الناياتى هزة ضخمة ، أثارت الاستعمار فحاكمت مؤلف الديوان وكاتبى مقدمته : محمد فريد وعبد العزيز جاويش . وهاجم أحمد حلمى فى جريدته « القصر المصرى فى ١٠ يناير ١٩٠٩ أسرة محمد على فى عنفوان مجدها فقال :

لا شك ولا ريب أن سبب شقاء المصريين وتأخرهم وعدم تقدمهم هم عائلة محمد على سواء أكان ذلك أدبيا أم ماديا • أما من الجهة الأدبية فمشهور بأن مصر من اليوم الذى رمتهم إليها مقدونيا إلى الآن مائة عام كانت كافية لأن تبلغ

خلالها مابلغته فرنسا من الأقدام والرقى والاستعداد لحكم نفسها بنفسها . ولكن سوء قصدهم حال بين المصريين وبين التقدم لأنهم يعلمون أن مصر متى بلغت رشدها لاتقبل ذل حكم الأجنبى ولا ترضى بأن تسلم زمام أمورها ومصالحها للغرباء لأن صلاحهم فى فسادها وتقدمهم فى تأخرها وقد اشهرت عائلة محمد على على العلم والفضل حربا عوانا . أما المدارس التى زعم المنافقون أن محمد على أسسها لخير مصر فقد كان غرضه بها الحصول على عدد الضباط يستخدمهم فى مقاصده لما كا عازما على الخروج على الدولة صاحبة النعمة عليه • وقديتم أولاد المصريين ورمل نساءهم فى حروبه التى لم تنل مصر من وراءها خيرا غير ادعاء حفيده اليوم أن الامتيازات التى حصلت عليها بدمائها له لا لها .

وقد اقتفى أثر محمد على فى قبح فعله وسوء سيرة أولاده واحفاده من بعده فازهقوا روح العلم وضنوا به على المصريين• ولم يجودوا عليهم إلا بالنزر اليسير لطائفة مخصوصة من مماليك اصطفوهم دون غيرهم فقربوا منهم كل متشرد ولا يعرف أحد مسقط رأسه ولا ملقط جسمه وسلموه الوظائف واستعانوا بهم على بقاء المصرى فى حالة الجهل حتى لايطمح ببصره إلى الاستقلال .

وسلبوا الضياع وانفقوا ماتغله على شهواتهم لتبقى مصر إلى الأبد وقفا محبوسا على كل ولد تلده نساؤهم .

ليس الغريب هذا . وإنما الأدهش والاغرب أن طائفة من عباد السلطة المطلقة يكذبون على التاريخ ويدعون من وقاحتهم أن العائلة المحمدية العلوية خدمت مصر • ويستدلون على ذلك بوجود بعض مدارس انشأوها ليضللوا الناس فى أدب كى يكون بأيديهم الحجة الدامغة على خدمة العلم . وما أنشاؤها إلا خداعا وغشا حتى لايتسنى لأحد أن يذ كر قبح أثرهم وسوء تاريخهم فى مصر

ولأن عائلة محمد على هى التى تبتذ رها وغيره سلمت مصر إلى الانجليز وأنهم يبغضون المصرى ويكرهونه أشد البغض ومن العار أن يسلم عنقه لعدوه ثم بأى حق مشروع تأخذ عائلة محمد على من الخزينة المصرية ثلاثمائة وخمسين ألف ليرة سنويا وأى شر دفعوه عنها أم أى خير جلبوه لها حتى يكال لهم المال جزافا .. »

وكان لهذه الصيحات الثائرة الدافعة إلى المقاومة أثرها فى نفس الشعب. وكان عبد العزيز جاويش يهاجم الاستعمار والاستبداد معا فيقول :

« أيها القلم : لو كنت سيفا لاغمدتك فى صدور من يحاربونك . أو سهما لأنفذتك فى أعماق قلوبهم. ولو كنت جواداً لوجدت لك فى ميادين النزال مجالا للكر والفر ولكنك ذلك العود الذى أيسر ماينال منه عدوه أن يعالجه بالمبراه فيشقه وبالأصابع فيكسره . فلتكن أيها القلم ماشاءوا لك. أما نائما إلى حين أو ميتا أبد الآبدين فقد تركت عيونا لايغروها النوم وقلوبا لايملكها اليأس . وأيديا لاتخاف السلاسل والاغلال وأرواحا تغذى الحرية والاستقلال .

وقوله فى تصوير الانجليز : أن الإنجليز لاتاريخ لهم يستحق القرأءة . ولا أفكار لهم تستحق الدراسة ولا فلسفة تستحق البحث : اللهم إلا مذهب دارون وسبنسر والأول لاقيمة للانسان عنده والثانى لاقيمة عنده إلا للاشياء المادية. وفى ذكرى دنشواى قال : سلام على أولئك الذين كانوا فى ديارهم آمنين مطمئنين فنزل بهم جيش الشؤم والعدوان فازعج نفوسهم . وأحرق حصادهم فلما هموا بصيانة أرزاقهم قيل إنهم مجرمون. وسيقوا فى السلاسل والأغلال على مرأى وجمع من زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم وعيالهم وجيرانهم .

« سلام على تلك الأرواح البريئة التى انتزعها رئيس المحكمة المخصوصة من مكانها فى أجسامها وقدمها قربانا إلى ذلك الجبار الظالم والغاصب القاهر القائم فى بلادنا بنفاقنا وتفرقنا .

« سلام على أولئك الذين وقف المدعى العمومى فثار فيهم ثوران الجبارين. ثم انثنى على رقابهم فقصمها وعلى أجسامهم فمزقها وعلى دمائهم فأرسلها تجرى على الأرض تلعن الظالمين . مشانق منصوبة . وارض بالدماء مخضوبة وأيد بالسلاسل مغلولة . وأرجل بالاصفاد مكبولة ودموع مرسله وأبناء يرون كيف تنتزع أرواح الآباء ونسوة يخدشن الوجوه ويشققن الجيوب والدنيا كلها مأتم لمصابهن .. »

ويقول البارودى فى حمله المقاومة الضخمه :

وكيف ترون الذل دار إقامة	وذلك فضل الله فى الأرض واسع
أرى أرؤسا قد أينعت لحصادها	فاين ولاأين . السيوف القواطع
فكونوا حصيداً خامدين أو افزعوا	إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافع

وكان عبدالله نديم يخطب الفلاحين فى كل قرية ومدينة ويذكى روح الحماسة والوطنية فيهم وينادى بتعبئة القوات الوطنية ويقول : لماذا وأنتم تشقون الأرض بالفئوس لا تشقون صدور الباشوات الأتراك .

وعندما سجن محمد فريد وخرج من سجنه كتب فى اللواء بعنوان « من سجن إلى سجن » يقول: قد مضى على ستة أشهر فى غيابات السجن. ولم أشعر أبداً بالضيق إلا عند إقتراب أجل خروجى . لعلمى أنى خارج إلى سجن آخر . هو سجن الأمة المصرية الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال . لم أشعر بأى انشراح عند حلول أجل مفارقتى لهذه الغرفة الضيقة التى قضيت بها سته أشهر قرية لعلمى أنى خارج إلى سجن أضيق ومعاملة أشد . إذ أصبح مهدداً بقانون العقوبات ومحكمة الجنايات محروما من الضمانات التى ضمنها القانون العام للقتلة وقطاع الطريق . وسيبقى حالنا كذلك حتى نسترد الدستور » .

وفى هذه الفترة من نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين — كانت

كتابات عبد الرحمن الكواكبي تنزل على الاستبداد كشواظ من نار . الاستبداد الذى كانت تعيش فيه مصر وسوريا والعراق والأمم العربية كلها ·

« الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء . وأكبر هولا من الحريق . وأعظم تخريبا من السيل وأذل للنفوس من السؤال . داء إذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادى : القضاء القضاء . . وكيف لا تقشعر الجلود من الاستبداد وعهده عهد أشقى الناس فيه العقلاء وأسعدهم بمحياه الجهلاء

وقد اتبع الاستبداد فى تسمية النصح فضولا . والغيرة عدواة . والشهامة عتوا والحمية جنونا . والإنسانية حماقة . والرحمة مرضا · كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة · والتحيل كياسة والدناءة لطفا والنذالة دماثة .

والعقل والتاريخ والعيان كلها تشهد بأن المعين الأول للمستبد هو اللئيم الأعظم من الأمة . ثم من دونه لؤما . وهكذا تكون مراتب لؤمهم فى التشريفات وأن الحكومة المستبدة تكون بطبيعة الحال مستبدة فى كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطى إلى الفراش إلى كناس الشوارع » ·

وهزمصطفى كامل بقلمه البليغ العالم كله حينما صور مأساة دنشواى :

« نصبت المشانق ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر وأحاطت عساكر (الدراجون) الإنجليزية بالمحكوم عليهم والتفت الخيالة المصرية حول الإنجليز . وقد تقدم إليهما ابن أول محكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة فرفضا قبول هذا الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه الإنسان ويحتمه الشرع والعدل · وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الإنجليزية خيولها وشهرت سيوفها وبُدىء بعد ذلك بدقيقة فى الشنق . وشنق رجل . ولبث أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم عن بعد يملأون الفضاء بصرخاتهم الممزقة للقلوب وجلد اثنين أمام الجثة . وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات · واستمر

ساعة من الزمن • منظر وحشى مهيج للعواطف . بكى منه بعض الحاضرين الأوربيين بدموع الحنان وأبدوا النفور الشديد مما رأوا وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين : لعنة الله على الظالمين . أنه يوم ٢٨ يونية من عام ١٩٠٦ سيبقى فى التاريخ شؤما ونحسا وهو خليق بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية .

عمت مصر كلها عواطف الانفعال و السخط عندما استفاضت أنباء تنفيذ الحكم فى دنشواى . ولقد كان من المستحيل على أعداء الإنجليز أن يصلوا إلى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عاما . ولكن من العجيب أن يكون الموجدون لها هم رجال من الإنجليز . وقد أنشأ المصريون عن حكم دنشواى أشعاراً تخلد ذكرى المناظر الوحشية التى أهينت فيها المدنية الإنسانية والعدل بأقصى الصور المهيجة للضمائر والنفوس ؛ إنى جئت اليوم أسأل العالم المتمدين إذا كان يصح التسامح فى إغفال مبادىء العدل وشرائع الإنسانية إلى هذا الحد .

جئت أسال الذين يجاهدون فى كل آن ذاكرين الإنسانية مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع فى بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى ألف مره أن يثبتوا صدقهم واخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الاوربية فى أعين العالم كافة ..» ومضى صوت مصطفى كامل يهز النفوس ويوقظ القلوب الى دعوة الحرية والمقاومة والتجمع « هل خلق الله وطنا أعلى مقاما وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأخلد أثاراً . واغنى تربة واصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف منها . مصر جنة الدنيا . وأن شعبا يسكنها ويتوارثها أكرم الشعوب إذا أعزها وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها . بلادى بلادى . لك حبى وفؤادى . لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا • أى شرف يطمع فيه الحر أكبر من العمل لاحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية .

« إن الرجال اليائسين وإن كانوا اقل من القليل يضرون بلادهم أعظم الضرر. إذ أن قتل العواطف الشريفة وإخماد نار الغيرة الوطنية هما جناية تجنى على الوطن واهله . فليكن من واجبنا أن نترك هؤلاء البائسين فى سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبط بهم حتى تصل إلى شاطىء الخير وبر الرفاهية .

« مهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام . وأتى بعد الشروق شروق وبعد الغروب غروب . فاننا لا نمل . ولا نقف فى الطريق . ولا نقول أبداً لقد طال الانتظار . عجباً وألف مرة عجبا . كيف تسىء الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث . وقاتلت الليالى وما ولدت . وقاومت تيارات الزمن أجيالا طوالا . فكيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها : ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسيا منسيا وهى التى اهتز لمجدها الشرق والغرب . أن فى مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعى العمل. فلبست ثياب البؤس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن.»

— ٢ —

واهتز الشعر للأحداث وساهم فى حركة المقاومة ؛ يقول شوقى فى دنشواى :

يادنشواى على رباك سلام	ذهبت بأنس ربوعك الأيام
ياليت شعرى فى البروج حمائم	أم فى البروج منية وحمام
«نيرون» لو أدركت عهد «كرومر»	لعرفت كيف تنفذ الأحكام
السوط يعمل والمشانق أربع	متوحدات والجنود قيام
والمستشار إلى الفظائع ناظر	تدمى جلود حوله وعظام

ويقول حافظ :

أيها القائمون فى الأمر فينا	هل نسيتم ولاءنا والودادا

خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً ... وابتغوا صيدكم وجوبوا البلاد

وإذا أعوزتكم ذات طوق ... بين تلك الربى فصيدوا العبادا

انما نحن والحمام سواء ... لم تغادر أطواقنا الاجياداً

أحسنوا القتل إن ضنتم بعفو ... اقصاصاً أردتم أم كيادا

ليت شعرى أتلك محكمة التفتيش عادت ... أم عهد نيرون عاداً

ايه يا مدره القضاء ويامن ... ساد فى غفلة الزمان وشاداً

أنت جلادنا فلا تنسى أنا ... قد لبسنا على يديك الحداداً

ويقول « حافظ » موجها شعره إلى الانجليز :

حولوا النيل واحجبوا الضوء عنا ... واطمسوا النجم واحرموا النسيما

واملأو البحر أن أردتم سفينا ... واملأو الجو ان أردتم رجوما

أننا لن نحول عن عهد مصر ... أو ترونا فى الترب عظما رميا

ويقول أحمد نسيم مهاجماً القصر عام ١٩٠٨ :

لاخير فى عرش من الغرب ربه ... ولا خير فى مال من الغرب كاسبه

أفيق فما فى الجهل إلا مذلة ... ولا العلم إلا سؤدد عز صاحبه

أنيرى ظلام الشرق بعد انسداله ... فعند طلوع الشمس تجلو غياهبه

ولا تقنطى من رحمة الله مرة ... إذا شيم من برق انخدالك خالبه

وددت بلادى أن تسود بنفسها ... لأكتب فيها خير ما أنا كاتبه

ويقول احمد محرم فى مهاجمة الاستعمار البريطانى :

فى كل يوم شرعة ونظام ... ماهكذا الأحكام والحكام

عشرون عاما والديار مريضة ... تنتابها الأدواء والأسقام
يادولة رفعت على أوطاننا ... علما تنكس دونه الأعلام
يا أمة خاط الكرى أجفانها ... هبيّ . فقدأودت بك الأحلام
هبيّ فما يحمى المحارم راقد ... والمرء يظلم غافلا ويضام

ويقول أحمد الكاشف مهاجما الاستعمار :

قلدتم الرومان فى استعمارهم ... هلا ذكرتم منتهى الرومان
اليوم سؤددكم وسؤددنا غدا ... كم أدرك التمادى التوانى
رحماكمو فينا . لنذكركم إذا ... دار الزمان وحالت الحالات
أواهبون لمصر كل ما طلبت ... أم آخذون بمقدار ومعطونا
وأن رفعتم على الوادى حمايتكم ... فما اسم لاحقها فيما تسمونا

ويقول خليل مطران :

يامصر دام علو جدك ... عيد الجلاء أتى كودك
آب العدى وكأنما ... كان العدى خدما لسعدك
شادوا معاقلهم ولكن ... مابنوا إلا لمجدك
واليوم نكس بندهم ... عنها وأوفى نور بندك

وساهم البارودى من قبل فى الشعر الثورى :

سنن المشورة وهى أكرم خطة ... يجرى عليها كل راع مرشد
هى عصمة الدين التى أوحى بها ... رب العباد إلى النبى محمد
فمن استعان بها تأيد ملكه ... ومن استهان بأمرها لم يرشد

هيهات يحيا الملك دون مشورة ويعزّ ركن المجد مالم يعمد
فالسيف لا يمضى بدون روية والرأى لا يمضى بغير مهند
فاعكف على الشورى تجد فى طيها من بينات الحكم مالم يوجد

ويقول حافظ :

فياويل القناة إذا احتواها بنو التاميز وانحسر اللثام
لقد بقيت من الدنيا حطاما بأيدينا وقد عز الحطام
وقيد كنا جعلناها زماما فوالهفى إذا قطع الزماما
فياقصر الدوباره لست أدرى أحرب فى جرابك أم سلام

ويقول شوقى فى الجلاء وأمل الأمة فى الشباب :

جادوا بأيام الشباب وأوشكوا يتجاوزون إلى الحياة الجودا
طلبوا « الجلاء » على الجهاد مثوبة لم يطلبوا أجر الجهاد زهيدا
والله مادون « الجلاء » ويومه يوم تسميه الكنانة عيداً

ويقول عبد الله نديم :

أتحسبنا إذا قلنا بلينا بلينا أو يروم القلب لينا
نعم للمجد نقتحم الدواهى فيحسب خامل أنا دهينا
تناوشنا فتقهرنا خطوب ترى ليث العرين لها قرينا
سواء حربها والسلم أنا أناس قبل هدنتها هدينا
سلينا ياخطوب فقد عرفنا بأنا الصلب صلنا إذ صلينا
وقرى فوق عاتقنا وقولى نزلت اليوم أعلى طورسينا

علينا للعـــلا دين وضمنا ... عليه الروح لا الدنيا رهينا
إذا ما المجـــد نادانا أجبنا ... فيظهر حين بنظرنا حنينا

ويقول عبد الحليم المصرى مناجيا الحرية :

عودى اطلى علينا إننـــا نفر ... إنْ حلت عنا فانا عنـــك لم نحل
الدهر غيرنا حتى إذا بصرت ... بنا الديار غدت منا على دخل
ردّى علينا عهوداً منك ناضرة ... يارب عهـــد تولى ثم لم يؤل
كنا وكنت وكان الدهرفانقرضت ... أيامنا وتولينا على عجـــل

٣ — مقاومة الاستبداد والاستعمار معا

وهكذا مضت «مصر» تقاوم الاستعمار البريطانى واستبدادالبيت المالك. وقدحال الاستعمار بينها وبين الاندماج فى الحركة العربية . ولكنها مع ذلك قامت بدور ضخم لاسبيل إلى نكرانه أو تجاهله فقد أصبحت موئل العرب فى كل مكان . كان فيها من العراق وسوريا ولبنان والجزيره والمغرب من يتحدثون عن العروبة وعن القومية العربية وقد أصبحت مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر المركز الحقيق للدعوة العربية بالقلم واللسان وأصبحت مقراً لكثير من زعماء العرب الذين هربوا من الاستبداد العثمانى أو الاحتلال الفرنسى وعاش بها أمثال الكاظمى وعبد الرحمن شهبندر ورشيد رضا والكواكبى والزهراوى ورفيق العظم وحقى العظم والثعالبى . وكل من نفى باسم الدعوة العربيةأوهاجرأو خرج خوفا من سلطان عبدالحميد اتجه إلى مصر وقدألف الشاميون الجمعيةاللامركزية فى القاهرةوقد استطاعوا أن ينشروا فى صحف مصر أفكارهم فى المؤيدواللواءوالجريدةوغيرها ما كان محرما عليهم، هناك وظهرت مؤلفات ضخمة فى القاهرة كانت بعيدةالأثرفى الفكرة العربية كلها وفى

وسالة الحرية من أهمها كتابى الكواكبى : طبائع الاستبداد وأم القرى .

كما صدر كتاب « ذكرى دعبره : الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده » للبستانى الذى صور فساد الحكم العثمانى قبل صدور الدستور الذى أكره السلطان عبد الحميد عليه وصور فى الشطر الثانى بعض الآمال التى يعلقها اللبنانيون على العهد الجديد . وقامت الصحافة المصرية بدور ضخم فى الحركة العربية فقد كانت المتنفس الوحيد للشعراء والكتاب الذين ضيق عليهم فى بلادهم ولم يهاجروا وقصائد الزهاوى والرصافى وغيرهما التى كانت تثير الثورات وتحمل على الاستبداد العثمانى والاستعمار كانت تنشر فى صحف مصر .

ومن صحف مصر هاجم الرصافى الاستعمار البريطانى فى العراق وقال :

لنا ملك وليس له رعايا　　　وأوطان وليس لها حدود

وكانت كل مقاومة للاستبداد العثمانى وللاستعمار الفرنسى فى صحف مصر هى عمل من أعمال المقاومة والتجمع .

وكان كل هجوم على رجال الدين وعلى سلطان الخرافات والموالد ومشايخ الطرق هو فى حقيقته هجوماً على عبد الحميد . وكل حديث عن الاستبداد كان موجها إلى الملوك والسلاطين فإن الاستعمار نفسه بعد هدم السلطنة العثمانية تذرع بنفس الوسائل لإقامة سلطانه وأقام المستبدين وحارب اللغة العربية .

ولا ينسى هنا أن نذكر دور « الأزهر » فقد كان موئل الثورات والحركات الوطنية جميعا منذ مقاومة الحملة الفرنسية التى أبلى فيها بلاءاً صادقاً ومنذ وقف للماليك وطالبهم بتوقيع وثيقة حقوق الإنسان . ومنذ حارب فى صفوف ثورة سنة ١٩١٩ وكان مركزها الأول . وكان منبره هو ميدانها الأصيل . ومن رجاله الدردیری والمهدى وعبد العزيز جاويش ومحمد عبده وسعد زغلول وأبو العيون وغيرهم من الرجال الذين

حملوا رأيه المقاومة . . وحملت مصر لواء الدعوة إلى تجديد الدين وتحرير المرأه . . وأصدر قاسم أمين كتابه المعروف ١٨٩٩ فكان له أثره الضخم وأحدث هزه بعيدة المدى فى العالم العربى كله وقد دلل فيه المؤلف على أن الحجاب بوضعه السائد ليس من الدين وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعدة .

وقد قامت فى مصر صحف حملت دعوة الوطنية والمقاومة على درجات من القوة والجرأه . « والمؤيد » هو أول صحيفة صدرت بعد الاحتلال (أول ديسمبر ١٨٨٩) لصاحبها على يوسف ثم مجلة الأستاذ (عبد الله نديم) فى ٢٣ أغسطس ١٨٨٢ وقد كان النديم أكثر جراة من على يوسف فى الحملة على الاستعمار وأعوانه فى عنف لاهوادة فيه . وبذلك استأنف جهاده القديم الذى بدأه مع عرابى بالرغم مما ذاقه من التشريد والاضطهاد .

ثم كانت صحف الحزب الوطنى « اللواء » والشعب والأخبار والأفكار وغيرها هى أقوى صحف مصر جرأة فى المقاومة وعنفا فى مهاجمة الاستعمار . وذلك فى الوقت الذى كانت « الجريدة » تصور الاحتلال على أنه حقيقه واقعة وكانت المقطم تعادى الوطنية وتناصر الانجليز علانية وصراحة وكما كانت مصر مركز القضية العربية قبل سقوط عبد الحميد أصبحت مركزها أيضاً بعد سقوطه عند ما اتجه أعضاء حزب الاتحاد والترقى إلى العصبة التركية وقاوموا الجنس العربى ولغته وكيانه . ثم كانت مصر مركز الحركة العربية بعد الحرب العالمية الثانية وبعد احتلال الفرنسيين لدمشق فقد قدم إليها كثير من زعماء العرب .

ويقول ساطع الحصرى : أنه فى الوقت الذى كانت مصر لا تبالى بما يحدث فى البلاد العربية كان جماعات من مثقفى العرب تتجه بقلوبها وأنظارها نحو مصر تنتظر أن تتزعم الحركة العربية ورجال الدولة العثمانية كانوا يعرفون هذا الاتجاه فيسعون لعزل مصر عن سائر البلاد العربية بشتى الصور والأساليب حتى إن الدول

العربية نفسها كانت تجد ترابطاً طبيعيا بين القضية المصرية وبين قضايا سائر البلاد العربية » . وهذا هو الواقع فقد كانت مصر تؤمن بالوحدة العربية ولكن الاستعمار كان يحجبها دائماً عن وسائل الترابط وأسباب التجمع ويقيم الحواجز . ومع ذلك فقد ظلت مصر البوتقة التى تصب فيها كل آلام العرب ومظالم الاستعمار فيه . فمن ليبيا كانت الكتائب المجاهدة تدرب فى مصر ومجاهدى مراكش وتونس والجزائر ، يفدون إلى مصر ويجدون فيها مجال العمل كاخوانهم من الشام والعراق وغيرهما . . .

وتجاوبت مصر مع أحداث الأمة العربية وثوراتها : وعندما ثارت سوريه على الاحتلال الفرنسى كانت قصائد شوقى هى منشورات الثورة السرية .

يقول شوقى :

قم ناد جلق وانشد رسم من بانوا — مشت على الرسم أحداث وأزمان

هذا الأديم كتاب لا كفاء له — رث الصحائف باق منه عنوان

الدين والوحى والأخلاق طائفة — منه وسائره دينا وبهتان ؟

بنو أمية للأبناء ما فتحوا — وللأحاديث ما سادوا ومادانوا

ونحن فى الشرق والفصحى بنو رحم — ونحن فى الجرح والآلام أخوان

وفى قصيدة أخرى .

سلام من صبا بردى أرق — ودمع لا يكفكف يا دمشق

ومعذرة اليراعة والقوافى — جلاء الرزء عن وصف يدق

وبى مما رمتك به الليالى — جراحات لها فى القلب عمق

صلاح الدين تاجك لم يجمل — ولم يوسم بأجمل منه فرق

وكل حضارة فى الأرض طالت　　لها من سرحك العلوى عرق

وللأوطان فى دم كل حر　　يد سلفت ودين مستحق

ومن يسقى ويشرب بالمنايا　　إذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا

ولا يبنى الممالك كالضحايا　　ولا يدنى الحقوق ولا يحق

ففى القتلى لأجيال حياة　　وفى الأسرى فدى لهمو وعتق

وللحرية الحمراء باب　　بكل يد مضرجة يدق

ويقول شوقى :

كان شعرى الغناء فى فرح الشرق وكان العزاء فى أحزانه

قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقى على أشجانه

كلما أنّ بالعراق جريح　　لمس الشرق جنبه فى عمانه

وعلينا كما عليكم حديد　　تتنزى الليوث فى قضبانه

نحن فى الفكر بالبلاد سواء　　كلنا مشفق على أوطانه

ويقول حافظ :

متى أرى الشرق أدناه وأبعده　　على مطمع الغرب فيه عز وسنان ؟

تجرى المودة فى أعراقه طلقاً　　كجرية الماء فى أثناء فينان ؟

النيل وهوالى (الاردن) فى شغف　　يهدى إلى بردى أشواق ولهان .

وفى العراق به وجد بدجلته　　وبالفرات وتحنان لسيحان

وعندما استشهد عمر المختار بطل ليبيا اهتز شوقى (١٩٣١) .

ركزوا رفاتك فى الرمال لواء　　يستنهض الوادى صباح مساء

يا ويحهم نصبوا مناراً من دم يوحى إلى جيل العدا البغضاء
ما ضر لو جعلوا الخلافة فى غد بين الشعوب مودة وإخاء
جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحرية الحمـــراء
يا أيها السيف المجرد فى الفلا يكسو السيوف على الزمان مضاء
تلك الصحارى غمد كل مهند أبلى فأحسن فى العـدو بلاء
وقبـور موتى فى شبـاب أميـة وكهـولهم لم يبرحـوا أحيـاء

وقد وجد هذا الشعور من مصر تجاوبا من جميع أنحاء الأرض العربية ولـكنه كان يحمل فى الأغلب طابع العتاب. يقول عبد الرحمن شهبندر بعد عودته إلى الوطن وقد كان مهاجراً فى القاهرة « أن مصر التى كانت لا تعرف فى أواخر الحرب العامة شيئاً عن الجامعة العربية قد انقلبت وصارت تنادى فى معاهدها وجامعاتها وأعلى موسساتها بالعروبة .

ويقول محمد السيد الزاهرى[1] « أن كل حركة أدبية فى مصر لها صداها القوى فى هذا المغرب العربى فالشيخ محمد عبده المصرى له أنصار ومريدون . وفـكرة الإصلاح التى يدعو إليها أصبحت اليوم فى الجزائر مذهباً اجتماعياً تعتنقه الـكثرة الـكثيفة من الناس وتقوده جمعية العلماء . وكل أديب كبير فى مصر له أنصار وأشياع فى بلاد المغرب فللأديب الامام مصطفى صادق الرافعى أنصار ومعجبون وهو أكثر الأدباء المصريين تلامذة وقراء فى هذه البلاد والمطبوعات المصرية تحتل المقام الأول عندنا . والصحف المغربية لـكثرة ما تروى عن مصر وما ينشر من أخبارها تـكاد تـكون طبعات مغربية لزميلاتها المصريات على أن هذه الصحف المصرية الـكبرى لاتهتم لبلاد المغرب إلا قليلا . . »

(١) الرسالة (١٩٣٦) محمد السيد الزاهرى : وهران الجزائر .

وفى السودان يقول التيجانى « يا أخت مصر وتفديك فى المكاره مصر » .

ويقول حيدر موسى[1] أننا نعرف كل شىء تحت سماء مصر ونتألم إذا ألمت بها ملمة ونفرح إذا نالت ماتصبو إليه من رفعة وليس غريبا أننا طلبنا أن يعاملونا بالمثل . وأن الأدب المصرى المعاصر هو الذى نبه فيهم أفكار التحرر وأوجد فيهم هذا الظمأ إلى أدب من نوع جديد » وقال ابراهيم طوقان :

أحب مصر ولكن مصر راغبة عنى فتعرض من حين إلى حين

وفى بعث الأدب العربى القديم قامت مصر بدور ضخم فقد جدد كتاب مصر الحديث عن سيرة المتنبى والمعرى وأبى تمام وابن الرومى كما صاغت صوراً من كفاح مصر العربى قصصا كقصة أبطال المنصورة لابراهيم رمزى ١٩١٥ حيث صور غزوة الحملة الصليبيه لدمياط بقيادة لويس وكيف هزمه المصريون وقد رفض الرقيب الانجليزى السماح بها عام ١٩١٨ .

وتبادلت مصر رسائل فكرية مع العالم العربى من أبرزها الرسائل التى تبادلها العالمان أحمد تيمور فى مصر وانستاس الكرملى فى العراق وهى ٥٥ رسالة تدور حول مسائل مختلفة فى العلم واللغة والأدب .

٤ — أدب مصر وسورية يلتقيان

وقد جرت مقارنات بين الفكر العربى فى مصر والشام يصورها نزيه[2] الحكيم بقوله : « إذا تأملنا تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى نرى المصرى فى الأحوال العادية يستطيع أن يكسب عيشه بأقرب الوسائل . يساعده عليه خصب أرضه وانسجامها واتساع أفاقها . وهذا النيل الخالد المجرى يمتعه بالخير الدائم والنعمة المطمئنة . فإذا انتقلت إلى سوريا صدم المطلب الطامح الأفق

---

(١) من كتاب السودان .

(٢) الثقافة : سبتمبر ١٩٤٤ .

الضيق . ورأيت إلى هذه الملايين الثلاثة تحيا فى رقعه من الخضرة منكمشة بين الصحراء والبحر ولكنها تحمل فى صدرها أمل الكون .

ويلقن السورى الطفل وهو يدرس الجغرافيا أن الدنيا واسعة فله فى كل أرض وطن آخر يهاجر إليه بينما يظل أخوه على أرضه . ومن هذا كان السورى العادى شاعر التراب أكثر منه شاعر المرأه . بل أن المرأه لتلبس عنده جمال الطبيعة فهى مثلها قاسية تدل . تشترى حبـــه يتمنعها فيغنيها على نايه الذى صنعه من قصب الأرض . والسورى بطبيعته ذو قابلية عجيبة للعدوى وأنه ماهر فى التقليد ولقد كان فى استطاعه الطريقة المصرية كما بدت لنا أن توفر على السورى هذا الصراع لوانه تقنعه الحلول الوسط لكنه عنيف يطلب النهايات ويفضل أن يتعذب فى الوصول إلى الحل كما تعذب المصرى فى محاوله الوصول إليه على أن لا يقبله كاملا مفروضا لا يد له فيه » .

وجرت مقارنات بين الفكر العربى فى مصر وفى لبنان بصوره شكرى فيصل[1] نحن فى طور من أطوار النهضة . ونحن فى هذه النهضة محتاجون إلى هذه المكتبة القديمة ننبش أثارها ونحيى مواتها ونجلو صدأها ونظهرها بطريقة براقة تجتذبها إلينا . وقد قدمت المطبعة المصرية إلى العالم العربى أجل الخدمات وستظل النهضة الحديثة فى الأدب العربى مدينة للمطابع المصرية لأنها كانت أكثر مطابع الشرق العربى انتاجا .

ويقول رشدى الخياط من أدباء فلسطين[2] « أن طلائع النهضة بدأت فى سورية مسايرة لطلائعها فى مصر . ولئن استطاعت مصر أن تتقدم شقيقاتها فى هذا المضمار فإن ذلك يرجع إلى أمور لاتتعلق بخصب العقلية المصرية وضعف غيرها كما يقول زكى مبارك إن الأدباء السوريين لم يذوقوا طعم المجد الأدبى إلا بعد

---

(١) الرسالة ٦ مارس ١٩٣٩ .

(٢) مارس ١٩٣٩ الرسالة .

أن شربوا من ماء النيل » ولقد كان لدنيا كتاب مبرزون أحبوا القومية العربية وآمنوا بها ودعوا إليها وكتابات المازنى والزيات ومصطفى صادق الرافعى وعدد كبير من كتابنا كانت سندا لحركة التجمع بعد أن شاركت فى حركة المقاومة ولم تلبث مصر أن قامت بدورها فى القومية العربية كاملا بعد أن زال الحاجز الذى كان يحجزها عنه وهو الاستعمار . عندئذ استطاعت مصر أن تقف لتؤدى دورها الفكرى قويا وأن تعلن أنها جزء من الأمة العربية ومن الناحية الأخرى تستطيع أن تقول أن العرب كانوا دائما يرون فى مصر « قلب الأمة العربية » ويتعجلون تحررها لتقوم بدورها مع باق الأجزاء من أجل التجمع. وهذا الأمير مصطفى الشهابى يصور هذا المعنى فيقول[1] :

مصر بلامراء قلب العالم العربى . وإنى مؤمن بأن نزعه القومية الشاملة التى تنتظم البلاد العربية اللسان ليست فى مصر قوية طامحة كما هى فى العراق أو فى الشام ولا سيما فى دمشق . ومما يبرر انكماش اخواننا المصريين وقصر جهودهم على مصر أنهم كانو يكافحون فى سبيل استقلال ذلك القطر العزيز .

أما اليوم فإنه لاعذر لهم إذا لم يتبنوا ويترأسوا أهم الحركات التى ترمى إلى رفع الضيم عن الأقطار العربية وإبلاغها ماتصبو إليه من الأمانى السياسية وقد بدأ هذا الحس ينتشر فى مصر وبدا أن لمصر لها رسالة سياسية تجاه الأقطار العربية . وقال : إنها قلب العالم العربى لأنها كبرى الدول العربية ولأن لغة مصر هى اللغة العربيه ووجود جامعة الأزهر ومركز مصر الجغرافى واستقلال مصر السياسى وأخذها بوسائل المدنية الحديثة » .

---

(١) الهلال : العدد الخاص عن العرب والاسلام — ١٩٣٩.

الدراسات التفصيلية

١ — صورة اليقظة العربية فى الشعر العربى الحديث

٢ — هزيمة معركة التغريب والتجزئة

٣ — معركة القومية العربية والوحدة الكبرى

٤ — معركة اللغة العربية

٥ — الصحافة العربية فى معركة المقاومة والتجمع

٦ — أدب المرأة العربية فى معركة المقاومة والتجمع

٧ — دور الكتاب المسيحيين فى يقظة الفكر العربى

٨ — الاستشراق وأثره فى الفكر العربى الحديث

٩ — دور الترجمة فى الأدب العربى الحديث

١ – اليقظة العربية

فى الشعر العربى الحديث

منذ أواخر القرن التاسع عشر بدأت صورة اليقظة الفكرية فى العالم العربى ومضت حافلة بالأحداث . كانت « المقاومة » هى أبرز مظاهر الفكر العربى . وكان قوامهذه المقاومةمهاجمة الخليفة والحكومة العثمانية : والدعوة إلى ايقاظ العرب وذكر أمجادهم. وكان أول من هاجم السياسة العثمانية: سليم سركيس وعبد الرحمن الكواكبى والزهاوى والرصافى وكانت الحملة قد بدأت من خارج نفوذ عبد الحميد وكانت القاهرة فى الأغلب هى المكان الأول حتى بالنسبة للمقيمين داخل سوريا والعراق إذ كانوا يبعثون بمقالاتهم وقصائدهم إلى الصحف المصرية حيث تنشر بامضاءات مستعارة ومن أوائل قصائد الزهاوى عام ١٨٩٧ :

ألا فانتبه للامر حتـــام تغفل	أما علمتك الحال ما كنت تجهل
أغث بلداً فيها نشأت فقد عدت	عليهـــا عواد للدمار تعجل
وما هى إلا دولة همجية	تسوس بمـا يقضى هواها وتعمل
فترفع بالإعزاز من كان جاهلا	وتخفض بالإذلال من كان يعقل
لقد عبثت بالشعب أطماع ظالم	يحمله من جوره ما يحمـــل
إلى ذى اختيارفى الحكومة مطلق	اذا شاء لم يفعل وإن شاء يفعل
فيفقر دامال وينفى مـــبرأ	ويسجن مظلوما ويسبى ويقتل
فيــاويح قوم فوضوا أمر نفسهم	إلى ملك عن فعله ليس يسأل

وهزت الفرحة الشعب العربى لخلع عبدالحميدوفى هذا يقول فارس الخورى الشاعر .

الله أكبر فالظلام قد علموا	لأى منقلب يقضى الأولى ظلموا
لقدهوى اليوم صرح الظلم وانتفضت	أركانه وتولت أهــله النقم

ورد حافظ فى مصر نفس الشاعر التى كانت النفس العربية تفيض بها :

لم يغن عن عبد الحميد دهاؤه ... ولا عصمت عبد الحميد تجاربه
ولم يحمه حصن ولم ترم دونه ... دنانيره والأمر بالامر حاز به
ولم يخفه فى أعين الحق مخدع ... ولا نفق فى الأرض جم مساربه
وأصبح فى منفاه والجيش دونه ... يغالب ذكرى ملكه ونغالبه
يناديه صوت الحق ذق ما أذقتهم ... فكل امرىء رهن بما هو كاسبه
مضى عهد الاستبداد واندك صرحه ... وولت أفاعيه وماتت عقاربه

وقال الرصافى :

تنعم فى قصورك غير دار ... أعاش الناس أم هم فى بوار
فإنك لن تطالب باعتذار ... وهب أن الممالك فى دمار

أليس بناء يلدز بالمشيد

وسجل الرصافى إعجابه بجيش شوكت الذى أسقط الخليفة المستبد فقال :

أتينا دار قسطنطين صبحاً ... وقد فتحت لهم فتحاً مبيناً
وظل الجيش : جيش الله يشفى ... بحد سيوفه الداء الدفينا
فارهق أنفس الطاغين حتى ... سقاهم من عدالته المنونا
وحطوا قصر يلدز من سماء ... له فانحط أسفل سافلينا
هوى عبد الحميد به هويا ... إلى درك الملوك الظالمينا

وبدأ الحديث عن عظمة أمة العرب شعراً ونثراً يستثير الشاعر إلى التحرر والانتقام من الظلم :

إنما نحن أمة تدرأ الضيم ... ولا تستكين لوالى
أمة سادت الأنام وطابت ... عنصراً من أواخر واوال
فإذا ما علا الغشوم نهضنا ... فقذ فناه سافلا من عال
نحن من شعلة الجحيم خلقنا ... لأولى الجور لا من الصلصال

وقال اليازجى :

وما العرب الكرام سوى نصال لها فى أجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل وعن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم وان جحدت مآثرنا اللئام

ودعا عبد الحميد الرافعى فى طرابلس إلى القومية العربية والانفصال عن العثمانية:

ماتصلح الدنيا ولا ناسها مالم يل الأقوام أجناسها
هبوا بنى العرب إلام الكرى وقد دها الآمال دهاسها
ألستم نسل القروم الأولى تنتعل الهامات أفراسها
طلبتم الاصلاح من عصبة توتر بالافساد أقواسها
فجردوا العزم الذى طالما شق صدوراً طال وسواسها
وجددوا مجد بنى العرب فالعار أن يطفأ مقياسها

وقول سليمان الفاروقى فى فلسطين :

بنى انهضوا واحيوا حياة عزيزة حياة تعيد المجد للعرب ثانيا
ألا نهضة شرقية عربية تزلزل أقواما وتوهى رواسيا
ألا رجل ذو مرة فيلمكم ورأب صدعا فيكم بات واهيا
يقوم فلا يرتد أو يبلغ المدى ويقضى ولكن يبعث السيف قاضيا

وصور الفاروقى أثر الدستور الذى كان أملا فلما جاء لم يحقق للعرب شيئاً :

كنا نعلل بالدستور أنفسنا بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب
حتى إذا جاء لم يحدث لنا حدثا ولا استجاب لنا فى مطلب طلبا

وقال خير الدين الزركلي فى التأهب للثورة العربية الكبرى :

نعت لنـــة العرب من أحكموا   لسان قريش وتبيانهـــا
أبى السيف إلا انتقاما لهـــم   وخاف على الضيم خسرانها
كتائب هبت تلبى النـــداء   وتطوى القفار وكثبانهـــا

وقال عبد المحسن الكاظمى فى العراق :

يا أيها العرب وأدعوا العرب انى وجـــدوا
لن تشاءوا أن تراحوا من عناء فاجهـــدوا
الستموا من حرموا حقوقهـــم واضطهدوا
وكلما عن لهـــم ذكر الحمى تنهـــدوا
أما كفـــاكم حافزا ذكر الذين استشهدوا
ياقوم أن تهـــاونوا فحركم مســـتعبد
من نام عن أوطانه فذاك ميت يلحـد
ومن يمت دون حماه فهوحى يحمـــد
الوطن الروح وما أهلوه إلا الجســـد
وكيف يسهـــو بدن عن روحـــه ويرقد
مجدى وما مجـــدى إلا الوطن الممجد
حبيب نفسى وطنى وأهـــله والفرقد
رب أناس عبثـــوا بنا ولم يتئـــدوا
ضـــلوا الهدى ولقنوا بيطلهـــم وزودوا

وقد كانت تعبئة شامله لم يتخلف عنها شاعر واحد ، قوامها التنادى بالأمجاد

واتبعات المظمة العربية وايقاظ الراقدين ومواجهة الأحداث مواجهة القوة والنضال لامواجهة السلبية والشكوى . وكانت بؤرة الكفاح مركزها الشام ، كأنما قد تركزت جميع آمال اليقظة فيها • وتتوالى الصيحات الشابه تنمر الأفق بأناشيد جديدة قوامها الاعان بالوحدة الكبرى والمروبة •

يقول الشاعر القروى[1] (المهجر)

شباب العرب بات الحلم عجزا ... وبعض الصبر موت أن تمادى
فكونوا النار تحرق أوقدى ... فى عيون البطل أن كنتم رماداً

ويقول عبد الرحمن بن محمود

سأحمل روحى على راحتى ... وألقى بها فى مهاوى الردى
فأما حياة تسر الصديق ... وأما ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان ... ورود المنايا ونيل المنى
أرى مقتلى دون حق السليب ... ودون بلادى هو المبتغى

ويقول عدنان الراوى

قيدونا ماشئتمو قيدونا ... ثم بثوا أذانكم والعيونا
وخذونا بالظلم اما نهضنا ... وخذونا بالسوط حتى نلينا
انما فكرة التحرر فينا ... قد غدت مذهبا وروحا ودينا

ويقول الشاعر القروى

ولكننى عربى المنى ... عربى الهوى عربى الفؤاد

ويقول طوقان — فلسطين

كفكف دموعك ليس ينفعك البكاء ولا العويل
وانهض ولا تشك الزمان فما شكا إلا الكسول
ان لم تقم بالعبء أنت فمن يقوم به أذن
يامن حملت الفأس تهدمها على أنقاضها

(١) (ك) روائع مختارة من الشعر القوى : طبع بيروت :

وطن يباع ويشترى ونصيح قليحى الوطن
لو كنت تبغى خيره لبذلت من دمك الثمن

ويقول عمر أبوريشة — دمشق

يابلادى ناجاك من وقف الخلد وأصغى إلى صدى تحنانه
هذه أنتى فيالشراع يتلقى العباب فى هيمانه
علمته الأنواء أن يزدريها ويعز المرساة فى شطآنه

ويقول عادل الغضبان — حلب

كفاك ياغرب طغيانا ومفسدة ورميك الشرق بالويلات والحرب
فى كل يوم ترينا الغدر فى صور جديدة لونت بالبغى والشغب
هـذى فلسطين ما زالت مضرجة أرجاؤها بدم فى الله منسكب
شردت أبناءها ظلماً وسقتهم إلى الردى عصبا تلقى على عصب
نسجت فيها ستور الحزن فانسدلت على المآذن والدارات والقبب
جـل فى الخرائب تسمع فى حجارتها أنين محتضر أو نوح منتحب
ولغت فى دمها ثم انبعثت إلى مراكش بدم من فيك منسرب
تنوشها بالنيوب الزرق مرهقة وتنشب الظفر فى الأعناق واللبب
فليس فى بلد فى الشرق مغتصب بالمجد أو راسف فى قيد منتدب

ويقول أبو القاسم الشابى — تونس

إذا الشعب يوما أراد الحيـاة فلا بد أن يستجيب القـدر
ولا بد لليـــل أن ينجلى ولا بد للقيـــد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحيـــاة تبخر فى جـوها واندثر
ومن لا يحب صعود الجبـــال يعش أبد الدهر بين الحفر
هو الـكون حى يحب الحيـاه ويحتقر الميت مهما كبر
فلا الأفق يحضن ميت الطيور ولا النحـــل يلثم ميت الزهر

إذا طمحت للحيـاة النفوس   فلا بد أن يستجيب القـدر

ويقول الشابى أيضاً :

لك الويل ياحرج الظالم فى غد   إذا نهض المستضعفون وصمموا
إذا حطم المستعبدون قيـودهم   وصبوا حميم السخط أيان تعـلم
أغرك أن الشعب مغض على قذى   وأن الفضاء الرحب وسنان مظلم
ألا أن أحلام البـلاد دفينة   تجمجم فى أعماقهـا ما تجمجم
سيثأر للعـز المحطم تاجـه   رجال إذا جاش الردى فهموهمو
رجال يرون الذل عاراً وسبة   ولا يرهبون الموت والموت مقدم

ويقول على الديب (ليبيا)

دعوها فقـد هبت أسود عرينها   تفك رقاب العرب من ربقة الأسر
دعوها فقد حـل الوئام بأرضها   تضم شتات الشرق فى ساحة الطهر
لها النيل مأوى والـكنانة حارس   بعين ترى الأعضاء من أكبر الوزر
وبغداد مسرى والحجاز وجلق   ولبنان حصن عنـد غائلة الشر
لهـا ليبيا منظار كل مغيب   وراء ستار حاول النفث بالغـدر
وفى المغرب الأقصى مجال ركابها   فسيح يرى الأقدام ديباجة الشعر

ويقول أسد محمد قاسم — « أعاصير فى الأردن » ١٩٥٦

لا ؛ ليس يرهبه الظلام ولا نواطير الظلام
سيظل يزحف للامام
ولن يحيد عن الأمام
حتى يفجر كالينابيع العذاب
شمس التحرر والسلام
شعب أقام سلاحه حكما يمزق كالشهاب
ليل الطغاة وحلم أعداء السلام

سيظل يزحف للأمام
رغم الحواجز والحصون
رغم الضحايا الساقطين
على الطريق مضرجين
أبداً يظل إلى الأمام

* * *

وتقول هندسلامه (الأردن)

إنا سنزرع أرضنــــا إنا سنحصد زرعنــــا
إنا سنصنع فجـرنا ونعيش فى ظل السـلام
فى أرضنـا الخضراء فى ظــــل السـلام

ويقول اسماعيل عبد الرحمن (الأردن)

من كل جـــرح ناغر تاريخ شعبى يقطـــر
ملحمــة مخضــوبة ومشـــعل منـــور
وصولة الحــق على البـــاطل أما يخطر
تاريخنـــا منـــائر من الدجى تفجر

ويقول يوسف الخطيب ديوان العيون الظماء للنور — ١٩٥٥

« إلى العيون الظماء للنور . العطشى إلى الضوء . إلى أفراد أمتى العربية . الحائرين فى ظلام الجهل والعبودية . أهدى هذا الحصاد الأول . آملا . متفائلا أن أهدى حصادى الثانى إلى نفس هذه العيون وقد اغتسلت فى ضوء الحرية »

أنا مشعل ، أنا مارج جبـار لا الريح تخمدنى ولا الإعصار

سأمد فى الآفاق ألسنة اللظى ... حمراً لها فى الخافقين أوار
ولأحرقن الليل حتى تنجلى ... أسدافه . فتوقدى يانار
للميتين دموعهم وجراحهم ... ولجذوتى ساح الوغى والثار
ولسوف أغسل جبهتى حتى ترى ... مثل الضحى ويذوب عنها العار
انا للحياة ، ولن أظل مشرداً ... أقسمت : لا أرضى : ولا أختار
ومشيئتى قدر . على أقدامه ... تتمسح الأيام والأقدار

ويقول رشيد سليم الخورى فى قصيدة (الشهيد)

حسب الحزن عليك أنك مائت ... قد عيدت احبابه لماته
شقوا له الأعلام من أكفانه ... وتبادلوا الأنخاب من عبراته
أعلام إذلال كأن خفوقها ... فى جوه لطم على وجناته
ملفوفة بتحسرات سراته ... خفاقة بتنهدات هداته
مادت رواسيه لثقل ظلاله ... وعلا دخان الغيظ من قناته

ومن مراكش ينادى أبو بكر اللمتونى

ياأمنا الصحراء قرى أعينا ... فلسوف يمهرك البنون دماء
نفدى بلاقعك الرحاب بروحنا ... ونذود عنها جائمين ظماء
لو آثر الناس الديار لخيرها ... لم تهو أرض لا تنيل الماء
وطن تقسمه اللصوص وصيروا ... من حسنه وجماله أشلاء
فليرجعوا عما أتوه ويعلموا ... إنا نهضنا نجمع الأجزاء
ياأيها الوطن الذى طاحت به ... أسد الفتوح ويتم الخلفاء
لا يطمع الأعداء فيك تريث ... إنا سنفنى دونك الأعداء

وتقع معركة بورسعيد فيهتز لها الشعر العربي فيقول الكثيرون فيها شعر ونثرا وهذا نموذج مما قاله : نزار قباني .

إلى بور سعيد .
يا والدي : هذه الحروف الثائرة .
تأتي إليك من السويس الصابرة .
أنا منذ أيام هنا في خندق الأرضى ، انتظر اللصوص .
إني أراها يا أبي من خندق ؛ سفن اللصوص .
محشودة عند المضيق .
هل عاد قطاع الطريق يتسلقون جدارنا ويهددون بقاءنا .
هل عاد قطاع الطريق ؟
إني أراهم يا أبي من خندق : زرق العيون ، سود الضمائر ؛ يا أبي .
قرصانهم . عين من البلور . جامدة الجفون .
والجند في سطح السفينة يشتمون ويسكرون .
هبط المظليون خلف خطوطنا . أمر جديد .
هبطو كارجال الجراد . كسرب غربان مبين .
أنا ذاهب لمهمتي . لأرد قطاع الطريق . وسالبي حريتي .
الآن أفنينا فلول الهابطين .
أبتاه . لو شاهدتهم يتساقطون . وترى قراصنة البحار الإنجليز .
كثمار مشمشة عجوز . يتساقطون . يتارجحون .
تحت المظلات الطمينه .
مثل مشنوق تدلى في سكون .
وبنادق الشعب العظيم . تصيدهم . زرق العيون .

لم يبق فلاح على محراثه إلا وجاء .
لم يبق طفل يا أبى إلا وجاء .
لم يبق سكين . ولا فأس . ولاحجر على كتف الطريق .
إلا وجاء يرد قطاع الطريق .

ويصرخ هارون هاشم رشيد « شاعر مأساة فلسطين » بقصيدته « راجعون »

وقوفاً أيها المشردون
يا ترى هل تسمعـــون
يا نائمون تحت كل شرفه
يا سائرين عند كل عطفه
هبوا من الظــــلام
هبوا من الخيـــام
ديارنا من يفتــديها
من غـــيرنا يموت فيها
فدا لحماها
يا بلادى
زمانا طويلا أذلك الغاصبون
أطلى قليلا فإننا راجعون
فى الأمطار راجعـــون
فى الأعصار راجعـــون
فى الرمال والتلال راجعون
فى الإيمان راجعـــون
للأوطان راجعـــون

فى الصباح فى الأمطار فى الرياح : راجمون

ومضى شعراء العرب يصورون إيمانهم بالعروبة ويدقون طبـول اليقظه من النوم العميق يقول مصطفى الغلاييني :

قالوا تحب العرب قلت أحبهم حبا يكلفنى دمى وشبابى
مهما لقيت من الأذى فى حبهم أصبر له والمجد ملء أهابى

وقال ابرهيم اليازجى :

تنبهوا استيقظوا يا أيها العرب فقد طما السيل حتى غاصت الركب
الستمو من خطوا فى الأرض واقتحموا شرقا وغربا ، غزوا أينما ذهبـــوا

ويقول اليازجى أيضاً :

وما العرب الكرام سوى نصـال لهـا فى أجفن العليـا مقـام
لعمرك نحن مصدر كل فضـل وعن آثارنا أخـــذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قـــديم وأن جحدت مآثرنا اللئام

وقال عبد الحميد الرافعى :

شنف بذكر مفاخر العربان سمعى وانعش خاطرى وجنانى
تتفاخر الأجيال فى أخبارهم والشمس لا تحتاج للبرهان
جعلوا الممالك تحت ظل سيوفهم متظللين ذوائب المران

ويقول الياس فياض .

تلك أباؤنا وذاك تراث المجد منهم باق إلى الأبناء
شرف فى سماحـــة وذكاء فى وقار وقدرة فى وفاء

ويقول سليمان التاجى :

بنى انهضوا واحيوا حياة عزيزة حياة تعبد المجد للعرب ثانياً

وقال خليل مردم :

أرى فى الغرب أقواماً تباروا   بما بهر النواظر والعقولا
لقد فرغوا من الدنيا فهموا   إلى الأفلاك يبغون الوصولا

وقال محمد البزم :

أقسمت بالضاد فخر الناطقين بها   ان كان يقنع قومى منى القسم
لا بعثن لهم شعرا يثير بهم   عزائماً كعباب اليم يلتطم

ودعا مصطفى الغلاييني فى شعر نضالى إلى محاربة أعداء البلاد :

هبوا فأمتكم أمست على خطر   جارت عليها الأعادى جور منتقم
حتى تسيل ربوع الشام مفعمة   دما يسيل الردى فى سيله العرم
وذمة العرب والأيام شاهدة   لنفرضن الوغى فى السهل والقمم
حتى نجلو بلاد العرب أجمعها   من ساحل الروم حتى ساحل العجم

وهب العراق فى ثورة عارمة يشارك فى اليقظة العربية وفى إبانها قال باقر الشبيبى يكشف عن المؤامرات الاستعمارية ويحذر منها :

بنى يعرب لا تأمنوا للعدى مكرا   خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة   ويبغون إن حانت لكم فرصة غدراً
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا   أضاليلهم فى الهند والكذب فى مصرا
ومن مات دون الحق والحق واضح   إذا لم ينل فخرا فقد ربح العذراً

ويقول الشاعر العراقى خيرى الهنداوى يخاطب الوطن :

أنت إذ نبت أم بنوك أم   الظلام شاءوا أن يغصبوك الحقوقا
بيتوا أمرهم بليل وجاءوك   جميعا يتلو فريق فريقا
حاولوا لا أبالهم أن يكون   الشرق كالعبد مستضاما رقيقاً
فنهضنا كالأسد فى أوجه القوم   لنجتث بغيهم والفسوقا

ورددت العرب صيحات عبد المحسن الكاظمى القوية للوحدة الكبرى .

أيها القوم كلنا اليوم عرب ❊ وإلى العرب يطمح العالمونا
بعضنا فى الخطوب عون لبعض ❊ أن أردنا على الخطوب معينا
فعراقينا متى اشتد خطب ❊ رد سوريننا الشدائد لينا
وكذاك النجدى أن ريع يوما ❊ فالتهامى كان ركنا ركينا
أيها العرب بادروا واستردوا ❊ مجدكم من مخالب الناصبينا
إنما الشام والعراق ومصر ❊ أخوات وأن تفرقن حينا

وامتدت المعركة حتى جاء يوم ميسلون : اليوم الخالد فى تاريخ اليقظة العربية فقال خليل مردم فى الشام :

فى ميسلون من الأشجار سلسلة ❊ نيطت بأطرافها أرجاء أرواد
هل من سبيل إلى الانصاف فى زمن ❊ جلت رزاياه عن حصر وتعداد

وردد شوقى فى مصر أهات الحزن والألم لفقد الشهداء الأبرار :

سأذكر ما حييت جدار قبر ❊ بظاهر جلق ركب الرمالا
مقيم ما أقامت ميسلون ❊ يذكر مصرع الأسد الشبالا
تغيب عظمة العظمات فيه ❊ وأول سيد لقى النبالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا ❊ تجر مطارف الظفر اختيالا
أقام نهاره يلقى ويلقى ❊ فلما زال قرص الشمس زالا
فكفن بالصوارم والعوالى ❊ ووسد حيث جال وحيث صالا
إذا مرت به الأجيال تترى ❊ سمعت لها أزيزا وابتهالا

وتواترت الأحداث واحتدمت المعركة ولكن الأدب كان وثيق الصلة بالقومية العربية يحمل دعوة الوحدة الكبرى صادقاً مؤمنا .

يقول حافظ إبراهيم .

لمصر أم لربوع الشام ننتسب　　هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زلت ربوعهما　　قلب الهلال عليها خافق يجب
أم اللغات غداة لفخر أمهما　　وإن سألت عن الآباء فالعرب
فما الكنانة إلا الشام عاج على　　ربوعها من بينها سادة نجب
إذا ألمت بوادى النيل نازلة　　باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعا فى ثرى الأهرام ذو ألم　　أجابه فى درى لبنان منتحب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم　　فصافحوها تصافح نفسها العرب

وفى نفس هذا الوقت كان حكام العرب عملاء للاستعمار ولكن اليقظة العربية كانت أكبر من الاستبداد ولذلك توالت صيحات الشعراء فى الثورة على طغيان الحكام .

يقول الرصافى فى العراق وهو تصور للمأساة فى كل بلد عربى اذ ذاك :

عجبت لقوم يخضعون لدولة　　يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها　　وأموالها منهم ومنهم جنودها

وقوله :

كيف القرار على أمور حكومة　　حضت براس مقدس لم يسأل
أيكون ظل الله تارك حكمه المنصوص فى أى الكتاب المنزل
أم هل يكون خليفة لرسوله　　من حاد عن هدى النبى المرسل

وقوله .

خضعنا لحكام تجور وقد حلا　　بأفواههم من مالنا ما كل سحت
وكم قامرتنا سياسة الأمر خدعة　　فتم علينا بالخداع لها الدست
لماذا نخاف الموت جبنا فلم نقم　　إلى الذب عنا من أمور هى الموت

وقوله :

سكنا من جهالتنـــا بقاعا يجور بها المؤمر ما استطاعا
فكدنا أن نموت بها ارتياعا وهبنا أمــة هلـكت ضياعا

وهزت أحداث طرابلس العرب فى كل مكان : قال الرصافى فى بغداد :

لك الله ياقتلى طرابلس التى بها حكم طليان أسيافهم غدراً
ومن مبكيات الدهر أو مضحكاته لدى الناس حرلم يكن خصمه حراً

وقال حافظ فى مصر :

طرح الغرب عن الغى اللثاما فاستفق يا شرق واحذر أن تناما
كبلوهم ، قتــلوهم ، مثلوا بذوات الخدر ، طاحوا باليتامى
ذبحوا الأشياخ والزمنى ولم يرحموا طفلا ولم يبقوا غلاما

وتوالت الثورات تهز الاستعمار هزا ، وفيها قال شقيق جبرى فى دمشق :

لك ثورات تبارك أهلها أثنى عليهـا الواحد القهار
فى النيل منهـا صيحة ميمونة حسنت بها من ربعة الآثار
ومشى الضجيج إلى الشام فرددت أصداءه الأنجاد والأغوار

وبعد مأساة دنشواى فى مصر اضطرت بريطانيا إلى سحب كرومر فودعه حافظ :

تمن علينا اليوم أن أخضب الثرى وأن أصبح المصرى حرا منعما
أعد عهد اسماعيل جلدا وسخرة فانى رايت المن انكى وآلما
عملتم على عز الجمـــاد وذلنا فاغليتم طينا وارخصتم دما
إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما

وفى المهجر البعيد كان الصدى قويا ، وكان الأثر جباراً وكان الشاعر القروى قوة عارمة فقد أعلن أن الحبل الذى شدت عقدته على اعناق الشهداء سيكون سببا لتوحيد العرب .

لتنحن الهام إجلالا وتكرمة | لكل حر عن الأوطان مات فدى
يا أنجم الوطن الزهر التى سطعت | فى جو لبنان للشعب الضليل هدى
قد علقتكم يد الجانى مطلخة | فقدست بكم الأعواد والمسدا
بل علقوكم بصدر الأفق أوسمة | منها الثريا تلظى صدرها حسداً
أكرم بحبل غدا للعرب رابطة | وعقدة وحدت للعرب معتقدا

ويقول يوسف عساف :

للترك فيكم كل يوم وثبة | يردى الذكور بها وتسبى المرهق
كم جندلوا من قومكم ، كم أبعدوا | من أهلكم ، كم جوعوا ، كم ارهقوا
تلك المشانق قد دهت أفراسها | مما يناط بها وممن يشنق
تلك السجون قداشتكت جدآرنها | ممن يساط بهاو ممن يزهق

ويقول أمين الريحانى عن طغيان الاستبداد فى العراق .

وإذا تسال عما هو فى بغداد كائن
فهو حكم شرق الضرع غربى الملايين
وطنى الإسم لكن انجليزى الشناشن
قد ملكنا كل شيء نحن فى الظاهر لكن
نحن فى الباطن لا نملك تحريكا لساكن

ويقول نسيب عريضه فى وصف « الشهيد العربى »

كفنوه وادفنوه واسكنوه
هوة اللحد العميق
وأذهبوا لا تندبوه فهو شعب
ميت ليس يفيق

هتك عرض . نهب أرض

شنق بمض

لم يحرك غضبه

فلماذا ندرف الدمع جزافا

وعندما ينتقل الكاظمى من بغداد إلى القاهرة ويقيم فيها يحس بأن أفق الدعوة إلى الوحدة الكبرى قد اتسع به . فيقول :

أن يكن بات فى الكنانة جسمى	ففؤادى بالكرخ ظل رهينا
أرفاق الصبا وليس حراما	أن أنادى رفاقنا الأقدمينا

ويقول :

أحن إذا قيل العراق وانحنى	وأشهق آن قيل الشام وأزفر
وأطرق أن قيل الحجاز على جوى	وأعجب إذا ما قيل مصر وأبهر
جميع بلاد العرب فى القدر واحد	إذا وزنوا البلدان يوما وقدروا
إذا نحن وحدنا القلوب فلم نبل	إذا ما غدت أجسامنا تتبعثر
وما نزعات العرب مرئى حالم	يعبر فيها ما يشاء المعبر
ولكنها آمال قوم تضامنوا	بنصر ومن يمشى مع الله ينصر
وما بك يا مصر ببغداد نازل	وفى جلق أدهى وفى القدس أجسم
هنا لك أحشاء تذوب وههنا	قلوب متى حركتها تتضرم
إذا ما توالى جرحنا وتعذرت	مراهمه فالجرح للجرح مرهم

٢ — ثم كان لابد أن تتطور الأمور ، وتتغاير الصور ، وتمضى صيحة القومية العربية رغم كل أسباب المقاومة والانفصالية ، ومرت سنوات بعد ثورات البلاد وجاءت الأحداث الضخام .

نعم : كانت مأساة فلسطين أضخم حدث فى تاريخ الأمة العربية ، هذه القارعه التى هزت العرب هزا وأيقظتهم من سباتهم وكشفت أوراق المستعمرين وحررت المغرورين فى أكذوبة عداله الغرب والمخدوعين بكلمات الحرية والأخاء والمساواه .

يقول بشاره الخورى (١٩٣٦)

سائل العلياء عنا والزمانا ... هل خفرنا ذمه منذ عرفانا
المروءات التى عاشت بنا ... لم تزل تجرى سميرا فى دمانا
يا جهاداً صفق المجـــد له ... لبس الغار عليه الارجوانا
شرف تاهت فليسطـــين به ... وسمـاء للمعانى لأيدانى
أن جرحا سال من جبهتها ... لثمته بخشوع شفتانا
وأنينا ناحـــت النجوى به ... عربيا وشفته مقلتانا
يا فلسطين التى كدنا لما ... كابدته من أسى ننسى أسانا
نحن يا أخت على العهد الذى ... قد رضعناه من المهد كلانا
يثرب والقدس منذ احتلما ... كعبتانا وهوى العرب هوانا
شرف الموت وأن نطعمه ... أنفسا جبارة تأبى الهوانا
أنشروا الهول وصبوا ناركم ... كيفما شئتم فلن تلقوا جبانا
غذت الأحداث منا أنفسا ... لم يزدها العنف إلا عنفوانا

ويقول الجوهرى[1] :

لو أستطعت نشرت الحزن والالما ... على فلسطين مسوداً لها علما
ساءت نهارى يقظانا فجائعها ... وسئن ليلى إذ صورن لى حلما
رمت السكوت حداداً يوم مصرعها ... فلو تركت وشأنى ما فتحت فما
فاضت جروح فلسطين مذكرة ... جرحا بان لى للآن ما التأمـا
سيلحقون فلسطينــــا بأندلس ... ويعطفون عليها البيت والحرما

(١) الفلسطينات . مجموعة شعر النجف — ١٩٣٦ .

ويسلبونك بغـــداد وجلقه ويتركونك لا لحما ولا وضما
يا أمة لخصوم ضدها احتكمت كيف ارتضيت خصيما ظالما حكما
بالمدفع استشهدى أن كنت ناطقه أورمت أن تسمعى من يشتكى الصما
وبالمظالم ردى عنك مظلمة أولا فاحقر ما فى الكون من ظلما

ويقول الحبوبى (العراق)

يا صرخة ملؤها من أجلها ألم لبيك بالسيف أن لم ينفع القلم
مجد العروبة ما شادته محـــبرة ولا يراع ولكن مرهف ودم
فتلك أسطره الحمراء يرسمها فى مصحف الزمن الهندية الخذم
البيض أضمن للآمال من كلم بها يصر يراع أو يفــوه فم
فكل حق حماه السيف محـــترم وكل حق عداه السيف مهتضم

ويقول حبيب العبيدى (العراق)

لقد أن للأقلام يعلو صريرها وللأسدان يبدو وجهاراً زئيرها
إذا الشعر لم يوقظ من الشعب راقدا فلا قذفت در القوافى بحورها
يعز على عينى البكاء وانما على ذكر أوطانى يفيض غديرها
على مجـــد عدنان وسؤدد هاشم وتاريخ قحطان يدر غزيرها
حرام على عرق لنـــا دم يعرب يجول به أن لم يحرر أســـيرها
ونحن أباه الضيم من عهـــد تبع إذ الناس غربان ونحن نسورها

ويقول :

على اليرموك قف واقرا السلاما وكلمه إذا فهـــم الكلاما
وقل يانهر هل هاجتك ذكرى شجت قلبى وهيجت الغراما
قطعت سهول حوران وشوق إليك يشـــير فى نفسى ضراما
وســـار بنا القطار على سهول تفيض بخيرها عاما فعاما
فلما أن أطل عليـــك ظهرا وفى واديك سيل الماء شاما

جرى ينساب فى الوادى كأفعى يروم الورد كى يطفى الأواما

ويقول أبو سلمى :

يارفاق جبل النار دعانا الهوى هذا الذى هب هوانا
والنسيمات التى مرت بنـا حملت من أرض خطين شذانا
وعلى كل طريق عبـق من صبانا وشعاع من دمانا
وإذا لغطت أهلى الربى هتفت من خلل الدمع ريانا
أى شعب خففت أعـلامه حرة الا على دامى خطانا
أى سفح لم يسر فيه لظى من فلسطين ولم يعرف سرانا
بالضحايا كتبوا تاريخنا بالخيام السود تبـكيهم زمانا
باسم أهلى فى بقايا وطنى باسمهم فى طرق البؤس حزانا
باسمهم فى كل أرض مثـلوا شاهدا قد صـبه الظلم عيانا
واسمهم يهدر فى شعرى دما ودموعا وسـميرا ودخانا
يافلسطين مضت عشر وفى كل يوم يسمع الدهر ندانا

ويقول ابراهيم طوقان :

عبس الخطب فابتسم وطغى الهول فاقتحم
رابط الجأش والنهى ثابت القلب والقـدم
لم يبال الأذى ولم يثنه طـارىء الألم
نفسه طوع همة وجمت دونها الهمم
تلتقى فى فراجها بالأعاصـير والحمم
تجمع الهائج الخضم إلى الراسخ الأشم
وهى من عنصر الفداء ومن جوهر الكرم
ومن الحق جذوة لفحها حرر الأمم

ربما غاله الردى   وهو بالسجن مرتهن
لم يشيع بدمعة   من حبيب ولاسكن
ربما أدرج التراب   سليبا من الكفن
لا تقل اين جسمه   واسمه فى فم الزمن
انه كوكب الهدى   لاح فى غيهب المحن
أرسل النور فى العيون   فما تعرف الوسن
ورمى النار فى القلوب   فما تعرف الضغن
أى وجه تهللا   يرد الموت مقبلا
صعد الروح مرسلا   لحنه ينشد الملا

أنا لله والوطن

وقال محمد سليم الرشدان شاعر القدس

أمة العرب يا ابنة المجد عودى   وانشرى للأنام عهد الجدود
فى ثنايا ردائك السابغ المطار   نفح العلاء والتخليد
والأزاهير ناديات على هامك   تعلوه شارة التمجيد
أنت أغرودة الزمان وفى ذكرك   يحلو لديه عذب النشيد
نحن أبناؤك الألى ندفع الضيم   ونمشى على شفار الحديد
نبذل النفس طائعين لأسعادك   يا أمه الفخار التليد
لتعيدى مجدا بناه الغطاريف   أباة من الكماة الصيد
أمة العرب لا تنام على ضيم   ولوكان فى جنان الخلود

وقال الشاعر القروى : رشيد سليم خورى

انى لمحت سناك فى غسق الدجى   رغم العصابة والحجاب السدل
فلقد يرى بالروح شاعرُ أمة   مالا يرى غير النبى المرسل

وأشمة الايمان تبتدر المنى ... وترد للمكفوف عينى أجدل
وكواكب الشهداء فيك بشائر ... ما آذنت بالفجر لو لم تأفل
لك فى خطوبك يادمشق مجدداً ... تذكار يوسف والحسين وفيصل
هزت جذور الأرز منه عواصف ... هوجاء تقذف بالحصى والجندل
يا هاتفا بالفرقدين تلاقيا ... كلفت نفسك وصل مالم يفصل
ما الشام ما بيروت فى البلوى سوى ... عينى مولهة وحدى فيصل

وقالت « مى موسى الصائغ » بعنوان نحن الذين على الحدود (فلسطين)

الليل . والبدر الصديق . وبوابير المياه
فى عمق بياراتنا عبر الحدود
أنغامها تنساب من أعماقنا دمعا
وتكرار النشيد . أبداً بعيد .
ماساتنا الكبرى وأحقاد العهود
وبوابير المياه ...
أنغامها تنساب فى أعماقنا ناراً
وتكرار النشيد . أبداً بعيد
أحلامنا الكبرى . وأعصار الأسود
وتلوح فى الأفق البعيد
من عمق بياراتنا عبر الحدود
أطياف ماضينا السعيد
ويموت فى أعماقنا شبح بغيض
الحاضر المشئوم ، والشعب الشريد
ويموت فى أفواهنا لحن العبيد

الواقع المنكود والشعب الشريد
وعلى متاه الذكرياب . تلوح آمال السعود
والنار فى أعماقنا تأبى الخمود
والجمر فى أحشائنا يأبى الهمود
لهب ضرام ...
أنا غضبة عبر السنين ، ودعوة للانتقام
حقدى يفور . يمور من خلف اللثام
وغداً سأبعثه من الأقصى من البيت الحرام
أنا سوف أمضى فى صفوف النازحين
أنا سوف أمضى فى دروب الكادحين
لندك الاستعمار والاقطاع والظلم المبين
أنا شعلة للحق فى كبد السنين
أقسمت لا أرضى . ولا أنا أستكين
وجموع شعبى لفها عيش مهين
ولسوف أحيا فى صفوف الثائرين
هذا طريقى فى الحياة وغير ذلك لن يكون
أترى طريقك غير هذا .. يارفيق
أبداً وحقك ، أنه هذا الطريق
ذاك الذى تمضى به وله نتوق
ماذنب حبك أن تبث به الحريق
دعه يعيش لكى يرى مجد الشروق
قد حل فجر البعث فالدنيا تفيق

هذا هواك فلا تكن أبدا عقوق
وارحم هواى ... فجرحه أضحى عميق
أترى طريقك غير هذا ... مادهاك
أنا بعد لا أنسى حديثك عن هواك
وعن الطريق وعن دموعك ، عن دماك
وعن التشرد والسجون ·وعن نضالك والهلاك
والبعث والوطن الكبير كمثلما رسمت رؤاك
وحسبتنى أرضى بعيشى مع سواك
خلف النضال وعزه ، أبداً ، هناك
أنا سوف أحيا للنضال ،عساك تفهمنى عساك
هذا طريقك فوقه تمضى الجموع
هو ليس بؤساً ، ليس بأسا أو دموع
هو ليس ذلا أو خنوعاً ، ليس جوع
فهو الخلاص لأمتى ... هو للجميع
وهو الحياة كريمة فوق الربوع
لاظلم ، لا استعباد ، لاعبثا خنوع
فعذاب سجنك واغترابك لن يضيع
مادام فجر البعث آذن بالطلوع
أنا شهقة صعدت هناك من الخيام
أنا آهة قد شفها طول السقام
أنا أن صرخت هنا بمصر ففى الشأم
فى المغرب الدامى سترجع صرختى

وقال كمال كامل أحمد — الشاعر اللبنانى

انى أسير وفى دمى حقد طنى ولظى يضج وجذوة وأوار
حطمت أغلالى وفجرى قد دنا ليلى الطويل بثورتى سينار
الوحدة الـكبرى وحقدى والضنى أسمى لها والاخوة الأبرار
العيش فى الخسف الأليم مذلة والصمت عن حق لنا لدمار
ساعود للقدس الحبيبة فى غد والصامدون واخوتى الثوار
ويشق من «اوراس» فجر اخضر ومن العراق وتشرق الأقطار

وتقول جليله رضا (القاهرة) تصور ثورة البعث العربى :

أنها قضية شعب سائر رغم سكونه
كان بالأمر غريبا فى حماه ، فى عرينه
ورأى الفجر مطلا خلف أسوار سجونه
وأحسن النور يسرى زاحفا فوق جبينه
فتخطى الموت عزما وانبرى فوق سفينه
ظامئا للنور ! للنور ! على مرأى عيونه

— ٢ —

هزيمة معركة التغريب والتجزئة

كان من الطبيعى أن تتجه الأمة العربية إلى الغرب بعد الاحتلال بحكم اتجاه المغلوب إلى ثقافة الغالب ومحاولة تقليده فكان أن ذهب جماعة إلى آخر الخط فى الإيمان بالحضارة الغربية ووقفت جماعة أخرى موقف المعارض . ووقفت جماعة ثالثة موقفا وسطا ودعت جماعة رابعة إلى القومية الضيقة .

وعمل الاستعمار على (١) تفتيت الوحدة بالدعوات القديمة (٢) إثارة الشكوك فى اللغة والدين والأمجاد بالروايات الضعيفة والشبهات (٣) تقسيم الأمة إلى جزئيات عن طريق الخلافات المذهبية فإذا لم توجد فبالخلافات السياسية وهكذا بدأت المعركة : « الاستعمار » يعمل على التمزيق والتجزئة وقتل اللغة ومحو الكيان وإبادة القومية العربية وإبقاء جيوشه محتلة ومذاهبه قائمة « والقومية العربية » تعمل عملا مزدوجا : تقاوم الاستعمار وأفكاره وجيوشه بالثورات والكتابة ويتجمع مع الأجزاء التى انفصلت لتعود مرة أخرى إلى الوحدة . وفى خلال أكثر من سبعين عاما استمرت المعركة فى المغرب : « كان[1] هدف الاستعمار سد أبواب التطور فى وجه الثقافة القومية ومنع اللغة العربية من أن تكون أداة النهضة الفكرية . حتى إذا ألحت عوامل التطور والنهضة على المجتمع التونسى لم يجد لها سبيلا إلا الثقافة الفرنسية واللغة الفرنسية . ولكنه كلما اطمأن الفرنسيون إلى مظهر من مظاهر ارتباطهم الثقافى بفرنسا جاءت اليقظة القومية المنبثقة من شعور الأمة التونسية بشخصيتها وتعلقها بمجامعها القومية قاضية على

---

(١) الحركة الفكرية والأدبية فى تونس : ج ٢

الاطمئنان . وكانت المعركة الثقافية الاستعمارية فى تونس بالغة أشدها . فإن الاحتلال الفرنسى قد حمل إليها ثقافتها مفروضة لا معروضة . فجعل اللغة الفرنسية لغة التعليم ولقن الناشئة التاريخ الفرنسى والآداب الفرنسية ولم تبق اللغة العربية أداة للتعليم إلا فى جامعة الزيتونة على أنها لاتتناول مواد استكمال الثقافة العصرية وذهبت تونس تدافع عن كرامتها حتى أوجدت تعليما عربياً قومياً يتفق مع البيئة العصرية بعد ثلاثين عاما وكانت الثورة النفسية العامة فى الشعب التونسى عاملا قويا فى تغليب جانب الثقافة القومية إذ كانت توحى إلى الشباب الواقع تحت طائلة التيار الأجنبى بما يبعده عن التأثر بدوافعه ويمده بثقافة قومية مستمدة من روح الثورة الشعبية وسرعان ما عاد الشباب التونسى الذى تعلم عند المستعمر إلى وطنه وقد جمع بين روح الثورة على المستعمر والتطلع إلى إحياء المجد العربى الإسلامى » .

وسافرت البعثات من مختلف أنحاء العالم العربى إلى أوربا . كانت أغلب البعثات إلى فرنسا . كانت تنتقل من أوطان محتلة متخلفة إلى بلاد ذات حضارة وبريق . لذلك عجز عدد كبير من هؤلاء المبعوثين عن التماسك ومضى الكثيرون وراء الغرب فآمن بآرائه وعاد إلى وطنه ليكون رسولا من رسل الثقافة الغربية . وعاد القليلون وهم يؤمنون بأنهم يستطيعون بما حصلوا عليه من ثقافة أن يقدموا لوطنهم ما يدفعه إلى الأمام دون أن يكون غربياً خالصاً أو تابعاً . ولكن الذين كانوا معجبين بالغرب من أبناء العرب إلى أبعد حد لم تلبث أحلامهم أن تحطمت بعد أن تكشف الاستعمار الغربى عن مآسيه وجرائمه فى الوطن العربى . هنالك أكتشف هؤلاء أن هناك فرقاً كبيرا بين « الألفاظ البراقة » فى عبارات الحق والحرية والجمال وبين أساليب الإبادة والوحشية التى تقوم بها هذه الأمم المتحضرة فى الشرق . وتكشف لهم كذلك أن الغرب يفرق بين إنسان وإنسان . وأنه

لا يستطيع أن يرى أن العربي أو الشرقي يمكن أن يقف على قدم المساواة مع الغربي . فقد ظهرت نظريات الرجل الأبيض الذى صنع الحضارة والرجل المتخلف . وظهرت نظريات السامية والآرية وكان هذا إيذانا بأن تضعف نزعة الإعجاب بالغرب بل وأن تتحول إلى الضد وقد حاول هؤلاء المبعوثون العائدون أن يربطوا بين الثورة العربية وبين الثورة الفرنسية بل وأن يربطوا بين الفكر العربي الحديث كله وبين الثورة الفرنسية غافلين عن مدى أصالة الشخصية العربية وقوتها وأثرها الضخم الممتد فى حلقات من القوة والفاعلية منذ أجيال بعيدة . والغرب الذى حاول أن يصنع من مبعوثينا عملاء له — ونجح إلى حد ما — لم يلبث قليلا حتى اكتشف حقيقة المشاعر ضده . يقول لوثردب استوارد مؤلف كتاب حاضر العالم الإسلامى « إنه مع توالى الأيام تقلب كثير من الأحرار أعداء أشداء للغرب لأسباب عديدة أهمها توالى الاعتداء الأوربى السياسى فباتوا بسبب ذلك يكرهونه ويمقتون « روح الحضارة » الغربية بأسرها . ولقد حاول العرب أولا أن يأخذوا من الغرب ثم أصبحوا أعداء أشداء للغرب .

٢ — وحاول الغرب الذى فرق الأمة العربية إلى دول صغيرة وممالك مصطنعة ، أن يجعل لهذه الحدود المصطنعة قداسة وكان سبيله إلى ذلك « احياء التاريخ القديم » فى كل قطر . ونشطت الحفريات للبحث عن آثار هذه الحضارات السابقة للاسلام فى كل من العراق وسوريا ولبنان ومصر رغبة فى القضاء على الوحدة والحيلولة دون التجمع ودعم التجزئة وجرى الحديث عن حضارات البابليين والأشوريين والكلدانيين والحيثيين والفينيقيين والفراعنة . ونشط الكتاب المستغربون إلى المفاخرة بالعصور البائدة التى ليس لها تاريخ مكتوب واضح الدلالة وألف المحتلون لجانا فى البلاد العربية لكتابة تاريخها الانفصالى مرتبطا بالعهود الآرامية

والفينيقية واليونانية والرومانية . بل أعلن بعض أثرياء الغرب أمثال روكفلر عن جوائز ضخمة ومبالغ كبيرة لانشاء متاحف للآثارالفرعونية وغيرها وكانت الدعوة التى يجرى تيارها أن يكون الأديب « مصرياً فى مصر وسورياً فى سوريا وعراقياً فى العراق » وكأنما قد فرض علينا أن نكون منكرين كل الانكار لما يحيط بنــاء على مرمى البصر . وأن نقصر مشاعرنا عند حدودهم الضيقة . وعند الأسلاك المصطنعة التى تفصل هذه الأجزاء . ونادوا بنظرية « الأدب للأدب » وكان معنى هذا هو عزل الفكر عن قضية الحرية والمقاومة والتجمع وصرفه عن الواقع وعن العمل الضخم « واضفاء[1] هالة من قداسة أرستقراطية عليه حتى يحيا فى برج عاجى من قصور ألف ليلة وليلة وقد وجد الاستعمار فى هذا التصور عونا على عزل الأدب والأدباء عن معركة الحرية التى يخوضها الشعب العربى ضد المستعمرين » .

« وكان المستعمرون إذا ما أنسوا بالأدب اتجاهاً وطنياً واقعياً ثورياً حاولوا صرفه عن هذا الاتجاه إلى اتجاه إنسانى واسع فضفاض » .

وهكذا اتسع نطاق المفهوم الفردى الانعزالى الخيالى الذى استهدف القضاء على المفهوم الانشائى البناء الذى يرمى إلى المقاومة والتجمع .

٣ — وفى المغرب تونس والجزائر ومراكش وليبيا والسودان حاول الاستعمار أن يثير دعوة التفرقة البربر والعرب هادفا إلى الفصل بين أجزاء الوطن العربى ـ وقد تناولنا ذلك كل فى مكانه ـ وقد حاول الفرنسيون فى مراكش إصدار « ظهير » عام ١٩٣١ يهدف إلى عزل البربر عن الحياة العامة فى أنظمة وقوانين ومدارس ولغة غير أنظمة ولغة العرب . ولكن هذه المحاولة فشلت ووجهت إليها حملات عنيفة وأدت إلى نتائج عكسية محضة فقد وجد البربر منذ قديم فى الامتزاج بالعرب

---

(١) اسبغ الاختيار .

سبيلا صحيحا للتجمع والمقاومة والوقوف فى وجه الغزاة الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على المغرب . والبرابرة ـ فى تقدير المؤرخين المحققين ـ لم يخرجوا عن كونهم عرب أتوا من الجزيرة العربية منذ أزمان سحيقة عن طريق صعيد مصر . ولما كان البربر لا يملكون لغة مكتوبة يستطيعون التخاطب بها فقد وجدوا فى اللغة العربية ضالتهم المنشودة فتقبلوها وقبلوا معها كتابها الكريم .

ويصور الدكتور محمد حسين : « لماذا اندفع المفكرون وراء الحضارة الغربية[1] » فيقول : اندفاع بعض المفكرين إلى اقتفاء الحضارة الأوربية قد جاء نتيجة لفساد الحكم العثمانى ولتطرف السلطان عبد الحميد فى الحجر على العقول وفى محاربة الحضارة الأوربية التى كانت تغزو الشرق الإسلامى وتغزو تركيا نفسها فى أشكال مختلفة . وقد أقبل الناس على المعاهد الأوربية حين حرموا العلم الصحيح فى المدارس الحكومية فتلونت مشاريعهم الإصلاحية باللون الغربى الغالب على ثقافتهم .

وقد كان السلطان عبد الحميد والحكم التركى الفاسد هو المقصود بكثير مما كتب فى الدعوة إلى الحرية والمناداة بفصل السلطة الدينية عن المدنية ينظرون فى ذلك إلى استخدام السلطان عبد الحميد سلطته الدينية بوصفه خليفة المسلمين فى جمع السلطة فى يده ومحاربة أعدائه وكل ما كتب من هذا اللون كان يطبع فى مصر لتعذر نشره فى أى قطر من الأقطار العثمانية وكانت كثرة الكتب تصدر عن الشام ولكنها كانت تطبع فى مصر وتقرأ فى مصر من هذه الكتب التى طبعها الشاميون فى مصر (أم القرى) للكواكبى والذى دعا فيه إلى فصل الخلافة عن السلطنة مقترحا جعل الخلافة فى العرب .

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب العربى المعاصر ج ١ .

٤ — وعمد الاستعمار إلى محاربة اللغة العربية وقطع أوصالها جهد الطاقة ليحل لغته محلها فى تونس ومراكش والجزائر وسوريا ولبنان سادت اللغة الفرنسية وفى مصر والسودان وفلسطين والعراق سادت اللغة الانجليزية .

وتواترت اتهامات الغرب لنا بأننا شرقيون « طابع[1] شخصيتنا هو التأمل والتصوف واللهو الساذج بينما طابعهم هو الفكر والكبرياء والنضال والقوة . وأن حضارتهم تنحدر من العلم الذى ينادى بالتجدد الدائم وحضارتنا تنحدر من الدين الذى يغرى بالجمود والفدام » . وكانت هذه خدعة كبرى للباحثين المحققين . فإن جذور الحضارة الأوربية القائمة كانت فى يد العرب طوال القرون الوسطى وقد أضافوا إليها من أبحاثهم ماجعلها أهلا لأن تنمو . وقد كانت جامعات العرب فى الأندلس هى التى خرجت علماؤهم . وحفظت تراث الإنسانية يوم كانت أوربا تهوى فى ظلام القرون الوسطى بينما كان العرب فى قمة مجدهم العلمى والثقافى وقد أجرى الكتاب الغربيون عدة محاولات للتقليل من شأن الحضارة العربية لجزء من خطتهم فى هدم التراث العربى الإسلامى القوى والتشكيك فى قيمته وأثرة ويقول الدكتور جواد على « إن الحضارة العربية فى نظر الباحثين الأوربيين حضارة سطحية ظاهرية انتجتها عقول آريه ومنابع يونانية فارسية هندية غوطية غير أن هذه النظريات لا قيمة لها أبدا إذا لم تدعم بالنصوص والبراهين كما أن الاستشهاد بحادثه أو رواية لا تتخذ حجة للحكم على أية أمة . واستطيع أن أقول أن « الأمة العربية » لو كانت فى الوقت الحاضر قوية لكانت النظرية على العكس من ذلك تماما وفى المصادر والنقوش الأثرية ما يبرهن على أن وضع حدود وحواجز بين حضارة وحضارة ومحاولة عزل الحضارات بعضها عن بعض أمر غير ممكن[2] »

(١) ابراهيم المصرى — الهلال ١٩٣٦ .

(٢) الرسالة — أغسطس ١٩٤٠

وقدتمثلت حركةالتغريب والتجزئة[1] فى ميدان الفكر العربى فى دعوات ثلاث

(١) الانفصالية كالفرعونية والأشورية والبابلية وغيرها . وقد حمل لواء هذه الدعوة هيكل محمد عبد الله عنان وانطون سعاده .

(٢) وفى دعوات النقل من الغرب والامتزاج به امتزاجا كاملا وهى ما سماها التغريبيون « الاستغراب » واعتبارنا من أوربا لا من أسيا وقد حمل هذه الدعوة سلامة موسى وطه حسين واسماعيل مظهر وقد سجل طه حسين هذا فى كتابه (مستقبل الثقافة — ١٩٣٦) فقال « أن نسير سيرة الأوربين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها ، ما يحب منها وما يكره ما يحمد منها وما يعاب » .

(٣) وفى مقاومة الوحدة العربية ومحاربتها . وقد وقف عدد من كتاب مصر فى صف هذه الدعوة فى مقدمتهم طه حسين وسلامة موسى . بينما وقف مكرم عبيد والمازنى وزكى مبارك إلى جانب الوحدة العربية وقد جرت مساجلات فى هذا الشأن بين طه حسين وساطع الحصرى :

يقول طه حسين[2] : « أما أصحاب القديم فيفهمون هذه الوحدة كما فهمها القدماء فى ظل سلطان عام شامل يبسط عليها جناحية ويحوطها بقوته وبأسه وكذا يخدع العقل القديم نفسه فيظن أنه أصبح حديثا . أما أصحاب العقل الحديث فيفهمون هذه الوحدة على نحو ما تفهم عليه فى البلاد المتحضرة بالحضارات الحديثة الأوربية ، يفهمونها على أنها لا تنفع ولا تفيد إلا إذا أحتفظت بالقوميات والشخصيات

---

(١) فصلت الحديث عن هذا الموضوع بإفاضة فى كتابى « معالم الأدب العربى المعاصر »
(٢) الرساله — ١٧ يولية ١٩٣٩

الوطنية والحريات الكاملة لأعضائها والسيادة العامة لهم فى حياتهم الداخلية والخارجية وقامت على الحلف الذى لا يفنى أمة فى أمة . ولا يخضع شعبا لشعب » ومعنى هذ أن طه حسين يرى أن كل قطر عربى هو أمة بذاتها .

ويقول ساطع الحصرى فى رده عليه : أرى من الضرورى أن أقول لكم أننى قد اطلعت قبل مدة على رأى فى الوحدة العربية يختلف عن هذين الرأيين فى وقت واحد فإن صاحب هذا الرأى كان لا يقبل الوحدة « ولو كانت على أساس المساواة » ولا يرضى بالوحدة « ولو كانت على نمط الاتحاد الأمريكى والسويسرى » أن صاحب هذا الرأى هو طه حسين قال فى مجلة المكشوف « مصر لن تدخل فى وحدة عربية حتى ولا اتحاد عربى سواء أكانت مساوية فى الأمم العربية الأخرى أو مسيطره عليها « الوحدة العربية كما يفهمها ذووها يجب أن تتحقق بشكل إمبراطورية جامعة أو اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكى أو السويسرى (المكشوف عدد ١٧٥)

ويقول مكرم عبيد « المصريون عرب » فنحن معشر المصريين جئنا من أسيا ونحن أدنى إلى العرب من « القدم من حيث اللون واللغة والخصائص السامية والقومية . ويجب أن نذكر فى هذا العصر دائما أننا عرب قد وحدت بيننا الآلام والآمال وثقت روابطنا الكوارث والأشجان وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان فأحدثت منا أمما متشابهة متماثلة فى كل ناحية من نواحى الحياة فالوحدة العربية حقيقة قائمة « هى موجودة ولكنها فى حاجة إلى تنظيم ؛ الغرض من التنظيم هو إيجاد جبهة تناهض الاستعمار وتحفظ القوميات وتزيد تبادل المنافع . كذلك نجد أن مصيرنا إلى الالتفاف حول مثل أعلى يوفق بيننا فنصير كتلة واحدة وتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة أو وطنا كبيرا تتفرع منه عدة أوطان . »

ومضت الدعوة إلى «المصرية» تحمل ثوبا من الخداع ، يقول طه حسين[1] :

---

(١) مجلى — مجلد ١٩٢٥

بعنوان « تمصير » يقول : قد مضى عصر كنا نستعير فيه الحضارة الأجنبية استعارة من أدبنا ونجهر بذلك ونقدم عليه لا نجد فيه حرجاً ولا نحس معه حياء . ثم مضى عصر آخر كنا نسرع فيه إلى هذه الحضارة الأجنبية مبتهجين بالاسراع إليها مفاخرين بالأخذ بأسبابها يمتدح الرجل منا بأنه يحسن مماراة الأوربيين فى هذا الأمر أو ذاك . ويحسن بتقليد الأوربيين فى الأفكار والقول . مضى ذلك العهد وأصبحنا تطمئن فيما بيننا وبين أنفسنا إلى أن الحضارة الأوربية وإن كانت ضرورة من ضرورات حياتنا الفردية والاجتماعية فان لنا مقومات خاصة ليست حاجتنا إليها بأقل من حاجتنا إلى الحضارة الحديثة » ثم يصور هذه المقومات بأنها مقومات المصريه الخالصة ! ومعنى هذا أن الاتجاه التغريبى الأول الذى صوره طه حسين فى كتابه مستقبل الثقافة قد فشل فبدأ الدكتور ينحو نحوا جديدا هو القومية الضيقة والمصرية التى لا تؤمن إلا بحدودها المحدوده وهو تغير فى الخطة لا فى الغاية .

ويقول توفيق الحكيم موغلا فى « المصرية »[1] إن إختلاطنا بالروح العربية كاد ينسينا أن لنا روحاً خاصة تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح الأخرى الغالبة . لابد لنا إذن أن نعرف ما المصرى وما العربى : العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية فى العمل الفنى الكبير . ولا ريب عندى أن مصر والعرب طرفا نقيض . مصر هى الروح والعرب هى المادة . مصر والعرب وجها الدرهم أو عنصرا الوجود .

ويقول أنطون سعادة فى كتابه الصراع الفكرى فى الأدب السورى[2] مثل هذا القول بالنسبة للسوريين فى نفس الزمن . داعيا إلى الانفصالية فى التفكير السورى فى حدود القومية الضيقة . ويقول محمد عبد الله عنان أن « المصرية تراث قومى أثيل لمصر وليست فكرة ولا دعوة جديدة »

---

(١) رساله إلى طه حسين من دمنهور ١٩٣٣

(٢) الصراع الفكرى فى الأدب السورى . بونيس أيرس ١٩٤٣ .

٥ـ وفى محيط الصراع بين التجزئة والتغريب من ناحية والتجمع والمقاومة كان للثورة التركية بقيادة مصطفى كمال أثرها الفكرى البعيد المدى .

ذلك أن مصطفى كمال أتاتورك عندما قام بثورته التى ألغت الخلافة الاسلامية وسحق الدولة العثمانية وأقام الجمهورية التركية . دعا إلى التغريب وليس القبعة والكتابة من اليسار والانفصال عن اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية وقد اهتز العالم العربى لصلته الوثيقة بتركيا منذ مئات السنين وكان لهذا أثره الفكرى فقد قامت على الأثر دعوات التغريب ومقاومة اللغة العربية والطربوش وغيره وقد تناولتها الصحف بالأبحاث الطويلة العديدة ومن بينها استفتاء قامت به مجلة الهلال موضوعه « هل نقتدى بتركيا وإلى أى حد ؟ اشترك فيه عدد من المفكرين العرب[1] فى مصر وسورية وتونس والعراق وهذه خلاصة آرائهم :

١ — عبد الرحمن شهبندر : إننا نريد الاقتداء بتركيا الحديثة فيما أنجزته فيها اليد القاهرة من الأعمال الباهرة فى فتح الطرق ومن السكك الحديد ، وإنشاء المصانع . ونحن مهما كرهنا الجمود وسئمنا التعفن والركود فلا نريد أن نقطع جذور الروابط التى تربطنا بالشرق وأواصر الاتصال بالثقافة الماضية التى دامت مئات السنين . أننا من أعداء قطع الاتصال بالماضى …

٢ — محمد فريد وجدى : المعول عليه فى انهاض الأمم هو الدأب فى تربية نفوس آحادها تربية توقظ فيها جميع غرائزها الكافية فاذا نجح المصلحون فى ذلك اتجهت تلك النفوس فى ذاتها إلى طلب الحياة الكاملة والحصول على جميع مقوماتها الأدبية والمادية : وهذا هو الطريق الطبيعى لنهوض الأمم أما مجرد محاولة الاقتداء فلا ينتج أثرا محموداً لأن كل ما فى الأمم هو ثمرات نفسياتها . إن المعول فى إنهاض

(١) الهلال — يوليه ١٩٣٥ .

الأمم هو على الذات فى تربية نفوس أحادها تربية نوقظ فيها جميع غرائزها الكامنة .

٣ — الأمير مصطفى الشهابى : لا تستطيع الاقتداء بتركيا فى نهضتها الأخيرة إلا الشعوب المستقلة فمتى رفع الانتداب عن الشام وزال الاحتلال فى مصر وزالت معه الامتيازات الأجنبية جاز عندئذ البحث فى مجاراة تركيا فى نهضتها الحديثة . إن التطور الاجتماعى قلما يجدى فيه استعمال السيف والبندقية . مثال ذلك أنهم حتموا على الشعب لبس القبعة وقد أطلقوا سراح النساء دفعة واحدة فأباحوا لهن التراقص والتزاور والتنزه والذى يعلم حالة السواد من النساء التركيات لا يرى فائدة عملية فى منحهن حقوق الانتخاب للمجالس البلدية أو للمجالس النيابية بينما معظم الرجال أنفسهم ما برحوا بعيدين عن إدراك معنى هذه الحقوق أو ممارستها .

٤ — عبد العزيز الثعالبى : الأمم المستقلة التى تحكمها جمهرة من متعلميها ومفكريها هى التى يحق لها وحدها أن تقلد وتقتبس ماتشاء من نهضات الأمم التى تقدمتها فى مضمار التمدن وأنصح أن تقتبس نظم الجيوش وإنشاء المعاهد الثقافية واستثمار المرافق العامة ؛ الواقع أن النهضة التركية الأخيرة فيها الشىء الكثير من الإغراء والفتنة للذين يتهافتون على تقليد كل جديد مهما كان أثره ولكنها ليست فى نفس الوقت نهضة شعبية بالمعنى الصحيح تستهوى أخيلة النقاد الاجتماعيين .

٥ — الأب انستاس الكرملى : علينا أن نقتدى بتركية فى مجددات نهضتنا — أى علينا أن نشابه الترك فى عزة النفس ولا نستكين للاجانب وأن نحب وطننا حباً صادقاً ونعزز لغته ولا نجود بها لمال عزيز نكسبه فنذل به الوطن ويجب على كل منا أن يحبب اللغة العربية بقدر طاقتة ويظهر محاسنها . وأنها تفوق محاسن كل لغة على وجه الأرض لما فيها من الأصول البديعة والقواعد الموافقة للعقل السليم .

٦ — عيسى اسكندر المعلوف: يجب أن نقتدى بتركيا فى تعميم التعلم الصحيح وتهذيب المرأة واقتباس ما يناسب البلاد العربية واتفاق الحكومة والشعب على مصالح الوطن وتوفير الاقتصاديات بتعزيز أسباب العمران .

٢ — حركة التغريب فى مصر

كان التنافس بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية قائماً فى العالم العربى كله ولكنه كان فى مصر قائماً بصورة مزدوجة ولذلك كان أشد قوة فى الصراع إذ كانت مصر واقعة تحت سلطان الاحتلال البريطانى ولكنها كانت متأثرة بالثقافة الفرنسية منذ الحملة الفرنسية . ويصور « محمد عبدالله عنان » فى مقالة « مصر بين ثقافتين » الصراع القائم بين الانجليزية والفرنسية فيقول : كان تيار الثقافة الفرنسية هو الظافر فى أواخر القرن الماضى . وكان يغمر المجتمع المصرى المثقف . فلما رسمت سياسة الاحتلال الانجليزى خطط الغزو المعنوى اهتمت بنظم التربية والتعليم بما يوطد نفوذ الثقافة الانجليزية ويطبع الجيل الجديد بها فقلبت نظم التعليم وحلت الانجليزية مكان الفرنسية فى معظم المواد . وتولى الاساتذة الانجليز مقاليد الإدارة والتعليم فى بعض المعاهد وتحول سيل البعثات الحكومية من فرنسا إلى انجلترا . ولم يمض ربع قرن حتى خرج الجيل الجديد يحمل تيار الثقافة الانجليزية وتضاءل نفوذ الثقافة الفرنسية . وكان هذا الصراع بين الثقافتين الأجنبيتين على حساب لغتنا العربية وثقافتنا القومية . وقد كانت الخصومة القائمة بين مصر وانجلترا تحمل الطالب المصرى الذى أشربت نفسه مبادىء الوطنية على نوع من الأسف والغضاضة لتلقى لغة الأمة الخصيمة ولم يكن الأساتذة يؤدون رسالتهم كأساتذة فقط . ولكنهم رسل استعمار وسيادة أجنبية ينظرون إلى الطلبة نظرة السادة إلى الرعايا والمحكومين . ومن أقوالهم وأثاراتهم ما يجرح شعور العزة القومية . وعاشت اللغة العربية عرضة لمنافسة قوية فى مصر بين اللغتين الانجليزية والفرنسية . وكانت الثقافة الفرنسية

قد بدأت مع عهد محمد على وبعثات مصر الأولى التى سافرت إلى فرنسا وكانت الدعوى بأن مصر أمة من أمم البحر الأبيض التى تغمرها الثقافات اللاتينية .

وقد نظم الفرنسيون حينما غزو مصر فى خاتمة القرن الثامن عشر غزوهم المعنوى إلى جانب الغزو السياسى ولم يكن حكام مصر مصريين ولا عربا .

وقد عنوا ببث ثقافتهم فى مصر عناية خاصة . ولما استخلص محمد على حكم البلاد لنفسه ألفى أمامه بقية قائمة من هذه الثقافة وألفى الفرنسيين على أهبة المعاونة وبذلك كانت أوثق الدول الغربية صلة بمصر » .

ومما يتصل بهذا أن مصطفى كامل عندما دعا إلى تحرير مصر سافر إلى فرنسا واتخذ لغتها وصحفها وسائل له فى الدفاع عن قضيتها ؛ وقام الصراع بين طه حسين والعقاد حول الثقافة اللاتينية والثقافة السكوسونية[1] .

وعندما سقطت فرنسا تحت أقدام الغزو الألمانى رثاها الكتاب والشعراء الذين كانوا يدينون لفرنسا بثقافتهم وكان فى مصر عدد من الكتاب فى هذه الفترة يذكرون فرنسا بشىء بالغ من التمجيد والمبالغة فى التقدير ويصفونها بأنها مدينة النور بينما كانت فرنسا تقيم المذابح وتحرق القرى وتدمرها على الوطنيين العرب فى الجزائر وتونس ومراكش وسورية . .

واتصلت هذه الدعوة إلى التغريب والقومية الضيقة بمحاولات أخرى هى محاولة تغليب القبعة على الطربوش أو العامية على العربية أو تحرير الأدب والتاريخ من نصوص القرآن أو هدم اللغة العربية أو التحرر من سلطان العروبة والإسلام والشرق والتماس الروابط مع الغرب وأوربا كاننا جزء منها وانكار صلتنا بآسيا وأفريقيا لكن هذه المحاولات حين عجزت عن الاستمرار وتحطمت واحدة بعد أخرى ، تحول التيار حثيثا إلى تيار آخر هو التيار الاسلامى ومهما يكن من قول بأن هذا

(١) لهذا الصراع تفصيل آخر فى كتابنا « معالم الأدب العربى المعاصر » .

التيار أريد به توسيع دائرة التجمع والترابط حول منطقة ضخمة ولمقاومة القومية العربية فانه كان تحولا هاما وشاملا .

بدأ هذا الاتجاه حوالى عام ١٩٣٢ ثم اتسع من بعد وقد زادت فى قوته ودعمه حركات التحرر والثورات المتواليه فى أجزاء الوطن العربى وفشل سياسة سحق اللغة العربية أو تمزيق الأجزاء العربية . وكان هذا معناه ما صوره الدكتور منيف (١) الرزاز « إن هذه الأمة رغم تباين آراء الأفراد مادامت تتغذى بتاريخ واحد وبيئة وعادات وتقاليد واحدة لا بد لها من أن تتقارب وتحدث كتلا كبيرة » .

وبدأت حركة جديدة فى مصر للعناية بالتراث العربى ووسائل أحيائه حمل لواءها نفس الدعاة إلى الفرعونية طه حسين وهيكل (١٩٣٨) وكتب هيكل يقول « إن التراث العربى عامر بسير العظماء والأبطال وكل واحد من هؤلاء العظماء له حياة وله أشواق وله هموم وله وثبات بين الرجاء واليأس وبين النجاح والاخفاق . كما هو عامر بالحركات الاجتماعية التى تحتاج منها إلى فهم جديد وتفسير جديد ، فاذا استخرجنا هذه الحركات وعرضناها ونشرناها فسنرى يومئذ أنها حركات حيه تشبه كل الشبه ما نراه بأعيننا وسنرى يومئذ أن عالم التاريخ الماضى وعالم الحياة الحاضرة يلتقيان أقرب التقاء » وفى ظلال هذه الآراء كتب هيكل ثم طه حسين ثم توفيق الحكيم ثم العقاد عن محمد والاسلام والحضارة العربية فى مؤلفات متعددة : عبقريات العقاد ومحمد وأبو بكر وعمر لهيكل وعلى هامش السيرة لطه حسين ومحمد لتوفيق الحكيم وكان هذا تراجعا بعيد المدى فى الصورة كلها .

وقد صور الدكتور هيكل رأس المدرسة التى حملت رسالة التغريب ودعوة الفرعونية والمصرية الضيقة فى جريدة السياسة هذا التراجع بقوله (٢) « إن الذين درسوا

---

(١) كتاب معالم الحياة العربية الجديدة : بيروت .

(٢) فى منزل الوحى — هيكل ١٩٣٦ .

فى أوربا كانوا هم رسل الحضارة الغربية الداعين لها فى مصر ظنا منهم أن ذلك هو السبيل إلى نهضتها . وأن هؤلاء الشباب قد تفتحت أعينهم على حقيقة الأمر بعد الحرب فقد أدركوا أن كل ما بذلت الشعوب العربية من تضحيات لم يكن إلا فى سبيل الاستعمار ، وأدركوا كذلك أن الدول الأوربية التى تزعم أنها تحررت من التعصب الدينى هى دول متعصبة تعصبا مسيحياً لم تنس معه الحروب الصليبية حتى إن قائداً كبيراً من قوادهم وهو اللورد اللنبى قال يوم استولى على القدس أن الحروب الصليبية قد انتهت . ثم أن هذه الدول الأوربية شملت بحمايتها الجماعات التبشيرية المنبثة فى كل مكان ؛ ... ولقد خيل إلى زمنا كما لا يزال يخيل إلى أصحابى (ومعنى هذا أن بعض أصحابه ظلوا فى طريقهم الأول رغم تكشف هذه الحقيقة) أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى النهوض وما أزال أشارك أصحابى فى أنا ما نزال فى حاجة إلى أن ننقل من حضارة الغرب العقلية ما نستطيع نقله . ولكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب وثقافتنا الروحيه غير ثقافته .

« لقد خضع الغرب للتفكير الكنسى على ما أقرته البابويه المسيحية منذ عهدها الأول . وبقى الشرق ريثاً من الخضوع لهذا التفكير . وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية ليتخذها جميعاً هدى ونبراسا ولكنى أدركت بعد لأى أننى أضع البذر فى غير منبته فاذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبت ألتمس من تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحى هذا العصر ننشىء فيه نشأة جديدة فاذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة . لذلك لم يكن لنا مفر من العود إلى تاريخنا نلتمس منه مقومات الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا ولنتقى الخطر . »

٣ — عودة الثقة إلى الفكر العربى

واكتشف الفكر العربى مع الزمن حقائق كانت محجوبة بفعل الاستعمار ودعواته

الضالة المضللة . يقول رشيد عراجى «الفاصل الجغرافى بين الدول العربية هو فاصل وهمى ضعيف بالنسبة إلى ما يفصل الولايات المتحدة الأمريكية من فواصل طبيعية فليس بيننا وبين العراق « المسسبى » وليس بيننا فوارق الدم الموجودة بين أبناء الولايات المتحدة فاننا أمة ذات دم واحد وأن شعبنا قضى ما يزيد على ألف سنة كان خلالها يؤلف دولة واحدة محكوما بنظام واحد » ومن ناحية أخرى أخذ المفكرون العرب المؤمنون بالقومية العربية يرسمون خطوط العمل . كان من أوائل هذه الكتب « يقظة العرب لجورج أنطونيوس » ترجمة على حيدر الركابى وقد صور هذا الكتاب الروابط اللغوية والثقافية والتاريخية التى تجعل من البلاد العربية وحدة لها طابعها المميز . ورسم « قسطنطين زريق» شروط استكمال النهضة فى ثلاث خطط رئيسية :

- الأول بناء الأساس الفكرى الذى تقوم عليه النهضة بدراسة الغايات والوسائل دراسة بعيدة عن الارتجال .
- تحويل هذه الدراسة المنظمة إلى عقيدة قومية تتجه بالأفراد الوجهة الصحيحة.
- تنظيم الأمة العربية وضبط نوازعها وإخضاع إرادتها لإرادة وحيدة منبعثة من عقيدة واحدة . وتعنى هذه الخطة العمل المنظم الصادق عن فكر يدرب عليه الرجال والنساء على السواء . واستطاع العرب حين تحرروا فى سورية من الاستعمار الفرنسى أن يتحرروا من آثاره . يقول على الطنطاوى : لقد بطلت فتنتنا بالغرب وبطل سحر الغرب فينا وصرنا نميز خيره من شره ونفرق حقه من باطله . لقد تحقق استقلال الشام وما كنا نظن قبل عشرين سنة أنه يتحقق يوم كان الفرنسيون فى كل مكان قلاعهم فوق تلالنا . وجيوشهم فى ثكناتنا . ومستشاروهم فى دوائرنا وجواسيسهم بيننا . فلما أتى نصر الله لم يبق منهم بقية فينا » :

ويصور « ذو النون أيوب » الفكر العربى فى غمرة النضال[1] فيقول « بدأ

(١) الرسالة — أغسطس ١٩٥٣ .

الفكر العربى نضالا جديداً معتمداً على فلسفة جديدة : أن المستعمر الطاغية سوف لا يقف مكتوف اليدين أمام الحملة الجديدة التى أخذ العربى يتهيأ لها . فقد غدت البلاد العربية بالنسبة إليه آخر ما يملك ، بعد أن طرد من مجالات استغلاله الأخرى . لقد أصبحت البلاد العربية الفتية اليوم أمام الاستعمار كعجل فتى قوى أمام أسد مريض جائع عجوز . فاذا ما أدرك العجل حالة خصمه . وآمن بحقه فى الحياة إستطاع أنه يقتل خصمه أو يهرب منه . أن الفكر العربى مسئول أمام الأمة العربية فى تنبيه العرب إلى حقوقهم وإلى طريقة تحصيلها وعليه أن يسلحهم بالإرادة ويفهمهم أساليب المقاومة السلبية . أن الهدف الأعلى أمام العرب هو التحرر من سيطرة الأجنبى بأنواعها ويجب أن يكون هذا الهدف مقدسا وفوق كل شىء .

على الفكر العربى أن يعيد الثقة بالنفس إلى العرب . ويعيد إليهم إيمانهم بكرامتهم وحقهم . عليه أن ينبههم إلى أنهم ليسوا وحدهم فى هذا الكفاح » . ويقول « سامى الكيالى »(١) أن النزعات القومية فى أدبنا المعاصر بدأت قوية فى شعر الشعراء وأدب الكتاب منذ بداية القرن التاسع عشر وقبيل هذه الفتره بسنوات . فقد اعتبر الأدباء والشعراء والمفكرون — اعتبروا أدبهم وسيلة للنهوض بأوطانهم وبالأمة العربية التى ظلت أحياناً طويلة تحت سجف الغيبوبة والجهالات . محكومة بغيرها لا تتمتع بما تتمتع به الأمم الحرة أو بما كانت تتمتع به الأمة العربية يوم كانت ذات صولة وسيادة وسلطان : انبثقت الصيحات من هنا وهناك . تقاوم نزعات الطغيان وتدعو إلى التحرر من الأجنبى وتهيب بالشعوب العربية أن تعمل عمل أسلافها فى سبيل العزة والكرامة . فنى مصر كما فى سوريا والعراق كانت الدعوة إلى اليقظة والتحرر هى سبيل الشعراء والكتاب . وقد أثارت الأحداث القومية شعور الكتاب وقرائح الشعراء بصورة خاصة وراحوا يعبرون عن هذه الأحاسيس

---

(١) كتاب العالم العربى ج ٢ أصدرته الجامعة العربية — ١٩٥٣ .

وظهر ذلك بارزا فى محنة فلسطين حتى كاد أدبنا فى هذه الفترة يصطبغ بهذا اللون الدامى الذى عرفه الأدب العربى قبل خمسمائة سنة عند ما أضاع العرب الأندلس ».

ويقول الدكتور زكى نجيب محمود[1] إن الجهاد السياسى قد استنفذ شطراً كبيراً من جهدنا الفكرى فانطبع تفكيرنا بالطابع الذى اقتضاه العراك فى ميدان السياسة ولذلك كانت « الدعوة إلى الحرية » طابعا يميز الفكر العربى المعاصر : وهو جهاد متصل فى سبيل الحرية تختلف ألوانه . قوامه الدعوة إلى الحرية السياسية من المستعمر الأجنبى والمستبد الداخلى ، وكان هناك تياران قويان : الأول الاعتراف من المدنية الأوربية والثانى إعادة التراث العربى القديم مصحوبا بدفاع عقلى يبرر له مكانا من ثقافة العصر الحاضر . وكان الأثر الذى تركته فينا حركة النقل عن المدنية الغربية ، أن فتح النوافذ والأبواب أمام المدنية الغربية لم يصادف هوى عند طائفة من الناس ليست بالقليلة لشأن أو العدد .

فبين ظهرانينا فريق كبير جداً كان يتمنى بحكم تربيته ونشأته أن يكون نهوضنا كله نموا من الداخل ورجوعاً إلى الماضى . فلما رأوا بأعينهم أن تيار الحضارة الغربية العلمية جارف يمس أوضاع الحياة كلها ، لم يروا بدا من النشاط والحركة فى اتجاههم وهو الجرى إلى الوراء لاستخراج كنوز الماضى لعلهم يجابهون بها الغريب الدخيل» ا . ه

وفى محيط هذا الصراع الفكرى الذى كان يحمل لواء القومية العربية فيه فى الأغلب كتاب من سورية والعراق وتونس كان فى مصر بعض الكتاب يؤمنون بالقومية العربية ويدافعون عنها فى قوة وحماسة من بينهم ابراهيم عبد القادر المازنى وهذا نموذج له[2].

«فشلت الثورة المصرية ـ يقصد ثورة ١٩١٩ ـ لأننا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين . ذلك أنى أومن بما أسميه القومية العربية واعتقد أن من خطل السياسة وضلال الرأى أن تنفرد كل

---

(١) كتاب العالم العربى ـ ١٩٥٣ .

(٢) الرسالة ٢٦ أغسطس ١٩٣٥ بعنوان « القومية العربية »

واحدة من الأمم العربية بسمعها غير عابئة بشقيقتها أو ناظرة إليها وتخيفني ويستفزني أن أرى أحداً ينظر إلى مصر كأنها من أوربا وليست من الشرق .

إن القوميات الضيقة الحدود وليدة الحرب العظمى . لقد كانت هناك وحدة وثقافة إسلاميتان دان لهما الشرق وظلت هذه الوحدة قائمة على الرغم من انحطاط الثقافة ولم يمنعها أن تظل قائمة أن ثورات شبت وحروبا استعرت . وقد كان العلماء والأدباء والفقهاء يرحلون من بلد إلى بلد ولا يحسون أنهم تركوا أوطانهم وتغربوا ولا يشعرون أنهم اجتازوا حدوداً وتخطوا تخوما ، تفصل بين أقطار وتعزل أمة عن أمة . وكانت اللغة العربية هي اللسان الذى لا يحتاجون إلى اتخاذ غيره حيثما يكونون فى هذا الشرق العظيم الذى تقسمونه اليــــوم شعوبا ويقولون هذا مصرى وذاك فلسطيني أو شامى أو حجازى ، على أن القومية هى اللغة لا سواها . ولـكن الأصول البعيدة المتغلغلة فى القدم ماشاءت فما دام أن أقواما لهم لغة واحدة فهم شعب واحد . ولـكل لغة أساليب التفـكير وطريقة التصور خاضعة للأساليب التى يتألف على مقتضاها الـكلام فى اللغات المختلفة ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى .

ولو أن هذه القومية العربية لم تـكن إلا وهماً لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ لوجب أن نخلقها خلقــــا فما للأمم الصغيرة أمل فى الحياة مأمونة . أن أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع أن تثب عليهم وتأكلهم بلحمهم وعظمهم » . وفى « المغرب » كان يتفاعل نفس الشعور : معركة مقاومة لعمليات التدمير والتمزيق والتجزئة والتغريب : يصور ذلك علال الفاسى إذ يقول :

« على أننا نحن المغاربة نحس من حاضرنا وكفاحنا بما يشعرنا بأن عواطفنا التى تدفعنا اليوم لمقاومة المستعمرين من غير هواده ليست إلا العواطف التى كانت تملأ روح أجدادنا . لقد أنـكر جوتيه على المغرب حتى اسمه التاريخى وهذا أشد ما يكون من المغالطات فقد عرف المغرب من قبل أن يعرف الأفرنج ببلاد

(أمازيع) أى الوطن الحر . كان هناك صراع فى تاريخ المغرب بين نفوذ العائلة اللاتينية والعائلة العربية التى تركب ذهنيتها من مجموع تأثيرات الحضارة المغربية واليونانية والسامية ، ولكنا نجد أن النصر دائما كان حليف هذه الحضارة العربية التى تكون الأساس الأصيل لحضارة البحر الأبيض المتوسط . هذا الأساس الذى لا يعنى بالمادة بقدر ما يعنى بالروح . وذلك ما يساعد على تكييف الذهنية المغربية على مركب هذا الأساس الذى يحس بالقرابة الأصيلة بينه وبين سائر أنحاء العالم العربى . على أن المغرب بالرغم من ارتضائه بالإسلام دينا والعربية لغة فقد ظل دائما معتداً بوجوده الخاص ناشدا مكانه تحت شمس العروبة غير راض أن يكون فى مؤخرة القافلة العربية أو بعيداً عن مركز القيادة منها . وقد سجل فى تاريخه الحديث مالا يقل عن بطولة أسلافه الذين قاوموا الفاتحين الأولين وصمدوا فى وجوههم رغم ما لهم من قوة وما عندهم من بأس. ولقد طال الاستعمار الرومانى والبيزنطى والوندالى فى البلاد ولكنه لم يستطع أن ينال من معنوياتهم أو يقضى على شخصيتها . وها هو ذا الاستعمار الفرنسى والأسبانى يزداد طغيانا ويحسب أنه بالإرهاب والعسف والكيد سيمحى على وجودنا كأمة عربية مستقلة . ولكن التاريخ سيعيد نفسه وسينتهى هذا الاستعمار ولن يبقى من أثره إلا ماتسجله صفحات[1] »

وبعد هذا الزمن الطويل بماذا انتهت المعركة ؟ فشلت جميع الخطط التى أقامها الاستعمار وتحطمت خطة بعد أخرى ولم يقو الاستعمار على عملية الإبادة والإفناء ولم يقو على عملية التمزيق والتجزئة ولم يقو على محو اللغة العربية ولم يقو على جعل بعض أجزاء الأرض العربية قطعة من وطنه . وعادت الجزائر التى حاولت فرنسا منذ ١٨٣٠ أن تجعلها جزءاً منها تحارب حربا شاملة منذ أربعة أعوام فى ثورة ضخمة وبالرغم من مقاومة المستعمر وعنفه فقد ظلت اللغة العربية قوية ومضت القومية العربية تشق طريقها وتحطم المؤامرات . ولم يعد الوطن العربى يستجيب لدعوة غير متفاعلة مع قوميته العربية مهما كان مصدرها . . .

(١) الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى : علال الفاسى : ١٩٤٨

— ٣ —

معركة القومية العربية والوحدة الكبرى

١٩٣٣ — ١٩٥٩

اثبتت الدراسات الأدبية بأن هناك أكثر من دليل تاريخى يجعلنا نعتقد أن القومية العربية فى العصر الحديث كانت هدف الدعوة الوهابية وحركة محمد على . ولقدقاوم الاستعمار هاتين الدعوتين وضربهما ببعض ، وسارع فشجع أكثر من دعوة أخرى حتى تنقسم الأمة العربية حول هذه الدعوات فتتصارع ولا تقوى دعوة منها على الغلبة والانتصار .

فقد ظهرت دعوات الجامعة الإسلامية والقومية الاقليمية . وتمثلت الجامعة الإسلامية فكرة بين رجلين أولهما جمال الدين الأفغانى الذى كان يهدف إلى انقلاب ثورى يعصف بالحكومات المستبدة فى مصر وإيران ويعصف بالخلافة المستبدة فى اسطانبول وإقامة حكومة أسلامية جامعة . وثانيهما السلطان عبد الحميد الذى كان هدفه من الدعوة تأكيد سلطانه ودعم حكومته وخلافته .

ولكن القومية العربية اضطرت اضطراراً أن تدخل المعركة فى قوة وأن تصارع ثلاثة أعداء أولهما السلطان عبد الحميد نفسه وحكمه الاستبدادى ثم الاتحاديين العثمانيين فى دعوتهم إلى تتريك الأجناس ومحاولة القضاء على الكيان العربى وثالثهما الاستعمار الغربى ممثلا فى فرنسا وانجلترا وإيطاليا وأسبانيا وإسرائيل . وقد بدأت هذه المعركة عام ١٩١٣ على نحو فيه كثير من الوضوح والصراحة عندما دعا الكواكبى والعظم والزهراوى وغيرهم إلى اللامركزية (أى الحكم المحلى فى نطاق

السلطنة) ثم تطورت الدعوة إلى الوحدة العربية القومية غير مرتبطة بالدين .

ولم يلبث الاستعمار أن تنبه إلى خطر هذه الدعوة واستطاع أن يخدع العرب وأن يجعلهم يسيرون فى ركبه بعد أن انضمت تركيا إلى ألمانيا . وكانت تلك الخدعة الكبرى التى لفقتها بريطانيا وذلك بالوعد المكتوب الذى وقعه كلا الشريف حسين ممثلا للعرب ومكماهون ممثلا لبريطانيا بإقامة الدولة العربية بعد الحرب فما أن انتهت الحرب بهزيمة ألمانيا وتركيا وانتصار بريطانيا وفرنسا حتى كانت هذه الأرض العربية قد وضعت خطط لتقسيمها وتمزيقها إحداها معاهدة سايكس بيكو والأخرى وعد بلفور وبذلك وقع أخطر حدث فى تاريخ العرب الحديث وهو تأهيل فلسطين لتكون دولة يهودية صهيونية بعد أربعين عاما ومضى الاستعمار يصنع الحواجز بين أجزاء الوطن الكبير ويقيم فيه حكومات من العملاء مع عمل متصل عن طريق الثقافة والصحافة فى الدعوة إلى القوميات الضعيفة ، المصرية والسورية واللبنانية والعراقية وأحياء الحضارات البائدة كالفرعونية والبابلية والأشورية والبربرية .

وتمزق الوطن بين دعوات القومية العربية والقوميات المحلية والجامعة الإسلامية والجامعة الشرقية ولكن فترة الغباشة والظلام لم تستمر طويلا ، وعندى أنها لم تزد عن خمسة عشر عاما (الفترة بين ١٩١٨ — ١٩٣٣) وفى خلال هذه الفترة كان الصوت العربى قد وضح وبرز وتألق وكشف عن موضعه بقوة وأصبحت الأصوات الأخرى بالنسبة إليه باهتة ضعيفة .

وليس شك أن هذه الفترة (١٩١٨ — ١٩٣٣) كانت فترة ثورات عارمة دموية فى جميع أنحاء الوطن فإن العالم العربى لم يستقبل الاستعمار البريطانى أو الفرنسى أو الإيطالى أو الأسبانى أو الصهيونى بالرضا ، بل قاوم بعنف وقدم الضحايا وكان الفكر العربى فى خلال ذلك يشق الآفاق بضيائه متمثلا فى الدعوة إلى تحرير

الأوطان من الغاصب ، كانت كلمات مصطفى كامل فى مصر وشكرى القوتلى فى دمشق وعبد العزيز الثعالبى فى تونس وعبد الحميد بن باديس فى الجزائر والزهاوى فى العراق تهز الاستعمار هزا وتفعل فى قلوب الشباب فعل السحر فتدفعهم إلى الاستشهاد .

ولم تلبث الدعوة إلى القومية العربية أن وضحت على الأقلام فى المرحلة الثانية بعد أن حصلت معظم هذه الأقطار على الاستقلال الذاتى ، فقد تنادت هذه الأقطار إلى التجمع فى نطاق اللغة والجنس والوحدة التاريخية والسياسية والاستراتيجية .

وفى خلال هذه الفترة دخل الفكر العربى مع الاستعمار معارك متعددة ؛ هذه المعارك التى أثارها الاستعمار ليدعم بها مركزه ويؤكد بقاءه. وقد واجه الفكر العربى معركة « التجزئة » بمعركة «التجمع» ومعركة «الاحتلال» بمعركة «المقاومة»

واستطاع الفكر العربى أن يغطى جميع القطاعات وأن ينتصر وأن يترك دعاة التجزئة والمصالحة مع الاستعمار والالتقاء به فى منتصف الطريق أقلية مفضوحة يعرف الناس جميعا أنها تخون بلادها وأنها تعمل مأجورة لدى المستبد والمحتل على السواء . وكان الاستعمار يهدف من وراء قضاياه ودعاواه التى رسم لها خططا وأساليب فكرية مدروسة إلى هدف واحد هو دعم الاحتلال وإبقاء سلطات الاستعمار وتعميق الهوة وتأكيد عزل أجزاء المنطقة واستمرار الفرقة والخلاف بينها حتى لا تصل إلى الخطر الذى يخشاه الاستعمار وهو « الوحدة الكبرى » .

ومنذ بدأت هذه المعركة لم تنته حتى الآن ، ولكنها تبلورت فى صورة أشد قوة وبهاءاً بعد الثورة المصرية العربية عام ١٩٥٢ .

وفى خلال أكثر من عشرين عاما أخرى (١٩٣٣ — ١٩٥٣) كانت علامات اليقظة تبدو وراء كل كلمة تكتب ، فقد ارتفع صوت دعاة الوحدة العربية ووضعت على بساط البحث مسائل هذه الوحدة وقضاياها ومشاكلها حيث تناولتها أقلام عدد كبير من الكتاب : عبد الرحمن شهبندر ، عبد الرحمن عزام

وفيليب حتى ومحب الدين الخطيب ونقولا زيادة وسامى الكيالى وميخائيل نعيمة وشكرى القوتلى وعبد المنعم خلاف وأمين الريحانى وفوزى القاوقجى وعبد الوهاب عزام.

وقد كانت هذه الكتابات كلها مقدمات حقيقية للقومية العربية فى صورتها التى تتبلور فيها الآن وذلك بعد أن تنادت أجزاء الوطن العربى وبدأت تتجمع فى وحدة شاملة وقد قامت الجمهورية العربية المتحدة تضم مصر وسورية وقام الاتحاد الفيدرالى يضم الجمهورية العربية واليمن وقامت ثورة لبنان التى غيرت الأوضاع وقامت ثورة العراق التى حولته إلى جمهورية كان يمكن أن تسير مع الركب العربى لولا انحراف وقع فى القيادة لا يلبث أن يسترد وضعه الصحيح وقامت الثورات فى البحرين والأردن وحققت السودان وليبيا وتونس ومراكش استقلالها .

وهكذا يمكن القول بأن المعركة الفكرية التى بدأت عام ١٩٣٣ تأخذ وضعها الواضح الصريح كانت فى خلال عشرين عاما ترسم الصورة الحقيقية للقومية العربية والواقع أن سنة ١٩٣٣ كانت هى قمة العمل المفتعل الذى قام به دعاة القومية الضيقة وبعث الحضارات البائدة . فقد كان هيكل وعنان وطه حسين وسلامة موسى فى صحف مصر التى هى أكبر صحف العالم العربى يقاومون[1] الفكرة العربية ويدعون إلى الوحدة الضيقة . وقد علق كاتب عربى من الأردن هو (محمود سيف الدين الإيرانى) فى صحيفة السياسة الأسبوعية (فبراير ١٩٣٣) على هذا الاتجاه الخطير تحت عنوان (بين مصر وبلاد الشرق العربى) فقال :

إن هذه الدعوة التى يبذل كثير من المفكرين فى مصر فى سبيل تعميمها وتوجيه الأذهان إليها جهوداً كبيرة ، الحق أن هذه الدعوة تعتبرها الأمم فى بلاد الشرق العربى صدمة قوية لشعورها ونرى أنها تحمل فى أطوائها معانى

(١) اقرأ ذلك بالتفصيل فى كتابنا (معالم الأدب العربى المعاصر) .

الاستخفاف والرغبة فى الانسلاخ عن كل ما هو عربى ومعانى التنكران والاهمال لكل ما تمحض هاته الأمم مصر من حب وعطف إلى حد الاهتمام بكل ما جل ودق من شئونها ثم نرى أن فى هذه الفكرة تطرفا وغلوا .

وأول ما يلمس المتأمل فى هذه الأبحاث التى تدور حول هذه الفكرة هو هذا الاندفاع من جانب فريق يتولى قيادته الأستاذان عبد الله عنان وسلامة موسى ويشايعها ويروج لارائهما بعض كتاب الشباب .

ثم فريقا آخر متريثا متمهلا حذراً يتناول هذه الفكرة برفق ودعة ويدرسها بهدوء ثم يدعو إليها ويروج لها بكثير من التأنى وكثير من الصبر يتجنب المصادمة والعنف ويحاول أن يكسب مذهبه لونا منطقيا جذابا مقنعا وعلى رأس هذا الفريق الدكتور هيكل والدكتور طه حسين .

وطائفة ثالثة لسنا نعرف لها زعيما معينا ، هذه الطائفة تخالف مخالفة شديدة ما يدعو إليه الفريق الأول المندفع والفريق الثانى المتريث الحذر ، وترى أن مصر يجب أن تكون عربية فى كل شىء . »

محمود عزمى : القومية العربية

وقد كتب الدكتور محمود عزمى وهو المعروف بنزعته الغربية الحادة فى الهلال سنة ١٩٣٣ يتساءل : أيها نقدم : الرابطة الشرقية أم الإسلامية أم العربية وقال :

الشرقية فى نظرى إبهام لا يمكن الاستناد فى تحديده إلى قاعدة علمية وخيال لايتكىء على واقع . ومحاولة لن يكون نصيبها غير الفشل بما يقتضيه النظر إلى القضية من تشتت للجهود وقسر للعقول على ما لا قبل لها به » .

والرابطة العربية فى نظرى أمتن الروابط التى يصح أن تقوم مساعينا واحتماله فى سبيل التكييف الجديد المتمشى مع روح العصر . بل إنها هى الرابطة الوحيدة التى يجب أن يستند إليها تطورنا المحتوم .

ومعنى الرابطة العربية أنها تلك التى تستند إلى حوادث التاريخ التى وحدت بين نوع التفكير ونوع الحياة وأساليب الحكم وقواعد الاقتصاد فى تلك الكتلة المتصلة من المحيط الأطلنطى إلى الخليج الفارسى .

فالثقافة الغالبة فى تلك الكتلة جميعا إنما هى ثقافة اللغة العربية التى ينطق بها الأهلون والحضارة الغالبة فى تلك الكتلة نفسها إنما هى الحضارة الإسلامية يأخذ بها فى الحياة اليومية وفى السلوك الاجتماعى أهل تلك الكتلة كلهم مهما اختلفوا ديناً أو عقيدة والمطمح الأعلى الذى يشخصون إليه جميعا إنما هو مطمح الاستقلال والتحرر . والثقافة والحضارة والمطمح الأعلى إنما هى العناصر الفعالة فى توحيد الاتجاه وتوحيد العمل فى هذا الاتجاه وهى إنما تقوم على واقع جغرافى وعلى واقع اجتماعى يؤيدهما واقع روحى عظيم أيضا وهى أمور لم تتوافر للرابطة الشرقية ولا للرابطة الإسلامية .

وهكذا يظهر مدى انهيار حزب الدعوة إلى الوطنية الضيقة حتى بين صفوف حماة الثقافة الغربية فى مصر .

عبد الرحمن عزام : الوحدة العربية

ولعل « عبد الرحمن عزام » أن يكون من أبرز كتابنا الدعاة إلى « القومية العربية » . فهو فيما يروى قد حدث عنها سعد زغلول المتوفى (١٩٢٦) فلقى منه إعراضا وقال له كلمته المشهورة أن صفرا زائداً صفرا يساوى صفرا وقد كذبت الأحداث سعد زغلول فى هذه العبارة كما كذبته فى آراء كثيرة خالف فيها منطق الحق ومن أبرزها قبوله مبدأ المفاوضة مع الاحتلال وقبول سياسة الالتقاء فى منتصف الطريق مع الاستعمار وتجزئة الحرية

وحين يتحدث عزام فى هذا الوقت البعيد منذ أكثر من ربع قرن يكشف فى إيمان عن جوهر الأمة العربية وطموحها إلى الالتقاء فى الوحدة الكبرى بالرغم مما كان يذيقها المستعمر إذ ذاك من إذلال وظلم .

« العرب(١) اليوم ملأوا الأرض يعمرون المنطقة المتدلة فيه (غربي أسيا وشمالي أفريقية) وهم من أشد الأقوام بأسا كاهم في أمصارهم من أقربهم إلى مناهل العلم والحضارة . فإذا قيل إنهم على أبواب الخروج للعالم بالدولة التي تليق بعظمتهم التاريخية والحالية ظن المرتابون أننا نسبح في حلم لذيذ . ليس بين العرب وبين بعثهم مرة أخرى إلا أن يؤمنوا بأنفسهم وأن يؤمنوا بوجودهم فقد افتتنوا بعظمة غيرهم حتى نسوا ذلك الوجود . والأمة العربية موجودة بصفات محدود وهيئة مستقرة فهي مخلوق حي كامل الخلقة . ولقد أتيح لي أن أخالط الشعوب العربية في أفريقيا وأسيا وبالرغم من الحدود المصطنعة التي تفصل هذه الشعوب ومن الاستعمار الأوربي الذي يعمل على حل عرى الوحدة فيها بل بالرغم من انحدار دمائها من الأصول السامية والحامية . فإن الأمة العربية الحديثة هي وحدة اجتماعية وثقافية وليدة تاريخ مشترك لها خواصها الظاهرة والخفية التي تميزها عن غيرها من الشعوب والأمم . وهي بحالتها الراهنة — التي هي نتيجة لفعل الأربعة عشر قرنا الماضية — جديرة بأن تحتل مكانها بين أمم العالم العظيمة الموحدة .

فني برقة أو نجد وعلى بحر العرب أو على الفرات ، وفي لبنان أو في الأطلس . أمة ذات مزاج مشترك لها عقيدتها ولسانها وعرفها . تجمعها الكليات وإن اختلفت الجزئيات . داؤها في العراق والشام ومصر والسودان والمغرب هي الفتنة . فقد افتتنوا جميعا بعظمة الغير ، ونسوا أنفسهم . ودواؤها الدعوة إلى الإيمان بالذات والمثل يضرب به أفذاذ الرجال يثبتون به الإيمان .

نحن في عصر « الكارتل والترست » وقد مضى زمن الدكان الصغير فهل يظن العراقيون أو الشاميون أو المصريون أنهم يستطيعون الوصول إلى حياة محترمة بغير الوحدة . وليذكر قادة الرأي وأهل البصر أن لا وجود للدولة قبل النهضة .

---

(١) مقال في الهلال : فبراير ١٩٣٤ بعنوان الإمبراطورية العربية والعنوان من المجلة.

ولا بقاء لها بغير الأمن والسلامة ، ولا أمن في العصر الحاضر غير القوى الكثيفة .
وقد من الله على مصر الحديثة بأن بسط حدودها شرقا وغربا فجعلها قلبا في جسم أمة عظيمة تمتد من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلنطي فهي في وسط إخوة من العقيدة والدم واللغة فيجب عليها أن تستفيد مما أحدثته العصور الإسلامية وأن تكون في طليعة الدعاة إلى الوحدة . فليس لها سلامة إلا بغيرها كما أنه لا حياة لبقية الشعوب العربية بدونها .

والنتيجة أن الدعوة إلى الإمبراطورية العربية ليست حلما يلده الخيال الواسع بل هي تستند إلى حقيقة تاريخية وإلى ضرورة حالة ،وهي الضمان الوحيد للاستقلال والحرية والسلم الداخلي والخارجي ، وارجو ألا يسيء أحد فهم هذه الدعوة فلست أقصد بكلمة الإمبراطورية العربية غير الوحدة على أي مظهر تحققت» .

عبد الرحمن شهبندر : ما بعد الاستقلال

ولقد كان من أحلام الأمة العربية في عام ١٩٣٦ أن تنال الاستقلال . وذلك بعد أن عقدت مصر والعراق وسورية معاهدات منحتها الاستقلال الذاتي مع بقاء قوات الاستعمار بها . لذلك كان الضمير العربي يسأل دائما عن الخطوة التالية : ماذا سيفعل العرب بعد أن يتحرروا من الاستعمار الذي مزق وحدتهم. هل سيقفون موقفهم في الانفصالية أم هل سيكون ذلك عاملا لتلاقيهم في الوحدة الكبرى .

كانت الكلمات كلها تحمل معنى الإيمان بالوطن العربي وبأصالة الشخصية العربية ويقول الدكتور شهبندر مصوراً ما بعد الاستقلال العالم العربي : « لا غرو[1] أننا نجد الشعوب العربية والتي شعرت بالروابط الثقافية والاجتماعية الأساسية التي تربط بعضها ببعض تهب من رقدتها فنجد في هذه الروابط من عوامل التعاون والتضافر والاتحاد ما يعد فاتحة انقلاب سياسي خطير في القرن العشرين. وقد تجلى هذا الشعور بعض التجلي بما فعله أبناء العرب لفلسطين على ما فيه من نقص وإبطاء . وهذه الخطوة من الخطورة بحيث تأتي في الدرجة الثانية

(١) مقال لعبد الرحمن شهبندر : الهلال نوفبر ١٩٣٦ بعنوان لو استقل العالم العربي .

فقط من البطولة التى أبداها الفلسطيون مع إخوانهم الذين أتوا لنجدتهم من سورية ومن العراق . ماذا يحدث يا ترى لو هبت هذه الروح التى نجدها فى فلسطين اليوم كما وجدناها فى العراق ١٩٢٠ وفى سورية ١٩٢٥ فعمت بلدان العالم العربى ، وظهرت البطولة الكامنة فيه كما ظهرت فى نابلس والخليل والقدس ويافا وحيفا وغزة وبئر السبع وسائر البقاع التى سيردد ذكرها الاحفاد كما يرددون ذكر معارك المزرعة والغوطه والحاجر فى سورية الشمالية فاستقلال العالم العربى استقلالا منفرداً محليا ينتهى عاجلا أو آجلا إلى نظام يشبه نظام عصبة أمم شرقية عربية مؤلفة من بلدانه .

ونظرة واحدة على المصور الجغرافى تدل على المقام الرفيع الذى يتمتع به عالمنا العربى فهو يقف جبهة واحدة منضمة متشابهة من خليج الاسكندرونة من الطرف الشمالى للجانب الشرقى من البحر المتوسط إلى مضيق جبل طارق فى الغرب حيث يتصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلنطى فيشمل هذه الجبهة سورية وفلسطين وسيناء وقناة السويس ومصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش أو المغرب الأقصى .

وحسبك من هذه الأقطار أن تذكر اسمها فقط لتعلم أنها أقطار تجمع بينها أواصر اللغة والعقيدة والتاريخ الشيء الكثير من لحمه النسب وهى تعلم أن ماضيها متشابك ومستقبلها يدور حول مركز واحد .أن هذه الجبهة العربية التى تستقل بالنصف الجنوبى من البحر المتوسط هى المعر الطبيعى لكنوز آسيا وأفريقيا إلى أوروبا . وهى نفسها تفيض بالخيرات والبركات ففيها منابع الزيت ومنابت القطن وحقول الحبوب وبساتين الثمار وحدائق الأزهار . وهى وارثة الامبراطوريات القديمة وفى ظلها الوارف تم الاتصال بين الثقافات الخالية والمدنية الحاضرة فاذا قدر لأهلها أن يحصلوا أولا على حريتهم الموضعية ثم على تعاونهم الشامل فان قسطاس السياسية العالمية يصبح بيدهم لأنهم يحكمون حينئذ فى حوض البحر المتوسط ومن تحكم فيه تحكم فى العالم إجمالا . »

ساطع الحصرى : مستقبل العرب

ثم تضخم الصوت وصار له دوى ، فقد تجاوبت به شتى الأنحاء وكان صدور

مجلة الرسالة فى مصر تحمل فكرة الجمع بين الشرق والغرب على هدى وبصيرة وتسير وفق سياسة الدعوة إلى القومية العربية وتوقف صحيفة السياسة الأسبوعية والسفور والبلاغ الأسبوعى والمستقبل وغيرها من الصحف التى حملت فى الفترة الماضية (١٩١٦ — ١٩٣٢) دعوة الانفصالية وكتب فيها طه حسين وهيكل وعنان وعبد الحميد حمدى دليل على أصالة التيار الجديد، فقد ذهب الزيات إلى بغداد كما ذهب عدد من كتابنا إلى البلاد العربية فطافوا بها وآمنوا بالقومية العربية وحملوا لواءها وكان من أصدق هؤلاء الزيات وعبد الوهاب عزام وزكى مبارك وابراهيم عبدالقادر المازنى . ولقد كانت هذه الفترة حافلة بالأصوات القومية ، شهبندر وعزام وساطع الحصرى يكتبون فى الهلال والزيات والرافعى يكتبون فى الرسالة والمازنى فى البلاغ وشكيب ارسلان فى كوكب الشرق والجهاد.

ولسنا ننسى هنا أن ساطع الحصرى كان من أصدق أقلام هذه الدعوة وأقدمها وهو يعتمد فى منطقة على العلم والمنطق ويرى أن اللغة هى روح الأمة وحياتها وتمثل أهم عناصر القومية وأثمن مقوماتها . يكتب فى الرسالة عام ١٩٣٧ من العراق فى مقال بعنوان (حياة الأمة العربية فى الماضى والمستقبل[1]) فيكشف عن أثر التاريخ العربى كقوة دافعة فى سبيل إقامة الوحدة الكبرى .

« إن الأمة المحكومة التى تحافظ على نفسها تشبه السجين الذى يمسك بيده مفتاح باب سجنه انما تبقى حية ما بقيت محافظة على لغتها . إن حياة الأمة تقوم بلغتها بوجه عام . أما الموت بالنسبة للأمة فليس فى حقيقة الأمر إلا فى الحرمان من اللغة الخاصة . إن الأمة التى تدخل تحت حكم دولة أجنبية تفقد استقلالها وحريتها تصبح مستعبدة لها ، ولكنها لا تفقد حياتها ما بقيت محافظة على لغتها يحق لنا أن تقول أن إهمال التاريخ القومى يكون بمثابة الاستسلام للذهول والكرى . أما نسيان التاريخ المذكور فيكون بمثابة فقدان الشعور .

(١) الرسالة : ديسمبر ١٩٣٧ : ساطع الحصرى مدير الآثار العامة ببغداد .

هذه حقيقة يعرفها جيداً رجال الحكم والاستعمار ويستفيدون منها دائماً . نعم عند ما يستولون على أمة من الأمم يبذلون قصارى جهدهم لإبعاد ذاكرتها عن تاريخها الخاص . إنهم يتوسلون بكل الوسائل الممكنة لتخدير الأمة وتنويمها عن طريق الحيلولة بينها وبين تاريخها القومي . إنهم يعرفون جيداً أن الشعور القومي عند الأمم المحكومة يأخذ في الخمود والتضاؤل كلما أسدل النسيان سدوله على التاريخ القومي إلى أن ينعدم تماماً بنسيان التاريخ الخاص نسياناً تاماً . إن الماضي منبع فياض للمستقبل والتاريخ قوة مهمة في حياة الأمة . إن عودة الشعور القومي إلى مثل هـــذه الأمم لا يتم إلا باستعادة الذكريات التاريخية . إن حركات النهوض والانبعاث وجهود النهوض والاستقلال والاتحاد عند تلك الأمم تبدأ بوجه عام بتذكير الماضي واستلهام التاريخ . إن كل الأمم التي كانت مغلوبة على أمرها ثم نهضت وتخلصت من ربقة الاستبداد تغذت بذكريات الاستقلال المفقود. والتوقان إلى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف كما أن الإيمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر والنزوع إلى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعفة .

إن التاريخ يكون مفيداً عندما يفرغ في شكل « قوة دافعة » تحركنا إلى الأمام غير أنه يصبح مضراً إذا أخذ بشكل قوة جاذبة تدعونا إلى العودة إلى الوراء فلا يجوز لنا أن نعتبر الماضي هدفا نتوجه نحوه . ونسعى للعودة إليه . بل يجب أن نجعل منه « نقطة استناد » نستند بها في سيرنا إلى الأمام شعارنا « نذكر الماضي مع التطلع إلى المستقبل دائماً . أهم النزعات التي يجب أن نستلهما من التاريخ هي في نظري الإيمان بحيوية الأمة العربية وبإمكان حصولها على مجد جديد لا يقل شأنا عن المجد الذي نالته في سالف العصور .

قسطنطين زريق : تجمع العرب

ويطالب قسطنطين زريق الكاتب القومي العربي الذي حمل لواء الدعوة منذ

أكثر من عشرين عاماً طالب بحاجة العرب إلى قيادة[1] واعية ويرى أن هذه القيادة ستقضى على حيرة العرب إزاء حاجتهم إلى حضارة الغرب والتردد أمام عدوانه وتسلطه فيقول فى كتاب الشرق الأدنى مجتمعة وثقافته « كانت الوحدة العربية الجامعة ولا تزال — الهدف النهائى لحركات القومية العربية . ومن الواضح أن خلق دولة عربية عظمى تضم جميع البلاد العربية هو الأمل الأخير الذى يكمن فى ذهن كل وطنى عربى والعرب يذكرون ماضيهم المجيد . وما لهم من ثقافة وتاريخ يربط بينهم برباط من المصالح المشتركة والخطر المشترك . إن العرب اليوم يجدون أنفسهم أمام مشكلة محيرة . انهم من ناحية يخشون عدوان الغرب ومن ناحية أخرى يدركون ضرورة اكتساب ثقافته وفنونه لكى يتقدموا ويقوموا بدورهم فى الحياة . وهم يختلفون فيما بينهم فى درجة شعورهم بالقومية ولكن هذا الشعور القومى مزيج من الحذر من الخطر الوافد من الخارج والرغبة فى الوحدة مع جميع أجزاء العالم العربى وإحياء التراث الثقافى القديم والاستعداد للمساهمة فى ثقافة العالم بنصيب . وللتغلب على الصعوبات هم فى حاجة إلى قيادة داعية مدربة وتغير جوهرى فى نظرتهم إلى الحياة . وعلى العرب أن يعرفوا أنفسهم بأنفسهم وأن ينبذوا من تقاليدهم العناصر الرجعية وأن يكونوا موضوعيين فى الحكم على الأشياء . وأن يعززوا من القيم الانسانية العليا فى ثقافتهم وأن يزودوا أنفسهم بالعلم الغربى التطبيقى

ميخائيل نعيمة : روحانية الشرق

وتستفيض الدعوة إلى الإيمان بالشرق ، بحضارة العرب ، بعظمة هذا المجد الباهر ويردد صوت من وراء المحيط ، من المهجر ، هو صوت « ميخائيل نعيمه » الأمل الذى يطوف بالأمة العربية فيقول : من أكمل كلمات العربية وأسماها تمييزها ما بين «البصيرة» والبصر وجعلها الكلمتين فرعين من أرومة واحدة . بل توأمين

(١) وقد تحقق هذا للعرب فى قيادة الرئيس جمال عبد الناصر .

من بطن واحد . ولـكن ذلك الفرع غير هذا ولكن هذا التوأم غير ذلك فكأنهما واحد وليسا بواحد . والآن إذا قلت لـكم : إن الشرق هو بصيرة العالم وأن الغرب هو بصره فما أخالـكم تسيئون فهم ما أقول . فتحسبون أن الشرق كله بصيرة لا بصر ، وأن الغرب كله بصر ولا بصيرة . ذاك يعني تجريدكم الشرق عن كل حس خارجي وتجريدكم الغرب من كل شعور باطني . وهو غير الواقع وغير المعقول . وجل ما أرمي إليه هو القول بأن زبدة الشرق في بصيرته ، وزبدة الغرب في بصره . وأن الاثنين توأمان متلاصقان يبدوان كأنهما واحد . ولـكنهما غير واحد . لقد اتبع الشرق هدى البصيرة . واتبع الغرب هدى البصر ، فأنجب الأول الأنبياء وأنجب الثاني العلماء . فـكانت هدية الأنبياء إلى العالم أديانا ترفع الأرض إلى السماء وكانت هدية العلماء تهوي بالسماء إلى الأرض ولـكنها الانسان . وقوى الانسان . من ظاهره وباطنه . في مد وجزر متلازمين . فللبصيرة ـ مثلما للبصر ـ مد يتلوه جزر وجزر يتلوه مد . ومن ذا ينكر أن من بصيرة الشرق قد فاض على العالم مد جارف من الـكمالات والجمالات الروحية . من ذا ينـكر على الشرق قوة اندفعت من قلبه وفـكره وروحه إلى كل قلب وفـكر وروح . فتغلغلت في نبضاتها ، وسيطرت على خلجاتها ، وتسلطت على أقدس أشواقها وأعز أمانيها .

من ذا ينكر على الشرق سلطانه على كل أبناء الأرض مذ كانت الأرض . وكان الشرق . وأي سلطان يتوخاه إنسان على إنسان أقوى من السلطان على القلب والفـكر والوجدان . تلك هدية الشرق إلى العالم . وهي هدية ما تلقفها العالم حتى أصبح كله معبداً لاله تعددت أسماؤه ولـكنه واحد . وإذا الناس يفتحون أبواب قلوبهم وأفـكارهم وبيوتهم لذلك الاله فلا يأكلون ولا يشربون ولا يزوجون ولا يتزوجون ولا يعملون ولا يستريحون ، ولا يولدون ، ولا يموتون إلا باسمه ومشيئته . لاغرو أن يقف العالم وفي جملته هذا الشرق مشدوها تجاه مدنية الغرب

المبصر ، أما إذا تصفحتم مساوئها فلن تجدوا مدنية قبلها بلغت ما بلغته من التكالب والتباغض والقساوة مع الكثير من التبجح بالعكس . وإما عجبتم لمشهد غريب فاعجبوا معى لهذا الشرق . وقد أهدى إلى العالم المحبة والقناعة والتضامن والتآخى يقف اليوم على مفترق طريق البصيرة والبصر ، كسير القلب ذليل الجفن ضامر الصدر والبطن ويمينه الفارغة ممدودة نحو الغرب ، وفى يساره قائمة بأسفاره المقدسة وأسماء أنبيائه . ثم اسمعوه يستمطى بصوت متهدج فيه الانسحاق وفيه المسكنة والانحدار . وماذا عساه يستعطى ؟ إنه ليستمطى طيارات ودبابات ومدمرات ومدافع وقنابل وإنى أسمعه يقول « من يقاضينى قنبلة محرقة بآية منزلة . مهمة الشرق وقد مهد الغرب له الطريق إلى الهدف هو جلو ذلك الهدف كما يظهر فى كل بهائه نقيا من السفاسف والترهات التى حجب الجهل بها سناء وجهه باسم الله والدين ثم لم شعث الإنسانية التائهة ما بين بصرها وبصيرتها وبث النشاط فى مفاصلها المفككة وبعث الايمان الدفين فى قلبها بجمال ذلك الهدف وحكمته وعدله .

نقولا زيادة : مجد العروبة المشترك

ويصور نقولا زيادة أمجادنا فيرى أنه ليس فى المنطقة تاريخ فكرى مسيحى وتاريخ فكرى إسلامى ولكن هناك تراث فكرى عربى مشترك[1] .

إن العالم العربى من جبال فارس إلى جبال أطلس سكانه من الناحية العنصرية عرب بمعنى أن العنصر العربى استطاع بواسطة الاختلاط والتزاوج والجوار أن يتغلب على الشعوب التى كانت هناك ويعربها فهم عرب على أساس الأصل والفرع ونرى أن العالم العربى وحدة جغرافية واضحة الحدود : الجبال والبحر المتوسط والصحراء الكبرى الأفريقية والبحر العربى وخليج فارس بينة المعالم متفقة فى مناخها . قد يكون هناك تاريخ للنصرانية على أنها دين وفلسفة وفكرة . وقد

(١) مجلة الفتح « نقولا زيادة » صفر ١٣٦٣ — ١٩٤٣م .

يكون هناك تاريخ للاسلام على أنه دين وفلسفة وفكرة . ولكن ليس ثمة تاريخ للنصارى وآخر للمسلمين فى هذه البلاد . فما كانت الحوادث التى تقع فى العراق وسوريا أو مصر تفرق بن مسلم ونصرانى سواء فى ذلك ما ينفع أو ما يضر ولا كانت الخيرات تتخطى جماعة إلى أخرى ولا كانت المصائب تقع لفريق دون آخر.

فما وقع شر الخطر الغربى إلا على كل البلاد وأهلها ، وما تأثر بالخطر إلا جميع السكان على اختلاف دينهم ومذاهبهم فالمدن التى دمرتها الحروب كان سكانها من أهل البلاد على اختلاف عقائدهم . هذا التاريخ المشترك هو الذى خلف لنا نحن العرب ذكريات قومية واختبارات وطنية وأدبا قوميا وقصصا شعبيا وشعراً حماسيا كتب كله بلغة عربية واحدة ، وقرىء كله على أنه نتاج أمة واحدة وتمركز كله حول أبطال هذه الأمة ودار كله حول جبال البلاد ووهادها وهضابها وقفارها وأنهارها وشواطئها. فليس ثمة بقعة يستطيع الواحد منا أن يمر بها إلا أعادت إلى نفسه ذكرى معركة نصرنا فيها أو خذلنا . أو ذكرى بطل ضحى بنفسه فى سبيلنا أو ذكرى عالم قضى عمره فى تثقيفنا أو ذكرى أديب أفنى أيامه ولياليه فى سبيلنا . أو ذكرى مدينة أو قرية أو قلعة مات أبناؤها كى نحيا وقضوا كى نعيش . وليس من شىء فى هذه البلاد إلا وقد روته دماء زكية وعطرته أنفاس طاهرة من أولئك الأجداد البررة الذين خلفوا لنا تاريخا ووطنا وقومية .

وهذا التاريخ المشترك هو الذى وحد تقاليدنا وعاداتنا فقرب من بعضنا البعض وهو الذى نرجع إليه لنستمد منه اختباراتنا ومثلنا العليا . والمقاييس التى نحكم بها على الخير والشر والحسن والقبيح والفضيلة والرزيلة . وهو الذى أورثنا هذا التضامن فى الشعور والتكاتف فى العاطفة التآزر عند الشدائد والتآخى عند المصائب . وهو قبل كل شىء وبعد كل شىء الذى ترك لنا لغتنا العربية فوحد

تفكيرنا وعقليتنا وآراءنا واللغة فى معناها الواسع ليست مجرد ألفاظ وعبارات تنتظمها كتابتنا . ولكن اللغة عادات وتقاليد وآداب وتفكير وتشريع ومعاملة فاللغة هى الحضارة والثقافة ووحدة اللغة هى وحدة الفكر وهذا الذى يكون الأمة فى حياتها العقلية والعاطفية . فتاريخنا هو الذى كوننا . وهو الذى عين حياتنا . وهو الذى حدد رسالتنا ولا سبيل إلى فهم حياتنا فهما صحيحا وتأدية رسالتنا على الوجه الأمثل إلا متى عرف كل فرد منا تاريخه القومى . وعاد إلى أبطاله ورجاله ليستوحيهم ويستلهمهم وإلا متى عاد إلى تراب بلاده يشممه ليحس فيه روحه ونفسه وحياته وإلا متى عاد إلى أدبه ليرشد به . نحن أمة لأننا وحدة روحية لنا بلاد نقطنها وتاريخ نرجع إليه ولغة حية نتكلمها وأدب نستعذبه وذكريات نتغنى بها وآمال مشتركة نصبو إلى تحقيقها . ومثل عليا متفقة نسعى إليها وقوة نبذلها فى سبيل آمالنا ومثلنا وإرادة تحملنا على السير فى سبيل آمالنا ومثلنا وإرادة تحملنا على السير فى سبيل الوصول إلى ما نؤمل . علينا أن نعنى بتاريخنا وفهم هذا التاريخ يتطلب منا أن نفهم الإسلام فهما صحيحا ، لأن الإسلام كان هو الدافع الأول والباعث الرئيسى إلى توحيد العرب وإخراجهم من جزيرتهم ليؤدوا رسالتهم نحو العالم كله علينا أن نتقن لغتنا وإتقان هذه اللغة يقضى بأن يقبل كل واحد منا على القرآن الكريم فنفهمه فهما صحيحا . أما المسلم فله على ذلك أجره عند ربه وأما الباقون فلهم على ذلك أجورهم عن نفوسهم وعن أبنائهم الذين يربونهم عندئذ تربية عربية خالصة . »

على ناصر الدين : الاقيانوسى العربى

ويتحين العرب فى كل مكان موعد ذكرياتهم التاريخية الباهرة فيجعلوها مناسبات مجددة لشحن العواطف وتنمية الوعى العربى فقد أقيمت حفلات ضخمة فى مختلف أنحاء فلسطين ٢٥ ربيع الثانى ١٣٥١ ـ ١٩٣٢) اشترك فيها صفوة من كتاب العرب محمد كامل القصاب ، شكيب ارسلان ، محب الدين الخطيب ، رشيد رضا ،

عبد الوهاب النجار . خير الدين الزركلى ، عبد الرحمن عزام ، محمد عزة دروزه ، أكرم زعيتر ، اسعاف النشاشيبى ، بمناسبة ذكرى موقعة حطين ٥٨٣ هـ التى انتصر فيها العرب على الصليبين بعد أن وحدوا صفوفهم تحت لواء القومية العربية بقيادة صلاح الدين الأيوبى . وكان كتاب العرب لا يتوقفون عن إثارة روح العربى بتذكيره بأمجاده ، ومن مثال ذلك قول خطيب بيروت الذى روى عنه الأستاذ السهمى (اسعاف النشاشيبى) (١٣٤٣ هـ ١٩٢٤ م) .

«فيا أيها العربى ، إنك عربى ولا يراك سواك إلا عربيا وإن شئت أن تأبق أباق العبد من بيت عربيتك وتسل ثيابها . وتصرم أسبابها . فلن يعطيك الغرب ذلك ولن ، ضمك ، وإن أبيت إلا هنالك ، وهو إما يلقاك عربيا قميا ، وإما يلقاك عربيا قويا ، فيحتقرك ضعيفا صغيرا ، ويوقرك عظيما كبيراً ويتعبدك ذليلا ويؤاخيك جليلا ، فالبس جلد القوة ، وجد كما جد الغربى واستعد بما استعد ، واعلم علمه واخبر فنه وابل نظامه وحقق تحقيقه ، واسلك فى السكون طريقه . وقبيح الشرق قريب الغرب ، فلا تجهل ولا تقبح ولا تقولن ذاك هناك فثمة داء وهناك دواء .

وفى بيروت عاصمة لبنان كانت الروح العربية دافقة جياشة . ناضلت جريدة اليوم البيروتية فى سبيل الحرية والحق وجريدة الكرمل فى حيفا (فلسطين) .

ولقد كان (على ناصر الدين) الكاتب العربى اللبنانى يتنبأ منذ سنوات طويلة قبل الانتفاضة العربية الناصرية بالغد القريب يقول فى بعض كتاباته :

« إن هذا الأقيانوس العربى الذى يبدو راكداً ركوداً نسبياً ليس كذلك فى أعماقه فإن تيارات عنيفة تصطرع فى هذه الأعماق وإن أحداً ما يدرى وفى أى

مكان يبدأ هذا الاقيانوس يشقق بمفعول هذه التيارات بشكل يبعث الرهبة والذعر وأعتقد وأرجو ألا أكون مخطئا أن ذلك اليوم ليس ببعيد[1] » .

چب : اعتراف العرب بالوحدة

ورأى الغرب إزاء هذا الإيمان القوى الذى ظل موضع الإصرار فى ضمير الأمة العربية بالرغم من المطارق التى تصفع الأحرار لتحطم حقهم وتسكت ألسنتهم وأقلامهم ـ رأى الغرب أن مؤامرته التى دبرها للتجزئة والانفصالية ـ لم يكف أنها باءت بالفشل ولكنها تركت مزيدا من المرارة والحقد والكراهية فى النفس العربية إزاء الاستعمار . وقد اعترف المستشرق چب بأن تقسيم الأمة العربية قد دفعها إلى مزيد من الالتفاف والتنادى ومد الأيدى .

«كانت الأمم العربية فى المائة عام الأخيرة تعيش وتعتمد على ماورثته من الثقافة العربية والتراث العربى وكانت فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية تعيش على نظمها الخاصة ذات الطابع الإسلامى الخاص .

ومع الزمن ازداد تدهور حيوية هذه النظم فعاش العرب فى حياتهم قانعين بحالهم بدون اهتمام بتطور أوربا فى الميدان السياسى والاقتصادى فأصبحوا فى عزلة عنها وكانت هذه العزلة من أسباب تدخل الفرنجة وفرض سلطانهم .

ثم أخذ الشعور القومى والوعى القومى ينبعث ويقوى فصار بداية لنهضة جديدة كما صار محور جهاد هذه الشعوب العربية ضد القوى المادية والمعنوية التى انسابت إليها من الغرب تريد إخضاعها تحت سلطانها وسطوتها . فقد تحفز الشرق ونبذ الحياة الهادئة الوادعة . نبذ حب الاستكانة والاستسلام والخضوع للتيار الأوربى وأصبح مجموعة تفكر وتحزم أمرها ونما شعور الشرق

(١) هكذا كنا نكتب (على ناصر الدين) ك ـ بيروت ١٩٥٢ .

بنفسه ينبعث ويقوى وراحت قواه تتجمع وتستعد . وأخذ قادة «الفكر العربى» يعملون فى تحديد المثل العليا والأهداف الثقافية فى عالمهم الجديد المنتظر .

وقامت القومية العربية على أساس وحدة الشعور بين الجماعات ، شعوربالتاريخ المجيد ، واعتزاز بالرسالة المحمدية وبالتراث الإسلامى ، كل هذا كان مقرونا بالتمرد على سياسة أوربا فى الشرق وما تدعيه من تفوق وسلطان .

ومن الخطأ بل من الخطل أن نزعم أن الأفكار القومية والروح القومية العربية لم تتسرب إلى عقلية الجمهور الأمى بل تغلغلت فيه هذه الأفكار إلى حد لا يستهان به . ولهذا السبب نرى أن الكاتب الألمانى (جيزلهر) يقول إن نهضة الشرق العربى سائرة فى مجراها الطبيعى نحو غاية هى تحرير العرب والإسلام من السيطرة الأوربية وأن رسالة العرب الحربية ستضمن لهم فى المستقبل مكانة عالية .

وقد أظهرت تجارب نصف القرن الأخير فى وضوح أن تقسم العرب والعالم العربى إلى عدد من الدول الصغيرة يؤذى الشعور العربى إلى حد لا يستهان به .

وقد أزالت بعض الأقطار العربية المتجاورة ما يثير المشاكل فيما بينها . وإذا تمت هذه الوحـــدة العربية الكبرى فلن يكون ذلك بفضل تلك الفكرة التاريخية والدينية التى يتجمعون ويلتفون حولها بل أغلب الأمر أنها ستكون نتيجة عمل فجائى ليس فى الإمكان التكهن عن وقته ولا عن كيفيته . »

ولم يلبث المستشرق (جب) بعد ذلك أن أوضح هذا المعنى بصورة أكثر جلاء ووضوحا[1] فقد اعترف بقوة القومية العربية وجـــذورها العميقة فقال :

« إن ظروف القرن العشرين ـ فى العلاقات بين الشرق والغرب ، قد عقدتها المقاومة ـ إن لم نقل الكراهية المتزايدة التى يبديها الشرق للغرب وذلك تحت

(١) جب (جامعة أكسفورد) ١٩٤٢ من مقال (مستقبل القومية والنهضة العربية الحديثة) مجلة الشرق العربى .

(٢) الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته (ك) ١٩٥٧

تأثير الشعور القومى فى الشرق من ناحية وفشل الغرب فى أن يحقق العدالة الاقتصادية فى بلاد الشرق .

فما إن تمخض الربع الأول من هذا القرن عن تحول فى مجرى الأمور فلم تـكد الحركات القومية تبلغ مرحلة من النضج حتى اتخذت مظهر الخصومة للغرب(١). وكان السبب الجوهرى لهذا التغير بلا شك ، هو الخطط السياسية التى اتبعتها الحـكومات الغربية إزاء بلاد الشرق .

لم يعد أملهم أن يعيدوا تنظيم حياتهم السياسية والاجتماعية على أساس «غربى» بعد تحقيق التعاون بينهم وبين الغرب ، بل تدعيم هذه الجوانب فى شعوبهم حتى يتسنى لها أن تقف من الغرب موقفا حازما .

وقد أشعل هؤلاء القادة فى نفوس الشعوب روح كراهية الغرب بتذكيرهم بما لحقهم من إضرار نتيجة لاستغلال الغرب لاقتصادياتهم .

ويظهر أن الغرب قد وثق بأن التفاهم بينه وبين الشرق سيتم بطريقه آلية حين يكتسب قادة الشرق ثقافة الغرب وتفـكيره ولـكن ما كشفت عنه السنون الأخيرة من أحداث قد أظهر أن التقاء الشرق والغرب لن يتحقق بكل هذه السهولة» اهـ.

انيس المقدسى : نـكبة فلسطين

ولقد كانت مأساة فلسطين أضخم حادث فى تاريخ الأمة العربية وأبعدها أثرا فى الفـكر العربى المعاصر ولا شك أنه كان ذا فاعلية بعيدة المدى للقومية العربية والوحدة الـكبرى .

ويرى أنيس المقدسى أن بعد الانتداب «حدث تحول فى فـكرة العروبة إذ أصبح كل قطر مشغولا بنفسه وتوجهت القلوب إلى توطيد الاستقلال القومى الخاص وهكذا قامت إزاء الوحدة العربية فـكرة الأقليمية ولـكن فلسطين ردت

(١) زاد هذا الموقف من الخصومة حده بعد تسليم فلسطين لليهود باشتراك بريطانية وأمريكا ثم فقد العرب كل أمل فى الثقة بالغرب بعد العدوان الثلاثى على مصر .

العرب مرة أخرى إلى الوحدة الكبرى ويصور أنيس المقدسى تاريخ القومية العربية فيقول[1] : لا أعرف فى تاريخ أدبنا الحديث فكرة تداولتها الألسن والأقلام وتقلبت معانيها مع الأيام كتلك التى تتجلى لنا فى لفظة خماسية الأحرف ظهرت فى أدبنا أواخر القرن الماضى فكانت فيه أشبه ببذرة ألقيت فى تربة جيدة فنمت وما زالت تنمو فى الخمسين سنة الأخيرة حتى أصبحت الآن دوحة عظيمة وارفة الظلال يستظل بها فى الشرق العربى بضع دول وعشرات الملايين من الناس .

هذه اللفظة الخماسية بل هذه الدوحة الفكرية العظيمة هى « العروبة » .

ولدت هذه الفكرة فى الأدب العربى الحديث بين فئة من الأدباء الذين حملهم كرههم للحكم التركى وتألمهم من حالة الشعب العربى على إثارة الشعور العنصرى يمثل صرخة ابراهيم اليازجى فى إبان شبابه :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما السيل حتى غاصت الركب

أو يمثل الدعوة الجريئة التى قام بها عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه أم القرى حيث يدعو إلى خلافة عربية مركزها جزيرة العرب .

وقد ظلت تلك الفكرة ضعيفة ضيقة النطاق حتى أوائل هذا القرن تنمرها فكرة الجامعة العثمانية ، فلما أعلن الدستور العثمانى ١٩٠٨ وكان ما كان بعد ذهاب نشوبه من مشادة بين الترك والعرب ومحاولة حزب الاتحاد والترقى يومئذ تتريك السلطة تيقظت القومية فتعالت أصوات المتحمسين شعرا ونثرا تفاخر بأمجاد العرب فى التاريخ .

ومن هذا قول عبد الحميد الرافعى :

ستفاخر الأجيال فى أخبارهم والشمس لا تحتاج للبرهان

جعلوا الممالك تحت ظل سيوفهم فتظلهن ذوائب المران

---

(١) أنيس المقدسى — ١٩٤٧ فى كتابه العواطف القومية .

فوزى القاوقجى : عظمة الأمة العربية

ولا شك أن العمل الحربى الذى قام به العرب لتحرير فلسطين عام ١٩٤٩ ونتائجه التى كان للسياسة الاستعمارية المسيطرة على حكام العرب فى هذه الفترة أثره والذى كان ارهاصا قويا للقومية العربية ، لا شك أن لهذا العمل الحربى — الذى امتد منذ بدأ الفلسطينيون معاركهم فى وجه الاستعمار البريطانى والاحتلال اليهودى ١٩٢٠ حتى معارك ١٩٤٩ ، أثره الفكرى الذى يصوره « فوزى القاوقجى » القائد العربى الباسل الذى اشترك فى هذه المعارك ، والذى يرسم صورة حقيقية لعمق الرابطة بين أبناء الأمة العربية وقد تجلت فى تضحياتهم واشتراكهم فى معركة الاستشهاد على ثرى فلسطين[1] .

« ما أشبه هذه الأمة بالكنز الدفين . تراكمت فوقه على ممر السنين طبقات من تراب تعلوها أشواك وأعشاب ذهبت بمعالمه وعفت آثاره يوم توارى وجه الأمة الصحيح . وغر الأجنبى العدو ، هذا الوجه السطحى المصطنع للأمة فاستهان بها واستحوذ على القيادة أناس فصلوا عن حقيقة أمتهم . ولم ينفذوا إلى غورها حتى ظن الظانون أنها مسكنة قد ضربت عليها .

رأيت كيف يبسط الظلم على هذه الأمة جناحيه ويطلق يده فى بلادى فيستنزف ثروتها ، ويوهن أخلاقها ، ويدوس كرامتها ، ورأيت كيف يتزاحم وجوه وأعيان وسراة ، بالمناكب على أبواب المستشارين وكيف تمرغ على أقدامهم بعض الجباه تستجدى العطف من الطاغية والمرحمة من الضارى . فثارت نفسى أولا وأوحت إلى الثورة ولكن أين العدة ؟ وأين التكافؤ .

ورحت أفتش عن القوة . واسأل أين تكون المعجزة ، واستلهمت التاريخ وبطولة الأجداد ، ثم اهتديت إلى أن الوجه الصحيح لهذه الأمة قد توارى تحت

(١) مجلة الرسالة يونية ١٩٤٧ .

كثيف من غبار الدهر ، فأخذت أنتزع الأعشاب وألتقط الأشواك وأزيح التراب حتى تجلى لى ذلك الكنز الثمين ورأيت وجه الأمة الصحيح . إنه هو الشعب العربى . إنه هو المادة الأصيلة التى صنع منها بناة الامبراطورية العربية أركان مجدها . مددت يدى نحو الكنز وتناولت حفنة واحدة من أبناء هذا الشعب وأيقنت أن فى هذه الحفنة من القوة المدخرة ما تسقط معه حجة التكافؤ مع الخصم .

ولكنى تلفت يومذاك أنشد القدوة فى هذه الدنيا . تطلعت نحو الترك .. هذا عظيم ، ولكنى وجدت بقايا جيش وأنقاض مملكة . أى وجدت مادة الجهاد ميسورة ، أما نحن فلا شىء عندنا ، وأخيراً لذت بالتاريخ العربى وإذا بى أجده حافلا غزيراً فهنا خالد وهناك أبو عبيدة وهنالك أسامة . وكل شبر فى بلادنا ينطق بآثارهم ، وأين سرت تقاطع أثارنا أثارهم فسمعت فى ضميرى أصواتهم تهيب بى إلى الواجب وبهذه الحفنة التى اختفنتها من الكنز كنت أثب من قطر عربى إلى قطر عربى آخر . وأكون حيث تقضى النجدة أن أكون ولطالما قطعت المفازات واجتزت السباسب وخضت فى لهيب من الصحراء يشوى الوجوه أما خيولنا فكانت تقاسمنا الضراء والبأساء ، ولطالما مدت أعناقها تنشد ظلا أو ماء . لقد جفت مشاغرها وضمرت أجسامها ضمور أجسامنا .

وكان الفرسان وهم يسبحون فى اللهيب خرسا لا ينبسون بشكوى ولا يكادون يقتربون بعد ذلك الجهد من مواطن القتال . ويتبينون فى الأفق سواداً عظيما ؛ إنه جيش العدو فما تهن عزائم الحفنة وإنما تمتد أعينهم امتداد بنادقهم نحو العدو ويسود صمت ؛ ليس صمت رهبة ولكنه إيذان للبنادق بأن تتكلم ثم تتفجر القنابل فالسماء تمطر ناراً وتنشب المعركة ويستمر القتال .

أما الخصم فقد امتلأت يداه بأدوات القتال . ومع ذلك لا يلبث أن ينفد صبره ، ويرتقب دنو الظلام لينجو بنفسه فما يكاد يرخى سدوله حتى يلوذ به

ويتستر وراءه ، ويقف رحى المعركة ونتعقبه ثم نعود إلى الساحة نتفقد شهداءنا ونحصى قتلاهم فإذا النسبة بين شهدائنا وقتلاهم ، هى النسبة بين عددنا الضئيل وعددهم الجسيم . وهنا تنطلق الأنشودة العربية التى طالما هزت مشاعرنا :

يا دار لنـــا حقك علينـــا

وهنا نشعر بأننا قد دفعنا قسطا من حق الوطن وأن الجثث المتناثرة هى الإيصال الشرعى وكم من أقساط دفعناها فى ميادين سورية وجبال فلسطين وبطاح العراق[1] .

و « ما كنت أسمع فى ساعات اللقاء من إخوانى المجاهدين الذين رافقونى فى ساحات النضال ! هذا مجاهد يقول وهو يعانقنى : لاتنس هذه المرة ، وآخر يقسم أنه منتحر إذا لم يرافقنى فى معركة فلسطين المقبلة . وهذا شيخ آخر يقول وهو يعانقنى : لقد غدوت شيخا ولـكن لدى ثلاثة أولاد . وهؤلاء سيؤدون الواجب الملقى على . فينوبون عنى . الأول فتح عينيه على أصوات مدافع ميسلون والثانى خرج إلى هذه البسيطة يوم كانت دمشق تلتهب بنار قنابل الفرنسيين فى أوائل الثورة ، أما الثالث فقدولد يوم الجلاء على أصوات الزغاريد . لقد أحسست وأنا أستمع إلى هذا الشعور أن دينا جديدا وواجبا جديدا ملقيان على كاهلى .

وهذا ما حبب إلى الحياة لا خشية الموت ، وطالما اندفعت نحوه وقد تخطانى كثيرا وبالغ فى التخطى وانشبت أظفاره فى جسمى فى تسعة وأربعين مكانا ولم يظفر بأمنيته»

محب الدين الخطيب : من هو العربى

ولقد كان من الطبيعى أن يتجه الفكر العربى نحو تقنين الدعوة العربية ورسم خطوطها وقد قام غيرواحد من مفكرينا برسم فلسفة القومية العربية وأهدافها يقول السيد محب الدين الخطيب (من هو العربى[2]) .

(١) الرسالة يونية ١٩٤٧ .

(٢) ربيع الآخر ١٣٦٤ (١٩٤٤) مجلة الفتح

« لقد شهدت مولد جامعة الدول العربية . وأرجو ألا أكون مبالغا إذا قلت إننى أقدم الناس مراقبة لهذا المولود منذ كان جنينا فى أحشاء الأقدار الإلهية . وكنت ألاحظه قبل أن تولد (العربية الفتاه) بسنوات غير قليلة . والعربية الفتاه هى التى كانت أنشط العاملين على حياطة ذلك الجند بالحراسه والعناية والوقاية منذ إثنين وثلاثين سنة . وتمنيت لو أن الشهداء العداد : الأمير عارف الشهاب ، محمد المحصانى ، عبد الكريم الخليل ، عبد الغنى العريسى[1] ، وإخوانهم لا يزالون موجودين بيننا .

٢ — القومية فى الحضارات يستمدها أهلها من لغتهم المشتركة ومن مصالحهم المشتركة ومن سجاياهم الخلقية المشتركة ومن تراثهم الثقافى والتاريخى المشترك ومن تعاونهم جميعا على النهوض بهذه المواريث والاستعانة بها وبالعلم العالمى على إعداد مستقبل نبيل وسعيد .

فالعراق عراق وطنا وعربى قومية ، والمصرى مصرى وطنا وعربى قومية ، واليمنى يمنى وطنا وعربى قومية وهكذا سائر الأوطان .

٣ — أبيح لنفسى أن أزيح الستار عن حقيقة جريئة نيرة عظيمة الخطر هى أن القارة الأفريقية كانت ستكون فى الأصل قارة سوداء لولا أن شمالها كان يتغذى منذ مائة ألف سنة إلى الآن بتموجات من العرب كانت ولا زالت تزحف إلى هذا الشمال الأفريقى من الجزيرة العربية عن طريق سيناء وهذا اللون الأبيض أو الحنطى الذى اكتسبه المصريون والتونسيون والجزائريون والمغاربة إنما جاءهم من هذا المدد البشرى المتواصل يوميا وسيبقى متواصلا .

لقد كان لهذه الهجرات العربية أثرها فى لغة قدماء المصريين المكتوبة على الأحجار بالحروف الهيروغليفية حتى أن العلامة الأثرى المصرى « أحمد كمال »

(١) استشهد هؤلاء فوق مشانق جمال السفاح ١٩١٦ وكانوا يسمونها « أراجيح الأبطال »

ألف للغة قدماء المصريين معجما يبلغ ثقله نحو حمل جمل ، وقد برهن به على أن سبعين فى المائة من ألفاظ قدماء المصريين تتفق مع هذه العربية المصرية التى أكتب بها مقالتى » ويقول « فيصل العظمة »[١] : نحن العرب أمة واحدة فيجب أن نؤسس دولة واحدة . نحن العرب أعرق أمة . سدنا العالم دهوراً طويلة . ونشرنا أعلامنا ما بين الصين وفرنسا . وفتحنا القلوب والحصون . ونحن اليوم يجب أن نعيد مجدنا الماضى . نريد وحدة عربية يستوى فيها أمام الحق المسلم والمسيحى . والإسلام هو روح العروبة ، هذا المبدأ الممتزج بدم العرب ولحمهم : مسلميهم ومسيحيهم .

بمن يفاخر العربى المسيحى ! هل يفاخر بغير أبطال العرب . وهل يتكلم غير لغة القرآن . القومية العربية هى رغبة العرب فى إيجاد دولة واحدة تساهم فى بناء الحضارة الإنسانية . ويقول محمد توفيق[٢] : إن للامة العربية تاريخا مجيدا حافلا بالأعمال العظيمة ولها مدنية زاهرة وحياة فكرية عميقة الأصول متعددة النواحى ولكن التاريخ العربى لم يدرس الدراسة التى يستحقها ولم تبذل فى سبيله العناية المطلوبة . إن دور جماهير الشعب فى صنع التاريخ واضح بيّن وحقيقة لا يحاول فيها مؤرخ يحسن فهم الحوادث ويتبع أسبابها .

هناك نواح كثيرة فى التاريخ لم يبذل فى دراستها ما تستحقه من جهد وعناية فالإسلام نفسه كحركة ثورية لم يدرس حق الدراسة ولم يهتم أحد من المؤرخين بوضعه فى مكانه اللائق بين الحركات الثورية فى العالم .

عبد الوهاب عزام[٣] « الأساس الروحى للوحدة العربية » .

ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام : « الداعون إلى الوحدة العربية فى نواحيها المختلفة

---

(١) ازار ١٩٤٨ « فلسفة القومية العربية » .

(٢) مايو ١٩٤٥ (المجلة) بغداد .

(٣) أغسطس ١٩٤٥ مجلة الشرق الجديد .

لايحاولون اصطناع روابط بين البلاد العربية ولا خلق جامعه منها ولكنهم يبثون دعوتهم على حقائق ماثلة خلقها الله وأمدها التاريخ والأدب وأمور أخرى كثيرة .

فى البلاد العربية أمة واحدة لها تاريخ واحد وحضارة واحدة وتشترك فى آلام الحاضر وآمال المستقبل . والثقافة العربية ثقافة واحدة على اختلاف لأقطار تحتاج إلى من يعترف بها ويتعرف نواحيها وينظمها لا إلى من يحدثها وينشيء بينها روابط ويجمع عليها هذه الأقطار العربية ولكن الحقائق الطبيعية أو التاريخية لا تستغنى عمن يوجهها وينتفع بها . كما أن الأنهار فى بلاد العرب تجرى بالطبيعة ولكنها تحتاج إلى السدود والقنوات . والوسائل المختلفة للانتفاع بها . وكذلك الثقافة العربية بحاجة إلى من يتعرف سيادتها وغاياتها . وينبه العرب إليها ويوحد وجهتهم فيها .

عبد المنعم خلاف : العربية الحديثة

ويكتب عبد المنعم خلاف تحت عنوان « العربية الحديثة » وأسسها الفكرية فيقول : العربية الحديثة ينهض عرشها على قوائم فارعة من اتساع الوطن العربى ومن ضخامة جسم القومية العربية العملاق الذى تبلغ مساحته سبعين مليونا ومن امتياز الموضع الذى هو المكان الوسط للعالم ومركز الدائرة فيه ومن وقوعه على البحار العظيمة التى تسير فيها دائما مواكب الحضارات ومن اتصاله بامزجة البشر جميعا وحضاراتهم التى تصب منها جداول دائمة فى ذلك الملتقى الذى تتلاقى فيه البشرية كلها لقاء عجيبا . إنها بطبيعتها الفطرية غير مادية ولا عابدة للمال . وإنما تعبد الشرف والمروءة وحسن الأحدوثة وتنفق فى سبيل ذلك بدون حساب : أخلاق قديمة محدثة فيها منذ جاهليتها الأولى .

ثم هى سادنة عرش الحضارات القديمة المتعاقبة فى الأرض إلى الآن . فهى الأمة التى لم تخرج شعلة الحضارة الروحية المادية من أيدى أبنائها منذ فجر التاريخ

المحقق فهى والله حضارة الفراعين فى أدوار تاريخهم الطويل . والفراعين من الجنس العربى كما هو معلوم . ووالدة حضارات السومريين والأكاديين والبابليين والأشوريين والفينقيين والقرطاجيين وهؤلاء جميعا عرب ولدتهم الجزيرة الولود .

وهى جارة حضارات الأغريق والفرس والرومان حينما نهض هؤلاء متأثرين بها مستلهمين ما عندها . وهى أم الرسالات والنبوات التى سارت على مجراها الحضارة النفسية وارتفعت على معاريجها قيمة الروح الإنسانية ، ولا تزال وصية على حضارة أعظم الأمم المتحضرة التى تسيطر على العالم الآن .

هذه العوامل العظمى جميعها تركت فى قلوب العرب وأعصابهم رواسب عميقة وضمائر مؤثرة تكرر تأثيرها عشرات المرات مع كل حضارة قامت فى رقعه ديارها وهى باعثة الحضارات ووارثتها دائما . نقول هذا صادرين عن الواقع الذى نراه من مصابرة العرب ومقاومتهم وكرمهم فى معاملاتهم لأعدائهم وغاصبى حقوقهم ومن قسوة هؤلاء الذين انقضوا عليهم فى غفلتهم . الذين لا يشعرون شعور الوصاية الرشيدة الأمينة » .

عبد الرحمن شهبندر : مجتمع واحد

ويقول الدكتور عبد الرحمن شهبندر : « غير نكير أنه مر علينا زمن كدنا نظن أن الشهداء الذين علقوا على المشانق باسم العروبة فى دمشق وبيروت ذهبت دماؤهم هدراً ، وأن للاقطار العربية الشقيقة من المتاعب المحلية والمشاغل الموضعية ما يحول دون التفافها حول هذه الرابطة الوثيقة ولولا وحى كان يهبط علينا من حين إلى آخر من أفواه شعراء العروبة لظن ضعفاء الإيمان منا أن هذه الفكرة اندثرت ، وأن الشهداء أصبحوا أطلالا بالية تدل على نظرية عتيقة كما تدل قبور الأقصر الضخمة على رأى الفراعنة فى الموت . ولكن العروبة ليست نظرية بائدة

بل هى إيمان حى متحرك ناطق ، فنحن نعيش فى مجتمع واحد ونتخاطب بلغة واحدة ونتغذى من ثقافة واحدة . ويحيط بنا عدو واحد . ولا أدل على وحدتنا الطبيعية من التشابه التام فى ظواهرنا الاجتماعية والسياسية : فكلنا نشعر بعد آلام مبرحة بوجوب اتخاذ الوطنية رابطة للذين يعيشون على أرض الوطن .

إن مسألتنا ليست مسألة التشابه العفوى الذى يأتى من تلقاء نفسه ، وإنما هى مسألة تنظيم هذا التشابه تنظيما إراديا قائما على التعاون لاكتساب هذه الوحدة الطبيعية رابطة اجتماعية وميثاقا سياسيا . وهذا العمل على وجه التحقيق سيكون من قضايا القرن العشرين » .

عبد الرحمن عزام . اتحاد الأمة وانقسام الأمراء

ويرسم عبد الرحمن عزام خبرته الواسعة العميقة فى صورة توجيهية دقيقة فيقول :

« طفت بمختلف البلاد العربية فاتيحت لى بذلك معرفة الكثير من أحوال العرب فهم أينما وجدوا وحيثما حلوا لهم طابعهم الخاص ومهما تجاوزنا عن أهمية الدم العربى الأصلى والأقوام المستعربة فإننا لا نستطيع أن نتجاهل انتشار القبائل العربية فى هذه المساحة الواسعة وامتزاجها امتزاجا كليا بأهلها مما يؤكد من جديد وجود صلات نسب قوية بين الشعوب العربية والمستعربة .

وهذه الصلات نفسها أعتقد وجودها قبل آلاف السنين ، فانتشار الفينيقيين والقرطاجنيين فى المغرب هو موجة من هذه الموجات التى تعاقبت فى فترات طويلة فى شمال أفريقيا وغرب آسيا حتى أنك لتجد استقرار العنصر العربى وسرعة استعراب الأقوام بادية حينما كانت موجة من الأمواج العربية قد سبقت إليه .

ويصح لنا أن نقرر أن الأمة العربية الحالية موجودة ومتحدة فى العرف والثقافة والعقيدة طوال الألف سنة الماضية . وكل ما عرض عليها من انقسام لم يكن انقسام شعوب ولا أمم متعارضة وإنما هو انقسام أمراء وحكام يتنازعون

السلطة فيما بينهم . فالوحدة العربية موجودة منذ مئات السنين ، إن الذين يظنون أن لورنس قد خلقها فى الحرب الماضية أو إيدن بعثها فى هذه الحرب يخطئون كل الخطأ وإذا كان لنا أن نحدد تاريخا لهذه النهضة الأخيرة والدعوة إلى الوحدة العربية فإننا نجد ذلك ممتدا إلى أعماق القرن التاسع عشر حين أحس العرب بحاجتهم إلى ملك خاص بهم . ثم توالت غارات أوربا على الشرق العربى فغزت فرنسا الجزائر وتونس وبريطانيا مصر وإيطاليا طرابلس . وأخذ العرب يتأهبون لرد هذه الغارة فدعوا إلى تماسك عنصرهم واتحادهم وكان مع هذه الغارة العسكرية غارة فكرية تحمل معنى الجنسية والقومية والدعوة الغربية فقلدها العرب كذلك . والآن وقد أخذت فكرة الوحدة تخرج إلى الوجود فى شكل عملى وإنى كداع للوحدة أرجو أن تصل إلى وحدة حقيقية كاملة لأمة واحدة ولتختر ما تشاء من النظم ما دامت هذه النظم ستكون سياجا لأمة واحدة ومحققة لآمالها فى إقامة جبهة واحدة . لقد كره العرب طول تاريخهم وبمقتضى تعاليم دينهم أن يذعنوا للعصبية الجنسية أو الطائفية وأرادوا المساواة للناس جميعا . إن بلادنا العربية هى التى أخرجت موسى وعيسى ومحمداً دعاة الخير وأنصار التقوى ففيهم القدوة لها وهى لذلك تدعو إلى الخير غير مخدوعة ولا مغلوبة ولا متخذة العنف وسيلة للخير »[1] .

سامى الكيالى : يقظة الفكر

ويصور سامى الكيالى « يقظة الفكر الحر فى البلاد العربية »[2] فيقول : كان لابد للأمة العربية بعد رقادها الطويل من أن تنهض وأن تسير قدما

---

(١) الشرق الجديد مايو ١٩٤٥ .
(٢) مجلة الحديث — حلب (يونية ١٩٤٥)

فى طريق الحياة . وكان لغير واحد من المفكرين هذه الصيحات التى انبعثت تهز مشاعر الأمة الوسنانة فى كل قطر عربى وهى تهيب بهم أن يعملوا الأعاجيب لاستعادة الماضى الذهبى — انبعثت هذه الصيحات فى منتصف القرن التاسع عشر حيث بدأت طلائع النهضة . أما قبل هذه الفترة فقد كان الشرق العربى فى شبه غيبوبة . ولولا ارتباطهم بلغتهم ـ وهى إحدى مقومات النهوض ـ لكانت طلائع هذه النهضة قد تأخرت جيلا أو جيلين . ولكن من حسن حظ العرب أن عاملا خفيا كان يوقظهم كلما ركنوا إلى غيبوبة أهل الكهف . أريد بهذا العامل الخفى «لغة القرآن» فقد كانت الحارس الأمين الذى أنقذهم من التدهور والانحدار الأبدى .

كانت مهمة الكتاب فى أواخر القرن التاسع عشر أن يوقظوا الوسنانين ويرفعوا العصائب عن العيون . أما مهمتهم فى القرن العشرين وقد استيقظ النائمون وأخذوا يبنون معالم الطرق فهى بسط المعرفة فى كل أرض عربية وتحرر الفكر من الأصفاد ، فهم الذين وضعوا بذور الثورة الكبرى : ثورة التحرير الفكرى فى كافة حياتنا العقلية فمن صيحات لتنقية جوهر الدين من جمود المحافظين الذين يغفلون ناموس التطور فى الحياة الاجتماعية إلى صيحات لتحرير المرأة من عبودية الجهل . ورسالة الكواكبى فى إنشاء وطن عربى حر وتحطيم الطبائع التى عاشت عصوراً طويلة فى دياجير الاستعباد ورسالة الشميل فى أشاعة روح العلم ورسالة الريحانى فى بذر بذور الحرية والقضاء على الطائفية ورسالة الزهاوى فى الدفاع عن حرية الفكر .

والذين ما فتئوا يعملون فى جميع الميادين وما تخلل تلك الفترات من ثورات الاستقلال والحرية التى قام بها المجاهدون فى سبيل خلق كيان وطن عربى حر .

هذه النهضة التى كانت هواجس فى ضمير الكتاب فأصبحت اليوم حقيقة

راهنة فى ضمير المجتمع ومع ذلك فقد تخطى الفكر الحر جميع العوائق واستطاع أن يقود الأمة العربية رغم ما اعترضها من عقبات إلى طريق المجد » .

سيسيل حورانى : كفاح الوحدة بعد كفاح الاستقلال

ويقول سيسل حورانى (بيروت) « إن اليقظة العربية يمكن تعريفها بأنها جهود لإعادة بناء وتوحيد المجتمع العربى ولاحلال هذا المجتمع فى وطن أكبر وإصلاح الثقافة التى هى إلى الآن جامعة عربية حديثة ولها صلة بالماضى فهى بهذا الوضع حركة مركبة تروم من جهة تحرير الأقاليم والممالك العربية من السيطرة الأجنبية وتهدف من الجهة الأخرى إلى توحيد العرب فى كل الشئون ضمن المنطقة العربية ، ولذلك فإن الكفاح فى سبيل الوحدة بين العرب لا يمكن فصله عن كفاحهم فى سبيل الاستقلال .

إن السهولة التى استطاع بها العالم الخارجى أن يقسم الأقطار العربية إلى ممالك متفرقة فى نهاية الحرب العالمية الأولى أكبر دليل على ضعف العرب وقد زادتهم ضعفا الانقسامات السياسية التى أعقبت تمزيق وحدتهم .

وقد أدى وجود أنظمة تعليمية مختلفة إلى خلق أنماط متباينة من أنماط التفكير وأخضع الشباب العربى إلى تأثيرات خارجية متفرقة ومن أجلى هذا ماظهر لبعض الوطنيين العرب . ولكن فى الوقت الذى أدت فيه الأحداث التى أعقبت عام ١٩١٧ إلى تجزئة العالم العربى ، كانت كافة قوى التاريخ تعمل فى إتجاه معاكس . وقدمت مطابع بيروت والقاهرة مواد للقراءة فى العالم العربى بأسره حفزت الأساليب المشتركة فى الكتابة والتفكير .

شكرى القوتلى : العلم العربى

ويقول الرئيس « شكرى القوتلى » :

«أتى على الأمة حين طويل من الدهر . ران عليها فيه سبات عميق فقدت

فيه سيادتها وأضاعت مكانها وجار عليها وتنافس فى التحكم بها أجانب عنها حتى أوشكت أن تفقد وجودها . وكادت تنسى عربيتها . وتذوب فى غيرها وتغدو حديثا يروى وتاريخا غابرا يحكى ، ولكن أصالة هذه الأمة ، وما أودعه الله فيها من أسرار البقاء ، وما فى بنيتها من مناعة ضد الفناء ، جعل من هذه الحقبة الطويلة اغفاءة لا موتا . وسباتا لا فناء ، فما نفخ فى صور القوميات حتى رأينا القومية العربية قبل الحرب العالمية الأولى ، تهب من رقدتها ، وتشق طريقها ، ولقد ولدت حركتها على صورة مطالبة بالإصلاح ، وغضبة للغة العربية ثم نمت ، وترعرعت حتى استوت نشدانا لاستقلال العرب ، وجهاداً فى سبيله ، واستشهاداً من أجله . ورأى التاريخ بعد ذلك أمة يعرب تثور ثورتها الأولى ورأى أبناءها ينفرون إليها من بطاح مكة وروابى الحجاز . ورأى موجة الأمل تغمر حزون الجزيرة والنجاد ، وهرع لنداء تلبية القومية وصرخة العربية فتيان من مختلف أقطار العرب ، دخلت كتائبهم دمشق ، ويومئذ اكتحلت العيون « بالعلم العربى » يرمز بألوانه إلى دول العرب الغابرة ويدعو إلى استعادة أمجادهم الزاهرة ، ثم تبدت نذر الرغبة فى استعباد هذا الوطن وتجاهل حقوقه وأهدافه فسارعت الأمة فى الثامن من أزار ١٩٢٠ إلى إعلان استقلالها وآلت ألا تفرط فى حريتها وتحدت بذلك كل طامع وقطعت السبيل على كل متآمر يروم الغض من أمانيها والنزول بمثلها وأهدافها .

عبد المنعم خلاف : مزامير للنفس العربية

ويضع عبد المنعم خلاف[1] « مزامير للنفس العربية » وهو أسلوب جديد فى الكتابة عن القومية العربية يرق بها عن الدراسات التاريخية « ... أما القلب العربى ، وهو الكلمة الصامتة ، ففيه حيثما كان وراثات مدخرة من بساطة الحياة فى الصحراء واتساعها وعزلة الفكر فيها عن المؤثرات الصناعية –

(١) فصول فى الرسالة ابريل ١٩٤٠ وما بعده .

وإشراق النجوم عليها واحتكاك الفكر فيها بالسماء دائما . وانطلاق النفس من غير سدود وقيود واعتداد الانسان فيها بنفسه واعتماده على قواه الذاتية وسبح الخيال وراء المجهولات والغيوب .

يضاف إلى هذه الوراثات الاستعداد الدائم لبذل الدم والمال فى سبيل الشرف وحسن الأحدوثة وعدم الارتباط بالأرض إلى درجة التضحية بالحرية والخضوع لسلطة مذله واستبداد مهدر لكرامات الإنسان وحرمات الحياة .

إن وضعها هكذا من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى وسطا بين أمم الشرق والغرب والشمال والجنوب لتلتقى عندها الألوان والأجناس والدماء والأجواء والثقافات والحضارات والطباع والأمزجة . فتأخذ قلوبها من جميع القلوب ، وعقولها من جميع العقول وأجسامها وألوانها من جميع الأجناس والألوان ثم يمتزج كل أولئك ويصهر فى طبيعتها المعتدلة ويخرج للناس بعد هذا ثقافة نفسية وسياسية يلتقى عليها الشرق والغرب لقاء يحطم القيود ويجتاز الحدود لأن فيها من كل جنس رفدا ، ومن كل عقل مدداً ، ومن كل قطر ورداً » .

وهذه صورة أخرى[1] .

كان فى المهد الأول للعربية غول عجوز شوهاء عمرت هناك دهرا طويلا تأكل أكباد الرجال بالحقد والضغينة والحسد والأنانية والتفرد ، وتلعب بقلوبهم تتخذ منها عقوداً وقلائد وتفترس القبائل ، إذ تغرى بينها العداوة والبغضاء فتوقد نيران الحرب الطاحنة لتلغ فى دماء الجميع : القاتل والمقتول والخاذل والمخذول .

وقد اتخذوها آلهة معبودة وقدموا لها القرابين من دماء الأحرار . وزينوا عرشها بجماجم الشباب المفتون دائما بالبطش والخراب وأنشدوها الأشعار واجتلبوا

---

(١) الرسالة مارس ١٩٤١ .

لها الأسماء وقرعوا الطبول ونفخوا الزمور . ما تركت فيهم شابا يكتهل . أو كهلا يشيخ فكبدها عطشى مخلوقة من نهم الرمال . وجشمها للدم المسفوح والدمع المنضوح . فلم تك تبقى للحياة إلا النساء والأطفال والمستضعفين من الذين يقال لهم : بقايا السيف وطلقاء عفو القادرين .

وكان لها كأسان : تتلقى فى إحداها دم الرجال وفى الأخرى دمع النساء على الرجال . ثم تخرج وتشرب وتعربد وتقهقه كاشفة عن أنيابها الزرق المسنونة : تلك هى الفرقة .

الدكتور محمد عوض محمد :مصر قلب العالم العربى

« انفردت مصر بأنها ليست من الشرق ولا من المغرب وإنما هى حلقة الاتصال يؤمها العلماء والفقهاء والأدباء من الشرق والمغرب فيلقون فيها رحالهم ويتخذون من أرضها مجالا جديدا لنشر علومهم فكانت وسيلة للتعريب بين العلماء والأدباء ، وعاملا قويا فى تقوية الصلات بين الجناح الشرقى والجناح الغربى وكان من حسن الحظ أن مصر واقعة على طريق الحج بالنسبة لهذا العالم المغربى العظيم .

ساعدت الظروف الموقع على أن يؤدى مصر للعروبة خدمة أخرى وذلك أنها كانت مركزاً لانتشار العروبة فى أعالى النيل فإن اتصالها قديم بجنوب الوادى وقد زحفت القوافل العربية فحطانيها وعدنانيها من الشمال إلى الجنوب على جانبى النيل وهكذا شاءت الظروف أن تجعل من مصر الخادم الأول للعروبة »

ولا شك أن هذه الصورة التى حاولنا أن نرسمها لمعركة القومية العربية والوحدة الكبرى كانت مقدمة حقيقية للانتفاضة العربية التى حملت لواءها الثورة المصرية العربية التى بدأت فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى يمكن القول بأنها لم تكد

تحقق لمصر الجلاء حتى التفتت الى هذا الهدف الكبير فمضت ترسم له الطريق العملي للتحقيق ، وبذلك خرجت القومية العربية لأول مرة من نطاقها النظرى القاصر على « الكلمة والأمل » الذى ظل كذلك حتى بعد قيام جامعة الدول العربية إلى نطاق « العمل وتحقيق الهدف » عمليا .

ولقد استطاعت القومية العربية على أساس هدفها الواضح وهو « الوحدة الكبرى » أن تقطع فى خلال هذه الفترة القصيرة خطوات واضحة قوية فقد كانت القضية الكبرى التى هى مصدر الخطر الحقيقى هو أن العرب الذين آمنوا بأن الاستعمار قد مزقهم إلى دول صغيرة قد عادوا إلى الوقوف عند هذه الخطوط الوهمية والرضى بها بل وتقديسها . يصور هذا المعنى الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه « الاتجاهات الوطنية فى الأدب العربى المعاصر فيقول : « كان مصدر الخطر الحقيقى هو إيمان العرب أنفسهم بهذه الخطوط الوهمية وتقديسهم لها فلقد نشأ جيل من الناس لا يعرف إلا هذه الظروف الجديدة وكان الاحتلال الأجنبي المتحكم فى التعليم يحول بينه وبين معركة تاريخ كفاحه القريب فى سبيل القضية العربية المشتركة التى أريقت فى سبيلها دماء أبنائه فى الحرب . وأصبح كثير من مكافحى الامس هم يد الاجنبى التى يبطش بها فى مراكزهم الكبيرة التى يحتلونها .

لقد أعانت الدول المحتلة — كلٌّ فى منطقة نفوذه — على تدعيم قداسة الأوطان الجديدة فى نفوس الناس بأسلوب علمى منظم وذلك بمساعدتها على إحياء التاريخ القديم لكل قطر من الأقطار . ونشطت الحفريات للبحث عن آثار الحضارات القديمة السابقة على الإسلام فى كل من العراق وسوريا ولبنان ومصر لتوهين عرى الجامعة العربية وتشتيت القلوب التى ألف بينها الإسلام وجمعها على لغة واحدة فاستيقظت العصبيات الجاهلية وراح كل بلد يفاخر البلاد الأخرى بمجده العريق

وانشغلت الصحف بالكلام عن الكشوف الأثرية وما تدل عليه من حضارات البابليين والأشوريين والكلدانيين والحيثيين والفينيقيين والفراعنة .

ولقد ألف الفرنسيون خلال الحرب العالمية الأولى لجانا فى بيروت ودمشق لكتابة تاريخ الشام فكتبوا منه بعض تاريخ لبنان وأهملوا تاريخ سوريا ثم لم يلبث الآباء اليسوعيون فى بيروت أن كلفوا ثلاثة من رهبانهم الفرنسيين سنة ١٩٢٠ بكتابة هذا التاريخ .

تخطيط للقومية العربية

وقد نجحت الانتفاضة العربية فى إزاحة هذا القيد وتحطيمه وبذلك بدأ فى الأفق العربى صورة جديدة من التفكير قوامها هذه الإيجابية التى ظهرت بوضوح فى عبارات جمال عبد الناصر وفهمه للقومية العربية .

يقول ميخائيل نعيمة[1] هذه الرغبة الجامحة فى الوحدة العربية الشاملة من المحيط إلى الخليج — أى عربى لا يلتهب بها دمه ولا تصفق لها جوارحه إلا إذا كان تمير جوارح ولكن : ليس فى كومة من الحجارة المتفاوتة الشكل والحجم واللون والمقتلعة من شتى المقالع ما يبشرك بأنها ستبدو قصراً منيفاً أو حصنا منيعاً لمجرد وجودها مجتمعة فى بقعة واحدة من الأرض

وفى حراسة حارس واحد أو حراس عدة ، إلا إذا وكلت أمرها إلى بنائين حاذقين يتعدونها بالصقل والهندسة وإلى مهندسين بارعين يخلقون فيها بنـــاء فى أسسه متانة الأرض وفى أعاليه صفاء السماء . يتجاور حجارته لتساند وتتناسق لا لتتنابذ وتتنافر فلا فضل لكبير على صغير ولا لأبيض على اسود . .

ألا مرحى . وألف مرحى للوحدة العربية الشـــاملة . ولكننا إذا شئنا أن تكتب لها الحياة فعلينا منذ الآن أن نتعهد العناصر التى ستتكون منها بالصقل والنحت

(١) مجلة العروبة يناير ١٩٥٩ .

ويقول الدكتور عبد الرحمن البزاز[1] عميد حقوق بغداد .

القومية العربية وسيلة وغاية : وسيلة لجمع شملنا ورفع مستوى أفرادنا وتحريرهم من كل أنواع الصعوبات الداخلية والخارجية والسير بهم قدما فى مضمار الحياة المتجددة . وهى (غاية) تراد لذاتها لأنها وحدها قادرة على الإبقاء على ذاتية أمتنا وتمكينها من الإبداع .

وهى عقيدة وحركة : عقيدة سياسية إجماعية اقتصادية تقوم على أن الإيمان بالعرب حينما يكونون أمة واحدة حقها المقدس أن تعيش حرة فى جميع أجزاء وطنها الممتد فى قارتين عظيمتين .

وهى حركة دائبة تهدف إلى الكفاح ضد المستعمر والاستعمار على اختلاف أنواعه . وإقامة كيان سياسى عام مشترك تتحقق فى ظله العدالة الاجتماعية لأفراد الأمة جماء ... يقال اليوم : إن الأقطار العربية كومة من حجارة وقديما كان بعض الساسة القدامى المتعصبين لاقليميتهم الضعيفة يرددون نظرية جمع الأصفار .

ليس بين الأقطار العربية ما هو كومة حجارة أو صفر لا رقم له ؛ إنها قوة بشرية اقتصادية واجتماعية وسياسية لا سبيل لظهورها على أكمل وجه الا حين تتفاعل وتتعاطف وتتكامل مع بقية أجزاء الوطن العربى الكبير الواحد وأنها لن تستطيع أن تكشف عن ذات نفسها وتظهر ملكاتها كاملة غير منقوصة حين تبقى أقطاراً مغمورة مشتتة متباعدة يعبث الأجنبى حين بقسم منها ويحاول الاستعمار الابقاء على نفوذه السافر أو المستتر فى قسم آخر .

ويصور الدكتور «فيليب حتى» أسباب هزيمة العرب .

«..نعم أبناء العرب بمدنية استمرت تقريبا من خمسة قرون أولها أواسط القرن الثامن وبلغت شأوا لم تبلغه غيرها من مدنيات أوربا وآسيا .

---

(١) مجلة العربى مارس ١٩٥٩ .

أما انهيار الامبراطورية العربية فلانهيارها أسباب داخلية وخارجية . الأسباب الداخلية مصدرها إهمال رجال الحكم واجباتهم وانغماسهم فى مترفهم وجنوحهم إلى لذائذ المرتبة التى تبنوها . أما الأسباب الخارجية فمنها موجات التتر المتوالية التى قام بها هولاكو وجنكيزخان وتيمورلنك وغيرهم والتى قوضت التتر من معالم العمران وأفنت آلاف الخلق قتلا وتدميرا وحرقا .

أما استمرار هذا الانحطاط فسببه : أن البلدان العربيـــة عانت سيطرة الأتراك العثمانيين .

ويقول عبد الله زكريا الأنصارى من كتاب الكويت[1] : إننا لا نعترف بهذه الحدود المصطنعة فى بلاد العرب وأن رواسب الزمن القصير أدخل فى روع الأكثرين أن العرب جنسيات متباينة مختلفة وأمم متفرقة متعددة وما كان هذا الشعور ينمو ويزداد حتى يصل إلى الطور الخطير لو لم يتركه فى النفوس الاستعمار والمستعمرون الذين عملوا ما فى وسعهم على تفريق الكلمة وتمزيق الشمل وتقويض الاتحاد وإقامة الحدود المصطنعة وبنائها بناء محكما على هذا الأساس :

ليس بين العراق والشام حد　　هدم الله ما بنوا من حدود

ويقول «ساطع الحصرى» : جميع الدول التى يتكلم أهلها باللغة العربية : عربية . فالعرب أمة واحدة . أما الدول والدويلات والأمارات والمشيخات التى تنقسم إليها الأمة العربية الآن فهى وليدة الظروف السياسية الطارئة وعلى كل عربى أن يسعى لإزالتها لتتحد الأمة العربية فى دولة واحدة قوية راقية عصرية . إن العروبة ليست خاصة بأبناء الجزيرة وحدهم ولا بالمسلمين وحدهم . إنها تشمل كل من ينتسب إلى البلاد العربية مصريا أو كويتيا أو مراكشيا مسلما أو مسيحيا سنيا أو جعفريا أو درزيا كاثوليكيا أرثوذكسيا أو بروتستانتيا .

(١) مقدمة كتاب أبو القاسم محمد كرد (حصاد القلم) طرابلس الغرب ليبيا .

ويقول « شكرى القوتلى » موجها كلامه للكتاب العرب : إننا فى طريقنا إلى وحدة عربية شاملة لا تقف أمامها عقبة ولن يثنينا عن عزمنا شدة وأن هذا المثل الأسمى الذى نطمح إليه هو من روح الفكرة الجامعة التى تتنادون بالأدب إليها وتنظمون صفوفكم حولها . بل نحن على يقين أن أقلامكم هى أقلام رواد فى سير الموكب العربى تمهدون بها كل السبل فى وعى هذه الأمة وتكونون رسل الفهم ووئام وتعارف فى رحاب أسرة عربية واحدة

ويقول عبد الوهاب حومد : أمة واحدة ذات مشاعر واحدة وآمال تكاد تكون واحدة أيضا فرحة لقاء الأخ بأخيه يأتينا بنفحة من نفحات الجهاد على صفحات النيل الخالد ودمعة من دموع الأيامى والثكالى تتساقط على رمال الجزائر الذبيحة ونسمة من نسمات العرار يبعث بها صبا نجد وهمسة من همسات المزاهر فى جنات دجلة ليلتقى بأخيه الوافد من مراكش العريقة التى علمت الناس فنون البطولة وتونس الخضراء التى بذلت الدماء سنين ليستقم لها استقلال أدبها واليمن السعيدة وليبيا التى صمدت للغزو والغزاة عشرات السنين . والأردن المزهو بغاره وفخاره على ضفاف بردى المسالم الترنح تجرر عليه العروبة أذيال القومية .

ويقول سليم حيدر « لبنان » : اللغة العربية ليست لغة الترف وحسب — وأية لغة فى العالم أرسخ دعائم من هذه اللغة التى تنتصب فى زوابع الفكر كالمارد ومنذ عشرين قرنا لا نعرف لها طفولة ولا يلتمس لها شيخوخة إنما هى شباب دائم التجدد . لغة تطورت ولا تزال حتى استوعبت وتكاد اليوم تستوعب جميع خلجات النشاط الفكرى والنفسى سبقها العلم احيانا فتفتقر إلى مفردات فلا تلبث أن تجدها مشتقة من صميمها أو مستمدة متملكة .

ويقول الدكتور «أحمد زكى» : فى الرد على الذين يحاولون أن يقفوا أمام التيار الضخم «إن دعاة القومية العربية لم يجعلوا من نقاء الدم وصفاء السلالة شرطا من شروط

القومية ولم يقل واحد منهم أن العروبة هي الرابطة التي تربط بين أبناء قحطان وعدنان وغسان ممن لم تمتزج دماؤهم بدماء أبناء السلالات الأخرى وأن كل من عداهم دخلاء . فالعروبة هي معنى الاشتراك في اللغة والثقافة والآمال والآلام والوطن الواحد والتاريخ وليست معنى لتحليل دماء الأفراد أو التعالى على قوميات الآخرين . والعربي لا يحتقر أحداً لمجرد الاحتقار ولا يكره أحداً لمجرد الكره فهو لا يكره اليهود أو الفرنسيين إلا لأنهم قتلوا أو مثلوا بالأبرياء من إخوانه أو سلبوا أجزاء من بلاده.

ويقول الدكتور محمد أحمد خلف الله : إن هذه البلدان تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي . ومعنى ذلك أنها تحد بحدود البلدان التي تتخذ من العربية لغة الفكر والثقافة ولا تحد بحدود البلدان التي تتخذ من الإسلام دينا .

هذه الحركة مضت على أساس عربي خالص . أعتقد أن العنصر الأول في بناء القومية العربية هو اللغة . إنها هي التي تحدد البلدان التي تدخل ضمن نطاق هذه القومية وأنها التي تحدد الدرجة التي تعيش بها قومية القوى .

ويقول فيليب حتى : القومية موضوعية جغرافية تقضى بالاخوة بين أبناء البلاد الواحدة الذين يقيمون ضمن حدود معروفة .

ولا شك أن اللغة العربية كانت رابطة شديدة بين متكلميها وأن طريقة الحياة المشتركة وأساليب التفكير المشتركة كانت روابط تقرب بين العرب وتجمع قلوبهم في شعور قومي .

وقال « طه حسين »[١]: أخص مزايا هذه القومية العربية أنها حرة ومتسامحة وأنها مفتوحة الأبواب لا مغلقتها . وأنها متفاوتة مع الذين يحبون أن يتعاونوا معها فهي قبلت الثقافات الأجنبية وأساغتها وجعلتها عربية ثم لم تكتف بهذا

---

(١) سنة ١٩٥٧ .

ولكنها جملت تنشر ما تستطيع أن تنشره من هذا كله فى الشرق والغرب .

هذه القومية وهى الآن بعد أن عدت عليها الخطوب وبعد أن ألحفت عليها الكوارث وبعد أن ألح عليها الترك بنوع خاص فى عصور مختلفة وبعد أن اضطرت إلى الخمول وإلى الضعف ظلت على الرغم من هذا كله محتفظة بقوميتها محتفظة بلغتها وعقليتها وشعورها وكل ما يميزها .

ويقول شفيق غربال : العروبة فى أوضاعها الراهنة لم تنشأ عن العصبية بل نشأت من فعل عوامل تاريخية طارئة كان من آثارها شطر العالم الإسلامى إلى شرق أقصى يقع شرق العراق وإلى وسط يمتد من العراق إلى مصر وإلى مغرب يقع غربى مصر . والتشطير فى حد ذاته قديم وهو إلى حد ما طبيعى متأثر بحقائق التاريخ والجغرافيا . ولكن كانت جناية العوامل الطارئة أنها فصلت هذه الاقسام بعضها عن بعض ، فألهت كل قسم بكوارثه ونكباته ، وصرفته إلى الذود عن حياضه فانطوى على نفسه وجمد على ما هو عليه وخشى الحركة .

ومن هذه النماذج كلها يظهر مدى عمق الوعى الفكرى للقومية العربية فقد تحول كثيرون كانوا خصوما للقومية العربية والوحدة الكبرى وأصبحوا أنصاراً لها .

ولقد امتد هذا الوعى إلى أقصى أطراف الوطن العربى ، وقد ظهر بوضوح فى أفكار وكتابات مفكرى العرب فى العراق والأردن واليمن .

خطوات التجمع فى المغرب

ولعل أروع مظهر له يبدو جليا فى كتابات مفكرى المغرب (مراكش) الذين يجرون محاولات ضخمة فى الوقت الحاضر بعد تحررهم لدعم القوميه العربية والعمل للوحدة المغربية بين أقطار الشمال الأفريقى كمقدمة للوحدة الكبرى .

فمفكرو المغرب يؤكدون الحقائق التالية :

١ — إن الرأى العام المغربى على اختلاف درجات وعيه وإدراكه يؤمن بمبدأ

الاتحاد العربى والاخوة الإسلامية . وهو لذلك لم ير فى قيام جامعة الدول العربية ونهضة القومية العربية إلا مظهرين من مظاهر هذا الإخاء الذى جاء به الإسلام .

٢ — إن اللغة العربية هى الرابطة الأولى التى تجمع بين شعوب القومية العربية وليس الجنس والدم العربى .

٣ — الشعب المغربى لم يعرف الوطنية الضيقة وليس للوطنية فى إحساس المغربى إلا مدلول واحد هو مقاومة الاستعمار الأجنبى لا فى الوطن الصغير فقط بل فى أى جزء من أجزاء الوطن الكبير ولذلك كانت كلمة « وطنى » ترادف كلمة « مقاوم » .

٤ — الوحدة الجغرافية بين أقطار المغرب العربى قائمة فعلا فكلها تقع فى جزء واحد من قارة واحدة على بحر واحد . ليس هناك تفاوت كبير بينها فى المناخ والطبيعة . هناك الوحدة السلالية والوحدة اللغوية يضاف إلى هذا التاريخ المشترك .

٥ — القطر الليبى هو امتداد طبيعى للمغرب نحو الكنانة وباقى أقطار الشرق تجمعه بالمغرب وحدة الجنس علاوة على وحدة التاريخ والحضارة .

وهذه النماذج اخترناها من مجلة « دعوة الحق » التى تصدرها وزارة الأوقاف فى المملكة المغربية « مراكش » مجلد ١٩٥٧ والتى تصور هذا الاتجاه فى وضوح.

عبد الوهاب بن منصور : الاتحاد المغربى

• هناك الوحدة الجغرافية بين أقطار المغرب العربى فكلها تقع فى جزء واحد من قارة واحدة على بحر واحد . وليس هناك تفاوت كبير بينها من المناخ والطبيعة وهناك الوحدة السلالية فالمغاربة جميعا ينتمون إلى السلالة البربرية المتكونة من عناصر شرقية وأخرى عربية صهرها طول الأحقاب فى بوتقة

واحدة حتى صارت جسداً واحداً لا يمتاز عضو منها فى جزء من المغرب عن جزء آخر منه .

• هناك الوحدة اللغوية فان جميع أهل المغرب يتكلمون اللسان العربى المبين ويكتبون بالأحرف العربية وفى كل قطر بقية من اللغة البربرية القديمة عمل الاستعمار جهده لحفظها ولكنها الآن فى طريق الاضمحلال ولن تمضى خمسون سنة حتى تكون اختفت نهائيا من الألسنة المغربية نتيجة لانتشار الثقافة .

• يضاف إلى هذا التاريخ المشترك؛ فأقطار الشمال الأفريقى كالحلقات المفرغة التى لا تطاق إحداها حتى تمسك الأخرى أو كالطبل الأجوف الذى ان نقرت إحدى جهتيه سمع دويه من الجهة الثانية فما حدث حادث فى جانب منه أوجد أمر إلا كانت له أصداء وظلال فى الجوانب الأخرى .

• أنشأت عليشة ديدون « قرطاجنة » فانتشرت المتاجر البونيقية على طول ساحل المغرب وسيطر الرومان على تلك المدينة ففرضوا سلمهم عليه وأقاموا حضارتهم فيه وعبر إليه (الوندال) فخلفوا فى كل جهة منه أشلاء وأنقاضا . وطلعت خيول العرب بالإسلام على طرفه الشرقى فامتلأت أطرافه الأخرى عدلا ونورا . ووضع نصارى شبه جزيرة ايبريا أقدامهم فى أحد مراسيه فتداعى لهم سائرها بالسقوط من أكادير إلى طرابلس ودهمه بمدهم الاستعماران التركى واللاتينى فلم يبقيا ولم يذرا ثم ذر قرن الحركات الوطنية التى تبلورت فيها إرادات شعوبه فى الاتحاد بما ساد قادتها من تعاون وانسجام فى الداخل والخارج . وإدراك الحقائق المستخرجة من العبر التاريخية والمقتضيات العصرية فدواعى الاتحاد إذا متوفرة كثيرة وليس هناك ما يحول دون تحقيقه .

• يمكننا أن نتمثل من الآن دولة الاتحاد المغربى المرتقبة الواسعة جنباتها

المديدة نسماتها المحتوية على أزيد من ثمانية وعشرين مليونا من السكان وخمسة ملايين ونصف من الكيلو مترات المربعة .

● حدود حصينة منيعة يصعب على أى مهاجم اختراقها إذ تصبح البلاد المغربية جزيرة . أما القارة الأفريقية فيحدها بحران من الماء شمالا وغربا واخرآن من الرمال شرقا وجنوبا . وسيتحكم الاتحاد فوق ذلك فى غرب المتوسط ووسطه لسيطرته على الضفتين الجنوبيتين لمضيق جبل طارق ومضيق صقلية.

عبد العزيز بن عبد الله : وحدة المغرب العربى

المغرب فى عرف المؤرخين العرب هو مجموع الأقطار العربية الممتدة غربى مصر بما فيها برقة وطرابلس ولم يكن هذا التعريف بدعا من القول لأنه يستند إلى حقائق إنسانية لها مظاهر سلالية واقتصادية واجتماعية ناتجة عن الاطار الجغرافى كما لها عوامل تاريخية عن وحدة الفكر والتراث .

● إن الأقليم الذى تسلسلت فيه الحضارة بكيفية أعمق وأبهى . هو ذلك الجزء الذى يمتد على ضفاف البحر الأبيض المتوسط والذى كان يسمى بحر العرب والمحيط الأطلنطيكى أو بحر الظلمات على شريط هائل طوله ثلاثة كيلومتر ولكن مجموع سكان هذا الجزء من العالم يحملون نفس الاسم وهو «إمازيغ» من طرابلس إلى قابس إلى الصورة .

● اندهش المؤرخون الغربيون للسرعة الخارقة التى كان المغرب يسترجع بها وحدته السياسية فى ظرف سنوات معدودة بحيث تمتد المملكة بمجرد انبثاقها من مركز من المراكز إلى أقصى التخوم .

● إذا كانت هناك قبائل تنتقل من الجبل إلى السهل حسب الفصول

انتجاعا للخلا والـكلأ فان ذلك دليل على أن العقلية البربرية لاتفرق بين أجزاء هذا الوطن الأكبر الذى هو مجموع المغرب وأنه متى أعوزت قبيلة من القبائل وسيلة العيش فى ناحية انتقلت إلى أخرى ضمن الاطار الجغرافى العام .

● القطر الليبى هو امتداد طبيعى للمغرب نحو الـكنانة وباقى أقطار الشرق تجمعه بالمغرب وحدة الجنس علاوة على وحدة التاريخ والحضارة ولـكنه ينفصل عن المغرب جغرافيا واقتصاديا لأن الأطالس تمتد إلى تونس فقط ولأن الصحراء تمتد من ليبيا إلى الشواطىء نفسها .

● لا يختلف وضع مصر عن وضع ليبيا بالنسبة للمغرب إلا قليلا إذا اعتبرنا أن الأقباط ينتمون إلى نفس الفصيلة اللغوية التى ينتمى إليها البربر وأن مصر كانت دائما معبرا بين الشرق والغرب وصله وصل حية بينهما .

● عن طريق مصر دخل إلى المغرب الفاتح العربى ثم تدفقت بعد خمسة قرون موجة العرب الهلاليين والسلميين الذين تواردوا إلى الصعيد المصرى من جزيرة العرب التى تصلها بالمغرب زيادة على هذه النفثة الجنسية التى كان لها أعمق الأثر فى التاريخ .

محمد المغربى[١] : الوحدة العربية حقيقة جغرافية

استغرب الباحثون الغربيون لهذا التمازج القوى الذى لا حظوه فى المغرب ولم يصدقوا أنه حصل فى مدة اثنى عشر قرنا ولذلك فقد اخترعوا قضية «الحضارة البونيقية» وطبلوا لها كثيرا . والواقع أن التناظر الـكلى والبربر من الوجهة الجسمانية لا يمكن أن يكون من آثار الحضارة الإسلامية أو البونيقية وإنما هو شىء أصيل .

(٩) مجلة دعوة الحق — العدد الثالث — ديسمبر ١٩٥٨ .

إن الأقليات التى تتعلم لغات أخرى فى البلاد العربية وتساكن العرب منذ القديم كالسريانيين فى سوريا والبربر فى المغرب، هذه الأقليات التى ثار حولها الكلام وهلل لها علماء المغرب ما هى إلا جماعات قد انطلقت كغيرها من اليمن ضمن هجرات قديمة ثم انعزلت فى الجبال وحافظت على لغتها الأولى .

إن الخطوط الوهمية المهتزة التى نجدها على الخرائط السياسية ليست سوى فواصل اتفاقية فرضت على العرب خدمة لمصالح دول أجنبية عنهم فمتى كانت أقطار المغرب العربى منقسمة على نفسها مثل هذا الانقسام إلا عندما ابتليت بالاحتلال التركى ثم بالاستعمار الفرنسى ومتى كانت سوريا منفصلة عن لبنان والأردن وفلسطين ومتى كانت اليمن بمعزل عن الجزيرة العربية إلا عندما خرجت مقدراتها من يدها . ولكن هناك حدوداً عربية أصيلة تحمى الوطن العربى من جميع جهاته ففى الشمال تنفصل عن تركيا وإيران بجبال طوروس وزغروس وفى الجنوب تنتشر مناطق الغابات والمستنقعات الموبوءة وفيما عدا ذلك توجد البحار هذا ويمتد الوطن العربى على أكثر من خمسة عشر مليونا من الكيلمترات المربعة . وهذا الامتداد الكبير هو عنصر من عناصر قوة العرب فى الماضى كما سيكون مجال انقلابهم الاقتصادى والاستراتيجى فى عالم الغد .

• قامت المواقع الجبلية التى فصلت العرب عن الأقوام الأخرى حائلا دون اختلاط العرب جنسيا بالأقوام الأوربية الهندية والتركية فى الشمال وبالأقوام السودانية الحبشية فى الجنوب . وإذا كان الأحباش قد اختلطوا قليلا باليمنيين والفرس بالعراقيين والأتراك بالسوريين والزنوج بالمغاربة فإن ذلك الاختلاط لم يكن جذريا كما رأينا .

ولكن الوطن العربى لا توجد فيه فواصل تمنع بعض أجزائه من الاتصال بالبعض الآخر . فلا جبال ضخمة ولا بحار فاصلة ولا صحارى يصعب اجتيازها

والسلاسل الحقيقية الموجودة فيه هى الأطلس ولبنان وعمان وهى كلها تعج بالممرات والمسالك والسكان، كما أن الصحراء لم تنفّر السكان بل كانت منبع حضارة العرب ومهد الإســـلام العتيد . وكانت القوافل والجيوش تجتازها فى عهد المرينيين والسعديين .

- لا يوجد فى العالم شعب بمثل هذه الضخامة ويتكلم لغة واحدة ذات أصل واحد ومشرب واحد .

- لقد كانت بلاد العرب جسراً مرت عليه مختلف الحضارات والتقت فيها وطبعت بسيمائها كما كانت مركزا تألقت فيه حضارات أصيلة فالفينيقيون فى لبنان وتونس والمغرب نقلوا الحضارة العربية إلى أوربا وأساطيل الحميريين والتبابعة وصلت إلى الشرق الأقصى ودقت الجيوش العربية أبواب سيبريا والصين . ولا بد من الاعتراف بأن الحضارة الحديثة تدين بمقوماتها وأصولها إلى العرب إذ أن مدارس سالرنو والأندلس وفاس وحملات الصليبيين والرحالة ، حملت جميعها نفحات الإبداع والعبقرية للعرب .

فموقع الوطن العربى فرض عليه أن يكون موجها وطابعا ، وعندما كان العرب يتوفرون على القوة والمنعة وكانوا يقيمون التوازن بين مختلف الحضارات ويكبحون من جماح الشعوب المتأخرة وعندما ضعف العرب نتج عن ذلك اصطراع الرومان والفرس وانطفاء الجذوة الأندلسية وهجوم القبائل المتوحشة الأسيوية .

إدريس الكنانى : المغرب بين الوطنية والقومية

كانت فكرة الوطن الضيقة من بين الأقطار التى حملها الاستعمار الربى معه إلى شعوب العالم العربى: مصر للمصريين العراق للعراقيين سوريا للسوريين .

استيقظ العرب بعد ذلك ليكتشفوا أنهم بهذه الوطنيات الأقليمية المستوردة

من المغرب إنما يمزقون وحدة وطنهم الكبير ليظل نهبا للاستعمار يجعل من دويلاته المصطنعة مناطق نفوذ .

استطاع الشعور القومى العربى أن يكتسح الوطنية الضيقة لأنه يقوم على حقيقتين :

١ — كل شعب عربى إنما هو جزء من الأمة العربية الكبرى .

٢ — كل بلاد عربية إنما هى جزء من الوطن العربى الكبير .

والواقع أن تكتيل الشعور الوطنى داخل إطار القومية العربية كان مرحلة طبيعية لتطور الفكر العربى الذى أخذ بدوره يصارع أمواجا من الأقطار الغربية بدأت تهاجم البلاد العربية من جديد لتحل محل الجيوش الاستعمارية المنسجمة .

إننا لم نتغن بأن المغرب للمغاربة ؛ لأن وعينا الوطنى وتطورنا السياسى جعلنا ندرك أن هذه الوطنية الضيقة فات أوانها ورغم أننا لم نستكمل بعد أسباب استقلالنا السياسى والاقتصادى فقد نادينا بوحدة أقطار المغرب العربى ونحن نسعى مخلصين لتحقيقها وهكذا الشعب المغربى لم يعرف الوطنية الضيقة .

وليس للوطنية فى إحساس المغربى إلا مدلول واحد هو مقاومة الاستعمار الأجنبى لا فى الوطن الصغير فقط بل فى أى جزء من أجزاء الوطن الكبير لذلك كانت كلمة وطنى ترادف كلمة مقاوم .

إدريس الكتانى : لغتنا المحتلة هل سنحررها

إن احتلال الف وثلاثمائة من الأعلام الفرنسية لشوارع مدينة مغربية يقضى بالموت على ألف وثلاثمائة من أعلام المغرب العربى ورغم ٧٠٠ ألف من السكان المغاربة على الخضوع للاحتلال اللغوى للمدينة بجانب الاحتلال العسكرى والاقتصادى وقد لا يكون فى ذلك أدنى غرابة إذا علمنا أن المرشال ليوطى لا يزال قائما على فرسه وسط هذه المدينة يحرس مخلفات احتلاله هذه بعين ساهرة بل لا يزال

تمثال الهزيمة المغربية منتصبا أمام تمثال ليوطى يصفع كرامة كل مغربى يمر بجانبه وينال من شرف الجندى المغربى تحت سمع الجيش المغربى وبصره .

وليس هذا الاحتلال اللغوى للمدن والأحياء المغربية إلا جانب من الحملة التى نظمها الاستعمار الفرنسى فى المغرب ظاهرا وباطنا وطمس معالم اللغة العربية وخنق أنفاسها فى وطنها فقد عانت هذه اللغة خلال الأربعين عاما من عهد الحماية ألوانا من الذل والهوان والضيق فطردت من المدارس والمحاكم والإدارات شر طرد وتنكرت لها الدولة المحتلة فى كل مكان تريد القضاء عليها بل لم تترك لها وللدين الإسلامى فى برامج المدارس الرسمية إلا حصة لا تتجاوز عشرين دقيقة فى اليوم ، بينما أصبحت جميع العلوم تلقى باللغة الفرنسية .

• لغة يتكلمها ثمانون مليونا من سكان القارتين الأسيوية والأفريقية ويضطر لدراستها ثلاثمائة مليون من المسلمين غير العرب .

محمد على الكتانى[1] : تاريخنا متى نكتبه

شهد المغرب قديما وحديثا أحداثا تاريخية عظيمة الفن والفائدة بالنسبة للتطور الحضارى وحق له أن يشهد هذه الأحداث وهو الذى جعلته الطبيعة معبرا بين الشرق والغرب وقريبا من التيارات المختلفة التى تصطخب أمواجها وتتلاطم فى عنف وقوة . فلا بدع أن يكون مجال الدراسات فيه واسع المدى .

• أين هو تاريخنا هذا الذى يكتسى هذه الأهمية ويطوى بين ضلوعه هذا الدفقات من الحيوية والنشاط . هل آن الأوان لأن نعلن أن تاريخنا يكاد يكون مجهولا وأن كتابته على النهج العصرى حلم لم يتحقق إلى الآن . وأن شبيبتنا تقاسى مرائر فى هذا السبيل . فإذا توجهت إلى مصدر هذا التاريخ لم تجد أمامها

(١) المغرب : مجلة صوت الحق ـ يناير ١٩٥٨

إلا « الاستقصا » وأن القائمين بتدريس هذه المادة فى حيرة من أمرهم فلا يدرون أى طريق يسلكون .

• كان الكتاب وأصحاب الاختصاص — وما أقلهم — يتملصون قديما بحجة الاستعمار الذى كان يكبل العقول ويلجم الأفكار ويحجز الكلام . ويضع على الأيدى والألسنة قيوداً . ثم زالت الأستار وتحطم السدفانفتحت كل الأبواب .

وكانوا يتملصون بحجة أن المصادر معدومة أو كالمعدومة .. وأن خزائن الكتب قد ضرب عليها بسياج من حديد . وأن الوصول إلى سفر من هذه الأسفار يعد ضربا من المستحيل .

وقد جرت أبحاث متعددة عن صمود اللغة العربية فى المغرب بعد العدوان الفرنسى عليها خلال أربعين عاما ، وقد طالبت هذه الأبحاث « بتعريب » اللغة العربية وقال بعض الكتاب « أنه بعد إعلان استقلال المغرب ظن الفرنسيون القيمون به أن لغة المغرب المستقل ستكون هى العربية وأنه لا مناص لهم من تعلمها فأخذوا يحاولون ذلك بشتى الوسائل ولكنهم عادوا فانصرفوا عن ذلك بعد أن وجدوا أن سلطان اللغة الفرنسية لا يزال قائما .. »

ولقد عمق أثر القومية العربية فى الأدب العربى حتى أنه فى معركة بور سعيد اشترك عشرات من شعراء الأمة العربية أذكر منهم : سليمان العيسى — سوريا وعبد الرحمن باح الكيالى — الأردن ومحمد مهدى الجواهرى — العراق وسليمان دحابره — الأردن ومعين بسيسو — فلسطين وحسين رشيد خريس — الأردن ونزار قبانى — سوريا ومحمد حسن عواد — الحجاز وابراهيم أمين فودة — المملكة السعودية وأنور المطار — سوريا وإدريس محمد — السودان وطاهر الزمخشرى — المملكة السعودية وفضل الله الأنصارى — سوريا .

جمال عبد الناصر يخطط للوحدة الكبرى

ولعل أصدق صورة لهذا الطور من الفكر العربى : طور الوحدة الكبرى

هو ما كتبه جمال عبد الناصر نفسه وهذا نموذج منه :

« إن التاريخ الماضى يعطينا هذه الصورة ومن التاريخ الماضى نعرف أن سبب الهزيمة كان دائما هو التفكك والانقسام والأحقاد .

وأن المستعمر كان يعمل دائما على أن نتفكك وعلى أن ننتكس . ومن الواضح من تاريخ الأمة العربية أن المنطقة التى نعيش فيها حينما اتحدت وتضامنت استطاعت أن تهزم أعتى الجيوش . حينما توحدت الأمة العربية بالإسلام وأصبحت هذه الأمة دولة واحدة ، استطاعت أن تهزم الروم واستطاعت أن تقيم دولة عربية موحدة وحينما حاول الروم أن يعودوا مرة أخرى استطاعت هذه الأمة أن تنتصر لأنها كانت متحدة وبعد ٣٠٠ سنة من توحيد الأمة العربية حينما أراد الروم أن يغزوا البلاد العربية مرة أخرى ، قامت حلب وقلاع حلب فى الاقليم السورى لتصد موجة الاندفاع وتكسر هذا الغزو على قلاع حلب . قامت حلب فى ذلك الوقت برسالة كبرى لأنها كانت الطليعة للدفاع عن وحدة العالم العربى وكانت حينما تكافح وتقاتل تحمى كل ما وراءها ؛ لم تكن تحمى نفسها ولكنها كانت تحمى منطقة بأسرها ولم تكن تمثل فكرة محلية أو فكرة أقليمية . ولكنها كانت تمثل فكرة أكبر من حدودها وفكرة أوسع من قلاعها : كانت تحمى فكرة القومية العربية .

كانت الوحدة هى الدرع الذى تكسرت عليها موجات الغزاة وكان التفكك والانقسام هما الوسيلة التى نفذ بها المستعمر إلينا لكى يخضعنا . حينما كانت الدول العربية متحدة لم تستطع الحملات الصليبية بأى حال من الاحوال أن تخضعها .

وكانت هذه الحملات الصليبية فى الأصل استعماراً تحت اسم الحملات الصليبية، كانت الحملات الصليبية فى الأصل استعمارا يهدف إلى السيطرة ويهدف إلى التحكم وقد فطن إلى هذا العرب الذين كانت تظلهم فكرة القومية العربية فقام المسلمون والمسيحيون فى جميع أرجاء الامة العربية يحاربون ويقاتلون وهم بهذا كانوا

يدافعون عن فكرة واحدة . فكره معروفة : هى فكرة القومية العربية .

انتهز الاستعمار الأوربى فى ذلك الوقت التفكك الذى كان بين الأمم العربية واستطاع تحت اسم الحملات الصليبية التى لم تكن تمنى إلا الاستعمار أن ينفذ إلى داخل الوطن العربى . ورغم ضعف الأمة العربية وتفككها وانقسامها فى ذلك الوقت. فإن العرب فى جميع البلاد العربية هبوا ليدافعوا عن قوميتهم وليدافعوا عن أراضيهم ولم ينخدع المسيحيون العرب باسم الحملات الصليبية لأنهم كانوا يؤمنون بالقومية العربية وكانوا يؤمنون بأرضهم وسمائهم .

● حينما ظهر الخطر للأمة العربية المفككة اتحدت الأمم العربية واتحد أمراء الأمه العربية ليواجهوا الخطر ويواجهوا الاستعمار الغربى الذى غزا أرضهم تحت اسم الصليبيين وكان النصر فى هذه المعارك التى قام بها ملوك أوربا وفرنسا وبقية بلاد أوربا ، كان النصر حليف القومية العربية واستمرت الحرب طوال ٨٠ سنة . استمرت الحرب ثمانين سنة للقضاء على القومية العربية غزو مستمر وحملات مستمرة وحملات بقيادة ملك فرنسا وحملات بقيادة ملك بريطانيا حملات تنادى بأنها تغزو البلاد العربية باسم الدين ولكنها لم تكن تستهدف إلا الاستعمار ولم تكن تستهدف إلا السيطرة ، واستطاع الصليبيون فى أول الأمر أن يحتلوا فلسطين ويستولوا عليها ويحتلوا بيت المقدس وأن يفرقوا بين الأمم العربية فى مصر والأمم العربية فى الشرق العربى وبعد أن استتب لهم الأمر فى فلسطين ومكنوا لأنفسهم فيها أرادوا أن يتقدموا نحو مصر .

وتقدم الصليبيون من فلسطين لغزو مصر واستطاعو أن يصلوا إلى الشرقية وبلبيس ويصلوا إلى أبواب القاهرة . وكانت الجيوش المصرية فى ذلك الوقت تحارب وحدها وكان لابد من أمر لإنقاذ الأمة العربية والوطن العربى من الغزو الاستعمارى الذى قامت به بريطانيا وفرنسا تحت اسم الصليبية .

كان لابد أن تتحد الأمة العربية مرة أخرى لتنتصر وكان التضامن والاتحاد بين سوريا ومصرهما السبيل الوحيد للقضاء على هذه الحملات الصليبية وهماالسبيل الوحيد لإنقاذ القومية العربية .

فأرسل السلطان نورالدين محمود — السلطان السورى فى هذا الوقت — جيوشه إلى مصر لتعاونها فى صد الغزاة الصليبيين واستطاعت جيوش مصر وسوريا . التى اتحدت أن تهزم الصليبيين وأن تردهم إلى حدود فلسطين . لما كنا متفرقين كانت الجيوش الصغيرة تستطيع أن تسيطر علينا ولما كنا متحدين كنا نهزم جيوش بريطانيا وجيوش فرنسا من سنة ١١٨٠ إلى سنة ١٩٥٧ من قبل هذا التاريخ بخمسين سنة.ما من مرة اتحدت سوريا ومصر إلا ثبتت دعائم القومية العربية . وبعد تلك الحمله الصليبية . وبعد عشرين سنة من طرد الصليبيين من القاهرة هاجم الصليبيون . هاجموا سوريا . كانت القوات الصليبية أو القوات الاستعمارية الأوربية التى كانت تتخذ إسم الصليبية محتلة فلسطين وقد هاجمت مصر أولا فاتحدت سوريا ومصر . وحضرت الجيوش السورية إلى مصر وطردت الغزاة ، وبعد هذا هاجموا سوريا فاتحدت سوريا ومصر مرة أخرى تحت قيادة صلاح الدين . خرجت الجيوش المصرية لنجدة الشعب العربى فى سورية وانتصر صلاح الدين على الصليبيين فى معركة حطين ولم يكن هذا نجدة لسوريا وحدها . ولكن الجيوش المصرية السورية استطاعت أن تحرر فلسطين . وتحرر القدس وتخرج الصليبيين من فلسطين .

هذا تاريخنا الطويل من ٨٠٠ سنة عندما كانت دولة منا تتعرض للغزو كانت تسقط إذا بقيت وحدها . وعندما كانت دولةمنا تتعرض للغزو وتتضامن مع بقية

الدول العربية ، كان العرب يستطيعون أن يهزموا أعتى الجيوش كما حدث فى هزيمة الصليبيين .

وفى الوقت الذى كانت فيه الحروب الصليبية قائمة، هاجمت هذه المنطقة من العالم جيوش من أواسط آسيا، هى جيوش التتار الذين وصلوا إلى بغداد. وسقطت بغداد فى أيدى التتار واستولى هولاكو على بغداد وأنهى حكم العباسيين ثم دخلت جيوش التتار سوريا لتستمر فى الفتح والغزو . وكانت سوريا فى هذا الوقت تحارب معركة الحرية وتحارب معركة القومية العربية . وكانت جيوش التتار التى قامت من أواسط آسيا مشبعة بالنصر . انتصرت فى كل المعارك التى خاضتها ، وأخضعت جميع الشعوب التى أغارت عليها حتى وصلت إلى بغداد وأخضعتها وحتى عبرت الفرات إلى سوريا فقامت سوريا لتحارب وتصد التتار وفى نفس الوقت هبت مصر وهبت جيوش مصر لتحارب مع سوريا .

كانت هذه المعركة ضد المعتدين الذين لم ينهزموا فى معركة منذ قيامهم للغزو وهكذا استطاعت جيوش سوريا ومصر أن تهزم التتار فى معركة عين جالوت فى سنة ١٢٦٠ .

وفى كل مرة اتحدت سوريا مع مصر هزمنا أعتى الجيوش ، هزمنا الجيوش الصليبية التى كانت تمثل الاستعمار الاوربى وهزمنا جيوش التتار التى انتصرت فى جميع معاركها وكانت أول معركة هزمت فيها هى معركة عين جالوت ولم يقتصر الأمر على هزيمة التتار ولكن انسحبوا من الأراضى العربية حتى عبروا الفرات وتبعتهم الجيوش المصرية والسورية حتى عبروا خلفهم الفرات وهذا معنى الوحدة .

• ثم نسى العرب الذين تحالفوا مع انجلترا وفرنسا لأجل تخليص هذه المنطقة من الحكم العثمانى ، أن انجلترا وفرنسا نفسهما هما اللتان هاجمتا هذه المنطقة تحت إسم الحروب الصليبية ولم تكن الحملة الصليبية سوى استعمار بريطانى فرنسى .

هل نسيت بريطانيا وهل نسيت فرنسا أنهما قبل محاربة العثمانيين الأتراك .. استولتا على هذه المنطقة من العالم من ٨٠٠ سنة وطردتا منها .

ولم تكن مصادفة أبداً حينما وصل الجنرال اللنبي قائد الجيوش البريطانية إلى القدس وقال : اليوم انتهت الحروب الصليبية . وما كانت مصادفة أبداً حينما وصل القائد الفرنسي إلى دمشق الجنرال غورو ووصل إلى قبر صلاح الدين وقال له : ها نحن قد عدنا ياصلاح الدين .

لابد أن نتذكر دائما أن هناك حربا مستمرة بين الدول الغربية وبين هذه المنطقة من سبعمائة سنة حاولوا خلالها أن يسيطروا علينا ولم يتمكنوا » ..

— ٤ —

معركة اللغة العربية(١)

كان القضاء على « اللغة العربية » هو الهدف الأول للاستعمار . فقد كانت غايته الأساسيه فى أن يسحقها ويمزقها ويقضى عليها بلغاته الفرنسية والانكليزية من ناحية بأشاعة اللهجات المحلية فى أنحاء العالم العربى وتغليب النزعات والمذاهب القديمة . من ناحية أخرى وكان يؤمن بأنه لو إستطاع القضاء على اللغة العربية لاستطاع أن يؤكد احتلاله وسلطانه واستعماره . وقد كشفت هذه المؤامرة منذ أول لحظة وبذلك عن اللغة العربية وتعبئة المشاعر لمقاومة الهدف الاستعمارى الآثم . كتاب العرب بدات معركة الدفاع وقادة نهضتهم الفكرية ؛ يقول « إسعاف النشاشيبى » .

« اللغة هى الأمة . والأمة هى اللغة . وضعف الأولى ضعف للثانية وهلاك الثانية هلاك الأولى . واللغة ميراث أورثه الأباء الأبناء وأحزم الوراث صائن ما ورث وأسفههم فى الدنيا مضيع . وأن لغتنا هى العربية وهى الإرث الذى ورثناه وإنا لحقيقيون -- والآباء هم الآباء — واللغة هى اللغة بأن تبقى عروبة الجنس وعربية اللغة » ويقول أحمد حسن الزيات « اذكروا أن الروح التى تنفحونها هى روح عمرو . وأن اللسان الذى تبشرون به من مصر هو لسان مصر وأن القيثار الذى توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار امرىء القيس وإن أثار العرب المعنوية لا تزال تعمر الصدور وتملأ السطور » . وقدرسم الاستعمار خطة داخلية لمقاومة اللغة العربية جند لها كثيرا من الكتاب كان فى مقدمتهم سلامة موسى الذى أعلن فى الهلال (١٩٢٦) وما بعدها « إن اللغة الفصحى تبعثر وطنيتنا المصرية وتجعلها شائعة فى القومية العربية فالتعمق فى اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بروح بغداد بدلا من أن يشرب الروح المصرية ويدرس تاريخ مصر » وقال : « إن التأنف من اللغة الفصيحة ليس

(١) يعد المؤلف كتابا كاملا فى هذا الموضوع . ويلفت النظر الى أن هذا الموضوع قد تناولناه فى كل قطر على حدة .

حديثا إذ يرجع إلى ما قبل ثلاثين سنة (يقصد عام ١٨٩٦) حين نعى قاسم أمين على اللغة الفصحى لصعوبتها . فقد اقترح أن يلغى الإعراب فتسكن أواخر الكلمات كما يفعل الأتراك وقام على أثره منشىء الوطنية الحديثة أحمد لطفى السيد فأشار باستعمال العامية ولكن هؤلاء العامة الذين انتصر للغتهم كانوا من سوء القدر لأنفسهم بحيث تألبوا عليه وجازوه جزاء لا يأتى إلا من العامة الذين لا يدرون مصالحهم. وفى العام الماضى حدثت فى سوريا مثل هذه الحركة فألف فاضل رسالتين دعا فيهما إلى اصطناع العامية السورية بدلا من اللغة الفصحى . واستند فى دعوته إلى أن اللغة العامية أوفى تعبيراً وأدق معنى وأحلى ألفاظا من اللغة الفصحى . وأنها لذلك يجب إيثارها على الفصحى وقد هبت الصحف السورية والفلسطينية حتى العراق تقبح رأيه وتنسبه إلى ضعف الحمية الوطنية مع أن المنطق أحرى أن ينسبه إلى قوة هذه الحمية التى غلبته حتى أخرجته من (شيوعية !) القومية العربية حتى حصرته فى حدود الوطنية السورية » وفى هذا الطريق اتجه كثيرون من عملاء التغريب والتجزئة فقد ألف أحد قضاة محكمة الاستئناف من الإنجليز — القاضى ولمور — (١٩٠٢) كتابا سماه « لغة القاهرة » وضع لها فيه قواعد واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية وقد أشاد المقتطف بالكتاب . وقد روج المقتطف للغة العامية عام ١٨٨١ . كما دعا إنجليزى آخر كان مهندسا للرى فى مصر هو (وليم ولكوكس) ١٩٢٦ إلى هجر اللغة العربية وخطا بها خطوة عملية فترجم الإنجيل إلى ما سماه اللغة المصرية ونوه سلامة موسى بالسير ولكوكس وأيده فثارت ثائرة الناس. وكان ذلك جريا فى الاتجاه الذى زاده قوة عمل الكماليين من حيث استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية وترجمة القرآن إلى لغة الأتراك . وقد كان لهذا أثره فى قصة زينب التى كتب الدكتور هيكل حوارها باللغة العامية. كما كتب عيسى اسكندر المعلوف عدداً من المقالات معلنا فيها

عداءه الصريح للعربية وكان أول هذه المقالات عام ١٩٠٢ فى الهلال كما نشر الهلال عدداً من المقالات عن اللهجة العربية العامية ١٩٣٤ وقدم عبد العزيز فهمى عضو المجمع اللغوى إلى المجمع اقتراحا بكتابة العربية بالحروف اللاتينية ١٩٤٣ وقد أثار هذا الاقتراح ضجة كبرى شغلت المفكرين ثلاثة أعوام .

وقد هاجم تقرير عبد العزيز فهمى عن الحروف اللاتينية كثير من أدباء القومية العربية أمثال المغربى ومحمد كرد على ويوسف العش ودكتور أسعد أطلس . وقد أجمع هؤلاء الأدباء على أن ترك الحروف العربية والاستعاضة عنها بالحروف اللاتينية سيقضى على ثقافة وآثار قيمة خلفها لنا الأدباء القدامى .

٢ — حارب الاستعمار الفرنسى اللغة العربية فى شمال أفريقيا حربا عنيفة وضيق عليها ووضع مستشرقوه مختلف الكتب فى دراسة اللهجات البربرية وقواعدها لإحلالها محل اللغة العربية الفصحى وعمل الاستعمار فى كل من السودان والجزائر ومراكش وليبيا ومصر على تغليب اللهجات المحلية حتى يتفرق العرب ولا يفهم قطر لهجة القطر الآخر وبذلك ينفرط عقد القومية العربية .وقد وقع فى يد الدكتور حسين الهراوى[1] تقرير فرنسى ينص على أن أول واجب هو التقليل من أهمية اللغة العربية وصرف الناس عنها بإحياء اللغات المحلية فى شمال أفريقيا واللغات العامية حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم .كما قد حاول الفرنسيون اصطناع بعض المفكرين الذين يدعون إلى التغريب والتقارب مع فرنسا وجعل اللغة الفرنسية أداة الفكر العربى وترجمة القرآن إلى الفرنسية وهاجم ماسنيون ما سماه مثالب حروف الهجاء العربية وقواعد النحو .

ولكن المستشرقين الاوربية بالرغم من رغبتهم فى تغريب الوطن العربى اضطروا إلى الاعتراف بقوة اللغه العربيين وعجزوا عن أن يقاوموا تيارها الضخم الجارف أو

---

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ج ٢ .

يقفوا فى وجهه . اعترف (جب) شيخ هؤلاء المستشرقين بأن من أبرز مظاهر الوحدة هى الحروف العربية التى تستعمل فى سائر العالم الإسلامى واللغة العربية التى هى لغة الثقافة الوحيدة والاشتراك فى كثير من الاصطلاحات العربية الاصلية

وقد كافحت الاقطار العربية هذه المؤامرة الضخمه . كافحتها جمعية العلماء فى الجزائر بقيادة عبد الحميد بن باديس والبشير الابراهيمى فأقاموا المدارس العربية ونهضت اللغة العربية وأمكن إعادة تعليم اللغة العربية الفصحى. وأصبح للحركة كثير من الانصار فى تونس واستطاعت أن تقاوم استعمال اللهجات العامية التى دعا اليه المستشرقون الاوربيون .

وقال (وليم ورل) ان اللغة العربية لم تتقهقر قط فيما مضى أمام أى لغة أخرى من اللغات التى احتكت بها وينتظر أن تحافظ على كيانها فى المستقبل كما حافظت عليه فى الماضى . وللغة العربية لين ومرونة يمكنانها من التكيف وفقاً لمقتضيات هذا العصر ؛ إن اللغة التركية فى خلال ٢٥٠ سنة لم تستطع القضاء على العربية أو إضعاف مكانها[١].

وقد اعترف (ريتشارد كوتهيل) بعظمة اللغة العربية ؛ فقال : كان للغة العربية ماض مجيد وفى مذهبى أنه سيكون لها مستقبل باهر. ولارباب العلم فى مصر وسوريا فضل فى ابقاء نورها ساطعا . وان شعبا له آداب غنية منوعة كالآداب العربية ولغة مرنة لينة ذات مادة تكاد لاتفنى لايخون ماضيه ولا ينبذ ارثا اتصل إليه بعد قرون طويلة من آبائه وأجداده ... وقال كوتهيل « انه لايعقل أن اللغة الفرنسية أو الانجليزية تحل محل اللغة العربية .

وقال أن التباين الجزئى الذى يبدو بين اللهجات العربية لابد أن يزول وعليه فسيكون لدينا منطقة عربية تتكلم لغة واحدة شاملة » .

(١) عبارات كوتهيل ووليم ورل فى استفتاء الهلال مجلد ١٩٢٣.

٣ – وقد دخل المعركة عدد من كتاب العرب يقاومون تيار تمزيق اللغة العربية إلى لهجات ؛ يقول أنيس الخورى (١٩٢٢ – الهلال) هناك قوة تستطيع أن تضم هذه الأقطار وتؤلف بينها فى وحدة قومية . هى اللغة العربية وآدابها وما إلى ذلك من تاريخها وتاريخ رجالها • هى الأداة الوحيدة التى يمكن أن تجمع شتات العناصر فى كل قطر عربى وتجعل منها أمة حية نامية .

وقال حافظ ابراهيم على لسان اللغة العربيه :

وسعتُ كتاب الله لفظا وغاية   وما ضقت عن آى به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن   فهل سالوا الغواص عن صدفاتى

أرى لرجال الغرب عزا ومنعة   وكم عز أقوام بعز لغات

سقى الله فى بطن الجزيره أعظما   يعز عليها ان تلين قناتى

حفظن ودادى فى البلى وحفظته   لهن بقلب دائم الحسرات

وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق   حياء بتلك الأعظم النخرات

ويتحدث محمد كرد على عن اللغة كقوة من قوى القومية العربية :

« إن اللغة والجنس عاملان فى الوطنية . ويقول مور أن رابطة اللغة أشد من رابطة الجنس لأن لون اللغة وصفتها تساعدان كثيرا على تمييز لون أفكار من ينطقون بها وما انطووا عليه من الصفات ويتألف من اللغة المشتركة أدب مشترك بالأقطار المظيمة : ويقول محمد العشماوى : ان اللغة الفصحى هى أداة الاتصال بين الأمم فلقد طوفت فى الشام والعراق وغيرهما فما كان ييسر لى تقارب الفهم والافصاح عن مكنونات النفس إلا حين اخترت الفصحى أسلوبا لحديثى .

فاذا تدسست اللهجات افسدت مابيني وبين محدثي من تعارف وأسلمتنا إلى التناكر البغيض . ومهمتنا أن نحرص على الفصحى وان ندانى بين الأساليب فى شتى الأقطار . ويقول مصطفى صادق الرافعى : تمتاز اللغة العربية على اللغات كافة بارتباطها إلى الأصلين العظيمين الخالدين : القرآن والحديث . أن سواد الذين يتكلمون بهذه اللغة هم من أبعد الشعوب اغراقا فى تاريخ المدنية وذهابا فى عصورها وتغلغلا فى طبقات الميراث الإنسانى . أن فى العربية نفسها نوعا من الاستهواء بما فيها من جمال التركيب وروعة اللفظ وحسن الأداء .

ويقول الرافعى[1] : ان اللغة هى صورة وجود الأمة بأقطارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجوداً متميزا قائماً بخصائصه . فهى قومية الفكر تتحد فيها الأمة فى صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة . والدقة فى تركيب اللغة دليل على دقة الملكات فى أهلها وعمقها هو عمق الروح ودليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير والبحث فى الأسباب والعلل وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية وطماحها . فان روح الاستعباد ضيق لا يتسع ودأبه لزوم الكلمة والكلمات القليلة . واللغة هى الهدف الأول للمستعمرين . فلن يتحول الشعب أول مايتحول إلا من لغته . إذ يكون منشأ التحول من افكاره وعواطفه وآماله . وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه ورجعت قوميته صورة محفوظة فى التاريخ لا صورة محققة فى وجوده فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر ولقد صور (جرجى زيدان) فى الهلال ١٩١٢ الأثر الذى تركته حركة التغريب فى عالمنا العربى ووقف من هذا الاتجاه موقفا واضحا صريحا قال :

---

(١) فى مقاله اللغة والدين والتقاليد — الجزء الثالث من وحى العلم

« نرى بعض كتابنا ينظرون إلى آدابنا العربية بعين الاحتقار ولا يتعبون أنفسهم فى تفهمها . ولو فعلوا ذلك لوجدوا فيها كنوزاً ثمينة فى كثير من المواضيع التى يحتاجون إلى نقلها من اللغات الأفرنجية وقد يجدون فى تلك الكتب حقائق هامة غير مايستفيدونه عن طريق التعبير والألفاظ الوضعية فيستعينون بذلك على تقويم أسلوبهم عند نقل ذلك العلم عن المصادر الأفرنجية .

ومن غريب مارأيناه من هذا القبيل أن بعضهم يعتمدون على هذه المصادر ولو كان مايكتبونه متعلقاً بعلوم العرب أنفسهم أوتاريخهم ولعلهم يفعلون ذلك لثقتهم بتدقيق الافرنج فى مايكتبونه لكن ذلك جر بعضهم إلى ارتكاب خطأ شوه ما كتبوه فقد قرانا كتابا حديثا فى تاريخ الإسلام فرأينا فيه رسائل كتبها بعض القواد المسلمين إلى خلفائهم فى صدر الإسلام هى فى أصلها العربى مثال البلاغة وحسن البيان فترجمها مؤلف ذلك الكتاب عن الافرنجية فجاءت أعجمية اللهجة عارية من البلاغة العربية مع امكان نقلها بعبارتها الاصلية لفظا ومعنى .

وبديهى أن من يتبادل العلم عن امة تعلم لفظها وآدابها يشب على حبها فيتوخى تقليدها والاقتداء برجالها . فأصبح كتابنا من أجل ذلك فئتين : فئة تقلد الفرنسا وبين وفئة تقلد الانجليز . وقل من يجمع بين الاثنين فاختلفت أذواقنا باختلاف مابينهما من المبادىء والاخلاق حتى ظهر أثر ذلك فى كل مانكتبه لفظا ومعنى، فقل ان تقرأ مؤلفا ألفه كاتب من أهل هذا العصر فى علم حديث الاقرأت فى خلال سطوره مبادىء إحدى الأمتين ولا يقتصر تقليدنا كتاب الافرنج على فحوى ما يكتبونه ولكنه قد يتناول طرق التعبير فترى اللهجة الافرنجية ظاهرة على عبارات بعضنا مهما كانت ألفاظها عريقة فى العروبة لان لكل أمة نسقا فى التعبير خاصاً بها فعلى من يعمر إلى التأليف أن يحافظ على ملكة اللسان العربى ويتجنب التعبيرات الافرنجيه ولا يتم له ذلك إلا بمطالعة الكتب العربيه الخاليه

من شوائب العجمة، ويقول جبر ضومط (الهلال — اكتوبر ١٩٢١) إن العالم العربى قد استيقظ وشرع ينظر فى أمر لغته وآدابه وسائر أركان حضارته . ونحن المتكلمين بالعربية لانستطيع شيئاً لأننا متفرقون مشتتون لاصلة بيننا ولا جامعة إلا جامعة اللغـــة العربيه . ونحن على تفرقنا الجغرافى والسياسى الحاضر أصبحنا ولاقدرة لنا ولا قوة فينا . ولولا بقية أمل لنا فى مصر لكنت أقول قضى علينا بالبقاء إلى أزمنة على ما كنا عليه وإذا لم نتدارك الأمر وأهملنا لغتنا أيضاً فلم ننقل اليها علوم القوم وثمرات عقولهم واختبـاراتهم الواسعة زاد تأخرنا وازدادت دائرة البعد بيننا وبينهم اتساعا يقضى على كل آمالنا فى المستقبل .

ويقول أحمد رمزى[1] إن أعظم مظاهر الشخصية للأمم هى اللغة : ولغتنا العربية هى من أعظم لغات الأرض بل هى أقوى اللغات السامية التى شقت بحيوية أهلها طريقها فى التاريخ وتمثلت فيها عبقرية الأمة العربية وتفوق التفكير السامى وقدرته على الخلود ومواجهة احداث الزمن ونكباته . ولها ميزة انفردت بها عن سائر اللغات السامية وهى أن غيرها فنى وانقرض وبقيت لغتنا خلال القرون وهى حافظة على قوة التعبير والقدرة على التطور والإبداع .

ويقول جميل صدقى الزهاوى : أن العروبة قائمة باللغة فما من عروة إلا أمكن انفصامها سوى هذه فان عروقها ممتدة إلى تلافيف الأدمغة ومتفرعة إلى مخادع الأرواح . واللغة هى التى حفظت إلى اليوم بيضـــة العرب وعصمتهم من الاندماج فى الشعوب التى ملكتهم عصوراً ، وهى التى جعلت أبناءها يتساءلون عن بعضهم ويتراسلون فيما بينهم . وإنى لاأزال مؤملا تضامن الاقطار العربية مادامت لغتهم حية يتكلمون بهـا ويتكاتبون ويبثون بواسطتها أفكارهم واحساساتهم أما إذا ماتت اللغة فلا تضامن ولا وحدة ولا عروبة ولا حياة .

(١) الرسالة (مارس سنة ١٩٤٧)

٤ — ويؤكد الكتاب والمؤرخون أن اللغة العربية وجدت حمايتها فى ظل مدرستين : مدرسة القاهرة ومدرسة بيروت . أى فى مدرستى الأزهر وبطرس البستانى وقد صور هذا أحمد حسن الزيات : « سارت المدرستان على جانبى الركب الحثيث فى طريق النهضة : مدرسة مصر يمينه تتأنى وتتزن . ومدرسة لبنان يساره تتسرع وتخف . وكان الزمام أول الامر عندنا وعندهم فى أيدى المحافظين كحمزه وحفنى والمهدى والاسكندرى وشاويش ووالى هنا وكالبستانين وبطرس وسليم وسلمان . واليازجين خليل ونصيف وإبراهيم هناك فكان التقليد غالباً . والتطور بطيئا . والفروق بين المدرستين قريبة . فلما أسرع الركب واتصل القديم بالحديث وامتزج الشرق بالغرب انشقت من مدرسة دار العلوم المحافظة مدرسة أخرى تتميز بالإيجاز والطبيعة والسهولة والحرية والمنطق هى مدرسة لطفى السيد ومن رجالها قاسم أمين وفتحى زغلول وعبد القادر حمزه كما انشقت من المدرسه اليازجيه المحافظه مدرسه اخرى تتميز بالشاعرية والطرافه والانطلاق والتمرد هى مدرسه جبران ومن أتباعها ميخائيل نعيمه وأمين الريحانى ومارى زيادة .

وظلت المدرستان الشقيقتان المصرية واللبنانية تنتجان الأدب فى ضروبه المختلفة بأسلوبين مستقين أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر على ما كان بينهما من تفاوت فى الطاقة والمادة والصنعة والتعبير والتحرر وبقيت المدرسة الأزهرية الأم عاكفة على النظر المجرد والجدل المقيم بين أروقة الأزهر والزيتونة والأموى والنجف تنتج الخام ولا تصنع وتشحذ السلاح ولا تقطع فلم يكن لها فى ذلك العهد الغابر أدب غير أدب الشواهد ولا أسلوب غير أسلوب الحواشى .

وكان اللبنانيون لبعدهم عن بيئة القرآن وتأثرهم بأسلوب الانجيل وكثرة اختلاطهم بالفرنسيين والأمريكيين وشدة احتياجهم فى الترجمة والصحافة إلى تطويع اللغة وتوسيعها لتعبر عن المعانى الحديثة كانوا أشبه بالكوفيين فى تقديمهم

القياس لتعبر عن المعانى الحديثة ، وقبولهم الكلمات المولدة والنصرانية واقتباسهم بعض الأساليب الأوربية . وتساهلهم فى بعض القواعد النحوية والتراكيب البلاغية ، ولذلك رماهم الدرعميون بضعف اللكنة وسقم الأداء وقصور الآلة ولكن الحق أن المدرسة اللبنانية كانت عملية تقدمية حرة ، واكبت الزمن فى السير وطلبت العلم للعمل وسخرت الأدب للحياة وقد طوقت العربية منها أيادى مشكورة بما أمدتها به من مصطلحات الفنون الجميلة وأسماء المخترعات الحديثة عن طريق الترجمة والتأليف والتمثيل والصحافة والتجارة . ثم كان فى جانبها الزمن وفى مؤازرتها الطبيعة .

وقد مرت المدرسة في أطوار ثلاثة : طور التقليد والمحاكاة . فطور التحرر والاعتدال ثم طور التحرر والانطلاق . كان فى مصر متثاقلا متداخلا وكان فى لبنان متسرعا لا يتأنى مصمما لا ينخزل . فبينما نجد (مراشا الحلبى) فى مجمع البحرين» مقلد ابن حبيب الحلبى فى نسيم الصبا وناصيف اليازجى فى مجمع البحرين يقلد الحريرى فى المقامات وإبراهيم اليازجى فى لغة الجرائد ينهج نهج الحريرى فى درة الغواص . إذ نجد آل البستانى وآل الحداد وزيدان ومطران والخورى والجميل وملاط يتوخون السهوله والابتكار والطرافة ، والجبرانيين والمهجريين يجنحون إلى الأصالة والإبداع والتطرف . » ا . ﻫ

٥ — وقد شغل كثيرون بالحديث عن تجديد اللغة ودعمها فكتب الخورى مارون غصن فى الهلال (مارس ١٩٢٨) عن النحت فى اللغة العربية كوسيلة جديدة لتوسيع اللغة وتحدث غيره عن « أن ما أصاب[1] اللغة من آفه الفساد . إنما هو توفر الألفاظ الأجنبية والأساليب الغربية وربما وضع الصحافيون والمعربون

---

(١) الأديب لويس شيخو اليسوعى — (آداب اللغة العربية الجزء ٣) .

فى نقلهم من اللغات الأوروبية مفردات مختلفة لمسمى واحد . وأسوأ من ذلك أغلاط وسقطات لغوية شاعت فى الجرائد والتـآليف المستحدثة فقام بعض الأدباء كالمرحوم إبراهيم اليازجى ينتصرون لآداب اللغة ويزيفون مارأوه مخالفـــا لأوضاعها ولعلهم لم يلزموا فى انتقادهم الطريقة الوسطى والخطة المثلى » .

كما دعا البعض إلى دمج اللهجات العربية وقال إن فى اللغة العربية كلها حوالى ١٥٠ كلمة هى التى تحول دون فهم أهالى البلاد العربية بعضهم بعضا وهى ليست كلمات عربية بالطبع وإنما هى كلمات عامية أو لهجات مغربية وشامية وعراقية وقد أحصى أحد العلماء ٦٠ كلمة لبنانية سورية هى الحائل بين فهم المغاربة للهجات الشوام وكذلك فى لغة المغاربة حوالى ٦٠ كلمة فلو أن كتابا وضع فى بيان هذه الـكلمات وشرحها لأمكن تضييق شقة الخلاف اللغوى . ولقد كانت اللغة العربية خلال حياتها الطويلة مؤدية دورها فى قوة فقد استطاعت إلى جانب الابانة أن تحيط بالرمز وأن تغطى أصحاب الآراء الحرة وراء أسلوبها الرمزى فى الأوقات التى كان يحال بين الأحرار وبين إعلان آرائهم فى عهود الطغيان أو هيئات الاستبداد وقد صور البشير الابراهيمى ما قام به عن طريق الرمز فى اللغة العربية مما كان بعيد الأثر فى كفاح الفرنسيين فى الجزائر .

— ٢ —

كانت معركة اللغة العربية — التى ما تزال قائمة حتى اليوم — تحمل لواءها بعض الصحف الداعية إلى الـكتابة بالعامية — تهدف إلى ثلاثة أغراض : (١) تغليب اللغة العامية . (٢) القضاء على اللغة العربية . (٣) خلق حروف لاتينية تـكتب بها اللغة العربية .

وكان الهدف من المعركة كلها تصفية أضخم عنصر للوحدة بين أبناء الأمة

العربية فقد قضى الاستعمار على الوحدة السياسية والاجتماعية وظل خلال أكثر من أربعين عاما يعمـــل على خلق القوميات الضيقة وبعث النزعات القديمة كالفرعونية والبابلية والآشورية والبربرية ، وهو يظن أنه سيصل من ذلك إلى تقطيع أوصال الأمة . وكانت اللغة العربية هى الهدف الأخير الذى سيحقق عملية التمزيق والتجزئة . ولـكن قوة الاستعمار ممثلة فى قوانينه وأنصاره وكتابه عجزت عن أن تقضى على اللغة العربية ولقيت المؤامرة مواجهة ضخمة خطيرة تظهر واضحة فى هذه الوثائق التى يحتويها هذا الفصل .

وقد كان سلامة موسى وعبد العزيز فهمى من أكبر أنصار الدعوة للقضاء على اللغة العربية الفصحى . أخذ سلامة موسى كلمات ولـكوكس ومضى يرددها سنوات طويلة وهذا نموذج من كتاباته :

« اقترح « ولـكوكس[1] » أن يلغى الاعراب فتسكن أواخر الـكلمات كما يفعل الأتراك . وقام على أثره أحمد لطفى السيد فأشار باستعمال العامية أى لغة العامة . ولست أحمل على اللغة الفصحى إلا لسببين : أولهما صعوبة تعلمها وثانيهما عجزها عن تأدية أغراضنا الأدبية والعلمية . أما من حيث الصعوبة فإنه يكفى أن تقول أننا نتعلمها كما نتعلم لغة أجنبية .

ثم هى أيضاً لا تؤدى أغراضنا . وقد كانوا يعلمون العلوم فى مدارسنا إلى عهد قريب بالفرنسية أو الانـكليزية . ولـكن الأغراض العلمية يسهل أداؤها بأى لغة بل يمكن أداؤها بالرموز أحيانا . ولـكن نـكبتنا الحقيقية هى أن اللغة العربية لا تخدم الأدب المصرى لا تنهضه . ومما يمكن أن يحمل على اللغة الفصحى أنها تبعثر وطنيتنا المصرية وتجعلها شائعة فى القومية العربية . فالمتعمق فى اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بأبطال بغداد بدلا من أن يشرب

---

(١) الهلال — يولية ١٩٢٦ .

الروح المصرية ، ويدرس تاريخ مصر . فنظره متجه أبداً نحو الشرق وثقافته عربية شرقية . وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزح شبابها نحو الشرق .

ولا أرى أن نهضتنا تقوم باتبـــاع آراء قاسم أمين ولطفى السيد والسير ولـكوكس باتخاذ اللغة المصرية العامية ، أو بإيجاد ما يشبه التسوية بينها وبين اللغة الفصحى بحيث تتمصر اللغة فتصطبغ بألوان بلادنا وتتأقلم فى حقولنـا ومدننا . والسير ولـكوكس لا يقول بهذه التسوية ، وإنما يدعونا إلى هجرة اللغة الفصحى هجرة تامة واصطناع العامية . وقد خطب منذ أشهر خطبة عن هذه اللغة وارتأى فيها ؛ أن هذه اللغة التى نتـكلمها فى مصر ليس لها علاقة بالعربية الفصحى فـكل منها لغة متميزة عن الأخرى » .

ولا شك أن عبارات سلامة موسى هذه التى عاش يرددها سنوات طويلة مليئة بالمغالطة ، وواضح فيها الهوى ، وقد تأثر بها مع الأسف بعض الـكتاب الذين هم على هوى سلامه موسى فى كراهيته للأمة العربية وعمالته للاستعمار وممن تأثر بهـذا الاتجاه فترة من الوقت محمود تيمور قدم خلالها بحثا لمؤتمر المستشرقين ١٩٣١ عن النزاع بين الفصحى والعامية . ولـكنه بعد أن كتب بعض مسرحيات بالعامية رجع عن هذا الرأى وأصبح من غلاة الدعاة للغة العربية الفصحى . وكان رأى عبد العزيز فهمى أخطر أثراً من آراء سلامة موسى ومحمود تيمور لأنه تقدم به إلى المجمع اللغوى سنة ١٩٤٤ باعتباره عضواً فيه ودعا فيه إلى الـكتابة بالحروف اللاتينية وواجهه كثيرون بالمعارضة كما ذكرنا من قبل .

ولعل مستشرقا[1] مثل (كارلو . ا . نلينو) كان أكثر إنصافا من عبد العزيز فهمى وسلامه موسى إذ أعلن فى إبان هذه المعركة معارضته للحروف اللاتينية وعدم صلاحيتها للـكتابة العربية فقال :

(١) أول مارس سنة ١٩٣٦ .

« قامت الحكومة الكمالية منذ سنوات بانقلاب خطير إذا اختارت الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية فى الكتابة التركية . وهذا مالا أرى له مبرراً فى نظرى على الإطلاق فى اللغة العربية . وما يقال من كتابة العربية بالحروف اللاتينية فهذا مالا أراه ولا أقول به . فإن الحروف العربية ضرورة لازمة لا يمكن العدول عنها . والحقيقة أن الخط العربى حفظ للآن وحدة اللغة العربية ، وإذا كان النطق يختلف من قطر لقطر . والحروف اللاتينية مبنية على أساس أن صوت الحرف واحد غير متبدل . أما فى العربية فهناك أصوات لكل حرف لاسيما فيما يختص بالحركات ، وإذا تغير الخط العربى بالخط اللاتينى أصبحت النتيجة خطيرة للغاية . فكيف يكون مصير الكنوز العظيمة التى خلفتها الآداب الإسلامية فى الدين والفقه والفلسفة والعلوم والآداب والفنون وغيرها وكلها مدونة بالخط العربى » ومن المنصفين أيضاً الدكتور يوليوس جرمانوس المستشرق المجرى الذى تناول هذا الموضوع فقال : « إن اللغة العربية مقاما ممتازاً بين جميع لغات العالم فإن تاريخها متصل غير متقطع منذ ألف وأربعمائة سنة . وهذه المزية التى تمتاز بها العربية متأصلة فى روح اللغة ، متغلغلة فى مبناها فاليونانية واللاتينية والتوتونية القديمة والسنسكريتية مثلا قد تشعبت فنشأت عنها لغات أخرى بفضل مرونتها وسهولة تكييفها . أما اللغة العربية فقد ثبتت على عاديات الزمن واحتفظت بكيانها كأنها أثر من آثار القدم . وفى الواقع أن « بناءها » هو أثر فنى يقوم على قواعد دقيقة تحدد الشكل الخارجى والصيغة الظاهرة ، ولكن روح اللغة متجدد أبداً . فهى بهذا الاعتبار تمتاز على سائر اللغات وتفوقها لأن تلك اللغات لم تستطع أن تساير نشوء التقدم الفكرى » .

وقد صور كثير من مفكرينا عجزنا عن مجاراة الأجانب فان كل أجنبى يستطيع أن يتكلم بلغته فى بلادنا بينما لا نستطيع ذلك نحن فى بلادهم ونحن

تترجم إلى لغاتنا أمهات الكتب العلميه بينما لا تترجم إلى اللغات الأوربية أمهات كتبنا ولقد بلغ الأمر أننا في رقعتنا الإسلامية لا نستطيع أن نتفاهم بلغة واحدة ولذلك نجدنا مضطرين دائماً إلى أن يتكلم لغة وسطى يتكلمها الباكستانيون أو الأندونيسيون وقد كان من الممكن أن تؤدى اللغة العربية هذه الرسالة لولا أن الاستعمار كان يحول إلى وقت قريب دون أن يتكلم العالم الإسلامى لغة واحدة .

وفى مقال لساطع الحصرى صور فيه مؤامرات[1] الاستعمار على التعليم فى العالم العربى للقضاء على اللغة العربية يقول :

فى (ليبيا) كان الاستعمار الإيطالى من أفظع أنواع الاستعمار لأنه كان مقرونا بسياسة الاستيطان . وكان يرمى إلى جعل البلاد موطناً لجماعات كبيرة من الطليان وكان التعليم باللغة الإيطالية بوجه عام .

وفى « تونس » كانت سياسة فرنسا ترمى إلى فرنسة السكان بكل الوسائل الممكنة وكانت المدارس من الوسائط التى تساعد على تحقيق هذه الغاية ، ولذلك جعلت فرنسا اللغة الفرنسية لغة التعليم فى جميع المدارس الفرنسية العربية . وفى بداية القرن كانت المدارس التونسية لا تزال تسير بأجمعها على المناهج المقررة للمدارس القائمة فى فرنسا نفسها ، وكانت اللغة العربية لغة اختيارية يتعلمها من يرغب من الطلاب خارج أوقات الدروس المقررة . ولم توافق السلطات الفرنسية على إدخال اللغة العربية فى عداد المواد الاجبارية التى تلقى خلال الساعات المخصصة للدراسة إلا فى أواخر العقد الرابع من القرن الحاضر .

وفى « الجزائر » سارت فرنسا على سياسة الفرنسة والتمثيل إلى أقصى حدودها وجعلت اللغة الفرنسية الواسطة الوحيدة للتعليم ، أما اللغه العربية فقد حصرتها

(١) مجلة الكتاب يناير ١٩٥١ .

فى حدود المدارس العربية وحدها . وأخذت تبذل جهودا كبيرة لتحويل اللغة البربرية إلى لغة أدب وتعلمها فى مختلف المناطق البربرية بغية تقليص ظل اللغة العربية . وكان هناك تلميذ واحد مقابل ١٠٢ من السكان .

وفى «مراكش» طبقت فرنسا نفس سياستها فى الجزائر وتونس أما مصر فقد تعرضت لسياسة دنلوب المعروفة بالقضاء على اللغة العربية وتغلبت اللغة الانجليزية على الفرنسية . أما فى سورية والشام فقد كانت لغة التعليم فى مطلع القرن فى جميع المدارس هى اللغة التركية . أما اللغة العربية فلم يكن يعلم فيها سوى القواعد التى تستعمل فى اللغة التركية والتى لابد من معرفتها فى تفهم الأدب العثمانى وكانت هذه القواعد تعلم فى الولايات العربية بقدر ماتعلم فى سائر الولايات التركية ... »

— ٣ —

كان لابد أن يكون لهذه الاتجاهات الاستعمارية التى تهدف إلى القضاء على اللغة العربية رد فعل فى أوساط العلماء وأهل الفكر . وأن تقوم حركة هادفة لاصلاح اللغة العربية على نحو يجعلها أكثر مرونة وأصلح لاستقبال ألفاظ الحضارة والعلم كما دعا البعض إلى رفع مستوى العامية وإصلاحها كميخائيل نعيمة والمازنى .

وهذه عصارة هذه الآراء تكون فى مجموعها صورة صادقة حية لهذه الحركة الرامية إلى إصلاح اللغة العربية .

١ — يقول الدكتور أحمد عيسى فى مقال بعنوان كيف تخدم اللغة العربية (أغسطس ١٩٣٤ الهلال) :

تمتاز اللغة العربية عن سائر اللغات على وجه العموم بثباتها على الدهر لاتتغير ولا يختل لها ميزان أو يعوج لها عود . فهى من وقت أن عرفت فى الوجود هى هى فى أى زمان ومكان مهما تنوعت ألفاظها التى يكثر ابتذالها على الألسنة فى كل

صقع من أوطانها . وهى المعبر عنها باللغة العامية أو الدارجة . فانها فى أصولها ومنبتها عربية . أما مايقال عن وقوف اللغة العربية وتأخرها فليس بصحيح . وانما الذى وقف والذى تأخرهم أهلوها . هم العرب . هم المستعربون . فقد اضمحلوا فى العلم وانحطوا فى الفهم . فوقفت لذلك لغتهم أوجد العلم أولا تتبعك اللغة ، فلما تقاعسوا لم يجدوا أمامهم لغة واتهموها بالتقصير . ولكنهم هم الذين قصروا فلم تواتهم اللغة بتقصيرهم وهى مازالت مجهزة تنتظر منهم الإشارة فتلبيهم على الفور طائعة مختارة تختال فى ثوبها القشيب . وأن أمامهم لاستيحائها سبيلين للعودة بها إلى مكان عزتها : الأول إصلاح اللغة العامية أو تصحيحها . والثانى اختيار لغة العلم بالتدقيق فى مطابقة اللفظ للمعنى المقصود . أما اصلاح اللغة العامية أو الدارجة فلا يعدو تصحيحها أى الرجوع باللفظ العالى إلى أصله الذى انحرف عنه وتباعد فاغترب منه حتى لايكاد يشبهه أو يتصل به بصلة .

٣ — وقال عبد العزيز البشرى فى مقال بعنوان كفاح اللغة العربية : فى سبيل الحياة والنهوض (الهلال) :

الحق أن اللغة العربية إذا كانت فى هذا العصر الذى نعيش فيه قد ازدهرت وأشرقت وأصبحت تواتى فى يسر حاجة الآداب فانها مابرحت تثقلها مطالب العلوم بل لا غرابة إذا زعمت أنها ما برحت تحس العجز الشديد فلقد ازدحمت مصطلحات العلوم فى هذه الأربعين سنة الأخيرة على وجه خاص ، إزدحاما هائلا مردعا بما أخرجت القرائح فيها من فنون المخترعات والمستحدثات فى مختلف وسائل الحياة . وأن احساس أبناء العربية بهذا العجز هو الذى كان يبعث أعيان أصحاب العلم والبيان فى مصر الفترة بعد الفترة على الدعوة إلى تأليف المجامع اللغوية كملاج للغتنا ومدها بالوسائل المختلفة حتى تواتى حاجات العلوم والفنون . ولم يقدر لشىء منها النجاح لأنها كانت تعوزها بعض وسائل الحياة ومن أهمها المال والسلطان .

٣ — يقول الدكتور محمد خليل عبد الخالق فى مقال عنوانه اللغة العلمية عند العرب (الهلال فبراير ١٩٣٤) :

لاشك عندى فى أن العرب قد تمكنوا من إيجاد لغة علمية لها جميع المميزات الضرورية على نحو ماعرف فى اللغات الحية الحاضرة ، وعلى نحو ما صنعه الأغريق الذين تبلورت كلمات وتعبيرات وإصطلاحات من صلب لغتهم فصارت صالحة للأغراض العلمية والكتابة فى فروع المعرفة العالية . وهنا أشير إلى فكرة جالت بخاطرى منذ سنوات وصارحت بها فريقا من علمائنا المشتغلين بالتنقيب عن تراث العرب الفكرى وأحياء معارفهم . وهى : أن أبناء العرب ينفذون إلى روح ما كتبه أسلافهم . وأن المستشرقين مهما تضلعوا فى علوم العربية فان دراساتهم وبحوثهم لابد من أن يكملها باحثون من أبناء العرب ذلك بأن لكل لغة فقهها ولكل لغة أسرارها وليس يتغلغل إلى صميم اللغة ويستشف أسرارها غير أبنائها المتمكنين منها .

٤ — ويقول الخورى مارون غصن (بيروت) فى مقال عنوانه فقر اللغة العربية : أسبابه وعلاجه : مامن كاتب عصرى عانى صناعة الانشاء باللغة العربية أو الترجمة بها ولم يشعر بعجز هذه اللغة فى التعبير عن آلاف المخترعات الحديثة والأمور الخيالية والتصورات التى استحدثها الزمان . إن اللغة العربية كانت فى عصورها الماضية أغنى لغات الأرض مادة وأعظمها اتساعا فى طرق التعبير ولكن تلك الثروة وذلك الاتساع قد أمسيا بسبب الاهمال وسوء الاستعمال ضيقا وفقرا . ويرجع ذلك إلى أن انقطاع عهد العلم فى العرب حال دون تقدم اللغة وأدى إلى إصابتها بالفقر والعجز . إستخدم العرب طريقه النحت فصاغوا ألفاظا . وقد أغلق هذا الباب فى وجه اللغة من قرون . أن أغناء اللغة ممكن بل متيسر على شرط أن يظهر أبناؤها من الأقدام والجرأة مايليق بأصلهم النبيل وبمآثر النهضة الأخيرة وبحرية القرن العشرين .

٥ — يقول أحمد حسن الزيات فى مقال له بالرسالة بعنوان الاحتلال اللغوى [1] :
تريد اللغة العربية مطاردة الاحتلال اللغوى من الشركات والبنوك الاعلانات مكتوبة باللغة الأجنبية . فاذا حرصت على أن تتفاهم بالعربية تضاءلت فى رأى مخاطبك فينظر إليك بشطر عينه . وتغشى قصراً من قصور الأمراء أو داراً من دور الكبراء فتسمع النادين يتطارحون الحديث باللغة الفرنسية أو التركية فاذا شاركتهم فيه بلغتك وقروا أذانهم عن سماعك لانك نقلت الحديث إلى لغة السوقة . تريد اللغة العربية أن تكون لسان العلم فى المدارس الأجنبية . وأن تأخذ مكانها الشرعى فى المحاكم المختلطة . تريد العربية أن تطهر من شوائب التركية فى الدواوين والقوانين والمدارس والجيش .

٦ — قال ميخائيل نعيمة : بعنوان اللغة العربية : لست من القائلين بتبسيط اللغة الفصحى إلى حد أن تصبح ضربا من العامية المنمقه ولكنى أقول : ياليت الفصحى تأخذ بعض القواعد من العامية . أنه من الخطل الفادح والجهل المطبق أن تنكر على العامية عبقرية تستمدها من حيوية الشعوب الناطقة بها كتلك التى استمدتها الفصحى فى ما مضى من حيوية القبائل الناطقة بها ونحن لو لخصنا عبقرية اللغة العامية بتجرد مطلق لوجدناها أقرب مايكون من عبقرية اللغة الانجليزية .

٧ — وقال فيليب حتى : كانت لغتهم واسطة لنشر المعارف والعلوم والفنون فى الفلسفة والطب والأدب والتاريخيات والكيمياء على صورة لاتماثلها غيرها من اللغات بما فيها اللاتينية فمن أواسط القرن الثامن عشر إلى بداية القرن الثالث عشر لم تكن لغة أسيوية أو أفريقية أو أوبية تماثل اللغة العربية فى غنى آدابها والعلوم المدونة بها .

---

(١) الرسالة — ٧ ديسمبر ١٩٣٦ .

وقال طه حسين رداً على سؤال من الهلال (يناير ١٩٣٤) : ليست اللغة العربية وحدها فى حاجة إلى الاصلاح بل أن كل لغة حية فى حاجة إلى الإصلاح من حيث استعمال لألفاظ فيما تدل عليه من المعانى سواء أكان ذلك فى الحديث أم فى الانشاء نثراً أو شعراً وهذا النوع من الإصلاح يتصل بمرونة اللغة وقدرتها على ان تؤدى المعانى التى تجول بنفوس المتكلمين مهما دقت .

وقال منصور فهمى : رداً على نفس السؤال : أرى أن اللغة العربية لايعوزها سبب من الأسباب التى ترفع بها إلى كمال اللغات فهى تقبل التصريف فى الألفاظ والنحت منها والاشتقاق . وقد وجدت فيها عبارات تصور أدق المعانى وهى ككل لغة من اللغات التى تتأثر برقى متكلميها تخضع لقاموس التقدم العام . فلابد أن المعانى والمكتشفات الجديدة قد تحتم على اللغة العربية ألفاظاً وأساليب غير ماعرف منها وما ألف عنها .

وقال : عبد الوهاب عزام فى رده على عبد العزيز فهمى « أن للحروف العربية لمزايا عظيمة فهى أيسر كتابة . لا تملى على صبى كلمة فيخطىء كتابتها إلا الكلمات المهموزة . قال لى مستشرق المانى كبير قد اتقن اللغات العربية والفارسية والتركية وخذق كثيرا من لغات أوربا : ما أشكل على قط قراءة رسالة عربية وقد أشكل على وعلى غيرى مرات كثيرة قراءة . رسائل الـمانية هذا إلى ملاءمة الكتابة العربية للعين » .

وكتب ابراهيم عبد القادر المازنى : فى مقال بالرسالة ٢٤ اكتوبر ١٩٣٨ عن العامية والفصحى يقول : الخص موقفى من اللغة العامية ورأيى فيها فأقول أنها فرع من هذه الشجرة العظيمة التى نمت على الأيام وأصابها الركود الشديد عصوراً غير

قصيرة وأعنى بها اللغة العربية ولكنها — أى اللغة العامية — بحالها الراهنة لاتصلح أن تكون أداة لأكثر من التخاطب فى الشئون العامية فلايجوز اتخاذها أداة للكتابة . وما يطلب بها من الأغراض . وهى فضلا عن قصورها تختلف باختلاف الأقطار بل الأقاليم المتقاربة فلهذا لاتصلح أن تكون لغة عامة . ومن السخافة أن تتخذ لغة غير وافية لايفهمها إلا عدد محدود وأن نهجر لغة عامة يفهمها كل أحد فى كل بلد ومن السخافة أن نقتل لغتنا العربيــــة التى خلف لنا أصحابها هذه الكنوز فى الأدب والعلوم والفلسفة والتاريخ وغير ذلك من أجل لغة لاماضى لها ولا حاضر أيضا لأنها ثابتة وتحولها دائم مع ارتقاء التعليم وانتشاره. ولا مستقبل لها إلا الاندماج فى اللغة العربية الفصحى بفضل تقدم التعليم وانتشاره كذلك .

وكتب مصطفى صادق الرافعى فى ١٣ ابريل ١٩٣٦ مقالا بالرسالة بعنوان اللغة العربية : اللغة هى صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجوداً متميزاً قائما بخصائصه . فهى قومية الفكر . تتحد بها الأمة فى صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة والدقة فى تركيب اللغة دليل على دقة الملكات فى أهلها . وعمقها هو عمق الروح ودليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير والبحث فى الأسباب والعلل . لاجرم كانت لغة الأمة هى الهدف الأول للمستعمرين فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا عن لغته . إذ يكون منشأ التحول فى أفكاره وعواطفه وآماله . وهو إذا انقطع عن نسب لغته انقطع عن نسب ماضيه ورجعت قوميته صورة محفوظة فى التاريخ لاصورة محققة فى وجوده . وما ذلت لغة شعب إلا ذل . ولا انحطت إلا كان أمره فى ذهاب وإدبار ومن هذا يفرض الأجنبى المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة ويركبهم بها ويشعرهم عظمته فيها ويستلحقهم من

ناحيتها . فيحكم عليهم أحكاما ثلاثة فى عمل واحد : أما الأول فحبس لغتهم فى لغته سجنا مؤبدا . أما الثانى فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا ونسيانا . أما الثالث فتقييد مستقبلهم فى الأغلال التى يصنعها فأمرهم من بعدها لأمره تبع . والذين يتعلقون اللغات الأجنبية ينزعون إلى أهلها بطبيعة هذا التعلق أن لم تكن عصبيتهم للغتهم قوية مستحكمة من قبيل الدين أو القومية فتراهم إذا وهنت فيهم هذه العصبية يخجلون من قوميتهم . ويتبرأون من سلفهم وينسلخون من تاريخهم وتقوم بأنفسهم الكراهة للغتهم وآداب لغتهم ولقومهم وأشياء قومهم .

وأعجب من هذا فى أمرهم أن أشياء الأجنبى لا تحمل معانيها الساحرة فى نفوسهم إلا إذا بقيت حاملة أسماءها الأجنبية . فان سمى الأجنبى بلغتهم القومية نقص معناه عندهم . وما ذاك إلا صغر نفوسهم وذلها ».

— ٥ —

الصحافة العربية

فى معركة المقاومة والتجمع

قامت الصحافة العربية بدور ضخم فى معركة المقاومة والتجمع وكان لها أبعد الأثر فى حمل رسالة الفكر العربى والقوامة على النهضة وتعميق الوعى العربى وتأريث المشاعر ودعم اليقظة العربية ثم تضخم دورها بعد بزوغ فجر الانتفاضة العربية الناصرية فأصبحت تحمل رسالة الوحدة الكبرى .

ولقد لقيت الصحافة العربية عنتا من السلطات الاستعمارية وقوى الاحتلال والاستبداد التى فرضت عليها كثيراً من القوانين والعقوبات واضطرت الصحف أن تلين تارةوأن ترمزتارةأخرى وأن تصطنع أساليب الإيماء ومع ذلك فقداستطاعت أن تنفذ إلى أهدافها . وإن كان المستعمر قد استطاع أن يخدع بعض الصحف أو يشترى بعض الكتاب فان هذا الخداع لم ينطل على الشعب العربى ، وكان أنصار الاحتلال مكشوفى الأوراق ، يحذرهم الناس ولا ينخدعون لهم . وقداختلفت أساليب المستعمرين فى كل قطر عن القطر الآخر ولكنها كانت فى مجموعها تعرف خطر الصحافة وتخشاها وتعرف مدى الدور الذى تلعبه ، وقد كان هذا الدور ضخماً فقد حفظت الصحافة اللغة العربيـــة ، وقاومت دعوات التغريب والادماج والتجنيس فى الشمال الأفريقى ودعوات الفرعونية والبابلية والأشورية والقضاء على العروبة فى اليمين الأسيوى .

٢ — كان أبرز المصلحين والدعاة إلى المقاومة والتجمع هم من الصحفيين ، وكانت الصحف هى الطريق الأول الذى نقل أفكار هؤلاء الدعاة إلى الشعب . وكان جمال الدين الأفغانى هو أول من تنبه إلى خطر الصحافة فاستطاع أن

يكسب إلى صفه بعض الذين استطاعوا أن يحملوا هذه الرسالة كان فى مقدمتهم يعقوب صنوع وأديب اسحق بل أن جمال قد أصدر مع محمد عبده فى باريس جريدة العروة الوثقى التى كانت بالغة الأثر فى العالم العربى والإسلامى كله .

وإذا أردنا أن نعدد وجوه النهضة فى العالم العربى وجدنا أن الصحيفة كانت أبعد أثراً من الكتاب والخطابة فى هذا الصدد فعبد الحميد «بن باديس» الذى أثار الاستعمار الفرنسى فى الجزائر كانت الصحافة عماد دعوته بمجلتيه «الشهاب والبصائر»

و«الثعالبى» فى تونس كان يعمل فى الصحافة وكانت صحفه تغلق واحدة بعد أخرى ولكنه كان يواصل الكتابة فى الصحافة فى العالم العربى كله ، ولما ضاق بالاستعمار الفرنسى خرج إلى القاهرة ودمشق فكتب فى صحفها مقالات نارية كانت تترجم إلى الفرنسية وتعود لتنشر فى صحف تونس .

و«الكواكبى» فى دعوته الضخمة الصارخة ضد استبداد عبد الحميد كانت الصحافة وسيلة إلى نقلها إلى الأمة ، فقد أصدر صحفاً متعددة فى حلب ثم هاجر إلى القاهرة حيث أخذ يرسل شواظا من نار على الخليفة المستبد فى جريدة المؤيد .

وكذلك الزهراوى (دمشق) ومحمد عبده (القاهرة) ومحمد الخضر حسين وخيرالدين التونسى وعلى باش حامبه والبشير صفر (تونس) وبشير السعداوى (ليبيا) وشكيب أرسلان (جنيف) .

٣ — كانت الصحافة فى مصر أرحب الصحف فى العالم العربى وأفسحها مجالا لكل أقلام الكتاب فى العالم العربى ولكل قضايا العرب . وما من كاتب من أطراف العالم العربى الا وجد فى صحف مصر المجال لأن يقول رأيه وكلمته . وقد كان للشاميين الذين هاجروا إلى مصر أثر قوى عميق فى تجديد الصحافة ورفع مستواها . وكان لهم مثل هذا الأثر فى المهجر عندما أسسوا صحافة هناك نقلت

إلى العالم الجديد روح الشرق ولغة العرب .

٤ — حين أنشأ جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده صحيفة العروة[1] الوثقى فى باريس، كانت أول صحيفة عربية حملت رسالة المقاومة والتجمع على النحو الذى كان مفهوما فى ذلك الوقت ، كانت هذه الصحيفة لسان حال العروة الوثقى السياسية السرية. فأصدرت ثمانية عشر عدداً (جمادى الأول ١٣٠١ — ذى الحجة ١٣٠١ الموافق ١٨٨٤ م) وقد جملت أبرز أهدافها الدفاع عما يرمى به الشرقيون والعرب والمسلمون من التهم التى وجهها إليهم الغربيون مستهدفين بها تشكيكهم فى تراثهم وأمجادهم وأبطال هذه المزاعم والاتهامات . وتقوية الصلات بين الأمم وتمكين الألفة بين أفرادها . واشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح وإزالة ماحل بها من يأس . وقد دعت الصحيفة إلى أن تستبدل بحالاتهم الهابطة حالات صاعدة تتصل بما كان لهم من ماض مجيد وتاريخ تليد وحثهم على التجاوب الذى هو الأساس القوى لتقدم كل طائفة وكل بلد وكل أمة وكل جنس . ومما قالته الصحيفة عن مهمتها « سكب مياه النصح على لهيب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد . تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم » وقد ثار الانجليز على العروة الوثقى وأصدروا أوامرهم إلى جميع بلاد العرب المحتلة بأن تمنع دخول هذه الجريدة إليها . وقد صدر قرار مجلس وزراء مصر بمنع دخولها البلاد .

٥ — وفى أوربا بعد ٤٦ عاما صدرت مجلة عربية أخرى : هى مجلة « الأمة العربية » التى أصدرها فى جنيف الأمير شكيب أرسلان فدافع بها عن القومية العربية ورد على المستشرقين وصحح الوقائع وأذاع أمجاد العرب وأعلن موقفهم من كل قضية وهاجم الاستعمار والتعريب وكشف مؤامرات بريطانيا وفرنسا .

(١) اقرأ فصلا مطولا عن العروة الوثقى فى كتابنا « معالم الأدب العربى المعاصر » .

٦ – وكانت صحيفة الجوائب التى أصدرها فارس الشدياق ١٨٦٠ من أولى الصحف العربية التى صدرت فى الاستانة . وقد حمل فيها لواء الدعوة إلى التجديد فى الصياغة والألفاظ والتعبيرات والموضوعات فقد جدد الأسلوب ومال به عن طريق السجع والصناعة . وكتب بلغة سهلة وأسلوب واضح قوى . وجدد فى الصحافة وكانت مجلته مدرسة صحفية خرجت عدداً من الكتاب العرب .

٧ — ويندر أن تجد أديبا عربيا صاحب رسالة لم تكن له صحيفة : (سليم سركيس) مجلة سركيس ، (نقولا حداد) : مجلة السيدات والرجال ، (أنطون الجميل) : الزهور ، (محب الدين الخطيب) : الفتح ، (جرجى زيدان) : الهلال (صروف) : المقتطف ، (محمد كرد على) : المقتبس ، (انستاس الكرملى) : لغة العرب ، (عبد العزيز الثعالبى) : المنتظر والمبشر والرشاد ، (خليل بيدس) : مجلة النفائس العصر ، (يعقوب صنوع) : ابو نظارة ، (معروف الأرناؤوط) : العالم العربى ، (أديب اسحق) : ثمرات الفنون ، (بطرس البستانى) : الجنان (محمد على الحومانية) : بيروت (عبد الرحمن الكواكبى) : الشهباء (مصطفى كامل) اللواء ، (عبد الحميد الزهراوى) : المنبر (عبد الحميد بن باريس) : الشهاب (رشيد رضا) : المنار (محمد الصادق) : الرائد التونسى (لويس شجو اليسوعى) : المشرق (رزق الله حسون) : مرآة الأحوال (يوسف الشلفون) : لبنان ، نزهة الأفكار : (إبراهيم المويلحى) الأخبار : (أمين الرافعى) : الأهرام (أديب اسحق) : (نقلا) : لسان العرب الحداد نجيب : البيان (إبراهيم اليازجى) المجلة المصرية . (خليل مطران) : (لبيبهاشم) : مجلة فتاة الشرق :البصائر (البشير الإبراهيمى) سامى الكيالى (الحديث) البيان (عبد الرحمن البرقوق) .

وقد أدت هذه المجلات والصحف دوراً ضخماً فى حركة المقاومة والتجمع

٨ — وقد كان لهذه الصحف دورها القوى الواضح فى :

- كشف عسف الولاة والسلاطين والملوك وجال الدين .
- اظهار المعاهدات والمؤامرات المستورة كما حدث حين كشف محمد فريد مؤامرة مد امتياز قناة السويس .
- تحرير الفكر العربى والدعوة إلى تحرير المرأة وحماية اللغة العربية من خصومها
- تجميع الأمة العربية على الإيمان بفكرة الوحدة .
- كشف دسائس الاستعمار ومؤامراته وأحابيله فى فصل أجزاء الأمة العربية عن بعضها البعض .
- ترقية المستوى الثقافى للأمة وحمايتها من التعصب والجمود والرجعية.
- الإصلاح الإجماعى والاشتراكية العربية والنقد .

٩ — وقد كانت الصحافة العربية فى المهجر أحد العوامل الهامة فى بسط جناح الحركة العربية فى المهجر إذ حملت المهجرين على المغالاة بالوطن الأم والتحمس لكل مايصيبه من ظلم وقد بلغت صحف المهجر أكثر من خمسين صحيفة منها جرائد يومية كبرى .

ثم تقلصت هذه الصحف حتى أن الصحيفة العربية الوحيدة فى الأرجنتين (١٩٤٩) كانت توزع ٥٥٠٠ نسخة ثم هبط توزيعها (١٩٥٢) إلى ١٨٠٠ نسخة كما يقول جورج صيدح وكانت للادباء فى المهجر مجلات السائح والشرق والعصبة والسمر والهدى والبيان وكانت لسان القومية العربية حتى وصفت بأنه لاتوجد بين صحف المشرق مايشبهها حماسة وعروبة ودفاعا عن الوطن

أول صحف المهجر :	كوكب أمريكا	نيويورك ١٨٩١
أول مجلة عربية :	الجنان	بيروت للبستانى ١٨٧٠
أول مجلة نسائية :	الفتاه	هند نوفل الاسكندرية ١٨٩٢
أول صحيفة تونسية :	الرائد التونسى	محمد بيرم ١٨٦١
أول صحيفة فى بيروت :	حديقة الاخبار	١٨٥٨

وكانت أولى صحف المهجر هى (كوكب أمريكا) صدرت فى نيويورك ١٨٩١ . ولما تأسست الرابطة القلمية عام ١٩١٢ فى نيويورك ، أنشأها عن المسيح حداد صاحب جريدة السائح وجعل جريدته لسان حالها فكتب فيها جبران والريحانى ورشيد وأيوب وندره حداد . ثم صدرت مجلات الإصلاح والهدى ونهضة العرب ومجلة العصبة الأندلسية (١٩٣٣) فى البرازيل بعد تأسيس هذه العصبة عام ١٩٣٢ حيث نشر بها ميشال وشفيق المعلوف ورشيد سليم الخورى (الشاعر القروى) وصدرت مرآة الغرب (فريد غصين) والمواهب (يوسف الضارى) والشرق (موسى كريم) فى سان باولو . وصدرت مجلة الشرق فى البرازيل فكانت كبرى المجلات السورية اللبنانية فى أمريكا .

وقد تنسم المهاجرون فى هذه الصحف روح الحرية فأخذوا يشيدون بمعانى الحرية ويصورون مايرسف فيه المواطنون من ظلم ويحطمون اغلال الوطنيين فى معركتين كبيرتين معركة : العثمانيين ومعركة الفرنسيين .

واتسمت الصحافة المهجرية بالقدرة على حرية التمرد على الأوضاع الاجتماعية والسياسية الدينية القائمة فى بلادهم وهى ثورة تتجلى فى معظم الانتاج الأدبى للمهجر الأمريكى شعرا ونثراً . ويقول الدكتور فيليب حتى : أنه كان يجتمع فى وقت من الأوقات فى مدينة نيويورك وحدها لا أقل من عشرين شخصاً من الذين حكمت عليهم الحكومة بالإعدام فتمكنوا من الهرب خلاصا من الموت . وقد مرت هذه الصحف بدور الارتفاع ثم أخذت فى الهبوط بعد أن ظهر الجيل الجديد من أبناء المهجريين وهو الجيل الذى لايعرف العربية كثيرا ولا يقبل عليها وبفضل الصحف العربية التى صدرت فى الجمهوريات اللاتينية لم ينس المغتربون وطنهم الأصلى بتاتا بل أن ذكراه لازالت عالقة فى نفوسهم بفضل هذه الصحف .

ويقول إبراهيم الوائلي [1] : أصدر المهجريون مجلات الشرق والعصبة والسمير والهدى والبيان التى كانت بحق لسان القومية العربية الذرب . ولا أغالى إذا قلت أنى لم أجد بين صحفنا العربية هنا ما يشبهها حماسة وعروبة ودفاعا عن البلادالعربية وصحيفة « أبجد هوز » التى يصدرها (فاخر شاتيلا) هى أروع مثال للأدب الشعبي ففيها نقد لاذع وفكاهة ممتعة باللسان اللبنانى المحلى ... وكانت مجلتا الشرق والعصبة أسمى مثال للفن الصحفى العالى من حيث الطباعة والاتقان وإسمى مثال للأدب العربى فى عهده الحاضر .

لقد لقيت الصحافة فى مختلف أنحاء العالم العربى من العنت كثيرا فقد أصدر المستعمر القوانين المقيدة لها فى مصر والعراق وسورية وتونس ومراكش . اعتقل الكتاب الأحرار وحوكموا فى كل مكان . اعتقل الكواكبى والزهاوى والثعالبى وفى مصر اعتقل محمد فريد وعبد العزيز شاويش وهرب عدد كبير من بلادهم . هاجر الثعالبى من تونس وهاجر الكواكبى من حلب وهاجر البشير الإبراهيمى من الجزائر وهاجر كثير من كتاب الشام ولكنهم لم يتوقفوا عن العمل ، بل ظلوا يؤججون نيران الحقد على الاستعمار ويكشفون للناس جرائمه ومؤامراته ولجأ الكثير من الكتاب إلى المداورة والحيلة والرمز والإيماء كما تحدث بذلك البشير الإبراهيمى إلينا (اقرأ فصل الجزائر) والقارىء يستطيع أن يقرأ فى كل فصل من فصول البحث الذى تناولنا فيه الأقاليم العربية ـ قصة الصحافة ومكافحتها فى سبيل رسالتها وقد رأينا أن تظهر مع الألوان الأخرى حتى ترسم الصورة الكاملة للمقاومة والتجمع فى كل قطر .

١١ — وفى « الجزائر » كانت مجلة « الشهاب » بزعامة عبدالحميدبن باديس

---

(١) مجلة الرسالة (مقال) فبراير ١٩٤٨ .

بعيدة الأثر فى تحرير الفكر العربى . وكانت علما على الاتجاه القوى الذى يحمى اللغة العربية من العدوان الفرنسى الذى كان يهدف إلى القضاء عليها وقد قامت بدور هام فى تأريث الوعى الشعبى فى كل مراحله السياسية والاجتماعية والثقافية وبها ظهر أكبر الكتاب والشعراء والمصلحين الجزائريين أمثال الإبراهيمى والمدنى والعيد وجوجو وسحنون وغيرهم ممن حملوا القلم العربى ووقفوا فى وجه التيارات الاستعمارية وكل ما هو فرنسى من لغة وثقافة . وترسمت « الشهاب » خطا مجلتى العروة الوثقى والمنار ، وقد كان لهذه المجلة بمنهاجها العربى الثورى أثراً بعيدا فى كلا القطرين : تونس ومراكش وقد تطورت الصحافة العربية فى الجزائر تطوراً لم تعرفه بعض أجزاء الوطن العربى إلا حديثا .

٢ — وفى « تونس » كانت الصحافة عاملا هاما — فقد صدرت بها صحف متعددة فى مقدمتها جريدة (الرائد التونسى[١]) التى حرر بها الشيخ حمزة فتح الله الكاتب المصرى سنة ١٨٧٦ — وتعد جريدة الحاضرة (١٨٨٨) أول جريدة عربية غير رسمية فى تونس أصدرها « على بوشوشه » من خريجى الصادقية كما صدرت الزهرة (الشاذلى) والنهضة وصدرت الصحف اليومية الزمان ولسان الشعب والصواب والنديم . وصدر تقويم الزنامة التونسية (١٨٩٩ — ١٩٢١) والعصر الجديد فى صفاقس والقيروان فى القيروان وتونس الجديدة لزهير العياضى .

١٣ — وقد كان للصحافة فى ليبيا جهد ضخم بعيد المدى فى تحرير البلاد فقد أذكت الوعى الوطنى وأثارت الرأى العام ونبهت الأذهان إلى ما يحاك من

---

(١) صدرت الرائد التونسى ١٨٥٦ .

أغلال تربطها إلى دول الاستعمار وألهبت مشاعر الشعراء وأظهرت لنا طائفة من الشباب المتحمس كانت فيهم قدرة على التعبير .

١٤ — والصحافة العراقية كما يقول الصحفي المؤرخ « روفائيل بطي » لم يتح لها المجال لكي تقوم برسالتها على الوجه الصحيح ، كما أتيح ذلك مثلا للصحافة اللبنانية التي لعبت دوراً هاما في إصلاح اللغة العربية والنهوض بالبيان العربي إذ كانت مدرسة لتدريب الناشئين من الكتاب كما أنها اتخذت في تحريرها أسلوبا جديدا يتمشى مع روح العصر » ويرجع السر في ذلك إلى عدة عوامل نراها مصدر الأزمة الفكرية الماضية منها أن كثيرا ممن لا كفاية لهم أقبل على الاشتغال بالصحافة الأدبية والسياسية وأن الصحافة قامت على عاتق الأحزاب وأنه كان لمزاج السلطات الحكومية أثر كبير في هذه الأزمة . وميل العراقيين الغالب إلى السياسة . وأن الصحف اليومية كانت تطلع على الناس وكأنها مطبوعة في مطبعة واحدة ومحررة بقلم واحد .

وعندي أن الصحافة العراقية قد استطاعت في فترات غير قليلة أن تغذي الشعور الوطني وتنشر وقائع الثوار العراقيين وتنقل الخطب والكلمات الثورية مما اضطر الانجليز تحت ضغط المد الثوري أن يستجيبوا لبعض مطالب الشعب مما أدى إلى تأليف الحكومة العراقية ١٩٢١ .

وقد عاشت الصحافة العراقية طوال السنوات العشر من الحكم الوطني خاضعة لقانون المطبوعات العثماني الصادر سنة ١٩٠٩ وفي سنة ١٩٣١ أصدر نوري السعيد قانونا عراقيا للمطبوعات استمار أغلب مواده من القانون القديم ثم عدل القانون تحت ضغط المعارضة ١٩٣٢ ثم ألغي عام ١٩٣٣ وفي عهد حكومة رشيد

الكيلانى صدر قانون جديد وقد أعطت هذه القوانين الحق لمجلس الوزراء أو وزير الداخلية فى تعطيل الصحف أو إلغائها أو مصادرتها كما اعتبرت المطبعة أداة جريمة يمكن مصادرتها . ويسجل المؤرخون للصحافة العراقية دوراً كبيراً فى الحركة الوطنية والتوجيه الشعبى ، ووقفت مواقف مشرفة فى أحلك الأوقات وفى مقدمة ذلك (الأهالى) كبرى الصحف العراقية التى عطلت وقدمت للمحاكمة عدة مرات وربت جيلا من الشباب .

١٥ — وفى مصر كانت الصحافة العربية هى صحافة القوميه العربية جميعها وقد بدأت رسالتها فى معركة الحرية منذ عهد بعيد ، منذ أصدر عبد الله نديم صحفه فى معسكر العرابيين . ولعل أصدق مثل على إيمان الصحافة المصرية بدعوة القومية العربية ما كتبه عبد الله نديم فى مجلة الأستاذ (١٧ يناير ١٨٩٣) قوله : « أنا أخوك فلم أنكرتنى · ما الشام ومصر إلا توأمان أبوهما واحد ، يسوء الاثنين ما ساء أحدهما » . وقد نادى عبد الله نديم فى هذا الوقت البعيد بأن اللغة العربية هى أبرز مقومات القومية العربية . وهاجم المتفرنجين الذين « استهوتهم المدنية الغربية فأخرجتهم عن قوميتهم ، كما هاجم الجامدين من رجال الدين » .

والمؤيد الصادر فى (ديسمبر ١٨٨٩) دعا إلى الحرية فكان أول صوت ارتفع منذ الاحتلال مثيرا مسألة الجلاء ، وكان عبد الله نديم هو أستاذ مصطفى كامل فى دروس الوطنية والصحافة وقد كشف له كثيرا من أسرار الثورة العرابية ودسائس السياسة الانجليزية وقد جاهر مصطفى كامل فى أول حديث له فى جريدة الاهرام ٢٨ يناير ١٨٩٥) بطلب الجلاء ثم تابع نشر مقالاته فى الاهرام والمؤيد ثم أصدر اللواء أول يناير ١٩٠٠ وجهرت صحف مصر بالعداء لأسرة محمد على

---

(١) صدرت مجلة الأستاذ فى ٢٢ أغسطس ١٨٩٢ وحملت على الاستعمار حملات عنيفة .

منذ عهد باكر فقد كتب محمد عبده فى صحيفة المنار ١٩٠٢ مقالا هاجم فيه محمد على بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس الأسره العلويه .

وعلى الغاياتى شاعر الحزب الوطنى عرض بالخديو الذى يحارب الأحرار وكان ديوانه « وطنيتى » مصدراً لمحاكمات له ولمحمد فريد وعبد العزيز جاويش وهاجم المنفلوطى الخديو فى قصيدته المشهوره التى حوكم من أجلها .

قدوم ولكن لا أقول سعيد …

وهاجم أحمد حلمى الأسره العلوية فى جريدته القصر المصرى هجوما عرضه للسجن .

١٦ — وفى السودان قامت الصحافة بدور بعيد المدى وقد بدأت الصحافة السودانية باكره : عندما أصدر فارس نمر وخليل ثابت ١٩٠٣ جريده السودان (التى استمرت بضعة وعشرين عاما وتوقفت سنة ١٩٢٥ ، وفى ١٩١٩ أصدر السيد عبد الرحمن المهدى جريدة حضارة السودان ـ وسنة ١٩٢٢ أصدر حسن شريف رائد السودان وسنة ١٩٣٥ أصدر حسن صبحى «النيل» ثم صدرت صحف أسبوعية ويومية متعددة منها صوت السودان (الختمية) ١٩٤٠ والأشقاء والأمة والسودانى والصراحة والمستقبل والشعب والتلغراف والأسبوع ومن أبرز كتاب السودان وصحفييه : أحمد يوسف هاشم ومحمد أمين حسين وأحمد مختار ومحمد أحمد عمر وإسماعيل العتبانى ومحمود الفضلى ومحمد الملسانى ومحمود عثمان وأحمد السيد أحمد والفاتح نور ، وعلى محمد باوى ، وصالح عرابى ، وعلى حامد ، وأمين القوم .

١٧ — أما اللبنانيون فقد كان لهم أثر ضخم فى الصحافة العربية فقد أنشأوا فى مصر الهلال والمقتطف والاهرام وهى الصحف التى مازالت بعيدة الاثر

فى تكوين أسس الثقافة العربية وحماية اللغة العربية والتى حملت إلى العالم العربى ذخائر أقلام الكتاب خلال سبعين عاما أو يزيد ولا شك أن أبرز الصحفيين فى الأمة العربية كانوا من لبنان وبلاد الشام على وجه اعم وقد أحصى الكونت فيليب دى طرازى [1] فى المدة من (١٨٥٠ ـ ١٨٦٩) : فارس الشدياق وبطرس البستانى وجميل المدور واليازجى الكبير وناصيف اليازجى ورزق الله حسون وميخائيل مدور ويوسف الشلفون وابرهيم سركيس وفى المدة من (١٨٧٠ — ١٨٩٢) سليم البستانى وابراهيم اليازجى ونقولا نقاش وخليل سركيس وفارس نمر وسليم البستانى وشاكر شقير وعبد الرحمن الكواكبى وعيسى اسكندر المعلوف وعبد الله مراش واحمد عزت العابد .

ويجمع المؤرخون على أن أول جريدة عربية ـــ غير رسمية ـــ هى جريدة (مرآة الأحوال) التى أصدرها رزق الله حسون الحلبى فى عاصمة بنى عثمان وحديقة الأخبار (١٨٥٨) خليل الخورى ونفير سوريا (١٨٦٠) المعلم بطرس البستانى (ببيروت) ١٨٨٦ سليم البستانى (الجنان) وانتقل إلى مصر زهرة الصحفيين الشاميين : كآل تقلا أصحاب الأهرام والدكاترة صروف ونمر ومكاريوس (المقطم والمقتطف) وأديب اسحق (جريدة مصر) ونجيب الحداد (لسان العرب) وجرجى زيدان (الهلال) سليم سركيس (المشير ومجلة سركيس) ويوسف الخازن (الأخبار) وخليل مطران (الجوائب والمجلة المصرية)

ومن كتاب وصحفيى الشام الذين لمعوا فى مصر : داود بركات وانطون الجميل ورفيق المظم وشكيب ارسلان ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا وأمين الرافعى

١٨ ـــ ويعد المقتطف شيخ المجلات العربية (١٨٧٦ — ١٩٥٢) صدر فى بيروت وفى عام ١٨٨٤ انتقل إلى مصر بعد أن اشتدت المراقبة على المطبوعات .

(١) فى كتاب تاريخ الصحافة العربية (١٩١٣)

وقد احتفل بعيده الخمسيني عام ١٩٢٦ واشترك فى ذكرياته كتاب عرب من مختلف انحاء العالم العربى والمهجرى : شكيب ارسلان (لوزان) فهمى الجابرى (بغداد) فيليب حتى (جامعة برنستن) عيسى اسكندر المعلوف (زحلة لبنان) أمين الريحانى (الفريكه) روفائيل بطى (بغداد) حنا خباز (بيروت) سليم رشيد الخورى (سان باولو) وكثيرون غيرهم .

١٩ — ويعد الرعيل الأول من نوابغ لبنان فى القرن التاسع عشر (البستانى — سركيس اليازجى — القبانى) من أبعد كتاب العالم أثراً فى العمل الصحفى وإعداد جيل جديد من حملة الأقلام فى لبنان. وقد نشأ فى بيروت وحدها فى أوائل القرن أكثر من أربعين جريدة ومجلة يعالج أكثرها قضايا الوطن والعالم العربى ولما أخذت الصحافة الشامية فى تنبيه الأفكار ضاق الحكام بها فاضطروا للهجرة إلى مصر وغيرها من البلاد العربية والأمريكية .

٢٠ — ويعد ابراهيم اليازجى من أبرز كتاب لبنان الذين كان لهم أثر كبير فى حماية اللغة العربية فقد أنشأ بعد هجرته إلى مصر مجلتى البيان والضياء.

وقد ابتدع فى مجلة الضياء بابا أفرده لنقد الأغلاط اللغوية السائرة وجعله تحت عنوان ثابت هو « لغة الجرائد » . واليه يرجع الفضل فى اختراع علامات التعجب والاستفهام فى فن الطباعة العربية .

٢١ — وفى سوريا صدرت صحف كثيرة منذ الربع الآخر من القرن التاسع عشر : ففى عام ١٨٧٠ (الزهرة) يوسف الشلفون . (البشير) للآباء اليسوعيين (الجنة) لبطرس البستانى (النحلة) للقس لويس الصابونجى وفى عام ١٨٨٥ ثمرات الفنون (عبدالقادر القبانى — أول جريدة إسلامية، وفى عام ١٨٧٧ صدرت (المصباح) لنقولا نقاش وظهرت بعد الدستور (١٩٠٨) فى حيفا وحمص واللاذقية وصيدا وجديدة مرجعيون ، ومكة وجدة وبغداد والموصل والبصرة .

٢٢ — وفى حلب صدرت أول جريدة رسمية (غدير الفرات) ١٨٦٧ ثم أصدر جريدة (الفرات) المؤرخ التركى : أحمد جودت باشا عندما كان واليا على حلب وقد رأس تحريرها : عبدالرحمن الكواكبى، كامل الغزى، محمد الحنيفى، وظلت تصدر حتى ١٩١١ وأصدر هاشم العطار ١٨٧٧ جريدة الشهباء بالاشتراك مع عبد الرحمن الكواكبى . وكان من محرريها ميخائيل الصقال . وقد صدر الأمر بإغلاقها فى العدد الثانى وأصدر الكواكبى جريدة أخرى باسم (الاعتدال) ثم صدرت صحف أخرى (حلب الشيهاء) نافع طلس (صدى الشهباء) حكمت ناظم وكامل الغزى (التقدم) لشكرى كندر (الخطيب) عبد القادر جنباز (الشعب) ليون حمصى ويقول يوسف شلحت فى تصوير أثر الصحافة الحلبية « كشف لنا أدباء ذلك العصر على قلتهم وإقلالهم عن نواح كثيرة ونزعات عده تتعلق بالحياه والاجتماع فى الشهباء . وبالافكار والمشاعر المتسلطة على سكانها فمنهم من أبان عن الروح الدينية المتغلغلة فى نفوس الشعب ، ومنهم من كشف عن الحقد الكامن ضد عسف الولاة والحكام ورجال الدين . ومنهم من أظهر القلق الذى كان يساور الطبقة الفنية الشحيحة . المحافظة تجاه خروج بعض أفرادها عن التقاليد وثورتهم على النظام والعادات ومنهم من نادى بتحرير المرأة أو دعا إلى طرح التعصب وبذر بذور الشقاق ولكن كل هذه المحاولات كانت تجرى فى محيط خاص ولها صبغة محلية بحتة وهى محصورة ضمن نطاق ضيق من التجربة »

٢٣ — وقد كانت المرأة اللبنانية هى أسبق العربيات إلى المضمار . وكانت أول صحيفة نسائية فى العالم العربى هى (الفتاة) أنشاتها اللبنانية (هند نوفل) ١٨٩٢ بالأسكندرية ، ثم أصدرت رجينا عواد مجلة السعادة وأصدرت لبيبه هاشم مجلة فتاة الشرق وأصدرت افرينوه مجلة أنيس الجليس[1] .

---

(٢) انظر فصل (أدب المرأة العربية)

٢٤ — وفى مختلف أقطار العالم العربى ظهرت صحف عربية باكره: خير الدين باشا ـ تونس ١٨٩٠، محمد بيرم ـ تونس ١٨٨٩، احمد بنى زينى دحلان (مكة) ١٨٨٦ شهاب الدين الألوسى (بغداد) ١٨٥٤ مدحت باشا (الزوراء) بغداد ١٨٦٨، عطارد (مرسيليا) ١٨٥٨، كوكب أمريكا – نيويورك – بخيت عربيلى (١٨٩١) .

٢٥ — وقد صور « كرد على » فى ذكرياته الصحفية عن أوائل القرن العشرين أكثر ما كان يتوقاه المحرر ذكر شىء يمس السلطان من قريب أو بعيد أو يمس عماله ورجاله وجيشه وإدارته وسياسته والا يشير إلى مسألة تاريخية فيها ذكر الخلافه والحرية والشورى والدستور وقتل الملوك وخلعهم .

٢٦ — « وبعد » فان الصحافة العربية قد حملت رآية المقاومة للاستعمار و التجمع للوحدة ، وكانت سلاحا ماضيا فى الرد على حملات التعذيب والتجربة وقد حملت هذه الصحف نماذج الشعر والنثر والقصة التى نشرت فى خلال مدة هذه المائة عام والتى جمعت بعد فى كتب وكانت قوة عاتية فى وجه المستعمر عجز عن القضاء عليها .

مراجع فى الصحافة من فصول الكتاب

(مجلات) (ا) [ابولو ٢٢٦ الإيمان ٢٣٦ الأستاذ ٤٥٤ / ٤٤٠ الأنيس ٦٢ الأمة العربية ٨٥٩ أم القرى ٥٢٩ / ٤٩٣ أبو نظارة ٥٩٩ الأخبار ٥٩٩ الأهرام ٥٩٩ (ب) البيان ٢٩٣ بريد برقه ١٨٥ بنغازى اليومية ١٥٨ المشية ٣٣٦ البلاد ٢٨٧ البصره ٢٨١ البيان ٥٩٩ البصائر ٩٣ / ٥٨٨ / ٥٩٩ بيروت ٥٩٩ البلاغ بيروت ٥٩٩ (ت) التونسى ١٣٢ (ث) ثمرات الفنون ٥٩٠ (ج) الجزيرة ٣٧٢ الجريدة ٤٥٤ الجوائز ١٢٩ / ٥٩٠ الجنان ٥٩٩ (ح) الحديث ٢٧٥ / ٣٥٦ / ٥٩٩ / الحكمة ٣٨٢ السودان ١٩٣ / ١٣٩ / ١٨٩ الحاضره ١٣١ الحياه ٥٦ (خ) مجلة خير الدين ١٣٢ (د) دعوة الحق ٦٨ / ٨٨ / ٥٥١ /

— ٦ —

أدب المرأة العربية

وأثره فى معركة المقاومة والتجمع

كان من أبرز عوامل اليقظة العربية الدعوة إلى تحرير المرأة أو ما وصف بأنه « مناصرة المرأة » وقد بدا ذلك باكراً عند ما ارتفع أول صوت يدعو إلى تعليم المرأة وهو صوت بطرس البستانى وأحمد فارس الشدياق ورفاعة الطهطاوى وكان ذلك فى منتصف القرن التاسع عشر . ثم ارتفع صوت قاسم أمين فى أوائل القرن العشرين ثم صدرت مجلة السفور ١٩١٥ لعبد الحميد حمدى . وقد ألف جميل بيهم كتابه المرأة فى الشرائع والتاريخ مناصرة لحرية المرأة وحقها فى الحياة كما ألف مجد الدين ناصف كتاب تحرير المرأة فى الإسلام ، ويحظى بالشهرة فى هذا الصدد خطاب بطرس البستانى الذى ألقاه فى ١٤ كانون الأول ١٨٤٩ عن تعليم النساء فى بيروت .

وقد ظهر فى القرن التاسع عشر عدد من الكاتبات اللائى قلن الشعر والفن الكتب وكتبن فى الصحف نورد موجزا لتاريخ كل منهن :

● زينب فواز (١٨٦٠ — ١٩١٤) القاهرة وصفت بأنها من أشهر الكاتبات ، صحفية وقصصية . سوريه تزوجت من مصرى وعقدت حلقات النظم والنثر وقالت الشعر وكتبت فى جريدة النيل والمؤيد واللواء والاتحاد والأهالى ولها كتاب الرسائل الزينبيه ودعت إلى تعليم المرأة وحرية التعليم ولها مؤلفات :

١ — الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور :

٢ — الرسائل الزينبيه ١٩١٠ .

٣ — الهوى والوفاء (مسرحية ٤ فصول) ١٨٩٢

٤ — الملك قورش ١٩٠٥

وقد سجل يوسف يعقوب مسكونى فى كتابه من عبقريات نساء القرن التاسع عشر [1] طرفا من تاريخ حياتها فقال إنها ولدت فى قرية (تبنين) بصيدا بيروت وجاءت الاسكندرية ودرست على الشيخ محمد شلبى وحسن حسنى الطويرانى صاحب جريدة النيل . وكتابها (الدر المنثور) جمعته مما يقرب من أربعين مؤلفا وهو يصور تقدم المرأة الشرقية بفضل العلم وقد طبع فى بولاق ١٨٩٤ ويحتوى على ٤٥٣ ترجمة لشهيرات النساء فى الشرق والغرب مقدما بترجمة آمنة بنت وهب واختتمته بترجمة لادى رسل ابنة تومارد تسلى وزير مالية انجلترا ومن شعرها :

للشرق فضل فى البرية أنه   يأتى الوجود بكل حسن معجب
والغرب أظلم ما يكون لأننا   نشقى بفرقة شمسنا فى المغرب

● مريانا مراش (١٨٤٨ — ١٩١٩) أول سيدة عربية كتبت فى الصحف السياره فى حلب من بواكير الشاعرات . كان لوالدها مكتبة نفيسة ورغبها فى الكتابة أخواها الأديبان فرنسيس مراش وعبد الله . تعلمت فى المدرسة المارونية والانجيلية • أتقنت الفرنسية والموسيقى . نشرت فصولا فى مجلة الجنان ١٨٧٥ .

لها مقال بعنوان (جنون القلم) تشكو فيه انحطاط تعابير الكتاب وتحرض على تحسين الإنشاء وترقية الموضوعات وقصائد فى الغزل والمدح والرثاء ولها ديوان صغير « بنت فكر » ١٨٩٣

ومن شعرها :

ذو العقل يسمو بالحجى ويسود   وبحسن رأى يمدح الصنديد

---

(١) صدر ببغداد — ١٩٤٦ وشمل دراسة حياة عائشة التيمورية ووردة اليازجى وزينب فواز .

إن الفتى المقدام من يوم الوغى خاض المعامع والعداة شهود
والندب من نال الفخار وزانه بالجد آباء له وجـــدود

وقد جملت بيتها ناديا لأهل الفضل. سافرت إلى أوربا وامتدحت روح التمدين مع الأخلاق الصحيحة .

● جوليا طعمه دمشقية (١٨٨٠ — ١٩٢٤) لبنان : اشتهرت بجهادها النسائى. صحفية لامعة. إحدى النساء العاملات فى حقل النهضة الانسانية . درست فى صيدا والشويفات . تنقلت بين فلسطين ومصر ولبنان . تزوجت من بدر دمشقيه . كونت جمعية السيدات ١٩١٧ . أنشأت مجلة « المرأة الجديدة » أول مجلة نسائية عربية ذات مستوى علمى . كانت تكتب افتتاحيتها « إلى نساء بلادى » .

عاشت المجلة سبع سنوات وحال المرض دون استمرارها . كتبت فى عدة مجلات ومن مؤلفاتها « مى فى سوريه » .

● عفيفة كرم (١٨٨٣ — ١٩٢٤) لبنان : صحفية كاتبة روائية .اسلوب سلس . كتبت فى مجلة العالم الجديد والمرأة الجديدة ١٩١٢ .

عاشت فترة فى نيويورك ، أصدرت هناك قصة « بديعة وفؤاد » وفاطمة البدويه وترجمت عدداً من الكتب منها كيلوباترة . وابنة نائب الملك .

● مى زياده : ١٨٨٦ — ١٩٤١

الكاتبة العربيــة المعروفة . كان والدها صحفى عربى . له مجلة المحروسة . لها ١٤ مؤلفا منها بين المد والجزر . ابتسامات ودموع . سوانح فتاة . كلمات وإشارات . ظلمات واشعة . اتصلت الرسائل بينها وبين باحثة البادية . لها ديوان بالفرنسية « أزهار حلم »

● عائشة التيمورية : ١٨٤٠ — ١٩٠٢ : حلية الطراز (ديوان شعر) وصفت بأنها أبرز شاعرة عربية بعد الخنساء .

● ملك حفنى ناصف : ١٨٨٦ - ١٩١٨ . كتاب النسائيات. مجموعة مقالات نشرت فى الجريدة وطبعت ١٩٢٨ أول فتاة تقدمت لامتحان الابتدائية عام ١٩٠٠ وقد نشرت آثارها فى المؤيد والجريدة بتوقيع باحثة الباديه .

● روز عطا الله سحفه : ١٨٩٠ — ١٩٥٥ . أديبة صحفية لبنانية . لها مؤلف وحى الأمومة .

● سلمى صائغ : ١٨٨٩ — ١٩٥٣ كاتبة لبنانيه ، صحفية وأديبة . عملت على نهضة المرأة الشرقية. هاجرت إلى البرازيل فى مطلع الحرب العالمية الثانية لها كتاب « النسمات » بيروت ١٩٢٣ . لها قصة « فتاة الفرس » نشرتها فى مجلة المرأة الحديثة ، ترجمت فتاه أورشليم .

● وردة اليازجى: ديوانها حديقة الورد أول ديوان طبع لشاعره عربية بعد عائشة التيمورية إذ طبع لأول مره فى سنة ١٨٦٧ فى بيروت . والدها ناصيف اليازجى وزوجها فرنسيس شمعون . وفى عام ١٨٩٩ هاجرت من لبنان إلى مصر بعد وفاه زوجها وتبادلت الرسائل مع عائشة التيمورية .

● لبيبه هاشم: أصدرت مجلتها فتاه الشرق ١٩٠٦ التى عاشت بضعة وعشرين عاما . وقد كتبت بعض القصص والأقاصيص فى وقت مبكر . ووقفت فى صف فرح أنطون وسليم النسيانى ومحمد تيمور .

● مارى فرج : أصدرت مجلتها « السيدات والبنات » الاسكندرية ١٩٠٣

● اسكندرا افرينو : أصدرت مجلتها أنيس الجليس — الاسكندرية ١٨٩٨

• هند نوفل : صاحبة أول مجلة عربية « الفتاة » ظهرت فى القاهرة ٢٠ نوفمبر ١٨٩٢ .

• مريم فرهر : صاحبة مجلة مرآة الحسناء . القاهرة ١٨٩٦

• وردة الترك : كاتبة لهـا مؤلفات وأبحاث نشرتها فى كثير من الصحف (١٨٩٨)

وقد نهضت المرأة العربية فى الثلاثينات من هـذا القرن فى مصر وسوريا والعراق وغيرها من بلاد العالم العربى فظهرت طائفة كبيره من الأديبات والـكاتبات والشاعرات فى مقدمة هؤلاء : فدوى طوقان وملك طرزى وسلمى الحفار ومنيبه الـكيلانى وسهير القلماوى وبنت الشاطىء وجميلة العلايلى وأمينة السعيد ووداد سكاكيتى ونجلاء الـكافورى ونظيره زين الدين وجليلة رضا ونازك الملائـكه .

وقد أحدثت نظيرة زين الدين (لبنان) ضجة عام ١٩٢٨ عند ما أصدرت كتابها « السفور والحجاب » ودعت إلى تحرير المرأة والتجديد الاجتماعى .

وقد أثار كتابها على عبد الرازق فى القاهرة فـكتب فى الهلال (اغسطس ١٩٢٨) مشيرا إلى هذا العمل « أن تنهض شابة فتية من بنات الشرق بالدعوة إلى ما تعتقده إصلاحا وإن كان فى ذلك الإصلاح خروج على المألوف »

وهذه نماذج [١] من أدب المرأة العربية :

• منيبه الـكيلانى « بغداد » « بين أدب المرأه وأدب الرجل »

وصفتها مجلة الرسالة بأنها سيدة عراقية حديثة قل فى عصرها من تضارعها فى عمق الثقافة وسعة الاطلاع وأصالة الفـكر ، تلقت دروسها الثانوية فى بغداد والجامعية فى بيروت ثم سافرت إلى بريطانيا فتخصصت فى التربية وعادت إلى بغداد معتمدة

---

(١) اقرأ تفصيلا عن « أدب المرأة العربية فى دراسة كاملة بقلم أنور الجندى « تظهر قريبا»

بمدرسة الفنون قال «إن هناك أدب مرأه وأدب رجل وإن كل نوع منهما يصرف إلى ما يتعلق بتراث المرأة أو بتراث الرجل . وإن ادوار الأدب الأموى والعباسى والأندلسى قد أثرت تأثيرات متفاوتة فى الرجل والمرأة فجاء أدبهما جد مختلف ولو فى دور واحد لفرط ما أثرت عوامل الدور الواحد فى كل جنس دون صاحبه فجاء أدب المرأة منذ أقدم عصوره أصدق أنباء وأكثر انطباقا على الواقع ويكفل أدبها باصباغ الألوان الحسان والدقة البالغة والجمال الرفيع على أدب الرجل وأضحى بعد ذلك يحمل رأى الآباء والأنفة والشمم . وجاء أدب المرأه يشدمن أدب الرجل ليجمل منه أكثر موافقة ومسايرة للزمن وليلهب نشاطه الاجتماعى والفكرى ويأخذ من الصراحة بنصيب ومن التلميح بنصيب مما قد لا يدركه الرجل على وجهه بعد أن أثملته الفتوح وبهرت عينه ثروات الزمان فى قبضة يده يصرفها كيف أراد .

وجاء أدب المرأة للعقل وأدب الرجل للعاطفة عند ما يطيش الحلوم وتراش السهام ويدبر المنطق فيعمل الرجل بعاطفته ويفكر بقلبه وتسكن هى بفكرها وتتكلم بعقلها فتتم نقصه وتضفى على أدبه اللون القوى العتيد الذى يعوزه .

وجاء أدب المرأة بعد هذا لحسن خطها فاقدا بعض الحلقات الموفورة فى أدب الرجل فليس فيه التعريض ولا رمى المحصنات الغافلات . وجاء أدب المرأة منحدرا عن أساتيذ لم يعرفهم الرجل فقد انحدر بعضه عن تعدد الزوجات وأحاسنها والطلاق وظله الثقيل والحجاب غير الشرعى والجهل والأمية المفروضة ورحمة المسترخصات من الجوارى والقيان المزاحمات للبيت الشريف والزوجية المقدسة .

- سميه الحفار « دمشق »

- إن الرغبات الظامئة التى تسرى فى عروق ، تحتضر ، لأن ما وراء تلك الرغبات نزعة أقوى لا أستطيع إدراكها . وإنما أملكها وأشعر بها تدفعنى إلى دروب خطره . أنتقيها بنفسى وأكون المسئولة عن تجاهلها .

نزعة كالموت قوية لكنها لا تموت. ودروب كالوهم بعيدة يلوح فيها طيف الله ولكنى لا أتبين منها شيئا .

إلهى : من أى الدروب تخط طريقك وأين ترانى سألقاك .

● ليتهم ما علمونى أن فى الوجود إلها — إننى أرى وجهه كل مساء وصباح ويدخل قلبى على جناح العاصفة ومع الريح الجواب . وأهرب منه وأود لو أنساه فيزداد حبى له ، ويضمه قلبى ويعبده ويهواه ، فليتهم ، ليتهم ما علمونى أن فى الوجود إلها .

● فلك طرزى « دمشق » متى يوجد منقذ العرب [1]

لقد حدثتنى نفسى أن تأخر الأمة العربية عامة والسورية خاصة ناتج عن سبب خلوها من النهضة الفكرية أو بالأصح عن التفكير الصحيح المستقيم الذى هو بمثابة مشعل ينفذ بحامله إلى خفايا حياة أمته . القضية العربية تشكو خلوها من عالم مدقق حصيف يدرسها على ضوء المنطق درسا عميقا مستفيضا كما درس موسولينى القضية الإيطالية وهتلر الألمانية . وكما درس من قبلهما الفيلسوف الاجتماعى مونتسيكو القضية الفرنسية ؛.. الأمة التى فيها عبقرية وجوهر تخلق ذاتها وتوجد نهضتها بهذه الذات وتختار بفضل تفكيرها وجهودها نوع الأنظمة التى توافق طبيعة إقليمها وتلائم مستوى شعبها الفكرى والعقلى والأخلاق فهى إذن فى غنى عن تقليد هذا النظام أو ذاك المنهاج . وهى فى غنى إذا كانت شروط العبقرية متوفرة لديها — عن اتباع النظم الدكتاتورية التى خلقت الحرب الكبرى وجودها فى بعض أمم الغرب . ولست أعتقد أن سمة التفكير هى سمة الأمة العربية التى برهنت وتبرهن الآن فى أجل وأقدس بقعة من بقاعها على أنها أمة فيها نبوغ وفيها عبقرية .

---

(١) الرسالة ١٧ اكتوبر ١٩٣٨

أمتنا شبيهة بتلك النفس المضطربة الحيرى التى تحس فى أعماقها بحاجتها إلى الصديق العالم المخلص العطوف الذى يحنو عليها برفق ليسبر بعقله حقيقتها ويحبها بقلبه وجوارحه حبا عميقا صادقا لا يخالطه زيف يحوجه إلى سلوك طرق النفاق والتدجيل.

• وداد[1] سكاكينى : (دمشق) مصر والشام

كنا إذا ولينا الوجوه شطر مصر كالعيس فى البيداء نتلهف ظمأ إلى الماء وهو على ظهورها محمول . فياعجبا لذلك الحنين الذى كان يطفو على جنبات نفوسنا كموج البحر وهو يمور ويفور ثم لا يكاد موجه يندفع إلى الصخور حتى يمور ويفور فهو هباء منثور . كذلك كنا إذا هزنا الشوق إلى مصر هفونا إليها من ربوع غسان ودارات أميه . فكانت رياح الحنين غادية غير رائحة ومقيمة غير بارحه . ولقد مرت بالشام عهود وأحداث كانت فى خلالها بمعزل عن غيرها لا يبلغ مصر من هذه الديار إلا التجار ونزر من الأخبار يتلقاها النسيب من النسيب حتى تصرمت تلك القطائع وتواصلت بعدها أواصر ووشائج . كان وثاقها يشتد على ترادف الأيام ، ولكن لم تبلغ مداها ولا أدركت مناها لحنين العرب إلى مصر عريق فى الدهر . لقد فتح العالم العربى عينيه بعد سبات عميق وتلفت المستيقظون صوب البلاد الآمنة الخيره فلم يجدوا غير مصر مراحاً لأرواحهم وعبقرياتهم ، وصورة لأمجادهم وذكرياتهم فتوافدوا عليها شيقين طامحين ، وأكرمت هى وفادتهم ومودتهم وعقدت بينها وبينهم وشائج القربى والتاريخ وروابط اللغة والدين .

وسبق اللبنانيون إليها مهاجرين فسكنوا وادى النيل وكأنهم بين أهل وعشيره فاستهوتهم بحفاوتها وخيراتها وساهموا فى نهضتها المعاصرة مساهمة لمت آثارها .

على أن هؤلاء ما لبثوا أن تركوا طوابعهم السوريه واللبنانيه ما وراء العقبة واتسموا بمياسم مصر فتكلموا لهجتها العذبة واقتبسوا من عاداتها وتقاليدها .

---

(١) ديسمبر ١٩٤٣ الرسالة .

وللشام كما قلت هوى بمصر عريق ، ولكنه كان كمينا دفينا فلم يجد له بابا غير الأدب والثقافة . وما تظهر مجلة مصرية أو جريدة حتى يتلقاها بشوق وترحاب وإن شعراء النيل ما زالوا يرسلون قصيدهم فى تحية الشام وبعث ذخائرها وأمجادها. ولقد زار دمشق فى ماضيها القريب أمير الشعراء أحمد شوقى فملأ عينيه وروحه بمفاتنها ومباهجها ورأى بتحديقة واحدة دنيا أمية راقدة تحت الثرى منبثقة فى هذه الربوع فبعثها فى شعره الملهم إلى دنيا الحياة ونظم فيها قصيدته الفريدة التى ناجى بها « جلق » وتغنى بماضيها الأغر المحجل وفيها خلع على الشام أوصافا لا تمحوها يد الحدثان فبالأمية فى هامتها وربوتها وفى نيربها وغوطتها . وبالعظمة بردى مسلولا كسيف من فضة يوزع الخصب والبركة ويبدع الحدائق والظلال . لقد كانت الشام مطوية المحاسن والمفاتن كامنة الحنين إلى الأمجاد وعز الأجداد حتى هاجها شوقى فى مكامنها ورصع بها شعره الخالد فهب الشاميون على شعر شوقى وترنموا به ورجموه إلى مغانيهم واهتاجت مشاعرهم إلى ضفاف الأهرام وحجر الأزهر وحصن الإسلام وما اكتفى شوقى بشعره فى وصف دمشق ومجالسها بل سكب من قريحته بلسما لجراحاتها فرثى من أجلها وبكى وخلد ميسلونها . وحين تهدم بنيانها ناح شوقى على منازل العز وهى بأيدى البلى من أحياء دمشق .

وما كان حافظ إبراهيم[1] ضنانا بقريضه فى مناقب الشام ومحامد أهلها ، وأنهم

---

(١) السيدة وداد سكاكينى كاتبة عربية « دمشقية » تمثل فى نظرى المثل الاعلى للمرأة الكاتبة فهى تشترك اشتراكا فعليا وبارزا فى معارك القومية العربية وتؤدى دورها فى حركة المقاومة والتجمع بصورة لم أجدها عند أغلب كاتبات العربية فى هذا العصر واضيف إليها فى هذا « جميله العلايلى » فى مصر وقد اقامت وداد فى القاهرة طالبة وزوجة ودرست بالجامعة المصرية ولها عدد من المؤلفات : اروى بنت الخطوب . امهات المؤمنين . مجالس الأدب عند نساء العرب. اخوات وشهداء . انصاف المرأة . الستار المرفوع وقصة « العاشقة المتصوفة » تكتب منذ عشرين عاما فى صحف سورية ولبنان ومصر .

خير من رعى الجوار والإخاء وقد أنشدهم بلهجته الساحرة قصيدته التى حيا بها من بالشام . حياه وتمنى أن تجرى الموده طلقا فى أعراق الشرق كجرية الماء فى الأفنان وحدث سامعيه عن وجد النيل ببردى وأهدى إليه أشواق ولهان وتحنان :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب   هنا العلى وهناك المجد والحسب
إذا ألمت بوادى النيـــل نازلة   باتت لها راسيات الشام تضطرب

● عناية رمزى: هل الأدب ضرورة لحق عليه التوجيه أم ترف وأناقة لحقت له الحرية ؟ إن الأدب ضرورة لأنه يشبع حاجات منوعة فى النفس الانسانية ولـكنه بداهة ليس من نوع ضرورات الحياة المادية كالطعام والشراب بل من الضرورات الانسانية الروحية أو من تجربة الأدب التى يرافقها وعى وشعور بالمسئولية. الحرية التى يكمن وراء قلم صاحبها فـكر خصيب وعقل وضىء ونفس مشرقة وشعور رهيف وطهر إنسانى .

● فدوى طوقان [1] من ديوانها « وحدى مع الأيام »

نفسى موزعة معذبـــة   بحنينها بغموض لهفتهـــا
شوق إلى المجهول يدفعهـــا   مقتحما جدران عزلتهـــا
شوق إلى ما لست أفهمه   يدعو بها فى صمت وحدتها
أهى الطبيعة صاح هاتفهـــا   أهى الحياة تهيب بابنتهـــا
ماذا أحس ؟ شعور تائهـــة   عن نفسها تشقى بحيرتهـــا

***

الخريف الجهم والريح وأشجان الغروب

---

(١) شاعرة عربية من فلسطين ؛ عاشت أحداث النـكبة العربية وعصرت كيانها الأحداث . ويكاد يكون ديوانها وحدى مع الأيام صورة صادقة لنفسها وقد تميز شعرها بالـكآبة والحزن والاسى .

وو داع الطير للنور وللروض الكئيب
كلها تمثل فى نفسى رمزاً لانتهائى
رمز عمر يتهاوى غاربا نحو الفناء
فترة ثم تلف العمر أستار المغيب

***

ومضيت سارحة أقلب فى الظلام كتاب عمرى
صور وأحلام كئيبات تلون كل سطر
فهنا خيال شاحب لم ترحم الدنيا ذبوله
وهنا خيال طفولة لم تدر ما مرح الطفولة

مراجع عن أدب المرأة العربية من فصول الكتاب

— ٧ —

المسيحيون ودورهم فى يقظة الفكر العربى

لا شك كان للمسيحيين دور ضخم فى يقظة الفكر العربى المعاصر وفى حماية اللغة العربية والأدب العربى ومن ثم كان ذلك عملا إيجابيا فى حركة المقاومة والتجمع

وقد خدم البروتستانت النهضة الأدبية عند ما انتخب المطران دومانى العربى السورى لكرسى البطريركيه عقب وفاة البطريرك الرومانى سنة ١٨٩٩ فقد عمل على تعريب الكنائس الارثوزكسية فى منطقة انطاكية وتوابعها وكان هذا أول انتصار لحركة المقاومة والتجمع .

ومن أبرز الكتاب المسيحيين الذين عنوا بدراسات اللغة العربية : جبر ضومط الذى ألف فلسفة اللغة العربية وتطورها . وانستاس الكرملى الذى رد على المستشرقين وصحح آراءهم وصحح أغلاط الأقدمين من كتاب العرب . وجرجى زيدان الذى أحال تاريخ العرب إلى قصص تروى . وأبو خليل القبانى أبو المسرح العربى الذى ترجم ٦٠ مسرحية ومارون نقاش ١٨١٧ — ١٨٥٥ وناصيف اليازجى (١٨٠٠ — ١٨٧١) الذى كتب ٢٢ مجلدا فى الصرف والنحو واللغة والمنطق والبيان والطب والشعر والتاريخ .

وقد حاولنا أن نرسم صورة تقريبية للحركة الفكرية التى أثارها المسيحيون فى مجال يقظة الفكر العربى :

- المطران نعمة الله أبى كرم (١٩٣١) كتاب النجاه لابن سينا مع ترجمة إلى اللاتينية .
- اسحق أرمله (١٩٥٤) أصول المراسله فى السريانيه ، أبناء الزمان فى الحروب الصليبية فى الآثار السريانية .

- أديب اسحق (١٨٨٥) الدرر — تراجم مصر فى هذا العصر (ترجمة)
- فرح انطون (١٩٢٢) ابن رشد وفلسفته ، ترجمة حياة المسيح تأليف رينان — أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس .
- بطرس البستانى (١٨٨٣) آداب العرب ، محيط المحيط ، قطر المحيط ، شرح ديوان المتنبى ، دائرة المعارف .
- سليم بطرس البستانى(١٨٨٤) زينوبيا ملكة تدمر، الهيام فى فتوح الشام
- سليمان البستانى (١٩٢٥) الياذة هوميروس ، الدول العثمانية ، طريقة الاختزال العربى .
- عبد الله البستانى (١٩٣١) معجم لغوى، خطاب فى التاريخ العام .
- وديع البستانى (١٩٥٤) رباعيات عمر الخيام ، رباعيات الحرب ، الفلسطينيات .
- أنطون الجميل (١٩٤٨) أبطال الحرية ، البحر المتوسط والتمدن .
- بندلى صليبا جوزى (١٩٤٤) الأمومة عند العرب ، تاج العروس فى معرفة لغة أهل الروس .
- نقولا الحداد (١٩٥٤) علم الاجتماع ، الاشتراكية ، الديمقراطية .
- قسا كى حمصى (١٩٤١) أدباء حلب ، منهل الوراد فى علم الانتقاد .
- حنا خباز (١٩٥٥) جمهورية أفلاطون ، الفلسفة فى كل العصور ، المعارك الفاصلة فى التاريخ .
- يوسف داود (١٨٩٠) تنزيه الألباب فى حدائق الآداب
- يوسف الدبس (١٩٠٧) تاريخ سوريا منذ بدء الخليقة ، الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة

● أفرام الثانى (١٩٢٩) مقالة عن سوريا،مقالة فى مملكة اشور ، مختصر التاريخ القديم .

● أمين الريحانى (١٩٤٠) ملوك العرب أو رحلة فى البلاد العربية ، الفلكيات فى تاريخ سوريا ، قلب العراق ، قلب لبنان ، المغرب الأقصى .

● جرجى زيدان : الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية ، تاريخ اللغة العربية تاريخ آداب اللغة العربية ، أنساب العرب القدماء .

● حبيب زيادة (١٩٥٤) خزائن الكتب فى دمشق، الصليب فى الإسلام

● شاكر مفامس سمتر (١٨٩٦) أساليب العرب فى صناعة الانشاء ، فنون الشعر .

● لويس شيخو (١٩٢٨) الآداب العربيـة ، بيروت تاريخها آثارها ، روض الأدب فى مراثى شواعر العرب ، معانى الأدب .

● لويس صابونجى (١٩٣١) أصول القراءات العربية .

● الدكتور صروف (١٩٢٧) أعلام المقتصف — الرواد .

● جبر ضومط (١٩٣٠) الخواطر فى اللغة ، فلسفة البلاغة ، فلسفة اللغة العربية ونضورها اللغة العربية بحث تاريخى فلسفى .

● سليم روفائيل (١٩٣٣) عكاظ فى شئون العرب قبل الإسلام .

● الأب أنستاس الكرملى (١٩٤٧) أغلاط اللغويين الأقدمين ، خلاصة تاريخ العراق ، رسالة فى الكتابة العربية ، شعراء اللغة العربية ونحوها ، الألفاظ الفارسية فى اللغة العربية .

● ناصف اليازجى (١٨٧١) مجمع البحرين ، قطب الصناعة فى أصول المنطق ، جوهر الفرد فى أصول الصرف والنحو ، مجموع الأدب فى فنون العرب .

• إبراهيم اليازجي (١٩٠٦) تحفة الرائد في الترادف والتوارد، الفرائد الحسان من قلائد اللسان، لغة الجرائد.

ويضاف إلى هؤلاء رزق الله حسون وداود بركات وانطون الجميل وفيلكس فارس وقسطاكي الحمصي وفارس الحورني ومارون عبود وأمين المعلوف وجميل المعلوف وفوزي المعلوف وفرنسيس مراش وخليل مطران والياس فياض ونسيب عريضه وجبران خليل جبران وحنا الفاخوري وفرح أنطون ويعقوب صنوع وسليم سركيس وشبلي شميل وخليل سكاكيني وجرمانوس فرحات.

* * *

وقد صور كثير من الكتاب المسيحيين فكرة القومية العربية مرتبطة بتاريخ النبي محمد باعتباره بطلا عربيا صرفا ومن أبرز هؤلاء « خليل جمعه الطوال » مؤلف كتاب مظاهر العبقرية في الحضارة الإسلامية.

و « الياس خليل [1] زخريا » الذي يقول « محمد هو لنصارى العرب كما هو لمسلميهم » أيها العرب المسلمون: ليس محمد لكم وحدكم. ولكنه لنا ولكم. وهو نبي دينكم وهو شهادة حق مقدسة في ديننا ودينكم. ومحمد القومي منا عربي عظيم من قريش من هذه القبيلة التي بنت لنا ملكا عادلا تساءلت عن أطاريف حدوده أهداب الكواكب. فقد كان مولد ابن عبدالله القرشي مولداً للقوة وتحرراً للجهاد لأخوة عربية مقدسة هي أنقى أخوة عرفها بشرى في عين بشرى. مصير النصارى ومصير المسلمين واحد موحد في ضمير القومية العربية.

وإن العرب أمة وقد أيقظها محمد أمة قوية متكاتفة، فجمع شملها ومهد سبيلها ثم ترك من بعده صحبا يحرزون ويعتقدون ويهدمون ويبنون فينشئون في الأرض

(١) الياس خليل زخريا أمين منظمة القساوسة في لبنان: مجلة الحديث (شباط — ١٩٤٧)

انشاءاً جديداً . ليس مولد محمد ابن عبدالله مولداً للبغضاء بين العرب ولـكنه مولد لقوة وتحرر لجهاد وتسور لتعاون وتـكاتف لإخوة عربية مقدسة » ويقول فارس الخورى « إن محمداً أعظم عظماء العالم ولم يجدالدهر بمثله والدين الذى جاء به أوفى الأديان وأكملها . إن محمداً أودع شريعته المطهره أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الشريعة التى دعا الناس إليها باسم الله وبأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم .

وقد استطاع محمد توحيد العرب بعد شتاتهم وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها » .

ويقول أمين نخله :

محمد لا تستطيع طائفة من العرب أن تنفرد بالتباهى به فهو فضلا عن كونه للخلق كلهم حيث يتشبهون بأكرم الآدميين فىحفظ النفس وحفظ الجار وحفظ الله ـ لأجدر أن يكون للعرب كلهم . ومحمد إذن للعرب قاطبة فى لغة الـكتاب والحديث ولعزة الجنس وشدة الحفيظة على كرائم المنمنات وتاريخ لفتح الممالك وفتح العقول ملألأ كرأد الضحى وأخلاق عليها سلام الله .

ولذلك تتماوج أرض العرب اليوم بمجد واحد العرب وحبه وتتجاوب الأصداء فيه على رمل البيد وبنت الجبال وعلى كل شاطىء وخليج من مطلع الشمس فى الزرقة المشرقية إلى محطتها فى الضحى عند حدود الصحو .

ويقول وصفى قرنفلى : إن عقيدتى الشخصية أن محمداً رسول الله (ص) كبقية الرسل ، وكما جاز للمسيحيين أن يجمعوا للمسيح صفتى الألوهية والإنسانية المتمازتين فقد يجوز لى أن أرى فى سيد قريش نبيا دينيا ومنقذاً قوميا فى آن واحد .

فأنا أحترمه كنبي جاءنا بالهدى والرحمة وأنضوى إلى لوائه كنقذ لهذا الشرق من أسار الفرس والرومان . وأنا أرى فى الدين الإسلامى قوة للشرق فى جهاده القومى يجب استغلالها وإذا لم يكن للقرآن من يد إلا صيانة لغتنا واللغة أجل مظاهر القومية — لكفاه ذلك فضيلة تحمد ويدا تشكر .

إننى مسيحى كما يجب أن أكون ، ولكنى لا أرى فى مسيحيتى ما يمنعنى من الاعتراف بهدى محمد ويده على الإنسانية والعرب :

قد يقولون شـــاعر نصرانى — يرسل الحب فى كتاب البيان
كذبوا والرسول لم يجر يوما — بخلاف الذى أكن لسانى
أو عار على فتى يعـــربى — أن تغنى بالسيد العـــدنانى
أوليس الرسول منقذ هذا الشرق من ظلمة الهوى والهوان
أفكنا لولا الرسول سوى العبد ان بئست معيشة العبدان
أوليس الوفاء أن تخلص المنقذ حبا إن كنت ذا وجـــدان
فالتحيات والسلام أبا القاسم تهدى إليك فى كل آن

وفى مصر كتب الدكتور نظمى لوقا كتاب الرساله والرسول صور فيه عظمة النبى العربى «محمد» (ص) على نحو آخر أقرب إلى المعنى الانسانى منها إلى المعنى العربى الخالص .

— ٨ —

الاستشراق

وأثره فى الفكر العربى المعاصر

عمل المستشرقون فى مجال البحث العلمى منذ عهد باكر ولعل «بروكلمن» هو أول من عمل فى هذا الميدان عام ١٨٩٠ وقد كان المبشرون قد سبقوا إلى العمل فى هذا الميدان . ولا شك أن عمل المستشرقين له صلة كبرى بالاستعمار وبأفكار التغريب والتجزئة . ويعطى كتاب « وجهة الإسلام » صورة واضحة لهذا . إذ أن مؤلفيه من المستشرقين كانوا يستهدفون به جمع الحقائق وتصوير الواقع فى العالم الإسلامى كله ومدى ماوصلت اليه حركة الاستغراب والعوامل التى تساعد على ذلك ولاشك أن معالجة مثل هذه القضية من شأنه أن يؤكد دور المستشرقين فى عمليات تمزيق الصف العربى وقتل الروح المعنوية .

ولامانع مع هذا أن يكون المستشرقون قد قاموا بأعمال هامة فى محيط الفكر العربى كانت كلها منصبة على إحياء بعض المؤلفات القديمة .

وكل الاتهامات التى وجهت إلى العرب وإلى المسلمين كان مصدرها المستشرقين [1] . كما أن الآراء التى رددها الكثيرون أمثال طه حسين وهيكل أو غيره والتى كانت ترمى إلى التجزئة وأحياء الأمجاد الوطنية الضيقة ومحاربة القومية العربية وما ذكره طه حسين فى كتابه فى الشعر الجاهلى وغيره من المؤلفات وما ردده عن العقل اليونانى وتأثر العقل العربى به كل هذا كان مصدره ما كتبه المستشرقون وسار وراءهم فيه الكتاب الذين « آمنوا » بالنزعات الغربية ولم يعودوا مرة أخرى إلى ايمانهم بالعرب .

وقد حوت دائرة المعارف الإسلامية اخطاءاً كثيرة متعمدة تناولت بعض كتب هؤلاء المستشرقين الرسول الكريم بالطعن الجارح ، وكما تضمنت بعض

(١) الهلال (يناير ١٩٣٤)

التقارير الأساليب التى أشار المستشرقون على دولهم باستعمالها فى محاربة اللغة العربية وصرف الناس عنها باحياء اللهجات المحلية واللغات العامية حتى لا يفهم المسلمون كتابهم ويمكن التغلب على عواطفهم .

والمعروف – كما يقول الدكتور حسين الهراوى [١] – ان المستشرقين جماعة من مدرسى اللغات الشرقية فى جامعات أوروبا . وأنهم يربون طلابهم تربية استعمارية ليعملوا فى المستعمرات. وكان لا بد لهذه الجامعات أن تعلمهم وفق أسلوب يضمن لها قومية هؤلاء الطلبة ويحذرهم من العطف على الشرق أو الميل للاسلام.

ويقول الدكتور الهراوى : كنت أعلم أن المستشرقين تنقصهم فى مباحثهم عن الإسلام واللغة العربية الروح العلمية وأن لهم فى الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم وهى أنهم يفرضون فرضا ثم يتلمسون اسبابه ، ولذلك لم أتوان أن أناقش « فنسنك » رئيس تحرير دائرة المعارف الإسلامية هذا الحساب وان أظهر مساوئه لأنه كرئيس تحرير لهذه الدائرة يعتبر له قيمة ولا بأس أن تناقشه فى ميدان العلم مناقشة علمية واضحة وأن نظهر أن طريقة المستشرقين فى البحث طريقة شعوذة فلا يحترم آراءهم بعد اليوم أوربى ولا شرقى وإذا ما خلعنا عنهم تلك الزخارف البراقة فهم قوم ضعاف فى العلم لهم فى الإسلام واللغة العربية مآرب سيئة وقد حاول الدكتور زكى مبارك [٢] أن يدافع عنهم فقال « قالوا إن المستشرقين طلائع الاستعمار وهذا صحيح ولكن المستشرقين لا يستطيعون أن يقضوا أعمارهم جميعاً وهم أدوات استعمارية وهم يتحولون مع الزمن إلى علماء وتكون النتيجة أن تضعف فيهم النزعه الاستعمارية وتغلب عليهم النزعة العلمية . . » ولا شك أن هذا القول لا يمكن قبوله الا بتحفظ شديد ويقول الدكتور صلاح الدين المنجد [٣] لقد نشر المستشرقون مئات من

---

(١) من المستشرقين الذين اشتغلوا بالدراسات العربيه والاسلاميه جب وبركلمن وتلينو وشخت وكريمر ومرجليوس وبردان ونولدكة وجويدى (٢) الهلال . يناير ١٩٣٤

(٣) مقدمة كتابه « المنتقى من دراسات المستشرقين »

كتبنا القديمة ووضعوا مئات من الدراسات عن تاريخنا فيسروا لنا بنشرهم العلمى لكتب كثيرة أن نطلع عليها وننتفع بها . وكان هؤلاء المستشرقون ضروبا ثلاثة : فضرب لم يملك ناصية اللغة فاخطأ فى نشر الكتب وفى فهم النصوص ولكنه حفل بامور شكلية لا فائدة لنا منها وضرب أثرت فى دراساتهم مآرب السياسة والتعصب للدين فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم وبما يسمون اليه ولعل هذا الضرب الذى دفع الشرقيين من المسلمين العرب أن يرتابوا بالمستشرقين جميعاً لأن من المؤسف أن يسخر هؤلاء العلم الذى يسمو به الإنسان لاذلال الإنسان واستعباده أو الطعن على تراثه القديم بغير الحق . ولكن فريقا ثالثا أوتى الكثير من سعة العلم والتمكن من اللغة والإخلاص للبحث والتحرر والانصاف فكانت دراستهم مثمرة » ولعل أكثر من تأثر بالمستشرقين لدينا مثل طه حسين وزكى مبارك ومحمد كرد على وقد كتب محمد روحى [1] فيصل رداً على « محمد كردعلى » يعد وثيقة تاريخية عن الاستشراق والمستشرقين جاء فيه : يقول محمد كرد على اننا مدينون لعلماء المشرقيات من الهولنديين والجرمانيين والفرنسيين والبريطانيين والإيطاليين والاسبانيين بما تفضلوا به علينا من نشر أسفارنا ولسنا ننكر أن بين المستشرقين طائفة معتدلة قد أخلصت فى دراستها الاخلاص كله فنظرت إلى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى والى كل ما انتجه الشرقيون من دين وعلم ولغة نظرة مجردة عن الهوى . إلا أن أفراد هذه الطائفة إذا عدوا لا يتجاوزون عدد الأصابع وهم إزاء هذه الفئة الهائلة المغرضة من المستشرقين لا يذكرون شيئا ولقد كان الباعث الأصلى للاوربيين على تعلم اللغة العربية دينيا محضا وقرروا أمر العرب وادركوا سريعاً أن هؤلاء القوم الفاتحين انما يريدون الإستيلاء على أوروبا ولذلك عقدوا مؤتمرا كبيرا فى فينيا عام ١٣١١ ميلادية ترأسه البابا كليمان الخامس وقرروا أن تؤسس فى باريس وبولون واكسفور وسلمنكة مدارس خاصة تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخريج وعاظ اشداء يستطيعون تنضير المسلمين واليهود او تشكيكهم فيما يؤمنون به .

(١) الرسالة : ١٩ أغسطس ١٩٣٥

وأنشأ الدومنيكان والفرنسسكان فى أديارهم دروساً فى هذه اللغات فغدت ايطاليا فى ذلك الوقت موطن علم المشرقيات فانتشرت العربية بين الطليان انتشارا عظيما وعقب اختراع الطباعة كان قانون ابن سينا أول كتاب عربى طبع فى روما . ثم غدا الاستشراق يخدم السياسة بعد أن كان يخدم الدين ونلاحظ فى هذا الطور الجديد تأليف الجمعيات فى مختلف المدن الشرقية أنشأ المستشرقون جمعيات فى باتافيا ١٨٧٨ والبنغال ١٧٨٤ وبومباى ١٠٨٥ وقد بذلت الجمعية الأسيوية فى باريس ١٨٢٢ جهودا جبارة فى دراسة الشرق ولغاته وتاريخه ولا سيما اللغة العربية والعقلية العربية والثقافة العربية وما يتصل بذلك كله من دين وفلسفة وعلم وأدب والمجلة الأسيوية أثر من آثار هذه الجمعية .

وقد كان المستشرقون على اتصال دائم بوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات وإن هذه البعثات التى يقومون بها إلى بلاد الشرق بين حين وآخر ليست هيئات علمية كما يزعمون تقصد وجه العلم خالصاً وإنما هى فى الحقيقة بعثات سياسية مصدرها هذه الرؤوس الفكرة الماكرة الجاثمة فى الوزارتين المذكورتين تطوف باسم العـــلم معقبة باحثة حتى إذا ما ملأت حقائبها بما تريد عادت إلى وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات فاذا نظرنا إلى بحوث المشرقيات التى خطوها عن الأدب العربى والعقلية العربية وفلاسفة العرب استخرجنا من ثناياها براهين جمة تبين لنا بوضوح كيف تندفع هذه الطائفة وراء الهوى والغرض لتثبيت قضية من القضايا على أساس تجاهل الواقع وطمس الحقيقة . هذه نظرية السامية والآرية التى يؤمن بها أغلب المستشرقين والتى تصبغ دراساتهم بلون خاص تصف العرب والجنس الشامى على العموم بأنهم قوم غرباء عن العلم والفلسفة لا يحسون بالجمال والفن ولا يعرفون ما يسمى بالأنظمة السياسية والمدنية (ارنست رنيان - كتاب تاريخ اللغات السامية) والمستشرق مهما تضلع فى اللغة العربية وأخذ من الثقافة الأدبية وتغلغل إلى الروح الإسلامية فلن يدرك أبدا غاية الأدب وأثره وحدوده . ولن نستطيع بحال من الأحوال أن يتذوق جمال قطعة أدبية أو قصيده فنية على نحو ما يتذوقها العربى .

٩ ـ الترجمة فى الأدب العربى المعاصر

كان للترجمة دورها الهام فى معركة المقاومة والتجمع والفكر العربى المعاصر عامة فقد أمكن وضع مصطلحات للطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والهندسة والنبات والحيوان والجيولوجيا والبيولوجيا وعلم النفس والتربية والفلسفة، كما أمكن وضع معاجم متعددة كان من أهمها معجم الأمير مصطفى الشهابى للالفاظ الزراعية كما ترجم الدكتور مرشد خاطر والدكتور حمدى الخياط والدكتور صلاح الدين الكواكبى (سورية) معجم كلرفيل الطبى . وترجم سليمان البستانى الألياذه من اليونانيه كما ترجم عدد من الكتاب السوريين والمصريين القصص المختلفة من الفرنسية والانجليزية وفى مقدمة هؤلاء طونيوس عبده الذى ترجم ٦٠٠ كتاب وقصة وترجم ٤٨ قصة كبرى والياس فياض الذى ترجم ٢٥ مسرحية وأبو خليل القبانى الذى ترجم ٦٠ مسرحية ونقولا الحداد وأديب اسحق ونجيب حداد ومحمد عثمان جلال . بدأت الترجمة منذ أوائل القرن التاسع عشر وقد جاهد المترجمون القدماء كثيرا فى سبيل الحصول على الألفاظ العربية المقابلة للالفاظ الأجنبية ومن أوائل المترجمين رفاعه رافع الطهطاوى أول مبعوث مصرى إلى أوربا ١٨٢٦ وقد فترت البعثات ثمه ونشطت بعد ذلك ولكنها بلغت ذروة نشاطها ١٩٢٢ .

أما فى سوريه ولبنان فقد اتسعت حركة الترجمة نظراً للروابط التى قامت بين الأقليات المسيحية فى سوريا ودوائر روما واستانبول ، وقد بدأت بالكتب العلميه ثم انتقلت إلى الكتب الأدبية البحتة . وبعد إنشاء الجامعة المصرية سافر المبعوثان إلى أوربا وظهر جيل جديد مثقف بالآداب الغربية وفى هذه المرحلة ترجم

لطفى السيد بعض مؤلفات أرسطو كما ترجم طه حسين والمازنى وكانت الجامعة السوريه ذات أثر ضخم فى وضع المصطلحات العلميه المختلفة . وكان للاساتذة الأجانب الذين عملوا فى الكليات والارساليات فى لبنان أوائل هذا القرن أثرهم الواضح أمثال الدكتور كرنيليوس فنديك والدكتور جورج بوست ويوحنا ورتبات .

• وهذا ثبت بأسماء أعلام الترجمة فى هذه الفترة :

رفاعه رافع الطهطاوى ، فرنسيس المراش ١٨٣٦ — ١٨٧٣ ، جمال الدين الأفغانى ١٨٣٩ — ١٨٩٧ ، عبد الله نديم ١٢٦١ — ١٣١٤ هـ ، الكواكبى ١٨٤٦ — ١٩٠٢ ، أديب اسحق ١٨٥٦ — ١٨٨٥ ، يعقوب صروف ١٨٥٢ — ١٩٢٧ ، فرج أنطون ١٨٧٤ — ١٩٢٢ ، نقولا حداد ١٨٧٢ ـ ١٩٥٣ ، مصطفى كامل ١٨٨٤ — ١٩٠٨ ، أمين البستانى ١٨٥٤ — ١٩٣٧ ، سليم البستانى ١٨٤٨ — ١٨٨٤ ، أمين الريحانى ١٨٧٦ — ١٩٤٠ ، رشيد رضا ١٨٦٥ — ١٩٣٥ ، جميل نخله المدور ١٨٦٢ — ١٩٠٧ ، جبران ١٨٨٣ — ١٩٣١ ، الشدياق ١٨٠٥ — ١٨٨٧ ، محمد عبده ١٨٣٤ — ١٩٠٥ ، وجرجى زيدان ١٨٦١ — ١٩١٤ ، المنفلوطى ١٨٧٦ — ١٩٢٤ ، الريحانى ١٨٧٩ ، إيليا أبو ماضى ١٨٨٩ ـــ ١٩٥٧ ، ناصيف اليازجى ١٨٠٠ - ١٨٧٦ البارودى ١٨٣٩ — ١٩٠٤ ، إسماعيل صبرى ١٨٥٤ — ١٩٢٣ ، شوقى ١٨٦٨ — ١٩٣٢ ، حافظ ١٨٨١ — ١٩٣٢ ، خليل مطران ١٨٧١ — ١٩٤٨

ملامح الأدب العربى الحديث

عصارة البحث

لأول مرة فى تاريخ الأدب العربى المعاصر يكتب تاريخ هذه الفترة بطريقة موحدة مندمجة شاملة تتمثل فيها « الوحدة الحقيقية » لتيارات الفكر فى المنطقة كلها . هذه المنطقة التى تمتد من المحيط إلى الخليج أو من العراق إلى المغرب وقد كانت جميعها تحت السيادة العثمانية ثم وقعت جميعها فى قبضة الاستعمار . وقد بدأ ذلك عام ١٨٣٠ عند ما احتلت الجزائر وكانت قد سبقت ذلك محاولات لاحتلال مصر ١٧٩٩ بواسطة الحملة الفرنسية (نابليون) و١٨٠٧ بواسطة الحملة البريطانية (فريزر) ولم يمض بعد ذلك أكثر من ربع قرن حتى سقطت الجزائر فى قبضة الاستعمار الفرنسى وتوالت البلاد العربية ولم تلبث أن أسفرت الحرب العالمية الأولى عن خطة شاملة تم بها إحتلال أجزاء المنطقة كلها ماعدا الحجاز واليمن فقد ظلتا محتفظتين باستقلالهما . وفى خلال المرحله الأخيرة من الحكم العثمانى بدأت المقاومة لهذا الحكم الاستبدادى الذى كان يمثله السلطان عبد الحميد فى خلال فترة أربعين سنة (١٨٦٨ — ١٩٠٨) ثم يمثله حكم الاتحاديين بعد سقوط عبد الحميد وصدور الدستور وقد كان اتجاهه أشد قسوة من حكم عبد الحميد لأنه استهدف تتريك العناصر الداخلة فى الدولة العثمانية والقضاء على القومية العربيه . وقد واجه العرب فى المشرق (الشام والعراق والحجاز) هذا الحكم وقاوموه وكانت مصر موئلا للأحرار الذين طاردهم إستبداد العثمانيين وكانت صحافتها لسان صدق فى هذا المجال . ولم يلبث العرب أن تحرروا من السيادة العثمانية حتى سقطوا فى قبضة الاستعمار البريطانى والفرنسى والايطالى والأسبانى وهنا بدأت مقاومة أخرى أشد قوة كان للأدب : نثراً وشعراً وقصة وللصحافة وللكتاب أثرها البعيد فى هذه المعركة على النحو الذى صورناه

فى هذه الصفحات . ولقد قام الأدب العربى فى هذه المرحلة الضخمة بدوره كاملا . فهو فضلا عن أنه إستجاب للتطور وتمثل مختلف الألوان التى عاشها الأدب العربى فى تاريخه الطويل فانه قد ابتدع الأدب الوطنى الذى حمل لواء المقاومة للاستبداد العثمانى ولطغيان الملوك والأمراء والحكام ثم قاوم الاستعمار نفسة ونادى بالتجمع والوحدة وكشف عن إصالة الأمة العربية وقدرتها على المقاومة وكان هذا الأدب نشيد الثورات المتوالية التى لم تتوقف فى خلال قرن وربع قرن . وكان الصوت المدوى الذى يهز القلوب ويدفع الجموع إلى الاستشهاد والفداء وعندما نستعرض هذه الصورة التى رسمناها — لقرن وربع قرن من أدب المقاومة والتجمع نجد أن هناك عوامل موحدة تنتظم المنطقة كلها : إيمان بالحق الطبيعى فى الحرية . أصرار على المقاومة . صيحات عالية مدوية للتجمع . قلوب تخفق وتتلاقى من أنحاء الوطن العربى تستطيع بايمانها أن تقاوم كل حلقات الارهاب التى قام بها الاستعمار وحركات التغريب وأساليب التمزيق ومؤامرات التضليل . كان الشعر ينفث السحر ويهز القلوت ويدعم الروابط . كانت الأمة العربية تتنادى من المحيط إلى الخليج ويتجاوب. ولعل الأدب العربى لم يتأثر بمأساة أو حدث كما تأثر بمأساة فلسطين فصور حقيقة الغدر الغربى وحمل صورة الحقد والثأر وعبأ الشعور وكان مفتاح اليقظة التى شملت العرب العرب والينبوع التى تفجرت منه عواطف الكتاب والأدباء ووحياً وإلهاما للشعراء . وقد صور هذا الأدب أكبر أثرين خلفتهما النكبة وهما ضياع فلسطين والنارحين كما رسم صورة الشوق والحنين بذكر الوطن وأبرز صورة «العودة» والايمان بها والإعداد لها ؛ فاذا تساءلنا ماذا يمكن أن يعطيناهذا العرض التفصيلى من ملامح الأدب العربى من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى فى خلال قرن ونصف قرن من الزمان وجدنا أنه يعطينا صورة عقل « الأمة العربية » وعاطفتها فى أدق مرحلة من مراحل كفاحها وصراعها وإثبات شخصيتها ، ذلك أن هذه الفترة

منذ بدأ الاستعمار يغزو العالم العربي (١٨٣٠) حتى اليوم تمثل إحدى الملاحم الضخمة التي خاضتها الأمة العربية في مقاومة مطامع المغيرين الذين كانوا يتطلعون دائما إلى هذه المنطقة ليضعوا أيديهم عليها . وهي حلقة من حلقات الصراع بين العرب وخصومهم سبقتها ثلاث ملاحم ضخمة : هي التتار والصليبيين والعثمانيين . وفي كل ملحمة من هذه الملاحم كانت الأمة العربية تقاوم بكل قوتها معتزة بشخصيتها وتاريخها وموقعها وتراثها الثقافي ومكانتها الروحية . ولقد كانت الملحمة الرابعة (الاستعمار الغربي الحديث) من أضخم هذه الملاحم من غير شك ، نظراً لتضخم السلطان العسكري للغرب الذي اكتشف البخار ودخل دور الصناعة الحديثة باختراعاتها وكشوفها وسلطانها المادي في الوقت الذي غفل فيه العرب عن القوة فاكتسحوا بالغدر والخيانة والمؤامرة . وقد صور الأدب هذه المؤامرة الضخمة وكشف عن طريق النثر والشعر والمقال والقصيدة والصحيفة والكتاب والخطابة عن عمليات الإبادة التي قام بها الاستعمار في ليبيا والجزائر وفلسطين وكان القوة الدافعة التي تجمع الجموع وتدفع المجاهدين إلى الصفوف الأولى وتستطيع هذه الصورة أن تعطينا عدداً من الحقائق التي تكشف من جوهر الأمة العربية . فقد كان الأدب (شعره ونثره) هو ديوان العرب وكانت اللغة العربية هي قوام هذه الرابطة الضخمة : رابطة القومية العربية على العصور . وقد حاول الاستعمار في تجربة ضخمة حشد لها كل قواه وجند كل إمكانياته وعلمائه القضاء على هذه اللغة وإبدالها باللهجات المحلية سعيا وراء جعلها لغات أقليمية ولكن دون جدوى فقد ذهبت جهوده إدراج الرياح وبقيت الأمة العربية ملتفة حول سارية عالية لاسبيل إلى تحطيمها وظلت اللغة العربية — التي كانت قد ضعفت في أواخر العهد العثماني — تنمو من جديد وتتجدد وتنصقل وتتطور على ألسنة الشعراء وأقلام الكتاب ترسل الصيحات المدوية فتعبىء المشاعر وتحفز الهمم . وكانت العربية شرارة الثورات

المتوالية التى انفجرت فى العالم العربى وتوالت وتتابعت ولم تتوقف وكانت زاد الشهداء الذين قدموا أرواحهم فداء للفكرة العربية . وقد كان أبرز مظاهر الأدب العربى الحديث فى هذه الفترة؛هذا اللون الوطنى — ولا أقول السياسى — الذى أطلقنا عليه أدب « المقاومة والتجمع » فقد ساد هذا اللون وطغى واتسع نطاقه وكان أبرز الألوان وأقواها وأشدها إصالة،وحملته الصحافة فى الأغلب فكانت رسالته وحمله الكتّاب ونقلت هذه الآثار من الأوطان المضيق عليها إلى غيرها ممن كانت أكثر حرية . بل انتقل الأدباء أنفسهم وهاجروا من مناطق الظلم . ولم يقف أمرهم عند هذا بل قدموا الضحايا،شهداء من أهل القلم وسجناء ومهاجرين ومشردين . وتستطيع من هذه الصورة التى عرضناها أن ترسم جانبا ضخما من أهم جوانب الأدب العربى فى قرن ونصف قرن ، يتمثل فيه صدق الإحساس وإصالة العاطفة ووضوح الإيمان بالقومية العربية . وفى الوقت الذى كان الاستعمار فيه يضغط على الحدود المصطنعة أو يدفع المذاهب التغريبية فى محاولة للحياة ويوجه صنائعه من حكام الأقطار ليضاعف من قسوة التجزئة ، ويضع بذور الفتنة والشقاق بين قطر وقطر ، كانت قصيدة واحدة تحمل معنى الإخوة العربية والمقاومة والتجمع كافية لأن تجعل هذه السدود كلها تنهار وهذه الحصون كلها تتحطم .

فقد تهتز لها القلوب فتجرى على الألسنة وتتناقلها الركبان . . فإذا أردنا أن نصور التيارات الفكرية التى كانت تصطرم فى المنطقة فلا شك أن الدعوة الوهابية كانت منارا قويا للحركة الفكرية وكانت مقدمة لرسالة جمال الدين الأفغانى وما تلاها من حركات فكرية حملت رسالة الأدب والثقافة فى المهدية السودانية والسنوسية الليبية وخير الدين التونسية والألوسية العراقيـة ودعوة الكواكبى فى مصر وهى عندنا قمة الحركات الفكرية الداعية إلى الحرية المقاومة للاستبداد العثمانى الهادفة إلى العودة إلى المنابع الأولى للعقيدة . وهى أن تكن ضففت

فى مسقط رأسها فقد ظلت شديدة الأوار فى المشرق والمغرب على السواء . وكان الشعر بالطبع أبرز من النثر أثراً فقد هاجم شعراء العراق والشام الاستبداد العثمانى ثم اتجه الشعر إلى مقاومة الاستعمار الفرنسى والبريطانى فى مختلف أنحاء الوطن العربى . وقد كان الوجود السياسى للعرب سبيله الأدب كتابة وشعرا وخطابة (فلم يكن العرب بمدافعين عن وجودهم إلا باللغة العربية فى مقالات وقصائد ومطبوعات أثارت نوازع الحمية العربية وأطلقت الألسنة والأقلام) وقد قاوم الشعر العربى مقاومة فعالة ودعا إلى التجمع واضطر الشعراء إلى أن يكسبوا سخط الحاكمين وعداوتهم ومن هؤلاء الزهاوى والرصافى فى العراق كما هاجر من أجل ذلك الكاظمى من العراق إلى مصر وفى الشام فؤاد الخطيب وشفيق جبرى واليازجى من قبل وشكيب ارسلان الذى اضطره الاستعمار إلى الهجرة وقد ارتقت لغة الكتابة بعد التحرر من سلطان الأتراك واستهدف الأدب العربى : القومية العربية بدلا من الوطنية العثمانية وأفاد الأدب العربى من الأساليب الحديثة فى الأدبين الفرنسى والإنجليزى . وكان إعلان الدستور العثمانى (١٩٠٨) فى العراق والشام والحجاز إعلانا لتطور الأدب العربى من الأسلوب التقليدى إلى دعوة الحرية ومهاجمة الاستبداد مع الحماسة وذكر البطولة والاشادة بالأمجاد والدعوة إلى النضال وكما أنشأ طاهر الجزائرى المدارس العربية فى الشام أنشأ عبد الحميد بن باديس المدارس العربية فى الجزائر لمقاومة التيار الفرنسى الذى كان يحمل سموم التغريب . فقد حمل الاستعمار الفرنسى معه مؤامرات التجنيس والتجزئة ، والفصل بين العرب والبربر والأدماج وحاول فى كل واحدة من هذه المؤامرات ما وسعته المحاولة . فعل ذلك فى تونس ومراكش والجزائر والشام . وفعلت ذلك إيطاليا فى ليبيا وانجلترا فى مصر والسودان وفلسطين والعرق وقد رفض البربر الذين كانوا قد امتزجوا مع العرب هذا الاتجاه وتمسكوا بوحدتهم مع العرب

وسقطت سياسة الادماج بعد أن عجزت سياسة التجنس وكانت سياسة التغريب أكثر فشلا . وحاولت فرنسا احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية ، فلما عجزت حاولت احلال الفكر الغربى المنحرف محل الفكر العربى . ثم دعت إلى محاولة بعث أمة مغربية تقوم على فكرة الجنس البربرى ثم حاولت تشويه رسالة الإسلام واتهمته بأنه يتنافى مع العلم والترقى . ثم عمدت إلى القضاء على كل مقومات النهوض بالأمة ولكن « الأدب العربى » الذى حملته الصحافة كان أداة قوية للقضاء على هذه المؤامرات جميعاً فقد قامت الصيحات فى كل أنحاء الشمال الافريقى يقول « نريد أن نتعلم إنسانيتنا لا إنسانية الآخرين » وإننا « لا نعتبر أنفسنا أحراراً إلا إذا حررنا فكرنا من اللغة الأجنبية وحررنا كلماتنا من الدلالات الأجنبية » .

وبالرغم من القيود التى فرضها الاستعمار الفرنسى على الثقافة فان الشمال الافريقى كله قد سبق إلى توجيه الثقافة العربية عمليا عندما ولى أبنائه شطر الأزهر فى الوقت الذى قصر فيه المشرق عن الالتقاء بالمغرب وقاومت جمعية العلماء فى قسطين ووهران الثقافة الفرنسية مقاومة جباره ، وكان باديس والابرهيمى والعقبى أقوى عقبة وقفت فى وجه مؤامرات التغريب . ودليل ذلك أن فرنسا قاومت تعليم اللغة العربية فى الجزائر ١٢٦ عاما مقاومة عنيفة ، لا يوجد الآن فى الجزائر من يتكلم غير العربية أكثر من ١٠ فى المائة من العرب . وقد اضطر مفكرو الغرب إلى الاعتراف بفشلهم فى القضاء على الوحدة بين أجزاء المغرب الثلاثة .

ولم تفلح كل الوسائل الفرنسية فى تحويل أذواق الجزائرين عن اللون العربى الخالص . وقامت الزوايا والكتاتيب بأخطر مهمة فى تاريخ اللغة العربية وهى حفظها من اللهجات ، وحاولت فرنسا أن تجعل من المثقفين الذين تعلموا فى فرنسا عملاء لها . أو أنصار لثقافتها ولكنها فشلت أيضاً فقد تكشف لهؤلاء انهيار القيم الإنسانية فى نظر الاستعمار الفرنسى فاندفعوا إلى صفوف المجاهدين لمقاومة

ثقافة فرنسا التي تطمع في « تغريب العرب » . وكانت الصحافة في تونس والجزائر ومراكش وليبيا ، والصحف السرية أيضاً عماد هذه المقاومة تحمل المقالة والشعر وبذلك أفلتت الشخصية العربية من محاولة القضاء عليها بالرغم من جميع وسائل العسف والقمع وبانت أهداف الأدب العربي واضحة بأنها الدعوة إلى الوحدة والوطنية والتحرر من الأفكار الاستعمارية . وكما شارك الشعر العربي في الجزائر وتونس ومراكش وليبيا في معارك فلسطين شارك الشعر العربي في الشام ومصر والعراق في معارك الجزائر . واليوم يقف الأدب الجزائري وراء الثوار يؤجج عواطفهم . وآب إلى القومية العربية محمد ديب ومولود معمري ومولود فرعون من كتاب الجزائر الذين تأثروا بفرنسا أول الأمر والذين ما زالوا يكتبون بالفرنسية : يقول محمد ديب « نحن معشر الرجال في جبالنا هذه يجب أن تقف البلاد بأسرها وتبصق احتقارها في وجوه الطغاه » . وقد تأثر المغرب العربي كله بجمال الأفغاني والعروة الوثقى وكان قبادو والزيتونة والصادقية والخلدونية في تونس أدوات القوة الفكرية التي حملت دعوة المقاومة للتمزيب والاستعمار كله . وكان الثعالبي وعلى باش حامبة والبشير صفر صحفيين حملوا أقلاما مؤمنة صادقة دافعت عن الأمجاد العربية ودعت إلى المقاومة والتجمع . وقد تأثر المفكرون في أقطار الشمال الأفريقي بالأدب العربي في مصر وأثار جمال الأفغاني ومصطفى كامل والمويلحي وحافظ وشوقي . وهبت في وقت واحد محاولات لاحياء التاريخ العربي القومي وتجمعت الأمة بعد أن تفرقت ودعمت كيانها القومي ثم تداخلت عناصرها فان ما حدث في الجزائر حدث مثله في تونس . ونشر الثعالبي مقالات وطنية نارية هاجم فيها فرنسا — وهو التونسي — في صحف مصر وسوريا والعراق والحجاز والهند وكانت هذه المقالات تترجم إلى الفرنسية وتنشر في صحف تونس . كما نشرت في صحف مصر مقالات نارية وقصائد من العراق

وسوريا فى مهاجمة الاستبداد العثمانى . وترابطت الأفكار والأقطار فكان للرصافى شاعر العراق فى تونس مكان مرموق . وكان لشوقى فى الشام ولحافظ فى لبنان مكانة بارزة ولقد مساله « التجنيس » فى تونس من أبرز القضايا الفكرية فى تاريخها الطويل وكان للصحافة فى تونس أكبر أثر فى توسيع دائرة الحركة الفكرية وكان للجمعية الخلدونية أثرها فى التجاوب مع الشرق العربى فى جميع أحداثه ومواقفه فقد احتفلت بشوقى وحافظ وعززت مواقف جهاد فلسطين وضرب دمشق بالقنابل وأحداث مصر والعراق . وكان قوام الأدب العربى فى هذه المرحلة الإيمان بالحياة والأرض والحرية وأبان الانتاج الفكرى عن عمق الإيمان بالوطن . وبرزت فيه صورة التطلع إلى المستقبل بروح الأمل والتفاؤل وتأكيد الروابط بين أقطاره مع تأكيد الوحدة العربية الكبرى . وكما ذهب شكيب ارسلان من لبنان فأقام فى جنيف . ذهب الثعالبى من تونس إلى مصر والبشير السعداوى من ليبيا إلى دمشق وكانت مصر بالنسبة لليبيا مركزا لمقاومة للايطاليين وكانت من قبل بالنسبة لسوريا مقر الجمعيات السرية لمقاومة العثمانيين . وقد تجاوبت مصر وسوريا وتونس وفلسطين وحملت صحافتها لواء الدفاع عن ليبيا وكشفت جرائم الاستعمار الإيطالى وفى الوقت الذى أوصد الاستعمار الإيطالى أبواب ليبيا عن الكتب والصحف العربية كان الشباب الليبى نفسه يندفع ليربط نفسه بالفكر العربى مهاجرا وقد فرضت ليبيا تعلم اللغة الإيطالية وقاومت اللغة العربية حتى إنها أودعت السجن مجموعة من الشباب كانت تقرأ كتاب العبرات للمنفلوطى . كما أن صحف الاستعمار أخذت تذيع الأفكار المدمرة للعقل العربى فضلا عن أنها أشعلت النيران فى المكتبات العربية الضخمة وساقت الجماهير ليشاهد وأد ثقافتها ولكن هذا لم يطفىء جذوة النضال ضد المستعمر بل زادها اشتعالا ومن وراء صفوف الحرب كانت القصيدة العربية الليبية تهز

المجاهدين وتهدفقهم إلى الاستشهاد وساهم الشعر الليبي فى بث الوعى العربى ولم تشغله معركته الوطنية عن الدعوة للوحدة الكبرى وأضاف المعهد الجغبوبى إلى الأزهر والزيتونه والقروى مزيدا من طلاب الثقافة . وفشلت محاولة إيطاليا فى سحق اللغة العربية وإفنائها وإلغاء تراثها فى ليبيا ولم تستطع ثلاثين عاما من مقام اللغة الإيطالية فى ليبيا أن توهن من اللغة العربية أو تضعف مكانها وفى السودان جرت محاولات لعزل العرب عن البربر ° ومن السودان ومصر جرت المحاولات لعزلها ، ولكن الفكر العربى ارتبط بين مصر والسودان من ناحية وارتبط بين البربر والعرب فى السودان فأصبح من العسير أن تمزق قوة قد امتزجت ولقد لقيت السودان من عنف الاستعمار البريطانى بعد الاستبداد العثمانى مثل ما لقيت مصر ولذلك قاومت فى ثورات متتالية وقد انبعثت فى أنحاء السوداد بعثات بيكر وغردون وجسى وكازاتى تعمل على استئصال جذور الوحدة ومنع الامتزاج بالقوة وقاومت كل زعماء العرب السوانيين الذين يحملون اللغة العربية وقتلوا وطردوا إلى منطقة البحيرات وتجمعت كل هذه الاضطهادات فى اطار ثورة ضخمة تحمل علم المقاومة العربية كانت رد فعل حقيقى عنيف ضد أعمال الابادة والتجزئة . وكانت المهدية كالسنوسية والوهابية حركة سياسية فكرية تهدف إلى المقاومة والتجمع حتى أن المهدى كان يطمع أن يفتدى عرابى المحكوم عليه بالنفى بغردون . ولم تستطع الثقافة الإنجليزية التى حاول الانجليز إقرارها القضاء على الثقافة العربية واللغة العربية بالذات واستطاع السودان أن يستوحى سلالاته وقبائله وماضيه وتراثه دون أن يؤثر ذلك فى روابطه العربية وتأكد إن العناصر البشرية فيه قد امتزجت إلى درجة يستحيل معها الاحتفاظ بفكرة البقاء العنصرى وكذلك حدث فى تونس وليبيا ومراكش والجزائر .

وساهم الشعر السودانى فالنثر السودانى فى أحداث الأمة العربية مساهمة فعالة وتجاوب مع القومية العربية . وبدا فيه عمق الروابط بين مصر والسودان : وحدة الدين واللغة والمصالح المشتركة والمقاومة لكل أسباب الاستبداد والاحتلال وحمل الشعر السودانى كراهية الاستعمار العربى وإستمرار المقاومة وبروز العامل الوطنى الذى التقت فيه الأجناس السودانية . وفشلت مؤامرة القضاء على اللغة العربية فى السودان وفى الجزيرة العربية كانت المقاومة واضحة فى الأدب اليمنى وأدب الخليج

وكان للبترول أثره الاجتماعى والفكرى البعيد المدى ، حيث بدأت المجتمعات تأخذ صورة جديدة ظهرت فى بناء مجموعتين ضخمة من المبانى مع إدخال مظاهر الحضارة الغربية وبعض مخترعاتها النافعة . وفى اليمن أدب يحمل معنى المحافظة على الاستقلال والمقاومة لكل ماهو بسبيل أن يؤثر على الحرية وفى عمان والبحرين وقطر أدب يقطر دما ويصور البطولة والفدائية . وفى الحجاز أدب فيه الاحساس بالبكاء على المجد العربى القديم والدعوة إلى اليقظة والاتجاه نحو المعانى . وفى الكويت أدب فيه قلق فكرى وتطلع إلى الغد . وفى لبنان أدب تمتزج فيه المدرسة اليازجية والجبرانية المنطلقة الشاعرية والأرض هى أقوى أبطال القصة اللبنانية والهجرة أهم موضوعاتها . وفى سوريا أدب فيه إيمان عميق بالقومية العربية والوحدة وفيه تطلع إلى الآفاق البعيدة وأبرز مظاهرة الايمان بالحرية والعروبة وقد قاوم الأدب الشامى صراع اللغة التركية كما قاوم صراع الثقافة الفرنسية . واصطبغ الأدب العراقى بصبغة التمرد على الحياة والضجر من الطبيعة والتافف من الناس وكما وسم بالثورة وسم بالسخط[1] . وقد نافح الأدب العراقى عن الحرية كما نافحت الصحافة العراقية وقدما ضحاياهم كتاب وشعراء سجنوا وشردوا وقتلوا . وقد تنبأ زكى مبارك منذ أكثر من عشر سنوات بأن (العرب مقبلون على تاريخ جديد لاتنهض قواعده بغير

---

(١) اقرأ ص ٢٨٠ .

الأخاء الصحيح ومن أجل هذا تبذل الملايين من الدنانير الأجنبية لتمزيق ذلك الأخاء أو قتله فى المهد) وقد قاسى الأدب العراقى كثيراً فقد كانت الصراحة فى الأدب والتعبير تلقى جزاءها ثمنا غاليا فادحا من المطاردة والحرمان . أما الأدب العربى فى مصر فقد قاوم طغيان أسرة محمد على وخديويها وكانت ثورة عرابى والاحتلال ودنشواى والحماية وثورة ١٩١٩ إحداثا ضخمة تأثر بها الأدب العربى . وقد شرد كتاب مصر ونفوا وسجنوا وقاسوا الإرهاب . وكانت كلمات جمال الدين الأفغانى ومصطفى كامل وعبد الله نديم وعبد الرحمن الكواكبى وعبد العزيز جاويش تهز الشرق كله . وقد هزت أشعار شوقى وحافظ والبارودى والمنفلوطى ضمير الأمة العربية

وقد هاجت الأمة العربية الاستعمار البريطانى والفرنسى والايطالى ومن قبل الاستبداد العثمانى بصحافة مصر ومطابعها وامتزجت عوامل الفكر والثقافة والأدب بين مصر وسوريا وكان للسوريين أثر واضح فى صحافتها وأدبها . وهكذا صور الأدب العربى المعاصر معركة المقاومة والتجمع . صور أدب فلسطين : أدب الدم والثأر وصور أدب المغاربة الأشداء مقاتلوا الجبال وصور الجزيرة العربية بصحرائها ووهادها وجبالها وصور هجره السوريين واللبنانيين من وجه الظلم والمجاعة والاضطهاد إلى أمريكا وإقامتهم هناك يصنعون المجد والثروة ويعودون بها فكان أدبهم هناك ذوب حنين وصيحة إيمان بالعروبة ودعوة إلى التحرر وكان لمجزرة سطيف بالجزائر وميسلون بالشام ودنشواى بمصر رنين فى الأدب وصوت ، وظهر الشعر الاجتماعى يدعو إلى تحرير المرأة ويطالب بالعدالة الاجتماعية . وبالرغم من أن الأدب المحلى ظهر فى مصر وفى لبنان وفى السودان وفى إجراء كثيرة من العالم العربى يحمل الدعوة إلى الوطنية الضيقة ويفاخر بالأمجاد الفرعونية أو الفينيقية أو غيرها فان ذلك قد أصبح على مرور الزمن إيمان بان الأدب الوطنى قد يستمد من مجده الفرعى قوة على الدعوة للمجد العربى الأصيل وأنه حين يتجرد قمته الضيقة

إنما ينظر إليها على أنها جزء من الوطن العربى الكبير ولا شك أن عظمة لبنان هى عظمة للعرب وأن شجاعة سوريا هى جزء من الشخصية العربية وأن إمتزاج الأجناس فى تونس ومراكش والسودان هى حقيقة قائمة وراء الإيمان القوى بالقومية العربية . وكذلك لم يعرف الأدب العربى فى هذه الفترة العزلة والانكماش ولم يعرف السلبية وإنما أمدته هجمات الاستعمار ومؤامرات التغريب ودعوات الانفصالية والتجنيس والتجزئة قوة على أن يحيا ويعمق ويتسع فاستفاد من الأدبين الفرنسى والانجليزى فى الأسلوب والمعنى وفى العرض والأداء . وامتص منهما مازاده قوة فى نفس الوقت الذى ظلت ملامحه الحقيقية واضحة لم يضعفها الامتصاص. وبذلك لم يحقق لدعاة التغريب من العرب مطمعهم فى أن ينتقل من العربية إلى العامية أو من الإصالة إلى الركاكة أو يتنكر لأمجاده ويزدريها أو يستجيب للقومية الضيقة وينفر من التجمع وسافرت البعثات متوالية من القاهرة ومن تونس ومن سوريا ومن لبنان ومن كل انحاء العالم العربى إلى أوربا وعادت دون أن يغير ذلك من فهمها إلا أفراداً قلائل كشفهم العرب ونبذوهم . بل أن الذين ذهبوا إلى أقصى الأرض وعاشوا فى قلب التيار الغربى لم يستطع هذا التيار أن يطويهم فيقول الشاعر القروى فى مهجره (أمتى أنا مكثرا . ووطنى أنا مكبرا . إذا اقتطع ذئاب الاستعمار منه قطعة فكأنما أكلوا جارحة من جوارحى وإذا أهدروا اعربيا فى لبنان أو تطوان فكأنما شربوا نخبة من دمى وكان كل بلد قوى من بلادى ساعدى مفتولا وكل شعب خامل زندى مشلولا ، بل ما أعد ذاتى الأخلية فى جسد أمتى . أنا وحدى من سبعين مليونا من العرب كل واحد منهم أنا . فينبغى أن أحبهم سبعين مليون ضعف حبى لنفسى . من افتدامم فكأنما أحيانى سبعين مليون مرة ومن خانهم فكأنما قتلنى مثلها ... » وهكذا غلبت قوة الأدب العربى الأصيلة على التيارات الضالة التى ما تزال تتردد فى خفوت ، ويحملها عملاء للغرب من العرب يدعون لها بأسلوب

أو بآخر ولكن ليس فى حماسة ما كان فى الماضى ولا فى قوته ونحن نثق بأنه لم يعد ممكنا بعد أن بلغ عمق القومية العربية فى الأدب ما بلغ أن تستطيع هذه المذاهب التغريبية أن تنتصر أو تجد سوقا رائجة ولكن الأدب العربى مع ذلك يجب أن يظل من اليقظة بحيث يواصل معركة المقاومة التى لم تنته ويضرم نارها وصدق الرصافى إذ يقول إننا أمة تدرأ الضيم ولاتستكين قط لوال أو لغاصب .
وأمكن فى خلال هذه الفترة أن تدحض نظريات كثيرة كانت متألقة فى أول القرن فلم يعد صدقا ما قيل من أن الثورة العربية كانت مستقاه من الثورة الفرنسية . وقد مضى عصر الخداع الذى بكى فيه بعض الشعراء العرب على سقوط فرنسا أو آمن به بعض المبعوثين العرب بكلمات فرنسا البراقة بعد أن سمعوا عن مجازر الجزائر . ولم يعد هناك اتجاه إلى الثقافة الفرنسية أو الإنجليزية أو الأمريكية على النحو الذى كان معروفا فى أول القرن فإن مثقفينا يذهبون ويعودون دون أن تتأثر روحهم العربية إلا بما يزيدهم قوة وعمق إيمان بوطنهم العربى.

ساد الأدب العربى المعاصر كله فى خلال فترة المقاومة والتجمع اتجاهين واضحين: التجديد فى الأسلوب والموضوع والتطور مع روح العصر ومقتضيات الزمن ، والمحافظة على القديم والتمسك بالتراث العربى واحتذائه وبعثه . وقد كانت الحرية هى أبرز دعوات الأدب العربى المعاصر ، قال عنها الكواكبى منذ أوائل هذا القرن إنها شجرة الخلد سقياها قطرات من الدم المسفوح وفى كل قصر عربى ظهرت أناشيد كتبتها الأيدى التى قاست الجراح ، وكانت معركة مقاومة إستبداد عبد الحميد وإسماعيل وتوفيق وعباس ودعاه الطورانية من الاتحاديين هى أبرز معاركنا ثم كانت معركة فلسطين والجزائر .

وقد كان طابع الأدب فى أول القرن مزيجاً من التشاؤم والشكوى والدموع والبكاء على الأمجاد ولكنه لم يلبث أن اكتسب الايجابية والإصالة ودخل المعركة

فى قوة وحمل دعوة المقاومة والتجمع وأعلن ثورته على الظلم والطغيان وعلى الاستعمار وأعوانه . ولا شك أن مأساة فلسطين وحدت العرب وكانت بعيدة الأثر فى أدبهم وتاريخهم كله وهى مع معركة الجزائر قد كشفت الغرب على حقيقته وأعطت العرب صورة واضحة لمدى بربرية الحضارة الغربية ومدى كذب الادعاءات التى تحملها الثقافة الغربية من كلمات الحرية والأخاء والمساواة وبذلك إنهارت ثقة العرب فى هذه الثقافة وبطلت بذلك كل دعاوى التجزئة والتغريب ومضى الأدب العربى يستمد قوته من أمجاده يبتعثها من جديد ويضيف اليها أمجاداً وبطولات جديدة .

وبعد فإن غاية القول فى هذا الكتاب أنه كشف عن خطط الاستعمار الفكرية فى التغريب والتجزئة وقد هزمت جميعها وتقلص ظلها وخطط الأمة العربية فى المقاومة والتجمع وقد حققت نجاحا واضحاً قامت على أساسه عوامل البناء للوحدة العربية الكبرى .

ديسمبر سنة ١٩٥٩

انور الجندى